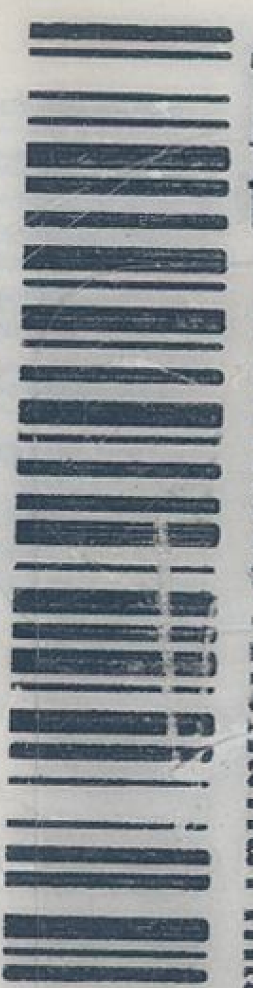
مكتبة
مدبولى

المعتقدات الدينية لدى الشعوب

چفرى بارندر

ترجمة: أ. د/ إمام عبد الفتاح إمام

مراجعة: د/ عبد الغفار مكاوى



المعتقدات الدينية

لدى الشعوب

المعتقدات الدينية لدى الشعوب

تأليف : چفرى بارندر

ترجمة : . إمام عبد الفتاح إمام

مراجعة : د . عبد الغفار مكاوى

الطبعة الثانية

(مزيدة ومنقحة)

١٩٩٦

الناشر

مكتبة مدبولى للنشر والتوزيع

اسم الكتاب : **المعتقدات الدينية**
لدى الشعوب

المؤلف : چفرى بارندر

الترجمة : أ . د . إمام عبد الفتاح إمام

المراجعة : أ . د عبد الغفار مكاوى

مكتب الجمع : آرمس للكمبيوتر

ت : ٣٥٦٤٤٠٤ القاهرة

غلاف : محمد لطفى

الناشر : **مكتبة مدبولى**

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

إهـداء

إلى شباب مصر .....

الذين يمقتون التعصب ... !

إ . ع . إ

مقدمة الطبعة الثانية

عندما ظهر هذا الكتاب منذ ثلاث سنوات [١] أخذتني الدهشة عندما التهمت منه الأسواق العربية أربعين ألف نسخة فى ساعات قلائل ! ولم يكن ثمة سوى جواب واحد عن الأسئلة والاستفسارات التى طرحتها على نفسى ، هو أن القارئ متعطش لمعرفة « ديانات العالم : من التاريخ القديم إلى العصر الحاضر »[٢] ، ولاسيما إذا ما كُتبت بطريقة موضوعية أكاديمية لا يُدخل فيها الباحث ديانته هو ، أو معتقداته الشخصية ، وهذا ما يحققه هذا الكتاب بالمعنى الحرفى للكلمة .

ولابد أن نقف قليلاً عند مؤلف هذا الكتاب « بروفيسور إدوارد جفرى بارندر Prof Geoffrey Parrinder » الذى ولد فى ٣٠ إبريل عام ١٩١٠ ورُسِّم قسيساً فى الكنيسة الإصلاحية عام ١٩٣٦ . وحاضر فى الأديان ، ابتداء من عام ١٩٤٩ ، ثم أصبح أستاذاً للأديان المقارنة بكلية اللاهوت بجامعة لندن ، ثم عميداً للكلية ، وأستاذاً للأديان المقارنة بكلية الملك بجامعة لندن من ١٩٧٠إلى ١٩٧٧ .. إلخ . أما مؤلفاته فهى كثيرة للغاية، وهى تدور كلها حول الأديان المقارنة :

فقد كتب عن « الديانة فى إفريقيا عام ١٩٤٩ » ، وعن « الكتاب المقدس وتعدد الزوجات » عام ١٩٥٠ – « ومدخل إلى الديانات فى آسيا » ١٩٥٧ ـ و«السحر والسحرة » عام ١٩٥٨ ، « وأفكار إفريقية عن الله » عام ١٩٦٠ ، « والعبادة فى ديانات العالم » عام ١٩٦١ ـ و « الدين المقارن ١٩٦٢ » ـ « واليوبانشاد : الجيتا والكتاب المقدس » عام

---

(١) صدر فى سلسلة « عالم المعرفة » التى يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت عام ١٩٩٣ .

(٢) هذا هو العنوان الأصلى للكتاب باللغة الإنجليزية ، وقد رأت هيئة التحرير المشرفة على سلسلة عالم المعرفة فى ذلك الوقت ـ أن تغيره إلى عنوانه الحالى الذى أبقينا عليه .

١٩٦٢ – و « ما الذى تعلّمه ديانات العالم » عام ١٩٦٣ إلخ [1] . وكان آخر ما كتب « أقوال بوذا » عام ١٩٩١ – بعد أن تجاوز الثمانين من عمره !

وعلى الرغم من أن « بارندر » رجل دين أساساً ـ فقد عمل فى الكنيسة فترة طويلة كما كان عميداً لكلية اللاهوت كما ذكرنا – فإنه لم يدخل معتقداته الشخصية أبداً فيما يقول ، وإنما نراه يعرض للديانات المختلفة كما يفهمها أصحابها – لا كما يريد لها أن تكون ـ ولم يتصور أبداً ـ كما هو واضح طوال عرضه للديانات فى هذا الكتاب – أن الديانة التى يعتنقها هى الديانة الصحيحة ، أو أنها المعيار والمحك لكل الديانات الأخرى ، كما أنه لا يقوم بعقد مقارنات عابثة لا معنى لها بين ديانته الخاصة ، وهذه الديانات ، كما لو كان يدخل معها فى مباراة أو تنافس أو مسابقة . إلخ .. وإنما كان المؤلف على وعى تام بأن كل الجماعات البشرية ، تقريباً ، تكاد تتفق على القول بأن عقائد الجماعات الأخرى أحط منها ، فليس اليهود وحدهم هم الذين يعتبرون أنفسهم « شعب الله المختار » ، وإنما الهنود الأمريكيون أيضاً [2] يعدّون أنفسهم « شعب الله المختار » ويذهبو إلى أن « الروح الأعظم » هو الذى خلق هذا الشعب ليكون نموذجاً يحتذى ، ومثالاً يرتفع إليه البشر ! وهناك قبيلة من القبائل الهندية تطلق على نفسها « الناس الذين لاناس سواهم » وأخرى تطلق على نفسها « الناس بين الناس » إلى آخر هذا الفهم البدائى المتخلف للدين ، كما لو أن الدين يمكن أن يكون بدوره موضع تفاخر وتنابذ ! وينسى صاحب هذا الفهم الضيّق أنه ليس له أى فضل فى اعتناقه لهذا الدين أو ذاك ، وإنما هى الظروف الثقافية التى ولد فيها ، والبيئة والتربية التى لقّنته حتى قبل أنه يدرك معنى الدين ، وما يتعصب له من معتقدات ، ولو أنها تغيرت ، لتغيرت المعتقدات التى يتعصب لها ، وهذا ما عبّر عنه الحديث الشريف : « إن الإنسان يولد على الفطرة ، وأبواه يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه » .. والأبوان هنا تلخيص للظروف الاجتماعية والثقافية التى يولد فيها المرء .

---

(١) ومن كتبه أيضاً « ديانات العالم الحية » وكتاب « حول ديانات العالم » عام ١٩٦٥ ، « والمسيح فى القرآن» عام ١٩٦٥ « وأساطير إفريقية » عام ١٩٦٧ ، و « معجم الديانات غير المسيحية » عام ١٩٧١ «والجنس فى ديانات العالم » ١٩٨٠ .

(٢) يطلق اسم الهنود على السكان الأصليين لأمريكا الشمالية ، وهم قوم ليسوا هنوداً ، ولايمتون بصلة إلى الهنود ، ولا إلى حضارة الهند العظيمة ، وإنما هم عشائر بدائية يتألف منها السكان الأصليون لقسم من الدنيا الجديدة ، يبعد بعداً كبيراً عن بلاد الهند .

فالميزة الأساسية لهذا الكتاب : أنه يعرض للديانات المختلفة من زاوية أكاديمية وموضوعية بعيدة عن التقييم ، أو الأحكام الذاتية التى نعانى منها ، وهناك ميزة أخرى لهذا الكتاب : أنه يتتبع ديانات العالم منذ أقدم العصور حتى الآن . ولقد حذفت فصول كثيرة منه ، لأن الكتاب فى الأصل الإنجليزى موسوعة ضخمة ، لكنا فى هذه الطبعة الثانية أضفنا فصلين هامين سوف يجدهما القارىء بوصفهما الفصل الأول « الديانة القَبَلية فى آسيا » ، والفصل الثامن « الجينية » التى شكّلت مع البوذية ثورة على النصوص الهندوسية الجامدة .

ونأمل فى طبعات قادمة ، بإذن الله ، أن نقوم بترجمة بعض الفصول الجديدة من هذه الموسوعة الضخمة ؛ لنروى ظمأ القارىء العربى وتعطشه لمعرفة ديانات العالم المختلفة ؛ حتى تلقى هذه المعرفة المزيد من الضوء على ما يؤمن به هو نفسه من معتقدات ، عملاً بالحكمة الفلسفية التى تقول : « مَنْ لم يقرأ سوى أفلاطون لا يعرف أفلاطون » ، ومن لم يقرأ سوى ديانته الخاصة لا يعرف هذه الديانة معرفة جيدة وعميقة .

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد ،

إمام عبد الفتاح إمام

مقدمة الطبعة الأولى

إذا كان أرسطو قد عرّف الإنسان بأنه « حيوانٌ ناطق » أى مفكر ، فقد عَـرَّفه غيره من الفلاسفة بأنه « حيوان متدين » فذهب هيجل ـ مثلاً ـ إلى « أن الإنسان وحده هو الذى يمكن أن يكون له دين ، وأن الحيوانات تفتقر إلى الدين بمقدار ما تفتقر إلى القانون والأخلاق » (١) ؛ ذلك لأن التدين عنصر أساسى فى تكوين الإنسان ، والحس الدينى إنما يكمن فى أعماق كل قلبٍ بشرىّ ، بل هو يدخل فى صميم ماهية الإنسان ، مثله فى ذلك مثل العقل سواء بسواء (٢) .

ولعل هذا ما حدا ببعض صوفية الإسلام - الجُنيد ، وابن عطاء الله السكندرى، وغيرهما ـ إلى القول بأن الإيمان فطرىّ فى النفس البشرية ، التى كانت سابقة فى وجودها على البدن ، وأن البدن هو الذى حجب الإيمان ومنع ظهوره ، وهى فكرة لخصوها فيما سموه « بالميثاق الأعظم » مستندين فيها إلى قوله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » (الأعراف آية ١٧٢) .

وإذا سلمنا بأن الحس الدينى جزءٌ أساسىٌ فى تكوين الإنسان ، وأنه موجود بدرجاتٍ متفاوتة عند الناسِ جميعاً ، فقد يكون مطموراً عند مَنْ يحاول أن يحجبه أو يمنعه من الظهور ، بل ربما يجحد وجوده (٣) ، وقد يكون عارماً وطاغياً عند الصوفى العظيم الذى

---

(١) هيجل « موسوعة العلوم الفلسفية » ص ٤٧ - ٤٨ ترجمة د . إمام عبد الفتاح إمام ، دار التنوير بيروت عام ١٩٨٣ ، ط١ دار الثقافة بالقاهرة عام ١٩٨٥ ط٢ .

(٢) ولترستيس « الزمان والأزل » مقال فى فلسفة الدين ص٤٠ ترجمة الدكتور زكريا إبراهيم ، ومراجعة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، المؤسسة الوطنية للطاباعة والنشر بيروت عام ١٩٦٧ .

(٣) العجيب أن كلمة « الكفر » فى اللغة العربية تؤيد هذا المعنى ؛ فكفر يعنى : غطى وستر ، والكافر : الزارع لستره البذر بالتراب ، وهو الليل المظلم ، لأنه يستر بظلمته كل شىء ، وبهذا المعنى يكون « الكافر » بالمعنى الدينى هو الذى يغطى إيمانه ويحجبه ويمنعه من الظهور ، قارن مثلاً « لسان العرب لابن منظور » المجلد الخامس ص٣٨٩٩ دار المعرف بمصر - والمعجم الوسيط « المجلد الثانى ص٧٩٧ .

يرى الفعل الإلهى فى كل حركة كونية من حبة الرمل فى الصحراء إلى نجوم السماء ـ فلابد أن نسلم بالتالى أنَّ تفسير هذا الحس الدينى قد خضع لنفس التطور الذى خضع له الإنسان ، فاختلف وفقاً لمراحل كثيرة لارتباطه ارتباطاً وثيقاً بالإطار الثقافى الذى وجد فيه(١) .

ومن هنا نشأت كثرة من الديانات منذ أن دبَّ على ظهر الأرض إنسان ، فكانت الأساطير والخرافات والسحر والشعوذة ، ومحاولة السيطرة على القوى الخفية ، والتقرب إليها بالأضاحى والقرابين مما يزخر به تاريخ الشعوب فى الشرق والغرب ، على حدٍ سواء ، ثم ظهرت الديانات البشرية من زرادشتية إلى كونفوشية إلى بوذية وجينية .. إلخ حتى نزلت الديانات السماوية الكبرى : اليهودية ـ والمسيحية ـ والإسلام .

ولقد دأب المسلمون ـ إبان ازدهار حضارتهم ـ على دراسة الديانات البشرية المختلفة القريبة منهم والبعيدة على حد سواء ؛ لأنهم أدركوا فى هذا العهد المبكر ذلك الأثر القوى الذى يتركه الدين فى نفوس الناس وسلوكهم ، حتى قيل أن دراسة العقائد والشعائر الدينية يمكن أن تكشف عن طبائع الشعوب والأمم . وهكذا سافر أبو الريحان البيرونى (فى القرن الخامس الهجرى) إلى الهند ، وقضى فيها أربعين عاماً يدرس أولاً لغتها القديمة ـ السنسكريتية ـ ويتقنها إتقاناً يجعله يترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية، كما يترجم إلى السنسكريتية كتاب « أصول الهندسة » لإقليدس ، «والمجسطى» لبطليموس(٢) ثم يكتب كتابه العظيم « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرزولة »(٣) الذى أتمه فى المحرم من عام ٤٢٣هـ / ١٠٣١م ، ولم يكن الكثير مما يضمه هذا الكتاب القيِّم جديداً على المسلمين فحسب ، بل كان كذلك حتى بالنسبة للثقافة الأوربية فى العصور الحديثة ، على ما يشير المستشرق الألمانى إدوارد سخاو ناشر الكتاب .

وبعد ذلك بفترة وجيزة كتب الشهرستانى أشهر كتبه « الملل والنحل » الذى يؤرخ فيه لأديان عصره بمنهج علميٍّ دقيق ، حتى أنه اشترط على نفسه فى مقدمة الكتاب أن يتجنب

---

(١) قارن مقالنا « الخبرة الدينية والإيمان » فى مجلة الفكر المعاصر العدد ٦١ مارس ١٩٧٠ .

(٢) قارن ول ديورانت « قصة الحضارة » المجلد الثالث عشر ص١٨٦ ترجمة الأستاذ محمد بدران ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة .

(٣) قام على نشر هذا السفر العظيم عام ١٨٨٧م المستشرق الألمانى إداوارد سخاو E.Sachau .

التعصب ، والميل مع الهوى ! يقول « شرطي على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته فى كتبهم من غير تعصب لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أُبيِّن صحيحه من فاسده ، وأعيّن حقه من باطله ، وإنْ كان لا يخفى على الأفهام الذكية فى مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل [1] ». بهذه الروح العلمية الموضوعية كتب الشهرستانى عن : المجوس ، واليهود ، والنصارى ، والمسلمين ، كما كتب عن الصابئة ، وعبدة الكواكب ، وعبدة الأوثان ، وعبدة الماء ، ومعتقدات الهنود ، ولاسيما البراهمة ، فأصبح كتابه دائرة معارف للديانات فى عصره (القرن السادس الهجرى) رغم أنه أراده فى البداية « مختصراً يحوى ما تَدَيّن به المتدينون ، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصاراً لمن اعتبر [2]» على ما يقول هو نفسه فى المقدمة ، لكن هذا المختصر طال حتى زاد عن خمسمائة صفحة ؛ ولا يزال حتى الآن مرجعاً لا غنى عنه لكل مَنْ يهتم بتاريخ الأديان ، حتى أنه ترجم لأهميته إلى بعض اللغات الأجنبية !

وهناك الكثير من الكتب الأخرى التى كتبها المسلمون عن الديانات والملل [3] ، فضلاً عما كتبوه فى ثنايا الكتب التى تؤرخ للفرق أو لأحداث التاريخ .

وكتابنا هذا عن « المعتقدات الدينية لدى الشعوب » يواصل ما بدأه الأقدمون فى تراثنا العربى فى التعريف بديانات العالم ، وهو فى أصله الإنجليزى كتاب ضخم لا يتحمله حجم السلسلة ؛ لهذا اختارت منه هيئة التحرير فصولاً منوعة بلغت عشرة فصول هى التى تؤلف هذا الكتاب ، وهى تبدأ حيث يتحدث الفصل الأول عن الدين فى بلاد ما بين النهرين [4] أما الثانى فهو عرض لديانة مصر القديمة ، واختارت من الحضارة الأوربية : ديانة اليونان وديانة روما فى الفصلين الثالث والرابع ، ولما كان للديانة الإيرانية القديمة القديمة أثر قوى فى ديانات الهند ، فقد تحدث عنها المؤلف فى(الفصل الخامس) قبل أن يقف وقفة طويلة عند الديانات الكبرى فى الهند : الهندوسية (الفصل السادس) والسيخ (الفصل

---

(١) الملل والنحل ، ص٢٣ طبعة مصطفى الحلبى عام ١٩٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص١٩ .

(٣) منها مثلاً ما كتبه « ابن حزم » فى كتابه الشهير « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » وإن كان قد وقف من المخالفين موقف المهاجم !

(٤) أضيف إلى هذه الطبعة فصلان جديدان فأصبح الفصل الأول يدور حول « الديانات القبلية فى آسيا » ، كما أصبح الفصل الثامن يعالج « الديانة الجينية » وعلى هذا النحو تغيّر ترتيب الفصول فى هذه الطبعة الثانية (المترجم) .

السابع) ثم درس البوذية وحدها (الفصل الثامن) دراسة مستفيضة ؛ لأنها رغم كونها ديانة هندية فإن أثرها خارج الهند كان هائلاً فى التبت ، والملايو ، وكوريا ، وسرى لانكا ، فضلاً عن أنها قامت بدورٍ هام فى تاريخ الديانة الصينية ، وهو موضوع (الفصل التاسع) والديانة اليابانية وهو موضوع الفصل الأخير .

ومعنى ذلك كله أن الهيئة حذفت بعض فصول الكتاب فى أصله الإنجليزى حتى يجىء حجمه متفقاً مع السلسلة ، فحذفت فصلاً عن الديانات البدائية بالفصل الأول فى كتابنا ، وفصلاً عن « الديانة القبلية فى آسيا ، وفصلاً آخر عن الديانة الأفريقية ، وفصلاً رابعاً عن « الديانة الأسترالية » .. إلخ كما حذفت الفصول الثلاثة الخاصة بالديانات السماوية الكبرى : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ؛ لأن الكتب والشروح لهذه الديانات فى متناول الجميع من ناحية ، ولأننا أقدر على فهم هذه الديانات من غيرنا من ناحية ثانية.

ولقد رأينا ـ إتماماً للفائدة ـ أن نضيف إلى الترجمة العربية معجماً بأهم المصطلحات مع شرح بسيط لكل مصطلح ؛ حتى نجنب القارىء ـ بقدر المستطاع ـ بعضاً مما عانيناه فى ترجمة هذه المصطلحات ، إنْ هو حاول التوسع فى دراسة الموضوعات المطروحة .

لا بد لى فى النهاية أن أوجه خالص شكرى للزميل الصديق الأستاذ الدكتور عبد الغفار مكاوى ؛ لمراجعته الدقيقة المتأنية لهذه الترجمة التى استفدت منها كثيراً .

والله نسأل أن يهدينا جميعاً سبيل الرشاد .

الهرم فى أول يوليو ١٩٩٢

إمام عبد الفتاح إمام

الفصل الأول

الديانات القَبَلِيَّة فى آسيا

عاش البشر ، فى الجزء الأكبر من تاريخهم ، حياة ترحال بدوية تعتمد على الصيد وجمع الطعام ، ولا بد أن تكون أقدم الأفكار الدينية قد نشأت بين جماعات صغيرة من الرجال والنساء الذين كانوا يتنقّلون فى عالم كان سكانه لا يزالون قِلّة لم تهذبها بعد أية جهود حضارية . ولم يبدأ الناس ، إلا فى العشرة آلاف سنة الماضية ، فى تحويل بيئتهم وخلق ظروف للحياة تسمح بظهور أبنية اجتماعية معقدة ، وما يرتبط بها من تصور المعتقدات وتنوعها . ولاتنبؤنا شواهد علم الآثار إلا بالقليل عن التصورات الدينية للرجال والنساء فى العصر الحجرى القديم . غير أن الملاحظة الأنثروبولوجية للشعوب البدائية التى لم تتجاوز بعد مرحلة الصيد وجمع الطعام تلقى بعض الضوء على نوع الأفكار والممارسات الدينية التى تتمشى مع أسلوب الحياة عند البدو الرُّحل من جامعى الطعام .

لقد أصبح من الواضح أنه لا توجد جماعة بشرية ـ مهما تكن بدائية ـ لا يوجد لديها أفكار عن موجودات أو كيانات تعلو على الطبيعة ؛ ولذلك فنحن على حق إذا افترضنا أن الشعوب التى عاشت على الصيد وجمع الطعام فى آسيا ، فى عصور ما قبل التاريخ أيضاً ، كان لديها قدرة عقلية مكنتها من تصور أفكارٍ ، يمكن وصفها بأنها أفكار دينية . وليس من الممكن أن نكتشف إلى أى حدٍ تشبه هذه الأفكار القديمة ما تعتنقه اليوم القبائل التى تعيش على جمع الطعام ، لكن ليس من المستبعد أن تكون التصورات والممارسات التى جدت بين هذه القبائل قد احتفظت ببعض سمات المذاهب الدينية القديمة التى تبلورت فى زمن كان اقتصاد البشر كله فيه يعتمد على الصيد وجمع الطعام .

ولهذا السبب ؛ فإن الجماعات القبلية التى تمثل جزءاً بالغ الضآلة من السكان الحاليين فى آسيا لها من الأهمية ما يبرر وصف أفكارها الدينية . وتوجد هذه القبائل البدائية من بدو الغابات فى شبه الجزيرة الهندية ، وجزر الأندامان Andaman [1] والملايو ، وسومطرة، والفلبين – وهم فى جميع هذه المناطق لا يزالون يحتفظون بهويتهم العرقية .

١- آلهة بدو الغابات الهندية :

سوف نسوق مثالاً من قبيلة « تشنتشو Chenchus » ، وهى قبيلة من بدو الأدغال الهندية تتحدث اللغة الدرافيدية Dravidian [2] ، وتعيش فى ولاية أندرابراديش الهندية ؛ لكى

---

(١) جزر هندية فى خليج البنغال جنوب بورما ، أما سومطرة فهى جزيرة غرب أندونيسيا (المترجم) .

(٢) الدرافيديون ـ ولا نعلم أصل الكلمة ـ هم سكان الجنوب فى الهند ، واللغة الدرافيية هى اللغة الأم فى الهند ، وسيلان ، وغرب باكستان . (المترجم) .

نوضح نوع الأفكار والممارسات المرتبطة بأشد النظم الاقتصادية بدائية . وعلى الرغم من أن هذه القبيلة قد عرفت الأسلوب الذى يعيش به المزارعون المستقرون ، فقد اختارت أن تبقى فى الغابة معتمدة على الجذور البرية ، والنباتات الدرنية ، والتوت ، والحيوانات التى تصطادها من آن لآخر بالقوس والسهم . والوحدة الاجتماعية الرئيسية فى هذه القبيلة ، هى مجموعة الأسر التى تملك حقوقاً بالميراث فى قطعة من الأرض يكون لأعضائها ، داخل حدودها ، حرية الصيد وجمع النباتات الصالحة للأكل .

والأساس فى نظرة هذه القبيلة إلى العالم هو شعورها باعتماد الإنسان على موجودات غير مرئية ، تتصورها بطريقة تشبيهية [(١)] ، وينظر أهل هذه القبيلة إلى عالم البشر والآلهة بوصفه جزءاً من نظام الطبيعة . وهم لا يتفكرون فى أصل هذه الموجودات ؛ إذ يتسم موقفهم تجاه الآلهة بالاتزان ، والخلو من أى أثر للانفعال .

وتحتل موقع الصدارة من التفكير الدينى عند قبيلة « تشنتشو » إلهة أنثى تسمى «جاريلامايزاما Garelamaisama » ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالصيد ، وجمع النباتات الصالحة للأكل ، كما تسيطر هذه الإلهة على الحيوانات البرية فى الغابات . ومن هنا فإنهم يعزون إليها حسن الطالع فى الصيد . ولهذا فإن الصياد عندما يشرع فى عمله فى الصباح يتمتم بالصلاة ضارعاً إلى الإلهة « جاريلامايزاما » أن تكلل جهوده بالنجاح ، ويعدها بأن يقدم لها جزءاً من صيده ، فإذا ما اقتنص أى حيوان ، سوّى قطعة صغيرة من لحمه فى الموقع نفسه ليقدمها إلى الإلهة مع صلاة الشكر ، ويعتقد أفراد « التشنتشو » أن ذكور الحيوانات هى التى كان يسمح بقتلها فى العصور القديمة ؛ لأن اصطياد الإناث من الحيوانات وحدها هو الذى كان يثير غضب الربة « جاريلامايزاما » ، ولو تصادف أن قتل رجل أنثى من الحيوانات ، فإنه يصلى للربة كى تغفر له وتسامحه خشية أن تمنع عنه الغذاء .

وكان أهل القبيلة يعتقدون أن هذه الربة يمكن أن تؤثر فى سلوك البشر ؛ ولهذا تراهم يتوسلون إليها أن تمنع الناس من الشجار وهم سكارى ، كما أن الرعاية التى تسبغها هذه الربة المحسنة على أولئك الذين يؤمنون بها ، ويثقون فى حمايتها – تعكسها الحكايات

---

(١) مصطلح Anthropomorphism يعنى حرفياً : الصورة البشرية أو الهيئة البشرية ، فهو يتألف من مقطعين Anthropos بمعنى إنسان و Morphe صورة أو شكل ، ومعنى المصطلح : إضفاء صفات البشر على الآلهة : فهم يأكلون ، ويشربون ، يغضبون ، ويتناسلون... إلخ (المترجم) .

والأساطير التى تصورها متخفية فى هيئة امرأة عجوز تظهر لرجال أو نساء فى وقت الشدة فتنقذهم من الخطر أو من الموت . وعلى الرغم من أن أهل قبيلة « تشنتشو » لديهم فكرة واضحة إلى حدٍ معقول عن طبيعة هذه الربة ، فإنهم لا يعرفون شيئاً عن أصلها أو عن بداية اهتمامها بالجنس البشرى .

٢- إله الرعد والمطر :

هناك إله هام آخر تؤمن به قبيلة « تشنتشو » هو « بجافنتارو » Bhagavantaru . ويقال إنه يسكن السماء ، ويتحكم فى الرعد والمطر . وعلى الرغم من أن الاسم مشتق ـ كما هو واضح ـ من لفظ هندوسى يدل على الألوهية غير المشخصة ، فإن تخيلهم للإله «بجافنتارو» لا يقل فى تشبيهه بالإنسان عن ربة الغابات « جاريلامايزاما » .

وأهل « تشنتشو » لا يعزون لأى من هذين الإلهين أدنى اهتمام بأخلاق الإنسان، فالأوامر الإلهية لا صلة لها بالعلاقات الاجتماعية ، وهم لا يعتقدون أن الآلهة تشغل أنفسها بأفعال مثل : الزنا ، أو العنف ، أو حتى القتل . وليس ثمة ما يدل على أن الزلات الأخلاقية تخضع لجزاءات من قوى علوية ، أما أفكار القبيلة عن مصير الإنسان بعد الموت فهى غامضة ، وليس هناك اعتقاد محدد بأن مصير الإنسان بعد الموت متوقف على أعماله فى هذه الحياة الدنيا .

وهناك فى عقيدة « تشنتشو » إلى جانب هذين الإلهين « جاريلامايزاما » و «بحافنتارو» عدد من الآلهة الأقل شأناً يرتبطون بأقاليم خاصة أو عشائر معينة ، وهم يسترضونها بتقديم القرابين . غير أن أهل « تشنتشو » ينظرون إلى شعائر العبادة هذه على أنها توسلات ضرورية ـ وإن كانت محايدة من الناحية الانفعالية تجاه ـ القوى الخارقة للطبيعة . وعلى خلاف عدد كبير من القبائل الهندية الأكثر تقدماً ، فإن أهل تشنتشو لا يسكن الرعب فى قلوبهم من الأرواح الشريرة ، فضلاً عن أنهم لا يخشون آثار السحر الأسود.

إن مواقفهم من الآلهة تلقائية ، وخالية من أية طقوس معقدة ، فلا يوجد عندهم كهنة أو خبراء دينيون من أى نوع ؛ ذلك لأن اعتماد القبيلة على جمع الطعام يوماً بيوم لا يدع مجالاً للتخصص فى الوظائف ، كما أن تأدية الطقوس الدينية مثل تقديم القرابين من ثمار الصيد الأول ، للربة « جاريلامايزاما » يمكن أن يقوم بها أى رجل بالغ ، ومن ثم كانت بنية ديانة « تشنتشو » فى غاية البساطة ، فأهل هذه القبيلة يؤمنون بأن الآلهة والبشر

يعملون داخل دائرة واحدة ، وأنه يمكن لكل فرد أن يتصل بالآلهة اتصالاً مباشراً وفورياً ، وعلى الرغم من أن الآلهة غير مرئية فإنها تظهر أمام قبيلة « تشنتشو » بوصفها جزءاً من العالم الطبيعي .

٣- ديانة القبائل الزراعية :

بينما كانت الأفكار الدينية عند قبائل الصيد وجامعي الطعام من أمثال قبيلة التشنتشو بسيطة ، كما كانت الطقوس التي يمارسونها مباشرة - فإن القبائل الهندية التي تقدمت خطوة أبعد من الناحية الاقتصادية قد طورت نماذج دينية على جانب كبير من التعقيد ، كما أن علاقاتها بالعالم العلوى (عالم ما فوق الطبيعة) تتم من خلال طقوس مفصلة يقوم بها متخصصون في إقامة الشعائر الدينية ، ولدى هذه القبائل عدد وفير من الأساطير والنصوص المقدسة التي تناقلتها الأجيال شفاهة جيلاً بعد جيل ، وهي تشكل إطاراً ثابتاً من المعتقدات الدينية ، وممارسة طقوس العبادة . ويتمثل هذا الموقف في قبائل « الجوند Gond » وهم شعب يتألف من حوالي ثلاثة ملايين نسـمة ينتشرون في تلال مناطـق «مادهيا برادش Madhya Pradesh » وشمالي « أندرا برادش Andre Pradesh » .

والأساطير التي تروى عن أصل شعب « الجوند » ، والأعمال الخارقة التي قام بها أبطال ثقافتهم وأسلاف عشيرتهم - تقدم ضماناً عملياً للنظم التي تحدد سلوك كل فرد من أفراد قبيلة « الجوند » تجاه زملائه داخل القبيلة ، كما تحدد العلاقات مع الآلهة التي يعتمد عليها رخاء البشر وتضفي عليها سلطتها ؛ فهناك علاقات تربط بين الأساطير والطقوس الدينية ، وتجعل كلاً منهما تدعم الأخرى . فكما أن الأساطير تضفي مغزى وقوة على الطقوس ، فإن التجسيد الرمزي للأساطير أثناء تأدية الطقوس الدينية الرئيسية للعشيرة يضفي حيوية على الأساطير .

للأساطير عند « الجوند » طابع واقعي متحقق بلا انقطاع ، إنها تعمل على إقرار السلوك البشرى ، ومن خلال تجسيدها دراميا تعبّر الدوافع الدينية عن نفسها ، ويشعر الناس بأنهم يتحدون مع الأجيال السابقة ، التي لا تعد ولا تحصى ، ومع الأسلاف الذين يؤلهونهم. والشعراء الشعبيون الذين يرثون مهنتهم هم حراس المأثور الشعبي المقدس ؛ إذا يرتلون الأساطير أو الحكايات المناسبة في كل عيد من الأعياد الدينية السنوية الكبرى ، وبذلك يحافظون على التراث .

أما الإله الذي يهيمن على العالم فهو بجفان Bhagavan ، وكثيراً ما يوحدون بينه

وبين إله الهندوس شيفا Shiva . ومن ثم يخاطبونه على أنه شرى شمبو ماهاديو Shri Shembu Mahadeo . وبلاطه الغاص بالآلهة يشبه بلاط الحكام من البشر ؛ إذ يتجه إليه الآلهة والناس طلباً للنصح ، والمشورة ، والمساعدة فى التغلب على مشكلاتهم ، لكنه ـ فى العادة ، لا يتصل بالفانين من البشر إلا بطريق غير مباشر ، وذلك ـ على سبيل المثال ـ عن طريق رسوله « ياما Yama » إله الموت . وعلى الرغم من أن الإله بجفان يشغل مكاناً فى الأساطير والحكايات الدينية ، فليس لدوره فى نظام العبادة سوى أهمية ضئيلة نسبياً ، حيث لا يقدم له « الجوند » القرابين سوى مرتين أو ثلاث مرات فى السنة ، ولا تستغرق شعائر العبادة المصاحبة لهذه الطقوس أكثر من بضع دقائق .

٤- حرّاس العشيرة :

والطقوس المرتبطة بعبادة آلهة العشيرة أكثر تعقيداً ؛ فعبادة هذه الآلهة مسألة أساسية عند قبيلة « الجوند » ، كما تشكل التضحية بالبقر ، والماعز ، والغنم ، جانباً هاماً من عبادتها . ويمكن توضيح أصل عبادة آلهة العشيرة بطريقتين مختلفتين : الأولى : مجموعة من الأساطير التى تصور كيف تعرف أسلافهم الأوّل على هؤلاء الآلهة ، وكيف ضمنوا حمايتهم نظير وعد بتقديم الضحايا لهم بشكل منتظم . والثانية : مجموعة أخرى من الأساطير التى تعالج بالتفصيل تأليه الشخصيات الخرافية التى كانت فى حياتها الأرضية أعضاء فى عشائر « الجوند » ، ثم تحولت ـ بمعجزة ـ إلى رموز ملموسة لآلهة العشيرة ، ثم عُبِدوا منذ ذلك الحين بوصفهم الحرّاس المقدسين لعشيرتهم الأصلية . وطبيعة هذه الآلهة معقدة : فمعظمها يمثل مزيجاً من شخصية الذكر والأنثى ، وهو أم ، وابن فى آن معاً ، رغم الإشارة إلى هذا الإله بعد ذلك ، فى الأعم الأغلب ، على أنه فرد واحد . أما الأشياء المقدسة التى ترمز إلى آلهة العشيرة فهى رأس حربة حديدية ومذّبة مصنوعة من ذيل ثور الياك Yak [١] ، كالتى يستخدمها الهندوس فى طقوسهم داخل المعبد .

و على حين أن أصل آلهة العشيرة وطبيعتها غامض ، فإن عبادتها تتم طبقاً لنموذج واضح وصارم تراعيه كل عشائر « الجوند » ، وهناك ثلاثة موظفين متخصصين فى إقامة الشعائر ، هم المسئولون عن العبادات التى تقام لكل مجموعة من آلهة العشائر ، كما أن الرموز المقدسة تبقى تحت رعايتهم . ويجتمع أعضاء العشيرة مرتين فى السنة فى هيكل

---

(١) ثور يعيش فى التبت يمتاز بضخامة الجسم وطول الصوف (المترجم) .

العشيرة ، وهو بناء بسيط من الخشب مسقوف بالقش ، ويقضي هؤلاء الأعضاء بضعة أيام في العبادة والاحتفالات . وبمناسبة القيام بأحد هذه الطقوس السنوية يحتفل بدخول أرواح جميع أعضاء العشيرة الذين قضوا نحبهم في العام الماضي ، فيحضرون من الناحية الشكلية ، في صحبة إله العشيرة ومن خلفهم جميع الأعضاء الذين رحلوا من قبل .

وتمثل عبادة آلهة العشيرة جانباً واحداً من النظام الديني عند « الجوند » ، لكن هناك جانباً آخر يتعلق بعبادة آلهة القرى والآلهة المحليين ، ففي كل قرية تجد هيكلاً لأم القرية ، ومحراباً لحارس القرية يمثله عمود خشبي مدبب . وأم القرية هي واحدة من الربات الكثيرات اللائي تنتشر معابدهن في أرض الجوند ، وبينهن تشغل أم الأرض مكانة خاصة ؛ إذ يعبدها الفلاحون من « الجوند » قبل موسم بذر البذور ، وفي وقت الحصاد . وهم لا ينظرون إلى الإناث من الآلهة عل أنهن محسنات بالضرورة ، ففيهن ربات يهددن أهل القرية ويتوعدنهم بأمراض الكوليرا ، والجدري ، ولا بد من استرضائهن بتقديم القرابين من الحيوانات .

٥- الكهنة والمتنبئون :

في كثير من المناسبات لا يتقيد « الجوند » في ابتهالاتهم بإله واحد ، بل تتجه صلواتهم إلى قوى متعددة تجاوز الطبيعة ويعتقدون أنها تؤثر في مصائرهم ، مثل : إله العشيرة والأم - الأرض ، وآلهة القرية ، وآلهة الجبال ، وأرواح الأسلاف - فهذه كلها يتم استحضارها في نفس واحد ، ولا يفكر أحد من الجوند في أن لهذه الآلهة ترتيباً تصاعدياً ، إلا أن الإله « بجفان Bhagvan » يعلوها جميعاً . ويعتمد الجوند في علاقاتهم بالقوى غير المنظورة على القدرة الخارقة للكهنة الذين يتولون مناصبهم بالوراثة - ولا أحد يستطيع، ما لم يكن من نسل أحد أعضاء كهنة العشيرة ، أن يقوم بتأدية الطقوس الدينية لآلهة العشيرة ، أو للربة أم القرية أو حارسة القرية ، فتلك مزايا تقتصر على مَنْ ينتمي إلى نسل مؤسس القرية .

وإلى جانب مناصب الكهنة المتوارثة هناك متنبئون تأخذهم غيبوبة النشوة ؛ فيصبحون عرافين ، أو وسطاء تتحدث الآلهة عن طريقهم إلى الناس مباشرة . وتكرار تجربة مثل هذه التجليات الإلهية تكسب العلاقات بالكائنات المجاورة للطبيعة نوعاً من المباشرة (الصلة الحميمة) التي لا تعرفها الديانات التي تفتقر إلى جانب « الوجد » .

وتصورات الروح عن شعب « الجوند » ، وعند كثير من القبائل التي تعيش في وسط الهند ، تقوم على الإيمان بأن جوهر الحياة « Jiv » ، غير المشخص الذي يبعث الحياة في

المرء من الميلاد إلى الموت ، يختلف عن الشخصية التى تواصل الوجود بعد الموت ، وتلحق بالأسلاف فى أرض الموتى ، وهم يعتقدون أن جوهر الحياة الذى يملأ الطفل بالحياة ، وهو لا يزال فى رحم أمه ، يصدر عن الإله بجفان Bhagavan . ولا يلتفت الفرد من «الجوند» إبان حياته ، إلا قليلاً لجوهر الحياة هذا ، لأنه لا يرتبط بالوعى أو العواطف ، ولكن عندما تقترب حياته من نهايتها يسترد « بجفان » الحياة ، وبذلك يحدث الموت . وعندما يعود جوهر الحياة إلى الإله يضاف إلى بركة مليئة بجواهر قابلة للتجسد مرة أخرى ، غير أن الرابطة بين شخصية المتوفَّى وجوهر الحياة تكون قد انتهت .

تبقى شخصية المتوفَّى بعد الموت فى صورة روح يشار إليها باسم « سنال Sanal » التى تعنى حرفياً فى لغة الجوند « الراحل » ، ومعظم الطقوس والشعائر فى الاحتفالات الجنائزية والأعياد التذكارية ترتبط بالسنال Sanal التى حلت فيها شخصية الراحل . فهم يعتقدون أن الذين رحلوا من أعضاء القبيلة يعيشون فى مكان خاص بهم يشتركون فيه مع آلهة العشائر ، لكنهم كذلك يأتون إلى مساكن الأحياء ، كما يفعل آلهة العشائر بالنعم العظيمة . ويستحسن « الجوند » أن تبنى القرية هيكلاً على أرضها يحوى الرموز المقدسة لأسلاف العشيرة المرموقين .

ولا علاقة بين سلوك الناس الأخلاقى فى هذه الحياة الدنيا وبين مصيرهم فى أرض الموتى ؛ « فالجوند » لا يعتقدون أن الآلهة تشغل نفسها بأخلاقيات البشر ؛ ذلك لأن الدين عندهم ليس علاقة شخصية بكائنات فردية غير مرئية ، وإنما هو نظام من الطقوس والقرابين التى تحقق الجماعةعن طريقها تكامل أفعال البشر مع تأثير الآلهة والأرواح التى تشاركهم بيئتهم ، بل إن كثيراً من هذه الكائنات غير المنظورة تعتبر موجودات محايدة إزاء البشر ، إذ يمكن إسترضاؤها بالقرابين ، وإغضابها وإثارتها بالوقوف منها موقف الازدراء . والأرواح المعادية لا تظهر ، أساساً ، على نحو ظاهر فى عقائد الجوند . أما فكرة القتال بين الآلهة وقوى الشر فهى فكرة غريبة تماماً عن نظرة الجوند إلى العالم .

٦- جحافل آلهة الإيفوجاو :

ينتشر بين الإيفوجاو Ifugao نسق دينى من نظام مختلف تمام الاختلاف . والإيفوجاو قبيلة تعيش على تل فى إحدى جزر لوزن Luzon بالفلبين ، ويعيش حوالى ٨٠ ألف نسمة من الإيفوجاويين فى منطقة جبلية ظل من الصعب الوصول إليها من الأراضى المنخفضة حتى مطلع القرن الحالى ، ومن ثم بقيت معزولة عن المجرى الرئيسى لحضارة الفلبين .

ويعتمد « الإيفوجاويون » فى حياتهم على فلاحة الأرض ، وهم يشتهرون ببراعتهم فى هندسة الحقول على شكل مصاطب يزرعونها أرزاً . وحتى عهد قريب كانت القبائل الأخرى تخشاهم بوصفهم محاربين يجتزون رءوس أعدائهم ، ولا تربطهم بالقبائل المجاورة إلا علاقات ضئيلة . وتتميز البنية الاجتماعية الداخلية عندهم بغياب أى تنظيم اجتماعى على شكل مؤسسات ؛ فالفرد الذى لا تسانده إلا جماعة من ذوى القرابة الثنائية ، والممتدة حتى أبناء العم الثالث ، لا يُعترف به ولا يتمتع بحماية أية قرية أو أية سلطة قبلية ؛ ومن ثم يصبح إحساس المرء بالأمان الشخصى ضئيلاً للغاية فى جو مشحون بالضغائن والحزازات والقتل أخذا بالثأر . وعلى الرغم من أن « الإيفوجاو » يفتقرون إلى التنظيم السياسى فقد طوروا واحداً من أكثر النظم الدينية انتشاراً فيما روته كتابات علم الأجناس والسلالات البشرية .

ولا تزال الديانة الوثنية مزدهرة بين الإيفوجاويين حتى يومنا الراهن ، رغم اعتناق ما يقرب من نصفهم للديانة المسيحية ، وما برحت أعداد لا حصر لها من الطقوس والشعائر القديمة تمارس بتفصيلات شديدة لم تنقص ، ومع استهلاك واسع لمواردهم . ولابد أن يقوم كاهن متمرس بتأدية الطقوس الدينية ، ويشترط فيه القدرة على تلاوة تعاويذ وأساطير مطولة . وعندما تكون الطقوس أكثر تعقيداً فإنها تحتاج إلى كاهنين على الأقل ، أما الطقوس الهامة فيقوم بها عدد كبير من الكهنة يمكن أن يصل إلى خمسة عشر كاهناً ، وإذا كانت الشعائر ذات صبغة عائلية ـ كمعظم شعائرهم ـ فلا يقوم بها إلا الكهنة المنحدرون عن الزوج أو الزوجة فحسب .

وليس ثمة كهانة منظمة تقوم بها طبقة اجتماعية خاصة ؛ فأى عضو من الايفوجاويين لديه قدرة عقلية وذاكرة جيدة يستطيع أن يلتحق كصبى تحت التمرين بأحد الكهنة من ذوى قرباه . ولكن فى كثير من الحالات يسير الأبناء على خطى آبائهم بحيث ينعمون بسمعة الكهنة الناجحين المعروفين . والكهنة من « الإيفوجاوين » يعملون كذلك كمؤرخين وعلماء أنساب ، لأن التعاويذ والرقى التى ترد كثيراً عن الأسلاف تزودهم بمعرفة فذة بعلم الأنساب .

٧- خمس مناطق من الكون :

إن الإطار الأساسى لديانة الإيفوجاو مزود بكسمولوجيا [١] ، تقسم الكون خمسة

---

(١) الكسمولوجيا Cosmology من مقطعين يونانيين هما Cosmos : أى الكون المنظم ، و Lo-gos علم ، فهى علم الكونيات ، أو التصور العقلى لكون منظم (المترجم) .

أقسام : فى المركز تقع الأرض المعروفة التى يسكنها شعب الإيفوجاو ، وفوقها سماء العالم، وفى الأسفل يقع العالم السفلى . ومع انحدار النهر فيما وراء الأراضى المعروفة تقع منطقة منبع النهر . والمنطقتان الأخيرتان ، مثل سماء العالم والعالم السفلى ، منطقتان متخيلتان ، وليس من السهل على الإنسان العادى ـ رجلاً كان أو إمرأة ـ أن يصل إليهما . ويعتقد الإيفوجاويون أن حشداً هائلاً من الآلهة والأرواح يسكن هذه المناطق الخمسة ، ولقد أحصى بعض الباحثين ١٢٤٠ اسماً لآلهة منفصلة ، أما فى تقدير ر. ف . بارتون R. F. Barton فإن الكاهن المتميز فى أى منطقة محلية فى مركز الإيفوجاويين يعرف أسماء ما لا يقل عن ١٥٠٠ إله ، إذ يندر أن نجد عند الإيفوجاويين جزءاً من الكون لم يؤلَّه ، ورغم هذا العدد الهائل من الآلهة عندهم ، فهم لا يتصورون إلهين متفقين تماماً من حيث الطبيعة أو القوة.

ويرى الإيفوجاويون أن آلهتهم تتجمع فيما يقرب من أربعين فئة رئيسية ، وهم يحددون لها وظائف خاصة تتناسب مع دور الآلهة وطبيعتها العامة . فهناك إلهة السماء التى يعتقد الايفوجاوين أنها علمتهم الشعائر ، ومنحتهم أدوات التقنية التى يملكونها ، وجميع حيواناتهم الأليفة ، ولهذا تقدم القرابين الرئيسية ـ فى جميع الأعياد العامة ـ إلى هذه الآلهة . وهنالك ، بين الفئات الأخرى ، إلهة الغش والخداع التى تختص بالحرب ، والسحر والشعوذة ، كما أن هناك إلهة الفأل وإلهة النسل ، وإلهة تحرس الممتلكات الشخصية ، وآلهة على هيئة رسل ، وإلهة للريح وأخرى للمرض .

وفى كل فئة من هذه الفئات عدد لا حصر له من الآلهة الفردية ، وتسمى فى الأعم الأغلب ، باسم الوظيفة التى يعتقد أنها تقوم بها . فهناك مثلاً إله اسمه « المخادع » يقود الناس إلى التعرض لخطر العدو ، وخطر الحوادث ، ولجميع ألوان الموت العنيف أو الغادر وهو كذلك ينتزع أرواحهم ويصعد بها إلى السماء ، ولكى تشفى هذه الأرواح يلزم تأدية طقوس خاصة يقوم بها الكاهن ، وهو فى حالة الوجد أو الغيبوبة ، حتى يستطيع تتبع الروح وإعادتها إلى البدن الذى خرجت منه ، فإذا لم ينجح فى استعادة الروح فإن الشخص المصاب لا بد أن يموت ، وتبقى الروح فى هذه الحالة مع الإله المخادع فى السماء . ويشارك فى هذا المصير نفسه ضحايا اصطياد الرؤوس ، بل مَن قتل من الناس أثناء الشجار ، فى حين أن جميع الموتى الآخرين يرحلون إلى أرض الموتى .

٨- شعائر القربان :

ينفق الإيفاجويون شطراً كبيراً من الوقت والثروة فى تأدية الطقوس الدينية . وليس غريباً أن يضحى فى احتفال واحد بستة خنازير ، أو سبعة ، وبقرة ، وعدد لا حصر له من الدجاج. وتتبع تأدية هذه الطقوس ، رغم الاختلاف فى التفصيلات ، بصفة عامة نموذجاً نمطياً واحداً ، يشمل المراحل التالية : يقوم الكاهن بابتهالات للأسلاف يسترضى فيها الاسلاف من ذوى القربى ، حتى إذا حضر الأسلاف استحوذوا على الكاهن وراحوا يشربون جعة الأرز ويتحدثون بلسانه ، ويتولى أحد الكهنة رئاسة الطقوس الدينية ، ويعيّن فئات الآلهة التى يتعبدون لها على الكهنة المجتمعين ، فيقوم كل كاهن بالابتهال إلى الآلهة الرسل ، ويبعث بهم لدعوة الآلهة المخصصين له ، وفى الوقت ذاته يقوم كل كاهن مع الآخرين بالابتهال إلى الآلهة المخصصة له . فإذا ما حضرت الآلهة تلبست الكاهن ، وشربت بفمه جعة الأرز التى تقدم لها ، وترتل الأناشيد الخاصة كما تؤدى شعائر هذه المناسبة وتنحر الحيوانات المقدمة كقرابين مع الابتهال للآلهة التى تقدم لها ، ويقوم الكهنة المختصون بتلاوة الأساطير.

والأساطير التى تتلى أثناء تأدية الطقوس توزع كذلك على الكهنة ، وهم يتلونها فى وقت واحد وهم يهمهمون بأصوات يصعب فى العادة تمييز كلماتها . وتتخذ معظم الأساطير طابع السحر المحبب ؛ فتروى عن الأسلاف أو عن الآلهة التى ساعدت فى الماضى على حل مشكلات الناس التى تشبه ما يواجهه الإيفوجاويون اليوم من مشكلات .

ولا يمكن أن توصف طقوس الإيفوجاويون بأنها عبادة إلا من حيث إن الناس من خلالها تدخل فى علاقات مع موجودات تعلو على الطبيعة بغية الحصول على عون منها ؛ فليس هناك عنصر التوقير أو الخشوع فى هذه الطقوس ، بل ينظر إلى العلاقة بين الإنسان والآلهة على أنها ضرب من المساومة والأخذ والعطاء ، غير أن الايفوجاويين يشعرون ، بلا شك ، باعتمادهم على حشد من الموجودات غير المرئية ، ويؤمنون بأن السعادة والصحة والرخاء يمكن أن تتأثر بأفعالهم على نحو واضح ملموس . ويعتقد الإيفوجاويون ، فى الوقت ذاته ، أن الكهنة العالمين بالطقوس الدينية فى استطاعتهم الاتصال بالآلهة وتملقها لمساعدة البشر فى جهدهم ، وتعتبر آلهة الايفوجاويين محايدة بالنسبة للجانب الأخلاقى ؛ فهى لا تشغل نفسها بالسلوك الأخلاقى للبشر ، ومن هنا فإن الدين عندهم لا يحدد جزاءات خاصة بقانون أخلاقى ، وإنما تقتصر وظيفته الرئيسية على مدّ الناس بالثقة فى قدراتهم الخاصة، والتخفيف من حدة ضربات القدر بالاستعانة بقوة الطقوس .

٩- نظرة قبائل الرعاة فى وسط آسيا إلى العالم :

المثال الرابع والأخير للأنظمة الدينية التى تطورت خارج نطاق الحضارات الأسيوية بمعناها الدقيق هو : النظرة إلى العالم عند شعوب الرعاة فى أواسط آسيا .

إن الدين عند الشعوب فى وسط آسيا من أمثال : الطائيين Altaians ، والتتار، والبورجيت Buijats ، وقبائل ياكوت Yakuts ، رغم الاختلافات الكثيرة فى التفاصيل، يتطابق مع النمط العام الذى يتسم به جانب من العالم تمسكت فيه مجموعات من السلالات المحلية حتى أواخر القرن التاسع عشر بعقائدها التقليدية . وتقوم نظرتها إلى العالم على أساس تقسيمه إلى ثلاثة أقسام هى : العالم العلوى أو السماء ، والعالم الأوسط أو الأرض ، ثم العالم السفلى أو الجحيم . وداخل هذه القسمة العامة عدة تقسيمات فرعية، ولاسيما فى السماء التى يتصورونها مقسمة إلى حوالى سبع طبقات أو تسع منفصلة . ويناظر هذه الطبقات تسلسل تصاعدى للموجودات المقدسة المخصصة للطبقة العليا أو الدنيا حسب مرتبتها فى مجمع الآلهة ؛ فالموجود الأسمى يشغل مركزاً بارزاً فى النسق الدينى لجميع شعوب وسط آسيا ، وهو يرتبط على الدوام بالسماء ، فى حين أن الشخصية الأسطوريةالتى تجسد مبدأ الشر توضع ـ على العموم ، ولكن ليس بصورة شاملة ـ فى العالم السفلى .

يشار إلى الإله الأعلى أحياناً ببساطة على أنه « السماء » فحسب . ولكن يشار إليه فى أحيان أخرى على أنه « الخالق » ، وهو يتمتع بصفات السلطة اللامحدودة ، والقوة الخالقة، والحكمة التى تقترب من العلم المحيط بكل شيء ، كما يوصف عادة بأنه خيِّر تجاه البشر. ولهذا الإله السماوى الذى يسكن السماء العليا عدة أبناء أو رسل ، يخضعون لأمره، ويقطنون السماء الدنيا ، ويختلف عددهم من قبيلة إلى أخرى ، وهم مكلفون بالسهر على البشر ومساعدتهم .

ويواجه الإله الأسمى ، فى أساطير كثير من شعوب وسط آسيا ، خصم يمثل قوى الظلام والشر . وهو شخصية تحاول دائماً أن تقلب خطط الموجود الأسمى الخيِّر ؛ مستهدفة الظفر بالسيطرة على العالم ، وإقامة مملكة خاصة تسيطر فيها على البشر . لكن قوى الخير والشر ليست متساوية الوزن ، إذ لا شك أبداً فى أن الظفر والسيادة النهائية سوف تكتب لإله السماء ، ومع ذلك فإننا نجد بعض الأساطير تروى أن ممثل الشر والظلام نجح فى قيادة الناس إلى الضلال ، وأوصلهم إلى « سقوط » يشبه سقوط آدم وحواء .

ولقد قام إله السماء وعدوه بدور هام فى كثير من أساطير الخلق ، وفى تفكير الناس فى وسط آسيا وسيبيريا ؛ فتروى معظم هذه الأساطير كيف كان العالم فى البداية يغمره محيط هائل ، وكيف حصل إله السماء بطرق شتى على قطعة صغيرة من الأرض من قاع ذلك المحيط ، ومن هذه القطعة خلق الأرض كلها ، وسرعان ما سكنها الناس والحيوانات .

١٠- الشامان : (١)

تعرف الظاهرة المتميزة غاية التميز فى ديانة وسط آسيا وسيبريا باسم الشامانية Shaman-ism ؛ فالحياة الدينية التى ترتكز على السحر عند السكان المحليين فى شمال ووسط آسيا تقوم من الناحية التقليدية على « الشامان » ، وعلى الرغم من أن هناك كاهناً فى كثير من القبائل يختص بتقديم قرابين الحيوانات ـ كما أن رب الأسرة هو كذلك رأس العبادة الأسرية ـ فإن الشامان ، مع ذلك ، هو الشخصية المسيطرة .

إذا كانت حالة الوجد هى التجربة الدينية على الأصالة ، فإن الشامان هو أستاذ الوجد العظيم ، وعلى خلاف الكهنة الذين تتلبسهم الأرواح وتسيطر على قواهم مؤقتاً ، فإن الشامان هو الذى يتحكم فى الأرواح ، بمعنى أنه قادر على الاتصال بالموتى والشياطين وأرواح الطبيعة دون أن يصبح أداة فى أيديهم . وينفصل « الشامان » عن بقية أعضاء المجتمع بعمق تجربته الدينية ، وهو بهذا المعنى يشبه متصوفى الأديان ذات التاريخ المكتوب .

وتمثل الشامانية باستمرار وسيلة جذب ووجد تحت إمرة نخبة من الصفوة ، كما أن الشامانيين هم الذين يقومون بدور الوسطاء بين شعوب وسط آسيا ، وبين آلهتهم سواء السماوية أو الأرضية . وفضلاً عن ذلك فإن الشامان هو المختص الأول بأرواح البشر ، لأنه وحده القادر على رؤية الروح ، وهو وحده الذى يعرف شكلها ومصيرها .

ويحصل الشامان على ما لديه من قوى وقدرات : إما عن طريق الوراثة بالاستعداد ، أو التوجه التلقائى من خلال الدعاء للآلهة والأرواح ، وفى الحالتين يتم التمهيد لذلك عن طريق شامان عجوز ، أو عن طريق الأرواح مباشرة . ويمكن أن يتم الترسيم (٢) بتأدية

---

(١) الشامان Shaman شخص يشتغل بالتطبيب ، والكهانة ، والسحر ، مستعيناً بقوته على التحكم فى القوى الفائقة للطبيعة ، وكانت الكلمة فى الأصل تشير إلى تلك الشخصية بين قبائل آسيا وسيبريا ، ثم أصبحت تطلق الآن على من يقوم بهذه الوظائف عند كل الشعوب البدائية . وكثيراً ما يلجأ الشامان فى عمله إلى استخدام الحيل ، ومهارة اليد ، والتنويم ، وما إلى ذلك (المترجم) .

(٢) الترسيم Initiation هو دخول العضو فى سلك الجماعة الدينية ، وهو هنا يعنى انضمام العضو إلى السلك الشامانى ! (المترجم) .

الطقوس الدينية العامة ، أو عن طريق الأحلام وتجارب الوجد . ويتضمن التوجه الباطنى ، عادة ، النظام التقليدى للاحتفال بالترسيم : العذاب ، والموت ، والبعث . كما يمكن أن يتم اختيار الشامان عن طريق روح حارس . وهناك حالات لروح أنثى تزوجت الشامان ، وأصبحت زوجته التى تعطيه تعليمات سرية وتعينه فى تجارب الوجد .

١١- الروح المتحررة من الجسد :

يعمل الشامان فى البداية كطبيب معالج لا غنى عنه فى أى احتفال يتعلق بروح بشرى. وهناك إيمان واسع الانتشار بأن الروح تستطيع أن تهجر البدن حتى إذا كان صاحبه لا يزال على قيد الحياة ، وحتى وهو يشرد فى مجالات أخرى فيمكن أن يسقط بسهولة فريسة الشياطين والسحرة ، ويشخص الشامان المرض ، ثم يبدأ فى البحث عن روح المريض الهاربة ، ويمسك بها ويجعلها ترجع من جديد إلى البدن .

وبينما يكون « الشامان » فى حالة الوجد تستطيع روحة ـ أو روحها ، إن كان الشامان أنثى ـ أن تهجر البدن بأمان وتهيم فى مناطق نائية ، ثم ترتفع إلى السماء ، أو تنفذ إلى أعماق العالم السفلى . ويتم الصعود إلى السماء بعدة طقوس متقنة تشتمل على تسلق سلّم أو عمود ، ولقد اعتاد الشامانيون من شعب « الطائيين » أن يضحوا بالخيل للموجود السماوى ؛ لأنهم (أى الشامانيين) هم القادرون وحدهم على قيادة الحيوانات التى يُضّحى بها إلى السماء . والوجه المقابل للصعود إلى السماء هو الهبوط إلى العالم السفلى عبر سبعة مستويات متتالية ، وهى عملية بالغة الخطورة ، تتطلب من الشامان أن يذهب إلى قصر حاكم المناطق التى تقع تحت سطح الأرض . وهذا الهبوط إلى العالم الأرضى يحدث ، بصفة خاصة ، بحثاً عن روح مريض لاستعادتها أو ، بالعكس ، لمرافقة روح متوفى إلى عالم الظلال . والشامان هو وحده القادر على القيام بمثل هذا العمل ؛ لأنه هو وحده القادر على رؤية الأرواح بصفة عامة ، والأرواح المتحررة من البدن بصفة خاصة ، وهو وحده الذى يعرف كيف يتعامل معها .

والانتقال من منطقة كونية إلى منطقة كونية أخرى هو الأسلوب الفنى المتميز الذى برع فيه الشامان . ويمكن أن ينظر إلى الجذب أو الوجد الشامانى على أنه استرجاع للزمن الأسطورى الذى كان الناس فيه يتصلون اتصالاً مباشراً بالسماء . وينظر إلى الشامان على أنه شخص متميز بسبب تجربة الوجد التى يمر بها وتمكنه من أن يحيا ثانية حالة لا تتيسر لسائر البشر . والأساطير تشير إلى علاقة وثيقة وحميمة بين الموجودات العليا والشامان .

وهكذا تظهر الشامانية الأسيوية بوصفها وسيلة سحيقة القدم فى الجذب ، تدل العقيدة التى تستند إليها على الإيمان بإله فى السماء يمكن أن نقيم معه علاقات مباشرة عن طريق الصعود إلى السماء ، ويرتكز دور الشامان فى الدفاع عن التكامل النفسى للجماعة على الاقتناع بأن الموجوات البشرية لا تقف وحدها فى عالم معاد لها تحيط به الشياطين وقوى الشر ، وإنما هناك رجال ونساء مؤهلون ، بصفة خاصة ، للاقتراب من الآلهة والأرواح والعودة بمعلومات موثوق بها من المناطق التى تعلو على الطبيعة .

١٢- النموذج والتنوع :

إن الأنواع الأربعة لديانات القبيلة التى ناقشناها هنا لا تمثل سوى عينة صغيرة للتنوع الهائل للظاهرة الدينية التى نلتقى بها فى المجتمعات البدائية فى آسيا .

وداخل هذا التنوع توجد نماذج معينة يمكن أن نتعرف عليها ، بحيث لا يمكن الشك فى أنها مدت سيطرتها على مناطق واسعة من العالم على نحو ما فعلت الديانات التاريخية الكبرى ، مثل : البوذية ، والمسيحية ، والإسلام ، إذ انتشرت العقائد البدائية كذلك عبر حدود سلالات معينة . ومن ثم فإن هناك تصورات ومواقف وممارسات متشابهة تحدث فى مناطق واسعة ومنعزلة ، وبين أناس من بنى اجتماعية مختلفة .

هكذا نجد أن فكرة إله فى السماء قوى وخيّر وله خصم معاد للبشر يضرهم ويؤذيهم هى فكرة منتشرة بين عدد هائل من الناس فى شمال ووسط آسيا ، وتظهر نفس العناصر الأسطورية ـ مع تعديلات مختلفة ـ خلال هذه المنطقة الواسعة . وقل مثل ذلك عن مفهوم الروح الهاربة التى انفصلت عن بدن الشخص المريض ، وأسرتها أرواح تعيش فى مجالات خارجة عن مجالنا الأرضى ، فهذا المفهوم منتشر فى مناطق تمتد من شمال آسيا حتى جنوبها وبطول المناطق الفلبينية ، وتنطبق عليها أيضاً ممارسات طقوس الشامانيين التى تستطيع ـ وحدها ـ تتبع هذه الروح الهاربة ، واستعادتها مرة أخرى إلى الأرض .

هذا الانتشار الواسع للظواهر والمفاهيم الدينية المتشابهة بين مجتمعات ذات بنى مختلفة، وخلفية اقتصادية متباينة - توحى بأن الأفكار التى تدور حول ما هو فوق الطبيعة لا ترتبط بالضرورة بظروف اجتماعية ومادية خاصة ، وإنما تكون فى بعض الحالات ذات قوة دافعة نابعة من داخلها .

* * *

الفصل الثاني

بلاد ما بين النهرين

تُقَدِّم لنا الحضارات المبكرة فى الشرق الأدنى القديم فرصة فريدة لدراسة نشأة الدين وتطوره فى منطقة ذات أجناس وثقافات مختلطة ، ظهرت فيها فيما بعد ديانات التوحيد الكبرى : اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ، التى تدين جميعها ببعض الدين للمراحل المبكرة في الفكر الديني في بلاد ما بين النهرين موطن السومريين ، والبابليين ، والآشوريين.

ولقد كشف علماء الآثار عن بقايا أقدم المستوطنات القروية (جيرمو Jarmo فى العراق ، وكاتل هييوك Catal Huyuk فى تركيا ، وأريحا فى فلسطين) التى كانت موجودة بالفعل فى الألف السابع أو السادس قبل الميلاد . وفى الألف الرابع تعلمت مجموعات كبيرة من الناس في جنوب بلاد ما بين النهرين (العراق الحديث) ـ التحكم فى مياه نهر دجلة والفرات ، ورى السهول المحيطة بهما ، وهذا التحكم فى البيئة مكّن المدن من الاستقرار على ضفاف الأنهار والقنوات الرئيسية .

ومنذ عصور ما قبل التاريخ وهؤلاء الناس على وعى بالقوى الروحية التى يعتمد عليها وجودهم ، وتشهد على ذلك : بقايا المعابد والهياكل ، وأماكن التضحية وتقديم القرابين ، والتماثيل الرمزية الصغيرة ، وتماثيل الآلهة ، وعادات الدفن ، ومع ظهور الكتابة التى وجدت أولاً فى أوروك Uruk (أوآرك Erech)[1] ، حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م ، ظهر مصدر جديد من الشواهد التى زودتنا بما يقرب من نصف مليون وثيقة مكتوبة على الطين ، وكذلك بألواح الكتابة التى استخدمت العلامات المسمارية الأمر الذى مكّننا من تتبع تطورهم الفكرى ، حتى وصول الغزاة من الفرس والإغريق إلى هذه المناطق .

ولقد طور السومريون خلال الألف الثالثة قبل الميلاد ، وجهات نظر كان لها تأثير هائل، لا على معاصريهم من السومرين الأول فحسب ، بل على خلفائهم أيضاً من البابليين. والآشوريين ، والحيثيين ، والعيلاميين ، وسكان فلسطين من الشعوب المجاورة الذين اعتنقوا معتقداتهم الأساسية ، وكان تصورهم الرئيسى ـ فى جوهره ـ هو أن الكون يتسم بالنظام ، وأن كل ما يمكن أن يدركه الإنسان هو انعكاس لتجلى العقل الإلهى ولنشاط خارق للطبيعة .

---

(١) أوروك (وهى المسماة آرك فى التوراة ، والمعروفة الآن باسم الوركاء) مدينة قديمة فى بلاد ما بين النهرين على الفرات بالقرب من مدينة أرو ـ كانت عاصمة بابل السفلى ـ وكشف التنقيب عن معبد «نانا» ، وهو مبنى على قمة هرم غير منتظم من ثلاث درجات « زيجوارت » ، وكان جلجامش هو الملك الخامس عليها بعد الطوفان (المترجم) .

والعناصر الرئيسية التى يتألف منها الكون عند السومريين هى السماء آن an[1] والأرض ki [2] وتبدو الإلهة الأخيرة أشبه بقرص الغلاف الجوى ليل Lil أو الروح ، وهم يعتقدون أن البحر كان فى البدء هو السبب الأول الذى انبثق عنه الكون المخلوق وتشكلت فيه: الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، وكل ما يتحرك فى طريقه الإلهى المرسوم . وما يحدث فى السماء يحدث على الأرض ، ثم ظهرت النباتات والحيوانات والحياة البشرية.

أما الكائنات التى تعلو على الإنسان والموجودات غير المنظورة التى تتحكم فى الكون الكبير ، وتتجسد فيه ، فكانت بالضرورة توصف بصفات بشرية : من ذلك أنها كالرجال والنساء لها انفعالاتها الطاغية وجوانب ضعفها ، كما أنها تأكل وتشرب وتتزوج وتنجب أطفالاً وتقتنى خدماً ومنازل ، لكنها على خلاف البشر خالدة ... « فالآلهة عندما خلقت البشر احتفظت لهم بالموت ، وأبقت الحياة فى يدها » .

ولقد اعتقد السومريون ـ وفقاً لما تقوله عقيدتهم الدينية ، وهذا قد بقى قائماً فى نصوص مفصلة منذ فجر العصر البابلى القديم حولى ١٩٠٠ ق . م ـ أن لكل موجود كونى أو ثقافى قواعده وقوانينه الخاصة التى تجعله يستمر فى الوجود إلى الأبد وفقاً للخطة التى وضعها الإله الذى خلقه ، وهى تسمى « مه me » بالسومرية[3] وهناك قائمة (مه) وتشمل : السيادة ، الألوهية ، التاج ، العرش ، الملك ، الكهانة ، الحقيقة ، الهبوط إلى العالم السفلى ، والصعود منه ، الفيضان ، الأسلحة ، المعاشرة الجنسية ، القانون ، الغنى ، الموسيقى ، القوة ، العدوان الأمانة ، تدمير المدن ، الصناعات المعدنية ، الكتابة ، الصناعات الجلدية ، البناء ، الحكمة ، الخوف ، الرعب ، الصراع ، السلام ، الضجر ، الانتصار ،

---

(١) يعنى هذا الاسم فى اللغة السومرية الأعالى أو السماء ، ويعنى رمزه بالخط المسمارى : الإله بصفة عامة ويسبق هذا الرمز كل أسماء الآلهة ، وآن هو الإله الرئيسى فى مجمع الآلهة السومرى (المترجم) .

(٢) « كى » تعنى الأرض : أو الأسفل ، وهى زوجة الإله آن ويظهر الزوجان معاً فى النصوص البابلية ، وأنجبا ابنهما إنليل ، وهو إله الجو والعواصف ، وسيد النسيم عند السومريين (المترجم) .

(٣) « مه » من أصعب المصطلحات فى الديانة السومرية ، وهى تعنى : القوى الإلهية ، وهى بهذا المعنى تشمل مؤسسات الوجود ، ونظام الكون الدنيوى والسماوى ، وبواسطتها تتحكم الآلهة فى أمور العالم . والقائمة تضم مهام ووظائف « مه » ، وقد تزيد عن المائة ، وهى تشمل وظائف الكهنة والملوك مع شعائرهم بالإضافة إلى مصطلحات أخلاقية (كالعدل والظلم) ، ومصطلحات من الحياة الجنسية والفنية ، والمهنية ، والأسطورية (المترجم) .

القلب المضطرب ، الحكم (القضاء . غير أن هذه التناقضات الظاهرة فى تعدد الآلهة Pol-ytheism لم يكن يثير قلقاً عند رجال الدين السومريين ، وعندما حل عصر فاره Fara[(١)] (حوالى ٢٥٠٠ ق . م) وضع السومريون مئات الأسماء المقدسة ، وصنفوا كلاً منها على أنه إله ، (والإله فى السومرية هو دينجر Dingir[(٢)] وفى السامية إيل - و) وكتبوا هذه الأسماء مع تصديرها بعلامة لأحد النجوم . ولكل إله أو إلهة خاصية مميزة ، ومناطق مسؤولية محددة ، رغم أن كثيراً منها آلهة ثانوية ، لكنهم يجمعونها فى أسرة تلتف حول إله قوى بوصفها زوجات ، أو أبناء ، أو موظفين ، أو خدماً .

الحاكم الأسمى :

كان « آنو anu » إله السماء فى الأصل هو الحاكم الأسمى والإله الرئيسى فى مجمع الآلهة السومرى ، وكان فى البداية مهتماً بشؤون الحكم ، ويرمز له بغطاء للرأس ذى قرون ـ علامة على ألوهيته ـ وكان معبده الرئيسى فى أوروك Uruk (الوركاء) .

ولكن عندما هزمت مدينة نيبور Nippur المجاورة لمدينة أوروك أصبح إلهها إنليل Enlil إليل Elil (سيد الغلاف الجوى والرياح)[(٣)] ، وأصبح معبده الرئيسى فى إكور Ekur موضوع توقير عالٍ . وإنليل هو المحسن ، والجد الأول الذى يعزى إليه خلق الشمس ، والقمر ، والنباتات ، والأدوات الضرورية التى يسيطر الإنسان بواسطتها على الأرض . وتقول بعض النصوص الدينية إن إنليل هو ابن آنو Anu[(٤)] رغم أنه فى نصوص أخرى من نسل أول زوجين إلهيين ، وهما إنكى Enki ونينكى Ninki (سيد الأرض وسيدتها) [(٥)] .

---

(١) فاره : موقع أثرى فى جنوب الرافدين ، والاسم السومرى القديم له هو شورباك (المترجم) .

(٢) إله الريح (المترجم) .

(٣) إنليل Enlil هو إله الهواء والعاصفة عند السومرين ، واسمه يعنى فى اللغة السومرية « سيد النسيم » ، وهو يأتى فى المرتبة الثانية بعد آنو إله السماء ورئيس مجمع الآلهة ، إلا أن قيام « إنليل » بتنظيم الكون وإخراجه من لجة العماء أعطاه أهمية كبرى فى مجمع الآلهة ؛ فحاز لنفسه ما كان لآنو من هيبة. وكذلك بعد أن قام بفصل السماء عن الأرض بعد أن كانا ملتصقين . واستمر إنليل فيما بعد عضواً فى مجمع الآلهة البابلى ، ولكن فى مركز ثانوى ؛ لأن مردوخ استولى على المركز الأول فى ذلك المجمع (المترجم) .

(٤) هو الإله آن An السابق ذكره الذى يعنى فى اللغة السومرية السماء ، وهو يلفظ بالأكادية آنوم أو آنو (المترجم) .

(٥) آنكى هو سيد الأرض ، ويقابله فى الأكادية اسم (أيا) ، وهو إله الحكمة ، والتعويذات ، وسيد محيطات المياه العذبة فى جوف الأرض ، وبذا يكون الإله أنكى هو إله الخير والعذوبة ومانح الخصب ومفجر الينابيع وزوجته نينكى . وإنكى هو الذى يدير شؤون القوى الإلهية «مه» وبذلك يدير شؤون الكون ، ويحدد نظامه (المترجم) .

وعلى الرغم من أن إنليل يرتبط بمدينة نيبور « فإنه يعد الإله الأسمى لكل سومر ، وهو يمسك بالألواح التى سطرت فيها أقدار البشر جميعاً ، ولقد ظلت مدينة نيبور مدينة مقدسة ومركزاً للحج طوال التاريخ البابلى ، رغم أن الإله مردوخ Marduk[١] استولى فى أواسط الألف الثانية على مكانة إنليل ووظيفته داخل بابل ، وفى آشور كانت نينليل Ninlil ، زوجة إنليل ورفيقته فى ذلك الوقت ، متحدة مع الإلهة العظمى إنين Innin السومرية التى تسمى شعبياً إينانا Inanna [٢] سيدة السماء ، وهى عشتار عند البابليين[٣] .

وثالث قادة مجمع الآلهة (رغم أنه لم يكن لدى السومريين أى تصور عن تثليث الآلهة) هو إنكى Enki (إله العالم السفلى) المعروف أيضاً باسم « إيا Ea »إله الأعماق[٤] فقد حكم المياه فى بدايتها ، وتعزى إليه الحكمة كلها ، وفى مقابل استعلاء « آنو » وإنليل[٥] وغطرستهما نجد أن « إيا Ea » كان محبوباً من البشر ومن رفاقه الآلهة فى آن واحد ، ولما كان يعلم جميع الأسرار ، فقد علّم الإنسان الأول جميع الفنون اللازمة للحياة والتقدم ، وهو الذى عرفهم بخطط الآلهة [٦] ، ولذلك فقد كان الناس يعودون إليه

---

(١) يبدو أن اسمه فى الأصل « مار- دوكو » أى ابن الإله «دوكو» ويذكر جمورابى أنه ابن الإله إنكى وهو إله مدينة بابل ، ثم صعد إلى قمة مجمع الآلهة البابلية لأسباب سياسية خالصة ، فبعد أن كان إلهاً هامشياً أصبح الإله القومى للشعب البابلى فى عهد حمورابى (المترجم)

(٢) إينانا Inanna : إلهة الحب والخصب عند السومريين ، اختارت أن تهبط درجات الموت السبع فى العالم السفلى ، فكان فى نزولها غياب لمظاهر الخصوبة فى التربة ، وغرس الأشجار ، وموت النبات ، وفى صعودها بعد أن قهرت الموت انتعاش لقوى الخصوبة الممثلة فيها وانبثاق الخضرة والحياة فى مملكة النباتات . انظر فى أسمائها المختلفة وأماكن عبادتها وانتشار طقوسها « قاموس الآلهة والأساطير فى بلاد الرافدين » لإدزارد وبوب وورلينغ ، وترجمة محمد وحيد خياطة ص٥٣ - ٥٨ (المترجم) .

(٣) تتخذ الإلهة « إينانا » عند البابلين اسم « عشتار » ، وهى تهبط إلى العالم السفلى لتحرير زوجها تموز الأسير هناك . وذلك عكس « إينانا » التى أرسلت زوجها « دوموزى » للموت مكانها بعد أن صعدت من ذلك العالم ، وذلك كشرط أساسى لتحريرها . (المترجم) .

(٤) لفظ « أيا » هو الاسم الأكادى للإله إنكى السومرى . (المترجم)

(٥) إنليل هو ابن الإله آن أو آنو إله السماء ، وزوجته هى الإلهة نينليل أو الإلهة الأم التى تبرز فى نصوص العصر البابلى القديم كما سبق أن أشرنا (المترجم)

(٦) كان يطلع البشر على خطط الآلهة ؛ ومن هنا فقد أفشى للإنسان سر الطوفان ، كما علّم الناس طقوس التعاويذ (المترجم)

ليستوضحوه بعض الأسرار الملغزة عليهم ؛ ولهذا أصبح فيما بعد راعي السحرة والحرفيين ، وكانت مدينة إريدو Eridu على الخليج العربي هي المركز الرئيسي لعبادته .

وكان ابنه مردوخ Marduk هو الذى عهد إليه برئاسة مجمع الآلهة كله عند البابليين عندما كانت مدينة بابل هى مركز الدولة (أو السلالة) القوية التى سيطرت على معظم بلاد ما بين النهرين . وفى ذلك الوقت كان الإله « نابو Nabu »[1] ابن مردوخ ، وهو راعى العلم ، ولاسيما الفلك وفنون الكتابة ـ قد ظفر بمناطق جديدة تحت سيطرته ، سواء فى بابل أو فى المدينة المجاورة لها ، التى يوجد فيها معبده وهى مدينة « بورسيبا Borsip-pa» ويرجع صعود نجم الإله مردوخ ، من ناحية ، إلى مدرسة دينية ألفّت التراتيل والصلوات لتمجيده، ثم أضافت الفصل الثانى عشر والأخير إلى ملحمة الخلق « الكلاسيكية » ؛ لكى تجمع له النعوت والألقاب التى يوصف بها الآلهة الخمسون الرئيسيون جميعاً . وهكذا نجد فى قوائم الآلهة إلهاً مثل حدد adad[2] يقال عنه إنه « مردوخ » الذى ينزل المطر ، وإله القمر سن Sin [3] على أنه « مردوخ الذى يضىء الليل » ، لقد سعت هذه الجماعة عن طريق عمليتى التوفيق بين المعتقدات والحماس العالى إلى فرض نوع من « الوحدانية Mon-othism » ، ولكنها لم تنجح قط ؛ لأن الآلهة المحلية كان لا يزال لهم أنصار متعلقون بهم رغم توقيرهم «لمردوخ » بقدر توقيرهم لـ « إنليل » من قبل على أنه بعل Bel (أو السيد)[4] ، ولقد قامت هذه الحركة بدورها فى زيادة تبسيط مجمع الآلهة .

وهناك إلهة رابعة هى ننخرساج Ninhursag ، أو نينماح Ninmah (السيدة المبجلة

---

(١) هو إله الحكمة ، فهو إله الكتابة وحامى حمى الأدباء والمدافع عنهم ، وبهذا اكتسب صفة الحكمة، ويرمز إليه ـ عادة ـ بالقلم ، وهو المذكور فى التوراة باسم نبو (المترجم) .

(٢) « حدد » إله المطر والصواعق والسحاب والرعد ، وهو بصفة عامة إله الطقس . يكتب أحياناً أدد (المترجم) .

(٣) لفظ سن هو اسم القمر فى اللغة الأكادية ، ويقال إنه ابن الإلهين إنليل ، ونينليل ، وقرينته هى الإلهة ننجال ، وولداها الرئيسيان (أنانا - عشتار) و (أوتو - شمش إله الشمس) . (المترجم) .

(٤) هو إله المطر والسحاب وكل مظاهر الخصب ، ويختلط أحياناً بـ « حدد » وتحت هذا الاسم دخل مجمع الآلهة البابلى ، وبعل هو السيد (وهو فى اللغة العربية الزوج) ، وفى التنزيل « أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين » الصافات ١٢٥ (المترجم) .

أو الأم الأرض الأصلية)[1] وهي ترتبط في الفكر السومري « بإنليل » و « إيا » في خلق الجنس البشري .

٢- النجوم والكواكب :

هناك مجموعة ثانية من الآلهة تتألف من القمر (وهو نانار Nannar عند السومريين وكذلك سين) ، والشمس (أتو Utu عند السومريين وشاماش أو شمش عند الساميين) ، ثم هناك الكواكب الرئيسية ونجمة الصباح عشتار Ishtar (وهي كوكب الزهرة فينوس Venus) والقمر في قاربه الهلالي (على شكل الهلال) يعبر السماء المظلمة بانتظام ، ويقسم السنة إلى أشهر كل منها ثلاثون يوماً ، أما الإله « نانار Nannar » فهو ابن آنو « Ane (أو ابن إنليل عند آخرين) ، وزوجته ننجال Ningal[2] ، أم إله الشمس والإلهة الرائعـــة « إنانا Inanna » ويقع معبده الرئيسي في مدينة أور Ur وحران .

أما شاماش أو شمش أو الشمس فهو يعبر السماء يومياً بعربته مبدداً الظلام والشر ، بينما يوزع أشعته بالتساوي على جميع الموجودات على نحوٍ صارمٍ ، وبلا تفرقة . وفي الليل يعبر العالم السفلي ، ويواصل دورته ، بوصفه القاضي الأكبر ، و « إله القرارات ، وكان يرمز له في بابل بالشمس ذات الأشعة الأربعة ، في حين كانوا يصورونه في آشور بقرص الشمس المجنح ، على الرغم من أن المراكز الرئيسية لعبادته كانت تقع في مدينة سيبار Sippar ولارسا[3] Larsa ، وكان هناك هيكل واحد على الأقل مخصص لعبادته في كل مدينة من المدن الرئيسية .

---

(١) ننخرساج هي الأرض - الأم عند البابليين ، انبثق عنها كل الأحياء من نبات وحيوان وبشر ، وهي النمـوذج الأمومي الأول ، واسمهـا السومـــري « كي » _ كما سبـق _ ولها أسمـاء أخرى منهـا : «ننماخ» ، و «ننتو» ، و « مامي » ، و « ماما » (المترجم) .

(١) ننجال : إلهة سومرية يعني اسمها « السيدة الكبيرة » ، وهي زوجة إله القمر السومري « نانا » أو ننار ، والأكادي «سن» وأم إله الشمس . أما «أنانا» فهي أيضاً إلهة سومرية تدعى في اللغة الأكادية «عشتار» . وأصل الاسم في اللغة السومرية «نين - أنا» ويعني سيدة السماء . ومن الأسماء الأخرى الثانوية «أنين » وتدعى بصفتها إلهة الزهرة « فينوس » نينسيانا - راجع في ذلك كله « قاموس الآلهة والأساطير في بلاد الرافدين» تأليف . إدزارد ..وترجمة محمد وحيد خياطة ص ٥٢و ٥٣ وأيضاً ص١٣٦ (المترجم) .

(٣) مدن قديمة في بابل على نهر الفرات (المترجم) .

ولقد استولت الإلهة العظيمة « عشتار » [١] بالتدريج على وظائف كثيرة من الإلهات الإناث السابقات ، وأصبح اسمها مرادفاً للفظ « الإلهة » فى حين أنها كانت هى نفسها راعية الحرب والحب فى آن واحد . ويمكن أن نراها فى تعبير الفنون عنها وهى تقف سيدة للمعركة مسلحة بالقوس والرمح ، وترتدى قلادتها اللازوردية وهى تضع قدمها على رمزها : الأسد . أما بوصفها إلهة الحب فقد كانت فى العبادة الشعبية – تعبد فى جميع أنحاء البلاد وتحت صور محلية مختلفة .

ويوجد معبدها الرئيسى فى مدينة نينوى ، كما انتشرت عبادتها من هذه المدينة تجاه الغرب ، حيث عُرفت إلهة الحب والخصب باسم « عشتار إربيل » ، وكان ينظر إليها على أنها ملكة السماء وبهذا الاسم جذبت نساء اليهود [٢] ، وهى تعبد عند السومريين باسم عناة Anat ، وعند العرب باسم عثتر Atar [٣] ، وعند اليونان باسم عشتارت [٤] ، وعند المصريين

---

(١) إلهة شعبية انتشرت عبادتها فى العالم القديم كله ، وهى إلهة الحب والحرب معاً . وقد ذكرتها أسفار العهد القديم بالصفتين معاً ، الأوليحيث توضع أسلحة شاؤول وأبنائه التى غنموها فى الحرب فى معبد الإلهة «ووضعوا سلاحه فى بيت عشتاروت وسمروا جسده» . صموئيل الأول ٣١ : ١٠ ، وكان سليمان يقدسها بالصفة الثانية وبنى لها معبداً شرق القدس فقد : « أحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة . فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب. فذهب سليمان وراء عشتاروت فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله اسرائيل ... لأنهم تركونى وسجدوا لعشتاروت» سفر الملوك الأول ١١ :١، ٤، ٥و٣٣ كذلك: « المرتفعات التى بناها سليمان ملك إسرائيل لعشتاروت» (الملوك الثانى ٢٣ ، ١١) ومازال هذا المعنى الجنسى فى اللغة العربية : عشرت الناقة وأعشرت: حملت . وعُبدت هذه الإلهة عند اليونان باسم أفروديت ، وعند الرومان باسم فينوس (المترجم) .

(٢) قارن العهد القديم « الأبناء يلتقطون حطباً ، والآباء يوقدون النار . النساء يعجن العجين ليصنعن كعكاً لملكة السماوات » إرميا ٧ : ١٨ وأيضاً ٤٤ : ١٩ . (التمرجم) .

(٣) عبدها عرب الجنوب فى اليمن كإله ذكر عثتر أو « إله نجم الصباح » ، وقد ذكرت أيضاً فى أسفار العهد القديم باسمها العربى (المترجم) .

(٤) كانت تعبد عند اليونان باسم أفروديت Aphrodite ، ويرى بعض الباحثين أنها تحريف يونانى للاسم السامى عشتروت ، وهى ربة الخصب (خصب الأرض وخصب المرأة) . وبالتالى ربة الحب . انظر مثلاً « التاريخ اليونانى » جـ ١ ص ٢٧٩ للكتور عبد اللطيف أحمد على . (المترجم) .

باسم إزيس Isis . ولقد كان يوجد فى بابل وحدها مائة وثمانون معبداً على جانب الطريق فى الهواء الطلق حيث كان من الممكن التوجه إليها بالصلاة أو تقديم النذور . ووفقاً لما ترويه نصوص التراث البابلية فقد هبطت عشتار ذات مرة إلى العالم السفلى وهى تبحث عن حبيبها المفقود « دموزى Dummuzi أو تموز Tammuz[١] » ، ونتيجة لهبوطها هذا توقف الخصب والإخصاب فى البلاد ، وكانوا يربطون فى علم التنجيم بينها وبين نجمة السماء ونجمة الصباح (فينوس Venus) .

وهذه الآلهة السبعة الرئيسية كان يخصص لها حجرة داخلية صغيرة فى مجمع الآلهة، وهى الآلهة السبعة التى تحدد مصائر البشر جميعاً ، يساعدها خمسون روحاً عظيماً (آنوناكى Annunaki وأجيجى Igigi)[٢] الذين يحددون ـ مجتمعين ـ القوى الروحية التى تعمل تحت الأرض وفوقها .

٣- ركوب العاصفة :

أما آشور فقد كانت هناك آلهة أخرى موضع توقير وتبجيل : فإله الجو « حدد » يركب العاصفة (مطيته الرمزية)، وهو يرعد كالثور ، ممسكاً فى يده بشوكة البرق الثلاثية . وعلى الرغم من أنه كان يجلب الخراب والدمار عن طريق المطر ، ومع أن عبادته كانت فى بابل وآشور ، فإنه كان أكثر شعبية فى المدن السورية كثيرة التلال حيث كان يسمى « رامان Ramman أو ريمون Rimmon (المرعد) ، أو يعرف باسم « حدد » ، أو آدو Addu ، أو باسمه الحيثى تشوب Teshub .

ولقد احتاجت آشور باستمرار ـ لتأكيد وضعها السياسى والاقتصادى ـ أن تقوم بحملات عسكرية مستمرة لتبقى على طرق تجارتها مفتوحة عبر التلال والصحارى المحيطة ؛

---

(١) دوموزى وهو اسم سومرى يعنى « ابن شرعى » انتقل إلى اللغة الأكادية بلفظ تموز ، كما عرف بهذا الاسم فى الراويات الآرامية وأسفار العهد القديم . وقد روى جيمس فريزر ، الصور المختلفة لعلاقة دموزى أو تموز أو أدونيس بعشتار أو عشتاروت أو أفرويت فى كتاب « أدونيس أو تموز ، وهو قسم من الجزء الرابع من كتابه الضخم : الغصن الذهبى » ، ترجم هذا القسم إلى العربية جبرا إبراهيم جبرا ، المؤسسة العربية بيروت ١٩٨٢ . (المترجم) .

(٢) احتفظ الأكاديون باسم « أنوناكى » ليطلقوه على إلهة العالم السفلى مقابل « إجيجى » أو آلهة السماء السبعة العظام ، هى المسماة بآلهة المصير . (المترجم) .

ولهذا لا يدهشنا أن نرى آلهتها تتسم فى الأعم الأغلب بسمات عسكرية ، وذلك مثل « نينورتا Ninurta »[١] إله الحرب والصيد ، وربما كان هو نفسه نمرود Nimrod[٢]وكان أيضاً جيرسو Girsu عند السومريين ، وهو أيضاً نوسكو Nusku [٣] وجبيل Gibil[٤] إله النار . ويضيف الساميون الفارون إلى الغرب آلهة أخرى إلى مجمع الآلهة البابلى مثل « أمورو Amurru [٥] و» دجن Dagan « [٦] اللذين يبتهل إليهما بأسمائهما الشخصية.

ولكل إله من الآلهة الكبرى صفات خاصة يبتهل له عبّاده بها أثناء الصلاة ، وهى فى مجملها تشع بهاء « وروعة » ، وتخلق جواً من الرهبة يجعل الأنصار قبل الأعداء يرضخون، وقد كان لكل منها أيضاً تمثاله ورمزه الذى أُنفق على زينته بسخاء ليحل محل الإله نفسه ويُعرف الإله فى الأعمال الفنية ، بغطاء للرأس ذى قرون ؛ حتى لا يبدو منظره عادياً كأى رجل أو امرأة ، ولابد لكل إله أن يحمل رمزاً يعين هويته مثل إله الشمس « وشاماش أو شمش Shamsh » الذى يحمل فى يده منشار البت والقطع ، أو تراه واقفاً فوق حيوان رمزى أو بجواره . كما نجد «مردوخ» يقف فوق نسر له رأس حية ، أو أسد. والإلهة جولا Gula[٧] إلهة الشفاء يمكن تمييزها فى الآثار الفنية من وجود كلبها بجوارها . ويمكن كذلك تمييز الآلهة الرئيسية بعدد معين يمكن استخدامه فى كتابة أسمائهم ، آنو العدد ٦٠، وإنليل ٥٠ ، وإيا ٤٠ ، وسين ٣٠ ، وشمش ٢٠ ، وعشتار ١٥ .

---

(١) إله سومرى يعنى اسمه « سيد الأرض » وهو ابن الإله إنليل ، اكتسب شخصيته القتالية عندما بدأت شعوب جبلية تهدد أمن الدولة البابلية واستقرارها . (المترجم) .

(٢) نمرود فى الكتاب المقدس : ابن حام بن نوح كان جباراً « نمرود الذى ابتدأ يكون جباراً فى الأرض والذى كان جبار صيد أمام الرب . ولذلك يقال كنمورد جبار صيد أمام الرب » . سفر التكوين الإصحاح العاشر ٨ ـ ١٠ . (المترجم .

(٣) نوسكو : إله سومرى قديم معروف بوصفه ابن الإله إنليل ، وهو يظهر فى النصوص الأكادية إلهاً للضوء والنار . (المترجم) .

(٤) جبيل : هو إله النار الذى يمكن أن يكون مصدر خير أو شر وفق التأثير الذى تحدثه النار نفسها . (المترجم) .

(٥) أمورو ـ وهو أيضاً « مارتو » الاسم السومرى لإله البدو القاطن فى الصحراء ، وهو أيضاً إله الطقس الذى يعصف بالمدن والقرى مسبباً الخراب . وكان السومريون يشبهون هجوم البدو بالصاعقة . (المترجم) .

(٦) إله الشمس عند البابليين . وقد كان إلهاً للعدل أيضاً وهو الذى أوحى إلى حمورابى بشريعته (المترجم) .

(٧) جولا ـ ومعناها « الكبيرة » ـ هى إلهة الشفاء ، ويرمز لها بالكلب كشعار ، وفى بعض الأحيان يصورونه كلباً مجنحاً ذا رأس بشرى . (المترجم) .

٤- حكايات وقصص :

المناقشات الفلسفية المتعلقة بأدوار بعض هذه الآلهة وقواها النسبية وجدت تعبيراً عنها فى الحكايات والقصص (الأساطير بأوسع معنى لهذه الكلمة) وقد وضعت ـ فى الأعم الأغلب ـ لتفسير الوقائع الكسمولوجية والمعتقدات الشائعة ، وعلى ذلك نجد أن أسطورة «إنانا» و « إنكى » التى تروى كيف نقلت فنون الحضارة « الـ مه me »(١) من مدينة إريدو Eridu إلى مدينة أوروك قد حاولت أن تفسر كيف أصبحت المدينة الأخيرة المركز الروحى الأول فى سومر بفضل الإلهة « إنانا » وهى الإلهة الأم ذات العبادة واسعة الانتشار؛ فقد زارت « إنانا » الإله « إنكى » المطلع على قلب الآلهة ذاتها »(٢) فى مدينة « أريدو » فأقام لها وليمة شهية حتى لعبت الخمر برأسه فوهبها ألواح القدر « مه » التى تشتهيها ، وحملتها « أنانا » مسرعة على سفينة السماء . وعندما أفاق « إنكى » أرسل رسوله «اسيمود Isimud ليخبر إنانا أن الإله غيّر رأيه ، وعلى الرغم من الهجمات المتكررة التى شنتها عليها وحوش المثير فقد وصلت إلى مدينتها « أوروك » بسلام فى النهاية بمساعدة وزيرتها نينشوبور Ninshubur .

وظهرت الإجابة عن السؤال حول أصل العالم فى أساطير مختلفة اشتركت فيها الآلهة فقد كان مولد القمر ـ مثلاً ـ موضوع قصيدة ، فى حين أن ملحمة « الإينوما إيليش Enuma Elish(٣) ـ وهى واحدة من ملاحم الخلق عند البابليين ، وقد سميت بكلمات

---

(١) هى القوى الروحية أو القوانين الثابتة للكون ، ومن يحصل عليها يتحكم فى الأشياء ؛ ولهذا تسمى أحيانا « ألواح القدر » وقد وضعت الإلهة إنانا نصب عينها الحصول عليها . (المترجم) .

(٢) إنكى هو إله الحكمة كما ذكرنا ولهذا كان يسيطر على القوى الروحية « مه » ، وعندما زارته الإلهة إنانا فى مدينة أريدو المركز الرئيسى لعبادته ، استقبلها بحفاوة بالغة وعندما لعبت الخمر برأسه وهبها ألواح القدر فأسرعت بها قبل أن يفيق من سكره ، ولكنه أرسل خلفها وزيره « إسيمود » للبحث عنها فى المحطات السبع التى تتوقف فيها ، وزوده بمجموعة من العفاريت ، ولكن سفيرتها « نينشوبور » تساعدها حتى تصل سفينة الألواح المسروقة إلى شاطئ الأمان فى أوروك سالمة . (المترجم) .

(٣) ملحمة التكوين البابلية « إلينوما إيليش » والاسم يعنى حرفياً « عندما فى الاعالى » . وهى الكلمات الافتتاحية التى تبدأ بها الملحمة « عندما فى الأعالى لم يكن هناك سماء .. وفى الأسفل لم يكن هناك أرض » .. لم يكن فى الوجود سوى المياه الأولى ممثلة فى ثلاثة آلهة هى أبسيو وتعامه وممو ، أما أبسيو فهو الماء العذب ، وتعامه زوجته هى الماء المالح ، وأما ممو فيعتقد البعض أنه الأمواج المتلاطمة وقد ترجمها أنيس فريحه مع ملحمة جلجامش بعنوان « ملاحم وأساطير من الأدب السامى » بيروت ١٩٦٧ كما ترجمها فراس السواح فى كتابه مغامرة العقل الأولى ـ دراسة فى الأسطورة : سورية وبلاد الرافدين ـ دمشق ، العربى للطباعة والنشر ، ١٩٨٧ ، ص ٥١ ـ ٨٩ (المترجم) .

الافتتاحية « عندما فى الأعالى » - تعزو خلق السماوات والأرض إلى البطل « مردوخ » الذى حارب تعمة أو تيمات Tiamat (تنين البحر) ومعناها الحرفى اليّم أفعى الظلام ، وقتلها ثم شقها نصفين فانفتحت كالصدفة ، فصنع السماء من نصفها الأول والأرض من نصفها الثانى . وهناك ملحمة أخرى تصف تكوين الأرض بطريقة أكثر واقعية ، فالإله يربط قصبات بعضعها إلى بعض ويبسط الأرض فوقها على طريقة تكوين القرى فى المستنقعات الجنوبية فى بلاد ما بين النهرين .

وتروى النصوص السومرية أصل الرجال والنساء بلغة الميلاد ، ففى إحدى الحكايات يعمل « آنو وإنليل » سوياً متعاونين مع الإلهة الأم « ننخرساج » فى خلق البشر .

وفى رواية أخرى نجد أن « إيا Ea[1] والإلهة أرورو Aruru » يخلقان الإنسان من الطين بقوة الكلمة الإلهية ، وتصف الملحمة البابلية القديمة « أتراحسيس Atrahasis » ميلاد الموجودات البشرية فى شيء من التفصيل[2] عندما جعلت « إنليل » الإلهة الصغرى تحفر القنوات ، وتعمل من أجل ازدهار الزراعة التى يعتمد عليها غذاء الآلهة أنفسهم ، فقاموا بالإضراب والامتناع عن هذا العمل الشاق ، ووصلت شكواهم إلى آنو Anu إله السماء وبقية الآلهة . فخلقوا البشر من طين ودم بفعل من أفعال الميلاد مستخدمين الإلهة الأم (التى تسمى ماما Mama أو نينتو Nintu) ، وتناولت الإينوما إيليش هذا الموضوع ذاته عندما ذهبت إلى أن خلق البشر عمل يخدم الآلهة ، ولقد قام بهذا الخلق مردوخ بعد انتصاره على تعامة فمزج الطين بدم إله مقتول هو الإله كينغو Kingu[3]

---

(١) إنكى فى السومرية هو نفسه « إيا » فى الأكادية (المترجم) .

(٢) أتراحيس فى اللغة الأكادية يعنى الرجل الحكيم ، ويبدو أنه أحد أبطال الأسطورة التى تتحدث عن خلق الإنسان بواسطة الإلهة الأم « مامى » فيغضب إنليل بسبب الضجيج الذى يحدثه البشر ويرسل الطاعون وسبع سنين عجاف . إلا أن إتراحيس يتمكن بمساعدة إنكى من تجنيب البشر هذه المصائب فى كل مرة ، عندهايقرر إنليل التخلص من البشر بواسطة الطوفان . لكن أتراحسيس يبنى سفينة بناءً على نصيحة الإله إنكى لحفظ أرواح البشر (المترجم) .

(٣) الإله كينغو هو الذى اختارته تعامه أو تيمات زوجاً لها وقائداً لجيوشها فى حربها مع مردوخ ، وبعد أن قتلها مردوخ وسجن زوجها ، خلق الإنسان من دماء الإله السجين كينغو عندما قتله ، وأفرج عن بقية الأسرى ، كما خلق النباتات والحيوانات .. إلخ (المترجم) .

٥- العصر الذهبى :[١]

تعـود إحـدى القصص السومريـة واسمها « انيمكار وإله أراتا » إلى العصر الذهبـى :

« فى تلك الأيام لم يكن هناك حية ولا عقرب ،
لم يكن هناك سبع ولا ضبع ولا كلب شرس ولا ذئب
لم يكن هناك خوف ولا رعب ،
لم يكن للإنسان منافس ولا غريم ،
كانت بلاد مارتو Martu (الغرب) آمنة مطمئنة ،
وكان الكون جميعه ، والناس كلهم
يمجدون إنليل بلسان واحد »

وهناك أسطورة أخرى لإنكى تتحدث عن أرض الأحياء الطاهرة المشرقة ، أرض دلمون Dilmun على الخليج العربى[٢] : ها هنا كل شيء فى سلام ، فلا مرض ولا شيخوخة ، رغم نقص المياه العذبة ، وعندما ظهر إله الشمس ليستخرج الماء من الينابيع ، أصبح المكان جنة حقيقية ، ومرتعاً للآلهة الخالدين ، ثم تقوم « ننخرساج » بخلق ثمانية أنواع من النباتات ، وعندما أكلها كلها لعنته الآلهة ، لكنها اقتنعت فى نهاية الأمر بخلق ثمانية آلهة لعلاجه ، كل إله يختص بعلاج أحد أعضاء « إنكى » العليلة[٣] وقد خلقت الإلهة هؤلاء الإلهات بأن وضعتهن بغير ألم وتحمل واحدة منهن هى نينتى Ninti[٤] المختصة بعلاج

---

(١) تصور أسطورة العصر الذهبى الإنسان فى الفردوس قبل هبوطه إلى الدنيا حيث كان سيد نفسه وسيد الطبيعة . (المترجم) .

(٢) تصف الأسطورة أرض دلمون بقـولهـا « أرض دلمون مكان طاهر ، أرض دلمون مكان نظيف ، أرض دلمون هى الجنة » . (المترجم) .

(٣) تذهب الأسطورة إلى أن « إنكى » أخرج ماءه ، وسقى تربة زوجته الأرض ، فحول دلمون إلى جنة إلهية خضراء . ومن اتحاد الماء (إنكى) والتربة (ننخرساج) امتلأ الفردوس بالحقول والأشجار والثمار ، وتظهر مجموعة من إلهات النباتات ويقوم « إنكى » بإغوائهن تاركاً زوجته ! غير أن ننخرساج تقوم بخلق ثمانية أنواع من النباتات العجيبة ، وقبل أن تفرح بزرعها يرسل إنكى رسوله « إسمند » ليقطف له تلك النباتات ويأكلها جميعاً . وما أن تعلم زوجته ذلك حتى تغضب غضباً شديداً وترسل على إنكى لعنة مقيمة « إلى أن يوافيك الموت لن أنظر إليك بعين الحياة » ، فتهاجمه ثمانية علل بعدد النباتات التى أكلها . لكن تخضع ننخرساج فى النهاية لمشيئة الآلهة ، وتقوم بإشفاء إنكى عن طريق خلق ثمانية من الآلهة يختص كل إله بشفاء أحد أعضاء إنكى العليلة . (المترجم) .

(٤) كلمة « تى » فى اللغة السومرية تعنى « الضلع » كما تعنى أيضاً « أحيا » أو بعث فيه الحياة . أما كلمة « نن » فهى تعنى سيدة ـ انظر مغامرة العقل الأولى ـ فراس السواح ص ١٩٣ (المترجم) .

ضلعة اسماً يمكن أن يعنى « سيدة الضلع » أو السيدة التى « تُحيى » ، وهى تذكرنا بحواء التى أُخذت من ضلع آدم على نحو ما جاء فى سفر التكوين .

وينعكس التمرد البشرى على الآلهة فى قصة البستانى شوكاليتودا Shukalletuda، الذى ارتكب خطيئة قاتلة بأن أوقع « إنانا » فى الغواية[١] ، وطبقاً لما جاء فى ملحمة « أتراحسيس Atrahasis » فقد انسحب الناس من أعمالهم على نحو ما فعلت الآلهة الصغرى ، وغضب الإله إنليل لأن الخروج عن العمل الإلهى الذى يقتضى تزويد الآلهة بما تحتاج إليه، مضافاً إلى ذلك الضجيج الذى أحدثه تكاثر الأعداد الهائلة من الجنس البشرى ـ كل ذلك حرم إنليل من النوم فأراد حل المشكلة (بالقضاء عليهم) ، وسلط عليهم الطاعون ، والمجاعة ، والجفاف ، والقحط غير أن تدخل الإله « إنكى » مكّن الرجال والنساء من البقاء ، وتجنب هذه العقوبات المتكررة[٢] .

٦- الهروب من الطوفان :

تصور ملحمتا أتراحسيس وجلجامش الطوفان على أنه عقاب أنزلته الآلهة بالجنس البشرى . ولقد ظفر البطل ـ وهو إنسان ـ فى كل ملحمة منهما بالخلود ، وبقى بفضل ما قدمه له الإله إنكى من تحذيرات (أو الإله إيا Ea) ، وكذلك عن طريق بناء سفينة تهرب عليها عائلات البشر والحيوانات . إن « أوتنابشتيم Utnapishtim الملقب بالبعيد»[٣] ينبىء جلجامش الذى كان قد عبر لتوه نهر الموت ، كيف هرب من الطوفان ، وكيف استقرت سفينته فى النهاية على جبل « نصير Nisir » بعد أن اختبر انحسار الماء بأن أطلق أنواعاً

---

(١) تروى أسطورة سومرية أن بستانياً اسمه « شوكاليتودا » زرع شجرة تعهدها بالرعاية والعناية حتى كبرت ونشرت ظلها الواسع على معظم أجزاء حقله ، وحدث أن دخلت الإلهة « إنانا ! » البستان متعبة بعد رحلة طويلة قامت بها ، وغلبها النوم فرآها البستانى فضاجعها ، وتنتقم الإله لنفسها بأن ترسل ثلاث مصائب متلاحقة إلى بلاد سومر ، الأولى : تجعل الآبار تنبع دماً عوضاً عن الماء ، والثانية : تغرق سومر بالسيول والعواصف ، والثالثة : غير واضحة . قارن المرجع السابق ص ١٥٧ ، والقاموس ص ٦٢ (المترجم) .

(٢) سبق أن ذكرنا أن الإله إنكى هو صديق الإنسان ، وهو أشبه بالإله بروميثوس فى الميثولوجيا اليونانية فى مساعدته المستمرة للجنس البشرى (المترجم) .

(٣) أوتنابشتيم « الملقب بالبعيد » وهو الشخص الذى كان يبحث عنه جلجامش بعد عبوره نهر العالم السفلى ؛ ليعرف منه سر الحياة الأبدية التى وهبتها له الآلهة (المترجم) .

مختلفة من الطيور[1] . ولقد غضب الإله إنليل لأن إنساناً استطاع الهرب من الدمار ، ثم اقنعته الآلهة بعد جهد أن يهبه الخلود .

يقول أوتنابشتيم لجلجاميش : أما الآن فمَنْ لأجلك سيدعو الآلهة إلى مجمع مقدس حتى تجد سر الحياة الذى تسعى وراءه ؟ وفى سلسلة من الاختبارات أثبت أن الإنسان العادى عاجز عن أن يظل يقظاناً سبعة أيام وسبع ليال ، أو أن يحافظ على نبتة الحياة إذا ما حصل عليها مرة .

وهناك ملاحم أخرى تحاول أن تفسر جوانب الشذوذ فى عملية الخلق ، من ذلك مثلاً وجود كائنات بشرية ناقصة ، أو وجود بعض الشخصيات المتميزة ، أو عادات البدو فى أرض مارتو Martu كما كانت الكوارث والأمراض التى جلبتها رياح الجنوب موضوعاً لقصة الإله نينورتا Ninurta[2] والعفريت أساج Asag عفريت الأوبئة ، وفى استطاعتنا أن نلاحظ أن جميع هذه القصص يتكرر فيها ورود تصورات معينة خاصة بالسفر أو الترحال ، والعقاب، وتدخل الآلهة ، ونبتة الحياة ، والحاجة إلى التعبد وخدمة الآلهة .

٧- الموت هو قدر الإنسان :

على الرغم من وجود الكثير من الأساطير التى تؤكد أهمية سعى الإنسان وراء الحياة ،

---

(١) أرسل فى البداية حمامة لكنها عادت ، ثم أرسل سنونو ولكن ما لبث أن عاد ، ثم جاء بغراب وأطلقه فى السماء ، فكان الغراب بعيداً ، ولما رأى الماء قد انحسر أكل وحط ولم يعد ، قارن ذلك بما جاء فى سفر التكوين « وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التى كان قد عملها ، وأرسل الغراب ، فخرج متردداً حتى نشفت المياه من الأرض ، ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض . فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت إليه فى الفلك فلبث أيضاً سبعة أيام أخر ، وعاد فأرسل الحمامة من الفلك فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون فى فمها ، فعلم نوح أن المياه قد قلت من الأرض . فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً ... » سفر التكوين الإصحاح الثامن ٦ ـ ١٣ (المترجم) .

(٢) نينورتا ـ إله سومرى يعنى اسمه « سيد الأرض » وهو ابن الإله إنليل . وزوجته هى آلهة الشفاء «جولا»، وهو يجسد الخصوبة فى أقدم مظاهرها . أما « أساج » فهو عفريت سومرى يعنى اسمه « الذى يضرب الذراع » ، وتحول هذا الاسم إلى « اسباكو » فى اللغة الأكادية » ، وكان فى الأصل عفريت الأوبئة والأمراض ثم أصبح عفريت ـ أعداء سومر ـ القاطن فى الجبال ، والقصة التى يشير إليها المؤلف تروى الحملات التى كان الإله نينورتا يشنها ضده فى الجبال (المترجم) .

مثل أسطورة إتانا Etana الراعى الذى حاول أن يرقى إلى السماء على أجنحة النسر [١] فقد باءت كل هذه المحاولات بالفشل ؛ إذ كان الموت نصيب البشر رجالاً ونساء ، بل إن دموزى Dumuzi الذى كان فى الأصل ملكاً على أوروك ، والذى قيل إنه تزوج من الإلهة إنانا ، كان لابد أن يموت . وعندما هبط إلى العالم السفلى راحت حبيبته تبحث عنه بغير جدوى، وبقى دموزى ليحكم تلك الأرض التى لا عودة منها ، وعلى عكس الاعتقاد الشائع ، وأيضاً على عكس الافتراض الذى افترضته مجموعة من الباحثين فى تفسيرهم للأسطورة وللطقوس الدينية بأنها تمثل البعث الذى يعبر عن الموت الموسمى للنبات وعودة الحياة إليه - على العكس من ذلك فإن دوموزى أو تموز لم يعد إلى الحياة على الأرض مرة أخرى طبقاً لما ترويه الأسطورة التالية التى تتحدث عن هبوط عشتار إلى العالم السفلى [٢]

وهناك قَدْر من الغموض فى نظرة بلاد ما بين النهرين إلى الموت والحياة الأخرى ، فالجحيم المظلم أرالو Arallu ، أو الأرض الهائلة ، أو « دار الأشباح »[٣] توجد تحت الأرض

---

(١) « إتانا » هو الملك الثانى عشر من الملوك السومريين بعد الطوفان البابلى ، وهو يوصف « بالراعى الذى صعد إلى السماء » . وكان عقيماً فنصحه إله العدالة (شمش) أن يتوقف خلال بحثه عن نبتة الإنجاب عند حفرة كانت حية قد حَبست فيها نسراً وأن يحرره منها ، وعرفاناً بالجميل يقوم النسر بحمل « إتانا» الذى أعتقه من الأسر على ظهره ، وينطلق به تجاه السماء إلى المكان الذى توجد به النبتة المقصودة ، وعندما تغيب الأرض عن ناظريه يمتلك « إتانا » الشعور بالخوف والقلق ، فيقرر الكف عن البحث والعودة إلى الأرض ، إلا أن النسر وإتانا يسقطان على الأرض .

انظر قاموس الآلهة ص ٢٧ (المترجم) .

(٢) لهذه الأسطورة الكثير من الصور « فدموزى » الراعى الذى تختاره الإلهة إنانا عشيقاً وزوجاً يصطحب عروسه إلى أهل بيته ، وفى الطريق يلقنها آداب السلوك وكيف ينبغى عليها أن تتصرف تجاه والديه فتشعر الإلهة أن زوجها قد حط من شأنها وقلل من أهميتها ، وعاقبته الإلهة وتخلت عنه وهو فى العالم السفلى ، وقد عاقبت عشتار تموز أيضاً فى النص الأكادى لملحمة جلجامش ، أما أسطورة أدونيس وأفروديت فقد كان قرار زيوس هو الذى حكم بأن يقضى أدونيس شطراً من السنة تحت الأرض ، وشطراً فوقها ، وهو شكل آخر من الأسطورة عبر فيه الإغريق عن احتجاب أدونيس وعودته إلى الظهور مرة أخرى - قارن مثلاً جيمس فريزر ، أدونيس أو تموز - ترجمة جبرا إبراهيم جبرا ص ٢٣ (المترجم) .

(٣) « آرالو » أو « أزالى » هو العالم السفلى أو عالم الأموات وهو « الوطن بلا عودة » ، وهو عالم مظلم موحش ، وإن كان إله الشمس يقوم برحلة ليلية إليه عبر بوابته بعد أن يفرغ من دورته النهارية على الأرض، وأشعته هى البصيص الوحيد من النور الذى يدخل إلى هذا العالم (المترجم) .

وتبلغها أرواح المتوفَّين عندما تعبر بالقوارب نهر خُبرة Habour[١] وينعكس هذا الاعتقاد على شكل القوارب التى عُثِرَ عليها فى بعض القبور ، فها هنا نجد مملكة إريشكيجال Erishkigal وزوجها نرجال Nergal[٢] مع حاشيتها من الآلهة والموظفين من صرعى الحروب بما فى ذلك وزيرهما أشروم[٣] ، وإلهة الكتابة بعلة صيرى Beleterstim التى تقوم بتسجيل الداخلين ، وهؤلاء جميعاً يحتاجون إلى طعام وملابس وأدوات ، شأنهم شأن الآلهة الموجودة على سطح الأرض ، والبشر الذين يعيشون فوقها ، وتعتمد مرتبة المرء فى العالم الآخر على نشاطه إبان حياته ويتولى الحكم على أرواح الموتى إله الشمس الذى يمر بالعالم السفلى فى السماء فيزودهم بالضوء الوحيد الموجو لديهم ،كما يحكم عليهم أيضاً الإله نتار الذى يقرر نصيبهم .

يقص « أنكيدو » أحلامه على جلجامش ويصف العالم السفلى بأن الحياة فيه كئيبة موحشة ؛ فهى انعكاس شاحب للحياة على الأرض ، ويروى له كيف سيق إلى بيت الظلام

إلى البيت الذى لا يغادره من يدخله ،
إلى الطريق الذى لا عودة منه ،
إلى المكان الذى لا يرى سكانه نوراً ولا ضياء .
حيث الغبار طعامهم والطين قوتهم ،
عليهم أجنحة بدل الملابس ،
يعيشون فى الظلام فلا يرون النور .
فى بيت التراب شاهدت الملوك ، وتيجانهم مطروحة على الأرض ، والأمراء الذين حكموا فى القرون الخوالى .

ملحمة جلجامش : اللوح السابع (٣٤ - ٤٢)

---

(١) الإقامة فى العالم السفلى جبرية ، لا مفر منها ، حتى أن الآلهة نفسها لا تستطيع مغادرته إلا بعد أن تضمن البديل ، حتى العظماء والأبطال من الحكام الأرضيين الذين ارتقوا إلى مصاف الآلهة يتحولون إلى آلهة من آلهة العالم السفلى مثل جلجامش وإتانا ، وحياة الأموات حياة قاتمة مظلمة غير مبهجة ويحمل إله الشمس الضوء والطعام والشراب خلال رحلته الليلية إليهم . وللعالم السفلى نهر يشكل حدوده وعلى الآلهة أن تعبر سبع بوابات للوصول إليه . قارن فى ذلك كله قاموس الآلهة ص ١١٤ (المترجم)

(٢) إريشكيجال هى إلهة العالم السفلى ، وزوجها هو الإله نرجال ، وابنها ووزيرها الإله نمتار « وحارس بوابتها نتى ، وأمينة سرها وكاتبتها هى الآلهة بعلة صيرى أو بلت صيرى فى الرواية الأكادية (المترجم) .

(٣) اشروم إله أكادى تذكر الروايات البابلية أنه بطل ومستشار الإله نرجال ، وهو صديق البشر (المترجم) .

وهؤلاء النزلاء يُطعمون ويسقون مياهاً باردة من زقاق الماء ، وتلك مسؤولية الابن الأكبر الذى عليه أن يقوم فى فترات دورية بسكب السكائب تكريماً للآلهة ، وتقديم ولائم جنائزية ليقيم أود الأسلاف فإذا ما رقد شخص ما (أورروحه إتيمو Etemu)[1] بغير دفنٍ ، أو حرمت من المساندة التى يقدمها الأحياء فإنها تطوف بهم وتعذبهم ويدفن الملوك ـ كالعامة ـ فى مقابر ، أو أسفل مساكنهم ، وتضم القبور الملكية فى أور (٢٦٠٠ ق.م) ما بين ٧٣ إلى ٧٤ من الأتباع والموسيقيين ، كما تشتمل على هدايا من الجواهر ، وأوانى ، وأدوات موسيقية ، ومزلجة للمدفن وحيوانات لتجرها (كما هى الحال فى مقبرة بـو آبـى Pu - Abi) وربما كانت هذه ممارسات من أصول غير سامية استمدت من خارج بلاد ما بين النهرين ، لأنها مشابهة لتلك الطقوس المعروفة فى مصر ، وإن كانت تشير على كل حال إلى حاجة الإنسان للتزود بالمؤن من أجل الحياة فى العالم الآخر .

٨- الديانة الشخصية :

تقول الغالبية العظمى من النصوص التى تروى عن دور الملك الرسمى فى العبادة : إنه مثل الآلهة على الأرض أو هو ينوب عنها ، فقد منحته الآلهة السلطة لكى يتصرف نيابة عنها ، وهى تتوقع منه أن يعامل الناس بالعدل ، وبلا محاباة بحيث يدافع عن الضعيف أمام القوى ، وأن يكون نصيراً لليتامى والأرامل . وقد كان يحافظ على الاعتبارات الأخلاقية لما تجلبه من رضا الآلهة وبركاتها كما أنها تمنع لعناتها . ولقد تداولت الأجيال طرائق الحياة والحكم السليمة ، وأيدتها بالنصوص التى تقدم التعليمات والنصائح . لقد كانوا يعتقدون أن سلامة الملك تقوم عليها سلامة الجماعة ، ولهذا فإنه تُتخذ إجراءات صارمة لضمان ذلك كما أن ضمان استمرار الإنجاب يجعل الملك ـ بوصفه خليفة « ديموزى » ـ يعيد ممارسة طقوس الزواج المقدس مرة أو أكثر فى عهده ، أما دور الآلهة فيعهد به إلى كاهنة منتقاة .

وما يقوم به الملك طوال حياته من أعمال تحكمه طقوس دينية واحتفالات تضمن طهارته وتحرس شخصه ، وفى حالات معينة كحالة ترقب نذير مشؤوم يوضع على العرش ملك بديل يتلقى الفأل السيىء أو حتى الموت إذا كانت النبوءة تقول به .

ولقد حدث ذلك مرة ، على الأقل ، فى عهد أسرحدون Esarhaddopn الآشورى

---

(١) كانوا يعتقدون أن الميت إذا لم يدفن على خير وجه عذّب الأحياء ، وإذا لم يدفن قط حامت روحه حول البالوعات تطلب الطعام (المترجم) .

(٦٨٠ - ٦٦٩ ق م) وليس ثمة دليل على أن الملك كان يعد نفسه إلهاً ، رغم أن هناك بعض الملوك (وهم أساساً من الأسرة الثالثة فى سلالة أور ur) كانت توجه إليهم الصلوات والتراتيل ، وربما كان ذلك جزءاً من حفلات التأبين التى تقام لهم كل عام .

ويمكن للأفراد ـ إلى حدٍ ما ـ أن يتحكموا فى حياتهم كما يفعل الملك ، كما أنه لابد لهم من توجيه صلواتهم إلى إلهٍ بعينه ، يعبدونه ويتلون التراتيل التى تمجد صفاته الإلهية ومنجزاته ، وتنتهى بتسبيحة نمطية للشكر ، وتشمل المزامير السومرية والأكادية تراتيل موجهة إلى المعابد والمدن المقدسة . ويمكن أن تتجه الناس إلى الإلهة الشفيعة « لاما Lama » التى تأخذ بيد المتعبد إلى حضرة الإله ،كما يؤخذ المرء إلى حضرة الملك الجالس على عرشه ، ويمكن كذلك الابتهال إلى الأرواح الحارسة « شيدو Shedu » «ولا ماسو Lamasu » لكن من الواضح أن المسؤولية الفردية ضرورية فى الدين .

« اعبد إلهك كل يوم ،
وقدم له القرابين والصلوات
التى تتم على أكمل وجه ، مع تقديم البخور ،
قدم قربانك طائعاً لإلهك ؛
لأن ذلك يتناسب مع الآلهة .
قدم له الصلاة والضراعة والسجود كل يوم ،
وسوف تثاب على ما تفعل .
عندئذ سيكون بينك وبين الله اتصال كامل ،
إن التبجيل يولد الحظوة ،
والقربان يطيل الحياة ،
والصلاة تكفر عن الذنب » .

(نصائح الحكمة ١٣٥ - ١٤٥)

ويستطيع المتعبد الثرى ، بدلاً من القيام بنفسه بالصلاة والنواح ، أن يودع المعبد شيئاً مناسباً على سبيل الهدية (تمثالاً صغيراً ، بعض الأوانى النحاسية ، شاهداً أو حجراً تذكارياً Stelao أو خاتماً ، قطعة من الجوهرات ، نموذجاً مصغراً) وتوضع هذه الأشياء على مقربة من تمثال الإله لتذكره بالطلب ، أو لتشكره على نعمه . وقد تكتب الصلوات

كذلك على هيئة رسائل توجه بطريقة مناسبة ، وتكتب ـ عادة ـ فى شيء من التفصيل عارضة الشكوى أو الالتماس أو الاحتجاج أو الصلاة ، وإيماءات الصلاة ، بالإضافة إلى الركوع والسجود ، هى : رفع اليدين معاً إلى أعلى ، أو وضع يد واحدة أمام الفم على أن تكون راحتها تجاه الوجه .

٩- العبادة :

المعبد هو بؤرة النشاط الدينى ، ويعد معبد الإله إنكى Enki فى مدينة إريدو Erido أقدم ما وصلت إليه أعمال التنقيب ، وهو بناء على شكل مستطيل ، فى حائطة كوة يوضع فيها تمثال صغير للإله ، أو شعار مقدس وأمامها منضدة للقربان ، ويقوم البناء على نموذج أقدم طراز للهياكل من أعواد القصب ، ثم أعقبته مبانٍ أرحب وأضخم ، وفى مبنى صومعة Cella حيث يُرفع الإله فوق منبر أو قاعدة فى محراب داخلى مظلم ، يوضع أمامه المذبح أو المنضدة ، وتوجد مغسلة أو بئر ماء فى الساحة الرئيسية للمعبد بعد مدخله الرئيسى كما يضم المبنى أماكن جانبية للعبادة وغرفاً للتخزين ، وفى بعض الأحيان يقوم المدخل الرئيسى للمعبد على زوايا قائمة بالنسبة للمحراب الداخلى ؛ كيما تضفى مزيداً من الخصوصية .

وأوسع المعابد وأشهرها هو معبد الإله مردوخ فى بابل المسمى : الإيزاكيل Esagila (أى المعبد الذى تناطح ذروته السحاب) ها هنا يقف تمثال مردوخ الضخم وأريكته التى تزن خمسين وزنة من الذهب . وبداخل المعبد قاعةٌ ذات أعمدة تغطى جدرانها بالألواح الخشبية وكل منها داخل برواز خاص ، كما توجد خمس وخمسون حجرة صغيرة للعبادة منخفضة الارتفاع مخصصة لبقية آلهة المجمع . ولقد اهتم الملوك المتعاقبون بتجديد هذا المعبد وزخرفته،كما فعلوا نفس الشيء فى جميع المدن التى كانت تخضع لحكمهم .

وفى « أوروك » أقيم معبد الإله آنو Anu (٣٠٠٠ق . م) فوق تلٍ صناعى يتألف من سلسلةٍ من المنصات من الطوب النيئ تتناقص فى أحجامها ، ويمكن الوصول إليها بواسطة سلم . يتطور هذا النوع من البناء من مزارٍ صغير مقام على منصةٍ صغيرة كالموجودة فى «أوكاير Uquair » تبلغ ٤,٥ م (١٥ قدماً) فوق السهل المحيط بها ، وعلى هذا النحو تطورت الزقورة السومرية ziggurat(١) كما تطور برج المعبد .

---

(١) الزقورة أو الزكورة ـ تعنى حرفياً « المكان المرتفع » وهو هيكل بابلى أو آشورى يتكون من طبقات مكعبة بعضها فوق بعض تتناقص كلما علت ، ويحيط بها سلم من خارجها (الترجم) .

وكانت الزقورة التى بناها أورنامو Ur- Nammu فى مدينة «أور» عام ٢١٠٠ق م[١] تتألف من ثلاثة طوابق حجم القاعدة ٦٠ × ٣٠ مترا (٢٠٠ × ١٠٠ ق م) ، وارتفاع الزقورة كلها ٢١ متراً أى ٧٠ قدماً [٢] ، ولكل طابق لون مختلف ، وعلى القمة يوجد مزار إله القمر ننار Nannar بلونه الفضى . ويروى « هيرودوت » أن برج المعبد فى بابل المسمى « اتمنانكى Etemenanki (وهى تعنى : المبنى الذى هو أساس السموات والأرض) يتكون من سبعة طوابق ذوات سطوح خارجية مائلة تلتف صاعدة من طابق إلى طابق .

وقد أمكن التعرف على أكثر من ثلاثين « زقورة » تكوين بعضها غير عادى كبناء «آنو – حدد » المزدوج الأبراج فى آشور . ولقد اختلف الباحثون فى تحديد الغرض من بناء هذه الزقورات فذهب بعضهم إلى أنها تجسيد لجبلٍ كونى ، أو مذبح عملاق ، أو عرض إلهى. ولقد قيل إن الإله هبط على الأرض فى هذه البقعة ، وفى قمة المعبد تتم زخرفة عريشة خضراء تقام فيها احتفالات الزواج القدس التى يعتمد عليها إخصاب الأرض .

١٠- الكاهن والملك :

تحتاج العبادة إلى مجموعة كبيرة من الموظفين المدربين للقيام على شؤونها . وكان رئيس الجماعة إين En فى البداية يقوم بدور الملك والكاهن ، ويسكن فى جناح من المعبد (جيبارو Giparu) ، ويكون هذا الرئيس رجلاً أو امرأة تبعاً لجنس الإله المخصص له المعبد ، وهكذا نجد الإلهة « إنانا » فى أوروك يخصص لطقوسها رئيسٌ ذكر ، أما إله القمر « نناز » فى أور فتقوم على خدمته مجموعة من بنات حكام بلاد ما بين النهرين . وعندما انتقل الرئيس En إلى قصر دينوى وأصبح الإنسى Ensi (أى الملك فيما بعد) ارتبط الدور الروحى بوظيفة حاكم المدينة الذى كان يتولى إدارة شؤون الأراضى الزراعية التابعة للمعبد نيابة عن الإله ، وقد كان عليه أن يحافظ على التأدية الصحيحة للطقوس والاحتفالات ، وهى التى يعتمد عليها انسجام العلاقة مع الإله .

---

(١) أقدم برج مدرج هو الذى شيد فى مدينة أور لعبادة الإله العظيم إنليل (المترجم) .

(٢) بنيت الأبراج السومرية على هيئة طوابق متتابعة متناقصة فى السعة ، وتشييد الواحدة فوق الأخرى ، وهذه الأبراج ذات سلالم خارجية عريضة ، أو ذات سطوح خارجية مائلة تلتف صاعدة حول البرج كاللولب لصعود الكهنة والتابعين لهم للوصول إلى القمة « جورج سارتون » .
تاريخ العلم جـ ٣ ص ١٧٤ ـ ١٧٥ (المترجم) .

لكن الملك سرعان ما عهد إلى كهنة مختصين (شانجو Shangu) ببعض الواجبات الخاصة تحت إشراف رئيس لهم ، ومن يدخل المحراب (أريب بيتى Eribbiti) يصحبه أولئك الذين يقومون بتقديم القرابين ، وصب السكائب ، والتطهير ، والمسح بالزيت ، في حين ينشغل آخرون بتهدئة إله غاضب عن طريق تلاوة التعاويذ والرقى ، أو عن طريق الغناء والإنشاد والموسيقى . ويعمل كهنة التعاويذ والعرافون داخل المعبد وخارجه ، وكثيراً ما يذهبون إلى المنازل الخاصة .

وحول المعبد توجد بيوت الخصيان ، وعبيد المعبد ، والبغايا المقدسات ، فضلاً عن جيش ضخم من التجار ، والحرفيين ، والجزارين ، والخبازين ، وعمال المعادن ، والفضة ، والخشب الذين يقومون بإعداد القرابين ، وصيانة المبنى وما يحتوى عليه من تماثيل . كما يقوم الرعاة بالعناية بقطعان المعبد ، والفلاحون بالحقول . وقد تناقص عددهم بشكل ملحوظ مع ازدياد النزعة الدنيوية بعد العصر البابلى القديم ،كما كان لبعض المعابد مجموعة من الكاهنات أو الراهبات يعشن فى أديرة ، ويساند هذا النشاط كله هيئة إدارية كبيرة من الكتبة وأمناء المخازن ، والحراس والوصول إلى طبقات الكهنة العليا يحدده الكهنة الكبار ، ويتطلب أن يكون المرشح سليماً من الناحية الصحية صحيح البدن ، جيد التعليم .

وتحتاج الآلهة ـ كالبشر ـ إلى مؤن منتظمة من الطعام والشراب توضع أمامها على الموائد فى الصباح والمساء ، واللحوم المفضلة عندها هى لحوم القرابين (نيكو Niqu) .

ولا بد أن يصب الدم أولاً فى فناجين ، ثم تختار الأجزاء الممتازة كالرئتين والكبد لمعرفة الطالع . وتقدم إلى الآلهة الفاكهة والسمك والطيور والعسل والزبد واللبن إلى جانب الأطعمة الرئيسية كخبز الشعير والبصل والبلح ، أما الزيت والخمور والبخور فهى تقدم بسخاء ، وكل شيء يسجله الكتبة بدقة شديدة ، ثم تودع تقاريرهم فى أرشيف المعبد ، وتحظى التماثيل بزينات جديدة وزخارف حديثة فى العيد الخاص بها .

١١- الأعياد :

كانت تقام احتفالات خاصة وتقدم القرابين فى الأيام المقدسة عند إله معين ، وذلك بالإضافة إلى أيام الأعياد الشهرية المنتظمة فى اليوم الأول من الشهر القمرى (عندما يولد القمر الجديد) وفى اليوم السابع ، والخامس عشر (ثم أصبح فيما بعد اليوم الخامس والعشرين) وكذلك يوم اكتمال القمر (شباط) ويوم اختفائه (بوبيلو Bubbulu) ولما كان التقويم السومرى يختلف فى المدن الكبرى من مدينة إلى أخرى ، فإنه يزودنا بدليل

للأعياد المحلية . ففى لجش Lagash كان الشهر الأول (مارس – أبريل) عيد تناول شعير الإله « نينجرسو Ningirsu »[1] ، والشهر السادس هو عيد دموزى . وفى هذه الأماكن وغيرها كانت مواسم الحصاد وجَزّ صوفَ الغنم ترتبط بإقامة المهرجانات والمواكب .

أما العيد الرئيسى فهو عيد السنة الجديدة (Akita) ، عندما يحتفل على الأقل ، فى بابل وأوروك وآشور بدعوة جميع آلهة المناطق المحيطة للحضور ، ولقد ظلت الطقوس التفصيلية باقية ومنها طقوس معظم عمليات العبادة كالقيام بعمل تمثال وكسوته ، أو وضع الأساس فى بناءٍ ما ، وتبدأ الشعائر فى بابل وقت الفجر . فى اليوم الأول ، ثم يتبعها تقديم القرابين ثم صناعة التماثيل الصغيرة ثم يعقب ذلك ، فى اليوم الرابع ، تلاوة ملحمة الخلق وصلوات خاصة لمردوخ وينهض الملك فى اليوم التالى ليغتسل فى مياه النهر الطاهرة قبل أن يدخل المعبد مرتدياً كساء كتانياً جميلاً ، وبعد الصلاة يفتح الباب للكهنة ويشرف على تقديم قرابين الصباح ، وينخرط الملك فى صلاةٍ طويلة مظهراً براءته وحسن إدارته .

وفى نهاية اليوم يقترب الكاهن الأكبر من الملك وينزع عنه الشارة الملكية ، ثم يصفعه على خده فإذا انسكبت الدموع كان معنى ذلك أن كل شىء على ما يرام وأن « مردوخ » أبدى سروره ، فكلٌ شىءٍ فى البلاد يسير سيراً حسناً ، عندئذٍ يسجد الملك وهو يصلى ، ثم يستعيد الشارة الملكية قبل أن يقدم قربان المساء . وفى اليوم الثامن يتناول الملك يد بعل ليقود الإله خارج المعبد فى موكب مقدس يسير خلفه الآلهة الزائرون والكهنة وعامة الشعب. ويقع المنزل الذى يُقام فيه الاحتفال بالسنة الجديدة خارج المدينة على ضفة النهر عند المنبع ، وهم يصلون إليه عن طريق بوابة عشتار ويقطعون الرحلة فى سفينة كبيرة مزدانة. وهنا تقرر الآلهة مصير البلاد فى السنة القادمة ويعيدون تمثيل انتصار مردوخ على قوى الشر وينتهى العيد بالاحتفال بالزواج المقدس بين « مردوخ » وزوجته « صربنيتو Sarpanit »[2] مصحوباً بمهرجانٍ شعبي كبير .

---

(١) نينجرسو : يعنى اسم هذا الإله فى اللغة السومرية « سيد جرسو » ، ويذكر ضمن أسماء آلهة مقاطعة لجش وزوجته هى الإلهة بابا (المترجم) .

(٢) صربنيتو : والاسم يعنى فى اللغة الأكادية « الفضة اللامعة » وهى زوجة « مردوخ » ، والهة بابل الرئيسية المختصة بشؤون الحمل والولادة ، وفسر هذا اللقب فيما بعد فى اللغة البابلية (ذربنيتو) أى بانية الذرية أو خالقة النسل « قاموس الآلهة والأساطير » ص ١٠٩ ، ترجمة محمد وحيد خياطة (المترجم) .

١٢- الخطيئة والعذاب :

وضع البابليون ـ بما لديهم من ولع بالنظام ـ قوائم بجميع أنواع الظواهر الملاحظة ، بما فى ذلك الأخطاء التى تستوجب ، فيما يبدو ، القصاص الإلهى فى صورة المرض أو الاضطراب ، بل وحتى الموت . أما نتائج الأفعال الحسنة فكانت تسجل أيضاً . وهناك نصوص من التعاويذ تصف الآثم بأنه الذى يأكل ما حرّمه على إلهه أو آلهته ، وهو من يقول « لا » بدلاً من أن يقول « نعم » ، أو يقول « نعم » بدلاً من « لا » ، وهو من يشير بإصبعه إلى مواطن (باتهامٍ باطل) وهو الذى يقول مالا يجوز قوله ، وهو الذى يحتقر إلهه أو يسخر من آلهته ، وهو الذى ينطق بالباطل ولا يحكم بالحق ، وهو الذى يظلم الضعيف ويباعد بين الابنِ وأبيه وبين الصديق وصديقه ولا يعتق الأسير (Shurpu II 5ff) .

ويمكن أن تغفر هذه الخطايا بتلاوة تراتيل التوبة والصلاة ، أو التفجع والنواح . كذلك يمكن التحرر منها بتقديم قربان التكفير الذى يحل فيه الحمل مكان الإنسان ، غير أن هذا القربان يتكلف كثيراً بالنسبة لعامة الشعب الذين يستطيعون عند الحاجة الماسة استدعاء كاهن متخصص فى طرد الأرواح الشريرة لتلاوة التعاويذ المناسبة من كتبه ، وعندما يكون سبب المرض مجهولاً ، أو عندما تكون حالة المرض ناجمة من لمسةٍ من يد الإله أو الروح أو الشيطان ، فإن الطقوس المصاحبة تنصب فى العادة على تحويل الشر إلى شيءٍ جامد فينقلب إلى شيءٍ لا حول له ولا قوة بفعل رمزى كربط تمثال صغير من الطين أو الخشب للمريض المعذب أو إذابة تمثال من الشمع أمام النار . كما يستدعى الكاهن كذلك كلما كان ذلك ضرورياً للتغلب على قوة عدو أو السيطرة على أخطار قوى تفوق الطبيعة تتهدد بناءً ما .

أما العذاب الجماعى فكان موضوع المرثيات والطقوس الدينية ، غير أن عذاب الفرد يخلق مشكلة ، فأحد نصوص أدب الحكمة المسمى باسم السطر الأول فيه « لأمتدحن رب الحكمة » (لدلول Ludlul) يمكن أن يقارن بينه وبين سفر أيوب حيث إنه يصف رجلاً غنياً يفقد جميع ممتلكاته ، كما يفقد صحته وربما عقله أيضاً لسببٍ مجهولٍ ، وهو يحاول عبثاً اكتشاف السبب من خلال كهنة التعاويذ والرقى ، وتأويل الأحلام ، وغيرهم . ويتعرض لتوبيخ أصدقائه وأسرته كلما ناجى نفسه ليعرف الأسباب الغامضة للشر ، ثم لايجد حلاً للمشكلة إلا بالتوجه إلى الإله مردوخ بالتسبيح والدعاء ، وذلك يعنى أنه وجد الجواب فى مشيئة هذا الإله وهواه .

وتعالج « التيوديسية [1] البابلية » الموضوع نفسه فى صورة قصيدة من نوع خاص على هيئة حوار بين المعذب وصديقه ، فعندما يعرض الأول وجهة نظره فى انتشار الظلم فإن الصديق يرد عليه بالحجة المعتادة ، وهى حجة ظاهرة التناقض تقول إنه ما دام الآلهة ينظمون الكون ويسيطرون عليه فإن أساليبهم لا يمكن التكهن بها ، غير أن التقوى مفيدة باستمرار فى نهاية المطاف .

١٣ - التنبؤ بالغيب :

على الرغم من إيمان المعذب بالقضاء والقدر ، فإن وجهة النظر الأكثر انتشاراً عند المفكر البابلى القديم هى : أن الناس يمكنهم أن يتحققوا من إرادة الإله مادام كل ما يجرى فى السماء يتكرر حدوثه على الأرض ، فما عليهم إلا ملاحظة الأدلة وفحصها حتى يعثروا على الجواب .. ولقد أدى ذلك منذ وقتٍ مبكر ، إلى حصر الظواهر الأرضية وربطها بمواقع الكواكب فى السماء ، وعندما يتكرر الحدث نفسه فإن التقارير إذا أحسن تفسيرها أخصائى كفؤ تعطينا الحدث المصاحب الذى لابد لنا أن نتوقعه سواء كان عدواً أو خصماً ، أو طوفاناً أو ثورة ، أو موت ملك أو ما شابه ذلك . وعلم التنجيم الذى لم يشمل خريطة البروج Horoscopes[2] حتى القرن الرابع ق.م فى بابل ، هو الذى أدى إلى ظهور علم الفلك فى وقتٍ مبكر ، وهو العلم الذى برع فيه البابليون .

هناك طرق أخرى للتنبؤ بالغيب منها ملاحظة خصائص الكبد وغرائبه Hepatoscopy[3] والرئة فى الحيوان المذبوح . وكانت هى الطريقة الشائعة الاستخدام عندما تكون الدولة على وشك إصدار قرارات خاصة ، كالاتفاقات الدولية ، أو شن الحرب . وكان الأطباء ، وكهنة التعاويذ ، على حدٍ سواء يسجلون الفأل السيىء من المواليد المشوهة

---

(١) دراسة التدبير الإلهى فى الكون ، وأهم عناصر التيوديسية هو محاولة نفى حقيقة الشر أو التوفيق بين وجود الشر ووجود العناية الإلهية ، وقد أطلق علماء الآشوريات اسم « التيوديسية البابلية » على أحد نصوص الحكمة البابلية المشهورة ، وهو نص الحوار بين المعذب والصديق (المترجم) .

(٢) رسم للسماء كان المنجمون يستعملونه لكشف الطوالع (المترجم) .

(٣) كان الأعتقاد السائد فى الأمم القديمة أن الكبد هو مركز العقل فى الحيوان والإنسان على حد سواء ، ومن هنا كانت دراسته أساسية فى التنبؤ بالغيب ، ولم يكن الملك يجرؤ على شن حرب أو الاشتباك مع جيرانه فى قتال ، إلا إذا استعان بكاهن أو عراف يقرأ له طالعه . بل لم يكن المواطن البابلى العادى يجرؤ على البت فى أمر من الأمور إلا إذا فعل الشئ نفسه ، وهى عبادة قديمة سوف نجدها فى معظم الحضارات القديمة ، كما أنها بارزة عند اليونان على نحو ما سنعرف فيما بعد (المترجم) .

(مبحث عجائب الموجودات Tenalology) [1] ومن علم الفراسة (دراسة ملامح الوجه) كالندبة على الوجه أو الطريقة المميزة فى الكلام أو المشى . والفحص التفصيلى للمرضى يؤدى إلى تشخيص المرض وتطوراته المحتملة ، ومناهج البحث المستخدمة تكشف عن طرق تجريبية هى التى وضعت الأساس فى الخطوات الأولى على طريق التقدم العلمى الحقيقى ، كما يلاحظ العرافون أيضاً نماذج الزيت على الماء أو تحليق الطير أو حركات الحيوان .

وهناك مجموعة كاملة من الألواح تزيد عن مائة لوح من سجلات التفاؤل والتشاؤم المأخوذة من الأحداث العامة تطور عنها علم التاريخ Historiography (أو علم تدوين الوقائع التاريخية) ، وكما هى الحال فى معظم الممارسات الدينية فقد ارتبطت هذه الأحداث فى البداية بالملك . ومن ثم فمن المفيد أن نعرف أن الشكل الأدبى لنصوص الفأل التى تقول إذا حدثت «س» فسوف تحدث «ص» كانت هى الأساس فى تسجيل قانون السوابق والأحكام القضائية ، فجميع القرارات التشريعية والاتفاقيات القانونية يتم التصديق عليها عن طريق القَسَم أمام الآلهة ، كما أنها تخضع للجزاءات الإلهية فى حالة انتهاكها . وما دام القانون والنظام يتحدان فى هوية واحدة مع الحق والعدل (كيتوم وميشاروم Kit-tum & Mesharum) وهما من مسؤولية الآلهة والملك والبشر العاديين رجالاً ونساء ، فقد ساد الاعتقاد بأن الحياة فى مجموعها تجربة دينية موحدة .

* * *

(١) من الكلمة اليونانية ... Teras التى تعنى العلامة أو التنبيه على أمر عجيب . فهو علم دراسة الانحرافات الخطيرة ، والأشكال الشائهة ، والكائنات العجيبة بين موجودات العالم (المترجم) .

الفصـل الثالـث

مصـر القديمـة

احتفظ علم الآثار ، من بقايا مصر القديمة ، بالشيء الكثير الذى يرتبط بالدين أكثر من ارتباطه بالحياة الدنيوية . وهذه المادة الدينية هى فى الأعم الأغلب جنائزية الطابع ، فإذا ورد إلى أذهاننا قبل أى شيء آخر : المقابر ، والأهرامات ، والموميات – ونحن نفكر فى هذه الحضارة ـ فلا بد أن نتذكر أن هناك تأكيداً ليس فى محله قد نتج بالضرورة عن طبيعة المادة المتاحة لنا ، فمعظم المدن الكبيرة ، والقصور ، والمدن الصغيرة ، والقرى لا يسهل الوصول إليها فى عمليات التنقيب ؛ لأنها شيدت فى عصور ماضية متأخرة ، وفضلاً عن ذلك فإن المادة التى استخدمها المصريون القدماء فى إقامة مبانيهم هى فى الغالب أرق كثيراً من المواد المستخدمة فى تشييد القبور . فقد شيدت القبور فى الصحراء بعيداً عن المناطق الآهلة بالسكان ، وبعيداً عن الأرض الزراعية ؛ ولهذا كانت فرص بقاء المبانى الجنائزية على الدوام أكبر بكثير ، بغض النظر طبعاً عن خطر لصوص المقابر . أما إن المصريين قد استهدفوا ، عن وعى ، الدوام لقبورهم فهذا ما تكشف عنه عبارة « دار الخلود » التى تستخدم كثيراً للدلالة على القبر (قارن على سبيل المثال « كتاب الموتى » نشرة نافيل ٨ و ١٧٠) .

ويبدو أن الهرم كان هو أفضل وسيلة لتحقيق هذا الدوام ، وأول خطوة اتخذت فى هذا السبيل هى هرم الملك « زوسر » من الأسرة الثالثة ، الذى صممه مهندسه امنحوتب ، وهو أول بناء حجرى ضخم يُشَيَّد فى التاريخ . وقبل ذلك كان المصريون يدفنون موتاهم ـ فى الأعم الأغلب ـ فى بناءٍ من الطوب يسمى الآن « مصطبة » ، وهى من الكلمة العربية التى تعنى الأريكة [1] ، وهى كلمة تناسب الإشارة إلى هيئة البناء ، كما أنها معقولة لتفسير شكل هرم سقارة ذى الدرج الضخم ، والفكرة الأساسية هى تكديس عدد من المصاطب ذات الأحجام المتناقصة بعضها فوق بعض ، ويوجد حول الهرم مجمع من المبانى الحجرية الأخرى القصد منها أن تستخدم فى الاحتفالات الدينية خلال عملية الدفن وبعدها .

ومن المحتمل أن يكون التصور الرئيسى الكامن خلف الهرم المدرج هو الصعود إلى السماء ، وإلى الشمس . ولقد عُدِّل التصميم فى الأسرة الرابعة لصالح الهرم الحقيقى . وأشهر الأمثلة على ذلك هى أهرامات خوفو ، وخفرع ، ومنقرع فى الجيزة .

كانت عبادة الشمس فى هليوبوليس لا تزال هى ملحمة البناء ؛ إذ كان فى هليوبوليس

---

(١) « المصطبة » لفظة عامية تقال على البناء غير المرتفع الذى يتم الجلوس عليه ، وقد أطلقته العامة على بعض قبور الفراعنة ، وقَبِل علماء الآثار الاسم ، فغدا من المصطلحات الأثرية (المترجم) .

حجر قديم مخروطي الشكل يسمى « بن بن » هو الذى تمت محاكاته فيما يبدو ، وإن لم تكن المحاكاة دقيقة فى بناء الأهرامات [1] .

ارتبط هرم خوفو الأكبر فى الأذهان ـ كغيره من الأهرامات ـ بأنه معبد للموتى تُقَام فيع عبادة الملك الميت . وهناك ممر من الحجر يؤدى من هذا المعبد إلى حافة الصحراء ، وهنا يقع « معبد الوادى » الذى يستقبل جثمان الملك ويقام فيه الطقوس الواجبة له قبل أن ينتقل عبر الممر إلى الهرم ، ومن ثم فالهرم فى جوهره ، (قبرٌ هائل) يستهدف حفظ جثمان الملك الميت من الناحية المادية والروحية على السواء . ومن ثم فمن سخرية الأقدار ألا توجد مومياء ملكية واحدة من الدولة القديمة . وتتجمع حول الأهرامات قبور حاشية الملك من النبلاء على هيئة مصاطب .

ومع ذلك فقد ظهر مع نهاية الدولة القديمة نوعٌ جديدٌ من المقابر فى « مصر العليا » شيدت على أساس قابلية الحفر فى المنحدرات الصخرية الصلبة . وينحت هيكل فى الصخرة العليا يؤدى إلى ممر رئيسى ، يؤدى بدوره إلى حُجْرة الدفن . ولقد استخدمت سمات متعددة من هذا التخطيط فى دفن كثير من الفراعنة فى الدولة الحديثة ، بما فيهم توت عنخ آمون فى وادى الملوك بالقرب من طيبة . وأحد هذه القبور المنحوتة فى الصخر هو قبر سيتى الأول الذى يمتد داخل الصخر حوالى ٢١٠ متراً (٧٠٠ قدم) ، ونقشت على جدران حجراته نصوص (كتاب ذلك الموجود فى العالم السفلى) ، وهى نصوص تصف الرحلة الليلية لإله الشمس خلال مروره بالعالم السفلى ، حتى يظهر مع الفجر فى العالم العلوى . وكان المصريون يعتقدون أن الملك الميت يصحب إله الشمس فى رحلته كيما يشرق معه فى فجر جديد ، ومن الواضح أن ذلك ضمان لبقائه حياً بعد الموت .

١ـ الكتابة :

كان اختراع الكتابة جزءاً هاماً من التقدم الذى تم مع بداية العصر التاريخى (٣٠٠٠ ق.م) ، وتمثل ألواح « مينا أو نارمر » مرحلة أولية فى الكتابة الهيروغليفية . فقد نظر المصريون إلى الإله تحوت Thoth كاتب الآلهة على أنه مخترع الكتابة ، لكنهم ربطوا بين

---

(١) كان معبد الإله « رع » فى هليوبوليس ولم يكن فى المعبد صورة لهذا الإله ، بل حوى قطعة مخروطية من الحجر تسمى « بن بن » توضع فى فناء مكشوف ، واعتقد المصريون أن الشمس يجب أن ترسل أشعتها الأولى على هذا الحجر (المترجم) .

وظيفته ووظيفة زميلته الإلهة سشات Seshat [1] التى يعهد إليها بأرشيف الحوليات الملكية. . ولا شك أن الكتابة كانت دائماً هامة فى الطقوس الدينية ، ولقد اعتقد المصريون أن دورها يجاوز الأغراض المباشرة للتسجيل والتوصيل .

ويمكن أن نتبين تطوراً فعلياً فى الدولة القديمة ، فلا شك أن التعاويذ كانت تتلى فى أقدم المعابد والقبور ، ومن المرجح أن الكهنة كانوا يقرأون من نصوصٍ مكتوبة على أوراق البردى ، كما احتفظت النقوش المنحوتة على الحجر بأسماء الأشخاص الذين دفنوا فى المقبرة ، ثم أُضيفَتْ بعض التعاويذ التى تضمن استمرار تقديم القرابين ، مثلما تضمن الهناء أو السعادة الأبدية للمتوفى ، ويمكن أن نفترض أن هذه النقوش لم تكن مجرد تسجيل لآمال ورعة ، غير أنهم آمنوا بأنها تكفل بحضورها الدائم البقاء السحرى للبركات الروحية والبدنية المذكورة .

ثم حدث توسع ملحوظ فى استخدام مثل هذه النقوش فى أهرامات الأسرة الخامسة والسادسة فى سقارة ، وكان أقدمها هرم الملك ونيس Wenis (ازدهر حوالى ٢٣٥٠ق. م) وتُغَطِّى جدران غرف الدفن والممرات المؤدية إليها بالنصوص الهيروغليفية التى تتحدث عن الحياة المقبلة للملك ، وتتضمن شواهد لها أهميتها فى اللاهوت والطقوس والأساطير ، وتسمى هذه الكتابات « متون الأهرام » ، وهى تشكل أقدم مجموعة كاملة تتعلق بالديانة المصرية ، وكان أثرها على الكتابات التالية عميقاً ؛ لأن مضمونها يتكرر كثيراً فى النصوص الجنائزية ، وبصفة خاصة فى « متون التوابيت » و « كتاب الموتى » .

و « متون التوابيت » كما يدل اسمها - كُتبت على التوابيت التى تُصْنَعُ عادة من الخشب ، وقد ظهرت فى الحقبة التى تلت انهيار الدولة القديمة حتى نهاية الدولة الوسطى. . ومنذ بداية الدولة الحديثة أصبح من المألوف تقديم الفوائد التى تتضمنها هذه الكتابات إلى الميت فى صورة مختلفة تمام الاختلاف ، وهى: أن تُكْتَب هذه النصوص والمتون على مجموعة من أوراق البردى المطلوبة ، ثم تودع القبر مع المتوفى . ولو قارناها «بمتون الأهرام»

---

(١) كان للإله تحوت زميلة تقاسمه وظيفته ككاتب وعالم ، هى الإلهة « سشات » الكاتبة وسيدة دور الكتب ـ أى المكتبات ـ وكانت هى الإلهة الأولى التى كتبت ـ وقد كانت فى الأصل هى الإلهة «نفتيس » ووظيفتها أن تسجل أعمال الملوك وتنقش أسماءهم على شجرة فى معبد هليوبوليس ، بينما يقوم تحوت بتسجيل سنى كل ملك على غصن طويل . راجع « ديانة مصر القديمة » أ. أرمان ، ترجمة عبد المنعم أبو بكر ص ٦٨ واللوحة رقم ٢ (المترجم) .

لكانت « متون التوابيت » ، و « كتاب الموتى » معاً أكثر اتساعاً من حيث التطبيق العملى، لأنها تقدم ميزاتها للأشخاص غير الملكيين . واستخدام أوراق البردى فى الكتابة أدى كذلك إلى ابتكارات أبعد مدى ؛ إذ أصبح النص يوضح بصورة ملونة تلويناً جميلاً ، كما هى الحال مع أوراق البردى الخاصة بآنى Ani [1] وهنفر Hunefer . وهكذا أصبح كثير من الأدب الدينى فى مصر القديمة أدباً جنائزى الطابع .

وثمة موضوعات أخرى تشمل نقوش المعبد ، وكانت سائدة فى العصر البطلمى بصفة خاصة ، وتراتيل إلى الآلهة كان الكثير منها منقوشاً على الألواح الحجرية Stalae، وحكايات أسطورية . والفئة الآخيرة تكشف عن نغمة عابثة على نحو ما هو موجود فى «النزاع بين حوريس وست » التى حفظتها لنا بردية بيتى الأولى . وهناك بردية أحدث منها هى بردية يوملهك Jumilhac تشتمل على قصص عن الآلهة لم تتورع عن أن تنسب إليهم سلوكاً شائناً بالغ الفجاجة .

٢- التاريخ :

يمكن أن نتعقب الديانة المصرية إلى أصولها فيما قبل التاريخ حتى فترة مبكرة تصل إلى عام ٤٠٠٠ ق.م ، عندما كان الاعتناء بدفن « الثور » ، و « ابن آوى » وغيرهما من الحيوانات أموراً تدل على عبادة الحيوان . وفى منتصف القرن السادس ق.م تم إغلاق آخر معبد للإلهة إيزيس فى جزيرة فيلة ، ولذلك فإن الحقبة الزمنية التى استغرقتها الديانة المصرية حقبة طويلة . لقد كان « مينا » هو الذى أسس أول دولة متحدة مستقرة تحت حكمه عام ٣٠٠٠ ق.م وظهر إبان الدولة القديمة حوالى (٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق.م (نظام ملكى مركزى قوى عاصمته « ممفيس » ، ثم أعقبها فترة من التمزق ، وعندما عادت مصر المتحدة مرة أخرى فى الدولة الوسطى حوالى (٢٠٥٠ - ١٧٨٦ ق.م) أصبحت عاصمتها طيبة فى مصر العليا . وظلت طيبة هى العاصمة حتى عهد التوسع الذى شهدته الدولة الحديثة ، ثم حدث غزو وتسلل من سوريا وفلسطين على يد الشعب المعروف بـ «الهكسوس » الذى أدخل على الديانة المصرية تأثيرات آسيوية .

أما فى الفترة المتأخرة فقد كانت هناك تغيرات عديدة فى الأسر الحاكمة ؛ فقد شهد

(١) أحد الحكماء ألف كتاباً من أمتع ما خلفه الأدب المصرى ، يحوى مجموعة كبيرة من الآداب العامة . انظر « ديانة مصر القديمة » ص ١٨٠ ـ ١٨٢ (المترجم) .

القرن السادس ق . م . إحياءً واعياً لعظمةٍ قديمةٍ لكلٍّ من الدين والفن ، وعلى الرغم من هذه النهضة فقد كانت مصر ضعيفة عسكرياً ؛ فسقطت عام ٥٢٥ ق.م أمام الهجوم الضارى للفرس . ومع أن الخطر الفارسى قد تم التخلص منه لفترة من الزمان ، فإن غزو الإسكند الأكبر عام ٣٣٢ق.م كان معناه نهاية الاستقلال المصرى .

ومن الطبيعى أن يكون الأثر اليونانى شاملاً ، إلاَّ أن العبادات الوطنية قد سمح لها بالازدهار ؛ وقامت عبادة جديدة ـ هى عبادة سيرابيس Sarapis(١) ـ بصورة رئيسية علي أسس مصرية ، وانتشرت عبادة سيرابيس وإيزيس فى العالم اليونانى . وعندما أصبحت مصر ولايةً رومانية عام ٣٠ق.م وضعت أرض المعابد تحت سيطرة الحكومة . وامتدت جذور المسيحية فى مصر إبان الحكم البيزنطى (من ٣٩٥ – إلى ٦٤٠ بعد الميلاد) ، وشن هجوم مباشر على الديانة المصرية القديمة – ففى مصر نشأت الرهبنة ، وربما كان للديانة القديمة تأثير واضح فى هذا التطور – كما كانت اليهودية والغنوصية (٢) قوتين مؤثرتين أيضاً ، ولاسيما فى مدينة الإسكندرية .

٣- الآلهة المحلية :

كان للظروف التاريخية والسياسية أثر واضح ـ بصفة مستمرة ـ على الاتجاهات الدينية فى مصر ، وعندما تكون لك آلهة محلية منفصلة فذلك أمرٌ طبيعى فى منطقة مثل المنطقة الواقعة جنوب الدلتا التى لم تكن سوى وادٍ طويلٍ لنهرٍ يمتد حوالى ألف كيلو متر (حوالى ٦٠٠ ميل) ومع التوحيد السياسى للبلاد ، أصبح إله المدينة العاصمة فى الحال قائداً لجميع الآلهة ، واتجهت ديانته لاستيعاب الديانات الأخرى . وهكذا نجد أنه مع وجود ديانات

---

(١) كان « سيرابيس » هو الإله الرئيسى فى مملكة البطالمة ، وهى التسمية التى أطلقها الإغريق على الإله المصرى أوزوريس (المترجم) .

(٢) الغنوصية Gnosticism نسبة إلى Gnosis أى « المعرفة » . وهى حركة فلسفية ودينية نشأت فى العصر الهلنستى (بعد وفاة الإسكندر) وأساسها أن الخلاص يتم عن طريق المعرفة أكثر مما يتم بالإيمان والأعمال الخيرة ، تأثرت بها بعض الفرق اليهودية والمسيحية . وبعبارة أخرى : الغنوص هو المشاهدة الباطنية لعالم ما فوق الحس عن طريق المشاهدة أو الرؤية الإلهية . والغنوصيون فلاسفة ورجال دين عاشوا فى القرون الأولى للمسيحية ، وتعرفوا على الأسرار الخفية للإيمان من خلال التأمل الفلسفى . (المترجم) .

أخرى كثيرة للصقر ، فإن سيادة ديانة حوريس الإله الصقر الذى توحد مع فرعون الحى ، تعنى أن الديانة الملكية استوعبت الديانات الأخرى . فقد ظهر الإلــه حوريس فى لــوح « مينا » المبكر ، مصوراً انتصار مصر العليا على مصر السفلى بوصفه حدثاً تم بفضل الإله وبتوجيه منه . فى ألواح مبكرة بنظام يرجع إلى ما قبل الــتاريخ ، ويشبه العبادة الطوطمية Totemism[(١)] .

ولقد تجنب المصريون ـ بطريقة غريزية ـ محو التراث المحلى حتى ولو حدثت عملية تمَـثُّل لهذا التراث . ونتيجة ذلك أن أفكارهم الدينية تكشف عن بعض الخلط ، بل عن بعض التناقض ، كما هى الحال فى التصورات المختلفة لعملية الخلق ، أو فى المعتقدات الجنائزية . ويبدو هذا التطور فى مرحلة تالية موحياً بأن تنوع المعتقدات كان إثراءً ودعماً لمتطلبات المرء الروحية . وهكذا فسر « هنرى فرانكفورت » هذا الاتجاه تفسيراً إيجابياً بأنه يتضمن «الاستمتاع بتعدد السبل » ، لكن السبب ـ من الناحية التاريخية ـ لهذا المجمع الهائل هو المزج بين عددٍ كبيرٍ من العبادات ، والتقاليد المحلية المأثورة .

٤- أساطير الخلق :

إن الصدارة فى أى مجمع للآلهة تكون ـ فى العادة ـ للآلهة المسؤولة عن الخلق ، وليس مجمع الآلهة المصرى استثناءً من هذه القاعدة رغم وجود أساطير متعددة ومتنوعة عن الخلق . ولا شك أن أسطورة « هليو بوليس » كانت أوسعها انتشاراً وتقول هذه الأسطورة إن الإله الخالق الأول هو « أتوم Atum »[(٢)] الذى اتحد فى هوية واحدة مع إله الشمس رع.

وتقول الأسطورة إن « أتوم » خرج من عماء المياه الذى يسمى « نون Nun »[(٣)] ، ثم ظهر فوق تل[(٤)] وأنجب بغير زواج الإله « شو Shu » (الهواء)[(٥)] والآلهة « تف

---

(١) الطوطم (حيوان فى الأعم الأغلب ، وقد يكون نباتاً) يرتبط باسم العشيرة عند الشعوب البدائية ويعتبر لحمه محرماً على أفرادها الذين يعتقدون أنهم انحدروا منه ويحملون لذلك اسمه . ويحرم نظام الطوطم الصلات الجنسية بين أفراد الطوطم الواحد لأنهم إخوة وأخوات ، لانحدارهم من طوطم واحد (المترجم)

(٢) الحروف الأصلية فى كلمة « أتوم » تعنى الإله الذى أتم نفسه بنفسه ، أى أنه خلق نفسه أولاً ثم خلق العالم . ومن صفاته « ذلك الذى جاء للوجود من تلقاء ذاته » (المترجم) .

(٣) « نون » ـ هو المحيط الذى خرجت منه جميع الكائنات (المترجم) .

(٤) هو تل موغل فى القدم ، كان أول ما ظهر على سطح الماء ، وكانوا يسمونه « التل المزدهر الذى ظهر فى أول العصور » (المترجم) .

(٥) كلمة « شو » تعنى فى اللغة المصرية القديمة : الفضاء ، وقد صورته اللغة ، والفن ، على أنه رجل يقف فوق الأرض ويسند بيديه السماء (المترجم) .

نوت » أو تفنت Tefenet [١] (الرطوبة) . وكان إله الهواء « شو » هو الذى زج بنفسه بين إلهة السماء « نوت » Nut وزوجها إله الأرض جب Geb [٢] وبذلك فصل السماء عن الأرض . وهنا تمثل المصريون الإنجاب الطبيعي ، ويصدق الشيء نفسه على أولاد الإله « جب » والإلهة « نوت » وهم : « أوزوريس » ، و« إيزيس » ، و« ست »، « ونفتيس » Nephthys رغم أن مغزاهم أو دورهم الكوني كان في البداية أقل وضوحاً . وهذه الآلهة التسع تشكل ما يسمى « تاسوع هليوبوليس » [٣] وهو تصور للآلهة طبقه المصريون فيما بعد على مجموعة أخرى من الآلهة المحلية ، وامتد نطاقه في بعض الأحيان ليشمل عدداً يزيد على الآلهة التسع . أما أن بداية خلق الكون كانت انبثاق الأرض من الماء ، فيبدو أنها فكرة وردت على نحو طبيعي على أذهان سكان وادى النيل الذين يستلهمون في بعض الأحيان جزراً من الطين تظهر في النيل . والواقع أنه كان من الخبرات المألوفة قبل أن يكتمل بناء السد العالي في أسوان أن ترى القرى المصرية إبان فيضان النيل ، كما لو كانت جزراً خرجت من المياه المحيطة .

وهناك وجه آخر لعقيدة هليوبوليس يتعلق بالقوى الخلاقة للإله الأول أتوم Atum فلا بد لجميع القصص التي تدور حول نشأة الكون أن تواجه مشكلة عويصة هي كيف نشأ الخلق إذا لم يكن هناك سوى خالق واحد ؟ ثم كيف خلق هو نفسه ؟! ذهب المصريون إلى أن أتوم Atum ـ الذى يعنى اسمه « الواحد الكامل » ـ ظهر إلى الوجود بأن أوجد ذاته (متون الأهرام ١٥٨٧ ب وتشير إلى صورته على أنه خبرى Khepri) . فهو إذن قد

---

(١) هى زوجة الآله شو ، وعبدها المصريون على شكل الأسد تزوجته في الدلتا ، وشاركت « تفنت » زوجها أعباء مهمته السلمية في حمل الأفق . وهذان الإلهان خلقا كما يدل اسمهما بطريقة البصق الأول أشش والثانية تف ، ولا يزال المصريون يستخدمون كلمة « تف » العامية بمعنى بصق (المترجم) .

(٢) تخيل المصرى الأرض على أنها ذكر ، على عكس ديانات العالم القديم ، والسبب في ذلك هو أن كلمة السماء في اللغة مؤنثة ، وكلمة الأرض مذكرة . وهكذا صور إله الأرض « جب » مستلقياً على بطنه ، وقد نبتت المزروعات فوق ظهره . أما المرأة التي تنحنى فوقه فهى زوجته « نوت » إلهة السماء (المترجم) .

(٣) أنجب شو وتفنت جب إله الأرض ونوت إلهة السماء ، ثم أنجب الأخيران أوزوريس ، وست ، وإيزيس ونفتيس ، ولقد حكم هؤلاء العالم في أول الأمر قبل أن تتجمع السلطة في يد حوريس ، فكانوا الآلهة العظام . ولأن عددهم بلغ التسعة ؛ فقد سماهم المصريون التاسوع العظيم لهليوبوليس . (المترجم) .

أنجب نفسه ، لكن كيف أصبح أباً للإله « شو » والإلهة « تفنت » ؟ تم ذلك عن طريق الاستمناء (المصدر السابق ٨٤٢١ أ.د) أو عن طريق السعال أو البصق (نفس المصدر ١٦٥٢جـ ، مع اللعب بالألفاظ فى أسماء الآلهة) [١] فيد الإله « أتوم » فى السياق الأول تشخصه فى صورة « إلهة » (وكلمة « يد » مؤنثة فى اللغة المصرية القديمة) ، وفى سياق آخر يصف الإله نفسه بأنه « ثنائى الجنس » « إننى أنا الذى أنجبت « شو » ، إننى أنا هو – وهى » . (متون التوابيت ٢ ، ١٦١– أ) [٢] .

٥ ـ عقيدة منفيس [٣] :

وتنسب ثنائية الجنس ـ من حين لآخر ـ إلى الإله بتاح Ptah أيضاً ، وهو الإله الخالق لمدينة منف الذى يسمى فى آن واحد الأب والأم فى « لاهوت منفيس » [٤] ، الذى هو وثيقة رائعة ترجع ـ برمتها ـ إلى الدولة القديمة ، وتقول الوثيقة إن خلق العالم خطط له عقل الإله ، وكانت وسيلة التنفيذ كلمة نطق بها – وهذا استباق مذهل لعقيدة الإغريق التى ظهرت بعد ذلك بفترة طويلة حول اللوجوس Logos أو الكلمة المقدسة [٥] ، وفضلاً

(١) كان أتوم الذى يعبد فى هليوبوليس هو نفسه الإله خبرى ، وهى أسماء إله الشمس الذى عُرِفَ أيضاً باسم الإله رع (المترجم) .

(٢) انتشرت فى كثير من الأساطير المصرية القديمة طريقة اللعب بالألفاظ فمثلاً تقول إحدى الأساطير إن الإله رع قال مرة : « نادوا لى تحوت » فأحضروه إليه فى الحال ، فقال له « سوف أجعلك تحتضن السماء بجمالك وبأشعتك فنشأ عن ذلك القمر ioh ، ثم فى مناسبة أخرى قال له « سأرسل Ionh إليك من يفوقك عظمة فنشأ أيبس Hib طائر تحوت » . وينسب المؤرخون هذه الظاهرة إلى Hob شغف المصريين بتحميل اللفظ الواحد معانى كثيرة يحوى كل معنى شيئاً من كنه هذا الاسم ، ومن هنا كان إله الشمس « أتوم » يحمل صفتين « الذى خلق نفسه » ، و « الذى أنشأ اسمه ! . راجع « ديانة مصر القديمة » تأليف أدولف أرمان ص ٧٧ وما بعدها (المترجم) .

(٣) هى مدينة منف (ومنفيس تسمية ترجع للإغريق) من أقدم عواصم الدنيا أسسها الملك مينا واتخذها عاصمة للمملكة المتحدة القديمة ، لم يبق منها غير أطلال من مختلف العصور حول قرية « ميت رهينة» الآن بمحافظة الجيزة بالقاهرة (المترجم) .

(٤) تسمى أيضاً « تعاليم منف الكهنوتية » التى اعتبرت من أهم الوثائق التى حفظت بين كنوز معبد منف آلافاً من السنين ، وهى تبدأ بالحكمة التى تقول « إن بتاح خلق من نفسه ثمانية آلهة أخرى سميت باسم بتاح ، وقد أطلق عليها البشر أسماء أخرى » . (المترجم) .

(٥) وقارن أيضاً إنجيل القديس يوحنا « فى البدء كانت الكلمة Logos » ... (المترجم) .

عن ذلك فإن « لاهوت الخلق » فى هرموبوليس Hermoplic [١] كان وثيق الصلة بتعاليم هليوبوليس . ومن هنا قيل إن الخلق بدأ مع ظهور التل الأول من مياه العماء ، وارتبط أربعة أزواج من الآلهة فى الصفات الكونية « نون » « ونونت » بمياه العماء ، وحح Huh وحوحت Huhet باللانهاية . وكوك kuk ، كوكيت Kauket ، بالظلام . وآمون [٢] وأمونيت بالاختفاء . هذه الآلهة الثمانية تتألف من أزواج لا تمايز بينها الذكر والأنثى من الناحية النظرية ، وربما كانت أربعة آلهة ثنائية الجنس هى الأشكال الأصيلة . وكان آمون هو رأس الثمانية Ogdoud [٣] واسمه يعنى « الموجود الخفى » .

كان خلق الكائنات الحية ، فى مقابل خلق الموجودات الكونية - يعزى فى الأعم الأغلب إلى الإله الصانع خنوم Khnum ؛ فهو الذى يخلق البشر عندما يجلس إلى دولابه الفخارى . وقد توصف الأرض ـ مرة أخرى ـ بأنها انبثقت من زهرة اللوتس التى ظهرت هى نفسها من المياه الأولى على هيئة إله شاب هو الإله «نفر تم » ، وفى نصوص معبد « إدفو» يرد ذكر « بحيرة اللوتس » بوصفها المقر القديم للإله الخالق ، وهذه النصوص تُبَجِّل أيضاً مجثم الطير [٤] وهو قطعة من الغاب حط عليها الإله حوريس ، (الإله الصقر) لأول مرة .

٦- آلهة النيل والشمس :

عندما تأمل المصريون خصوبة أرضهم ـ غير العادية ـ أدركوا بغير شك أن النيل

---

(١) هى مدينة شمون واسمها يعنى « الثمانية » ففيها كان ذلك التل القديم الذى ظهرت فوقه المعالم الأولى للحياة ، والكائنات التى ظهرت فى البداية : الليل ، والظلام ، والاختفاء ، والذبذبة ، وغير ذلك، وعددها ثمانية (المترجم) .

(٢) اللفظ المصرى « آمون » ، يعنى الخفى ، وكان هذا الإله الخفى يتجلى فى أشكال كثيرة ، والبعض يفسر هذه الآلهة الثمانية على النحو التالى : لعبت هذه الآلهة دوراً جوهرياً فى مولد العالم وهى ثمانية من ذكر وأنثى وكان يطلق عليها نون ونونت ، والمحيط الأول ، وحح وححت ، الفراغ الذى لا نهاية له ، وكوك وكوكيت ، الظلمات ، آمون وأمونت الذى لا يمكن تعريفه ، وكانت تصور برؤوس ضفادع وثعابين تثير ذكرى الحياة الصاخبة ، آلهة مصر ص ٦٧ فرنسو دوماس وترجمة زكى سوس (المترجم)

(٣) Ogdoad ترجمة لاسم جماعة الثمانية وهم الآلهة الأُول الذين تعاونوا فى خلق العالم ، ويقابلها فى اللغة العربية « ثمان » (المترجم) .

(٤) ما يحط عليه الطير بعد طيران طويل (المترجم) .

والشمس مسؤولان أساساً عن هذه الخصوبة ، ومن هنا فقد كُتِبَت السيادة للآلهة التى ارتبطت بهاتين القوتين الطبيعيتين . ولقد ارتبط فيضان النيل الذى يأتى كل عام باسم الإله « حابى » بصفة خاصة ، وبكثير من آلهة النيل المحلية التى صورت ، تقليدياً ، وهى تحمل النباتات ممثلة القوة الخيرة ذاتها . ولما كانت تباشير الفيضان تأتى فى شهر يوليو الذى يتميز بظهور « نجمة الشعرى » مع شروق الشمس ، فقد أطلق المصريون على هذا النجم الساطع اسم « سوثيس » ، أى الشعرى اليمانية [١] التى ترمز لنمو النبات نتيجة لخصوبة الفيضان. وهناك ارتباطات مماثلة بين الإله « سبك Sebek ـ الإله التمساح » [٢] وبين السنة المشخصة Personified والمفروض أن الإلهة إيزيس تُمَثِّل فى سياق جنائزى ، العلاقة الوظيفية بين النيل ونمو النبات .

أما بالنسبة للشمس ، فالإله « رع » إله هليوبوليس ، هو الذى يمثل أساساً قوتها فى مجمع الآلهة . وقد استخدم المصريون لفظ « رع » كاسم عام يعنى « الشمس » ثم توحد « رع » مع أتوم فى صيغةٍ واحدة هى « رع – أتوم » ومع إله السماء حوريس (الإله الصقر الذى يعنى اسمه « الكاهن البعيد » [٣]) على أنه « رع – حوراختى » وصوروا هذا الإله فى جسم إنسان ورأس صقر . ولقد كان الرمز الرئيسى لرع هو المسلة ، وارتبط ـ مثل حوريس ـ ارتباطاً وثيقاً بالملك الحى ، وقد أصبح فرعون يسمى ابتداء من الأسرة الخامسة (فضلاً عن مثال واحد من الأسرة الرابعة) باسم « ابن الإله رع » ، كما ارتبطت فكرة العدالة ونظام العالم باسم « رع » ، ونظر المصريون إلى الإلهة ماعت Maat (ربة العدالة والحقيقة والتوافق) على أنها ابنته .

---

(١) عندما يظهر هذا النجم فى آخر شهر يوليو فى السماء صباحاً يكون ذلك بمثابة البشير بوصول الفيضان ، واعتبر هذا رمزاً لبدء السنة الجديدة للمزروعات (المترجم) .

(٢) ظهر التمساح كمعبود محلى يعطى الحياة للنباتات فوق الشاطئ ، وانتشرت عبادته فى أرض البحيرة فى الفيوم ، إذ اعتاد الناس الاحتفال هناك بظهور الفيضان كل عام ؛ ولهذا يرى البعض أن « سبك » كان إلها للماء « ديانة مصر القديمة » ص ٥٤ ـ ٥٥ (المترجم) .

(٣) كان حوريس ابن الإله أوزريس الذى قتل نتيجة مؤامرة « ست » ، وكان « رع حوراختى » ومعناه «سيد الجميع » يرأس جلسات المحكمة التى تحاكم ست (المترجم) .

٧- مساعدو الموتى :

أعطى المصريون السيادة باستمرار للآلهة التى اعتقدوا أنها تساعد الموتى ، ومن هذه الآلهة: «أنوبيس Anubis » ، و« سوكاريس Sokaris » . وختنمانتيس Khentamenthes و «أوب وات wepwawet » وأوزوريس [١] . وهى مجموعة كانت معروفة فى الدولة القديمة ، وقد اتخذ أنوبيس بين هذه الآلهة شكل « ابن آوى » ، أو « الكلب » ، وارتبط بعملية تحنيط الموتى ، وكانت له أهمية دائمة طوال تاريخ الديانة المصرية الطويل ، أما أوزوريس فقد ظهر من غموضٍ نسبى إلى مركز بالغ الأهمية فى العبادات الجنائزية ، ولقد مر أوزوريس برحلة هامة فى ارتفاعه كقوة روحية ، وهى مرحلة تقمصه لفرعون المتوفى ، وهو ما حدث فى الأسرة السادسة . لقد كان أوزريس فى الأصل إله الموتى ، وكان مركز مدينته الأول فيما يبدو ، هو مدينة أبيدوس . أما الدافع وراء اتحاد الملك الميت بأوزريس فقد كان واضحاً ، وهو ضمان استمرار سيادة الملك بعد الموت ، فعندما يصبح فرعون الميت هو أوزوريس فإن ذلك يعنى أنه سوف يحكم مملكة الموتى .

وكثيراً ما عبد المصريون الأشياء الجامدة ، ولاسيما فى عهد الأسر الأولى . مثال ذلك قوسى الإلهة نايت Neith المتقاطعين [٢] ، ومسلة هليوبوليس ، وتميمة الإله « مين Min» التى لا تزال ـ إلى حد ما ـ لغزاً غامضاً . وكانت التمائم تتبع الآلهة التى ترتبط بها، وهكذا تضاءلت أهميتها ؛ ولهذا تراهم يصورون « مين » ـ إله الإخصاب الجنسى ـ فى صورة بشرية وفى صورة قضيب فى وقتٍ واحد [٣] .

وكان هناك عدد قليل من الآلهة اتخذ صورة بشرية خالصة إلى جانب الإله « مين » ، منها : الإله « بتاح » فى منف ، والإله آتوم فى هليوبوليس ، والإله آمون فى طيبة ، وكذلك إله الموتى أوزوريس ، وآلهة النيل . ولكن فى معظم الحالات تظهر صورة الحيوان

---

(١) كان أوزوريس إله الموت عند المصريين جميعاً . لكن كان لكل مدينة إله مَحلى لرعاية جباناتها ، وكثيراً ما يتخذ شكل « ابن آوى » الحيوان الذى يجوب المناطق الصحراوية ليلاً حيث تقع المقابر ، كما اتخذ أيضاً شكل الكلب والذئب .... إلخ (المترجم) .

(٢) كانت الإلهة نايت تمثل إلهة الحرب ، ورمزها المعروف يتكون من قوسين ودرع ، ومن بين ألقابها « التى تمهد الطريق » وهذا يعنى أنها كانت تتقدم الملك فى المعركة (المترجم) .

(٣) هو إله الإخصاب الذى يسرق النساء ، وسيد العذارى ، لكنه أيضاً حامى طرق الصحراء ، ويمثل هذا الإله واقفاً وقضيبه منتصب ، وعلى رأسه ترتفع ريشتان عاليتان ، ولعلهما ما يقصده المؤلف (المترجم)

فيتخذ الإله إما صورة حيوانية خالصة ، أو يرتبط بالإله الثور أو العجل « أبيس Apis » ، أو على هيئة جسم إنسان ورأس حيوان . ولقد تطور هذا المزيج الأخير فيما بعد كنوع من الحل الوسط ، ووجدنا له أمثلة فى صورة أنوبيس الكلب ، وحوريس الصقر ، وخنوم الكبش، وأحياناً يتضاءل العنصر الحيوانى أكثر من ذلك ، كما هى الحال عندما تتخذ حتحور إلهة السماء شكل البقرة السماوية ، فتصور فى جسمٍ ورأسٍ بشريين ، ولكن مع تاجٍ يمثل قرنى البقرة محتضنة قرص الشمس .

٨- عبادة الحيوان :

الواقع أن عبادة الحيوان كانت جزءاً أساسياً من الديانة المصرية ، وهى تشير إلى أن الأصل كامن فى الحياة الخصبة فى وديان الأنهار فى أفريقيا . ولقد جاء العديد من الآلهة البشرية « الكونية » من منطقة شرق الدلتا . ويرجح بعض العلماء أن يكون هذا نتيجة تأثير سامى . وهنالك بالطبع ديانات أخرى كثيرة تبدو فيها عبادة الحيوان ظاهرة ، لكن الظاهر على نحو ملفت فى مصر هو إحياء هذه العبادة ، وانتشارها بقوة فى الفترة المتأخرة . وتعد عبادة عجل أبيس Apis فى منف من أقدم عبادات الحيوان فى مصر ، إذ أن عبادته قديمة قدم الأسرة الأولى . وتكشف عبادة أبيس عن تطورٍ كان شائعاً فى الواقع ، فهى تبدأ كعبادة مستقلة قائمة بذاتها ثم ترتبط عقائدياً ، بعد ذلك بكبار الآلهة مثل « رع » ، و «أوزوريس» كما ترتبط باسم « بتاح » ، وكذلك بأهم آلهة منف .

وقد تمت خطوة أبعد لا نظير لها : ففى بداية العصر البطلمى انتشرت عبادة أوزوريس وإزيس ، عن وعى ، لإقامة عبادة جديدة هى عبادة سيرابيس Sarpis [1] ، وربما قصد بها أن توجه للإغريق المقيمين فى مصر ، غير أن سيرابيس فقد (بمرور الزمن) هيئة الثور أبيس.

وعلى حين أن فرعون كان هو نفسه من الناحية الرسمية ، إلهاً ، فلم يبلغ أحد غيره من البشر هذه المكانة ، باستثناء عدد ضئيل للغاية من البشر ، وحتى فى هذه الحالة كان ذلك نوعاً من التقدير الموجه إليهم بعد موتهم اعترافاً بخصالهم الحميدة . لقد تم تأليه

(١) فى بلاط بطليموس الأول والثانى كان يعيش الكاهن « مانيثو الذى تم على يديه تأويل رؤيا الملك ، فتحول أوزوريس ـ أبيس إلى سيرابيس . ومنذ ذلك الوقت أصبح سيرابيس الإله الرئيسى فى مملكة البطالمة ، وكان على الإغريق والمصريين على حدٍ سواء تقديسه وعبادته (المترجم) .

أمنحوتب المهندس البارع فى عهد الملك زوسر فى الأسرة الثالثة بهذه الطريقة ، كما حدث نفس الشيء لأمنحوتب بن حابو أحد وزراء الأسرة الثامنة عشرة . وكشفت عبادة أمنحوتب فى مرحلتها الأخيرة ـ بصورة غير متوقعة ـ أنه هو نفسه إله الطب الذى يتحد فى هوية واحدة مع أسكليبوس Asclepius إله الشفاء عند الإغريق [١] . وهناك قائمة أخرى مختلفة من الآلهة تشمل سلسلة من التجريدات المشخصة مثل سيا Sia (الفهم) ، وهو Hu (النطق) وهيك Hike (السحر) .

٩- الثالوثات :

تتجمع الآلهة ـ فى الغالب ـ في مراكز عبادتها فى تُساعيات على نمط هليوبوليس ، لكن هناك تصنيفاً محبباً آخر تُجْمَعُ فيه الآلهة على هيئة ثالوث يرتبط فيه الإله المحلى الرئيسى بزوجته وابنه ، وهكذا نجد الآلهة « بتاح » ، و « سخمت » ، و « نفرتم » [٢] ، تجمع على هذا النحو فى منف ، كذلك تجمع الآلهة « آمون » و « موت » و « خنسو » فى ثالوث آخر [٣] . أما فى منف فهناك ثالوث ثالث يجمع بين « بتاح » و «سوكاريس » [٤] و « أوزريس » حيث يتجمع ثلاثة آلهة للموتى من الذكور . وهناك

---

(١) كانت تماثيل هذا الإله الجديد تنحت فى الهيئة التى شاهده عليها الملك فى رؤياه بشعرٍ ولحيةٍ أشعثين وعلى رأسه مكيال الحبوب (المترجم) .

(٢) اتخذ « بتاح » إله منف من « سخمت » ـ الإلهة القوية التى عُبدت فى منف أيضاً ومثلت على شكل لبؤة ـ زوجة له ، وأنجبا ذلك المعبود الصغير « نفرتم الذى لم يكن سوى زهرة . وهكذا تكوّن الثالوث من الزوج والزوجة والابن (المترجم) .

(٣) هذا ثالوث آخر من مدينة طيبة يتألف من الإله « آمون » والإلهة « موت » وابنهما الإله « خنسو » وكانت موت Mut سيدة السماء . وقد عُبدت فى طيبة تحت هذا الاسم ، وإن كانت كلمة موت تعنى «الأم » . وقد لقبت فى النقوش المتأخرة بلقب « أم الشمس » التى تشرق منها . أما الإله « خنسو » فهو إله القمر . وقد عبده الناس فى طيبة أيضاً . وكلمة خنسو « تعنى » الذى يجوب السماء . « وقد صوروه طفلا آدميا ، وبذلك أصبح ابناً للإلهة المحلية التى تمثل السماء نوت » (المترجم) .

(٤) كان سوكاريس إلهاً للموتى ـ فى منف كما سبق أن ذكرنا ـ ثم اندمج فى جاره الكبير وأصبح يسمى « بتاح ، سوكاريس » . وعندما أصبح أوزوريس بعد ذلك هو إله الموتى الكبير سمى باسم « أزوريس ـ سوكاريس » . (المترجم) .

سمة مذهلة تطبع النصوص المتعلقة بهذا الثالوث فى منف ـ كما كانت موجودة فى ثالوثات أخرى أيضاً ـ وأعنى بها : النظر إلى هذا الثالوث على أنه وحدة . ومن الواضح أننا نجد هنا استباقاً للعقيدة المسيحية ، حتى لو أعوزنا الدليل الذى يثبت أن لها تأثيراً معيناً على الصياغة المسيحية .

وعلى الرغم مما يذهب إليه « هـ . ينكر H. Janker » من أن الوحدانية البدائية قد ظهرت فى الديانة المصرية (والحجة الرئيسية التى يقدمها هى أن لقب « ور Wr » ومعناه «الواحد العظيم » قد لقب به بعض الآلهة) فإن ما يظهر بالفعل ـ وعلى نحوٍ مألوف ـ هو تعدد الآلهـة . ونحن لا ننكر أنه قد ظهرت فى عهـد« أمنوفيس الرابع » أو « إخناتون » صورة من الوحدانية الحقة ، وكانت على الأرجح بقيادة الفرعون نفسه ، كما كشفت الأبحاث الحديثة عن عناصر متعددة فى تعاليـمه كانت قد ظهرت من قبل ، إلا أن الوحدانية الصريحة كانت متميزة للغاية فى عقيدته النهائية ، وكان لا بد لها أن تكون قصيرة الأجل ، كما لم تنجح الجهود التى بذلت لبيان تأثيرها على ديانة العبرانيين المبكرة .

وعلى الرغم من التنوع الذى لا حصر له الذى تكشف عنه عبادة الآلهة فى مختلف التقاليد والبيئات المحلية ، فإن المظاهر الخارجية للعبادة والطقوس الدينية تكشف عن تماسك جذرى . لقد اتخذ المعبد المصرى منذ الدولة الوسطى وما بعدها تخطيطاً مشتركاً ، وهو أن يبنى على شكل مستطيل فى فناءٍ واسع ينغلق بواسطة جدران عالية ، ويحيط ببوابة المدخل بوابتان كبيرتان . وفى البداية يدخل المرء فناءً واسعاً مكشوفاً يحوى صفوفاً من الأعمدة على ثلاثة صفوف . ومن هذا الفناء يشق طريقه إلى مدخل القاعة الرئيسية ، التى يُحمل سقفها على أعمدة . وخلف القاعة الرئيسية وحدة ثالثة يوجد فيها محراب داخلى يحفظ فيه تمثال الإله فى هيكلٍ يُوضَع فى قاربٍ عبارة عن صندوق كبير . ولا يُسمَح إلا للملك وحده ، أو لكبار الكهنة من أصحاب المكانة العالية بدخول المحراب الداخلى . وهذه التقاليد الدينية تقترب من تقاليد الإسرائيليين أكثر من تقاليد اليونان ؛ لأن اليونانين كانوا يسمحون لجميع المتعبدين بالدخول لرؤية تمثال الإله فى محراب Naos المعبد . وهناك فكرة يكثر التعبير عنها ، وهى أن ذلك المعبد صورة من العالم المخلوق ، وأن أصوله ترتد إلى أول ظهور منظم للخلق من العماء الذى كان فى البدء .

١٠- الطقوس الدينية اليومية :

بقيت نسختان من الكتب المقدسة التى تصف الطقوس الدينية اليومية التى كان

يمارسها الناس ، وهى تبدأ بتطهر الكاهن فى البحيرة المقدسة القائمة بجوار المعبد ، وعندما يدخل المعبد نفسه يوقد ناراً ، ويعد مبخرة مزودة بالفحم والبخور ، ثم يتجه نحو تمثال الإله فى المحراب الداخلى . وبعد السجود ، والركوع ، وتقديم القرابين الواجبة يجرد تمثال الإله من ثيابه ويطهره ويزينه بثياب وشارات مناسبة . ويعقب ذلك إقامة مأدبة مقدسة قبل أن يوضع التمثال مرة أخرى فى هيكله . وترتبط بهذه القرابين فكرتان ؛ إذ ينظر إليهما كهدايا سارة ، تتحد مع عين حوريس [١] وفى أوقات أخرى ، لا سيما إذا كانت الضحايا مما يذبح فإنها تتحد مع أعداء « حوريس » و « أوزوريس » أى : تصبح هى الإله « ست » وأعوانه .

ومن الطبيعى أن يعثر الباحثون على طقوس دينية متميزة تقام فى أعياد فرعون أو أعياد الآلهة ، ففى عيد الملك اليوبيلى المسمى « سد Sed » يعاد الاحتفال الطقسى الذى تم فيه توحيد الوجهين فى مصر على يد الملك مينا ، ويصل الاحتفال إلى ذروته برقصة يؤديها الملك ، وهو يرتدى تنورة قصيرة يعلق بها من الخلف ذيل حيوان ، وقد كانت المسيرة أو الموكب أو « ظهور الإله » مظهراً ملفتاً للنظر فى الاحتفال بأعياد الآلهة ، إذ يحمل فيه الكاهن تماثيل الآلهة إلى أماكن أخرى مقدسة كيما تزور آلهة أخرى ، أو تقوم بأداء دور فى قصة أسطورية ترتبط بهذه الأماكن .

ولقد قامت الإلهة «حتحور » إلهة دندرة بزيارة حافلة بالبهجة للإله حوريس إله إدفو فى العصر البطلمى ، وتم الاحتفال فى هذه الزيارة بالزواج المقدس بين الإلهة حتحور والإله حوريس ـ أما العيد العظيم للإله « مين Min » (إله الخصب) فقد ارتبطت قوة الإنجاب عند هذا الإله بالحصاد ، وبشخصية الملك ، ومن المرجح أن عملية الاتحاد الجنسى بين الملك والملكة كانت جزءاً من الطقوس الدينية . أما عيد « أوبت Opet » [٢] وهو عيد الإله آمون إله طيبة ، فقد كان يتطلب القيام برحلة يقوم بها الإله « آمون » مع زوجته

---

(١) يقولون أحيانا إنها « عين الشمس » ، وأحياناً أخرى إنها « عين القمر » التى تصغر رويداً رويداً ثم لا تلبث أن تنمو بشكل عجيب حتى تكتمل (المترجم) .

(٢) كلمة أوبت هى اسم معبد الأقصر ، وهى تعنى أيضاً « الحريم » ؛ ولهذا يظن الباحثون أن ذلك العيد الذى ينتقل فيه الإله إلى الأقصر ثم يعود إلى الكرنك يشير إلى أن الإله كان يذهب إلى هناك كل عام ليحتفل بزواجه (المترجم) .

الإلهة « موت » وابنهما الإله « خنسو » من معبد الكرنك إلى الأقصر ثم العودة مرة أخرى، وهى رحلة نيلية يشارك فيها حشدٌ غفيرٌ من الناس فى النهر وعلى الضفتين (١) .

وهناك عيد آخر للإله « آمون » هو عيد الوادى ، الذى يعنى : عبور نهر النيل لزيارة معابد الموتى من الفراعنة فى الضفة الغربية . وتنتهى الرحلة عند وادى الدير البحرى حيث يوجد معبد الملكة حتشبسوت الجميل ، وحيث شيد معبد الإلهة حتحور .

والتمثيل الدرامى للأسطورة كان أوضح ما يكون فى علاقته بأوزوريس ، فهناك نص من الأسرة الثانية عشرة يصف قتالاً على سطح بحيرة بين أوزوريس وأعدائه ، ويمثل المنظر مرسى منطقة « أبيدوس » حيث يتم تصوير موت الإله ودفنه ، ثم يعقب ذلك انتصاره وعودته ليطرد أعداءه (٢) . وهناك نص فى معبد دندرة يرجع لفترة متأخرة أثناء العصر البطلمى ، ويصف عيد أوزوريس الذى كان المصريون يحتفلون به فى جميع أنحاء البلاد . وكان المصريون يندبون موت الإله ، أما ميلاده من جديد فكان الاحتفال البهيج به يتم فى صورة رمزية تمثل الشعير الذى ينبت من تمثال الإله (٣) ، ومن الشعائر المرتبطة به أيضاً ارتفاع النصب التذكارى (أو الجيد) الذى يرمز كذلك إلى البعث .

١١- الطقوس الجنائزية :

دأب المصريون على الاهتمام الشديد بالاحتفال بدفن الموتى ؛ إذ اعتقدوا أن سعادة

---

(١) يبدأ الاحتفال بتقدمة يرفعها الملك أمام قارب آمون ـ أى أمام محرابه المحمول قبل أن يغادر هذا المحراب معبد الكرنك ، ثم يخرج الموكب من صرح المعبد ، والكهنة يحملون القوارب فوق أكتافهم ، ويجب ألا يقل عدد الذين يحملون قارب آمون عن ثلاثين . ويصحب الموكب الغناء ودق الطبول ، ويتقدم المشهد جندى ينفخ فى النفير . أما على الشاطئ فكان هناك موكب طويل يرافق الحملة المقدسة والناس تصيح صياح الغبطة والتهليل ، ومنهم المكلفون بسحب القوارب فى اتجاه مضادٍ للتيار .. إلخ . راجع هذا العيد بالتفصيل فى كتاب « ديانة مصر القديمة » أدلف أرمان ص٢٢٣ ـ ٢٢٤ (المترجم) .

(٢) منذ أن أقام ملوك الأسرة الأولى فى أبيدوس ودُفنوا فيها ، نشأ الزعم بأن أوزوريس هو أول الموتى الذين سكنوا الغرب الذى هو دار الموتى » ! وكان يعبد فى هذه المدينة التى يوجد فيها أهم أشلائه وهو رأسه المدفونة فى صندوقٍ صغير (المترجم) .

(٣) كان شكل الإله الميت يصنع من الرمل والشعير فى هذه الاحتفالات ، ثم يروى بالماء فإذا ما نبت الشعير واكتسى جسد الإله بالخضرة كان هذا دليلاً على عودة الحياة للإله (المترجم) .

الشخص الميت فى المستقبل تتوقف على هذا الاحتفال ، وعلى المعتقدات المرتبطة بالطقوس، كان الميت يدفَن دائماً ولا تحرق جثته أبداً ، كما تؤدى الطقوس الخاصة بفتح الفم لجسد الميت أو لتمثال المتوفى [١] وتشتمل هذه الطقوس على ممارسات التطهير والقربان ، لكن أهم جوانب هذا الاحتفال هو لمس الفم بقدوم صغير فبهذه الطريقة ـ كما يعتقدون ـ تتجدد الحياة لجميع قدرات الجسد [٢] .

واعتقد المصريون ـ فى الوقت ذاته ـ أنه من المهم الاحتفاظ بالجسد نفسه ، وقد ساعدهم على ذلك جفاف التربة فى الأماكن الصحراوية لدفن الموتى ، وقد كان الأسلوب المتقن فى عملية التحنيط يستلزم إزالة المخ والأمعاء ، كما يستلزم أحياناً فى حالة الذكور إزالة الأعضاء الجنسية . ثم يوضع على الجسم من الخارج النطرون (أو الصوديوم الطبيعى) ثم يحشى مزيج من النطرون والتوابل والزيت فى التجاويف التى أحدثها تفريغ الأمعاء ، وتملأ الفراغات بعد ذلك بحشوة من الكتان ، وتوضع التوابل الحارة والزيوت على الجسم من الخارج أيضاً ، ثم يلف بأربطة من الكتان قبل وضعه فى التابوت . ويحتفظ كذلك بالأعضاء التى أزيلت من الجثة ، فيحتفظ بالأحشاء فى أربعة قدور صغيرة قيل إن أربعة من أبناء حورس يقومون على حمايتها ، ويبدو أن عملية تحنيط الجسد كله ـ من الناحية العقائدية ـ هى محاكاة ضمنية لما حدث فى الأسطورة لأوزوريس على يد أنوبيس فى أبيدوس[٣] مما يعنى أن الشخص المتوفى قد اتحد مع أوريس (انظر متون الأهرام ١١٢٢ جـ ـ د) [٤] وتوضع بعض التمائم عادة داخل أربطة المومياء . كما يعنى عناية خاصة بجعران

---

(١) فتح الفم والعينين أهم الطقوس جميعاً ، فكان وجه الميت يمس بقدومين صغيرين حتى يستعيد الميت قدرته على تناول الطعام (المترجم) .

(٢) كان الكاهن يقوم بفتح فم الجثة حتى يستطيع الميت أن يأكل ويتكلم من جديد ، كما فعل أبناء حوريس الأربعة الذين فتحوا فم أوزريس بعد وفاته بأصابعهم النحاسية ليتمكن من أن يأكل ويتحدث ثانية (المترجم) .

(٣) كان أنوبيس ـ وهو الابن الرابع للإله رع ـ إلهاً للدفن منذ عهد الدولة القديمة . وقد احتل هذه المكانة لأن والده « رع » أرسله من السماء ليدفن أوزوريس بعد أن قتله أخوه ست ، فجمع أنوبيس أشلاء الإله الذى لم يبق منها سوى العظام ، ثم طواها فى لفائف وأتم كل المراسيم التى أصبحت فيما بعد نموذجاً يحتذيه المصريون (المترجم) .

(٤) مجموعة من نصوص الأدب الجنائزى القديم ظهرت فى عهد ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة ، وهى معروفة منذ عام ١٨٨٠ ، وقد نشرها ماسبيرو عام ١٨٨٢ (المترجم) .

القلب الذى يوضع على الصدر .ومن الواضح أن المصريين كانوا ينظرون إلى القلب على أنه أداة للفهم الروحي ؛ ولهذا لا يزيلونه كما يفعلون مع الأعضاء الداخلية . ويكتب فى العادة على الجعران نص قصير يناشد القلب ألا يشهد على الميت أثناء محاكمته أمام أوزوريس .

١٢- طبقة الكهنة المغلقة :

الدور الرئيسى فى الطقوس الجنائزية يؤديه الكاهن الذى يجسد أنوبيس . وكان الكهنة - بصفة عامة - يعينهم الملك فى البداية ، لكن فى الدولة الحديثة وما بعدها تطورت طبقة الكهنة وأصبحت الوظائف الهامة وراثية ، وهؤلاء الكهنة المحترفون كانوا يسمون « خدم الآلهة » . ومن الطبيعى أن تكون هناك أنواع متعددة من التقسيمات الفرعية للكهنة تبعاً للوظيفة التى يشغلونها . ولم تكن إدارة الأملاك الفخمة التى تملكها المعابد أقل المهام المخصصة لهم .

أما الدور النسائى فى الكهانة فهو دور ثانوى ؛ لأنه انحصر أساساً فى إعداد الموسيقى والرقص . وأما فى طيبة فقد كانت الكاهنة الرئيسية لآمون تحمل لقب « زوجة الإله » ، وكانت قائدة الإناث اللائى يعزفن الموسيقى ويُـنْـظَـرُ إليهن على أنهن حريم الإله ، ولقد اتحدن مع الإلهة « حتحور » التى ارتبط اسمها أساساً بالحب الجنسى والموسيقى . ومنذ الأسرة الثانية والعشرين وما بعدها كانت هذه الكاهنات - من الناحية العملية - حاكمات المدينة الدينية.

١٣- مفاهيم أخلاقية :

فى استطاعتنا أن نقيم المفاهيم الأخلاقية المتضمنة فى الديانة المصرية على نحو أفضل لو قرأنا « أدب الحكمة » بدلاً من تحليل النصوص المخصصة مباشرة للأسطورة والعبادة ، فالسلوك المستقيم طبقاً لتعاليم « بتاح حوتب » [(١)] قد أقر النظام الأخلاقى الذى وضعته

---

(١) يقول ديورانت عن « تعاليم بتاح حوتب » إنها من المؤلفات الفلسفية ، ويرجع تاريخها إلى ٢٨٠٠ ق.م أى ما قبل كونفوشيوس وسقراط وبوذا بألفى عام وثلثمائة . وكان « بتاح حوتب » حاكماً على منف، وكبير وزراء الملك فى الأسرة الخامسة ، فلما اعتزل منصبه قرر أن يترك لولده كتاباً يحتوى على الحكمة الخالدة . قصة الحضارة جـ ٢ ص ١٤٩ (المترجم) .

الإلهة « ماعت Maat »[١] في بداية الخلق ، وماعت كما سبق أن رأينا هي ربة الحقيقة والعدالة والوفاق . ويقول هذا النص « ماعت خيِّرة وقيمتها باقية لم تتزعزع قط من يوم خالقها » وهناك نصوص مماثلة تمتدح فضائل أخرى كالتواضع ، وضبط النفس ، والصبر والحكمة . فهناك نقوش جنائزية لنبيل من الدولة القديمة جاء فيها « لم أتفوه قط بقول سيىء ضد الناس لشخص ذى نفوذ ، فقد أردت أن تكون صورتى حسنة أمام « الإله العظيم ، لقد قدمت الخبز للجائع ، والكساء للعارى »[٢] والإشارة هنا « إلى الإله العظيم تعنى الإيمان بيوم الحساب بعد الموت ، فقد ارتبطت المفاهيم الأخلاقية عند المصريين ارتباطاً وثيقاً بهذا الاعتقاد .

ولقد عبر المصريون عن صورته المتطورة فى الإيمان بأن كل إنسان بعد الموت سوف يُواَجه « بميزان القلب » أمام أوزوريس والقضاة الاثنين والأربعين . وهناك العديد من الرسوم والنصوص التى تعالج هذه الفكرة وتظهر كفتى الميزان : واحدة فيها رمز الإلهة ماعت (ربة الحقيقة) ، وفى الكفة الثانية قلب المتوفى ، فإذا استطاعت فضائله إحداث توازن مع كفة الحقيقة فسوف يصدر الحكم لصالحه بالسعادة الأبدية ، وإلا فهنالك وحش يسمى « ملتهم الموتى » يقف منتظراً القضاء على الشخص المدان . ولقد خصص الورد (رقم ١٢٥) من «كتاب الموتى » لموضوع يوم الحساب ، وهو يحتوى على عدد من « إعلانات البراءة »[٣] مثل : « لم أسرق حصص الخبز ، ولم أتطفل على شؤون الآخرين ، ولم أتجادل إلا فى شؤونى الخاصة ، ولم أضاجع امرأةً متزوجة » .

كان « كتاب الموتى » هو وسيلة توصيل الحماية السحرية ، ولقد ذهب البعض إلى القول بأن ذلك كله لم يتجاوز حدود السحر البدائى ، فحتى تَوَحُّد شخصية الميت مع

---

(١) هى ربة العدالة والحقيقة التى تعرّف أهل الطبقة الممتازة على آلهتهم ، حظيت بتقدير كبير فى أوساط المتعلمين . والحقيقة باستمرار هى أهم دعامة للكمال الخلقى فى عالم تسوده الفضيلة . قال عنها أحد الملوك المصريين « هى خبزى ، وإنى أشرب من نداها » ! وكان القاضى الأول والوزير يسمى نفسه كاهنها ، ويحمل صورتها فوق صدره كشارة لوظيفته (المترجم) .

(٢) الإله العظيم وسيد القضاء هو الإله أوزوريس (المترجم) .

(٣) كان ينبغى على كل ميت وهو يلج مملكة الموتى أن يعلن أنه طاهر مبرأ من كل إثم ؛ حتى يمكن أن يستقبله الإله العظيم سيد القضاء « أوزوريس » . وهو أشبه بإعلان المتهم الآن أمام المحكمة أنه « غير مذنب» حتى يمكن محاكمته (المترجم) .

أوزوريس – وذلك هو الضمان الأخير لتبرئته يوم الحساب – فقد اعتبر من هذه الزاوية خلواً من العمق الأخلاقي . ولا شك أن عنصر السحر موجود ، ولكن يمكن القول كذلك إن وجود قلق خفي حول المعايير الأخلاقية والمقاييس الأدبية أمر واضح أيضاً ، وهذا إن لم نجد هنا نوعاً من الاقتراب بشكل غامض من فكرة غفران الذنوب .

١٤- الحياة بعد الموت :

كان التوحد مع أوزوريس هو كذلك الأمل الرئيسي في الخلود . ومنذ الدولة الوسطى وما بعدها أصبح هذا التوحد ميزة يحصل عليها كل من مارس الطقوس الدينية المناسبة . وفي العهد الروماني أصبح التوحد مع أوزوريس يعبر عنه بتصوير المتوفَّى في بعض الأحيان وهو يحمل صفات من أوزوريس . لقد أصبح عُرْفاً سائداً ـ لمدة طويلة ـ أن يوضع اسم «أوزوريس» قبل اسم المتوفى . وإذا كان تجدد الحياة النباتية ـ كما لاحظنا من قبل ـ قد أصبح رمزاً لتجدد الحياة ، فقد قام اعتقاد مماثل على أساس فكرة تجدد الحياة في السماء ، على اعتبار أن الشمس بعد غروبها يمكن أن تشرق من جديد ، وفضلا عن ذلك فإن التجلي الخارجي للروح (با Ba)[١] كان يتضمن إمكان تحولها إلى أشكال كثيرة ، بحيث تستطيع أن تغادر قبرها وقتما تشاء .

ربما كانت قوة هذا الإيمان بالحياة بعد الموت هي التي دعمت الديانة المصرية ، وجعلتها تبقى قائمة في إحدى صورها المتأخرة حتى القرن السادس الميلادى ، وإن كان الاحتكاك بالثقافات الغازية قد طوَّر وغيَّر جانباً من مضمونها وصورتها .

وهكذا فُسرت ديانة « إيزيس وأوزوريس » ، كما صورها المؤرخ اليونانى « بلوتارك » في القرن الثاني الميلادى تفسيراً حراً بمعاونة الفلسفتين الأفلاطونية والرواقية . لكن من حسن الطالع أن البقايا الأثرية العديدة والكمية الضخمة من الكتابات الأصلية تسمح لنا بأن نقدر التراث المبكر حق قدره في صورته الأصلية التي لم تَشُبْها شائبة .

* * *

(١) تصور المصريون الروح ، وكانوا يسمونها « با Ba » في مختلف الأشكال ، ولما كانت قادرة على أن تترك الجسد وتنفلت منه فقد تخيلوها عادة كأنها طائر (المترجم) .

الفصل الرابع

اليونان القديمة

انتشرت عبادة الإلهة الأنثى فى مناطق واسعة من الشرق الأدنى ؛ لأنها تمثل قوة الخصوبة فى الطبيعة ، وفى ذلك إسقاط للنموذج الأنثوى الأصلى عليها . وأطلق عليها أسماء منوعة ، فهى : « الأم » ، و« الأم العظيمة » ، كما أطلق عليها فيما بعد « أم الآلهة» .

ويمكن كذلك أن تسمى إنانا Inanna أو عشتار Ishtar ، وعناة Anat[١]، أو أتارجاتيس Atargatis ، وريا Rhea ، أو ديكتينا Dictynna ، باوبو Baubo أو ما أومه Ma، واللات Allat ، أو سيبيل Cybele . وغالباً ما يكون لها زوج أو رفيق ، إله شاب ، يموت فتحزن عليه ، ثم ينهض من جديد أو يبقى حياً بمعجزة . ولقد كان هذا الإله هو «دوموزى Dumuzi » ، أو « تمـوز tammuz » ، « أو أدونيس Adonis » روح النبات الذى يموت فى فصل الشتاء .

كانت الإلهة الأم موجودة بالفعل عندما وصل الهيلليون إلى اليونان ، وكان اسمها فى أرجوس Argos هيرا Hera (أى السيدة) التى حلت محل ديونى Dione زوجة لزيوس Zeus ، وكان اسمها فى دلفى xe أو « الأرض » وكانت لها عرافة قديمة ، وفى إلوسيس كان اسمها أيضاً الأرض الأم « ديمتر Demeter » [٢] ، وكان اسمها فى إسبرطة أورثيا Orthia ، ولقد جاءت بدورها من آسيا عبر جزر بحر إيجه متخفية فى أشكال مختلفة . وكان اسمها فى أفيسوس « أرتميس Artemis » ، وأصبح معبدها أحد عجائب الدنيا ، ومن هناك وصلت إلى جـزيرة « ديلوس Delos » ، ثم من ديلوس إلى « أركـاديا Arcadia» فى البلبونيز (المورة) ، وبرورون Brauron فى أتيكا .

ولقد روضها اليونان وجعلوا منها ربة للطبيعة البرية ، وصائدة عذراء ، وإن كانت تسربت روايات عن حملها لطفل ، وعن رفيقتها كاالليستو Callisto[٣] أما أفروديت الأم

---

(١) مذكورة فى أسفار العهد القديم « بيت عناة ، وبيت شمس تسع عشرة مدينة ... إلخ » ، يشوع ١٩ : ٣٨ ، وسفر القضاة ٣ : ٣١ ... إلخ » (المترجم) .

(٢) يقال إن مقطع متر Meter فى اسمها مشتق من ماتر Mater بمعنى الأم ، وفى تفسيرات القدماء إن « دى » هى صيغة من « جى » الأرض ، وبذلك يكون معناها أمنا الأرض ، أو الأرض الأم (المترجم)

(٣) كانت كاالليستو رفيقة صغيرة لأرتميس ،وكانت ترتدى دائماً زى الربة نفسها وتشاركها هواية الصيد ، وقد غرر زيوس بهذه الفتاة وجامعها وهو متنكر فى صورة دب . وقد مسختها أرتميس دبة لغضبها الشديد عندما اكتشفت وهى تستحم معها فى الينابيع أنها حبلى ، وانتزع زيوس الطفل من بطن أمه قبل مصرعها (المترجم) .

(المولودة من زبد البحر) فقد رحلت إلى بافوس Paphos فى قبرص [١] ، ولتسميتها « بالودة من زبد البحر » معنى مزدوج : فهذه التسمية تدل على البحر الذى خرجت منه أفروديت كما هى الحال فى لوحة بوتشيلى الشهيرة [٢] ، كما تدل أيضاً على الرغاوى المحيطة بالحيوانات المنوية .

وانتقلت عبادتها من قبرص فوصلت ميناء كورنثة ، حيث كان معبدها يرتفع عالياً على الاكروبوليس ، مزوداً بأكثر من ألف معبد للبغايا ، أو « بنات الضيافة » اللائى كن ـ كما يقول استرابو Strabo ـ [٣] مركز الجذب الرئيسى فى المدينة . وأصبح فعل «يتكرنث» (المشتق من اسم المدينة كورنثة) مرادفاً فى نظر الأتقياء « للاأخلاقية الجنسية» . ولهذا اعتمد اتهام القديس بولس للمجتمع الأثينى فى الإصحاح الأول من رسالته إلى أهل رومية ـ على سنتين قضاهما فى كورنثة ، فإذا ما استبعدنا النزعة التجارية ظهرت قوة الأم العظيمة. ولقد عرف الإغريق أيضاً قصة موت الروح النباتية فى أسطورة حب أفروديت لأدونيس الذى قُتِلَ وهو يطارد الخنزير البرى .

الديانة المينوية[٤] :

كانت كريت هى المركز الرئيسى للثقافة المبكرة ، كما كان « للأم » فيها مكانة عالية ، فقد سادت فى البداية التماثيل الصغيرة ، رغم أنها لم تكن تقتصر على تماثيل الأنثى . ولكن فى الألف الثانية قبل الميلاد اكتملت صورة الإلهة تماماً . ولقد ارتبطت

---

(١) رحلت أفروديت ـ التى انبثقت عن زبد البحر الذى اختلط بقضيب أورانس إله السماء بعد أن مزقه أبناؤه إرباً ـ رحلت إلى قبرص حيث شُيِّد لها فى مدينة بافوس أقدم معبد فى العالم اليونانى كله (المترجم) .

(٢) بوتشيلى ، ساندر Sandro و Botticelli (١٤٤٥ ـ ١٥١٠) رسام إيطالى من مواليد فلورنسا استوحى الوثنية القديمة فى لوحاته ، من أشهرها أفروديت وهى تخرج من البحر عارية ناضجة الأنوثة (المترجم) .

(٣) استرابو (٦٤ ـ ٢٣ ق . م) جغرافى ومؤرخ يونانى تعد آثاره مرجعاً معتمداً فى دراسة التاريخ القديم (المترجم) .

(٤) تعرف أيضاً باسم الديانة الكريتية ، وتسميتها بالمينوية نسبة إلى مينوس Minos الملك ، أو البيت الحاكم الذى سيطر على جزيرة كريت لفترة طويلة (المترجم) .

بالحيوانات والطيور والثعابين ، كما ارتبطت بالعمود والشجرة ، والسيف والفأس المزدوج ، وصارت لها السيطرة على جميع مجالات الحياة والموت . ويصورها تمثال شهير وهى واقفة فوق الجبل يحيط بها أسدان ، وتمثال آخر والثعابين تطوق ذراعيها ، أما رفيقها الشاب الذى عرفه الإغريق باسم زيوس فقد ولد فوق جبل إيدا Ida .

وكانت العقيدة هى عبادة الخصب حيث ارتبطت الإلهة بالقمر (لما للقمر من ارتباط الطمث وقوة النساء) ، كما ارتبط زوجها بالشمس ، وقد تمثلوها مرة أخرى على صورة البقرة والثور . وكانت أسطورة حب باسيفى Pasiphae (١) لثور ، واغتصاب ايروبا -Eu rope (٢) من قِبَلِ ثور ، أسطورتين تنتميان معاً إلى كريت . وكان الزواج المقدس جانباً هاماً من الطقوس ، وفى إحدى صور هذه الأسطورة جامع ياسيون Jasion « ديمتر» فى حقلٍ محروث (٣) . وها هنا نجد رابطة لا تخفى بين الأسطورة وتخصيب الأرض . كما أدت السيادة العامة للحيوانات إلى اشتباه بعض الشراح فى وجود الطوطمية .

كانت هناك محاريب هامة فى الكهوف والمغارات ، وقد كشفت عمليات التنقيب فى كهف « كماريس Kamares » عن أوانى جميلة من الفخار ، وأكوام من الحبوب كانت فيما يبدو تقدم « للأم » ، وقد بقى الكهف الواقع أسفل قمة جبل « إيدا » حتى العصور الرومانية بمثابة محراب لزيوس ،كما وُجدت قرابين من الحيوانات ، وأعمال برونزية مبهرة ، كما قدم إلينا كهف بسيكرو Psychro لوحة برونزية، وفاءً لنذرٍ من حوالى ١٥٠٠سنة

---

(١) باسيفى : هى زوجة الملك مينوس (انظر الهامش التالى) وقد تولدت فى نفسها رغبة شاذة نحو الثور الذى وعد زوجها بذبحه قرباناً للآلهة ، ثم عاد واحتفظ به لينتج له سلالة من الثيران على شاكلته (المترجم) .

(٢) ايروبا Europa ابنة ملك مدينة صور - وهى التى سميت باسمها قارة أوروبا - رآها زيوس فهام بها حبا ، ولكى يفوز بها تقمص شكل ثور وديع ، وراح يقفز حولها وهى تمشى على الساحل الفينقى . وأخيراً تمكن من إغرائها بالركوب فوق ظهره وقفز فى الماء حاملاً حبيبته إلى كريت ،وهناك أنجب منها ثلاثة ذكور منهم مينوس Minos الذى أصبح حاكماً للجزيرة (المترجم) .

(٣) ياسيون Jasion إله قديم للزراعة قبل مجئ الإغريق ، ويروى هزيود أنه أنجب من الربة « يمتر » الإله « بلوتو » الذى يظهر فى الاحتفالات على هيئة طفل يحمل ثمار المحصول رمزاً للوفرة والغنى . ويروى هوميروس فى الأوديسة أن ياسيون جامع ديمتر فى حقل محروث ثلاث مرات ، وأن زيوس قتله بصاعقة عندما علم بذلك (المترجم) .

قبل الميلاد عليها منظر للعبادة يبين الربة على شكل طائر ، وهى تقف على شجرة مقدسة ، وفى خلفية اللوحة : الشمس ، والقمر ، وقرنا التكريس ، والناذر نفسه .

زيوس Zeus :

جاء الهيلليون الغزاة إلى الجنوب فى الألف الثانية ق . م ، وجلبوا معهم إله السماء الهند – أوربى العظيم « ديوس Dyaus أو زيوس Zeus[1] » ولقد قيل إن هذا هوكل ما نعرفه عنهما . وكان من الطبيعى للبدو المهاجرين أن يظلوا على تمجيدهم لقبة السماء ، فالأرض يمكن أن تتغير أما السماء فلا تتغير . ومع « زيوس » جاءت رفيقته الملازمة له ملازمة الظل « ديونى Dione » ، والعذراء « بلاس Pallas [2] » ، التى تقوم بالإشراف على المعارك [3] .

التقى هؤلاء الغزاة فى اليونان بإلهة « الأرض الأم » ، ومع أول موجة من موجات المهاجرين من الهيللين احتفظت هذه الآلهة بمكانتها المرموقة السابقة ، وأصبح إله السماء « بوزيز – داس Posis - Das زوجاً للأرض . بعد ذلك لم يتعرف الهيلليون على إلههم هنا وكلما ثبّت « زيوس » سلطانه انزاحت صورة « زنوس» إلى البحر لتصبح بوزيدون posei-don » ، وبصفة عامة كان هناك حل وسط ، وهو : أن تختفى « ديونى » ويقبل زيوس الأرض الأم فى صورها المختلفة رفيقة لفراشه ، ومن هنا جاءت غرامياته المتعددة ، فزواج السماء والأرض جعل الخصوبة مضمونة ، ويمكن أن يصبح رفيق الأم هو ابن زيوس مثل هرقل Heracles ، أما فى أثينا فقد تمت الغلبة للعذراء ، وتحولت الأم إلى عذراء مقاتلة هى « أثينا – بلاس » ولما كان من الطبيعى أن يعبد إله السماء فوق الجبال ، فقد اتخذ زيوس عرشه فوق أعلى جبل وهو جبل أوليمبوس Olympus ، حيث شيد فيما بعد محرابه فوق إحدى القمم المنخفضة ، رغم وجود عروش كثيرة له : فى الأكروبول وفى أرجوس Argos ، وفى جبل كوريسوس Coressus فى أفسس ، وفى جبلين فى أنطاكية .

---

(١) الكلمة فى الأصل تعنى السماء (المترجم) .

(٢) لقب من ألقاب أثينا شاع منذ هوميروس ؛ ذلك أن الجبار بلاس حاول مغازلتها فقتلته ، وأضافت اسمه إلى اسمها ليكون ذلك نذيراً لغيره من الخطاب ، وهكذا ظلت أثينا عذراء (المترجم) .

(٣) كانت العذراء بلاس واحدة من خادمات المعارك الاثنتى عشرة ، تطوف أرض المعركة ، وتختار من القتلى من تقودهم إلى العالم الآخر (المترجم) .

ومن الطبيعى أن يمر الإله العظيم نفسه بألوان من التحولات المختلطة ، ففى كريت ـ حيث وجدت حكايات كثيرة عن مولد زيوس ـ امتزج بالإله المحلى للخصوبة ، وتوحى أسماؤه المتعددة بأنه كُتبت له السيادة على وظائف معظم الآلهة المتخصصين . فقد أدرك اليونانيون مبكرين ـ على نحو غير عادى ـ وجود إله عال محيط بكل شىء ، وأصبح زيوس هو الإله الذى يرعى الاستقامة ، وظهر اتجاه نحو وحدانية ممكنة ، وتطلب عيد الإله زيوس فى أولمبيا Olympia عقد هدنة حتى بين اليونانيين المتحاربين ، وفى ثلاثية أسخيلوس المسرحية « الأورستيا Oresteia »[1] نراه فى خلفية المسرحية يتكاثر ، فهو زيوس « المنقذ» وزيوس، « محقق الآمال » ، ومع التحول من زيوس حامى حمى الضيافة ، إلى زيوس إله المجلس السياسى وجدناه يحقق ذاته . ولقد صوره المثال « فيدياس » فى تمثال اعتقد « كونتيليانوس Quintilianus »[2] أنه يضيف جديداً إلى الديانة التقليدية ، وهو تمثال أوحى إلى ديون البروزى Dio of Prusa بموعظة نبيلة ، أما بالنسبة للرواقيين فقد كان زيوس كل شىء ومنبثاً فى كل شىء ؛ ولهذا كان من الطبيعى أن يطلقوا على الكون اسم: « مدينة زيوس » .

مجمع الآلهة فى الأولمب[3] :

فى الشعر الذى ينسب عادة إلى هوميروس يظهر مجمع الآلهة فى جبال الأولمب أشبه بالمجتمع البشرى ، لكنه مكتوب بأحرف كبيرة ، فزيوس هو السيد المسيطر والقائد الأعلى ،

---

(١) الأورستيا : ثلاثية للشاعر اليونانى إسخيلوس Aeschylus (٥٢٥ ـ ٤٥٦) كتبها فى ثلاث مسرحيات هى : « أجاممنون » ويصور فيها القائد بعد عودته من حرب طروادة ، وخيانة زوجته ، ثم مسرحية « حاملات القرابين » وهن جماعة من النساء يأتين بالقرابين إلى قبر الملك بعد أن قتلته زوجته مع عشيقها ، وفيها أيضاً نجد أورست يقتل أمه انتقاماً لأبيه . أما المسرحية الثالثة فهى « ربات الرحمة » أو « الراجيات الخير » وفيها يتضرع أورست إلى الإلهة أثينا أن تنجيه ، وتحتج ربات الانتقام ، فتنعقد محكمة من الآلهة لمحاكمته ... إلخ ، وتعد الأورستيا أروع آيات الأدب اليونانى فى نظر كثير من الباحثين (المترجم) .

(٢) خطيب وبلاغى رومانى (٣٥ ـ ٩٦ م) أنشأ فى روما معهداً لتعليم الخطابة ، وألف كتاباً ضخماً عن أسس الخطابة فى ١٢ جزءاً (المترجم) .

(٣) بعد أن انتصر زيوس على أبيه كرونس فى حرب طاحنة ، راح يوزع ملكوت العالم على أخوته ، فنصب أخاه بوزيدون ملكاً على الماء ، واتخذ من هيرا زوجة وحامية للأسرة ، ومن ديمتر راعية للحصاد ... إلخ (المترجم) .

وأب الآلهة والبشر ، ثم هناك ـ بعد ذلك ـ بعض التخصصات فى الوظائف : فهيرا Hera هى حارسة الزواج ، وبوزيدون يحكم البحر ، وأفروديت هى قوة الحب ، وآرتميس Artemis هى ربة الطبيعة البرية . أما أثينا فهى – بالإضافة إلى خصائصها الحربية – ربة الحكمة وراعية الحرف الفنية . كما أن ديميتر Demeter أصبحت الأرض الأم ، وارتبطت بصفة خاصة بحصاد القمح . وأما الإله « ابوللو » فهو مركب ومثير للخلاف : فاسمه مزدوج « فوبس أبوللو Phoebus Apollo [(١)] » (أى أبوللو المطهر) ، والمركز الرئيسى لعبادته مزدوج أيضاً ، فهو يوجد فى « ديلوس » ، وفى « دلفى » كما أنه يرتبط ارتباطاً مزدوجاً بالشمال والشرق ، وهذا يشير إلى أصله المركب . ويوحى لقب (فوبس) بأنه إله الشمس الذى يرسل أشعته فتنشر الوباء كالسهام ، والذى يستطيع أن يعالج الطاعون كما يستطيع أن يأتى به ، ولقد أشرف فى العصور الكلاسيكية على الثقافة بمعناها الواسع : الموسيقى، والأدب ، والفكر الراقى . أما الإله هرمس Hermes فهو « ركام من حجارة » ، أو كومة من الأحجار[(٢)] ، توضع على جانب الطريق للتوفير ، ولهذا أصبح مرشداً للمسافرين والتجار ، ورسول الآلهة الذى يرافق الموتى ، وهو بصفة عامة المحتال النشط [(٣)]، مثل القيوط Coyote فى أمريكا ، أو الأنانسى Anansi فى غرب إفريقيا [(٤)] وكلمة هرمايون Hermaion (كومة حجارة) تعنى لقية تجلب الحظ ، وكانت الحجارة أو الأعمدة المربعة التى تحمل وجه إنسان وعضو الذكورة تحدد شوارع المدينة [(٥)] أما هيفاستوس Hephaestus

---

(١) لقب فوبس الذى يخلعه عليه هوميروس يعنى المضئ والمنير ، كما يعنى المطهر (المترجم) .

(٢) اسم هرمش مشتق من لفظ Herma أو هرمايون Hermaion بمعنى كومة من الحجارة ، أو نصب حجرى ، وكانت الأكوام الحجرية تستخدم كعلامات على جوانب الطريق تحديداً لها وهداية للمسافرين (المترجم) .

(٣) وصف هرمس بأنه محتال مخادع ومكار ، ومن هنا نشأت شهرته فى اللصوصية ورعاية اللصوص ، وهى حرفة أعانته عليها خفة حركته ومعرفته التامة بالطرق والدروب ، ونظراً لمعرفته بهذه الطرق فقد أصبح إلهاً للتجار (المترجم) .

(٤) القيوط ذئب صغير ماكر فى أمريكا الشمالية ، والأنانسى شخصية تلعب دور المحتال فى الأدب الشعبى الإفريقى (المترجم) .

(٥) كان هرمس أيضاً « إله الخطر » ، ولما كان يرمز إليه بعمود حجرى يحيط بقاعدته كومة من الحصى ، فقد أخذ العمود والإله يقتربان من الصورة الآدمية فى أذهان الناس حتى شبهوه بعضو الذكورة استجلاباً للخصب والوفرة (المترجم) .

فيمكن أن تتعقب أثره حتى حقول النفط فى الشرق الأدنى ، فمن الطبيعى بوصفه إله النار أن يرتبط اسمه بالحدادة والتقنية . وأما آريس Ares فيبدو أنه قدم من تراقيا ، وأياً ما كان أصله فقد كان عند الإغريق إله الحرب وعشيق أفروديت [١] . وأخيراً هناك هستيا Hestia ربة المدفأة والمنزل ، وبذلك يكتمل عدد الآلهة اثنى عشر إلهاً .

غير أن « ديونسيوس » أزاحها إلى الخلف ، وظهر اسمه على لوح بخطوط على شكل الحرف «ب» [٢] فى العصر الميكينى [٣] ، وبذلك عرف فى فترة مبكرة . ولا بد أنه أُجْبِر على التراجع أو الانزواء فترة ما (فهو لا يظهر عند هوميروس) ، ليعود إلى الظهور على نحو مفاجىء وعنيف ، لقد جاء من تراقيا كقوة للطبيعة البرية ، والوجد والنشوة الدينية ، والنبيذ وثماره . وانتشرت عبادة النشوة بين النساء اللاتى كن يصعدن هائمات فوق الجبل فى نوبة سعار مقدس ، ويصطدن إلههن فى صورة حيوان ثم يلتهمنه . وهى صورة أعاد «يوربيدس» إبداعها على نحو بالغ الروعة فى مسرحية « عابدات باخوس The Bacchae [٤]

لقد أطلق الباحثون على قصائد هوميروس اسم « إنجيل الإغريق » ، وهى إن لم تكن كذلك فقد كانت مسؤولة أكثر من أى عامل فردى عن تثبيت وتدعيم صورة الآلهة

---

(١) هام حباً بأفرودت ، وبادلته الربة هذا الحب ، فكان يزورها فى قصر زوجها هيفايستوس من وراء ظهره ، لكن هليوس Helios إله الشمس الذى لا يخفى عليه شئ رأى العشيقين فى خلوتهما ، فأخبر الزوج الذى كان آخر من يعلم ، فصنع شبكة من حديد وألقاها عليهما ليضبطا متلبسين ! (المترجم) .

(٢) ألواح من الطين مكتوبة بخط يسمى الكتابة الخطية ب Linear B (حوالى ١٢٠٠ ق . م) اكتشفت بأقليم مسينا ، وفى ميكياس كذلك تميزاً لها من الألواح المكتوبة بالخط أ Linear A التى لم تكتشف إلا فى كنوسوس بجزيرة كريت (المترجم) .

(٣) العصر الميكينى (حوالى ١٥٥٠ ق . م) ، وسُمّى كذلك لأن مدينة ميكيناى Mycenae بالبلبونيز كانت أقوى مدن هذه الفترة ، وأغناها ، وأوسعها نفوذاً (المترجم) .

(٤) فى الاحتفال بموت ديونسيوس وبعثه ، كانت النساء تصعد التلال فى فصل الربيع لرؤية الإله حين يولد من جديد ، وكن يقضين يومين كاملين فى احتساء الخمر بلا حساب حتى يفقدن العقل من شدة السكر ، وكن يرقصن أثناء الشراب بطريقة هيستيرية ، ويمسكن بماعز أو ثور يمزقنه إرباً وهو على قيد الحياة إحياء لذكرى تمزيق ديونسيوس ، ثم يشربن من دمه ويأكلن لحمه معتقدات أن الإله سيدخل بهذه الطريقة أجسامهن ، ولفظ الحماس الإنجليزى Enthusiasm مشتق من إنثيوس Entheos أي « إله فى الداخل » أو أن يمتلك إله جسم الإنسان (المترجم) .

الشبيهة بالبشر فى أذهان الناس ، غير أنه من الأهمية بمكان أن نتذكر أن هناك قوة القدر Moria [١] التى تعنى أن زيوس قد يستطيع تحدى القدر ، لكن من الخير له ألا يفعل.

وتحولت بعض الآلهة إلى آلهة مدن ، وسرعان ما دخلت الديانة السياسية . ولدينا أثينا كمثال واضح ، ففى عام ٤٠٥ ق.م صدر قرار يعطى حق المواطنة الأثينية إلى أبناء ساموس Samos ، وهو قرار يوضحه منظر « هيرا » إلهة ساموس ، « وأثينا » إلهة الأثينيين وهما يتصافحان ، وتمثل هيرا أيضاً مدينة آرجوس Argos ، كما يمثل أبوللو مدينة اسبرطة وملطية وقورينة . أما الإلهة أرتميس فهى تمثل « أفيسوس » ، والإله هرقل جزيرة « ثاسوس thasos » وبريابوس Priapus مدينة « لامبساكوس La Mpsacus » [٢]

قوة الطبيعة :

الطبيعة كلها عند الإغريق مفعمة بالحياة ، فالجبل هو عرش إله السماء ، ويصعد المتعبدون إلى قمة الهضبة للصلاة من أجل المطر . ولكل شجرة حورية من حوريات الغابة ، وشجرة البلوط مقدسة عند زيوس ، وشجرة الزيتون مقدسة عند الإلهة أثينا ، والغار عند أبوللو ، والنباتات العطرية عند أفروديت ، وخشب الحور عند هرقل ، والأيكات والبساتين ، بصفة خاصة كانت موضع التقديس ، فهى ملجأ وملاذ كما عبر عن ذلك إسخليوس فى مسرحية « الضارعات » . ولكل ينبوع حورية ، ولكل نهر إله . ولقد ألف جيمس ر. سميث James R. Smith مجلداً ضخماً حقاً صنف فيه « الينابيع والآبار فى الأدب اليونانى والرومانى » مع عرض لأساطيرها وقصصها المقدسة .

ومن يضل طريقه فى الريف يمكن أن يلتقى بالإله « بان Pan » [٣] ، أو بالساطير

---

(١) كان زيوس ملك الملوك ، وسيد الآلهة ، يطيعه كل شئ إلا ربات القدر أو المقادير Fates القاطنات فى العالم السفلى هاديس ، واللائى يجرى قضاؤهن على زيوس نفسه ! (المترجم) .

(٢) بريابوس إله الخصب والحدائق ، ولد نتيجة لاتصال ديونسيوس بأفروديت ، وكان الفنانون يزينون المزهر بصورته ، وقد نشأت عبادته أصلاً فى بلدة لامبساكوس على الدردنيل (المترجم) .

(٣) الإله بان هو إله الرعاة والقطعان والغابات والمراعى ، وكانوا يصورونه نصف إنسان من الرأس حتى الفخذين ، ونصف جدى (فيه من الجدى ساقاه وأذناه وقرناه) تسمع صفارته فى كل جدول وواد ، وتبعث صيحته الفزع ، وكلمة Panic الإنجليزية التى تعنى الفزع مشتقة من الإله بان (المترجم) .

Satyrs (١) ، أو القناطير Centaur (٢) . ولقد كان البحر هو مسكن الإله بوزيدون ، وهو أيضاً بيت « بروتيوس Proteus (٣) » بقدرته السحرية على تغيير شكله ، وعروسة البحر الرمادية « جلوكس Glaucus (٤) » ، والحورية المقدسة « إنوليوكوثيا Ino Leucoth-ea (٥) » وعرائس البحر الفاتنات « الناريدات Nereids » (٦) ، والتريتون المتوحشة Tri-tons(٧) والسيرينيات المهلكات (٨) . أما فوق في السماء ، فكان « زيوس » يمارس قوته الرعدية . وأما الشمس والقمر المقدستان فيتحركان في هدوء ، رغم ما قد يعلنه أحد العلماء الملاحدة من أن الشمس حجر ملتهب (٩) .

وكان للنجوم أساطيرها المناسبة ، ولقد أعلن فيلسوف عميق مثل أفلاطون أنها مفعمة بالروح ، وكلما مرّ الزمن امتلأت القبة الزرقاء بين السماء والأرض بقوى وسيطة .

---

(١) الساطير : آلهة الغابات في أساطير الإغريق لها ذيل وأذنا فرس ، وتميل إلى العربدة والانغماس في الملذات (المترجم) .

(٢) القناطير : جماعة من الوحوش البرية ، يقال إن لها رأس إنسان وجسد حصان ، وكانت تعيش في الغابات وأعالي الجبال ، وهم من نسل اقنطورس بن اكسيون Ixion ، ويقال إنه كان يجامع الأفراس قرب جبل بيليون (المترجم) .

(٣) بروتيوس إله صغير من آلهة البحر ، كان في البداية راعي قطعان البحر كالأسماك وكلاب البحر ... إلخ ، وعند هوميروس أنه كان جنيًا مصريًا يخدم بوزيدون إله البحر ، وكانت له القدرة على التشكل في أشكال الوجود (المترجم) .

(٤)جلوكا أو جلوكس : واحدة من عرائس البحر ، وكانت تسمى بالرمادية المائلة إلى الزرقة ، وهذا هو معنى الكلمة (المترجم) .

(٥) كانت حورية البحر « ليوكوثيا » هي التي ساعدت أوديسيوس في محنته بعد أن هشم بوزيدون زورقه ، فأعطته وشاحاً لفّه حول وسطه ، واستطاع أن يسبح به ثلاثة أيام حتى وصل إلى الشاطئ (المترجم) .

(٦) الناريدات : مجموعة من حوريات البحر تزعم الأسطورة الإغريقية أنهن من بنات إله البحر نيريوس Nereus (المترجم) .

(٧) التريتون : نصف إله من آلهة البحر عند الإغريق له جسم رجل وذيل سمكة (المترجم) .

(٨) مجموعة من كائنات أسطورية لها رؤوس نساء وأجسام طيور ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك ، ولهذا اضطر أوديسوس إلى إغلاق آذان رجاله بالشمع عندما مر بجزيرتهم أثناء عودته من طروادة (المترجم) .

(٩) هو الفيلسوف اليوناني أنكساجوراس Anxagoras (٤٩٦ ـ ٤٢٧ ق . م) ذهب إلى أن الشمس ليست إلهاً ، وإنما هي حجر ملتهب تفوق في الحجم شبه جزيرة المورة ، وأن القمر مسكون ، وفيه جبال ووديان ... إلخ ، (المترجم) .

إن هذا يؤثر فى فهمنا لبعض النصوص فى الأدب اليونانى ، فهناك تقدير ضعيف لجمال الطبيعة فى ذاته ، فاليونانيون لا يتسلقون جبالهم لكى يستمتعوا بالمناظر الطبيعية ، فقد كانت الطبيعة تقدم الطعام والشراب ، والظلال الدافئة أو الباردة ، فهى مفيدة ونافعة أو هى مرعبة ومدمرة . غير أن الطبيعة تعنى أساساً قوة الحياة ، ولهذا كانت مقدسة . والمنظر الشهير فى بداية محاورة « فايدروس » لأفلاطون ليس وصفاً للجمال الطبيعى ، وإنما هو وصف لأيكةٍ مقدسةٍ ولظلٍ مريحٍ ، وعشبٍ ، وماءٍ (١) ولا تذكر ديوتيما Diotima جمال الطبيعة ضمن قائمة الجمال التى سردتها فى محاورة « المأدبة » لأفلاطون (٢) .

والواقع أن الريف يكاد يزخر بالهياكل والتماثيل الصغيرة ، والقرابين . ولقد وصف استرابو Strabo مصب نهر الفيوس Alpheus على النحو التالى : ضفة النهر كلها مليئة بهياكل للإلهة أرتميس Artemis ، والإله أفروديت ، وحوريات البحر فى بساتين مزدهرة ترجع أساساً لوفرة الماء ، والعديد من تماثيل « هرميس » على الطريق ، وتمتد هياكل للإله « بوزيدون » على لسانٍ من الأرض داخل البحر !!

ويعلق الأستاذ « مارتن نيلسون Martin Nilsson (٣) » بقوله : يكاد يصعب على المرء أن يخطو خطوةً واحدةً خارج الدار دون أن يلتقى بهيكلٍ صغير ، أو سياجٍ مقدس ، أو صورةٍ ، أو حجر مقدس ، أو شجرةٍ مقدسة ، وربما لا تكون هذه هى الصورة المثلى للديانة اليونانية ، لكن من المؤكد أنها أكثر الصور ثباتاً .

التطهر والقداسة :

ارتبط جانب كبير من الديانة اليونانية بالتطهر والقداسة : فالمحراب أو قاعة الأسرار الدينية Temenos مفصولة ـ معزولة على حدة ـ وليست المعابد التى نعجب بها أماكن

---

(١) فى بداية المحاورة يبحث فايدروس وسقراط عن مكان منعزل على ضفة نهر اليوسس « فهناك ظل ونسيم عليل وحشائش خضراء نجلس أو نستلقى عليها إن شئنا » ، ٢٧٩ س ترجمة د . أميرة مطر ص ٤٤ (المترجم) .

(٢) ديوتيما : امرأة من «مانت » صاحبة أعمال جليلة ، وهى على ما يروى سقراط فى « المأدبة » هى التى علمته فن الحب (المترجم) .

(٣) عالم سويدى متخصص فى الحضارة الإغريقية (المترجم) .

للعبادة العامة بالمعنى الحديث ، فقد لا يدخلها بعض الناس إلا مرة واحدة فقط في السنة ، أو قد لا يدخلها سوى الكهنة فحسب ، وقد لا تدخلها الكاهنات إلا منقبات . (. مثل معبد سوسيبوليس Sosipolis في مدينة إليس Elis) ويكتب على الهيكل الداخلي كلمة ady-ton (أي ممنوع الدخول) . وهناك أماكن أخرى يمنع فيها المشي مثل أريكة الإلهة ديمتر ، والإلهة Kore [١] في مدينة « ميجالوبوليس Megalopolis [٢] » أو أي مكان آخر يظهر فيه البرق .

كان الدنس تهمة بشعة . ويمكن أن نسوق مثلاً جيداً على ذلك من مأساة أوديب الذي قتل أباه وتزوج أمه ، ولا يهم أن تكون الجريمة قد ارتكبت عن علمٍ وتعمدٍ أم لا . كما كان على « أورست » أيضاً أن يتطهر (٣) ، ونحن نراه مرسوماً على مزهرية وقد رش فوقه دم خنزير ، وفي بعض الأحيان تستأصل الموضوعات المادية المرتبطة بجريمةٍ ما ، ففي جزيرة « قوس » بعد أنْ انتحر رجل بشنق نفسه على شجرة ، عوقب الحبل والشجرة بالإبعاد، وفي أعياد بوفونيا Bouphonia الغريبة ـ وهو عيد يحتفل فيه بزيوس في أثينا ـ يفر الكاهن بعد التضحية الرسمية ، وتحاكم الفأس وتدان ، ويلقى بها في البحر .

وكبش الفداء صورة من صور التطهر . ففي أثينا ، وفي غيرها من المدن الأيونية في عيد « ترجيليا Thargelia [٤] » ، وهو عيد الإله أبوللو ، تلقى خطايا الجماعة على عاتق فرد واحد يسمى فارماكوس Pharmakos (أي العقـار أو الدواء) [٥] ، ثم يطرد من

---

(١) ابنة ديمتر التي اختطفها هاديس إله العالم السفلي ، وعُرفت بعد زواجها منه باسم برسيفوني Perse-phone وهي ربة الربيع (المترجم) .

(٢) ميجالوبوليس : مدينة رئيسية في الجزء الغربي من أقليم أركاديا ، وتقع على نهر الفيوس Alpheus (المترجم) .

(٣) أورست هو ابن أجاممنون الذي انتقم من أمه وعشيقها لقتلهما لأبيه ، وقد سبق أن أشرنا إليه عند الحديث عن ثلاثية « الاورستيا » لايسخيلوس (المترجم) .

(٤) اسم شهر من الأشهر اليونانية ، والتراجيليا : عيد حصاد الحب (المترجم) .

(٥) كان اليونانيون إذا داهم المدينة قحط أو مرض قدموا للالهة ضحية بشرية تطهيراً للمدينة ، ففي عيد « الثارجيليا» يأتون بمواطن فقير ويطعمونه ويلبسونه ثياباً كهنوتية ويزينونه بالأغصان المقدسة ، ثم يلقون به من فوق صخرة ويدعون من حوله أن يكفر بعقابه هذا عن سيئات مواطنيه !

أما كلمة Pharmakos فكانت تعني في الأصل « رقية سحرية »ثم أصبح معناها « العقار الشافي » (المترجم) .

المدينة . وهناك أساليب عديدة للتطهر ، أبسطها ، التضحية بخنزيرٍ أو كلبٍ أو ديكٍ أو الاغتسال فى ماء البحر ، ثم امتدت هذه الأساليب إلى خبرات كثيرة متكررة تعيد ذكرى الإلهة مانا Mana، وهكذا يُقْضَى على المرض ، أو تهدى ملابس امرأة فى المخاض إلى الإلهة أرتميس البرورية Artemis of Brauron .

الأسرار :

هناك عبادتان مميزتان من بين العبادات التى غلب عليها طابع الديانة الشخصية ، فالناس فى إليوسيس Eleusis [١] ، تروى كيف اغتصب إله العالم « كورى » العذراء ، كما تروى قصة حزن أمها الإلهة « ديمتر » وهى تبحث عنها ، وقصة الآفات التى ضربت بها «ديمتر» الأرض ، وقصة استعادة الأم ابنتها جزءاً من العام فحسب ، واتحاد الابنة من جديد مع الربة[٢] ، وتعكس الأسطورة دفن بذور القمح تحت الأرض فى قدور تخزين أثناء الجفاف الشتوى المظلم ، وظهورها من جديد عندما تبذر فى الربيع [٣] .

ويقام احتفال عظيم فى شهر سبتمبر يبدأ بالحث على البعث الروحى والتعميد فى البحر ، وفى ١٩ سبتمبر يأتى موكب من أثينا وتقام عملية الترسيم ، وكانت الأسرار تصان، ويحرم على أى إنسان البوح بها ، لكن الاستنتاج المعقول أن هناك أداءً دراميًا للأسطورة

---

(١) إليوسيس : هى المدينة التالية لأثينا ، وكانت تقع على خليج شبه مقفل على سهل ساحل خصيب . وكانت تقام فيه أسرار عبادة ديمتر ، وكورى « برسيفونى » التى كان يفد إليها الناس من جميع أرجاء اليونان (المترجم) .

(٢) يقال إن كورى أكلت حب الرمان وهى فى العالم السفلى ، ولهذا كانت تنام نصف العام فى العالم السفلى ، وتصحو نصفه الآخر فوق سطح الأرض ! أما الاحتفالات بالطقوس السرية الكبرى باليوسيس فهى تقام فى شهر سبتمبر لمدة ستة أيام ، وكانت تقترن بذكرى عودة كورى إلى أمها ديمتر فى مستهل الخريف ، عندما تكون الخضرة قد عادت إلى الحقول بعد جفاف الصيف (المترجم) .

(٣) كانت كورى تمثل الروح المودعة فى القمح والحبوب ، تجئ بمجيئها وتختفى باختفائها . ومن هنا كانت صلتها بالعالم السفلى تحت التربة حيث تدفن البذور ، ومن هنا أيضاً جاء ارتباطها بإله العالم السفلى « بلوتو » أو « هاديس » الذى اختطفها ونزل بها إلى دولته تحت الأرض ، وبحثت ديمتر عن ابنتها دون جدوى حتى بلغت إليوسيس ... إلخ (المترجم) .

ينتهي بزواج مقدس [1] ، كما يحدث تجل تصاحبه أضواء لامعة تتركز على سنبلة قمح ووليمة مشتركة ، ويحدث نوع من الاتحاد مع الربة ، ولقد سك الإمبراطور « جالينوس Gallienus » على النقود صورة « جالينا Galliena » الأنثى في ذكرى ترسيمه .

وكان الوعد هنا يشبه ما عبر عنه المسيح بقوله « ما لم تسقط حبه القمح في الأرض وتموت فإنها تظل وحيدة ، ولكنها لو ماتت لجلبت الكثير من الثمار » . لقد كان هذا هو وعد « الترنيمة إلى ديمتر » [2] التي تقول أبياتها :

مبارك بين البشر على الأرض
من رأى هذه الأشياء ،
لكن من لم يشارك في مراسم الطقوس المقدسة ،
فلن يستمتع بالمشاركة في مثل هذه الأشياء ،
عندما يرقد بعد الموت تحت الظلام المنتشر » .

وكما قال شيشرون « لقد تعلمنا أن نعيش في بهجة ، وأن نموت مع أملٍ أفضل » . ولم يكن ثمة سوى أملٍ ضئيل بعيدٍ عن الطقوس السرية فيما وراء القبر ، فهاديس التي يروى عنها هوميروس مكان للأشباح والظلال . أما العبادة الأخرى فهي عبادة « أورفيوس Orphus » وهو موسيقي أسطوري ، وصورة أخرى من دينسيوس . ونحن نلتقي بالأورفيين (أتباع النحلة الأورفية) في صقلية ، وفي اليونان في القرن (الخامس ق. م) ، وفي الألواح الذهبية المدفونة في بتليا Petelia التي يعطى فيها تعليمات لأرواح الموتى . كما نلتقي بهم فيما يسمى بالترانيم الأورفية من فرع آخر للأخوة الديونسيوسيين في الإمبراطورية الرومانية . فنحن نعرف (رغم أننا لم نعرف ذلك إلا في فترة متأخرة) الأسطورة المعقدة التي تروى كيف قتل التيتان Titans [3] الأشرار ديونسيوس وأكلوه ،

---

(١) كانت الاحتفالات تصل إلى ذروتها بزواج خفي بين كاهن يمثل زيوس وكاهنة تمثل ديمتر ، وكان هذا الزواج رمزياً (المترجم) .

(٢) « ترنيمة إلى ديمتر » منسوبة إلى هوميروس ، وفيها وردت قصة اختطاف هاديس إله العالم السفلي للعذراء كورى وهبوطه بها إلى مملكته تحت الأرض (المترجم) .

(٣) هم الجبابرة أو المردة وعددهم اثنا عشر ، ستة بنين وستة بنات كانوا آلهة قدامى بدائيين يتصفون بالوحشية أصغرهم كرونوس وأخته « ريا » وهما والدا زيوس (المترجم) .

وكيف تم إنقاذ قلبه الذى ولد منه ديونسيوس مرة أخرى ، ثم قضى عليهم زيوس بصواعقه، وولد الجنس البشرى من بقايا رمادهم .

وهكذا أصبح الإنسان مؤلفاً من عنصر « تيتانى » هو : الجسد ، وعنصر ديونيى هو: الروح ، ومطلوب منه لكى يطهر النفس من الأثر التيتانى أن يراعى السلوك الدينى ، بما فى ذلك أن يكون نباتياً . وكانت هناك عقيدة التجسيد تمثل « دورة مرهقة محزنة » من الموت والميلاد من جديد ، يكون الترسيم مهرباً سريعاً منها . وقد كان حنين الشخص الذى سيتم ترسيمه يتمثل فى الاستماع إلى الكلمات الآتية :

« طوبى لك ، ومبارك أنت يا منْ أصبحت إلهياً بدلاً من أن تكون فانياً » .

« أيمكن أن يكون مصير باتيكسيون Pataecion اللص أفضل من مصير« إيامينونداس Epaminondas[1] » لمجرد أنه قد تم ترسيمه ؟ » ذلك هو أقدم سؤال ، وهو يعنى أن الترسيم وحده لا يكفى ، وأن المطالب الدينية تمثل عنصراً أخلاقياً قوياً بالنسبة للعضو المترسم . وهناك شخصية فى إحدى مسرحيات – ميناندر Menander [2] الكوميدية تقابل على هذه الأسس بين مطالب ديمتر ومطالب « سيبل » الأسيوية .

النظر الفلسفى :

كثير من النظريات التى تدور حول نشأة الكون تتحدث عن انفصال السماء والأرض ، وعن ارتباطهما عن طريق الاتحاد الجنسى ، ففى كتاب هزيود (فى القرن الثامن ق. م) « أنساب الآلهة Theogony » نجد أن العماء Chaos ، أو الفجوة المتثائبة « قد ظهرت إلى الوجود » هكذا ببساطة ، وكذلك فعلت الأرض ، وأيضاً طارطاروس Tartarus (العالم السفلى أو الجحيم) والحب وهذه الموجودات تؤخذ كما تعطى . ولم تقم أسطورة الاتحاد الجنسى بعملها إلا بعد ظهور الحب فنحن إذن على أبواب العقلانية .

---

(١) كان « إيامينونداس » قائداً فذاً لإقليم « بويوتيا » ، وعاصمته طيبة ، فى منتصف القرن الرابع (٣٧١ ـ ٣٦٢ ق . م) (المترجم) .

(٢) ميناندر : شاعر يونانى كان زعيماً للكوميديا فى عصره ، امتاز برقة أسلوبه وسلامته ، وتصويره للشخصيات، وتحليل مواقفها ، عاش فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ق . م ، وعثر فى مصر على مخطوطات بعض مسرحياته المفقودة (المترجم) .

كان طاليس الملطى (فى فجر القرن السادس ق.م) هو مؤسس الفلسفة العلمية ، لقد سأل أسئلة عن نشأة الكون ، وبحث لها عن أجوبة بمصطلحات المادة، فرأى أن الأشياء جميعاً أشكال منوعة من الماء الذى لا غنى للحياة عنه . ففى استطاعته أن يتجمد ، أو أن يصبح غازاً ، وتلك هى بداية العملية التى أنزلت « زيوس » عن عرشه ، وأحلت فورتكس Vortex (الدومة) محله [١] .

ومع ذلك فإن هذه النظريات العلمية لم تتحرر من الأسطورة ، فالماء الذى يتمثل فى صورة الأوقيانوس Oceanus [٢] ، كان أحد الموجودات الأولية فى الأساطير اليونانية . ولقد ذهب طاليس متأثراً بالخصائص المغناطيسية للمادة إلى أن « كل شىء مملوء بالآلهـة ». أما « انكسمنيس » الذى أحل الهواء محل الماء ، فقد أعلن أنه إلهى ، وكان هناك اعتقاد عام فى ألوهية مادة واعية تحيط بالكون وتتسرب من خلاله لتشكل الهواء العلوى أو الأثير . وبحث فلاسفة آخرون عن قوة محركة : فكانت المحبة والنزاع عند « أبناذقليس » ، والعقل عند « أنكساجوراس » .

غير أن الحركة كانت تتجه نحو العقلانية : فهاجم اكزينوفان [٣] ، النزعة التشبيهية (تشبيه الآلهة بالبشر) زاعماً أن الثيران يمكن أن تصنع لنفسها أصناماً مماثلة من الثيران ،

---

(١) سوف يذهب الفلاسفة الذريون فيما بعد إلى أن حركة الدوامة هى التى تجعل الذرات المتشابهة تتجمع فتتكون العناصر الأربعة التى ظهرت منها جميع الموجودات ، ويريد المؤلف أن يقول إن طاليس وضع قدمه على بداية الطريق الفلسفى الذى أنهى التفكير الأسطورى فحلّت الفلسفة ، ثم العلم ، محل الدين فى تفسير ظواهر الطبيعة (المترجم) .

(٢) كان بحر « الأوقيانوس الأعظم » فى الأساطير اليونانية هو ذلك البحر الذى لا تثيره ريح ، وهو مصدر جميع الماء الذى تفيض به البحار والأنهار والقنوات والينابيع والعيون ، ويجرى باستمرار فى حلقة دائرية حول الأرض (المترجم) .

(٣) إكزينوفان Xenophanes (٥٧٠ ـ ٤٨٠ق . م) فيلسوف يونانى كبير ، كان من أقوى الفلاسفة الذين هاجموا النزعة التشبيهية بعنف حيث يقول : « إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة ، وأضافوا إليها عواطفهم ، وصورتهم وهيئتهم ، فالأحباش يقولون عن آلهتهم إنهم سود فطس الأنوف » ويقول أهل تراقيا إن آلهتهم زرق العيون حمر الشعور ، ولو استطلعت الثيران والخيول لصورت الآلهة على مثالها ... إلا أنه لا يوجد غير إله واحد هو أرفع الموجودات السماوية والأرضية ، ليس مركباً على هيئتنا، ولا يفكر مثل تفكيرنا ... إلخ (المترجم) .

كما تصنع الأسود أصناماً للأسود . كذلك أنكر أنكساجوراس ألوهية الشمس ، وذهب إلى أنها حجر أحمر ملتهب أكبر حجماً من جبل البليونيز (شبه جزيرة المورة) ، وكتب «كريتياس Critias » مسرحية ذهب فيها إلى أن القانون هو اختراع أُريد به وضع القوى تحت السيطرة ، كما أن الآلهة اختراع أريد به إرهاب الماكر ، وفيما بعد وضع أو يهيمروس Euhrmerus نظرية تقول : إن الآلهة ليست سوى أبطال وطنيين ألههم مواطنوهم ، وما زلنا حتى الآن نسميها النزعة الأويهيميزية Euhemerism [1] ، وأنكر أحد الأطباء أن يكون الصرع مرضاً مقدساً مرجعه إلى عقاب إلهي ـ كما كان يُعتقد بصفة عامة ـ وذهب إلى أنه يوصف بأنه إلهي لأنه لم يُفْهَمْ بعد .

واستعاد أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م) البعد الديني ، وتتضمن فكرته عن الخلق وجود إله صانع ، وصور (أو مُثُل) أزلية لا تتغير ، وهي نماذج وأنماط للعالم ، أما «الوعاء» فهو ما يمكن أن نسميه بالمادة . والعالم المادي عالم قابل للفناء ، كذلك الجسد الذي يدركه هو أيضاً قابل للفناء . أما عالم الصور (أو المثل) فهو التقوى الحقة ، والعدالة التامة ، والجمال في ذاته ، خالد لا يفنى ، والروح التي تدركه بدورها خالدة ، وعالم الصور أو المثل هو وحدة العالم الحقيقي ، ويكمن خلفه ـ بل ووراء عالم الواقع ـ معيار الوجود كله وهو : مثال الخير .

أما أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) أنبغ تلاميذ أفلاطون وقد قدَّم كذلك فلسفة دينية - فرأى أن هناك سلسلة كبرى من الموجودات تبدأ من المادة الخالصة التي لا يمكن أن نعرفها ، في القاع ، وتسير صعداً إلى الصورة الخالصة التي هي الله في القمة . وهي سلسة تمتد من الإمكان البحت (أو الوجود بالقوة) إلى الفعل الكامل (أو الوجود بالفعل التام) ، وينشغل الإله بتأمل ذاتي لا نهاية له ، فهو لا ينشغل بالعالم ، وإنما يحركه كما يحرك المحبوب محبه دون أن يحتاج إلى أن يقوم بأدنى حركة ، فهو المحرك الذي لا يتحرك ، وإنها لإحدى مفارقات التاريخ أن نجح الاسكولائيون في العصور الوسطى ـ وهم على جانبٍ من العمق والدقة ـ في التوحيد بين هذا المحرك الذي لا يتحرك وبين أبي يسوع دائب العمل

(١) نظرية أويهيميروس أحد مواطني مسِّينا ، عاش في أواخر القرن الثالث ق . م ، وكان يرى أن أبطال الأساطير كانوا بشراً في الأصل ، أدوا للناس خدمات جليلة ، فنسج الخيال الشعبي القصصي تمجيداً لهم ، ورفعهم إلى مصاف الآلهة ، اعترافاً بفضلهم ، أو تزلفاً إليهم (المترجم) .

العَرّافات (١) :

أشهر المتنبئات عند الإغريق هي عرافة دلفي ، وكانت في الأصل عرافة الأرض الأم، غير أن أبوللو أخذ بعد ذلك وظائفها . وقد جرت العادة أن تكون الاستشارة من خلال الكاهنة « بثيا Pythia » (٢) التي تروح في غيبوبة بسبب التركيز العقلي والروحي الكامل (ولم تكن هناك أبخرة كريهة الرائحة) (٣) ، وتنطق بأصوات مبهمة غير مفهومة. وكان الكهنة الذين كان لديهم نظامٌ كفءٌ يستخدمونه في نقل المعلومات ، يحولون هذه(٤) الأصوات إلى أنباء مناسبة في لغةٍ مفهومة بالشعر والنثر ، وإن تكن أحياناً مزدوجة ومن الإجابات الغامضة المشهورة : الإجابة عن سؤال للملك كوريس ملك ليديا إذْ المعنى . كانت الإجابة : « إذا ما عبر كرويسس نهر هاليس Halys ، فسوف يدمر إمبراطورية هائلة » وكان هذا ما فعله ، إذ دمر إمبراطوريته هو . وهناك طريقة أخرى للاستشارة بأن يسحب السائل مجموعة حبوب ملونة بألوان مختلفة تعني نعم أو لا ، ولقد تم اختيار ملك تساليا ذات مرة بسحب حبة نقش عليها اسم المرشح الذى نجح .

ومن الطبيعي أن نسمع أكثر من ذلك عن الاستشارات السياسية الكبرى ، غير أن

---

(١) العرّافة Oracle مشتقة من اللفظ اللاتيني Oraculum بمعنى النبوة ، والمقصود إجابة الإله عن طريق كاهن أو كاهنة على أسئلة السائلين فيما يتعلق بمستقبلهم كالزواج ، والتجارة ، والمشروعات بالنسبة للدول ، وإقامة المستعمرات ! ..... إلخ ، وكانت الآلهة تتميز بقدرتها على كشف الغيب (المترجم) .

(٢) كانت « بيثيا » كاهنة أبوللو تقدم الإجابات عن أسئلة المتسائلين عن المستقبل ، تجلس على مقعد ذى ثلاثة أرجل وتروح في شبه غيبوبة بطريقة لا تزال خافية ، وتتقمصها روح الإله أبوللو فتهذى بإجابات تحتمل ـ في الأعم الأغلب ـ تأويلات شتى (المترجم) .

(٣) يقال أحياناً إن الكاهنة التي تتلقى الوحي ، كانت تجلس فوق نضد عال ، وتستنشق رائحة كريهة مقدسة تنبعث من غار عجيب يخرج من فتحة في الأرض تحت الهيكل ، ويعزوه الناس إلى تحلل الأفعى التي قتلها أبوللو في ذلك المكان (المترجم) .

(٤) كان معنى الإجابة غامضاً ويحتمل تأويلين ، ذلك لأن الإله الذى تتحدث الكاهنة بوحي منه ، معصوم من الخطأ ، فإذا حدث ولم تنطبق النبوءة ، فإن ذلك لا يرجع إلى خطأ الإله وإنما يرجع إلى أن السائل لم يفهم الإجابة على وجهها الصحيح (المترجم) .

يوربيدس فى مسرحة « أيون » يبين أن الاستشارات الخاصة كانت كثيرة [١] وكان يتوقع أن تدور حول المحاصيل والأولاد ، ويمكن أن نضيف أيضاً الاستشارات الخاصة بالمرض ، ويسجل لنا التاريخ استشارة يقدمها عبد يريد أن يعرف كيف يرضى سيده . ويقول بلوتارك (حوالى ٤٥ - ١٢٥م) إن السلم الرومانى Pax Romana [٢] ، جعل الاستشارات السياسية القديمة غير ضرورية فى عصره ، إذ أصبح الأفراد يسألون عن الزواج ، والسفر ، وتدبير المال.

وعلينا أن نتذكر أن عرافة دلفى ، مثل عرافة « يوربا إيف » [٣] ، هى المستودع الجامع للحكمة . وهناك بعض الأسئلة الطريفة مثل : « كيف أستطيع أن أعالج ابنى من مرض الحب » والإجابة : « عامليه بلطف ! » وكانت دلفى هى التى أشاعت الحكمتين العظيمتين « اعرف نفسك » و « إياك والإفراط » .

وهناك عرافات أخريات كعرافة الإله « زيوس » فى بلدة « دودونا Dodona » التى كانت تفسر أصوات حفيف الأوراق فى شجرة البلوط وغيرها من الأصوات بأنها إرادة الإله[٤] وكانت الأسئلة تكتب على رقائق معدنية بقى بعضها حتى الآن . ولقد أراد « ليزانياس Lysanias » أن يعرف ما إذا كان هو والد الطفل الذى كانت تحمله « أنيلا Annyla » وتسأل « نيكوكراتيا Necocratia » إلى مَنْ مِنَ الآلهة تضحى من أجل

(١) إشارة إلى ما جاء فى المسرحية حيث يسأل أيون المرأة وزوجها « أجئتما من أجل محصول التربة أم من أجل الذرية ؟! » وكانا قد جاءا إلى معبد دلفى لاستشارة الكاهنة . انظر الترجمة العربية للدكتور عبد المعطى شعراوى ص ٤٨ المسرح العالمى عدد ١٨١ (المترجم) .

(٢) المقصود بالسلم الرومانى فى الأصل هو إقامة السلام بين القوميات المختلفة داخل الإمبراطورية الرومانية الشاسعة (المترجم) .

(٣) عرافة مدينة ايف Ife فى النيجر شهيرة بين شعب يوربا Yoruba وكانت تستخدم ٢٥٦ تمثالا صغيرا مرقمة على لوحة من الرمل يقوم خبراء التنجيم بتأويلها ، وقد سبق للمؤلف أن تحدث عنها فى فصل خاص بالديانة الأفريقية ورأت هيئة تحرير السلسلة حذفه (المترجم) .

(٤) كانت شجرة البلوط مقدسة عند زيوس كما ذكر المؤلف من قبل . وفى بعض الأحيان كانت تعلق فى الشجرة أوان نحاسية لتجعل الحفيف أكثر وضوحاً ورنيناً . وفى أحيان أخرى كانت الإجابات على أسئلة السائلين تقوم على تفسير هديل الحمام الواقف على أغصان الشجرة .. (المترجم) .

اكتساب الصحة . ويسأل صبيٌ ما إذا كان عليه أن يمتهن حرفة أبيه في صيد السمك ، ويسأل الكوركيريون Corcyreans كيف نتجنب الحرب الأهلية [١] .

وفي بلدة لبيديا Lebadeia كانت هناك عرافة قديمة لـ « تروفونيس Trophon-ius » [٢] وكان السائل ـ بعد التطهر وتقديم القرابين ـ يُدفَعُ به إلى مغارة تحت الأرض ليتلقى على نحوٍ مباشر وحياً يثير الرهبة ، ولقد كان لأبوللو بعض العرافات الشهيرات في آسيا مثل عرافة معبد ديديما Didema [٣] التي ترجع إلى القرن السادس ق.م ، لكن عرافة كلاروس Claros [٤] طغت عليها فيما بعد ، وكان لهذا المعبد في العصر الروماني جهاز إداري كبير ، فضلاً عن جوقة من المنشدين ، ولقد انتشرت شهرة هذه العرافة حتى وصلت إلى مناطق بعيدة مثل دالماتيا Dalmatia [٥] ، ونوميديا Numidia [٦] ، وبريطانيا Bru-tain.

الخرافات :

يصور ثاوفراسطوس [٧] في كتابه البديع « الطباع » الرجل المؤمن بالخرافة في صورة كوميدية بقوله « من الواضح أنه يمكن تعريف عالم الخرافة بصفة عامة بأنه ضرب من الجبن أمام القوى الخارقة للطبيعة . إن المؤمن بالخرافة هو ذلك النوع من الناس الذى لا يخرج من داره أول النهار إلا بعد أن يغسل يديه ويرش نفسه بالماء من العيون التسعة ، ويضع في فمه قطعة من ورق شجر الغار يأتي بها من أحد المعابد ، فإذا ما اعترضت طريقه قطة لم

---

(١) الكوركيريون : اسم قديم لسكان جزر أيونيا (المترجم) .

(٢) تروفونيس : كان في الأصل مهندساً معمارياً عظيماً قام بالاشتراك مع أخيه ببناء معبد أبوللو في دلفي ، ثم رفعه الناس إلى مرتبة التقديس (المترجم) .

(٣) ديديما : مدينة يونانية تقع على الساحل الأيوني ، وتبعد عن مالطة مسافة أحد عشر ميلا تقريباً (المترجم) .

(٤) تقع مدينة كلاروس على ساحل أيونيا بالقرب من مدينة كولوفون (المترجم) .

(٥) دالماتيا : إقليم بيوجوسلافيا يمتد بحذاء شاطئ الأدرياتي (المترجم) .

(٦) نوميديا : إقليم قديم شمال غرب إفريقيا ، وهو على وجه التقريب الجزائر الحديثة (المترجم) .

(٧) ثاوفراسطوس (٢٧٢ ـ ٢٨٧ ق . م) فيلسوف يوناني خلف أستاذه أرسطو في زعامة المدرسة الأرسطية. كتب في موضوعات كثيرة ، وكتابه « الطباع » رسم فيه عدة شخصيات من أنماط مختلفة صوّر بها معاصريه (المترجم) .

يواصل السير حتى يمر به إنسان آخر ، أو يقذف بثلاثة أحجار في الشارع ، وإذا أبصر أفعى في بيته وكانت من النوع الأحمر اللون يستنجد بديونسيوس (أوسبازيوس Sabezius) ، أما إذا كانت الأفعى مقدسة فإنه يقيم هيكلاً من فوره في البقعة التي أبصرها فيها ، وإذا مر بحجرٍ أملس من تلك الحجارة المقامة في مفترق الطرق صب عليه الزيت من قنينة ، ولم يواصل السير في طريقه إلا بعد أن يركع له ، ويحني رأسه إلى الأرض . وإذا قرض فأر جراب طعامه ، توجّه مباشرة إلى العراف وسأله ماذا يفعل ، فإذا أشار عليه أن يرسل الجراب إلى الإسكافي ليرقعه « أهمل هذه النصيحة ، وتخلص من النذير المشؤوم بطقوس تمنع عنه الشر المرتقب . وهو يحتفل دوماً بتطهير بيته ؛ لأن الإلهة هيكاتي Hecate [١] كانت تسكنه ، وإذا سمع نعيب البوم وهو يمشي خارج البيت ارتعش ولم يكمل سيره إلا وهو يتمتم «القوة للإلهة أثينا » وهو يرفض أن تطأ قدمه حجر ضريح ، أو أن يسير في أي مكان بجوار جثة ميت ، أو إمرأة في المخاض ، مردداً أنه لا يريد أن يعاني من النجاسة .

وفي اليوم الرابع والسابع من كل شهر كان يصدر تعليماته بإعداد الخمر للأسرة ، ويخرج ليشتري أغصان الريحان ، وبخوراً ، وصوراً مقدسة ، ثم يعود إلى البيت ليقضي بقية النهار في صناعة أكاليل الزهور ليزين بها تماثيل « هرمفروديت Hermaphrodite »[٢] لتقدم كقرابين . وفي كل مرة يرى فيها حلماً يهرع إلى مفسري الأحلام ، وإلى العرافين والمنجمين ليستفتيهم فيما ينبغي عمله ليرضي الإله أو الإلهة . وعندما يكون على وشك الترسيم في أسرار « أورفيوس » فإنه يزور الكهنة مرة كل شهر مصطحباً معه زوجته ، فإن كانت مشغولة اصطحب الأطفال مع مربيتهم ، والكل يعلم أنه كثيراً ما ينزل البحر ليرش جسده بالماء المقدس ، وكلما رأى أحد تماثيل « هيكاتي » في مفترق الطرق مع حزمة ثوم، . فإنه يذهب إلى البيت فوراً ليغسل يديه ، ويرسل للكاهنات يسألهن أن يُطَهِّرنه بأن يحملن جرواً أو زنبقة ويَطُفْنَ بها في موكب ، وإذا وقعت عينه على رجلٍ مصابٍ بالجنون

(١) إلهة جاءت في الأصل من تراقيا ، ويقال إنها ابنة برسيس Perses وأستريا Asteria ، ثم توحدت مع الإلهة برسيفوني فيما بعد ، ومن هنا كان ينظر إليها على أنها تسيطر على طقوس السحر والشعوذة (المترجم) .

(٢) عندما عاشرت أفرودت هرمس أنجبت منه مولوداً يجمع بين صفتي الذكورة والأنوثة ، كما يتضح من اسمه « هرمفروديت » فهو مخلوق خنثى (المترجم) .

أو الصرع ارتجف وبصق فى صدره . ولو تخيّلنا أن هذه صورة كاريكاتورية ، فمن الخير أن تتذكر أن القائد العسكرى ورجل الدولة الأثينى بعد موت « بركليس » واسمه « نكياس Necias[1] » فقد جيشين عام (٤١٢ ق. م) ؛ لأن عرّافِيْن نصحاه بأن ينتظر بعد خسوف القمر فى « ٢٧ أغسطس « ثلاث مرات تسعة أيام »[2] قبل أن يتحرك بقواته . ولقد أدان « بلوتارك » المؤرخ الإنسانى العطوف الذى جاء بعد ذلك بخمسة قرون ـ ذلك الإيمان بالخرافة ، لكنه أوضح أنه كان هناك كثيرون فى عصره « ممن كانت كلماتهم وإرشاداتهم الخرافية ، وسحرهم وشعوذتهم ، وجريهم إلى الأمام وإلى الخلف ، ودقهم للطبول وتطهراتهم المشينة ، وتزمتهم القذر ، وزهدهم الغريب غير المشروع » تدفع بالعقلاء من الناس إلى الإلحاد . ومع ذلك « فبلوتارك » نفسه لم يجد حرجاً فى التشاؤم من العطس [3]

الديانة الهلنستية :

دفعت حياة الإسكندر الأكبر القصيرة (٣٥٦ - ٣٢٣) بالحدود إلى الوراء بعدة طرق ، فاهتزت الآلهة القديمة ، وعظّم اليونانيون « أبطالهم » ومؤسسى المدن ، فحاول أن يجعل ألوهيته هى الفكرة التى تربط الإمبراطورية ، صحيح أنه فشل ، لكنه وضع سابقة . وعندما زار « ديمتريوس فاتح المدن »[4] أثينا عام (٣٠٧ ق . م) أنشدوا له ترنيمة جميلة تعلن أن الآلهة الأخرى غائبة صماء ، غير مكترثة أو غير موجودة ، أما هو فهو تجلّ للإله الواحد الحق ، وقدموا « البارثنون » ليكون قصراً له . وبعد ذلك اتخذ الحكام ألقاباً مثل Euergetes « المحسن »[5] أو المنقذ ، وتجلى الإله ، بل ويتخذون لقب الصاعقة كيراونوس Keraums .

---

(١) نكياس : (توفى ٤١٣ ق . م) سياسى أثينى ، وقائد عسكرى فى حرب البليوبيز ، تفاوض من أجل السلام ، لكنه كان سلاماً مؤقتاً فحسب ، وسمى باسمه (المترجم) .

(٢) أى أن عليه أن ينتظر سبعة وعشرين يوماً ، ولقد كان ذلك القول هو نص نصيحة النبوءة (المترجم) .

(٣) كانت عامة الناس يتشاءمون من العطس ، فكانت عطسة أو عثرة قدم تكفى فى بعض الأحيان لحمل العاطس أو العاثر على العدول عن سفرٍ أو عملٍ هام (المترجم) .

(٤) ديمتريوس الأول : الملقب بفاتح المدن (٣٣٧ ـ ٢٨٣ ق . م) قائد على جانب كبير من الكفاية ، استطاع أن يطرد بطليموس من أثينا ، ويهزم الأسطول البطلمى عند سلاميس (المترجم) .

(٥) قارن : « ملوك الأمم يسودونهم ، والمتسلطون عليهم يدعون محسنين » إنجيل لوقا . إصحاح ٢٥ ـ ٢٢ (المؤلف) .

وقد استمر وجود الآلهة القديمة ، ولكن كان هناك تأكيد جديد على الشياطين والأرواح الوسيطة ، كما جاءت آلهة جديدة من الشرق ومن الجنوب لتبقى جنباً إلى جنبٍ مع الآلهة القديمة . ودخل التنجيم عن طريق بابل ، واشتد الطلب على آلهة الشفاء ، كما أصبح محراب أسكليبيوس Asclepius في أبيدورس شعبياً إلى أقصى حد [١] ولقد أدت الشكوك إلى الإعلاء من شأن تيكى Tyche (إلهة الحظ أو الصدفة) ، أو ربما وجدت لكل إله نقيضه . ومن هنا ظهرت فلسفات ثنائية مثل « الغنوصية Gnosticism » غير أن المسألة كان لها وجه آخر .

فقد كانت هناك وحدة عظيمة أكثر من أى وقت مضى ، وتطلب هذا تعبيراً دينياً جديداً . وكان هناك ميل نحو الوحدانية ، أو على الأقل نحو إمكانية الوحدانية ، فى الإعلاء من شأن « زيوس » وازدياد الجانب الأخلاقى فى الدين . وظهر المذهب التوفيقى Syncretism تعبيراً عن هذا المزاج نفسه . وكان الإله سيرابيس Sarapis واحداً من أطرف إبداعات العصر ، وهو صيغة جديدة من الإلهين المصريين أوزوريس [٢]، الإله المخلص ، وأبيس Apis الإله العجل ، كما هو واضح من اسمه ، ومع ذلك فهو يرتبط ارتباطاً غريباً مع سينوب Sinope الواقعة على البحر الأسود ، إذ اتحد مع زيوس الإله الشافى ، الإله المخلص ، الإله الأب الذى نألف ملامح وجهه الطيب الملتحى من تماثيله الكثيرة ، والذى يشكل موضوعاً للحب والتفانى ليلبى الحاجات التى اقتضاها تغيير البيئة .

تيكى Tyche :

الناس ليسوا متسقين منطقياً ، والإنسان الحديث الذى يسجل نجاحه بعبارات « شكراً لله، وامسك الخشب » يمكن أن يسير فى خطٍ موازٍ للعالم القديم حيث كانت تيكى ، أو الحظ والصدفة لا تعبر فقط عن مجرد اعتقاد ، وإنما كانت تعبد كما تعبد الآلهة والإلهات الأخرى . والمؤرخان العظيمان للعصر القديم – ثوكيديدز ، وبوليبيوس Polybius اعتبرا الصدفة أو الحظ (دون كتابته بأحرف كبيرة ، أعنى : بدون تضخيم) العنصر الرئيسى فى

(١) أسكليبيوس : إله فى العالم القديم ، ويقال إن عبادته الأصلية كانت فى أبيدوس ثم اختار الثعبان المقدس رمزاً لإله جزيرة التيبر مقراً له فبنى له فيها معبداً (المترجم) .

(٢) « لم يكن سيرابيس سوى أوزوريس ـ أبيس ، ومنذ ذلك الوقت كان سيرابيس هو التسمية الإغريقية لأوزوريس » ـ إرمان « ديانة مصر القديمة » ص ٤٢٧ .

التحليل التاريخي . والفيلسوفان العظيمان أفلاطون وأرسطو ، اللذان نظرا إلى الكون نظرة غائيةً تماماً ، جعلا الصدفة مساوية لكل ما لا ينتمى مباشرة إلى الفعل الغائى للآلهة والناس، أعنى فى النهاية لكل ما لا ينتمى للقانون الطبيعى .

إذا كانت الصدفة قد سيطرت على هذا النحو ، على خيال المثقف ، فلن نندهش عندما نجد أن رجل الشارع يعبدها . ولما كانت توصف بأنها هوائية ، ولا يمكن التنبوء بمسلكها ، فقد تصورها وعبر عنها برموز الرخاء والازدهار الذى تمنحه أو تمنعه ، مثل قرنى الوفرة ، أو أجنحة النصر ، أو برموز الشهوة ، مثل العجلة التى تقف عليها بغير استقرار، أو برمز الدفة المشهورة كتعبير عن اتجاهها فى الحياة . أما الكرة التى تقف عليها فى بعض الأحيان ، فهى رمز غامض ، فقد تكون إشارة إلى كرة الكون الذى تسيطر عليه ، ولكنها مهزوزة ، ووضعها غير مأمون .

وكان العصر الهلنستى أبهى عصور تيكى ، وإنْ عُرِفَت قبل ذلك بفترة طويلة ، فقد ذكرها هوميروس – فى « ترنيمة إلى ديمتر » المنسوبة إليه – على أنها واحدة من «الناريدات Nareides » أما هزيود فى كتابه « أنساب الآلهة Theogony » فهو يقول إنها ابنة الإلهة «أوقيانوس » ويقول أرخيلوخوس Archilochus [1] ، إن الحظ أو الصدفة والقدر تسيطر على مصائر البشر . ويوحد بندار Pindar [2] بين الصدفة وإحدى ربات القدر . وهى بارزة فى مسرحيات « يوربيدس » ولقد لعبت دوراً هاماً فى الرواية إبان العصرين: الهلنستى ، والرومانى . وتصورها عمياء حاقدة متحيزة . وقصة شاريتون Chriton [3] المسماه كارياس وكاليروه Chaereas & Callirheo هى قصة صراع عنيف بين الصفة التى تسبب جميع الأمراض ، وأفروديت التى تنقذ العشاق . وفى قصة أبوليوس Apulius »

---

(١) أرخيلوخوس : أشهر شعراء اليونان فى الهجاء ، عاش فى منتصف القرن السابع قبل الميلاد (المترجم).

(٢) أعظم الشعراء والغنائيين عند اليونان (٥١٨ ـ ٤٣٨ ق م) نَظَم أناشيدَ كثيرة لأبطال الألعاب الرياضية ضمنها أسطورة تتصل بالفائز (المترجم).

(٣) شاريتون أو خارتون روائى يونانى ازدهر فى القرن الثانى الميلادى فى آسيا الصغرى ، وتعتبر قصته أقدم رؤية رومانسية فى الأدب الغربى . (تدور حول زوج وزوجة تمتحن حبهما سلسلة من الأحداث فى صقلية ، وفارس ، ومصر ، وتنتهى نهايةً سعيدة (المترجم).

« الحمار الذهبى»[1] نموذج مماثل فيما عدا أن إيزيس – وليست أفروديت – هى المنقذ ، أما أن هؤلاء الروائيين قد عبّروا عن رأيٍ شائعٍ بين الناس ، فهذا ما نراه فى نقوش الأضرحة ، فهنا هنا نجد الإشارة إلى تيكى Tyche باستثناءٍ واحدٍ فريد – تعبر عنها بألفاظ المرارة والكراهية اليائسة ، وهناك نموذجاً لها :

« هنا أرقد أنا فليرموس Phileremus جثةً هامدة ،

وهو ما كانت تشتهيه الطاغيةُ ، تيكى ،

فقد أرادت أن تجرنى الأرواح من الدنيا » .

وثمة ثلاثة تعديلات لهذه الصورة ، لها بعض الأهمية : فهناك أولاً : روح الخصوبة المعروفة باسم الروح الخير (روح أجاثوس Agathos) الذى احتاج إلى رفيقة فكانت له «تيكى أجاثى » أو الصدفة الطيبة . وقد كان الروح الخير يتحد أحيانا مع « زيوس » ، ومن هنا جاء النقش البارز من أثينا ـ وهو الآن فى كوبنهاجن ـ الذى يرجع إلى القرن الرابع ق.م ، ويصور « زيوس » بقرنى الوفرة مع قرينته الصدفة الطيبة . وهناك . ثانياً : فى آسيا حيث حكمت الإلهة طويلاً ، وكان من الطبيعى أن ينظر إلى تيكى على أنها شكل آخر من أشكالها الكثيرة . وثالثاً: فى الحياة العامة إبان العصرين الهلنستى والرومانى أصبحت الصدفةإلهة مدينة . وهناك تمثال برونزى شهير نحته يوتكيز Eutychdes للإلهة « تيكى » إلهة أنطاكية وهى جالسة فوق شجرة تمثل عرش الأم الجبلى ، وفى يدها حزمة قمح ترمز إلى الرخاء ، وتضع على رأسها تاجاً على شكل حصن يرمز لحماية المدينة . وبالمثل نجد أنطيوخوس الأول الكوماجينى[2] يقوم بوضع نقوش هائلة مع تماثيل تجسد مدينة كوماجينى على هيئة الإلهة تيكى .

وقد كتب الموسوعى الرومانى بلنى الأكبر ـ والذى كان يعرف العالم اليونانى معرفة تامة ـ ملخصاً ممتازاً حول وضع « تيكى » ، العام يقول فيه : إن تيكى هى الوحيدة فى جميع أنحاء العالم التى نتوسل إليها ، وهى الوحيدة المدّعى عليها والمتهمة ، والفكرة الوحيدة التى تشغل أذهان الناس ، وهى الوحيدة موضع الثناء كما أنها السبب الأول .

---

(١) كاتب لاتينى من أصل إفريقى اشتهر فى القرن الثانى الميلادى ، وتعتبر قصته من أهم ما وصل إلينا من القصص الرومانى ، ولقد ذاعت شهرتها فى العالم القديم (المترجم).

(٢) انطيوخوس الأول : الملقب بالمنقذ ابن سلوقس الأول (٣٢٤ ـ ٢٦٢ ق . م) آخر حكام سوريا من خلفاء الإسكندر الأكبر (المترجم).

« إننا نرزح تحت رحمة الصدفة بحيث صارت الصدفة هى إلهتنا » .

الفلسفة الهلنستية :

سعت جميع الفلسفات فى العصر الهلنستى - بطرق مختلفة- لتحقيق الكفاية الذاتية (أو الاستغناء) . وكانت الرواقية تدين بمذهب شمول الألوهية أو وحدة الوجود Pantheism ، وفى نهاية الكتاب الأول من قصيدة بوب Pope [1] « مقال عن الإنسان » عرض رائع للمذهب الرواقى :

« ليست الأشياء كلها إلا جوانب من كل رائع

جسـده الطبيعـة ، وروحـه اللـه »

ويتساءل « سنيكا » أتسميه بالقدر ؟ لن تكون مخطئاً ... أتسميه العناية الإلهية ؟ ستكون على صواب ، أتسميه الطبيعة ؟ لن تكون تسميتك كاذبة ، أتسميه الكون ؟ لن تكون قد انخدعت » .

لقد كان الاسم المفضل هو « زيوس » وتحت هذا الاسم ترنم باسمه أعمق المتدينين من الرواقية المتأخرة وهو كليانتيس (٣٣١ - ٢٣٢ ق. م)[2] أما ابكتيتوس (٥٥ ق م. - ١٣٥م) نظيره فى الإمبراطورية الرومانية ، فقد قال إن عمله الحقيقى هو أن ينشد ترنيمة للإله . كان الرواقيون جبريين ، وعندهم أن كل شىء يقف بين يدى الله ، ودورنا هو أن نتقبل الأمر فحسب ، فنحن مجرد ممثلين فى الدراما الإلهية ، وسواء قمنا بدور الملك أو العبد فهو دور جوهرى بالنسبة للكل وقد كان من بين قادة الرواقية عبيد مثل إبيكتيتوس وأباطرة مثل الإمبراطور ماركوس أوريسليوس (١٢٠ - ١٨٠م) .

أما عند اليهود فقد كان الأبيقوريون والملاحدة اسمين مترادفين ولم يكن ذلك عدلاً . صحيح أن أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق. م) هاجم الخرافة وما تنضح به من شرور ، لكنه كان رجلاً متديناً ، ونصائحه الأربعة لكى تنال الصحة هى :

١- لا يصح أن تخاف من الآلهة .

٢- إننا لا نشعر بالموت .

---

(١) الكسندر بوب (١٦٨٨ - ١٧٤٤) شاعر إنجليزى ، من أشهر الشخصيات الأدبية فى القرن الثامن عشر ، وأبعدهم تأثيراً فى تطوير الشعر (المترجم).

(٢) له قصيدة مشهورة ، وجهها لزيوس يقول فيها : « تحية لك يا أعظم الخالدين ، أيا زيوس المعبود اسم ، هذا العالم الكبير يتحرك بإرادتك ، ويطيع أوامرك أيها الإله الرحيم ... إلخ (المترجم).

٣- من السهل الوصول إلى الخير .

٤- من السهل تحمل الشر .

ولقد قال الأبيقوريون بفناء النفس التى هى بنية من الذرات تنحل مع انحلال الجسد، وأنكروا أن الآلهة تعاقب الشرير وتكافىء المستقيم ، لكنهم يجمعون على أن الآلهة موجودة. يقول بهذا إجماع الناس ، ونحن ندركها فى الأحلام إنها تعيش فى نعيم مقيم ، دون أن تهتم بشؤون البشر . غير أن الروح التى هى فى « حالة تناغم مع اللامتناهى » تستطيع أن تلتقط فيوضاتهم ، كما نلتقط موجات الراديو وذلك لمنفعتها وسعادتها .

وبعد فترة من الشك ، والانشغال بالمشكلات الأبستمولوجية (مشكلات المعرفة) عادت الأفلاطونية إلى اللاهوت ، فخلط نومينوس Numenius[٢] بين أفلاطون وفيثاغورس، وألبينوس Albinus بينه (أى أفلاطون) وبين أرسطو ، أما أوغسطين وكلمنت وأوريجين فقد مزجوا بينه وبين المسيحية . ولكن أعظم عبقرية دينية فى العالم القديم هى أفلوطين Plotinus (٢٠٥ - ٢٧٠م) الذى يقف بارزاً بين خلفاء أفلاطون ، ويتركز فكره حول « الواحد The One » الذى يعلو على الشخصية ويجاوز الواقع ، والفكر ، والتعريف ، والفهم ، وتتطلع جميع الأشياء إليه ، وعنه صدر الكون بأسره بعملية فيض أو صدرو . وأعلى مراتب الحياة هى صعود الروح إلى الله بواسطة الاشتياق المسمى بالحب Eros .

والواقع أن أفلوطين يقول صراحة إن الله هو الحب ، ولكن ربما لم يكن هذا التعريف إلا الشعار المقابل للتعبير المسيحى ! « الله محبة » أجابيه Agape (المحبة المسيحية) . والغاية الحقة للروح هى الاتحاد الصوفى مع الواحد فى نشوة الوجد ، أو تحليق المتوحّد إلى المتوحّد، قد جرب أفلوطين الذى كان هو نفسه صوفياً ، هذه الوحدة أكثر من مرة .

* * *

---

(١) نيومينوس : فيلسوف يونانى سورى الأصل فى القرن الثانى الميلادى ، كان فيثاغوريا ورائداً أيضاً للأفلاطونية المحدثة (المترجم) .

الفصل الخامس

رومـــــا القديمـــة

كان الإتروسكيون Etruscans[1] أقدم الشعوب فى إيطاليا وأكثرها أهمية وإثارة للجدل، من أين جاءوا ؟ لا أحد يدرى! يقول هيرودت إنهم جاءوا من ليديا Lydia[2]، وتقدم بعض المعتقدات الدينية المتشابهة وكذلك التنجيم ، والتنبؤ بالغيب الذى كانت تمارسه بلاد ما بين النهرين دعماً لهذا القول . لكن المظاهر الأساسية لثقافة الإتروسكيين تطورت فى إيطاليا شمال نهر التيبر Tiber فى القرنين السادس والسابع قبل الميلاد . وهو شعب يعتمد ، من الناحية الاقتصادية ، على الزراعة والتعدين . ويقوم من الناحية السياسية على أساس دولة المدينة التى ترتبط بحلف مركزه الدينى قرب فولسينى Volinii حيث يوجد معبد لإله أطلق عليه الرومان اسم فيرتومنوس Vertumnus .

وتقع آلهة الإتروسكين فى ثلاث مجموعات ، فهناك أولاً : مجموعة من الآلهة تحمل أسماء إتروسكانية خالصة ، ولا نعرف عنها إلا القليل ، فقد توحد بعضها مع آلهة اليونان والرومان ، مما يحمل على الظن أن وظائفها متماثلة . وهكذا أصبح ينظر إلى الإله تينا Ti-nia على أنه « جوبيتر » ، وإلى الإله ستلانز Setlans على أنه «فولكان» . وتوحد الإله «ترمز» Turms مع عطارد ، والإلهة توران Turan مع « فينوس » (وغالباً ما تنقش على المرايا)، ونورشيا Nortia مع فورتونا Fortuna . أما المجموعة الثانية فقد استعاروها ، فيما يبدو ، من جيرانهم الإيطاليين ، إذ يمكننا أن نتعرف على آلهة رومانية مألوفة بين آلهتهم من أمثال آنى Ani (وهو جانوس Janus) وأونى Uni (وهى جونو) ومنرفا Mnrva (وهى مينيرفا)، ونيتونس Nehuns (نبتون Neptune) وأما المجموعة الثالثة فقد أخذوها من المستعمرات اليونانية فى الجنوب ، ومنها الإله آيتى Aite (وهو الإتروسكانى) ، والإلهة أرتيمى Aritimi (وهى أرتميس) وشارون Charun (هو خارون Charon) وهرقل (هو هركيوليس Hercules) ، وبرسيبينى Persipnai (هى الإلهة برسيفونى Persephone)

ومن الواضح جداً أن السيادة كانت لآلهة العالم السفلى فى المجموعة الأخيرة .

لقد كان الانشغال بالحياة الأخرى سمة أساسية للديانة الإتروسكانية ، فكانت تقام

---

(١) سكان « إتروريا » وهى بلاد قديمة غرب إيطاليا (المترجم) .

(٢) إقليم قديم غرب آسيا الصغرى ، ازدهر حوالى (٦٨٧ ـ ٤٥٠ ق . م) كانت حضارته راقية ، وقد ارتبط بعلاقات وثيقة بالمدن الإغريقية ، وعندما انتصر الفرس على ليديا أدمجوها فى إمبراطوريتهم (المترجم) .

ألعاب جنائزية على شرف الموتى ، ويقال إنها هى أصل عروض المجالدين Gladiator [١] وكانت القبور تؤثث تأثيثاً جيداً ، وينظر إليها على أنها بيوت الموتى . وتبين بعض اللوحات الجدارية العظيمة التى بقيت حتى الآن رحلة الموتى من هذه الدنيا إلى العالم السفلى تحت حراسة إلهية مرعبة . ويبدو أن لوكريتس Lucretius الشاعر الأبيقورى فى القرن الأول قبل الميلاد [٢] عندما كان يسعى إلى تبديد الخوف من العقاب بعد الموت ، لم يكن – فى الأعم الأغلب – يوجه كتاباته إلى المجتمع المتحضر فى روما ، بل إلى قرى الشمال .

وهناك شواهد على ارتباط بعض الرموز الجنسية بالقبور ، ولو صح ذلك فإنه يعنى أن الإتروسكانيين كانوا يعتقدون أن قوة الحياة فى كل فرد هى التى تؤلف جوهر وجوده ، كما أنها الجانب الذى يبقى بعد الموت . وهذا قريب جداً من الفهم الرومانى لكلمتى جينيوس Genius و « ايونو Iuno » وهما القوى الجنسية للذكر والأنثى . والجانب الآخر من ديانة الاتروسكان الذى يدل على أنه عظيم الأثر ، هو التنبوء بالغيب . وهناك طرق كثيرة للتنبوء بالغيب ومعرفة إرادة الآلهة . فنحن نعرفها من الرعد والبرق ، ومن تحليق الطيور . غير أن الاتروسكان اشتهروا بصفة خاصة بعلم معرفة الغيب عن طريق دراسة الكبد .

لقد كانت ضحية القربان تذبح ويشق جسدها ، ويفحص الكبد لمعرفة العلامات أو الخصائص الأخرى . وكان الجانب الأيمن من الكبد هو المنطقة التى تشير إلى الحظ السعيد ، أما الجانب الأيسر فيدل على الحظ السيىء ، لكن الدراسة كانت على جانب عظيم من التعقيد . وهناك كبد من البرونز ملفت للنظر من منطقة بياشنسيا Piacenza [٣] مقسم إلى ما لا يقل عن أربعين منطقة يشار إلى كل منها باسم إله مختلف . وتكشف لنا مرآه منقوشة نقشاً جميلاً عن المتنبىء بالغيب وهو يمارس عمله ، كما تصور مرآة أخرى منظراً من هوميروس استخدمت فيه كمية عناصر مألوفة ، ومعاصرة للفنان . وفضلاً عن

---

(١) كان العبيد أو الأسرى فى روما القديمة يدخلون فى صراع دموى حتى الموت مع الحيوانات المفترسة ، أو مع بعضهم البعض لإمتاع الناس ، وكانت العروض الثانية بصفة خاصة تسمى عروض المجالـد (المترجم) .

(٢) لوكريتس : فيلسوف وشاعر لاتينى (٩٥ – ٥٥ ق . م) عرض فلسفته بعنوان « فى طبيعة الأشياء » شرح فيه مبادئ الفلسفة الأبيقورية قصيدة طويلة مضيفاً إليها « حلاوة عسل الشعر » على حد تعبيره (المترجم) .

(٣) مقاطعة فى شمال إيطاليا على نهر البو (المترجم) .

ذلك فقد استمرت شهرة المتنبئين قروناً بعد اختفاء الحضارة الإتروسكانية كقوة سياسية، وعندما دمر معبد الكابتيل فى الحرب الأهلية عام ٦٩ ميلادية ، دعا فسبازيان Vespa-sian[١] المنجمين الإتروسكان لإعادة بنائه ، وظل جوليان Julian[٢] يستشيرهم بعد ذلك بثلاثمائة سنة .

١- الديانة الرومانية القديمة :

الأرواح أو القوى الروحية Numina

عندما كان الكاهن فى روما القديمة يقدم القرابين إلى «تلوس ماتر Tellus Mater » أو الإلهة الأم – إلهة الأرض ، وإلى سيرس Ceres إلهة القمح – فإنه كان يتضرع أيضاً إلى « فيرفاكتور Vervactor » و « ريداريتور Regarator» و « أمبروسيتور O,rpcotpr » ، و « إنستيور Insitor » ، و« أوباريتور Obarator » و « أوكيتور Occator » ، و« سريتور Sarritor » و « سبرينكاتور Subrincator » و « ميسور Messor » وكونفكتور Con-vector » و « كونديتور Conditor » و « بروميتور Promitor »[٣] وهذه القائمة العجيبة من الآلهة الصغيرة اشتُقّت أسماؤها من العمليات الزراعية المختلفة : حرث الأرض المراحة[٤] ، الحرث الثانى وعمل الأخاديد ، وبذر البذور وتسميد الأرض ، وتمهيد التربة وتسويتها ، حتى جنى المحصول وتخزينه ، ثم صرفه من المخازن ، فهى قوى روحية يسيطر كل منها على عملية محددة لكنها ضرورية ، ولا وجود للقوى الروحية خارج نطاق هذه

---

(٢) إمبراطور رومانى حكم روما عشر سنوات (٦٩ _ ٧٩) أعاد الاستقرار والإزدهار إلى الإمبراطورية (المترجم) .

(٣) جوليان (٣٣١ _ ٣٦٣) هو كلوديوسجوليانوس الملقب بالمرتد حكم روما (من ٣٦١ _ إلى ٣٦٣) (المترجم) .

(٣)هذه الكلمات اللاتينية تعنى لغوياً عمليات زراعية مختلفة ، لكنها تشير كذلك إلى آلهة أو قوى روحية ، تسيطر على هذه العمليات يبلغ عددها اثنى عشر إلهاً على التوالى : إله الحرث الأول ، إله الحرث الثانى، إله الأخاديد ، إله بذر البذور ، إله تغذية النبات ، إله تسوية التربة ، إله عزق التربة ، إله الحصاد ، إله جمع الحصاد ، إله التخزين ، إله الصرف من المخازن (المترجم) .

(٤) الأرض التى تحرث ثم تترك موسماً كاملاً من غير زرع لإراحتها ، ثم يعاد حرثها وزراعتها مرة أخرى (المترجم) .

العملية ولهذا كانت تسميتها باللغة الألمانية « Sondergotter » تعنى آلهة لوظائف خاصة أو بتعبير أكثر قدرة على التصوير ، آلهة لطرفة عين (أو للحظة محددة) ، ونحن هنا نعود إلى ما وراء الآلهة التشبيهية (أى التى تشبه بالإنسان) ، وإلى مستوى أساسى فى الاعتقاد أكثر بدائية .

ترتبط هذه القوى بالعمليات الزراعية ـ بصفة خاصة ـ كما ترتبط بحياة الأسرة. ويمكن أن نأخذ الميلاد كمثال لحياة الأسرة حيث نجد أن الإلهة « أليمونا Alemona » ترعى الجنين ، والإلهتين « نونا ودسيما » (أى التاسع والعاشر) تراقبان الأشهر الحاسمة من الحمل ، وبارتولا Partula إلهة المخاض ، أما لوسينا Lucina ، وكاند ليفرا Candelif-era والكارمنتس Carmentes فتقدم السحر والنور اللازمين للولادة الآمنة . وفى احتفال سحرى تطرد الأرواح الشريرة بفأس ووتد ومكنسة ، بواسطة Intercidona (الساطور) وبيلومنس Pilumnus (من يدق الوتد) ، و Deverra (الكناس) .

كما كانت هناك أيضاً كونينا Cunina الإلهة التى تهز المهد ، وفاجيتانوس Vagita-nus الإلهة التى تستخرج الصرخات الأولى ، ورومينا Rumina إلهة الرضاعة . وعندما ينمو الطفل نجد « إدوسا و بوتينا Edus & Potina » تشرفان على طعامه وشرابه ، ونجد فابوليتوس Fabulinus تعلمه الكلام ، وستاتلينوس Statulinus محاولاته الأولى للوقوف ، كما كانت أبيونا Abeona وأديونا Adeona تراقبان خروجه ودخوله .

وبعض هذه « الأرواح » لا تسيطر على الوظائف بقدر سيطرتها على القدرةبمعنى مختلف ، ومن ثم كانت القوة الداخلية الخلاقة Genius فى الرجل ، وأيضاً أونو Iuno فى المرأة حاضرة تماماً طوال فترة الخصوبة لا فى أثناء عملية الجماع فحسب . وهناك آلهة أخرى كانت تتمتع بمواضع محلية لإقامتها ، كما كان لها أسماء أخرى منها « فستا Vesta ومقرها الموقد ، والبينات Penates ومكانها المخازن والصوامع ، وجانوس Janus على عتبة الدار . وهناك أيضاً الإله « ترمينوس Terminus (إله الحدود) الذى يجلس على صخرة الحدود ، فى حين يستقر جينوس Genius فى رأس رب الأسرة ماداموا يعتقدون أن البذور تصدر عن الرأس .

وتعد اللارات Lares [1] من البقايا الهامة لهذه المرحلة من مراحل الاعتقاد ، ولقد

---

(١) « اللار » أحد الآلهة المحليين ، وهو أتروسكانى الأصل ،غير أن الرومان جعلوه فيما بعد أحد الآلهة الراعية للأسرة ، وهو يحرس الحقول والمبانى فضلاً عن إشرافه على سعادة الأسرة (المترجم) .

بذل أصحاب النظريات جهوداً مضنية لتفسيرها . ويوحى التشابه مع أجزاء أخرى من العالم بأنها كانت أرواح الأسلاف التى تشرف على الخصوبة فى الأرض الزراعية ، « لارفاميلياريس Lar Familaris » دخل بيت المزرعة مع العمال الزراعيين ، ولاركومبيتاليس Lar Compitalis يحرس مفترق الطرق التى تلتقى فيها عدة مزارع .

نعود إلى القول بأن هذه فى الواقع ليست آلهة ، وإنما هى « قوى روحية » ، ولكن بعضها تجسد فى شخصيات وأصبح إلهاً ، قاسم فينوس Venus محايد فى شكله ، إذ إن « فينوس » كانت « روح » الحديقة بغير جنس محدد (أى لا ذكر ولا أنثى) ، قبل أن تصبح إلهة الحب العظيمة . وكانت جونو أو يونو Juno [1] ، قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً ودائماً بالنساء الصالحات للزواج ، ولكنها أصبحت كذلك ملكة للآلهة . ويبدو أن اسم ساتورنوس (زحل) قد أطلق على إله بذر البذور ، بينما أطلق اسم نبتون Neptune على إله الماء . وقد بقيت الديانة القديمة للحقل والمزرعة قوية فى الريف إذ كانت ديانة مناسبة وذات جمال خاص ، فهى تتعامل مع موضوعات هامة فى حياتهم ، كما تكشف عن رغبة فى التوافق مع القوى الكامنة خلف الكون والمعنية بمشاغل الحياة الأساسية ، لقد كانت قوى مستمرة ولهذا استمرت أيضاً فى العصور المسيحية ، وأصبح اسم « الوثنى » يعنى فى الواقع « الرجل الريفى » .

٢- ظهور الآلهة :

إن كلمة Numina كلمة محايدة تعنى « إيماءة الرأس » ، ولقد ارتبط استخدامها بالفكرة التى تقول إن الخصوبة مستقرة فى الرأس ، وأصبح هذا التصور تشبيهاً (أى ينقل الصورة البشرية إلى الآلهة) ولكنه لم يستمر كذلك طويلاً . فقد تحول « النومين » شيئاً فشيئاً إلى إله يشبه الإنسان تماماً ، ذكراً كان أو أنثى ، وفى بعض الأحيان بغير جنس محدد، فإله الرعى « بالس Pales » يوجد فى هيئة رجولية وأنثوية معاً . والوظيفة التى كانت تشير إلى الإله ككل فى مرحلته الجنينية الأولى ، أصبحت الآن صفة ، وقد يجذب هذا الإله الجديد مجموعة من الصفات التى تمثل الألقاب التى تطلق على العبادات .

---

(٢) كانت «يونو» ملكة السماء ، وحامية الأنوثة والزواج ، ولهذا اعتقد الرومان أن الزواج فى شهرها وهو شهر يونيو ، يكون زواجاً سعيداً (المترجم) .

يبدو أن الإله العظيم الأول عند الرومان كان هو الإله « مارس Mars » الذى أصبح فى عصورٍ تاليةٍ يعرف كإله للحرب ، لكنه كان فى البداية مرتبطاً كذلك بالزراعة والحرث . وكان الناس يتضرعون إليه تحت اسم مرمار Marmar لكى يقى الحقول من وباء الطاعون، كما كان بوصفه مارميريوس Marmurius هو روح السنة التى تندفع بسرعة بصولجانين منزوعيـن ثم تعـود كسنة جديدة . وكان له كهنته الوثابون أو الساليـون Salii (أى القفازين)[1] ، وتوحى الأمثلة المشابهة بأنهم كانوا يقفزون لاستجلاب محاصيل ذات عيدانٍ أطول . أما الاحتفالات بأعياد الدروع والتروس فقد تكون إعداداً للحرب ، غير أن رنين الرمح والترس قد يعبر كذلك عن سحر الرعد ، ويضحى له (أى لمارس) فى هذا العيد بحصان البطل فى الحرب الذى يستخدم دمه فى الطقوس السحرية للخصب . ويتقبل الإله التضحية بالخنزير ، والشاه ، والثور Su - Over - Tauriliar [2] من أجل رخاء الأرض ووفرتها . وكان شهر مارس البداية القديمة للسنة – وكذلك بداية الحملات الحربية، وأعمال الزراعة – هو شهر هذا الإله ، وربما كان فى الأصل إله العاصفة ، رغم أن هذه الفكرة لاتزال عند الكثيرين مجرد تخمين

وكان كويرينوس Quirinus[3] ، قوة روحية غامضة ، ثم توحد مع روميلوس Rom-ulus المؤسس الأسطورى لروما . وقد ارتبط بمـارس ، إذ نجـد سيرفيـوس Servius يدعوه « مارس الموكل بالسلام » .كمـا كان يطلق على الرومـان اسم «الكويريتيس » عندما يجتمعون بصفتهم مواطنين أحراراً .

---

(١) كان الرومان يستقبلون العام الجديد بألوان من الرقص المقدس ، وما زال الناس يتبعون هذا التقليد حتى الآن ! لكن الساليين كانوا يقفزون إلى أعلى إيحاءً للإله لإطالة ساق النبات ! (المترجم) .

(٢) كان يسمى فى بعض الأحيان بعيد «السـو ـ أوفـى ـ طوريليـة » والكلمات الثلاثة تعنى على التوالى : (الخنزير ـ الشاة ـ الثور) ، وهى القرابين التى كانت تقدم للإله مارس (المترجم) .

(٣) كلمة Quirinus تعنى المواطن الرومانى الحر ـ وكانت فى الأصل اسم قبيلة انضمت إلى اللاتين ، والظاهر أنها أخذت اسمـها من اسم هذه الروح التى كـانت تشرف على الطقـوس السـرية ، وتروى الأساطير أن روميلوس مؤسس روما عندما مات صعدت إلى السماء فى عاصفة ، وأصبح بعد ذلك إلهاً من آلهة الرومان المحبوبين يعبدونه باسم كويرينوس Quirinus (المترجم) .

أما العضو الثالث فى ثالوث الآلهة التى كانت تعبد فى الأصل على تل الكابيتولين Capitoline [١] وأصبح هو الإله الأعظم – هو جوبتر Jupiter وهو مثل زيوس Zeus الإله الهند ـ أوروبى للسماء ـ هبط إلى روما من معبده فوق تل مدينة ألبا لونجا Alba Longa [٢] ومنذ عصر الملوك الأتروسكيين وهو يسيطر على مجمع الآلهة حاملاً لقبه « الأفضل والأعظم » ثم ارتبط اسمه على نحوٍ فريدٍ بمصير روما ، وأصبحت إلهة الأنوثة القديمة جونو Juno زوجته الملكة .

هناك روحان آخران من « القوى الروحية » السابقة كتبت لهما السيادة فى مجمع الآلهة بوصفهما من « الآلهة القومية »، أما الأول فهو جانوس إله الأبواب الذى صوره الرومان فيما بعد وهو ينظر فى إتجاهين . والثانى هو الإلهة فستا Vesta إلهة الموقد ، وكان يقوم على خدمة معبدها القومى « عذارى فستا » اللائى كن يَبْـدَأْنَ الانخراط فى سلك الخدمة فيما بين السادسة والعاشرة ، ويواصلنها (فى العصور الكلاسيكية) لمدة ثلاثين سنة[٣] .

أما الآلهة الأخرى فكانت تسمى Novensils وهى إما من الآلهة المغتربة أو المهاجرة، ومن أبرزها الإلهة الإيطالية الإتروسكانية « منيرفا Minerva » إلهة المهارة الفنية التى ارتبطت مع « جوبتر » و « جونو » فى ثالوث جديد فى الكابتول . ومنها أيضاً الإله هركيوليس Hercules إله النجاح فى الشؤون العملية ، والإله عطارد Mercury الذى يدل اسمه على ارتباطه بالتجار [٤] وأبوللو Apollo إله الشفاء ، وفورتونا Fortuna إلهة الخصوبة وعرافة الإلهة فى بارنيست Parenesta ، وأنتيوم Antium ، والإلهة ديانا Diana

---

(١) تل الكابتول هو أعلى تلال روما السبعة ، والمركز الدينى للمدينة القديمة ، شيد عليه المعبد الكبير للإله « جوبتر كابتولينوس » والقلعة ومبنى سجلات الدولة (المترجم) .

(٢) ألبا لونجا : مدينة قديمة فى لاتيوم ، تروى القصص أنها كانت مسقط رأس روميليوس ، وريموس المؤسسين الأسطوريين لمدينة روما (المترجم) .

(٣) كانت طائفة العذارى الفستية ذوات الثياب البيضاء ، والخمر الأبيض ، يقسمن أن يبقين عذارى فى خدمة الإلهة فستا ثلاثين سنة (المترجم) .

(٤) هونفسه الإله هرمس رسول الآلهة ، وإله التجارة ، والمكر واللصوصية عند اليونان (المترجم) .

روح الشجرة [1] التي ناجاها كاتولوس Catulus [2] في ترنيمة رائعة ، كما كانت عبادتها في نيمي Nemi نقطة البداية لكتاب جيمس فريزر « الغصن الذهبي » [3] .

ولقد توحدت بعض هذه الآلهة مع آلهة اليونان على أساس أن أصلهما واحد هو الإله الهند - أوربي ، فكما أن « زيوس » هو ديوس Dyaus فكذلك جوبتر هو دى أوبيتر Di Upi « الأب ديوس » ، والآلهة الأخرى مثل هركيوليس Hercules (هرقل Heracles) وأبوللو استعاروها مباشرة من المستعمرات اليونانية . ولما نما الاتصال باليونان ، تمت توحدات أخرى ، فمن الواضح أن الإلهة « جونو» هي « هيرا » ، وأن « ميزفا » هي « بلاس أثينا » ، وأن « ديانا » هي « آرتميس » ، و« فينوس » هي أفروديت و « عطارد » هو «هرميس» ، و« نبتون » هو « بوزيدون » ، والإله « فولكان » هو الإله « هفايستس » ، و «سيرس » هي « ديمتر » ، وأن ليبر Liber (إله العنب) هو ديونسيوس (إله الخمر) ... وهكذا . وكان الانتقال سهلاً في بعض الأحيان ، ولكن طرأت على «فينوس » و « عطارد » تحولات ملحوظة ، ومع التغيرات أصبحت الحكايات المرتبطة بآلهة اليونان تنسب إلى آلهة الرومان ، وقد روى « أوفيد Ovid » حلقاتها في كتابه « التحولات » Metamorphoses [4] لكن يصح عموماً أن نقول إن أمثال هذه الحكايات تشير دائماً إلى تأثير يوناني ، لأن الروح Nu-mina عند الرومان ليست لها حكايات .

---

(١) ديانا : هي إلهة القمر والغابات ، وكان الرومان يزعمون أنها كانت في الأصل روح شجرة جئ بها من أريكيا Aricea حينما خضع هذا الأقليم لروما ، وكان بالقرب من أريكيا بحيرة نيمي Nemi وأيكتها حيث معبد ديانا . وتذهب الأسطورة إلى أن هذه الإلهة ضاجعت في هذا المكان فربيوس Virbius ملك الغابات الأول ، وكان الكهنة يعوذون أنفسهم بغصن من شجرة البلوط المقدسة يسمى عندهم « بالغصن الذهبي » ومنه أخذ فريزر اسم كتابه (المترجم) .

(٢) شاعر روماني عاطفي أقوى من عبّر قديماً عن الحب (٨٤ ـ ٥٤ ق . م) (المترجم) .

(٣) سيرجيمس فريزر (١٨٥٤ ـ ١٩٤١) أنثروبولوجي اسكتلندي ، كتب « الغصن الذهبي » في اثنى عشر مجلداً ، وهو دراسة عميقة للسحر والدين تقوم على معرفة وثيقة وإلمام واسع، حيث يرجع الكثير من الأساطير والشعائر إلى بداية ظهور الزراعة (المترجم) .

(٤) أوفيد (٦٣ق . م ١٧م) شاعر لاتيني كتب الكثير من القصائد الغنائية والأسطورية منها قصائد « الحب » و « فن الحب » ، وأشعاره في الأساطير أهمها « ميتمورفيس » أي التحولات أو مسخ الأشكال، وقد ترجمها الدكتور ثروت عكاشة وراجعها الدكتور مجدى وهبة (المترجم) .

٣- السلم الإلهى : Pax Deorum

كانت مهمة الدين هى تأمين رضا الآلهة عن طريق تقديم القرابين وتأدية الطقوس ، وإقامة الاحتفالات المناسبة . وكان تقديم القرابين يتم بأيدى جماعة الكهنة Pontifices، وكان للحبر الأعظم Pontifex Maximus مكانة سياسية عالية ، حتى أن قيصر [١] بطبعه المتشكك تولى بنفسه هذا المنصب . وكان يشترك فى الخدمة مع « الحبر الأعظم » أربعة من كبار الكهنة هم « كاهن القرابين » ، و « كاهن جوبتر » ، و « كاهن مارس » ، و «كاهن كويرناليس » . و « كاهن جوبتر » يخضع لمجموعة خاصة من الممنوعات المعوقة فلا يجوز له أن يركب حصاناً ، ولا أن يرى جيشاً ، ولا أن يقسم يميناً ، ولا أن يضع خاتماً فى إصبعه أو رباطاً معقوداً ، أو أن يخرج فى الطريق حاسر الرأس ، أو يستخدم الحديد فى قص الشعر أو تقليم الأظافر ، أو يسير تحت كومة ، أو يلمس كلباً – وتلك أمثلة قليلة للقيود الكثيرة التى يمكن أن نتعقبها إلى معتقدات السحر . وهناك تقويم محكم نشر رسمياً عام ٣٠٤ ق. م ، وإن كان تاريخه أقدم من ذلك بكثير ، وهو تقويم بالأيام التى يسمح فيها القيام بممارسة الأشغال العامة أو يمنع ، وتلك هى الفاستى Fasti (الأيام المقدسة)، وكان من الضرورى اختيار الضحية المناسبة لكل قربان ، بحيث تراعى الطقوس بدقة ، وتتلى الصلوات المحددة . ومع ظهور الإمبراطورية عين كهنة جدد لإدارة شؤون العبادة فيها .

وطائفة الكهنة العظام الآخرين هم المتطيرون augurs [٢] ، الذين كانت مهمتهم تفسير إرادة « جوبتر » بمراقبة تحليق الطير . وطائفة الخمسة عشر كاهناً كانوا يعنون عناية خاصة بالكتب السبيلية Sabylline [٣] ولكن كان هناك كهنة آخرين إخوان أرفال Arval Brethren [٤] الاثنى عشر الموكول إليهم الإشراف على خصوبة الحقول ، والذين بقيت

---

(١) اختير قيصر عام (٦٤ ق . م) رئيساً أعلى للدين الرومانى ، وكان منصب الحبر الأعظم يمكنه من السيطرة على الشؤون الدينية (المترجم) .

(٢) كانت أعظم طوائف الكهنة نفوذاً هى جماعة العرافين التسعة الذين يدرسون إرادة الآلهة ، ومقاصدهم بمعرفة اتجاه الطير فى تحليقه ، والتطير فى اللغة العربية هو التفاؤل أو التشاؤم من حركة الطير (المترجم) .

(٣) هى الكتب التى كانت الحكومة الرومانية تدّعى أنها تعرف ما تريده الآلهة عن طريق الرجوع إليها ، لأنها سجلت فيها تنبؤات سيبيل Siby1 أو كاهنة أبوللو (المترجم) .

(٤) إخوان الريف ، أو أصدقاء الحقل (المترجم) .

ترانيمهم إلى اليوم ، وجماعة تيتوس Titus الذين يرعون طقوس السابيين Sabine القديمة[1] ، كما يتحملون جانباً من المسؤولية عن موضوع التطير (التنبؤ بحركة الطير)، الفتيالي Fetiales [2] الذين كان اختصاصهم التصديق على المعاهدات ، واللوبرسي -Lu perci أو إخوان الذئب الذين يحتفلون بطقوس السنة الجديدة في شهر فبراير من كل عام، والساليون Salii ، أو الكهنة القافزون الذين كانوا يقومون على خدمة الإلهين « مارس » و « كويرينوس Quirinus » ..

٤- الدين السياسى :

امتدح المؤرخ اليوناني بوليبيوس Polybius [3] الأرستقراطية الرومانية فى الوقت الذى نجد فيه القديس أوغسطين ، اللاهوتى المسيحى ، يدينها . والمدح والإدانة معاً بسبب استخدامها للدين كمخدر للشعب ، ففى عهد الجمهورية ظهرت نتيجة للضغط السياسى فى أوقات الأزمات ، بدعٌ جديدة من خلال الكتب السيبلية . وهناك حكاية تُروى عن كيفية حصول الملك تاركوينس Tarquin على آخر ثلاثة كتب سيبلية لقاء ثمن كان يمكن أن يحصل به على تسعة ؛ لأنه خدع فى المساومة وكانت سيبيل Sibyl شخصية تنبؤية غامضة تنسب إليها أشتاتٌ متنوعة من التنبؤات ، وربما تم تنظيم هذه الأشتات عام ٣٦٧ ق. م ، أو قبل ذلك . وقد أدخلت على الاحتفالات بأعياد الآلهة احتفال الكتسترينوم Lectisternium الذى يظهر فيه أزواجٌ من الآلهة متجسدين فى تماثيل نصفية منحوتة ، وجالسين على آرائك ، وتنصب أمامها الولائم ، بينما يسير الموكب الدينى أو موكب الضراعة إلى المعبد . وها هنا نرى التسلية والترفيه فى الطعام ، والمشاهد غير المألوفة والبدع ، كما يقدم ترفيه مماثل فى صورة مسابقات مسرحية ورياضية .

والكتب السيبيلية مسؤولة كذلك عن ظهور عبادات جديدة . وفى فترة مبكرة من

---

(١)السابيين : شعب قديم من أواسط شعوب إيطاليا حارب روما طويلاً ، لكن فى القرن الثالث ق ، م أصبح أهله مواطنين رومانيين (المترجم) .

(٢) أو المفاوضون الدبلوماسيون (المترجم) .

(٣) تقع حياته تقريباًفيما بين (٢٠٣ ـ ١٢٠ ق . م)دعا إلى الحياد بين روما ومقدونيا ، وانتصرت روما فأُخذَ سجيناً سياسياً سبعة عشر عاماً ، ثم أصبح صديقاً لأسرة سيبيو ، وكتب فى رعايتها تاريخ عالم البحر المتوسط فى أربعين مجلداً ، لم يتبق منها سوى الخمسة الأولى (المترجم) .

أعوام (٤٩٦ - ٤٩٣ ق . م) كان هناك معبد مخصص لعبادة الإلهة كيريس Ceres (١) والإله ليبر Liber والإلهة ليبرا Libera (٢) وهم عند اليونان الإلهة ديمتر والإله ديونسيون والإلهة برسفوني قضت بإقامته العرافة السيبيلية . وفى عام ٢٩٣ ق. م انتقل إله الشفاء إسكيولبوس Aesculapuis (وهو أسكليوس Aschlepuis عند اليونان) فى صورة أفعى إلى الجزيرة عن طريق نهر التيبر حيث لا تزال توجد مستشفى القديس « بارتلوميو S. Bartolomeo » وفى عام ٢٠٥ ق. م أحضر القائد المتصوف « سكيبيو Scipio » «الأم الكبرى » فى هيئة الحجر الأسود من (بسينوس Pessinus) والواقع أن هذه الكتب كانت فى أنشط حالتها أثناء الحرب مع هانيبال ونكباتها المروعة ، فالناس يرجعون إلى الدين فى أوقات الحرب .

وقد أخذ العامة هذه المسائل بجدية شديدة بينما تزايد الشك فيها عند الطبقات العليا . وعندما قيل لكلوديوس بالكر Claudius Pulcher (٣) إن الدجاج المقدس رفض الأكل (وهو نذير شؤم خطير) قال : « دعها إذن تشرب ، ثم : اقذف بها فى البحر » أما فلامينوس Flaminius (٤) فقد أهمل بإرادته واجباته الدينية . وأما مارسيلوس Marcellus المتطير النبيل ، أثناء الحرب البونية الثانية ، فقد ركب محفته مع العميان حتى لا يرى النذر الشريرة ، وكأن هذا العمل سيقضى عليها ، وبحلول القرن الأول أصبح المتطيرون مدعاةً للسخرية والتندر ، حتى أن أحد الملاحدة تولى منصب الحبر الأعظم لأغراض سياسية .

---

(١) كانت « كيريس » فى وقت من الأوقات إلهة الأرض ، والأم المشرفة على الزراعة ، وهى ابنة الإله « ساترن » وأخت « جوبتر وبلوتو » ، والإله ليبر إله رومانى قديم اتحد فترة مع إله اليونان باخوس أو الإله ديونسيوس ،وليبرا هى ابنة كيرس ، وأخت ليبر ، وهى أحياناً إريان زوجة باخوس ،أو الإلهة برسيفونى عند اليونان (المترجم) .

(٢) فى عام ٢٠٥ق . م أعلن مجلس الشيوخ أن الكتب السيبلية تتنبؤ أن هانيبال سيغادر إيطاليا إذا ما جئ «بالأم الكبرى » ، وهى صورة من الإلهة سيبل Sybele من « بسينوس » فى فريجيا ـ إلى روما ، وكان الحجر الأسود فى اعتقادهم يمثل جسد الأم الكبرى(المترجم) .

(٣) كان كلوديوس بالكر قنصلاً عام ٢٤٩ ق. م وقائداً للأسطول الرومانى فى الحرب مع القرطاجيين ، وهزم فى ميناء دربانون Drepanun (المترجم) .

(٤) قائد وسياسى رومانى من أسرة شعبية ، كان قنصلاً عام ٢٢٣ ، ومرة أخرى عام ٢١٧ ، هزمه هانيبال وقتله عام ٢١٧ (المترجم) .

٥- الإمبراطور أغسطس :

تلقف الإمبراطور أغسطس نزعة الشك العامة ، فقد بلغ من الحرص مبلغاً يمنعه من أن يكون مخلصاً ، صحيح أنه كان يؤمن بالخرافات ، ولكن يصعب أن نصفه بالتدين ، غير أن حاسته السياسيـة أشارت عليـه أن يقيـم لحكمـه أساساً دينياً ففى عام ٢٩ ق . م أغلق معبد « جانوس » مما يعنى نهاية الحرب ، وفى العام التالى ٢٨ ق. م عهد مجلس الشيوخ للحاكم بحق تجديد المعابد بحيث استطاع فيما بعد أن يفاخر بأنه عمل تجديد اثنين وثمانين معبداً . وفضلاً عن ذلك فقد شيد مبانى جديدة كان أعظمها بغير منازع هو معبد « أبوللو بلاتين » إله النور والثقافة الذى أشرف على الانتصار النهائى فى موقعة « أكتيوم » ، وكان شعاراً ممتازاً للعهد الجديد ، كما أقام معابد أخرى لوالده بالتبنى يوليوس المقدس ، ولجوبتر إله الرعد ، وللإله مارس والإلهة فينوس ، ولمارس المنتقم ولفستا .

وسار تجديد الشعائر الدينية فى خطين متوازيين ، فقد شرف أغسطس منصبه بأن تقلده بنفسه ، وجعل من نفسه عرافاً وعضواً فى قائمة الخمسـة عشر . وعندما مات ليبدوس Lepidus عام ١٢ ق. م أخذ أغسطس وظيفته وأصبح هو « الكاهن الأكبر » أو الحبر الأعظم Pontifex Maximus ، وبعد أن ظلت وظيفة كاهن الإله مارس شاغرة لأكثر من نصف قرن مُلئت مرة أخرى ، فقام الكهنة بتقديم القرابين ، وانتعشت المعاهد ، وتجددت الطقوس الدينية وأقام أغسطس فى عام ١٧ ق. م « الألعاب القرنية » [1] ، إيذاناً بافتتاح عصر جديد فكانت مثلاً جيداً على ذلك . ولدينا بالمصادفة مذكرة عن سيرة حياة أغسطس نص من العرافة السبيلية التى توصى بتنفيذ الطقوس الدينية ، تشرح هذه الطقوس، ونقش على نصب تذكارى يحتوى على رسالة لأغسطس ، وقرارين لمجلس الشيوخ، ووثائق لقائمة الخمسة عشر ، وترنيمة « هوراس » التى كتبها بذكاء . لهذا نستطيع أن نقتفى أثر سيطرة الموت والحياة الجديدة ، والتطهر والتجديد ، والدين والخصب ، والأخلاق .

وهناك شاهد آخر هام هو « مذبح السلام Altar of Peace » ، ومواكب التماثيل المهيبة والألواح الخشبية على الجدران التى تمثل «الأم الأرض » وأينياس Aeneas [2] وهو

---

(١) سمّيت بهذا الاسم لأنها لم تكن تقام إلا على فترات متباعدة (المترجم) .

٢) إينياس: ابن فينوس وبطل الانيادة لفرجيل، والجد الأسطورى للرومان (المترجم).

يقدم القرابين لربات المدفأة Panates [1] وتنشئة رومولوس وريموس ، والشخصية المقدسة لروما على كومة مكدسة بالسلاح . ويشارك في ذلك الشعراء وإن كانوا أبيقوريين بحكم تكوينهم ، « فهو راس Horace » [2] يسهم بمطلبه في تجديد المعبد وبأناشيده ، وفرجيل[3] يركز رؤيته على روما الخالدة في سياق التجربة الدينية . بل إن أوفيد Ovid[4] شغل نفسه فاهتم بالتقويم الديني .

٦- عبادة الإمبراطور :

تعلمت روما ، نتيجة احتكاكها باليونان ، أن تنسب ألقاب الشرف المقدسة إلى الأفراد ، ففي عام ٢١٢ ق. م . أقيم احتفال على شرف مارسليوس Marcellus في سيراقوزة ، وفي عام ١٩٥ ق. م منح فلامينينوس Flaminius في مدينة خالكيس Chalcis مرتبة الكهنوتية التي بقيت طوال ثلاثة قرون . وأنشدت ترنيمة للإمبراطور تيتوس Titus[5] وزيوس وآلهة روما تنتهي بعبارة « نعماك يا أبوللو ، نعماك ياتيتوس يا مخلصنا » وفي مدينة «افيسوس كان هناك هيكل لآلهة روما ولـ « ب سرفيلوس أزوريكوس P.Servilius Isaauricup الذي كان قنصلاً من (٤٦ حتى عام ٤٤ ق. م) وكان « فيرس Verres[6] الشهير موضع تبجيل في قبرص ، وقدمت آيات الشرف لشيشرون وشقيقه

(١) « ربات المدفأة » وهو الاسم الذى يطلق على آلهة المنزل اللاتينية القديمة ، على اعتبار أنهم يحرسون مدفأة البيت (المترجم) .

(٢) من أعظم شعراء الرومان في القرن الأول بعد الميلاد ، كان صديقاً لفرجيل الذى قدّمه إلى مايكناس وزير البلاط في عصر أغسطس الذى كان يشجع الآداب (المترجم) .

(٣) يعّد فرجيل ، هوميروس الرومان ، عاش في القرن الأول قبل الميلاد ، وكتب ملحمة الإنيادة على غرار إلياذة هوميروس، كما كتب الرعويات والزراعيات ، وقصائد أخرى كثيرة (المترجم) .

(٤) أوفيد (٤٢ ق. م ـ ١٨ م) شاعر غنائي لاتيني كتب « القصائد الغرامية » ، و « قصائد الحب » و « فن الحب » ، و « دواء الحب » كما سبق أن ذكرنا (المترجم) .

(٥) تيتوس (٨١ ـ ٤٠) أحد أباطرة الرومان ، وهو الابن الأكبر للإمبراطور فسبسيان وشريكه في الحكم عام ٧١ ، اشتهر بمنشآته في روما ، واستمتع الناس بالرخاء في عهده حتى سموه « أنوار البشر » (المترجم) .

(٦) جايوس فيروس : سياسى رومانى ، كان حاكماً على قبرص ، اشتهر بالابتزاز والاغتصاب وفرض ضرائب باهظة واحتقار حقوق المواطن الرومانى ، حوكم وأمر مارك أنطونيو بإعدامه (المترجم) .

كوينتوس Quintus ، ولكنهما رفضاها . وقبل سنة أو سنتين من ميلاد السيد المسيح أقيم احتفال لـ « بولس فابيوس ماكسيموس Paullus Fabius Maximus » ارتبط بعيد أبوللو سمينثوس Smintheus وارتبط الاسمان حتى ظل الاحتفال بهما معاً تحت اسم سمينيثا – بولس فى طرود Troad[1] لمدة قرنين بعد ذلك .

وفى أقصى الشرق وفى الجنوب كان تقديس الشرقيين للملك أمراً مألوفاً ، ولقد نظر الرومان إلى الفكرة بافتتان ورهبة . فقلد بومبى [2] الإسكندر الذى وافق على الألوهية لأغراض سياسية ، وكان قيصر ، على الأقل ، يلهو بالتأليه الذى خلع عليه بعد موته . وأصبح مارك أنطونيو ، بغير خجل هو ديونسيوس أوزوريس زوج كليوباترا إيزيس ملكة مصر ، وأطلقا على طفليهما اسم الشمس والقمر .

وأقام أغسطس بحاسته السياسية البارعة نموذجاً للمستقبل ، فكان عليه أن يصبح فى مصر الملك المقدس ، لكنه كان حذراً فى أماكن أخرى فلم يشأ أن يرجع الرومان لاقتراف الإثم مرة أخرى فى حق الحكم . لقد كان لدى اليونان جمعيات مختلفة لشتى الأغراض تسمى « الكوينا Koina » وقد كيفت هذه الجمعيات بحيث تناسب عبادة الحاكم ، غير أن أغسطس لم يسمح لنفسه أن ينال وحده شرف التأليه ، إذ لا بد لاسمه أن يقترن باسم روما واللارات Lares . فمن روما أخذ لقب Divi Filius أى ابن الإله (يوليوس) ، ويوحى هذا بأنه يشبه هرقل Heracles[3] الذى هو ابن إله أيضاً وضمه مجمع الآلهة إليه نظراً لخدماته فى سبيل الإنسانية . وهذا هو السبب فى تقريع « تبريوس Tiberius » لأحد رجال حاشيته المنافقين عندما تحدث عن « واجبات الإمبراطور المقدسة » إذ عنف الإمبراطور ذلك « المجتهد » وكان توبيخه لنفاقه الذى يشير إلى ألوهية المستقبل لا ألوهية الحاضر .

أما المصابون بجنون العظمة من أمثال « كاليجولا Caligula » ونيرون ودوميتيان

(١) طرود Troad مدينة قديمة فى آسيا الصغرى ، جنوب مدينة طرواده ، ويرى البعض أنها المنطقة المحيطة بمدينة طرواده القديمة (المترجم).

(٢) قائد رومانى (١٠٦ ـ ٤٨ق. م) أدى خدمات جليلة فى ساحات القتال فمنح لقب (الأكبر) عام ٨٩ ق . م ، ولعل هذا هو ما يعنيه المؤلف من أن بومبى حاكى الإسكندر الأكبر (المترجم).

(٣) أشهر الأبطال فى أساطير اليونان والرومان ، كانت شجاعته خارقة ، وقوته جبارة ، فهو ابن الإله زيوس من الكمينا ، قام باثنى عشر عملاً خارقاً رفعته إلى مصاف الآلهة الخالدة (المترجم).

Domitian فهم وحدهم الذين طالبوا بأن يعبدوا فى حياتهم ، وأنْ يُنظر إلى كل منهم بوصفه سيداً وإلهاً Dominus & Deus أى مالك للعبيد وإله للفانين (١) . ومن هنا كان رد القديس يوحنا (صاحب الإنجيل المعروف) على ادعاءات « دوميتيان » أن جعل «توما » يؤكد أن المسيح هو السيد الحق ، وهو الإله الحق (٢) وكما أن بنية السماء تعكس ـ فى الأعم الأغلب ـ بنية الأرض ، فقد كان مجمع الآلهة يصور على أنه نوع من مجلس الشيوخ السماوى الأعلى ، مضافاً إليه أعضاء مختارون لجدارتهم . ومن ثم ظهرت عملية تأليه الأباطرة الممتازين بعد وفاتهم . حتى أن « فسبازيان Vespasian » القائدالمتبلد عندما شعر بسكرات الموت تقترب ـ وكان قد احتفظ لآخر لحظة بروح الدعابة (٣) – صاح « آه يا عزيزى ، وا أسفاه ! أظن أننى صائر إلى أن أكون إلهاً » . !

ولقد كان ذلك بالطبع ديناً سياسياً ، فلم يكن فى استطاعة آلهة الأولمب أن يقيموا إمبراطورية موحَّدةً ، أعنى إمبراطورية مقدسة قوية . أما فى روما فقد أصبح الإمبراطور إلهاً لأنه إمبراطور ، وهو مركز العبادة على نحو ما كان اينياس Aeneas مركز الإنيادة بوصفه رمزاً لروما (٤) ومعنى هذا أن العبادة تحصل على أهمية خاصة من أطراف الإمبراطورية : من بريطانيا حيث ظهرت منذ البداية عبادة كلوديوس Claudius ، ومن آسيا حيث تنازعت المدن حول أحقيتها فى لقب راعية المعبد Neokoros فى العبادة الرسمية للمقاطعة . واستمرت عبادة الإمبراطور فى القرن الثالث إلى أن غير أورليان Aurelian (٥) مبدأ الحكم

---

(١) نادى « دوميتيان » بتأليه أبيه وأخيه وزوجته وأخته وطلب من الموظفين ألا يذكروه فى وثائقهم إلا بلقب « سيدنا وإلهنا » (المترجم).

(٢) انظر إنجيل يوحنا « أجاب توما وقال له ربى وإلهى » ٢٠ : ٢٨ ، (المترجم).

(٣) قال هذه العبارة ثم وقف على قدميه وهو يكاد يغمى عليه وقال : « إن الإمبراطور يجب أن يموت واقفاً» ! (المترجم) .

(٤) المفروض أن آينياس ـ بطل الاينادة ـ هو أحد أبطال طروادة ، ظهر له شبح هكتور القتيل ، ومدينة طروادة تحترق ، وطلب منه أن يستعيد من اليونان ما كان فى طروادة من « أشياء مقدسة وآلهة منزلية » ويركب مع أبيه وابنه سفينة تقف بهم فى أماكن مختلفة ، ويقوم بمغامرات أشبه بأوديسيوس فى الأوديسة ـ وهو يصل فى النهاية إلى نهر التيبر . ولهذا ينظر إليه الرومان على أنه مؤسس مدينتهم (المترجم) .

(٥) أورليان (٢١٢ ـ ٢٧٥) إمبراطور رومانى خلف كلوديوس الثانى، ودافع دفاعا مجيداً عن الإمبراطورية (المترجم) .

مضيفاً إليه نعمة من الله ، مما مهد الطريق أمام الإمبراطورية المسيحية على الرغم من أن شخصية الإمبراطور قسطنطين ظلت تتلقى التوقير والتبجيل [١] .

٧- مقاطعات الإمبراطورية :

بعد أن اتسعت الإمبراطورية الرومانية استوعبت كل ما تصادفه ، وكان ذلك هو سرها . وكانت هذه العملية تسمى من الناحية الدينية « التأويل الرومانى » ، أو الفهم الرومانى لآلهة الأجانب واعتبارها آلهتها الخاصة . ولابد أن نتذكر أنه كانت هناك عملية تناظر هذه العملية ، وهى قيام المقاطعات باستيعاب آلهة الرومان لتصبح آلهتها الخاصة .

وتقدم لنا مقاطعة بريطانيا مثالاً جيداً على هذا ، فقد كان هناك عدد كبير من الآلهة الكلتية ، بعضها آلهة محلية تماماً ، وبعضها الآخر عرفته عن طريق أوربا . وهذان النوعان من الآلهة متشابهان فى ذاتهما وفى اتحادهما مع مجمع الآلهة الرومانى ، ففى باث[٢] ، اتحدت آلهة الينابيع الحارة سوليز Sulis مع منيرڤا Minerva ، وكان التصميم الهندسى لمعبدها كلاسيكياً ، أما النحت فلم يكن كذلك . وفى مدينة « ليدنى » على نهر سفرن Severn نجد أن نودنز Nodes الذى حفظته لنا الأساطير باسم الملك لير ، كان من نصيبه معبد جميل فى القرن الرابع الميلادى . وأصبحت برجنتيا Brigantia فى الشمال حورية البحر « مابونس Maponus » ، أو « مابون Mabon » واتحد إله الشباب مع الإله أبوللو ، وكان من الطبيعى أن يقدم الإله « مارس » ليكون رباً للجنود بهويات مختلفة . وكان الرومان أحياناً يمجدون إلهاً محلياً مثل « جنيوس Genius » أو روح المكان . وتحولت الإلهة الكلتية الأم إلى ربات القدر ، أما جوبتر أفضل الآلهة وأعظمهم فقد أصبح له مكانة هامة فى العبادة الكلتية الرسمية ، وكان من الطبيعى أن توجد عبادة للإمبراطور ، ولا يزال من الممكن مشاهدة مبانى معبد كلوديوس فى « كولشستر Colchester »[٣] . وفضلاً عن ذلك فقد جلب الجنود والتجار معهم أنواعاً مختلفة من عبادات الشرق مثل عبادة

---

(١) الإمبراطور قسطنطين ، إمبراطور رومانى أصدر منشور ميلان الذى أقر التسامح مع المسيحية ، اعتنق المسيحية وهو على فراش الموت ، فأصبحت لأول مرة الديانة الرسمية لروما (المترجم) .

(٢) مدينة فى جنوب غرب انجلترا (الترجم) .

(٣) مدينة جنوب شرقى انجلترا فى مقاطعة اسكس(المترجم) .

الإلهة « مترا » والإله أبوللو من « دولخى Doliche » وإيزيس و «سيبيل » والآلهة السورية . أما كيف وصلت إليهم الديانة المسيحية فهذا ما لا نعرفه ، لكن ثلاثة أساقفة بريطانيين حضروا المجمع الكنسى فى أرليس Arles [1] عام ٣١٤ ميلادية ، كما أن هناك نصباً تذكارياً رائعاً فى كنيسة ليلنجستون Lullingstone ، ومربع الكلمة فى مدينة « سرنستر Crencester » والفسيفساء فى هنتون سان مارى Hinton St. Mary .

٨- السحر والخرافة :

جاء التنجيم إلى الغرب من بابل ، وشجع عليه الموسوعى الرواقى « بوزيدونيس Posi-donius » [2] فقد كان الرواقيون والأفلاطونيون فى صف التنجيم ، فى حين كان الأبيقوريون والمسيحيون ضده ، وتفترض نظرية التنجيم وجود علاقة بين الناس والنجوم «فنحن نشارك الكواكب فى القدرات والمشاعر » ولما كان مسار « زحل » بطيئاً ، فقد اعتقدوا أنه يجعل الناس كسالى ، أما كوكب الزهرة فهو المشرف على الحب ، فى حين أن كوكب المشترى Jupiter يهب الناس القوة ، وعطارد يبارك التجارة ، وارتبطت الأفعى بإله الشفاء ، والبرج الذى يحمل هذا الاسم يساعد على الشفاء ، وكان التنجيم شبه علم ، كما كان حساب خرائط البروج عملاً معقداً . وكان يطلق على المنجمين لقب الرياضيين Mathematici .

وانفجرت الحركة فى عهد تبروس Tiberius [3] الذى اعتكف فى كابرى ومعه « حشد من البابليين » وفى ذلك الوقت كتب مانيليوس Manilius الرواقى قصيدة فى التنجيم ، وربما اعتبر التنجيم بما فيه من إيمان بالقضاء والقدر ركيزة للوضع القائم ، وربما شجع كذلك على الطموحات الخطرة ، ولقد كان المنجمون يقعون بين الحين والحين ، وإن كان التنجيم لم يُمنَع أبداً لفترة طويلة . وفى عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس كتب

---

(١) مملكة قديمة شرقى فرنسا (المترجم).

(٢) فيلسوف يونانى رواقى فى بداية القرن الأول ق . م ، ولد فى سوريا وتعلم فى رودس وكتب فى التاريخ العام ، والفلسفة الطبية ، كما كتب مقالاً عن الآلهة (المترجم) .

(٣) تبروس (٤٢ق . م ـ ٣٧) إمبراطور رومانى ابن أغسطس بالتبنى ، خلفه على العرش واتخذ كابرى مقراً له (المترجم).

فيتس فالينز Vettius Valns وهو فى حالة وجد ، عن مشاركة المنجم للآلهة ، واستخدم ستفانوس Stephanus البيزنطى اللغة نفسها تقريباً ، فى القرن الخامس الميلادى.

لقد كان التنجيم خرافة منتشرة على نطاق واسع ، لكنه لم يكن سوى خرافة واحدة بين خرافات كثيرة .

ويكفينا أربعة أمثلة :

أ - استخدم السحر لأغراض طبية ، فكتب الحجاب السحرى للوقاية من المرض ، ولدينا تعويذات مثل « اهرب يا عفريت داء الكلب من حامل هذا الحجاب » وكان بلنى يؤمن إيماناً غريباً بالخرافات ، من ذلك أنه كان ينصح لعلاج الصداع أن تلتقط حشائش نمت فوق رأس تمثال ثم تلفها فى قطعة قماش وتربطها حول عنقك مع قطعة من خيط أحمر .

ب - اللعنات التى تنقش فى الأعم الأغلب ، على رقائق معدنية ثم تدفن فى التراب وهى تصلح لمناسبات متنوعة : فأحياناً يكتبها أولئك الذين يفشلون فى الحب ، وأحياناً المقامرون الذين يريدون إضعاف جياد السباق التى لم يراهنوا عليها . وهناك مثال نموذجى وجد بجانب عين ماء بالقرب من أريزو Arezzo يصب اللعنات على شخص يدعى ك. ليتوريوس لوبوس Q. Leturius Lupus ويسمى أيضاً كوكاديو Caucadio ويستعدى عليه عرائس البحر أو المياه المغلية لتقضى عليه خلال عام .

جـ - ويروى المثال الثالث عن اكتشاف ممتع فى برجام Pergamum [1] عبارة عن عدة المشعوذ ، وهى منضدة برونزية ذات ثلاث أرجل منقوش عليها باتقان صورة إلهة الظلام هيكاتى Hecate ، وطبق مستدير عليه علامات سحرية ، وخاتمان وواضح أن الخاتمين يعلقان بخيط فوق الوعاء ليشيرا إلى الرموز المناسبة كلما اهتزا . ولقد وقفنا على قضية أثارت الرأى العام فى القرن الرابع شملت أدوات مماثلة استخدمت لتحديد خليفة « فالنز Valens ».

د - فى استطاعتنا فى النهاية أن نذكر أبليوس Apuleius [2] فقد كانت قصته

---

(١) مدينة إغريقية قديمة على بعد ١٦ ميلاً من بحر إيجه ، وجدت منذ القرن الخامس ق. م ، ولكنها لم تصبح ذات أهمية إلا فى العصرالهلنستى (٣٢٣ ـ ٣٣٠ ق . م) وكانت مدينة مزدهرة اشتملت على أسواق وملاعب ومعابد لاسيما معبد الإلهة هيرا، ومعبد آخر للإله دمتر (المترجم) .

(٢) أديب متفلسف من القرن الثانى الميلادى اشتهر بكتابين هما « التحولات » و « الحمار الذهبى » وهى قصة يتحول فيها البطل إلى حمار ، ويقوم بعدة مغامرات ثم يستعيد شخصيته فى نهاية القصة بمساعدة الإلهة إيزيس (المترجم) .

« الحمار الذهبى » مليئة بالسحر والشعوذة ، وقد يكون ذلك مجرد جانب من تراث رواية القصص ، ولكن إقبال القراء عليها فى ذلك الوقت أمر له مغزاه . بيد أن هذا الأديب نفسه تزوج من أرملة ثرية اتهمته أسرتها بأنه سَحَرها ، وكانت التهمة مضحكة لسخافتها ، وتمكن أبيليوس بمرافعته الحاذقة من السخرية منها أمام المحكمة ، ولكن وصول هذه القضية أصلاً إلى المحكمة يكشف عن سيطرة الخرافة على هذا العصر .

ولـ « بلنى » الأكبر[1] هنا أهمية خاصة ، ففى شخصيته جانب من الرجل العقلانى الذى يهاجم استخدام السحر ، ولكنه مع ذلك يؤمن بالعين الشريرة والتخفى ، وبتغيرات الجنس (أى التحولات من جنس لآخر) ، وتأثير القمر ، والقوة المرعبة لدماء الطمث ، والأعداد الوترية ، وبالدوائر السحرية ، وبقوة الحديد ، والتأثير الوقائى للبصق ، واستخدام الوصفات السرية أو السحرية الغامضة .

٩- الحياة بعد الموت :

كانت المعتقدات العامة عن الحياة بعد الموت فى المجتمع الرومانى معقدة بنفس درجة تعقيدها فى معظم المجتمعات الأخرى ، فقد كان الأسلاف فى التراث الرومانى على نفس درجة الأهمية التى كانوا عليها فى التراث الإفريقى ، فكان الرجل الأرستقراطى يحتفظ بتماثيل أو أقنعة لأسلافه لكى ينتج منها نسخاً فى الظروف المناسبة . وكانت اللاريات Lares تعبر بصفة عامة عن أرواح الأسلاف . وكان المعيار الأخلاقى لروما هو الـ Mos Maiorum أى طريق الأسلاف . أما « الدى مانز Di Manes »فهى أرواح الموتى التى يشعر نحوها الرومان بالهيبة والإجلال . وكان عيد الوالدين الذى يقع فى شهر فبراير Parentalia هو فى الواقع عيد الأموات ، أى عيد جميع الأرواح . ويحتفل به أساساً داخل الأسرة أكثر مما يقام فى مكانٍ عام .

وامتدت المعتقدات الشعبية إلى « الأشباح » (وهناك قصص ممتازة عن الأشباح عند (شيشرون وبلنى) - وإلى السحرة القادرين على استحضار أرواح الموتى .

---

(١) بلينوس الأكبر (٢٣ ـ ٧٩) عالم نبات رومانى مات مختنقاً عندما ذهب لرؤية بركان فيزف ، كتب عن التاريخ الطبيعى (٣٧جزء) تكلم فيه عن الكون والجغرافيا وعلم الأجناس والحيوان والنبات مما يدل على سعة الاطلاع ، وتنوع المعارف مما أثار دهشة النقاد وإعجابهم (المترجم) .

واجتمع الإيمان بالشياطين والعفاريت عن الإتروسكين ، والإيمان بالأسطورة اليونانية لتعزيز الخوف من العقاب بعد الموت الذى سخر منه شيشرون وسينكا ، لكن الأبيقوريين شعروا أنه مفروض على الآخرين ، غير أن النقوش على شواهد القبور لا تكشف بصفة عامة عن خوف ولا عن رجاء ، وإنما يعبر بعضها عن الأسف لأن المتوفى ترك متع الدنيا ، بينما يعبر بعضها الآخر عن الرضا لأنه أفلت من متاعب الحياة ، والصيغة الشائعة للتعبير الأخير هى « أنا لم أوجد ، ولست بموجود ، ولا أبالى » وبعض النقوش الأخرى تتحدث عن « النوم الأزلى » ، والدليل الرئيسى على الأسف مرتبط بالقبور التى كانت تقع على جانبى « طريق أبيا Via Appia »[١] الذى كان قد صمم أساساً ليكون « دار الموتى » وكان يلحق بهذه القبور أحياناً غرف طعام ومطابخ حتى يستطيع الأحياء المشاركة فى مأدبة تقام لتكريم الميت بمناسبة الاحتفال بذكرى يوم ميلاده وفضلاً عن ذلك فمنذ عصر «هدريانس » حتى القرن الثالث ونحن نجد سلسلة من التوابيت الفخمة التى تصور مناظر ترمز إلى الفنانين الذين دخلوا دار الخلود . ويتخذ يونسيوس من « إريان » عروساً له[٢] ، أو يظهر فى هيئة المنتصر . ويجتاز « كاستور Castor » وبولوكس Pollux[٣] مع بنات « لويكبوس Leucippus »[٤] الباب إلى حياة جديدة ، وترمز ربات الفنون Muses إلى لمسة الإلهام الإلهى، أما برومثيوس فيخلق الإنسان ويهبه الحياة ويظهر هرقل Hercules وهو ينجز المهام التى من أجلها وهب الألوهية مكافأة له . وتتحدث مناظر المعارك والصيد عن الانتصارات ، وأندميون Endymion أيقظته سيلين Selene بقبلة[٥] ، أما دورة الفصول فتنبىء بميلاد

---

(١) « طريق أبيا » نسبة إلى القنصل الرومانى « أبيوس كلوديوس » وكان هو الذى بدأ فى إقامة هذا الطريق الذى يؤدى من روما إلى كابوا Capua ثم امتد أبعد من ذلك (الترجم) .

(٢) إريان ابنة مينوس Minos ملك كريت (الترجم) .

(٣) كاستور ابن تيناروس Tyndarus ملك طروادة وليدا Leda ، وتوأم بولكس، وشقيق هلن ، وكان آدمياً . أما أخوه بولكس فكان خالداً، ولما مات الأول حصل الأخير على تصريح من جوبتر أن يتناوب الشقيقان الحياة معاً (الترجم) .

(٤) لويكبوس : والد فويب Phoebe وهيليرا Hilaia اللتين فاز بهما كاسترو وبولكس (المترجم) .

(٥) إندميون Endymion الراعى : هو أجمل شباب الميثولوچيا الرومانية ، أحبته سيلين إلهة القمر وأيقظته من نومه بقبلة (المترجم) .

عام جديد ، وأما الناريدات Nereids أو التريتون [١] Tritons فتصور الرحلة إلى جزر البلست Blest بأسلوب اعتمد على زخرفة الأمواج وأصبح بعد ذلك نمطاً ثابتاً ، في حين تؤكد الزهور والأكاليل وجود الحياة

١٠- الشمس :

كانت الشمس في أجزاء متعددة من الشرق موضوعاً بارزاً للعبادة ، ففي بلاد إليريا Il-lyria [٢] وجد تراث قيم لعبادة الشمس ، وفي مصر كانت الشمس على المدى الطويل الإله الرئيسي بين الآلهة ، وفي سوريا كانت المدينة التي تسميها مدينة « بعلبك » [٣] معروفة عند اليونان باسم هليوبوليس أو مدينة الشمس ، [٤] أما في فارس فقد كانت الشمس أحد الضباط الأساسين لأهورامزدا ، في صراعه مع الظلام . وكان لـ « سول Sol » إله الشمس عبادة قديمة في روما ، ولكن في عصر الإمبراطور أغسطس حل أبوللو محله . وكان من الطبيعي مع تحرك مركز الجاذبية للإمبراطورية الرومانية تجاه الشرق أن تزداد عبادة الشمس قوة . ولقد كانت قوية بالفعل في الدعاية للإمبراطورية فكان بيت نيرون الذهبي مسكناً ملائماً للشمس المجسدة كما أضفى أنطونيوس Antonus على الشمس احتراماً خاصاً [٥] .

ولقد أصبحت عبادة الشمس مهيمنة في عهد أسرة سيفروس Severus « [٦] فكان إله الشمس يصور مع لحية « سيفروس Severus » المتميزة ، واتخذ الإمبراطور لقب

---

(١) الناريدات : مجموعة من حوريات البحر، والتريتون : تصفه إلهة البحر بجسم رجل وذيل سمكة . وقد سبقت الإشارة إليها (المترجم) .

(٢) منطقة قديمة لم تتضح معالمها أبداً بتميز ، وهي تمتد على ساحل البلقان (المترجم) .

(٣) مدينة بعلبك على سفح جبل لبنان الشرقي على بعد ٨٥ كم شمال بيروت ، وشيد بها معبد الإله بعل (المترجم) .

(٤) كلمة هليوبوليس مكونة من Helios التي تعني في اليونانية : الشمس ، و Poils بمعنى مدينة (المترجم) .

(٥) إمبراطور روماني من (٢٠٦ ـ ٢٢٢) وكان في شبابه كاهناً في معبد إله الشمس (المترجم) .

(٦) سيفيروس Severus أسرة من أباطرة الرومان ، ولهذا فاسم سيفيروس يطلق على أربعة منهم هم : فلافيوس (٣٠٦ ـ ٣٠٧) ، وليفيوس (٤٦١ ـ ٤٦٥) ، ولوشيوس (١٩٣ ـ ٢١١) ، ثم ماركوكوس (٢٢٢ ـ ٢٣٥) (المترجم) .

« الذى لا يقهر Invitus » وكان هو اللقب الخاص بإله الشمس ، وكان ذلك تطوراً طبيعياً، فالشمس رمز توحيدى رائع ونقطة تجميع للإمبراطورية بأسرها . فقد انحطت قيمة الدين القديم . كما أن اغتصاب العروش جعل من الصعب أن يعامل الإمبراطور بوصفه نقطة مركزية للعبادة . وحتى مبالغات الإمبراطور هليوجابولس Heliogabalus [١] لم تستطع تدمير قوة الرمز ، ففى عام ٢٧٤م نصب أورليان Aurelian [٢] إله الشمس إلهاً أعظم للإمبراطورية الرومانية .

وقال إرنست رينان [٣] ـ ذات مرة ـ لو أن المسيحية انهارت لكان العالم من اتباع مترا Mithraist [٤]، ولكن هذا غير صحيح فلو انهارت المسيحية لسادت عبادة الشمس ولكن فى صورة أخرى غير صورتها الفارسية . والواقع أن مسيحية الإمبراطور قسطنطين كانت مسيحية مبهمة غامضة ، فأسرته كانت تدين بالولاء التقليدى لإله الشمس ، ولقد جاءته الرؤية الشهيرة للصليب من الشمس وهو فى طريقه إلى روما ، وواصلت الشمس ظهورها على ماسكّه من نقود خلال عشرة أعوام ، وعلى قوس النصر الذى أقامه فى روما . ويحمل تمثاله المقام فى القسطنطينية التاج المشع لإله الشمس مصنوعاً ـ كما اعتقد هو نفسه ـ من مسامير الصليب الحقيقية . لقد كان إلهه إلهاً للقوة ، لكنه لم يكن أبداً إلهاً للحب ، ومعنى ذلك أن الشمس لم تهزم هزيمة كاملة .

١١- الديانة الشخصية :

تحول الناس من أجل الديانة الشخصية إلى « ديانات الأسرار » التى لم تكن طقوسها السرية معروفة إلا للمنتمين إليها ، وأشهر ما هو معروف من هذه الديانات ديانة « إليوسس »

---

(١) هليوجابوس : هو نفسه الإمبراطور الرومانى السابق ذكره أنطونيوس ، فقد نصبه الجنود إمبراطوراً تحت اسم ماركوس أورليوس أنطونيوس (المترجم) .

(٢) اسمه اللاتينى بالكامل لوشيوس دوميتوس أورليانوس : كان إمبراطوراً لمدة خمس سنوات (٢٧٠ ـ ٢٧٥) كان فى الأصل جندياً ثم ارتقى إلى أعلى المناصب العسكرية ، اختاره الجيش إمبراطوراً عام (٢٧٠) (المترجم) .

(٣) إرنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسى ، اهتم بالدين من الناحية التاريخية لا من الناحية « العقائدية » فكتب « تاريخ نشأة المسيحية » و « تاريخ شعب إسرائيل » وألف رسالة عن ابن رشد والرشيدية ... إلخ (المترجم) .

(٤) إله الشمس أو النور عموماً ، وقاهر الظلام عند الفرس (المترجم) .

Eleusis والتى كانت لا تزال قوية عند شيشرون وبلوتارك . وتنكشف قوة ديونسيوس بصورة طاغية فى فيلا Villa الأسرار فى بومبى Pompii [١] ، حيث توجد السلسلة الفخمة من الرسوم الجدارية التى تبين عملية الترسيم كلها والتى يشرف عليها الإله ، من قراءة لتراتيل الطقوس الدينية ، إلى تقديم للقرابين ، ورضاعة الرضيع ، والتنبؤ بالغيب ، وكشف النقاب عن القضيب الغامض ، والجلد بالسوط أو طقوس الموت ، ورقصة البعث ، والإعداد للزواج المقدس وكلها تعبر عن سجل رائع للعبادة .

ولقد جاءت أسرار « إيزيس » و « أوزوريس » من مصر حيث كانت إيزيس هى الإلهة المنقذة ، بينما كان أوزوريس هو الإله الذى مزق أشلاء ثم ولد من جديد ، وكان المتوفى فى مصر يتحد مع أوزريس فى هوية واحدة ويخاطب على أنه أوزوريس . كانت إيزيس وأوزوريس يقدمان الحماية فى هذا العالم ، وكذلك فى العالم الآخر . وكانت رواية أبوليوس « الحمار الذهبى » التى كانت مغامراتها الحية تخفى وراءها هدفاً حاداً هى شهادة واضحة على افتتان كاتب رومانى من أصل أفريقى بعبادة إيزيس .

وكان لسيبل Cybele ـ الإلهة الأم العظيمة فى آسيا الصغرى ـ بدورها أسرارها . فدخول العضو فى الجماعة يتم عن طريق التوروبوليوم Taurobolium أو التعمى بدم الثورالذى اعتقد البعض أنه يجلب حياة أبدية [٢] فى حين أن البعض الآخر كرر الاحتفال نفسه بعد عشرين سنة ، وقد سجل وجود التعميد فى بوتيولى Puteoli [٣] فى بداية القرن الثانى الميلادى ، وصلتنا الصورة الحية التى وصفها له برودنتيوس Prudentius [٤] فى القرن الرابع ، وفى الأصل كان أولئك الذين وهبوا أنفسهم للأم يتوقع الناس منهم إخصاء أنفسهم ، مضحين بخصوبتهم من أجل خصوبة العالم . لكن ذلك لم يعد قائماً منذ عصر كلوديوس Claudius ، وانتشرت العبادة فى عصر الإمبراطورية بين جماهير الشعب ، وكانت هذه العبادة شائعة فى الإمبراطورية .

---

(١) مدينة بومبى : جنوب شرق نابلى ، دمرت فى إحدى ثورات بركان فيزوف ، واكتشفت آثارها فى ق ١٦ ، (المترجم) .

(٢) عَبدَ الفرس القدامى الثور الذى مات ثم بعث حياً ، ووهب الجنس البشرى دمه شراباً ليسبغ عليه نعمة الخلود ، وسموه « هوما » (المترجم) .

(٣) مدينة على الساحل فى كمبانيا شهيرة بالمياه المعدنية ، وهى منتجع مفضل عند الرومان (المترجم) .

(٤) شاعر مسيحى لاتينى فى القرن الرابع ، كتابه الشهير « الصراع بين الفضيلة والرذيلة » (المترجم) .

وكان الإلـه «مترا» هو الإله المخلص عند الفرس وهـو إله القبة الزرقاء وحليـف «أهورامزدا» وكان الترسيم يتم على سبع خطوات ، فالمراتب الدنيا أو الخدم Servitors كانت هى الغراب ، والعريس ، والجندى . والمراتب العليا أو المشاركون كانوا : الأسد ، و«الفارسى»، ورسول الشمس والأب . ويتضمن الترسيم اختبارات حقيقية أو رمزية للقدرة على التحمل . ولم تتطلب الديانة « المثرية » أعداداً كبيرة على الإطلاق ، فالمعابد (المزدانة بنقش بارز على الحجر لمترا وهو يقتل الثور الذى يرمز بدمه للحياة) كانت صغيرة باستمرار، كما أن أعضاء الديانة فى معظمهم كانوا من الجنود والتجار مع بعض الخدم المدنيين ، واختلط التنجيم بالعبادة التى فرضت متطلبات أخلاقية ، ووعدت بالنعيم المقيم بعد الموت .

لقد كانت المسيحية إحدى ديانات الأسرار الشرقية . وكانت عوامل تأثيرها متعددة: شخصية مؤسسها القوية الساحرة ، نوع الحياة والصحبة ، وكل ما كانت تعنيه الكلمة الجديدة « أجابى Agape » أى المحبة (الحب المسيحى) ، والمراكز التى أعطيت لنساء مثل (بريسيكا Prisca ، وفوبى Phoebe ، نيمفا Nympha) وقد أعقبهن فى القرن الثانى شهيدات مثل : بلاندينا Blandina ، وبريتوا Perpetua ، فيلستياس Felicitus ، كما كان هناك التنظيم القوى للكنائس ، والاقتناع الذى قضى على الخيارات الكثيرة فى العالم القديم وواجه الاستشهاد بشجاعة (واعتبر الدم المسيحى بذوراً) ورسالة الأمل لكل البشر . ولقد عبر الباحث أ. د. نوك A. D. Nock عن هذه الفكرة تعبيراً جيداً بقوله : «لقد تُرك للمسيحية أن تجعل هذه الأسرار ديمقراطية » .

* * *

الفصل السادس

إيـــــران القديمـــــة

إيران ، أو فارس كما كانت تدعى فى يوم من الأيام ، تنغلق داخل مثلث من الجبال، ويقع فى قلبها اثنان من الصحارى الملحية تبدوان قاحلتين لدرجة أن صحراء جوبى Gobi تبدو خصبة بالقياس إليهما .[1] وبسبب الجبال الشاهقة التى يبلغ ارتفاعها ٥٥٠٠م (١٨ ألف قدم) تعتبر إيران أرض تقابلات عظيمة . فهناك أدغال استوائية بالقرب من بحر قزوين. وهناك أيضاً مناخ البحر المتوسط فى وديان الأنهار فى الجنوب الغربى . ولقد أظهرت هذه الاختلافات ثقافات مختلفة ، كما أن الجبال جعلت الاتصال بينها صعباً . وعلى حين يخضع غرب إيران لتأثير بلاد ما بين النهرين ، واليونان ، وروما ، فإننا نجد شرق إيران يخضع لتأثير الهند ، بل ولتأثير الصين . وهكذا تقف إيران كجسر بين الشرق والغرب ، وهى حقيقة لم تؤثر فى دينها فحسب ، بل جعلت من إيران أيضاً ملتقى روافد تاريخية عديدة .

تحركت موجات من الآريين ، وهم شعب بدوى مولع بالقتال - حوالى عام ١٠٠٠ ق. م إلى داخل إيران من الشمال ، ومن الشمال الغربى ، وبحلول عام ٨٠٠ ق. م كانوا قد احتلوا الأرض ولقد كشفت ديانات الهند وإيران معاً - تحت التأثير الآرى - عن عدد من الخصائص المتماثلة . فهناك عدد من الآلهة يظهر فى كليهما (على سبيل المثال الإله مترا) ، وهناك تصورهما المتشابه لنظام الكون ، كما كان لطقوسهما الدينية الكثير من السمات المشتركة .

وتكشف ديانة الآريين عن طريقة حياتهم ، فهى ديانة شعب يعيش على مقربة من الطبيعة ، ويجد فيها المتعة ويخشاها فى آن واحد. إنه مفتون بالحياة التى تهبها الطبيعة الخيرة، ومع ذلك فهو يخاف من قسوتها المدمرة للحياة . وتوحى أسماء الآلهة بالطابع المجرد لهذا الدين : العقد (مترا) ، القول الحق (فارونا Varuna) ، والضيافة (آرياماان Aryaman) وهكذا .

١- الزرادشتية :

قيل إن زرادشت أو « زور آستر Zoroaster » (وهو الاسم الذى شاع أكثر عند اليونان) قد مارس نشاطه فى شمال شرق إيران . ويؤرخ له من الناحية التقليدية بـ (٦٢٨ - ٥٥١ ق. م) والواقع أنه ربما عاش فى فترة مبكرة عن ذلك التاريخ ، ونحن لا نعرف

---

(١) جوبى Gobi صحراء رملية تقع فى الصين ومنغوليا ، جردتها الرياح من معظم تربتها (المترجم) .

عن تفاصيل حياته إلا أقل القليل ، رغم أن التقوى - وهذا شيء لا مفر منه - قد جمّلت الحكايات التى تروى عنه بعاطفة الحب . لقد أثار تعليمه المبكر عداوة خصومه مما اضطره إلى الهرب . وفى موطنه الجديد ، وجد تلميذاً فى صورة حاكم محلى هو فشتاسبا Vish-taspa وأصبح زرادشت منذ ذلك الوقت شخصية على درجة كبيرة من الأهمية فى الأمور المحلية ، وتزوج ، وأنجب بنتاً وولدين . وتقول وثائق التراث إنه قتل فى سن السبعين .

وصلتنا تعاليم زرادشت فى سبع عشرة ترنيمة من ترانيمه المسماة « جاثا Gathas »[1] وعلى الرغم من أنه يصعب ترجمتها ، فإن حماسه ، وحبه لله ، وحكمته كانت أموراً مذهلة . إن الله عند زرادشت هو السيد المهيمن الحكيم ، أهورامزدا ، خالق السموات والأرض ، وهو الأول والآخر . ومع ذلك فهو أيضاً الصديق الذى دعاه من البداية ، لا يمكن أن تكون لله علاقة بالشر ، فروحه المقدسة هى التى تقيم الحياة ، وتخلق الرجال والنساء . وتعارضه الروح الشريرة أو القوة المدمرة التى تتسم بالنوايا الشريرة ، والتكبر والكذب، وعلى البشر أن يختاروا بين هاتين القوتين المتعارضتين أو بين التوأم من الآلهة ، فإن سلكوا طريق الشر ، فسوف تمتلىء حياتهم بالأفكار الشريرة والكلمات الشريرة ، والأعمال الشريرة، وإن سلكوا طريق الحق فسوف يشاركون فى العقل الخير ، ويبلغون الكمال والخلود ، والورع، وملكوت السماوات ، وكلها جوانب من الطبيعة الإلهية .

ومع ذلك فالصراع بين الحق والباطل ليس أزلياً ، إذ سوف تأتى « لحظة التحول الأخيرة فى العالم » عندما يلتحم الجيشان العدوان الكبيران ، وسيكون على الرجال والنساء أن يخضعوا للاختيار العظيم « عن طريق النار » و « سوف تتحقق العدالة » ، ويتجدد « الكل من جديد » بواسطة « المحسنين » أو المخلصين للدين الخير الذين يقمعون الهوى بأعمالهم العادلة ، وبنشرهم للتعاليم الحكيمة . وكل من يعمل على قمع الباطل فهو « المخلص » وهو لفظ ينطبق على زرادشت نفسه بصفة خاصة .

وعلى الرغم من أن زرادشت أدان معظم التراث القديم فإنه لم يتخلص منه تماماً ، فهو بوصفه كاهناً قد وضع عدداً من ترنيماته فى الشكل التقليدى المأثور ، ورأى أن طقوس النار القديمة هى رمز النور والقانون الكونى لله ، فاستخدمها فى صلواته ، كما أن بعض صفات الإله - على أقل تقدير - هى تعديلات للأفكار الآرية القديمة كفكرة الحق مثلاً . ولقد كان على استعداد ـ كذلك ـ لاستخدام الصورة المعتادة لمحاسبة الفرد بعد الموت ، لكن

---

(١) كلمة « الجاثا » معناها الغناء أو الإنشاد ، وهى أهم أجزاء الأبستاق وأكثرها قدامة (المترجم) .

كل ما أخذه من أفكار قد عدله وشكله من جديد بطريقة فريدة ، فحبه لله تطلب منه أن يعمل من أجل العدالة ، والوفاق الاجتماعى ، وأن يعارض الأعمال المدمرة التى يقوم بها الغزاة من البدو، لاعتقاده بأن الحياة الريفية المستقرة هى نموذج للسلام والحق .

لا مندوحة لتعاليم مؤسس أى دين من أن تتطور وأن تتعدل عن طريق أتباعه ، ولم تكن الزرادشتية استثناء من هذه القاعدة . فأفكار زرادشت قد قننت وعدلت وتلاءمت مع أفكار العصر وحاجاته . ولم يفسد أتباعه تعاليمه عمداً ، ولكن يبدو أنه حدث « تلاقٍ والتحام » بين تعاليمه وبين الإيمان التقليدى فى التراث ، وكانت النتيجة إيماناً عميقاً يعبر عنه بطريقة أسطورية .

٢- المصادر :

الكتاب المقدس عند الزرادشتيين هو الأبستاق Avasta [١] وليس من المرجح أن يكون قد تم تدوينه قبل القرن الخامس الميلادى . لكن جزءاً من مادة هذا الكتاب يرجع إلى ما قبل هذا التاريخ بفترة طويلة [٢] ، وربما يرجع لما قبل الحقبة الزرادشتية . ولسوء الطالع لم ينج الأبستاق كله من تخريب الزمن . وكل ما بقى منه هى ترنيمات زرادشت « أو الأناشيد Gathas » ونصوص الطقوس الدينية الرئيسية (اليسنا Yasna [٣] والونديداد Vindidad) [٤] وترنيمات أخرى (هى اليشتا Yashts) والصلوات [٥] وفى القرن التاسع

---

(١) « الأبستاق » هى الترجمة العربية القديمة لكلمة Avesta الفارسية التى تعنى الأصل أو المتن (المترجم) .

(٢) فقدت جميع نسخ الأبستاق بعد غزو الإسكندر لفارس عام ٣٣٠ ق . م ، وفقدت معها تفاسيره والمؤلفات التى كانت تشتمل على شئ من أجزائه ، ثم بدأ ملوك فارس فى القرن الأول الميلادى فى تدوين ما بقى من حوافظ الناس من الأبستاق ، وأكملوا هذا العمل فى القرن الثالث ثم فى القرن الخامس وهكذا (المترجم) .

(٣) سفر « اليشنا » ومعناها العبادة أو التسبيح ، يشمل أدعية وصلوات كان يتجه بهما إلى الله وملائكته والكائنات المقدسة (المترجم) .

(٤) « الونديداد » تعنى حرفياً القانون المضاد للشياطين ، وهو يشبه سفر اللاويين فى العهد القديم من حيث أنه يوضح التعاليم التى يخضع لها رجال الكهنوت من الزرادشتيين ، كما يتضمن وجهة نظر الزرادشتية فى الموت والزواج وغيرها من المشكلات الاجتماعية (المترجم) .

(٥) إحدى وعشرون ترنيمة تتلى فى مديح الملائكة المشرفين على أيام الشهر (المترجم) .

الميلادى تم تدوين عدد من الكتب الزرادشتية للدفاع عن « ديانة الخير » ضد الدعاية المسيحية ، والإسلامية ولشرح الإيمان لرجل الشارع . ولما كانت قد كتبت باللغة الفارسية الوسطى ، أو البهلوية ، فقد كانت ملخصات موجزة ، وشروحات على الأبستاق ، وهى تتحول - فى كثير من الأحيان - إلى رصيد مثير للمعتقدات القديمة .

لكن ذلك ليس كل شىء ، فالفلكلور ، والنقوش ، والعملات ، وتقارير الملاحظين الأجانب ، وإيمان الزرادشتيين المحدثين - كل ذلك يضيف إلى معرفتنا بالديانة الإيرانية .

٣- تصور الإله :

والتعاليم الشفهية للديانة الزرادشتية تعلم الناس أن « النسق » والنظام ، والمبدأ ، والقاعدة، وهو ما نراه فى السموات والأرض ، تجعلنا نتعرف على الوجود اللامتناهى للإله القادر على كل شىء ، كما تجعلنا نؤمن به . والزرادشتيون يحبون العالم ، ويؤمنون بأن الحياة تعلمنا « أن الله هو الموجود الأعظم ، والأفضل ، والأسمى من حيث الفضيلة والاستقامة والخير » (ج. ج. مودى J. J. Modi « التعاليم الشفهية للديانة الزرادشتية ، بومباى ١٩٦٢ ص٦ وما بعدها) .

الكلمة الأولى فى الديانة الزائفة هى القول بأن الشر يأتى من الخالق [١] ، فالله لا يمكن أن يكون مسؤولاً عن الشر ، لأن الشر جوهر ، مثله مثل الخير ، وكل منهما يرجع فى النهاية إلى سبب أول هو الله ، و« الشيطان : أهرمان Ahriman » الموجود بصفة مستمرة ، والمسؤول عن كل شرور العالم ، وعن الأمراض ، والموت والغضب والتهم [٢] . وبما أنهما جوهران متعارضان أساسيان فهما لا محالة يشتبكان فى صراع .

ولكل منهما فى هذا الصراع قوى خاصة ، وتصبح صفات الإله كالاستقامة والخلود ... إلخ التى عرضها زرادشت أفراداً متميزة ، إن لم تكن كذلك بالفعل ، فهم الخالدون الستة (الملائكة المقربون « أمهر اسباند Amahraspands ») وهم يجلسون أمام

---

(١) « تعاليم المجوس »ترجمها ر . ك . تسنير ، ونشرها د . م . مارن ، لندن ١٩٥٦ ص ١٩٤ (المؤلف) .

(٢) « أهورامزدا » مركبة من ثلاث كلمات هى « هو » - « را » - « مزدا » ومعناها على التوالى « أنا الوجود خالق » أو « أنا خالق الكون » ، ولقد أطلق الله على نفسه فى سفر الخروج اسم الوجود أيضاً إصحاح ٣ - ١٤ ، أما أهرمان فهى تعنى الخبيث أو القوى الخبيثة (المترجم) .

عرش الإله ، ولهم مكانة خاصة فى طقوس الزرادشتيين ؛ لأنهم يحرسون العناصر التى يتألف منها العالم (النار ، والتراب ، والماء .. إلخ) ومع ذلك فليسوا هم الكائنات السماوية الوحيدة ، فهناك أيضاً الظاهرون أو اليازات Yazata أو الموجودات المعبودة ، وكثيراً ما تمت المقارنة بين وضع هذه الموجودات ووضع الملائكة والطبقات العليا من الملائكة .

وعدد « اليازات » من الناحية النظرية عدد هائل ، ولكن من الطبيعى أن تكون بعضها شخصيات مهيمنة ، وقد كانت فى العادة هى الشخصيات الآرية القديمة ، وبغض النظر عن الأساطير ، فإن الطابع المجرد للقوى السماوية يبقى على حاله ؛ إذ لا تزال تمثل : النية الطيبة ، والحقيقة ، والسلام ... إلخ .

وفى معارضة القوى السماوية توجد حشود الأرواح الشريرة ، وجماعة الشياطين ، ونادراً ما تمثل فى صورة أفراد كمقابلاتها السماوية ، لكنها تعبر عن طبيعتها على نحوٍ فعال ، وتتجمع التفصيلات الكبرى فى صورة الشياطين الرئيسية ، الذين يعارضون «الامهارسباند» أو الملائكة المقربين . فهم رؤساء الشياطين فى الارتداد عن الدين ، والفوضى والأفكار الشريرة ، والعصيان ، والجوع والعطش ، وقيل ذلك كله : فى الكذب .

٤- فهم العالم :

تاريخ العالم هو تاريخ الصراع بين الله والشيطان ، وينقسم هذا التاريخ إلى أربع فترات تمتد كل منها ثلاثة آلاف سنة : فى الفترتين الأولى والثانية كان الله والشيطان يجهزان قواتهما . أما فى الفترة الثالثة فقد اشتبكا فى الصراع . وفى الفترة الأخيرة سوف ينهزم الشيطان فى النهاية . وفى بداية الخلق اخترق الشيطان استحكامات السماء ، وهاجم الإنسان الأول والحيوان الأول بالمرض والموت ، فهو لا يقدر إلا على التدمير ، ولكن فى اللحظة التى يحقق فيها انتصاره الظاهرى ، تنبعث من الإنسان والحيوان معاً بذور تؤدى إلى ظهور الحياة حتى يتأكد دوام الخلق الطيب وهزيمة الشيطان . إن العالم ينتمى إلى الله نفسه ؛ ولذلك فإن الزرادشتيين ـ على خلاف أتباع بعض الديانات الأخرى ـ لا يعتقدون أن المادة شر . والواقع أن الشيطان ـ لا الكائنات البشرية ـ هو الذى يوجد فى عالم مادى غريب ، وهو لا يستطيع أن يتخذ شكلاً مادياً وإنما يبقى فى العالم متطفلاً محاولاً ـ عبثاً ـ تدمير أعمال الله .

٥- الرجال والنساء فى العالم :

إن الناس ، أو الصور البشرية لذاته السماوية (أى الفرفاشى Fravashi [١]) هم ذوات حرة فى استطاعتهم أن يختاروا اتّباع الله أو اتّباع الشيطان ، فإذا ما اختاروا الحق فإنهم يساعدون الله على نصره النهائى . واختيارهم للحق يعنى قبولهم للعالم على نحو ما هو عليه، أعنى عالم الله . لكن الزرادشتيين لم يقابلوا بين الروح والجسد كما فعل القديس «بولس» ؛ لأن النفس والبدن عندهم وحدة واحدة ، وإذا ما انسحب المرء من العالم كما يفعل الناسك ، فإنه بذلك ينبذ عالم الله ، ومن هنا كان الزهد خطيئة كبرى مثله مثل الانغماس فى الشهوات . وعلى الرجال واجب دينى يفرض عليهم أن تكون لهم زوجة وأطفال وبذلك يزيدون من أتباع ديانة الخير ، أو من المؤمنين بالأفعال المقدسة . كذلك حرث الأرض وفلاحتها ، ورعى الماشية . ولما كانت الصحة هبة من الله ، فإن على جميع البشر أن يسعوا إليها لكى تصح أجسامهم « فالعقل السليم فى الجسم السليم ، وهذا بدوره يمكن الإنسان من القيام بالأعمال الصالحة » [٢] .

والديانة الزرادشتية فى جوهرها ديانة مرحة ، فمثلاً فى اليوم المخصص من أيام الشهر لإله يوم الحساب ، لا ينصحون المرء أن يكتئب .. « أما فى يوم رشن Rashn [٣] فالحياة مرحة لك أن تفعل ما تشاء فى قدسية » [٤] إن عدم احترام الآخرين والعادات السيئة ، والشعور بالملل يعد من الخطايا ، فى حين أن استمتاع المرء ذاته بالحياة ومساعدة الآخرين على أن يفعلوا ذلك مسألة أساسية فى الدين ، ولابد للزرادشتى أن يسلك باعتدال فى كل ما يفعله سواء أكان رجلاً أم امرأة ، فبذلك يقضى الأمر الإلهى .

للزرادشتية ، إذن ، أخلاق اجتماعية قوية ، وفى مقابل الهندوسية ، نجد أخلاقياتها فى أساسها إيجابية فعالة ، « فالعمل هو ملح الحياة . لكن خلق الشخصية لا يعبر عنه فقط

---

(١) الفرفاشى : أرواح مرشدة نقية للبشر ، فهى تقود الإنسان فى هذه الحياة الدنيا ، ثم ترشد الميت إلى مستقره الأخير . ولقد جاء فى الأبستاق أن هناك فرفاشياً لجميع الأشياء الطبيعية ، ولكن لا يوجد للأشياء المصنوعة ، فمثلاً . يوجد للأشجار ولا يوجد للكراسى أو المنضدة (المترجم) .

(٢) مودى ـ المرجع السابق ص ٢٩ وما بعدها (المؤلف) .

(٣) رش : اسم اليوم الثامن عشر من كل شهر شمسى ـ المعجم الذهبى للغة الفارسية ص ٢٩٧ ـ . محمد التونجى (المترجم) .

(٤) انظر كتاب تسينر « تعاليم المجوس » السالف الذكر ص ١٠٨ (المؤلف) .

فيما يفعل المرء ويقول رجلاً كان أو امرأة ، بل بأفكارهما . ولا بد للناس أن يقهروا بعقولهم الشكوك والرغبات السيئة ، وأن يقهروا الجشع بالرضا ، والغضب بالصفاء والسكينة ، والحسد بالإحسان والصدقات ، والحاجة باليقظة ، والنزاع بالسلام ، والكذب بالصدق » (نصائح الحكماء القدامي) [1] .

٦- التعبير الشكلى للإيمان الزرادشتى :

للزرادشتية ، كالهندوس والسيخ ، رموز تذكرهم بدينهم كجزء من زيِّهم اليومى : الرمز الأول (الكوشتى) Kushti) وهو خيط مقدس به اثنان وسبعون خيطا ، ترمز لأسفار «اليسنا yasna » ، وهى تعقد وتربط مرات عديدة فى اليوم تعبيراً عن التصميم الدينى والعزم الأخلاقى معا . والرمز الثانى : يرتدون قميصاً Sandre [2] يرمز إلى الدين . ويرتدى الكهنة أردية بيضاء ، ويضعون عمامة على الرأس ، وقناعاً على الفم أثناء تأديتهم لبعض الطقوس ليتجنبوا تلويث النار المقدسة بأنفاسهم !

وهناك صلوات بعدد أقسام اليوم الخمسة [3] ، كالصلاة مع غروب الشمس ، واحتفالات لجميع المناسبات الكبرى فى الحياة : فى الميلاد ، والبلوغ ، والزواج ، وإنجاب الأبناء والموت .

والموت من عمل الشيطان ، وكذلك كانت الجثة مستقر الشياطين ، وكلما كان الميت صالحاً ازدادت قوة العمل الشيطانى ، ولما كان إحراق الجثة أو دفنها يدنس العناصر المادية ، فلا بد أن تعرض الجثث فوق « أبراج الصمت » لتلتهمها الطيور الجارحة . ومادام ميلاد الطفل يمكن أن يجلب الموت بسهولة ، فلا بد من إحاطته بالوصفات الطبية ، والحرمات ، ولا بد للمرء أن يمر بطقوس التطهر قبل أن يقوم بأى عملٍ رئيسى من أعمال العبادة ، وكثيراً ما يتم الاعتراف بالخطايا التى ارتكبت عن طريق التفكير أو الكلام أو العمل

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ (المؤلف) .

(٢) تسمى بالفارسية سدرة ، وهى « مريول يلبسه الزرادشتيون منذ سن البلوغ » المعجم الذهبى فى الفارسية (المترجم) .

(٣) فُرِضَ على أتباع الزرادشتية أن يؤدوا خمس صلوات فى اليوم ، هى صلاة الصبح « كاه هاون » ، وصلاة الظهر « كاه إرقون » ، وصلاة العصر « كاه إيزن » ، وصلاة الليل « كاه عيوه سرتيرد » ، وصلاة الفجر « كاه إشهن » ، وهناك صلوات خاصة أخرى (المترجم) .

وهناك نوعان من الطقوس المركزية ، طقوس النار وطقوس القربان (الهوما Haoma) والنار رمز « أهورامزدا » وابنه ، ولا بد أن تحفظ بعيداً عن أى تلوث ، فلا ينبغى أن تراها الشمس ولا عيون غير المؤمنين ، ولا بد أن تحفظ فى معبد للنار . وهناك عدد من النيران المقدسة يسهر على خدمتها الكهنة بحب وبصفة مستمرة ، والنار الرئيسية هى بهرام -Bah ram أو ملك النيران الذى يتوج ويوضع على العرش ، ولا يكتفى بتنصيبه فحسب . وعندما يزور البارسيون Parsis [١] النار يضعون على جباههم علامة بالرماد رمزاً للتواضع، والمساواة ، وكمصدر للقوة .

والهوما Haoma [٢] نبات ، لكنه أكثر من ذلك ، فهو الإله «هوما» على الأرض وفى طقوس الهوما يُسْحَق الإله ، ومن العصير يستخرج شراب الخلود . وفى هذه القرابين الخالية من الدماء يكون القربان فى آن واحد هو الإله والكاهن والضحية ، ويقوم المؤمن بالتهام هذا القربان الإلهى مستبقاً بذلك القربان الذى سيقام فى نهاية العالم ويجعل جميع البشر خالدين .

٧- غاية التاريخ :

توزن أفعال الإنسان بعد الموت بميزان ، فمن رجحت حسناتُه سيئاته انتقل إلى السماء، ومن رجحت سيئاتُه حسناته ذهب إلى الجحيم حيث ينال العقاب المناسب للجريمة . لكن ذلك لا يعنى النهاية ، فالجحيم الأبدى فى نظر الزرادشتية هو التعاليم اللاأخلاقية . والإله الطيب لن يسمح لعباده أن يعانوا إلى الأبد ، لأن الغرض من العقاب هو الإصلاح ، حتى إذا جاء يوم البعث أمكن أن يقوم الجميع - بفضل المخلص - لمواجهة الحساب الأخير ، عندئذ، وعندما يصبح الجميع أنقياء فى النهاية ، فإن الشيطان وجميع أفعاله سيتم تدميرها فى النهاية . أما التفرقة بين السماء والأرض فسوف تُقْهر ويتم التغلب عليها ، بحيث يتمكن الجميع من عبادة الله والحياة معه فى مجده الكامل .

---

(١) البارسيون : هم أتباع الديانة الزرادشتية أو المجوس كما أطلق عليهم اليونانيون عندما فتحوا فارس (المترجم) .

(٢) هوم : نبات بدون أوراق ، ثمره يشبه عنب الثعلب ، وهو سُمّى . « المعجم الذهبى » سالف الذكر (المترجم) .

٨- الحركات الدينية الأخرى فى إيران :

(أ) الزرفانية Zurvanism (١)

كان إله زرادشت عند كثير من الإيرانيين إلهاً غير مقنع ، فرغم أنه خيِّر تماماً فهو محدود بقوة الشيطان . والإلهان « أهورامزداً وأهرمان » عند زرادشت أصبحا عند الزرفانيين شيئا واحداً صدر عن واحد لا تمايز فيه يجاوز كل ثنائية ويسمى زرفان Zurvan وهو لا متناه من حيث الزمان والمكان . فزرفان هو الإله ذو «الوجوه الأربعة » وتمثل هذه الأوجه أو الصفات : الإنجاب والميلاد ، والشيخوخة ، والعودة إلى اللامتناهى ، كما تمثل عصور العالم وهكذا نرى داخل « الواحد » جميع مظاهر الحياة : النور ، والظلمة ، والحرارة ، والبرودة .

وتخبرنا الأسطورة الأساسية فى هذه الديانة أن «زرفان » أراد أن ينجب ولداً ، وبعد أن ظل يقدم القرابين لمدة ألف عام تشكك فى إمكان تحقيق رغبته ، وفى اللحظة التى شك فيها تم الحمل فى توأم : « أهورامزدا » وهو التجلى الواضح لكل ما هو خيِّر ، « وأهرمان » (الشيطان) وهو التجلى لشك « زرفان » ، وبسبب أن « أهرمان » كان الأول فى الدخول إلى العالم ، فقد أصبح حاكماً لمدة تسعة آلاف سنة . أما « أهورامزدا » فقد أعطى سلطة الكهنوت والنصر النهائى . وهذا الوضع المتساوى للشخصيتين من الناحية النظرية أدى إلى تقديم القرابين إلى « أهرمان » بوصفه قوة عليا لابد من استرضاءها ، وقد تفسر لنا السر فى تقديم القرابين إلى الإله أرمانيوس فى الديانة المترية .

ويمكن أن نتبين عدة مؤثرات مختلفة فى الزُرفانية بعضها بابلى والآخر هندى وإغريقى. والنتيجة وجود أكثر من مدرسة فكرية : المدرسة االقدرية التى تؤمن بأن العالم تحديد للزمان (زرفان) وترى الموجودات البشرية دُمى فى يد القدر ، وبهذا تنكر مفهوماً أساسياً عند زرادشت وهو الإرادة الحرة . كما ينكر آخرون أن يكون العالم قد خلق من عدم بفعلٍ من أفعال الإرادة ، ويقبلون الحركة التطورية للمادة ، وهم بذلك ينكرون الإله الخالق عن زرادشت . كذلك تنكر هذه الزُرفانية المادية الإيمان بالثواب أو العقاب المقبل فى الجنة أو النار ، وربما كان هذا « التحديث » للزرفانية مجرد حركات ثانوية فحسب .

---

(١) زرفان : هو إله الزمان المتناهى ، والقدر المسيطر الذى يؤثر من بعيد فى مصير البشر .
والزرفانية : صورة معدلة من الزرادشتية بعد أن أصبحت الأخيرة ثنائية (المترجم) .

أما الأخلاق الزرفانية فنحن لا نعرف عنها إلا القليل ، وربما آمن الزرفانيون بتأثير البوذية أن الشر الأساسى فى الجنس البشرى إنما يكمن فى الانحراف أو الخطأ العقلى (أو ضيق الأفق) أو الجشع الذى يتجلى مادياً فى صورة الشهوة وعقلياً فى صورة الجهل . ويرى هذا المذهب أن النساء هُنَّ المصادر المباشرة لكثيرٍ من الشرور فى العالم بغوايتهن للرجال للسير فى طريق الانحراف أو الخطأ العقلى . وهكذا تبتعد هذه الأخلاق عن الأخلاق الزرادشتية وتقترب من ديانات أخرى متنوعة .

غير أن تجديد الإيمان فى الزرفانية غير واضح ، فليس ثمة نصوص إيرانية تشير إلى هذه الفرقة ، دع عنك أن تشرح معتقداتها . والشواهد التى لدينا عنها مستمدة من مؤلفين أجانب يرجع تاريخ مصادرهم إلى القرن الرابع قبل الميلاد ومن نصوص غريبة يمكن أن تؤخذ كتطويع للإيمان التقليدى لكى يتلاءم مع الزرفانية . وليس فى استطاعتنا أن نقول متى بدأت هذه المدرسة ، فبعض الباحثين يذهب إلى أن الإلهين التوأم فى الزرادشتية هما تعديلان لإلهى الزرفانية ، فى حين يُوَحِّد البعض الآخر بين التمثال البرونزى فى القرن الرابع عشر ق. م وبين صورة زورفان Zurvan ، لكن ذلك مجرد تخمين . ولا شك أن الحركات نمت فى عهد الأخمينيين (٥٥٠ - ٣٣٣ ق. م) [(١)] وعصر البارثيين (٢٥٠ ق. م - ٢٤٧ ب. م) [(٢)] ، وربما شهد العصر الساسانى (٢٤٧ - ٦٣٥م) [(٣)] الصراع بين الكنيستين : الزرفانية والزرادشتية . بل ربما كانت هناك حركات مختلفة داخل الزرادشتية، تمارس كلها طقوساً واحدة . وربما كانت الزرفانية حركة أكثر منها فرقة متميزة ، ولو صح ذلك لكانت قوة مؤثرة .

(ب) الديانة المترية Mithraism :

كان مترا Mithras ، الإله الآرى الأصل ، يعبد فى إيران كإله للعقود والاتفاقيات

---

(١) الأخمينيون : أسرة حكمت فارس أكثر من قرنين (٥٥٠ ـ ٣٣٠ ق . م) ويرجع اسمها إلى جدها الأكبر أخمينيس الذى كان حاكماً على قسمٍ جبلىٍّ بجنوب غربى إيران (المترجم) .

(٢) هى الفترة التى خلفت السلوقيين فى فارس فى منتصف القرن الثالث ق . م (المترجم) .

(٣) هى الفترة التى تلت عصر البارثيين حيث قامت إمبراطورية جديدة حوالى ٢٦٦ ق . م ، تحت حكم الأسرة الساسانية ، وازدهرت حتى استولى العرب على حضارة فارس ، وحل الإسلام مكان مذهب زرادشت حوالى عام ٦٤٢ (المترجم) .

(وكلمة مترا ، تعنى فعلا العقد أو الاتفاق) وهو يوصف بأنه محارب قوى جبار ، وهو الذى يتعبد له المحاربون وهم على ظهور جيادهم [١] قبل ذهابهم إلى المعركة . وبوصفه حارساً للحقيقة فهو قاضى الأرواح بعد الموت ، وبوصفه الحافظ للاتفاقات والعقود ، فهو الذى يحدد متى تنتهى فترة حكم الشيطان . وينتظر قدومه « وسط مظاهر الخنوع والذل » فى أيام النصر .

ولقد ذكر بعض الكتاب المسيحيين عرافة هستاسبيس Hystaspes المتأخرة ووحدوا بينها وبين عرافة « ميترا » التى تنبأت بمقدم الإله فى نهاية العالم لتدمير الأشرار بالنار ، ولإنقاذ الأبرار . وهناك عدد من النصب التذكارية الرومانية التى تصور مولده . كما تتضمن بعض النصوص المسيحية فى القرن الخامس وجود « أسطورة عن مترا » تنبىء بظهور نجم يقود المجوس إلى المكان الذى سيولد فيه المخلص[٢] .

كان « مترا » إلهاً شعبياً هاماً فى تاريخ إيران ، وكان الملوك (الأخمينيون) يتضرعون إليه فى النقوش التى بقيت لهم ، كما كانت الملوك والعامة معاً يركّبون أسماءهم من اسم مترا (مثل ميترادئيس) ، وهو لا يزال يشغل مكاناً هاماً فى الطقوس الزرادشتية .

من الصعب أن نحكم إن كانت هناك على الإطلاق عبادة مستقلة لمترا فى إيران ، غير أنه من إيران انتشرت عبادته كعقيدة متميزة شرقاً إلى الهند وغرباً إلى بلاد ما بين النهرين ، وآسيا الصغرى . والحكايات الأرمينية وكذلك الأسماء التى تحمل صفات إلهية ، والنقوش البارزة ، والكتابات المصرية والأناضولية ، تشهد على انتشار هذا الإله ومدى شعبيته فى الشرق الأدنى القديم فى العصور السابقة على ظهور المسيحية .

لقد دخلت « المترية » روما لأول مرة عام ٦٠ ب . م ، وفى القرن الثانى الميلادى كانت قد انتشرت داخل الإمبراطورية حتى بريطانيا ، وقد نقلها الجنود أساساً فكانت ديانة للذكور بصفة خاصة . وفى أثناء التعميد عندما كان العضو الذى يتم ترسيمه يخضع لاختبارات بدنية وروحية معاً ، فإنه كان يعلن ارتداده عن جميع الآلهة ما عدا « مترا » ،

---

(١) انظر : جبرشفتش « أنشودة أبستاقية لمترا » ص ١٤٥ (المترجم) .

(٢) كانت هناك نبؤات من هذا النوع بمولد السيد المسيح إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه فى المشرق ... ؟ ! وإذا النجم الذى رأوه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبى ، فلما رأوا النجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً . إنجيل متى . الإصحاح الثانى ١ ــ ٢ ، ٩ ــ ١٠ (المترجم) .

كما كان يتوقع منه أن يخلص الولاء لدستور أخلاقي دقيق . وبالمقابل كان يعد بالمشاركة في البعث أو القيامة .

وكان الاعتقاد الأساسي في هذه العبادة هو التضحية بثور يقوم بها الإله مترا . وكان هذا عملاً خلاقاً وفداءً في آن واحد ، فالمتعبد ينظر إلى الوراء حيث تمت التضحية في البداية عندما خرجت الحياة من الموت ، ثم ينظر إلى الأمام فيجد أن التضحية النهائية هي التي سيقوم بها مترا عندما يكون على آخر الحيوانات أن يموت ليعطي للناس أكسير الخلود . ويمكن تذوق هذه الهبة الإلهية مقدماً عن طريق المشاركة في التناول المنظم لوجبة الخبز والخمر التي يمثل فيها الكاهن الإله مترا (١) .

(جـ) المانديون Mandeans :

المانديون أو النازوريون Nazoreans ، فرقة صغيرة لاتزال موجودة في جنوب العراق ، ومجاورة لإيران ، ويدعي أعضاؤها أنهم من سلالة يوحنا المعمدان ، ويعتقدون أن أسلافهم فروا إلى بارثيا Parthia (٢) عندما سقطت أورشليم . ومفرداتهم اللغوية ومذهبهم الرمزي خليط من العناصر السامية والإيرانية التي يغلب عليها المضمون الغنوصي . وأول إعداد لطبع نصوصهم المكتوبة بالماندية كان في القرن الثامن الميلادي ، وإن كانت محتويات هذه النصوص أقدم من ذلك بكثير . وهم جماعة سرية خفية للغاية ، والكهنة هم وحدهم المسموح لهم بقراءة أكثر النصوص الدينية أهمية .

والمانديون يخشون اللغة التشبيهية (التي تُشبّه الإله بالبشر) ولهذا يصفون « المطلق » بأنه الكائن الأعظم الذي لا شكل له ، ويلقبونه « بملك النور » ، و« سيد العظمة » ، و «مانا العظيم » . وملك النور يقاتل ضد مملكة الظلام . ولقد تم خلق العالم عن طريق فيوض صدرت عن ملك النور ، ومن أهم الموجودات التي صدرت عنه هو المخلص « ماندا هايي Manda d'Haye » (أو معرفة الحياة) ومن هنا جاء اسم هذه الفرقة .

---

(١) هذه الطقوس موجودة في الديانة المسيحية فيما يسمى بالتناول أو العشاء الرباني الذي يتناول فيه الشخص المسيحي مع القسيس خبزاً وخمراً ليتحد مع المسيح ، وذلك اعتماداً على ما قاله السيد المسيح « من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه » إنجيل يوحنا ٤ ـ ٥٦ (المترجم) .

(٢) أرض أو بلاد البارثيين أو الفرثيين شمالي إيران ، وقد حكموا من (٢٥٠ ق . م إلى ٢٤٧ بعد الميلاد) (المترجم) .

وكل شيء في هذا العالم المادى له ما يقابله في العالم السماوى ، والكون نفسه شبيه في شكله بخالقه وهو نموذج الإنسان . وكما هي الحال في كثير من الديانات فإن المانيين يعتقدون أن قصور البدن من الناحية الطبيعية لا يعبر عن الموجود البشرى في طبيعته الحقة ، ويعتقدون أن الروح عندما تكون في العالم فهي في المنفى ، وأنها شعاع من النور سجين المادة منذ بداية الخلق . وعلى حين أن البدن خلقته الكواكب ، فإن الحياة والتنفس جاءا من عالم النور . غير أن الروح لا تتخلص من أسر البدن عن طريق خضوع هذا الأخير وإذعانه ، كما تذهب مذاهب النسك والزهد . إذ يمكن للناس أن يستمتعوا بطيبات الحياة في اعتدال . إن الكواكب والنجوم هي التي تعرقل تحرر النفس ، وهذا ما تفعله أيضاً تلك الديانات الزائفة كاليهودية والمسيحية . وفي نهاية العالم عندما يتم التخلص من الأرض والكواكب فإن أرواح الأتقياء الأبرار سوف تتحرر ، ويمكن كذلك أن يتم التحرر هنا والآن نتيجة لعمل هبيل زيورا Hibil Ziwa وهو مخلص اقتحم العالم السفلى وهزم أرواح الشر . والتعميد يحرس الإنسان ويحميه من الأرواح الشريرة ، وهو جوهرى للخلاص ، فهو تطهر للنفس والبدن في آن واحد ، وبعث جديد للحياة . وتشكل الوجبة المقدسة جانباً من العماد كغيره من الطقوس الهامة .

وهناك طقوس أخرى أساسية منها « الماسيكتا Massiquta » أى الارتقاء أو الصعود حيث تعبر الروح إلى عالم النور ، عن طريق ممارسة شعائر التطهر الشهيرة عند وفاة الشخص. وكما كشفت أعداد من النقوش الإيرانية ، فإن مصافحة الأيدى عموماً ، فعل له مغزاه الديني ، فهي تقوم بدور هام في العبادة المانديه حيث تعرف باسم « كوشتا Kushta » وهناك وصف تفصيلي مسهب لجميع الطقوس يجب الانتباه إليه لأن أى خطأ في تأديتها يمكن أن تكون له نتائج رهيبة إلى أقصى حد بالنسبة للكاهن وعضو الجماعة الدينية في آن واحد .

لقد تفشى الطاعون في القرن التاسع عشر وقتل جميع الكهنة تقريباً . ورغم أنه تشكلت طبقة كهنوتية جديدة ذات مراتب مختلفة فإن الكهنة هم الآن جميعهم تقريباً ، من الشيوخ ، ويبدو أنه لن يتم استبدالهم في المستقبل القريب .

(د) المانوية :

ولد مانى (٢١٦ - ٢٧٤م)[(١)] من أسرة بارثية ملكية ، وقضى شبابه فى بلاد ما بين النهرين التى كانت فى ذلك الوقت بوتقة تنصهر فيها كثرة من الديانات الرئيسية . وكانت أول رؤية له فى سن الثانية عشرة ، وشرع فى سن العشرين فى إقامة دينه الجديد . ولما كانت له حرية دخول البلاط الملكى ، فقد استطاع أن يقنع عدداً من القادة المؤثرين بالدخول فى دينه ، وأن ينال حظوة الملك الساسانى « شابور الأول » الذى رافقه فى حروبه فى الغرب . وتجددت الحظوة الملكية حتى الأيام الأخيرة للملك « بهرام » الأول عندما عارضه كهنة زرادشت المجوس بقيادة كارتير Kartir ، وعندما خشوا نجاحه تآمروا عليه لإسقاطه ، ومات مانى وهو فى الأغلال .

أعلن مانى أنه هو الذى جاء ليتمم عمل زرادشت وبوذا والمسيح ، فهؤلاء جميعاً شذرات ناقصة من الحقيقة ، لكن حتى هذه الشذرات قد أفسدها أتباعهم . ولقد وحّد مانى آلهته بوصفه « رسول النور » مع آلهة المستمعين إليه ، فإذا ما وجه خطابه إلى المسيحين فهو المخلص يسوع ، وعندما يخاطب الزرادشتيين فهو الإنسان الأول « أهورامزدا » أما إله العهد القديم فقد كان « مانى » يبغضه . ولقد مكّن ذلك المانويين فى عصور الاضطهاد أن يقدموا أنفسهم بوصفهم مسيحيين أو زرادشتيين ، وربما كانت هذه الخصلة هى التى استحسنها الملك شابور . وتكمن الثنائية Dualism فى قلب تعاليم مانى : فالله ، أب العظمة ، يعارضه أمير الظلام ، والاثنان عنصران أوليان ، والعالم مخلوق من أجساد حكام الظلام أو الأرشونتيين Archontes أما ما سجن داخل المادة فهى ومضات من نور ، أو شذرات من الإنسان الأول الذى سحبته الشياطين إلى أسفل ، وتسعى الروح ، فى عالمنا الحالى المؤلف من عناصر مختلفة إلى الفرار من الموت ، وهو عدوها الذى يشبه النسر الكاسر الذى فصلها عن موطنها الحقيقى ، ويتحقق الانعتاق بواسطة الزهد . ومعرفة الطبيعة

---

(١) معنى كلمة مانى بالفارسية : « الفريد ، النادر » ، وهو مانى بن فاتك مؤسس الديانة المانوية التى كانت مزيجاً من الزرادشتية واليهودية والمسيحية ، وكان أبوه من رجال همدان « هاجر إلى بابل وولد مانى هناك، ادعى النبوة بعد أن اطلع على الأديان الموجودة وسمى نفسه « فارقليط » الذى أخبر عنه المسيح ، ومن أقواله « يبشر الأنبياء بأوامر الإله أحياناً من الهند بواسطة زرادشت ، والآن أرسلنى الله لنشر دين الحق فى بابل » و « أرسلنى الله نبياً من بابل حتى تصل دعوتى العالم أجمع » (المترجم) .

الحقة للنفس ، وهزيمة الشياطين عن طريق المخلص الذى تم انقاذه هو نفسه بواسطة الإله من براثن الشياطين ، وعندما تنعتق الروح ، فإنها تصعد إلى الفردوس الجديد الذى يحكمه الإنسان الأول . وفى نهاية العالم ، عندما تتحرر كل ومضات النور التى سجنت فى المادة ، يعود الجسد كله إلى جنة الخلد . وأثناء ذلك يتعرض أولئك الذين لم يتمكنوا من تحقيق الانعتاق فى هذه الدنيا للميلاد من جديد .

وينقسم أعضاء الجماعة المانوية طبقتين : « السماعيون » (وهم الطبقة الدنيا) الذين يجمعون الطعام والضرورات التى يحتاجها « الصفوة » (الطبقة العليا) الذين يتبعون قواعد دينية أعلى . لقد خلق مانى - عن وعى - دينا جديداً ، وزوده بالطقوس والآداب الدينية ، وحرّم الأوثان ، ولكنه كان يؤمن بالقيمة التربوية للفن ، لهذا قرر أن تُجلّد الكتب تجليداً فاخراً ، وأن تُزيّن بالرسوم ، وأن تصاحب الطقوس تراتيل وموسيقى جميلة . وليس من الواضح إن كان لدى المانويين نظام من الطقوس السرية أم لا .

انتشرت المانوية فى كل مكان من الإمبراطورية الرومانية ، وفى بلاد العرب ، والهند والصين . ورغم أن الاضطهاد النفسى والبدنى دمر هذا الدين من قرون مضت ، فقد كان مصدر تأثير فى عدد من الحركات مثل حركتها الألبيجنيز Albigenses [1] فى فرنسا فى العصور الوسطى .

٩- تاريخ موجز للديانة الإيرانية :

هناك ركنان أساسيان فى الديانة الإيرانية هما : الإيمان الآرى التقليدى وتعاليم زرادشت . والتاريخ الدينى لإيران هو قصة تفاعل هذين الضربين من الإيمان تحت تأثير قوى خارجية . ففى عصر الأخمينيين (٥٥٠ - ٣٣٣ ق. م) وهو من أزهى فترات التاريخ السياسى فى إيران - ازدهرت الزرادشتية عندما تسللت إلى ديانة الدولة التقليدية . ويكشف عدد من النقوش الملكية أن الزرادشتية كانت مصدر تأثير على البلاط ، خصوصاً خلال حكم الملك دارا والملك أكسيركس .

---

(١) مجموعة من أعضاء فرقة دينية انشقت عن المسيحية وبشرت بتعاليم مانى الثنائية فى جنوب فرنسا فى الفترة الممتدة من القرن الحادى عشر حتى الثالث عشر ، وجاءت التسمية من أن الحركة بدأت فى مدينة Albigensis فى مقاطعة آلبى Albi شمال شرق مدينة تولز (المترجم) .

كان الكهنة الرسميون فى إيران هم المجوس Magi [1] وهم طبقة مغلقة من الكهنة يتوارثون المناصب ، ومهمتهم خدمة الدين . وأياً ما كانت الطقوس التى تؤدى فهم الذين يقومون بها . وعندما أصبحت الزرادشتية ديانة شعبية ، تولى المجوس فيما يبدو مهمة تعليمها للناس ، ربما دون أن يضعوا فى أذهانهم أنها ديانة أو عبادةمتميزة عن الدين القديم . وكلما عمل المجوس على نشر الديانة الزرادشتية فى إيران ، تآلفت تعاليم النبى الجديد مع الإيمان التقليدى القديم فى مركب واحد ، اتسم بسماته العصر الأخمينى والعصور التى تليه . لقد كانت الإمبراطورية الأخمينية هائلة الاتساع ولهذا كان لاقتران الثقافات أثره على الدين ، فدخلت التماثيل اليونانية فى هذه العبادة ، وأصبح التنجيم البابلى عاملاً رئيسياً فيها .

أصاب غزو الإسكندر الأكبر لإيران عام (٣٣٣ ق. م) ثم مجىء الهلنستية - الإيرانيين بصدمة مروعة ، رغم المحاولات التى بذلها الإسكندر للتوحيد بين الشرق والغرب وتبنّيه لكثير من العادات الإيرانية . وعندما استقلت إيران مرة أخرى كانت تحت حكم البارثيين Parthians (٢٥٠ ق. م - ٢٤٧م) وكان البارثيون أصحاب حضارة أقل تقدماً؛ ولهذا كان من الطبيعى أن يحتفظوا بكثير من التكنولوجيا الهلنستية ، ومن فن العمارة ، ونظام العملة ... إلخ ، ولكن فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ، عادت الثقافة الإيرانية بالتدريج من جديد لتحتل مركز الصدارة ، ويمكن ملاحظة ذلك فى الفن والعملة، وربما بصفة رئيسية فى تأثير الإيرانيين على غيرهم . وإذا كانت الديانة المترية الرومانية قد تطورت عن الصورة الإيرانية لعبادة الإله مترا ، وليس من أحد التوابع الإيرانية مثل بونطس Pontus[2] (الدردنيل) ، فقد انتشرت فى روما نتيجة لتوسع البارثيين نحو الغرب . والمعتقد أن المانديين جاءوا إيران فى عهد البارثيين .

على الرغم من أن الزرادشتية كانت الديانة الرسمية للدولة فى فترة إيران الساسانية (٤٧ - ٦٣٥م) ، فقد كانت هناك أقليات مختلفة من ديانات أخرى منها : البوذية واليهودية والمسيحية ، والماندية ، والمانوية . وعندما تحول الإمبراطور قسطنطين الكبير من الوثنية إلى

---

(١) كلمة المجوس Magi كلمة يونانية الأصل Magos أطلقها اليونان على كهنة زرادشت ، عندما دخلوا فارس بقيادة الإسكندر الأكبر ، والكلمة معناها : العظيم أو الهائل ، وذلك لأنهم برعوا فى السحر ولهذا اشتقت الكلمة الأوربية التى تعنى السحر من اسمهم Magic (المترجم) .

(٢) إله البحر فى الأساطير اليونانية ، وليست له ملامح محددة (المترجم) .

المسيحية . كانت هناك حاجة سياسية ملحة لإيمانٍ يعمل على توحيد الإمبراطورية الشاسعة ضد روما المسيحية وغيرها من التهديدات . لكن سيكون من الخطأ أن نتصور الصراع بين الديانات الإيرانية المختلفة في صورة سياسية فحسب . لقد دخلت إيران منذ عصورها المبكرة في صراعٍ مع مشكلة الشر في العالم ، وكانت هذه هي المشكلة الرئيسية لكثير من الحركات . رفض المانويون المادة بوصفها أصل الشر ، أما المانديون والزرادشتيون فقد أكدوا أن الحياة هبة من الله ، وبالمثل انقسم الزرفانيون والماثريون . صحيح أن الزرادشتية كانت هي الديانة الرسمية للدولة الساسانية ، ولكن الاختلافات اللاهوتية واصلت وجودها تحت سطح العقائد والطقوس التقليدية .

أما الوحدة التي سادت فربما كانت نتيجة للتهديد العام من جانب الإسلام، فالإمبراطورية الإسلامية ضمت إيران عام ٦٣٥م ، وبعد انتهاء القتال لم يكن هناك فيما يبدو ، سوى القليل من الاضطهاد المنظم ، ورغم ذلك فكل من أراد أن يتقدم من الناحية المادية – كان عليه أن يصبح مسلماً ، وكانت هناك جوانب نقص عديدة . غير أن الزرادشتية ظلت باقية محلياً ، ولاسيما في فارس Fars ، ولقد ظهرت في ظل الحرية العقلية في القرن العاشر كتب كثيرة تدافع عن « الدين الحق » .

وأصبح الموقف في إيران صعباً للغاية في الوقت الذي هاجرت فيه جماعات من المؤمنين إلى الهند ، وهناك شكلت جماعات زرادشتية ، ثم تمركز « البارسيون » أو الفرس بعد ذلك في بومباي ، وعلى الرغم من أنهم محافظون أساساً فقد خضعوا لمؤثرات مختلفة أدت إلى تعديل بعض العقائد والممارسات . أما وضعهم في الوقت الحالي فهو بالغ الصعوبة، لقد أصبح كثيرون منهم أثرياء من خلال العمل الشاق ، ولكن ذلك ليس ميزة باستمرار ، لاسيما في البلدان ذات الميول الاشتراكية القوية ، وقد احتفظوا بهويتهم على نطاق واسع بإنشاء مدارس خاصة بهم ، وإن كانت هذه المدارس تقبل الآن غير البارسيين ، ولا أحد يعلم تماماً ما الذي يخبئه القدر .

ولا يعني ذلك أن جميع المؤمنين من الزرادشتيين هاجروا إلى الهند ، فقد بقي الكثيرون منهم في إيران ، ورغم أن الظروف كانت صعبة ، فلا تزال جماعات منهم موجودة بصفة رئيسية في يازد Yazd ، « وكيرمان Kerman » وطهران . ومنحوا حرية العبادة ، ولا يزالون يمارسون طقوسهم في معابد النار، وهياكل الإيمان القديمة . بل يبدو أن بعض

المزارات أو المعابد التى تزعم أنها إسلامية ، إنما هى أشكال معدلة من الزرادشتية ، كما أن آخر شاه قد استخدم ألقاباً إيرانية قديمة ، ولا يزال وضع الزرادشتيين صعباً للغاية ، فهم مشتتون مع عدد قليل من الكهنة(١) .

١٠- أثر الديانة الزرادشتية :

على الرغم من ضآلة عدد الزرادشتيين الذين يمارسون اليوم فى العالم طقوسها عملياً - فقد يزيدون قليلاً عن ١٥٠ ألف فى الهند ، كما يبلغ عددهم فى إيران طبقاً للاحصاء الرسمى لعام ١٩٧٦ حوالى ٢٥ ألف نسمة - فإن الديانة الإيرانية فى الواقع ـ ولاسيما الزرادشتية ـ أدت دورا رئيسياً على مسرح التاريخ الدينى للعالم .

لقد عرف اليونانيون زرادشت ، واحترموه فى عصر أفلاطون . وانتشرت عبادة « مترا » فى كل مكان من الإمبراطورية الرومانية حتى بلغت شمال انجلترا ، فإذا ما انتقلنا إلى الشرق وجدنا أن الفن والدين الإيرانيين كان لهما تأثير عريق على الهند فانتشرت عبادة « مترا » من إيران إلى ماجس Magas فى الهند ، فى القرن السادس وما بعده ، لكن ربما أثارت الزرادشتية قبل ذلك ظهور فكرة المخلص فى الديانة البوذية فى صورة « متريابوذا » ، كما قامت إيران بدور هام بصفة خاصة فى الدين الإسلامى فساعدته على الانتقال من الجزيرة العربية ليكون ديانة عالمية (٢) ، كما ساعدت على نمو الحركة الصوفية . وربما كانت

---

(١) لا نعرف شيئاً اسمه « المعابد » فى الإسلام لأن مكان العبادة هو المسجد ، كما أن تكييف هذه المعابد الإسلامية المزعومة مع الزرادشتية كلام لا معنى له ، لأن الزرادشتية ثنائية فى حين أن الفكرة المحورية فى الإسلام هى التوحيد « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : آية ٤٨ .
أما كلمة « شاه » الفارسية : فهى تعنى ملك أو سلطان ، وكذلك كلمة « بهلوى » التى تعنى ملكى ، ولا علاقة للإسلام بهذه الألقاب . فهى مجرد كلمات فارسية ! (المترجم) .

(٢) مرة أخرى لا نستطيع أن نفهم ما الذى يقصده المؤلف بهذه العبارة الغريبة ، فالمعروف تاريخياً أن الفتوحات الإسلامية بدأت فى عهد الخليفة أبى بكر عندما بعث بأربعة جيوش إلى الشام عام ٦٣٣ م ، وبجيش آخر بقيادة خالد بن الوليد إلى العراق ، ولم ينته عام ٦٣٤ م حتى سيطر خالد على شاطئ الفرات الغربى ثم اتجه إلى فلسطين ، وانتصر على البيزنطيين فى موقعة أجنادين عام ٦٣٤ م ، ودخل=

فكرة المخلص مدينة إلى حدٍ ما للأثر الإيرانى ، لكن ربما كان التأثير الإيرانى الأعظم قد حدث فى تطور الإيمان المسيحى اليهودى . فقد اتفق الأحبار ـ على نطاق واسع ـ على أن التصورات اليهودية المتأخرة عن الشيطان والجحيم والحياة الأخرى ، والبعث ونهاية العالم ، وصورة المخلص قد صبغتها الزرادشتية بصبغتها ، وهى معتقدات كان لها أثرها بغير شك ، فى المفاهيم المسيحية . لقد كانت إيران من الناحية اللاهوتية ومن الناحية الجغرافية جسراً بين الشرق والغرب ، وأسهمت فى مجال الدين مساهمة هائلة .

* * *

= دمشق عام ٦٣٥ م ، وقضى على أعدائه فى معركة اليرموك ٦٣٦ م ، واستمرت الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب فى الميدان الفارسى بقيادة سعد بن أبى وقاص ، وأحرز العرب نصراً باهراً فى القادسية عام ٦٣٧ م ، وسار عمرو بن العاص من فلسطين لفتح مصر عام ٦٣٩ م ، وآلت البلاد كلها للمسلمين بمقتضى معاهدة الإسكندرية عام ٦٤٢ م ، واستؤنفت الفتوحات فى عهد معاوية، فهاجم القسطنطينية ، وغزت جيوشه إفريقيا ... إلخ ، دون أن نجد أثراً لإيران ، كما يقول المؤلف ، فى هذه الفتوحات ولا فيما بعد ذلك من انتشار للإسلام ! فضلاً عن ذلك كله فالإسلام بطبيعته دين عالمى شامل ، ولم ينتظر مساعدة من إيران لينتقل إلى العالمية (المترجم) .

الفصل السابع

الهندوسيـــــــــــة

الهندوسية موضوع واسع ومفهوم محير . ولكى نصف ديناً بلغ تاريخه ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة (وربما أكثر من ذلك) وتعتنقه اليوم مئات الملايين ، وهو فضلاً عن ذلك دين بلا عقيدة محددة [١] ، أو جماعة من الأتباع تختص به ، أو هيئة مركزية ذات ترتيب هرمى – ولكى نصف ديناً على هذا النحو ، فإننا نقوم بمحاولة لا تختلف عن محاولة الأعمى أن يصف فيلاً ، بل إن محاولة تعريفه ذاتها مشكلة عسيرة ، فالحكومة الهندية تُعرِّف الهندوسى ، بالنسبة لقانون الأحوال الشخصية بأنه : الشخص الهندى (ولابد أن نضيف كذلك الباكستانى والنيبالى والسنغالى .. إلخ) الذى ليس مسلماً ولا مسيحياً ولا زرادشتياً ولا يهودياً ! وينبغى علينا من أجل أهداف الدراسة أن نستبعد كذلك البوذى والجينى والسيخى، لكن ذلك لا يخبرنا إلا بما لا تكونه الهندوسية [٢] .

أما من الناحية الإيجابية فيمكن القول إن الهندوسية هى اتباع أو عبادة الإله « فشنو Vishnu » أو « شيفا Shiva » أو الإلهة « شاكتى Shakti » أو تجسيداتهم ، أو مظاهرهم أو أزواجهم أو ذريتهم . وهكذا يندرج ضمن الهندوسيين عدد كبير من أتباع عبادة « راما وكرشنا Rama & Krishna (وهما تجسيدان لفشنو) وأتباع عبادة درجا Durga وسكاندا Skanda وجانيشا Ganesha (وهم على الترتيب زوجة شيفا وابناه) لكن ينبغى أن نستبعد « براهما Brahma » و « سيريا Surya » أى الشمس ، اللذين كان لهما من قبل عبادة خاصة ومعابد خاصة ، كما ينبغى كذلك أن نستبعد قلة هم أولئك الذين يعتبرون التراث الڤيدى Vedic[٣] (هو التعبير الرئيسى عن الدين ، وهو تراث أسبق من التراث الهندوسى . لكن الأهم من ذلك أننا لا بد أن نستبعد أيضاً بحكم هذا التعريف العدد الغفير من الأشخاص الذين يعجزون عن إخبار مندوبى التعداد الرسمى بما إذا كانوا من الفيشناويين Vaishneva أو الشيفتاويين Shaivite وإنما يعبدون فى الأساس ، آلهة محلية ،

---

(١) الهندوسية بالفعل ليست عقيدة محددة لأنها أسلوب فى الحياة أكثر منها مجموعة من العقائد ، ولهذا فليست لها صيغة محددة المعالم ، ومن هنا كانت تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الحجارة والأشجار ، وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة (المترجم) .

(٢) هذا هو ما يسمى فى المنطق : التعريف بالسلب وهو أضعف أنواع التعريفات كلها (المترجم) .

(٣) نسبة إلى الفيدا Veda كتاب الهندوس المقدس ، وهى كلمة سنسكريتيه معناها العلم أو المعرفة (المترجم) .

هذا فضلاً عن أتباع الديانات القبلية الخالصة من شعوب الأدغال والتلال فى مناطق عدة من شبه القارة الهندية الباكستانية .

ولعل أفضل ما نستطيع أن نفعله هو أن نتبع فيلسوف العصر الوسيط الذى ذهب إلى أن أية تعاليم تكون قوية ما دامت لا تعترض طريق الڤيدا ، أعنى ما دامت لا تنكر سمو أقدم النصوص الدينية فى الهند أو فعاليتها أو أزليتها . والواقع أن مثل هذا التعريف واسع بما فيه الكفاية ، ذلك لأنه على حين لا تُقرأ الفيدا اليوم إلا قليلاً ، وليس لها إلا عدد قليل من الأتباع ، فإن كل هندوسى يوليها قدرها من الإجلال ، ولا ينسب صفة الهرطقة إلا إلى أولئك الذين ينكرونها صراحة (من أتباع الجيثية أو البوذية أو السيخ) فهم وحدهم الذين يُنظر إليهم على أنهم هراطقة .

وعلى كل حال فالهندوسية تشتمل على كثرة من العبادات والفرق التى تقترب قليلاً أو كثيراً من الاندماج فى تراث بالغ القدم . وعلى حين أن المفاهيم والممارسات العملية التى يرعاها هذا التراث القديم تؤثر فى هذه العبادات والفرق وتضفى عليها طابعاً هندوسياً مميزاً ، فإن هذا التراث القديم ذاته هو الحصيلة النهائية لمؤثرات ثرية أتت من القارة ، بحيث استوعبت فى داخله جميع الآلهة المحلية ، وآلهة القبائل وكثرة من الطقوس والفلسفات . ولو ركزنا انتباهنا على هذا التراث قديم العهد ـ ولا سيما على الأمناء عليه ، وهم سدنته من الكهنة والعلماء البراهمة ، ومؤلفاتهم الغزيرة ـ لأصبح من الممكن أن نقدم عرضاً مترابطاً للهندوسية .

١- ديانة الغزاة الآريين المحلية :

فى جيوب مبعثرة من شرقى الهند يعيشُ أناس يتحدثون لغات الموندا Munda أى لغات من العائلة الآسيوية الاسترالية التى تشمل كذلك بعض اللغات من جنوب شرقى آسيا واستراليا وفى جنوب الهند ، وأجزاء من وسطها . ومن باكستان يتحدث الناس لغات من الأسرة الدراڤيدية [١] وفيما تبقى ـ أعنى كل الهند شمال جبال بندهيا Vindhya وهبوطاً إلى الجانب الغربى من شبه الجزيرة حتى جوا Goa ـ تسود اللغات الهندو - آرية ، وهى

(١) الدرافيديون : اسم أطلق على أكبر مجموعة من سكان الهند قبل مجئ الآريين إليها ، ويطلق اليوم على مجموعة بشرية كبيرة تعيش بجنوبى الهند ، ويفترض أنهم من سلالة رافيدى ما قبل التاريخ ويتميزون بخصائص زنجية واضحة (المترجم) .

لغات قريبة من الفارسية ومن اللغات الأوربية ، بما في ذلك اللغة الإنجليزية .

ومساهمة « الموند Mund » في حضارة الهند وفي الهندوسية مجهولة تماماً ، وعلى الرغم من أنه لا يحتمل أن يكون إسهاماً عظيماً ، فهو على الأرجح كافٍ لمكافأة جهود علماء اللغات والأنثروبولوجيا الصبورين الذين نحتاج إلى جهودهم للكشف عن هذه المساهمة . وفي مقابل ذلك فإن مساهمة « الدرافيديين » أساسية بغير جدال ، وإمكانات تحديدها تبشر بمزيد من الأمل ، وذلك لأن أربع لغات دارفيدية تراث مكتوب ، وإحداها ، وهي اللغة التاملية Tamil ، تعود إلى ما يقرب من ألفين من السنين . ومع ذلك فإن الدراسات الدراڤيدية لا تزال في مرحلة مبكرة ، ولا يمكن أن نجزم حتى الآن إلا بالقليل في مسألة تأثير العناصر الدراڤيدية في الديانة الهندوسية . أما بالنسبة للآريين فالأمر مختلف ، لأن مساهمتهم في تشكيل الهندوسية هائل ، وهو واضح جداً في معظم الحالات .

لقد غزا الآريون الهند إبان تحركات الشعوب الناطقة باللغات الهندو - أوربية في جميع أرجاء غرب آسيا وأجزاء من منطقة البحر الأبيض المتوسط في الألف الثانية قبل الميلاد ، ولقد كانوا متفوقين في العديد من المميزات العسكرية الحاسمة على السكان الأصليين في شبه القارة ، فكانت لديهم أسلحة برونزية متفوقة ، ثم امتلكوا بعد ذلك بوقت قصير أسلحة حديدية ، وعربات تجرها الخيل ذات مكابح للعجلات ، ومن ثم كانت أخف وأسرع من عربات السكان الأصليين ذات للعجلات الجامدة والتي تجرها الثيران . لقد كانوا شعباً قادراً على الحركة بسهولة ، عسكرى الطابع مجهزاً لغزو أى شعب زراعى وحكمه ، فضلاً عن أنهم هم أنفسهم كانوا منخرطين في الزراعة ورعى الماشية . على أن حضارة وادى نهر السند التي سبقت الآريين كانت من جوانب كثيرة أرقى منهم ، ومن الجائز أن الهند لم تستعد حضارة مدنية تضاهيها من حيث المستوى والنطاق إلا بعد حوالى ١٥٠٠ سنة من انهيار تلك الحضارة . ولكننا على أية حال ، سنعود إلى الحديث عن حضارة وادى السند فيما بعد .

٢- ريج ڤيدا Rig - Veda [1] :

في وقت ما بين عامى ١٥٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد غزت قبائل الآريين الهند واستقرت في البنجاب وأنشأت مجموعة من التراتيل التي تألفت منها « ريج فيدا » وهى

---

(١) الريج ڤيدا - سنسكريتية الڤيدا النارية ، أو المنسوبة إلى النار ، وهى قسمان : الأول أدعية وصلوات، وأوراد منظومة تتلى في بعض المناسبات نثراً ، والآخر يشتمل على تعاليم تتعلق بالعبادات والواجبات الدينية ويسمى براهمانا (المترجم) .

وثيقة ذات أهمية تاريخية لا تقدر ، فهي ليست أقدم عمل أدبي في لغة من لغات الهند - أوربية فحسب ، وإنما هي أقدم الكتابات الدينية الحية في العالم . وينفرد الهنود بين الشعوب الناطقة باللغات الهند - أوربية ، بأنهم يدينون بعقيدة انحدرت بشكل مباشر من ديانة الثقافة الأم ، كما أن كتاباتهم الدينية القديمة بدءاً من « الريج ڤيدا » غنية على نحو مذهل بالقياس إلى ذلك الغياب شبه الكلي للكتابات الدينية من اليونان وروما القديمتين .

وتحتوى المجموعة على ١,٠٢٨ ترنيمة لآلهة الڤيدا ، أما المجموعات الأخرى (أو السامهيتا Samhitas) فقد كتبت لخدمة احتياجات الإنشاد Sama - Vada (١) أو كدليل موجز لعمليات الأضاحي أو تقديم القرابين (وهي ياجورافيدا Yajuraveda (٢) التي تؤدي فيها الترانيم دوراً حاسماً . وعلى حين أن هذه المجموعات الثانوية تكرر كثيراً من مواد « الريج - ڤيدا » وتعيد تنظيمها لأغراضها الخاصة ، فإن مجموعة رابعة هي المسماه بالـ « أثارفا - فيدا Atharva - Veda (٣) - وهي تتميز عن المجموعات الأخرى من حيث إنها تشتمل على العديد من الرقي والتعاويذ لأغراض طبية ، وعلى طلاسم سحرية تساعد على الانتصار في المعركة وما شابه ذلك وتكتمل مجموعات « الفيدا » بسلسلة من الكتب تسمى « البرهمانا Barhmanas » (٨٠٠ - ٦٠٠ ق. م) وهي مخصصة لشرح الترانيم وتطبيقها في الطقوس الدينية ، والميثولوجيا وتأملات في التشابه الصوفي بين العالم الكبير Macrocosm والقربان نفسه . وتكتمل كتابات الفيدا بسلسلة ثالثة من الكتب هي أرانياكا Aranyakas (٤) (٦٠٠ ق. م) واليوبانيشاد (٦٠٠ ق. م - ٣٠٠)(٥) اللذان يصوران

---

(١) ساما فيدا ومعناها الفيدا الشمسية أي المنسوبة إلى الشمس ، وهي أيضاً قسمان أحدهما مزامير دينية يتغنى بها في بعض المناسبات (منترا) ويشتمل الآخر على تعاليم متعلقة بالعبادات والواجبات الدينية براهمانا (المترجم) .

(٢) ياجورا فيدا ومعناها الفيدا الهوائية أي المنسوبة إلى الهواء ، وهي مجموعتان يطلق على إحداهما اسم ياجورڤيدا البيضاء وعلى الأخرى ياجورافيدا السوداء (المترجم) .

(٣) ربما جاءت التسمية نسبة إلى حكيم من حكماء الهند يدعى « أثارا » . وهي أيضاً قسمان ، الأول يحتوى على أوراد وأدعية للاستغفار والرقى ضد السحر والأرواح الشريرة المدمرة والخبيثة (تترا) ويشتمل الآخر على طائفة من شرائع الديانة البرهمية (براهمانا) (المترجم) .

(٤) الأرانياكا أو نصوص الغابة ، وهي خاصة بالقديسين الرهبان أساساً ، لكنها يمكن أن تكون هداية للشيوخ والمعمرين الذين تركوا أهلهم ليقيموا في الكهوف والغابات . وهي تهديهم إلى أعمال سهلة يقومون بها بدلاً من القرابين التي أصبحوا يعجزون عن تقديمها (المترجم) .

(٥) اليوبانيشاد مؤلفة من مقطعين « يوبا » ومعناها : « بالقرب من .. » وشاد معناه اجلس أو مجلس ، فهي حرفياً تعني « الجلوس بالقرب من المعلم » ثم أصبحت تطلق على المذهب الغامض الذي أسره المعلم إلى خيرة تلاميذه . وفيها ١٠٨ محاوره مما جرى بين المعلم وتلاميذه ، ألفها كثير من القديسين والحكماء فيما بين السنوات ٨٠٠ و ٥٠٠ ق.م (المترجم) .

هذه التأملات ويسيران بها إلى حافة الفلسفة الواحدية . وأخيراً هناك سلسلة من الكتب الفرعية التى فقد معظمها الآن – وهى تقدم الوجه العملى لدراسة الفيدا ، وهى جميعها مستمدة من القرابين ومتطلباتها ، مثل علم النحو ، وعلم الصوتيات ، وعلم العروض، وعلم الفلك والطقوس الدينية . والأخيرة تشتمل على القرابين العامة الكبرى والطقوس المنزلية فى آن واحد ، ومن هذه الطقوس ظهرت فيما بعد كتابات قانونية .

وعلى الرغم من أن الديانة الآرية المنزلية لم يخدمها إلا قسم ضئيل من مجمل كتابات الفيدا ، فإنها أكثر أهمية للهندوسية التى انبثقت عند نهاية عصر الفيدا من مذاهب القرابين الكبرى الموروثة ، بل من غنوص اليوبانشاد ، التى تفترضها سلفاً معظم هذه الكتابات الكهنوتية . هذه الديانة المنزلية تتشابه بوضوح ، فى معالمها الأساسية ، بل فى بعض تفصيلاتها ، مع ديانة الشعوب الأخرى الناطقة باللغات الهند – أوربية ، لا سيما قدامى اليونان والرومان . وهذا الميراث الهند أوربى الذى نما فى تربة الهند ، وتحت ظروف هندية ، هو الجزء الذى بقى حتى اليوم من ديانة الفيدا متمثلاً فى احتفالات الزواج والقرابين المقدمة للموتى .

٣- إشعال النار المقدسة :

يوجد فى البيت الآرى نار مقدسة تشتعل منذ بداية إنشائه ، أعنى خلال حفل الزواج، وهى ليست ناراً عادية : فينبغى ألا تستخدم فى إعداد الطعام أو الأغراض المنزلية الأخرى ، وكذلك ينبغى إشعالها بأنواع خاصة من الخشب ، وبطريقة معينة هى حك العصى ببعضها، وينبغى ألا تترك حتى تخمد . ولا بد أن يتقدم رب الأسرة لهذه النار يومياً بقرابين للآلهة . بل إنه فى الواقع ملزم بالقيام ثلاث مرات فى اليوم بما يسمى « بالتضحيات الخمس الكبرى » : عبادة براهمان Brahman ، روح العالم ، وقوامها تعليم الفيدا أو تلاوتها ، وعبادة الآباء بتقديم الطعام والماء لتغذيتهم [(١)] ، وعبادة الآلهة بإحراق القرابين ، وعبادة بهوتاس Bhutas (وهى الموجودات الحية أو الأرواح) بنثر الحبوب فى الجهات الأربع والمركز ، وفى الهواء ، وعلى أوانى المنزل ، ووضع الطعام على عتبة الدار للمنبوذين والحيوانات والطيور والحشرات ، وعبادة الرجال عن طريق تقديم الضيافة إلى الآرى ، ويفضَّل البرهمى العليم بالفيدا .

(١) كان الهنود يقدمون طعاماً لأرواح الأسلاف آنا بعد آن ؛ حتى لا تفنى أرواحهم إذا مُنع عنها الطعام (المترجم) .

أما أهم الواجبات التى يلتزم بها رب الأسرة فهى واجبات نحو الآباء أو الأسلاف ، فهو ليس ملزماً فقط بأن يقدم القرابين من الماء والطعام يومياً إليهم ، وإلى روح البيت التى تسكن الركن الشمالى الشرقى من المنزل ، بل إن عليه أيضاً أن يقدم لهم البندا Pinda أى كرة الأرز Rice - Ball فى يوم ظهور القمر الجديد من كل شهر .

وتسمى العناصر الرئيسية فى هذا الاحتفال « شراذا Shradha » وهى كما يأتى : يجلس فقهاء البراهمة – الذين هم على خلق لا يرقى إليه الشك – فى مكان مكشوف ، على مقاعد منسوجة من العشب المقدس [1] ويفتتح رب الأسرة الاحتفال (وينهيه) بحرق قرابين للآلهة فى النار المقدسة . لكن الحدث الرئيسى هو التقريب للآباء ، فهو يصنع ثلاث كرات أرز ويضعها فوق سجادة ، بالعشب المقدس بعد رش المكان بالماء وتذهب هذه إلى الموتى الثلاثة من أسلافه : الأب ، والجد ، وأب الجد ، ثم يمسح الأرز العالق بيده فى العشب ، وهذا هو تقديم القرابين للأسلاف الثلاثة الأسبق : جد الجد ... إلخ . ثم يسكب ماء مباركاً على الأرض بالقرب من « البندا Pinda » ومن شأن ذلك أن يرضى الأسلاف الأكثر بعداً . ثم يقسم « البندا » أو كرات الأرز على ضيوفه من البراهمة الذين يأكلونها ، وما تبقى من « شراذا Shradha » يصبح الوجبة الأساسية للضيوف .

٤- رابطة مع الأسلاف :

إن النظرية الخاصة بالشراذا (Shradha) هى أن يقدم الأحياء الطعام إلى الأسلاف الذين يقطنون « عالم الآباء » ، وذلك بأن يقدموا لهم قرابين من كرات الأرز والماء ، بينما يضفى الأسلاف النعم على أحفادهم الأحياء بمنحهم إياهم النجاح والازدهار والذرية وما شابه ذلك . وهكذا تكون « شرذا » هذه هى همزة الوصل بين الأحياء والأموات ، وهى التعبير عن التعاون المتبادل بينهم . غير أن هذه العلاقة يمكن أن تنقلب رأساً على عقب إذا لم تؤد الطقوس الجنائزية المناسبة للميت ، فما لم تستقر أرواح الموتى فى عالم الآباء ، تظل عرضة لأن تصب البلاء على رءوس نسلها الذين لم يقوموا بإطعامها عن طريق القرابين أو ضمان انتقالها إلى عالمها المناسب .

وهكذا تحمل الجثة – بعد الوفاة بقليل – إلى أرض المحرقة فى موكب من الأقارب

---

(١) لم يكن للديانة الفيدية فى أولى مراحلها معابد ، بل كانت المذابح التى تقدم أمامها القرابين ، تنصب لكل قربان يراد تقديمه (المترجم) .

يتقدمه الابن الأكبر الذى يسير على رأس المحزونين ويخلف المرحوم كرب للبيت ، وتحرق الجثة بينما يطوف أهل الميت حول المحرقة ، لا فى اتجاه عقارب الساعة الذى يبشر بالسعادة وإنما فى عكس اتجاه سيرها . وبعد ذلك يغتسلون ويعودون إلى البيت فى موكب يتقدمه هذه المرة أصغر الأبناء سناً . وفى اليوم الثالث من حرق الجثة تلقى العظام فى النهر ، ويفضل أن يكون « نهر الكنج » حيث لا يزال يوجد على ضفتيه أدراج الجوط Ghat [١] والتى تيسر الحركة إلى النهر ، كما فعلت منذ آلاف السنين ، ولمدة عشرة أيام يواصلون سكب الماء وتقديم القرابين من كرات الأرز وقوارير اللبن للمرحوم ، وفى هذا الوقت أو بعد تمام السنة يتم القيام بما يسمى بالسبندكرانا Sapindikarana التى تجعل الميت يتناول البندا (أقراص الأرز) مع أسلافه أو أسلافها فيما يسمى « الشرذا » كل شهر ، وهم يعتقدون أن الروح تكتسب بذلك بدناً رقيقاً يمكنها من القيام بالرحلة إلى « عالم الآباء » ، أو يمكنها ـ طبقاً لأفكار لاحقة ـ من الميلاد من جديد . ولا ينضم المرء إلى هذه الديانة المحلية بحكم الميلاد وحده ، وإن كان كل الموتى الآريين مرشحين للعبادة ولدخول عالم الآباء ، فعندما يكون الميت طفلاً صغيراً أو فتاة غير متزوجة ، أو ناسكاً ، فإن الجثة فى هذه الحالة تدفن ، أو تلقى فى النهر ، ولكنها لا تحرق ولا تقدم لها قرابين . فالشرط الأساسى هو الدخول فى الآرية الكاملة عن طريق الترسيم ، ويتم ذلك بالنسبة للصبى بأن يمنح الخيط المقدس أو « المنترا Mentra » ، أما بالنسبة للفتاة فيتم عن طريق الزواج ، وأما الناسك فينظر إليه على أنه أصبح ميتاً بالنسبة لعالم رب البيت ولدينه ،وهكذا ينظر إلى الترسيم أو دخول « العضو فى الجماعة » على أنه ميلاد جديد بالنسبة للحياة الدينية ، حتى إن الطبقات العليا التى ترتدى الخيط المقدس يطلق عليهم لقب « المولودين مرتين » .

٥- الترسيم Initiation [٢] :

الترسيم هو واحد من سلسلة الطقوس التى تسمى « سمسكار Samskara أو ما يمكن أن يطلق عليه أحد الأنثربولوجيين عبارة « طقوس المراحل الحاسمة فى الحياة » .

---

(١) الجوط Ghat درج يهبط عليه الناس إلى أحد الأنهار فى الهند لا سيما الأنهار المقدسة مثل نهر الكنج (المترجم) .

(٢) الترسيم هو مجموعة من الطقوس التى يتم بواسطتها دخول فرد ما فى جماعة دينية ، فهى تعنى الاحتفال ـ بطريقة ما ـ بدخوله سلك الديانة المعنية (المترجم) .

وتتم ثلاثة من هذه الطقوس قبل الولادة لتشجيع الحمل ، وإنجاب طفل ذكر ، وضمان صحة الجنين وفيما بين الاحتفال بمولد الطفل والاحتفال بتسميته تراعى الأم والطفل طقوساً تستمر لمدة عشرة أيام وتسمى طقوس النجاسة . والمراحل الأخرى من تطور الطفل التى تتميز بها « السمسكارا » هى خرم الأذن لأول مرة ، واللحظة التى يخرج فيها الطفل من البيت يرى الشمس لأول مرة ، وكذلك المرة الأولى التى يتناول فيها طعاماً جافاً ، وإذا كان ذكراً فهى المرة الأولى التى يحلق فيها شعر رأسه ، فيما عدا خصلة من الشعر فى قمة الرأس يتركها طوال حياته .

ويعد الترسيم الخطوة التالية فى « السمسكارا » وهو يتم عادة عندما يكون الطفل بين سن الثامنة والثانية عشرة . ولب الاحتفال هو أن يرتدى المرشح زى الناسك ويمسك فى يده صولجاناً مع خيط مقدس يوضع على كتفه اليسرى ويتدلى من ذراعه الأيمن ثم يتلو الكاهن الرسمى من « جيترى – منترا Gayatri - Mentra » وهى أبيات من « الريج – ڤيدا » يتلوها الهندوس – وهم الطبقة العليا فى المجتمع فى جميع طقوسهم :

« فلنفكر فى روعة وجلال

الإله سافترى ؛

حتى يلهم عقولنا » .

وعلى العضو المرشح فى هذه الحالة ، أن يستجدى الصدقات ، وأن يضع نفسه تحت وصاية برهمى متفقه فى الدين ليصبح معلمه الروحى (Guru) ، ليعلمه ويهذبه بالكتب المقدسة لا سيما الفيدا . وعلى التلميذ أن يظهر لمعلمه أقصى درجات الاحترام والخشوع، بل أعظم مما يظهره لوالديه ، لأنه إذا كان الأب والأم يمنحانه الحياة ، فإن المعلم من خلال معرفته الدينية يهبه الخلود .

وعلى الطالب أن يظل أعزب تماماً ، وأن يحترس باستمرار من السقوط فى الدنس ، أى فى تدنيس الطقوس ، وأن يخضع نفسه لكل أوامر المعلم أثناء متابعته المقرر الدراسى الذى قد يستغرق من البرهمى اثنتى عشرة سنة أو أكثر ، وعلامة انتهائه الاغتسال طبقاً للشعائر ، وعندئذ يتوقع أن يتزوج الآرى فى الحال .

ولم تكن العزوبية طوال الحياة تلعب أى دور فى التصورات الدينية الآرية المبكرة ، بل إنها فى الواقع كانت بغيضة عندهم ، فالسماح بالعزوبية يعنى تدمير عبادة الأسلاف ، كما أن إنكار طعامهم ، قد يجعل الآباء يصبون انتقامهم على الأحياء .

وهكذا نجدهم فى زمن متأخر ، عندما انتشر مذهب النسك والزهد ولاقى استحساناً وقبولاً من الأفكار الدينية الآرية ، قد عبرّوا عن تصورهم لدورة الحياة كسلسلة مؤلفة من أربع مراحل : الطالب ، ورب الأسرة ، وناسك الغابة ، والناسك المتجوّل . والمرحلتان الأولى والثانية فقط إلزاميتان لكل الذين ولدوا ولادة ثانية ، وذلك نوع من التوفيق بين نمطين متصارعين من أنماط الحياة . ولقد رأوا فيما بعد أن الناس تولد وهى مدينة بثلاثة ديون : دين للآلهـة ، ودين للآباء ، ودين للحكمـاء . وهى ديون لابد لهم من سدادها قبل أن يهجروا العالم من أجل الزهد والتنسك ، وتوفى هذه الديون بتلاوة الفيدا ، وإنجاب الابن ، وتقديم الأضحية . وهكذا يستطيع المرء نظرياً على الأقل ، أن يصبح ناسكاً بعد أن يكون قد تزوج وأصبح رب أسرة .

٦- قوانين الزواج :

ليس الزواج ضرورة مقتصرة على عبادة الأسلاف ، بحيث ينبغى على الرجل أن يتزوج لينجب ابناً يواصل العبادة ويقدم « البندا » (أقراص الأرز) لكى تستريح روح أبيه ، وإنما الزواج ضرورة مطلوبة لذاتها أيضاً ، فليس ثمة ما يبرر الاعتقاد بأن الرجل المتزوج هو وحده القادر على تقديم « شرذا » (قرابين الطعام) للأسلاف ، وعندما يصبح أرملاً فإنه يتخلى لابنه عن رئاسة الأسرة ، وعن القيام بدور الكاهن المسؤول عن نارها المقدسة ويقرر التقاعد(١) .

على أن الزواج لم يكن يترك لأهواء الفرد اختيار من يشاء ، فهو لا يستطيع أن يتزوج كيفما اتفق ، لأن الزوجة الكفء المساوية له فى المولد ، والمنحدرة من أسرة آرية أتمت عملية الترسيم وغيرها من الطقوس ، هى وحدها القادرة على ممارسة الطقوس المنزلية دون أن تدنسها ، وهى وحدها القادرة على إنجاب الابن الطاهر النقى المؤهل لمواصلة عبادة الأسلاف بعد والده ، وفضلاً عن ذلك فعلى العريس المنتظر أن يبحث عن عروس ليست قريبة له ، لا من ناحية أبيه ولا من ناحية أمه ، أعنى عروساً لم تقدم أسرتها « البندا » أو قرابين الماء لأىٍّ من الأسلاف ، ومن ثم فلابد أن تكون العروس غريبة عنه ، ولكن ينبغى كذلك أن تدخل فى أسرة العريس عن طريق الترسيم ؛ لكى تشارك الأسرة فى دينها ، ولتنجب لها ابناً ومن ثم تكف عن أن تكون عضواً فى أسرتها الأصلية .

---

(١) الزواج فى النظام الهندى إجبارى للجميع ، والرجل الأعزب طريد الطبقات ، ليس له فى المجتمع مكانة أو اعتبار ، وكذلك الفتاة ، إن طال بها الأمد وظلت عذراء بغير زواج (المترجم) .

وحفل الزواج يرمز إلى هذا التصور للزواج على أنه هبة أو أمر مقدس ، أو ترسيم . وينتقل العريس وصحبه فى موكب إلى بيت العروس حيث يستقبلهم والدها مرحباً ، ثم يجلس العروسان فى سرادق مؤقت على جانبيه ستارة صغيرة ، ثم تفتح هذه الستارة بمصاحبة العبارات المقدسة التى يتمتم بها الكاهن الذى يتولى مراسيم الزواج .

عندئذ يقدم والد العروس ـ رسمياً ـ ابنته للعريس ، ويقوم العروسان متشابكى الأيدى بتقديم حبات من القمح للنار المقدسة ، ثم يطوفان حول النار وأطراف ردائيهما معقودة ، ويخطوان معاً سبع خطوات ، ثم يرش عليهما من الماء المقدس وتؤدى المزيد من الطقوس عندما يعود موكب الزوجين إلى بيت العريس ، وبذلك يكتمل الزواج . أما الطقوس الجنائزية التى وصفناها فيما سبق فتكمل سلسة « السمسكارا Samskaras » .

٧- قانون الأسرة الهندوسية :

هناك سمات أساسية معينة فى قانون الأسرة الهندوسية يمكن أن نتعقبها إلى هذه الديانة المنزلية . فرب الأسرة هو كاهن دينها ، أعنى عبادة الأسلاف فيها . وهذا المنصب وراثى ، أعنى أن هذه الخاصية تؤول إلى أولئك الأكفاء القادرين على تقديم القرابين إليه بعد الموت ، وإلى أسلافه ، أعنى إلى أبنائه المتزوجين قبل غيرهم . وفى حالة نقص النسل فى نوع الذكور يؤول الإرث إلى أولئك الذين قدموا « البندا » إلى واحدٍ أو أكثر من الأسلاف الذين قدم لهم المتوفى « البندا » كذلك ، أعنى أن يكون سابندا Sapinda أو مشاركاً فى البندا ؛ ذلك لأن الإرث يحمل معه الالتزام بتقديم البندا إلى المرحوم .

ولهذا السبب فإن البنت لا يمكن أن ترث مادام الذكور وحدهم قادرين على تأدية «الشراذا Shradha » ويستطيع الرجل الذى لا أبناء له أن يتبنى ابناً قطع صلته بأبيه الطبيعى أو يعين بنتاً ـ لو كان له ابنة ـ لتنجب حفيداً يصبح هو الوريث . وليس فى استطاعة أحد أن يخدم نارين منزليتين ، أو أن يعبد فئتين من الأسلاف ، أو أن يرث من أسرتين مختلفتين . وهكذا فإن العروس والابن بالتبنى وابن الفتاة التى حددها الأب ، يفقدون حقوقهم وعضويتهم فى أسرتهم الأصلية ليصبحوا أعضاء ذوى حقوق جديدة فى أسرتهم بالتبنى .

لقد امتلأت الديانة المحلية الآرية بالعنصر البرهمي ، ولا تزال تتبعها فى الهند الطبقات العليا على نطاقٍ واسع . ولقد سقط كثير من الجوانب الثانوية فى « السمسكارا » فى زوايا الإهمال ، وأصبح تقديم قرابين « الشراذا » نادراً ، وتعدلت فى نظرية عبادة الأسلاف والعبور إلى « عالم الآباء » عن طريق نظرية تناسخ أرواح الموتى ، بل الواقع أنها ألغتها . لكن المظاهر الأساسية لهذا الدين ظلت باقية . ونظام الطبقات المغلقة قد شدّد من الاهتمام الآرى بطهارة الطقوس والمعايير التى يجب أن يتمسك بها المرء ليصونها ويحفظها ، وقد ظلت مضامينها الشرعية إلى وقت قريب تتحكم فى الإرث الهندوسى والتبنى .

٨- ديانة الفيدا والتضحية :

أى تحليل للمجتمع الآرى المبكر يقسمه أربع طبقات Varna هى : طبقة البراهمة (الكهنة) وطبقة الكشاترية (الجند - الملك) ، وطبقة الفيشيا Vishya (التجار) ، وطبقة الشودرا (الأقنان) وكلمة Varna (طبقة) التى تعنى اللون وتستخدم للدلالة على أن لهذا التقسيم الوظيفى أساساً عرقياً على الأقل بمقدار ما تكون طبقة الأنوار الآريين المولودين مرتين متميزة عن طبقة السكان الأصليين المظلمة الذين جعل الآريون من بعضهم أقناناً . وهناك تقسيم وظيفى مماثل للمجتمع قدمه أبناء عمومتهم من الإيرانيين يذهب إلى أن الهنود - الآريين كانوا منذ البداية ، هم الكهنة ، كما كانوا يقومون بألوان من القرابين التى كانت من حيث الرعاية والصيانة تجاوز الطقوس المحلية .

أما الديانة التى يتحدث عنها معظم الأدب الفيدى فهى ديانة عامة وكهنوتية وليست محلية ، وموضوعات العبادة فيها ليست تأليه الآباء وإنما هى الديفاز Devas أو آلهة السماء المشرقة ، ويبدو أنها كلمة مشتقة من نفس جذور الكلمة اللاتينية « ديوس Deus» (إله).

ولقد استمدت بعض هذه الآلهة من العصور الهند ـ أوربية القديمة ، فمثلاً السماء الأب (هوديوس بيتر Dyaus Pitar [١] وهو زيوس الأب عند اليونان ، وهو جوبترعند الرومان) وهى آلهة ترتبط أساساً بالسماء وبالظواهر الجوية (أو الآثار العلوية ، ومعظمها ذكور، ويستثنى من ذلك « الأرض الأم » ، وابنتها الفجر (واسمها أوشاش Ushas ، وهى

---

(١) أب السماء أو إله السماء فى أساطير الفيدا ، وهو يقابل « زيوس » عند اليونان ، و « جوبتر » عند الرومان (المترجم) .

عند اليونان إيوس Eos) وهما معاً إلهتان هندو أوربيتان ، وكذلك عدد قليل من الآلهة الأخرى . لكن الغياب النسبي للآلهة الأنثى في مجمع آلهة الفيدا هو أحد الاختلافات الملفتة للنظر بين ديانتها وبين الهندوسية المتأخرة .

أصبحت شخصية السماء الأب في عصر « الريج فيدا » باهتة . إذ سرعان ما حل محلها إله الفيدا الأصيل وهو الإله « إندرا Indra » ، وهو بصفة رئيسية إله حرب ، وملك الآلهة ، وقائدهم في المعارك ، وهو الذي دمر المدن الحصينة لسكان البلاد الأصليين مستعيداً خبرة المقاتلين الآريين إبان غزوهم للبنجاب . « وإندرا » ، مثله مثل نظرائه البشريين يهتم بتناول الطيب من الطعام والشراب ، كما يحب المشاكسة ، وهو يركب السماء على رأس جيشه من الماروث « Maruts » وهم آلهة العاصفة الأقل شأناً ، وهو هنا يرتبط بالبرق بصفة خاصة ، سلاحه الذي مزق به بطن التنين فريترا Vritra عندما أعتق هطول المطر الذي يبعث الحياة .

أما آلهة الشمس فهي كثيرة ، منها : سرييا Surya واسمها هو الكلمة الدارجة التي تعني « الشمس » وهي تقود عربة نارية بعجلة واحدة تجرها سبعة جياد عبر السماء . أما فشنو Vishnu فهو إله صغير له خواص الشمس ، وسوف يصبح فيما بعد أحد الإلهين الرئيسيين في الديانة الهندوسية . والإله فيشنو الذي يتحدث عنه « الفيدا » قزم صغير عبر الكون بثلاث خطوات عملاقة ففرحت الآلهة وغيظت الشياطين .

أما آجني Agni فهو إله النار أو المحور الذي يربط عالم الناس وعالم الآلهة وهو الذي يحمل القرابين المحترقة إلى الآلهة ، ويعيش مختبئاً في أماكن عدة مزوداً الفلاسفة الأول بموضوع لتأملاتهم النظرية ، فهو يختبيء في مياه السماء ويظهر في صورة البرق ، وفي عيدان النار ، فهي أبواه التي تشتعل بها النار المقدسة ، وفي أماكن أخرى .

والبراهمة ـ بوصفهم القيّمين على تقديم الأضاحي والقرابين ـ مغرمون بالنار بصفة خاصة، إلا أنهم مغرمون أكثر من ذلك بشراب السوما Soma [1] (الهوما الإيرانية)[2]

---

(١) السوما : هو الشراب المقدس عند الهنود ، وهو يتلازم مع تقديم الأضاحي والقرابين ، ويعد في الأساطير الهندية سبب خلود الآلهة ، وهو يستخرج من نبات القنب الهندي بأن يعصر باليد أو يطحن بحجر ثم تسيل منه العصارة نقطة نقطة ليتجمع في قنينة ثم تخمر (المترجم) .

(٢) كان الفرس يحتفلون بشرب عصير « الهوما » المقدس ، مع ملاحظة أن حرف « سي » في اللغة السنسكريتية يقابل حرف « الهاء » الفارسي . ومن هنا نجد أن « سوما » أصبحت « هوما » . كما أن السند هي الهند عند الفرس (المترجم) .

وهو أرقى ألوان الشراب المسكر المعد من عصير نبات غير معروف نوعه ، لكنه على الأرجح يشبه القنب الهندى أو أى نبات آخر مخدر . ويستلزم إعداد « السوما » طقوسا معقدة ، لا سيما أن شخصية إله السوما المتميزة ، وعلاقته بالبراهمة الذين يطلقون على « السوما » لقب « مليكهم » قد جعلت « الريج ڤيدا » تخصص كتاباً كاملاً لأناشيد هذا الإله . ثم توحد إله السوما فيما بعد مع إله القمر ونال حق السيادة القمرية فى الإشراف على نمو المحاصيل وصحة الأجِنّة .

٩- فارونا ومترا Varuna & Mitra :

هناك إلهان آخران أصلهما هندو - إيرانى إن لم نقل هندو - أوربى وهما « ڤارونا ومترا» ولهما تداعيات شمسية مثل العديد من آلهة الڤيدا ، فإحدى وظائف مترا الرئيسية ضمان القسم والاتفاقات [١] وهذا هو الوجه الإيرانى المقابل والمتبقى من إصلاح زرادشت للديانة الإيرانية ، وكان يعبد فى الامبراطورية الرومانية فى العهود المسيحية باسم مترا -Mith ras [٢] » ، وعرف فارونا باسم آزورا Asura (وكان فى الأصل مجموعة من الآلهة ثم أصبح فيما بعد مجموعة من الشياطين تعارض إلهة السماء ديڤاز (Devas) حجبه إله الحرب العاصف عن الظهور فى « الريج ڤيدا » ، غير أن شخصية « ڤارونا » الأخلاقية الرفيعة جعلته يتقدم كثيراً على الإله إندار الذى لا علاقة له بالأخلاق . لقد كان فارونا هو حارس الريتا Rita أو النظام الطبيعى والأخلاقى للكون ، وبدونه ما كان يمكن للفصول أن تتعاقب على التوالى ، ولولاه لانهارت بنية المجتمع ، و« ڤارونا » عليم بكل شىء ، إذ تكتب له عيونه المنتشرة فى كل مكان تقارير عن الرجال والنساء ، فما اجتمع اثنان معاً إلا وكان « ڤارونا » ثالثهما . ويتخذ مقاتل الڤيدا الشجاع المتفائل وضعاً مختلفاً عندما يقف أمام « ڤارونا » عن الوضع الذى يتخذه أمام أى إله آخر من آلهته ، فهو يتخذ وضع الآثم التائب الذى يرجو إنقاذه من العقاب العادل « لڤارونا » .

---

(١) يقال إن الآريين جلبوه معهم إلى الهند وهو « ميتهرا » فى إيران ، ووظائفه الرئيسية هى ضمان المعاملات التجارية والعقود والاتفاقات ونحوها ، وكلمة مترا تعنى : الصديق (المترجم) .

(٢) انتشرت ديانة مترا وعبادته فى الإمبراطورية الرومانية فى القرون الأولى للمسيحية ، وكان المنافس الرئيسى الخَطِر لها ؛ ولهذا ذهب رينان إلى أن العالم يمكن أن يصبح من أتباع مترا لو انهارت المسيحية (المترجم) .

ويزخر مجمع آلهة الفيدا بمجموعة أصغر من الآلهة ، تبلغ من الكثرة حداً يجعل من الصعب وضعها فى قائمة . وهناك إلهان آخران لهما بعض الأهمية بوجه عام هما إله « ياما Yama » أول فانٍ يحرس عالم الآباء بكلابه الداكنة ، « وردرا Rudra » وهو إله يخشاه الناس لأن سهامه تجلب معها المرض ، ويتضرعون إليه لأنه فى وجهه الآخر إله الشفاء بالأعشاب . وهو مثل شيفا Shiva الإله الصفوح المبشّر بالخير ، يمثل مساهمة الفيدا فى شخصية « الإله العظيم » فى الهندوسية رغم ، أن دوره فى الفيدا كان صغيراً مثل دور فيشنو .

١٠- الأضاحى الملكية :

كانت الأضاحى كثيرة ومتنوعة وأعظمها الأضاحى الملكيـة : « الراجاسويا Raja-suya » و « الفاجابيا Vajapeya » ، و« الإشفاميذا Ashamedha » أما النوع الأول فهو تنصيب ملكى ، وتتمثل الذروة التى يصل إليها فى رش رأس الملك بالماء وغيره من السوائل ذات القوة الروحية . وكان شراب القوة Vajapeya - وهو النوع الثانى - ضرباً من الاحتفال بتجديد الشباب الذى يشمل سباق العربة المصطنع و « صعود » الملك والملكة إلى السماء على سُلّم . أما النوع الثالث فهو « التضحية » بالحصان Ashvamedha وله أهمية خاصة نظراً لتاريخه الطويل بالهند ، ولما ينطوى عليه من مضامين سياسية ، إذ يترك أحد الخيول المخصصة للتضحية فى صحبة مائة من الجياد الأخرى مع حراسٍ من المحاربين الفرسان - ويُترك الجميع يتجولون بحرية لمدة عام . ويحاول الأمراء الذين يتم التجوال فى مقاطعاتهم الإمساك به أو قتله . وبذلك يعرضون المُضَحّى لمكافأة إلهية غير سارة ، أو يرغمون على الخضوع لسيادته العليا ، ثم يُضحى بالجواد فى نهاية العام ، وتنقل قوته المدّخرة إلى الملكة، وهكذا نضمن صحة المملكة والأسرة الحاكمة وازدهارهما .

وهناك إلى جانب ذلك أضاحى أقل تكلفة وطموحاً متروكة لمقدرة رب الأسرة الآرى . ولهذه الطقوس سمات مشتركة متعددة . فرب الأسرة الذى يدفع ثمن الأضحية ويتلقى بركاتها هو المضحى ، ولهذا يقوم هو وزوجته بدور رئيسى ، وإن يكن ضئيلاً إذا ما قورن بدور الفنيين البراهمة فى تقديم التضحية . ويزداد فريق الكهنة المطلوب كلما كانت الطقوس نفسها أكثر تعقيداً ، وتتوقع « الريج فيدا » أن يكون عدد الكهنة ثمانية ، بما فى ذلك الشخص المضحى . ولكن فى عصور متأخرة كان العدد المطلوب يبلغ ستة عشر أو سبعة عشر

كاهناً . وتبدأ الضحية بتنصيب المضحّى فترفعه من الأرض الدنسة إلى عالمٍ مقدس ، وهو عالم محفوف بالمخاطر بالنسبة لأولئك الذين لم يتحصنوا بالطقوس ، وتنتهى عملية تقديم التضحية بخلع التنصيب للهبوط من العالم المقدس .

وتتخذ الضحية نفسها مكاناً حول نار مقدسة مشتعلة فى مذبح خاص بُنِـىَ من الحجر فى الهواء الطلق ، والمبانى الوحيدة التى ترتبط به هى فى معظمها للأعمال المؤقتة ، ولكنها ليست معابد ، أما المواد التى تقدم فيمكن أن تكون : اللبن والزبد السائل ، وعناصر نباتية مختلفة ، وخمر ولحم حيوانات بما فى ذلك لحم الماشية ، فى هذا التاريخ المبكر . وقد تكون المنافع الناتجة كثيرة ، إذ يوعد المضحى على نحو نموذجى بالذهب ، والماشية ، والحياة المديدة وإنجاب الأولاد ، والخلود ، لكن من الضرورى أن يطعم الكهنة ويدفع لهم أجرهم على نحوٍ مناسب .

١١- الآلهة تشارك فى الوليمة :

لا شك أن نظرية التضحية الأصلية كانت أحد ألوان التبادل البسيط التى تكمن خلف تقديم القرابين للأسلاف . وعندما تم إنجازها على نحوٍ مناسب هبطت الآلهة إلى ميدان التضحية ، وهبطوا متخفين لا يراهم أحد ، فجلسوا فوق القش المقدس واشتركوا فى مأدبة التضحية كضيوف شرف ، وتغذوا بالقرابين التى أحرقها الإله « أجنى » . أما فى صيغتها المتأخرة فكانت الناس « تصب إلى أعلى » بأن تصب القربان على النار فينقله « أجنى » للآلهة ، فى حين « تصب الآلهة إلى أسفل » عندما يهطل المطر الذى تعتمد عليه الزراعة والحياة البشرية . أما « قرابين الذنوب » و « قرابين الشكر » ، و « قرابين الاسترضاء » أو الاستعطاف فهى ألوان من التقريب نادرة أو غير موجودة ، ولا مكان فى أدب الفيدا إلا نادراً للصلاة التلقائية المباشرة .

وعندما تطورت القرابين وزادت سيطرة طبقة البراهمة Brahmin عليها ، أصبحت نظرية القرابين أكثر إسهاباً ، واتسعت لتشمل طرقاً جديدة ، واعتبرت الترانيم ، والصيغ الأخرى ذات قوة سحرية Brahman [١] نظر إليها كذلك على أنها قوة محايدة متغلغلة فى الكون للحفاظ عليه . والصيغة المشتقة من اسمها هى براهمين Brahmin أو الكاهن الساحر صاحب السيطرة على الأقوال المقدسة . ويمكن الحصول على فاعلية القربان

---

(١) الاسم الذى أعطته الأوبانيشاد للموجود الأسمى ، و « برهمان » محايد من حيث الجنس (المترجم) .

بالتلاوة الدقيقة المسهبة لتلك الصيغ . ولقد أدى التأكيد على أهمية دور الكلام إلى تحليل صوتي دقيق ، وفي النهاية إلى أقدم علم للنحو في العالم القديم ، تميز بنفاذ تحليلي لم يعرف له نظير حتى العصور الحديثة .

كانت عناصر الأضحية تتوحد ـ نظرياً ـ مع أجزاء الكون ، كما كان ينظر إلى التضحية نفسها على أنها تمثل فعل الخلق مرة أخرى ، وتؤدى دوراً ، لا مندوحة عنه ، في تدعيم الكون والمحافظة على نظامه . وتبادل المنافع البسيطة لنظرية الأضاحي المبكرة ، يسلمنا إلى الفكرة التي تقول إن دقة الإنجاز تفرض الحصول على النتائج ، أما الموضوعات البسيطة للأضاحي المبكرة فهي تسلمنا إلى الدعوى القائلة بأن الكون ككل ، ونظامه الأخلاقي ، يعتمدان على القرابين .

١٢- المرتعدون :

يكتب شعراء الفيدا بوحي من الإلهام ، ويطلق عليهم أحياناً اسم « المرتعدون » ، لأنهم يكتسبون رؤاهم من خلال تركيز ذهني داخلي ، ومؤلفاتهم معقدة في أسلوبها وقديمة في لغتها وشكلها ، فأدبهم مقصور على فئة ضئيلة . وبعد مرور أكثر من قرن على الدراسة الحديثة للفيدا لا يزال فهمها ناقصاً . وتدور معظم الترانيم حول الثناء على الآلهة ، لكن بعض الترانيم النظريةقد بشرت بالفلسفة الهنديةوتركزت حول مشكلة نشأة الكون .

وأقدم أساطير الفيدا عن نشأة الكون هي الأسطورة الهند – أوربية من اتحاد السماء الأب مع الأرض الأم ، لينجبا آلهة السماء أو الديفز Devas . غير أن الأسطورة السائدة في « الريج فيدا » هي أسطورة أندرا وفرتيرا Andra & Vritra وطبقاً لهذه الأسطورة لم يكن هناك فيما سبق الخلق لا واقع (سات Sat) ولا غير واقع (أسات Asat) ولا انفصال بين السماء والأرض [١] ولم يكن ثمة سوى موجودات تسمى أزوراز Asuras مقسمة إلى فئتين : فئة يقودها فارونا Varuna وهم الأديتاس Adityas (الذين يعني اسمهم الانعتاق والتبرعم) ويشتبكون في قتال مع الفئة الأخرى الدفاقوس Davavas (التي تعني العبودية ،

(١) كان النشيد الذي يتغنى به نُسّاك الهنود :

(في البدء لم يكن ما هو موجود ، أو ما لم يوجد ، ولم يكن هناك ما تثبته وما تنفيه

لا أجواء ، ولا سماء وراء الأجواء . لم يكن موت ، ولم يكن خلود

لم يكن ثمة نهار ولا ليل ، لم يكن سوى « الأوحد » يتنفس حيث لا أنفاس و « لاشئ سواه ! »)

(المترجم) .

والقصور الذاتى) تحت قيادة فرتيرا Vritra (واسمه الذى يعنى الغطاء أو الغلاف ، يستدعى معنى مماثلاً) وترتب « الأديتاس » لميلاد البطل « أندرا » من الأرض الأم والسماء الأب وتجعله ملكاً عليها . غير أن « أندرا » المتحصن بشراب « السوما » المسكر ، والمتسلح بالصواعق التى أعدها « تفشترى Tvashtri » ـ الصانع البارع – ذبح « فريترا » وتدفق من بطن فريترا الممزقة سبعة جداول حبلى بجنين الشمس . وهكذا خرجت العناصر التى تدعم الحياة وهى الرطوبة والحرارة ، والنور ، ونشرت الأرض التى هى مستقر البشر ، أما السماء وهى عالم الآلهة ، فقد أصبحت مصانة ومقامة فوق الأرض . كذلك فصل « أندرا » نصف الكرة Sat (الأرض والسماء) عن نصفها الآخر Asat (العالم السفلى) وأقام النظام فى العالم الأول، وانحصرت الشياطين فى العالم السفلى حيث العماء والفوضى . واتخذت الشمس مجراها ، وأرسلت المياه السماوية بأمطارها على الأرض ، وتحددت وظائف الأديتاس « Adityas » وراح « فارونا » يراقب النظام الكونى من عل .

١٣- خلع أندرا :

لا شك أن أسطورة « أندرا وفريترا » كانت فى عصر « الريج فيدا » أسطورة قديمة ، إذ يمكن على الأرجح ، تعقبها حتى فترة الوحدة الهندية الإيرانية مادام الإيرانيون قد عرفوا «ذابح فيرترا » وربما قبل ذلك . فأندرا نفسه يستدعيه حاكم « ميتانى Mitanni » فى معاهدة مؤرخة فى القرن الرابع عشر ق.م من الشرق الأوسط[١] ويظهر المستهزئون فى «الريج فيدا » المتأخرة ، فمنهم من يقول « أندرا » لا وجود له ! هل رآه أحد أبداً ؟ من هو حتى نضطر لمدحه ؟

ويقدم البحث عمن خلق الكون وفى خلفية هذا الإيمان المتداعى بأندرا . لقد خلع أندرا مرات عديدة : مرة بواسطة براجاباتى Prajapati إله المخلوقات[٢] ، ومرة بواسطة فيشفكارمان « صانع كل شىء » وثالثة بواسطة برهمانسباكس Brahmanaspati « إله قوى السحر » التى تمسك بالكون ، ورابعة بواسطة «فاش Vach » «أو الكلمة» وفى ترنيمة بالغة الأهمية نجد أن الخلق ينسب إلى تضحية الإنسان الأول بنفسه بأن مزق

---

(١) بعض آلهة « الفيدا » مثل « أندرا » و « مترا ، وفارونا » مذكورون فى معاهدة عقدت بين الحيثيين والآريين والميتانيين فى بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد (المترجم) .

(٢) وهو رب كل حى . ويقال إنه الشمس التى تولد الحى من الحى ، وقد تحول إلى عظيم جديد اتخذ اسم « برجاباتى » وحل محل أندرا (المترجم) .

جسده [1] ومن رأسه خرجت طائفة البراهمة ، كما خرجت طبقة المقاتلين من ذراعيه ، أما طبقة التجار فقد انحدرت من فخذيه ، وطائفة الخدم (الشودرا) من قدميه ، وبذلك حددت وظائف الطبقات الأربعة ومراتبها . بالطريقة نفسها خلقت الحيوانات والأرض ، والهواء ، والسماء ، والقمر ، والشمس ، والترانيم ، والتراتيل وأشكال الشعر والنثر ، كما خلق أندرا ، وأجنى ، وڤايو Vayu (إله الريح) .

ومع ذلك فأعظم التأملات نفاذاً فى « الريج فيدا » هى تلك التى تصنع مبدأ محايداً مثل « الواحد الحق » الذى يقال لنا إنه يتسمى بأسماء مختلفة مثل : تدرا ، ومترا ،وڤارونا وأجنى .. إلخ على نحو ما يقال إن الآلهة هى مظاهر للمطلق ، وفى مكان آخر ينسب الخلق إلى هذا « الواحد » الذى يشرف على الكون والذى لا يعرف إلا ببصيرة القديسين لا من التراث ، ولا من الآلهة . والواقع أن الشاعر نفسه لم يكن على يقين مما إذا كان هذا الإله نفسه يعرف وقائع الخلق . وهكذا تحقق ضرب من الواحدية الحقة فى نهاية الفترة التى تم فيها تأليف « الريج فيدا » ، وواصلت النصوص التالية البحث عن « المبدأ الواحد » الذى يكمن خلف الكون .

١٤- ديانات الغنوص والانعتاق :

مشكلة الموت هى بداية الفلسفة . لقد كانت السعادة القصوى التى يبحث عنها الآرى الفيدى من خلال القرابين التى يقول بها الدين هى أن يعثر لروحه على مكان بين الموتى الأبرار فى « عالم الآباء » فى قمة السماء ، وتظهر فكرة الموت مرة أخرى فى الأدب البراهمانى الذى يمثل الطور الذى يعقب مباشرة المجموعات الأربعة (ريج ڤيدا ، وساماڤيدار وياجور ڤيدا ، إزاڤيدا) وهو يسبق « الأرانيكا » و « اليوبانيشاد » . ويبدو أن الاقتناع المزعج بأن سكينة النفس فى السماء ليست مضمونة ، كان هو المصدر لكثير من التأملات المثمرة فى اليوبانيشاد المبكرة . فنحن نجد فى اليوبانيشاد لأول مرة ثلاث عقائد مترابطة ، ذات أهمية كبرى لكل التاريخ الدينى المتأخر فى الهند :

---

(١) هناك أسطورة هندية ترى أن « الروح الكونى» تشكل فى الوجود الإنسانى ، كما خاف الوحدة والعزلة فمزق أفهس قطعتين ، قطعة تحولت إلى امرأة فكانت زوجته ، وقطعة بقيت كما هى . وهكذا بدأ تسلسل خلق الإنسان . لكن هناك أسطورة أخرى ترى أن الإنسان الأول كان رجلاً هائلاً ضحى بنفسه وجسده على مذبح الآلهة فحول جسده ذرات صغيرة عادت جزئياتها تتحد ومنها تكونت الأرض وكل ما يحيط بها (المترجم) .

١- العقيدة التى تقول إن النفس تموت على نحوٍ متكرر ، وتولد من جديد ، وتتجسد على نحوٍ متكرر فى كائن حى جديد ، وهى العقيدة المسماة سمسارا « Samsara »[1].

٢- والعقيدة التى تقول إن المرء يتحمل نتائج أعماله فى هذه الحياة الدنيا أو فى الحياة المقبلة (وهى تسمى الكرما Karma) [2] .

٣- والعقيدة التى تقول إن هناك فراراً من التكرار المملّ لتجدد الموت ، وتجدد الميلاد وتسمى « الموكشا » أو « النرفانا » .

والعقائد الكلاسيكية لم تصغ على نحوٍ لا لبس فيه ، ولم تشرح بطريقة نسقية فى «اليوبانيشاد » ، ويستمد هذا الأدب سحره الدائم من افتقاره الشديد إلى النظام فى مقابل الأدب الفلسفى الذى تلاه . فنحن نجد فى اليوبانيشاد المبكرة إلحاحاً نظرياً جريئاً لتجربة أفكار جديدة لم يسمع أحد عنها من قبل ، دون اهتمامٍ كبيرٍ بالتحقق الدقيق من صدقها أو تحديد علاقاتها بعضها ببعض . ولقد وردت بعض هذه الأفكار على لسان شخصيات مرسومة بطريقة حية، ومماله مغزى أن أولئك الذين يعلمون الأفكار الجديدة ليسوا جميعاً من البراهمة . وتستخدم فيها بحرية أساليب من المجاز كالأمثولات والاستعارات . ورغم أن فلسفة هذه الأعمال لاتزال فى مرحلة التكوين والتجريب ، فقد أصبح ينظر إليها فيما بعد على أنها القاعدة والأساس الذى تقوم عليه شروح الفلاسفة وتفسيرهم لها بطريقة تؤيد هذا المذهب الفلسفى أو ذاك .

١٥- الآلهة لابد أن تموت :

توضح العقائد الثلاث السالفة الذكر توضيحاً جيداً الاتجاه الجديد الذى يتخذه الدين الهندى فى هذه الفترة ، فقد كان لدى الآرى الفيدى الأمل فى الحصول على السعادة المادية - فى هذه الحياة الدنيا - وفى السماء بعد الموت . لكن ظهر أن الآلهة نفسها لابد أن تموت ثم تولد من جديد مرة بعد مرة ، وأن ميلاد « الشخص » كإله أو برهمان ، أو إنسان عادى ، أو حيوان أو نبات ، إنما يتوقف على الفضائل أو الآثام التى اقترفها فى التجسد السابق . وهكذا كان تصور الكون على أنه عادل ومنصف تماماً ، والفرد وحده هو

---

(١) سمسارا حلقة مفرغة رهيبة تعبر أولاً عن الصورة فى العالم الحادث ، ثم الانبعاث من جديد بشكل متتابع (الترجم) .

(٢) الكرما : تعنى حرفياً الجزاء على نحو ما يتمثل فى عملية التناسخ فى الهندوسية (المترجم) .

المسؤول عن مصيره أو مصيرها إن كانت أنثى ، من خلال اختياراته الأخلاقية التى تحدد هذا المصير.

وها هنا تكون الاستجابة الفردية النشطة ممكنة ، ولكن لم تكن هذه هى النتيجة بصفة عامة . فسعادة الحياة أو شقاؤها هما المحصلة النهائية لأعمالٍ قام بها الإنسان فى حياة سابقة، وهذه الأعمال لا تغيير فيها ، ولا فكاك منها . ومهما امتدت الفترة الزمنية التى تعبر فيها روح الفرد من ميلادٍ إلى ميلاد ، ومهما ثقلت خطوات الهرب ، فإن المرء لا بد أن يخطو خطوات حاسمة ليحقق الانعتاق نابذاً كل شراك العالم من أجل حياة التأمل الزاهدة، إذ ينفتح أمام الزاهد وحده درب من الإيجابية والفردية النشطة ، وهذه الحيوية النشطة هى نفسها السكينة ، على ما فى ذلك من مفارقة .

وينشأ إمكان الانعتاق من العقائد التى تدور حول وحدة الذات الباطنية العميقة ، أو الروح Atman مع المطلق Brahman ولقد عبروا عن هذه العلاقة بأشكال مختلفة فى «أقوال» اليوبانيشاد الكبرى : أنابراهمان ، وبرهمان هو أنت ، ومن صفات المطلق أنه «لاهو هذا ، ولا هو ذاك» أعنى أنه لا يقاس به أى عنصر من عناصر العالم الظاهرى . والوسائل التى يتم بها الانعتاق من التناسخ واتحاد الروح من جديد مع براهمان هى أيضاً متنوعة فى اليوبانيشاد، ولكن المطلوب باستمرار هو معرفة العلاقة نفسها ، وهذه المعرفة تكون فى بعض الفقرات من النصوص كافية ، كما أنها سر مصون إلى أقصى حد . وفى نصوصٍ أخرى تضاف إليها صفات هامة مثل التأمل وزهد الناسك ، والعمل الصالح .

١٦- الناسك المتجول :

تتحدث «الريج - فيدا» عن «الأشخاص الصامتين» و «أصحاب الشعر الطويل» ، والتركيز الداخلى الذى يستطيع شاعر الفيدا بواسطته أن يبلغ رؤيته ، هو بلا شك نموذج الناسك الذى يبحث عن «الغنوص Gnosis» ، غير أن الناسك نمط دينى ضئيل الشأن جداً فى الفترة الڤيدية المبكرة . ونحن نسمع فى عصورٍ تالية على نحوٍ متزايد ، عن «الشارمان Sharman» وهم النساك المعلمون المتجولون ، وهذا المصطلح يشمل مؤسسى «الجينية Jainism» ، و «البوذية Buddhism» ، وغيرها من الفرق المنشقة . وعندما وصف عالم النحو «باتانجالى Patanjali» «البراهمة» ، و «الشارمان» بأنهم أعداء طبيعيون كالأفعى والنمس ، فيبدو على الأرجح أن مذهب الزهد تطور خارج التراث الڤيدى البرهمى ، وربما كان فى الأصل غير آرى .

انبثق مذهب الزهد ، منذ عصر اليوبانيشاد ، بوصفه الصورة العليا للحياة الدينية ، وبينما ذهب « براهمة – الفيدا » إلى أن تقديم القرابين يدعم النظام الكونى ويحفظه ، فإننا نجد الهنود المتأخرين يعزون استقرار الكون إلى الكفارات الأزلية « لشيفا » ، وهو فى عزلته بجبال الهملايا . وهم يعتقدون أن القوى التى تولدها عملية التكفير تبلغ من الضخامة حداً يجعل الآلهة يرسلون – من غيرتهم وخوفهم – فتيات سماويات لغواية الناسك ، وصرفه عن تأملاته وحمله على تبديد طاقته المدخرة . ذلك أن فضيلة الناسك العظيم يمكن أن تحمى مدينة من الأعداء ، ولهذا كان من العبث الاشتباك فى معركة قبل إفساد الناسك بهذه الخدعة أو تلك . وقد كان تكفير الناسك عن خطاياه قاسياً إلى أقصى حد بالاضطجاع وسط النيران ، والتحديق في الشمس ، والوقوف على ساقٍ واحد ، أو الجلوس جلسة غير مريحة لفتراتٍ زمنية طويلة . هذه التغيرات العميقة فى الحياة الدينية فى الهند من عصر اليوبانيشاد أثناء حياة مؤسسى البوذية والجينية (حوالى ٥٠٠ ق. م) لا يمكن أن تكون مقطوعة الصلة بالتغيرات العميقة التى طرأت على المجتمع الهندى فى الشمال . فمع تضاؤل قوة ومكانة قبائل الكورو Kuru والبنشلا Panchala الفيدية القديمة فى منطقة «دلهى » نهضت ممالك قوية على طول نهر الكنج فى الدول الحديثة مثل مملكتى « أتار برادشى Uttar Pradesh » و « بيهار Bihar » وذلك تحت حكم آريين ليسوا من أتباع الفيدا ، بل وربما كانوا غير آريين ، وإنما ينتسبون للبرهمانية بصورة ضعيفة ، هذا إن كانوا برهميين على الإطلاق . فقد ولت مملكة القبيلة ، وحلت محلها دولة إقليمية تدمج فى سكانها غير الآريين من أهل البلاد الأصليين .

تداعت الأرستقراطية الفيدية القديمة عندما أقام محدثو نعمة لا جذور لهم ممالك ناجحة ذات طموحات إقليمية عدوانية ، وظهرت المدن من جديد فى شبه القارة ، وأدى إدخال سكّ النقود إلى تكوين التجار وأصحاب البنوك ثروات تفوق أى معدل للمرتبة التى يحددها لهم مولدهم طبقاً لفكرة الطبقات الأربعة . لكن الشعور العميق بعدم الأمان الذى جلبته هذه التغيرات لقطاعات عريضة من السكان عبر عنه تعبيراً بليغاً أحد الملوك الذين ذكرتهم اليوبانيشاد ، كما ذكرت مقتطفات من أقوالهم : (عظماء الملوك والأبطال فى الماضى) تخلوا عن مجدهم وانتقلوا إلى العالم التالى : جفت المحيطات وهوت قمم الجبال ، وارتعد النجم القطبى ، وتدلت النجوم وانهارت الأرض ، تخلت الآلهة عن عروشها ، وفى هذا الطوفان كنت كالضفدعة فى بئرٍ جاف .

١٧- خطط زمانية كثيرة :

بقى من حركات نساك هذا العصر التى لا حصر لها ، حركتان هما : الجينية والبوذية. وسوف نناقشهما فى مكان آخر من هذا الكتاب . وقد أصبحت المعتقدات الكلاسيكية عن تناسخ الأرواح ، والثواب والعقاب والانعتاق ، التى كانت فى نصوص اليوبانيشاد فى فترة تكوينها ، أصبحت بديهيات ، بنيت عليها فلسفة لم تعد تخضع للشك . وهناك بديهية أبعد من ذلك كانت شائعة بين جميع المذاهب التالية ، وهى أن الزمان دائرى . فالكون يطرأ عليه النمو والانهيار أو الكون والفساد أو الدمار وإعادة الخلق على نحوٍ لا نهاية له [(١)] ويمكن أن نجد أحد تنوعات دورات الزمن الكثيرة فى « قوانين مانو » فالحقب الأربعة المتتالية التى تنهار خلالها نوبة الحياة والأخلاق والدين ، هى عـلى التوالى حقب تستغرق (٤٠٠٠ ، ٣٠٠٠ ، ٢٠٠٠ ، ١٠٠٠ عام). وكل حقبة من هذه الحقب يسبقها ويعقبها « فجر » و «شفق » لعدة مئاتٍ من السنين تبلغ ١٢,٠٠٠ سنة فى مجموعها ، وفى نهايتها يدمر العالم ويعاد بناؤه من جديد . غير أن الفترة بأسرها ليست سوى عصر واحد من عصور الآلهة، والألف سنة منها عبارة عن يوم واحد من أيام براهما ، الخالق الذى يتساوى ليله مع نهاره [(٢)] وليس للحساب الدقيق أهمية كبيرة ، فالمهم أن الزمن يعمل على تصغير شأن الإنسان ، وأن البشرية تظل فى العصر الحديدى ما بقيت العقيدة فى دور الصياغة والتكوين .

وهناك مبدأ أساسى آخر شائع بين حركات النساك ، وهو مبدأ يتعارض تعارضاً تاماً مع أفكار « الفيدا » ولم يذكر إلا على نحو باهت فى « اليوبانيشاد » ، هذا المبدأ هو مبدأ الأهمسا Ahimsa أو اللاعنف . والفكرة التى تقول إن إزهاق حياة حيوان أو حياة بشرية تحت أى ظرف من الظروف هو عمل آثم ويؤدى إلى ميلاد جديد فى كائن حى آخر أدنى ،

---

(١) عملية ظهور الكون وزواله بشكل متكرر ومتتال ، لم تشرح إلا فى الكتب التى ظهرت فى بداية الهندوسية ، مثل قوانين « مانو » ، وكل حقبة من خلق جديد تسمى يوم براهما ، وتقسم إلى أربع حقب وسيطة تتراتب نزولاً من حيث عظمتها ، ومن حيث مدتها ، وكل حقبة متبوعة بإبادة جزئية للعالم (النترجم) .

(٢) « عندئذٍ يأتى ليل براهما المساوى فى طوله للنهار الذى سبقه » كما جاء فى النصوص الدينية (المترجم) .

هذه الفكرة لا يمكن أن تلعب دوراً فى دين يقوم على أساس التضحية . وعلى العكس من ذلك فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بصفة خاصة بحركات الزهد المعارضة لفيدا ، الحركات المعارضة للتضحية وعلى رأسها الجينية Jainism ومادام الرأى المتطرف يقول إن أى فعل سواء أكان صالحاً أم طالحاً يؤدى إلى التورط فى شراك السمسارا Samsara (دورة الكون والفساد) فإن هذه الحركات تتجه إلى السكينة واللاعنف . ولقد ورث المذهب النباتى الواسع الانتشار فى الهند هذه العقيدة ذاتها ، كما ظهر بوضوح تحريم البقرة ، لأول مرة فى هذه الحقبة بصفة خاصة ، فقد كان الآريون الفيديون يستخدمون البقرة ليولموا لضيوفهم وليضحوا بها لآلهتهم .

١٨- أصول الهندوسية :

لو قارنا الهندوسية فى الألفين الماضيين من السنين مع ديانة « الهند - آريين » المبكرين على نحو ما نعرفها من الفيدا ، لوجدنا بينهما اختلافات مثيرة ، فعلى حين أن الهندوس عبدوا « أيقونة » [١] ، تمثل الإله أو الإلهة الذى اختاروه ، أو اختاروها ، واعتبروها الإله الأعظم - فإن آرىّ الفيدا لم يكن لديهم أيقونات ، ولا علاقات شخصية مع إله واحد أعظم . وبينما تقام عباقد الهندوس فى معبد ، نرى ديانة الفيدا تتركز حول النار المقدسة فى موقد المنزل أو فى المذبح خارج الدار . وعلى حين أن الهندوس يقدمون قرابين من الأشياء والتسابيح بروح محبة متفانية ، آملين فى النعمة الإلهية التى تخفف ، بل تتجاوز وتتخطى العدالة القاسية الموجودة فى نظرية الكرما Karma (تناسخ الأرواح) ، فإننا نجد الآرى الفيدى ينظر إلى قرابينه (فى البداية) على أنها تحقق رغبته فى المشاركة الكونية بين ذاته وبين الآلهة الأسلاف (ثم فيما بعد) كوسيلة تضطر الآلهة عن طريقها إلى التسليم برغباته .

كان مجمع الآلهة الآرى كله ، مع استثناءات قليلة - يمتلىء بالذكور ، وهى ـ فى الأعم الأغلب ـ آلهة سماوية ، على حين أن مجمع الآلهة الهندوسى يضيف إلى أعضائه

(١) الأيقونة Icon كلمة يونانية الأصل Eikon وهى تعنى حرفياً « التشابه أو المماثلة » ، ثم أصبحت مصطلحاً دينياً دَلّ على أى صورة أو رسم أو تمثال لشخصية مقدسة للطبيعة أو للإله ، ولهذا نجد أيقونات أو صوراً مزخرفة لقديسين يكرمهم المسيحيون الشرقيون (المترجم) .

الإلهة الأم ، إلهة الأرض ، وآلهة تتخذ شكل الحيوانات ، مثل أفعى الكوبرا ، وأرواح الأشجار. و« الفيدا » تلعن الذين يعبدون قضيب الرجل ، فى حين أن عبادة شيفا Shiva فى صورة حجر « اللنجا Lingam »[1] ، ظلت عبادة منتشرة لفترة طويلة ، بل يمكن للمرء أن يهبط إلى أمور أصغر ، فآلهة الفيدا يركبون عربات تجرها الجياد ، فى حين أن آلهة الهندوس يمتطون ظهور حيوانات خاصة بهم .

هذه الاختلافات تنفع فى التمييز بين الهندوسية وما سبقها من حركات يطلق عليها اسم البرهمانية Brahmaanism (دون أن ننسى الجينية ، والبوذية والحركات الأخرى غير البرهمية) وهى اختلافات تتطلب بدورها تفسيراً .

والفشل فى العثور على تفسير مقنع لأصول هذه البدع فى أدب الفيدا أو فى المؤثرات الأجنبية ، مثل وجود الإغريق الآسيويين الذين حكموا شمال غرب الهند فى القرن الثانى قبل الميلاد ، هذا (الفشل) يجعلنا ننظر إلى الريف حيث يعيش اليوم ٨٠٪ من سكان الهند ، وهى نسبة مئوية لم يكن من الممكن أن تكون أقل من ذلك فى العصور الغابرة ، فها هنا يعيش ملايين الفلاحين الذين يؤمنون بما يمكن أن نسميه « بهندوسية الريف » ، وهى مجموعة من العبادات التى ترتبط – إن فعلت على الإطلاق – ارتباطاً ضعيفاً بالفيدا . والعبادة الشعبية للأفاعى وأرواح الأشجار يشهد عليها الفن البوذى المبكر كما تشهد عليها هندوسية الريف . وأكثر الآلهة أهمية عند الغالبية العظمى من الفلاحين ليس هو « فشنو أو شيفا Vishnu Shiva » بل إلهة القرية Gramadevata التى غالباً ما تسمى إلهة الأرض أو الأم ، وهى دائماً أنثى على نحو له دلالته ،كما تشرف على خصوبة الحياة الحيوانية والنباتية، وتشرف كذلك على الأوبئة والأمراض ، وصلوات التوسل والاسترضاء عند الفلاح هى صلوات طبيعية ، وهياكل وعبادات هذه الآلهة المحلية الخالصة التى تفكك فكرها الضيق وانحل فى أنواع عامة شديدة التناثر ، كثيراً ما يسهر على خدمتها كهنة غير برهميين ، بل كهنة من الطبقة الدنيا .

---

(١) كان الهنود يعتقدون أن شيفا هو القوة الباعثة على النشاط الجنسى ، ويمثلونها فى أوثان يطلقون عليها اسم « اللنجا » وهو عضو التناسل عند الرجل ، وأصبحت أحجار اللنجا ملقاة فى عرض الطريق يغسلونها بماء نهر الكنج ثم تباع للمتدينين (المترجم) .

١٩- هندوسية الريف :

إن صمت الأدب الدينى الهندى المبكر عن هندوسية الريف ، ليس دليلاً على أنها لم تكن موجودةمنذ أقدم العصور . ومن الأهمية بمكان أن نتذكر أن هذا الأدب كان أدباً برهمياً ، بمعنى أنه أدب كهنة أو نساك . ومما له مغزى أن عبادة الأسلاف الآرية وطقوس المراحل الحاسمة فى الحياة ، وهى المصدر المباشر لما يمكن أن نسميه الهندوسية الآرية المحلية ، لم تبلغ مستوى التعبير الأدبى إلا فى مرحلة متأخرة عندما سقطت تحت السيطرة البرهمية ، رغم أن أصولها ترتد إلى فترة الاتحاد الهند - أوربية . ومما له مغزاه أيضاً أنه على الرغم من أن بعض البراهمة أصبحوا فعلاً كهنة معابد ، فقد كان ينظر إليهم فى الأعم الأغلب على أنهم أدنى من البراهمة الآخرين ، كما أن « قوانين مانو » تحظر وجودهم فى الاحتفالات الجنائزية .

لدينا ، إذن ، ما يبرر الاعتقاد بأن الأوثان أو المعابد وما شابه ذلك هى إسهامات غير آرية، أو على الأقل غير برهمية للهندوسية . ونظراً لصمت النصوص فإننا أحرار فى أن نفترض أن هندوسية الريف كانت تمارس باستمرار ولفترة طويلة قبل أن تصبح برهمية ، وبالتالى قبل أن يكون لها أدب ، وعلينا أن نلاحظ أن حريتنا هذه تعنى أنه ليس ثمة وقائع تدحض هذه الوجهة من النظر أو تؤيدها ، بل ربما جاز لنا أن نعتبر أن الهند كانت هندوسية لفترة طويلة قبل وصول الآريين .

كان للهند ، قبل الغزوات الآرية ، أعظم حضارة مدنية واسعة الانتشار عرفها العالم حتى ذلك الوقت ، ألا وهى حضارة وادى نهر السند التى استمرت حوالى ٥٠٠ سنة من (٢٣٠٠ حتى ١٨٠٠ ق. م) ، وكما هو معروف الآن امتدت مدن هذه الحضارة على طول نهر السند فى باكستان حتى وصلت إلى راجستان الهندية Rajasthan والبنجاب وامتدت شرقاً حتى أعالى نهرى يمنى والكنج دوب Gans Jumna Doab لكى تتفرع على ضفتى مصب النهر بطول ساحل مكران Makran متجهة إلى الغرب و « جوجارات Gujarat » إلى الجنوب بحيث تفصل ألف ميل من أبعد المواقع . هذه المدن بمنازلها المبنية بالآجر المحروق وقلاعها وحصونها وشوارعها ، وهى على نمط الملاعب ، وكذلك نظم الصرف المحكمة ، قد كانت أعجوبة العالم القديم ، كما أن حضاراتها المادية باستثناء ما يتعلق بالتكنولوجيا الحربية والتعدين ، كانت أكثر تفوقاً من حضارة الآريين الذين وصلوا بعد زوالها (إن لم يكونوا هم سبب هذا الزوال) .

٢٠- آلهة وادى السند الذكور والإناث :

إن سيرجون مارشال Sir John Marshall أحد المنقبين عن الآثار فى مهنجو دارو[١]، وفى السند (وهى تعد مع مدينة هاربا Harappa فى البنجاب من أكبر مدن نهر السند) قد صاغ الدليل على مساهمة السند فى الهندوسية المتأخرة ، بل هندوسية نهر السند صياغة ممتازة ، ولعل أفضل ما نفعله هو أن نلخص نظريته .

يعتمد دليله على أختام من أحجار ناعمة وتماثيل صغيرة من مواد مختلفة ، رغم أن بعض المبانى التى كشف عنها التنقيب يظن أنها كانت أضرحة أو معابد خالية من الصور . وتأتى على رأس اكتشافاته « الإلهة الأم الكبرى » ، وبعض تماثيلها عبارة عن تماثيل صغيرة لأنثى حامل ، أما الغالبية العظمى منها فشخصيات نسائية عارية ذات ياقات عالية وأغطية للرأس ، وهى من نفس فئة تماثيل الأنثى التى عثر عليها فى الحضارات الريفية فى تلال وسفوح جبال « بلخستان Baluchistan » بالإضافة إلى التى سبقت حضارة نهر السند وعاصرتها ، وهى تماثيل مشابهة موزعة فى آسيا الغربية كلها حتى بحر إيجة ترجع للعصر الحجرى . ثم يأتى « الإله الذكر » الذى يمكن التعرف عليه فى الحال كنموذج لشيفا التاريخى ، جالساً وباطن القدمين متلامسان فى (وضع اليوجا) ، وصورة عضو التناسل (الذى يذكرنا بعبادة اللنجا) تحيط به الحيوانات معبرة بذلك عن شعار « شيڤا » وهو « إله الحيوان » ، وثمة عدد كبير من التماثيل الحجرية لعضوى التناسل عند الرجل والمرأة ، إما فى صورة رمزية أو واقعية ، وهى تشير إلى عبادة « اللنجا Linga » و« اليونى Yoni »[٢] عند شيڤا وزوجته ، والأحجار التى تمثل عضو الذكورة قد ترتبط تاريخياً بحجر شلجراما Shalagrama شعار فشنو Vishnu وتوحى عبادة الأشجار والأفاعى والثيران (مثل ثور شيڤا) ، رغم أن البقرة ليست من بينها - على اتصال هندوسية العصور التاريخية المختلفة ، كما أن الأفكار (الموجودة) عن طقوس التدنيس والتطهير بالماء ربما تكون متضمنة فى وجود مغطس ضخم ، وربما تفسر تصورات الهندوس عن الدنس .

---

(١) مدينة « همنجور - دارو » والاسم يعنى مدينة الموت (المترجم) .

(٢) كلمتان هنديتان تشيران إلى عضو التناسل عند الرجل والمرأة ، ويرى البعض أن الكلمة الهندية Linga (عضو الذكر) هى الأصل الذى اشتقت منه الكلمة الإنجليزية Link بمعنى صلة أو رابطة (المترجم) .

هذا الافتراض الجذاب قد يفسر وجود عبادات غير ڤيدية متمركزة حول شخصى الإله شيفا والإلهة الكبرى فى الهندوسية ، سواء فى صورتها الريفية بوصفها إلهة الأرض ، أو صورتها التنترية Tantaric [١] وصفها شاكتى Shakti زوجة شيفا . لكن لا بد لنا أن نتذكر أن ألف وخمسمائة سنة من صمت السجلات الأدبية والأثرية تفصل بين انتهاء حضارة نهر السند وبين الشواهد الدالة على ظهور هذه العبادة (أو عودة ظهورها) فى الهندوسية ، ولقد أضافت حضارة نهر السند فصلاً جديداً كاملاً إلى التاريخ الهندى منذ التنقيب المنظم فى عشرينات هذا القرن ، ولكن لايزال الأمر مبكراً جداً للحكم على مدى اتفاق هذا الفصل مع الفصول التالية فى تاريخ الهند ، والمسألة متروكة لعلم الآثار ، الذى طرح المشكلة منذ البداية ، ليقوم بحلها .

٢١- الفلسفة ، والميثولوجيا ، والأخلاق :

هناك ثلاثة ملامح هامة للهندوسية تعطيها شكلاً متميزاً واتساقاً وهى : المذاهب الست Darshanas ، أو الأنساق الستة للمستويات العقلية [٢] ، والملاحم والبراناس Puranas بالنسبة لحكايات الخوارق والأساطير ، ونظام الطبقات المغلقة فى مجال السلوك اليومى . والمذاهب الست هى مذاهب عقائدية تؤدى كل واحدة منها ـ بطريقتها الخاصة ـ إلى الانعتاق من أغلال الوجود الأرضى . وهنـــاك ستة منها تقع فى أزواج متكاملة هى

---

(١) مشتقة من « تنتراس Tantras » وهى صـورة من صـور البوذية تعيش فى التبت ، وتؤكد أهمية السحر (المترجم) .

(٢) المذاهب الست فى الفلسفة البرهمية هى : (١) مذهب نيايا وهو مجموعة من النظريات المنطقية تمتد طوال ألفى عام ، وكلمة نيايا تعنى : « التدليل والبرهنة » أو الطريقة لهداية العقل ، ومؤلفـــه يـــدعى « جوناما » وهو يقول : إن هدفه هو تحقيق النرفانا عن طريق التفكير الواضح المتسق . (٢) والمذهب الثانى هو : مذهب فشكا . ويقول ديورانت عن مؤلفه « كانادا » إنه يشبه ديمقريطس فى الفلسفة اليونانية ، وإن معنى اسمه « آكل الذرات » ، وهو يذهب إلى أنه ليس فى العالم إلا « ذرات وفراغ » ، (٣) والمذهب الثالث هو : سانخيا . وهو أقدم المذاهب الستة . (٤) مذهب اليوجا : والمعنى الحرفى للكلمة هو « النير » ، والمقصود إخضاع الإنسان لنير النظام التقشفى الزاهد ؛ حتى يبلغ طهارة الروح من أدران المادة وقيودها . (٥) ومذهب ميمسا : عبارة عن تفسير خاص للفيدا . (٦) ومذهب الفينتا الذى يعنى خاتمة الفيدا (المترجم) .

Nyaye Vashesika (نيايا وفيشيسيكا) Sankhya & Yoga (سانخيا ويوجا) و Mi-mamsa (ميمسا والفيدانتا) أما « نيايا » فهي مدرسة في المنطق ونظرية المعرفة ، وأما فشسكا فتذهب إلى أن الطبيعة مؤلفة من ذرات أزلية متميزة عن الروح ، وبمعرفتها تستطيع الروح أن تحقق الانعتاق. وأخيراً فإن سانخيا تعارض بين المادة « براكريتي Prakriti وبورشا Pursh أى الروح . لكن الأرواح الفردية - كما هي الحال في الديانة الجينية Jainism - لا متناهية ومتفردة ، ويعتمد الخلاص على استعادة الطهارة الأولى للروح بعيداً عن المادة . ومذهب سانخيا ذات الجوناز Gunas الثلاث (القوى ، وتسمى حيوانات) ، أو الخصائص الأساسية التي تسبب الخير والانفعالات الطاغية ، والكسل أو البلادة في الأشياء والموجودات ، مذهب مؤثر غاية التأثير في جوانب كثيرة من الفكر الهندى .

ولليوجا Yoga (١) ، ميتافيزيقا مماثلة مع إضافة « إشفاراً Ishvara » (٢) ، وهو إله عال وبعيد يجاوز دائماً حدود المادة . ويؤدى نظام « اليوجا » ، وهو ممارسة قانون أخلاقي صارم من خلال أوضاع تفضى إلى التأمل وضبط النفس - إلى « الاستغراق في التأمل » . و « اليوجا » المعروفة عن المتحمسين من الغربيين ، هي تطوير متأخر لهذه الممارسات المبكرة مع التركيز الشديد على أوضاع بدنية أكثر صعوبة تسمى « هاتا يوجا Hatha Yoga » وعلى نظرية فسيولوجية يسعى بمقتضاها اليوجى المستغرق في التأمل إلى زيادة الـ « كوندا لينى Kundalini » وهى قوة روحية متصورة ، على هيئة أفعى ترقد ساكنة في قاع النخاع الشوكى حتى الوريد الرئيسى الكائن في العمود الفقرى ، « خلال ست دوائر للقوة السيكولوجية بطول العمود حتى اللوتس Lotus (٣) في قمة الرأس ، بحيث إذا أكمل (أى اليوجى) هذه الدورات فاز بالخلاص (ليا يوجا Laya Yoga) ويتميز مذهب ميممسا

---

(١) يرى بعض الباحثين أن كلمة « اليوجا » سنسكريتية ، وهى تعنى « الاتحاد » وليس النير ، وتطلق على الحياة الصوفية في الهندوسية ، وهى حياة يراد بها في هذه الحالة تخلص الإنسان من أوهام العالم الحسى ليتحد مع روح الكون ، ويلجأ معتنقو هذا المذهب عموماً إلى التدريب القاسى كسبيل للوصول إلى هدفهم الروحى (المترجم) .

(٢) أشفارا : هو الإله في مذهب اليوجا ، وهى فكرة يجوز للإنسان تأملها لتكون وسيلة للمعرفة (المترجم).

(٣) اللوتس في الأساطير القديمة : نبات من يأكله يشعر بالنشوة أو الاسترخاء ، وقد ورد في أوديسة هوميروس وصف شعب من الكسالى يأكلون اللوتس ، وهى هنا زهرة ذات ألف بتلة (المترجم) .

Mimamsa عن المذاهب الأخرى بأنه مدرسة لتفسير الفيدا واستمرار لمذهب القربان البرهمى ، والواقع أن مذهب الفيدانتا Vedanta هو أكثر المذاهب الستة أهمية ؛ لأنه يشكل التراث الفلسفى الهندوسى الرئيسى حتى يومنا الراهن[١] وكان شارحه الأكبر من جنوب الهند هو الفيلسوف الهندى شانكارا Shankara (٧٨٨ - ٨٢٠م)[٢] الذى بلور الاتجاه الواحدى لليوبانيشاد فى مذهب يعالج الروح كوجه للمطلق غير المشخص (براهمان) والعالم كوهم أو خداع (مايا Maya) ومن هذه المذاهب فى الأصل لا سيما مذهب «شانكارا » و « اليوجا » بعيداً عن تراث الفيدا ، وفى فترة مبكرة للغاية ، وربما كانت منضمة إلى حركة شرامانا Sharmana [٣] .

٢٢- الشعر الهندوسى والأسطورة :

تعد الملاحم الأعمال الأسطورية العظيمة فى الهندوسية ، وأقصد بها ملحمة المهابهاراتا Mahabharata (وهى قصيدة بطولية تتألف من ١٠٠ ألف زوج من أبيات الشعر التى تصف صراع وقتل الأخوين بين باندافاس Pandavas وكورافاس Kauraas، وهما حاكما منطقة دلهى فى زمن (الفيدا) ، وملحمة الرامايانا Ramayana (وهى قصيدة أسطورية طويلة تحكى أعمال الملك راما ملك أيوذا Ayodhya) مع ملاحق عن أساطير الخلق وقوائم بالملوك ، وحكايات خارقة ومذاهب دينية تسمى بوراناس Puranas (مأثورات قديمة) .

وهذه الملاحم لا تعبر عن فرق معينة ، وإنما هى أعمال مركبة تختلط فيها ، بسهولة ، الآلهة المتنافسة مع العقائد ، وهى ملكية عامة لجميع الهندوس ، إذ يمكن لأى فرد أن يجد فيها إلهه المختار ، وطريقته المفضلة فى الخلاص ، وعلى الرغم من أنها كتبت باللغة

(١) كلمة « فيدانتا » تعنى فى الأصل ختام الفيدا ، أعنى اليوبانيشاد ، أما اليوم فيطلقها الهنود على المذهب الفلسفى الذى يدعم فكرة اليوبانيشاد عن الله والروح وبراهما (المترجم) .

(٢) فيلسوف وقديس ألف أشهر ما كتب عن الفيدانتا من شروح ؛ لهذا قيل عنه إنه أعظم فلاسفة الهنود جميعاً . تجول فى جميع أنحاء الهند ثم استقر فى كشمير ، وكان فى قمة مجده حوالى عام ٨٠٠ ميلادية (المترجم) .

(٣) المعلمون الروحيون القدماء - وهى حركة تميزت بها البراهمة بعقيدتهم فى الخلاص عن طريق الزهد والإلحاد (المترجم) .

السنسكريتيه ، ومن ثم فهى فى حماية البراهمة بصفة خاصة ، فإن لغتها متنوعة أكثر فى شعبيتها ، كما يدل مضمونها على أن الديانات الشعبية صبغت بصبغة برهمانية . والقانون الأخلاقى الذى يلزم بالعفة التى قد تصل إلى حد الزهد ، هو الشرط الذى لا غنى عنه لجميع مذاهب الخلاص ، ولمعظم الفرق الهندوسية ، ورغم أن الديانات التى تسعى إلى الانعتاق من العالم تكافح لكى تصل إلى حالة تختفى فيها التميزات المتعارف عليها بين الخير والشر ، فإن الأخلاق تقوم بدور المقدمة الافتتاحية ، أو الحركة الأولى ، فى الحياة الدينية . وللأخلاق فى حياة الهندوسى اليومية ـ من ناحية أخرى ـ أهمية فائقة ، ويمكن أن نوجزها إلى حدٍ كبير فى كلمة واحدة هى اجتناب النجاسة .

ومع بداية العهد المسيحى ، وربما قبل ذلك بكثير ، وصل المجتمع الهندى إلى الحد الذى تألف فيه من آلاف من الطبقات المغلقة Castes التى تضع قيوداً صارمة على الأكل والشرب والزواج والأخوة ، ثم على التدخين فيما بعد – مع أعضاء الطوائف المغلقة الأخرى . وخرق هذه القواعد يجلب النجاسة ويستوجب الكفارة ، عن طريق التطهر ، وفى الحالات القصوى قد يبعد الآثم عن الجماعة . بل إن النجاسة التى يتعرض لها المرء بغير قصد لا بد من علاجها ؛ لأن المرء قد يصبح نجساً ، بإرادته أو رغماً عنه ، فى بعض الظروف التى لا يمكن تجنبها كأن تكون هناك حالة وفاة فى الأسرة . ونظام الطبقات المغلقة الذى يرتب هذه الطبقات تبعاً لنقائها الداخلى ، وإمكان تعرضها للنجاسة بدءاً من الأنواع المختلفة من البراهمة حتى الطوائف التى لا يجوز لمسها فى أسفل السلم ، كما ينظم واجبات كل طائفة، هذا النظام قد منح الهندوسية والمجتمع الهندى إمكان دوامه ونزعته المحافظة ، وقبوله للخصائص التى تنفرد بها الجماعات الأخرى .

٢٣- الفرق الهندوسية :

تبدو الفرق الهندوسية كجزر صغيرة تمثل معالم بارزة فى محيط الهندوسية الواسع . والواقع أن عدد الهندوس الذين ينتمون للفرق قليل نسبياً ، وليس من الضرورى أن يكون الهندوسى عضواً فى إحدى الفرق لكى يمكنه أن يقدم القرابين لآلهة القرية ، أو أن يغتسل فى أماكن الحج ، أو أن يتعبد فى المعابد . ولما كانت الفرق أكثر ملاءمة للدراسات التاريخية من الملاحم ، والتراث القديم ، مثلاً ، ولما كان ظهورها فى القرون الأخيرة قبل المسيح مباشرة ، فقد أصبحت تشكل جانباً هاماً من تطور الهندوسية ، لهذا فإنه ينبغى علينا أن نتعقب ظهورها .

إن الهندوس المنتمين للفرق يمكن التعرف عليهم من العلامات المميزة التي يحملونها، فإذا كانوا من أتباع « فشنو » فلهم علامتان متوازيتان من وشم ترابي أبيض ينحدر من خط الشعر حتى قصبة الأنف مع خط رأسي يربط بينها في الأسفل مع إضافة علامة مميزة خاصة بالفرقة التي ينتمون إليها . كذلك سيميزهم عقد ومسبحة حباتها مصنوعة من شجيرة مقدسة عند « فشنو ». أما إذا كانوا من أتباع « شيفا » فهم يضعون ثلاثة خطوط أفقية متوازية من وشم ترابي على جباههم . ويلتحق الهندوسي بفرقته الدينية عن طريق الترسيم الديني ، والعنصر الحاسم فيها هو اتصال العضو بالصيغ المقدسة Mantra لفرقته عن طريق المعلم الروحي « Guru » . وهذا الترسيم نسخة من الترسيم البرهمي ، مع إضافة بعض التعديلات الخاصة بالطائفة . وصيغة المانترا Mantra بصفة عامة هي « أوم Om » يبايع س ، حيث ترمز « س » إلى اسم الإله الذي تعبده الفرقة . ولما كانت المعرفة (المانترا) هي العلامة الحقة للعضوية وكانت ذات فعالية مُخلِّصة ، فإن « المانترا » لا يصح أن يكشف عن سرها لأحد خارج الجماعة . ولكن لو أن أحداً من خارج الجماعة تصنت على «المانترا» أو قرأها في كتاب ، فلن تكون لها أدنى قيمة ؛ لأن قوتها الخاصة لا يكون لها تأثير إلا عندما يتصل بها المعلم الروحي المدرب مشافهة ، وهكذا يفترض الانتماء إلى الفرق علامات مميزة ، وترسيماً خاصاً ، وأنواعاً من المانترا ، والمعلمين الروحيين Gurus ، وذلك يتضمن تسلسلاً للمعلمين الروحيين ومجموعة محددة تحديداً جيداً من الأتباع الذين مرُّوا بعملية الترسيم ، أي تتضمن جماعة دينية . وأخيراً فإن للفرقة « بطبيعة الحال » ، تعاليمها الخاصة ، وطرقاً وأوقات خاصة للعبادة ، وإلهاً معيناً أو وجهاً للإله يتجه إليه المتعبدون ويأملون أن يستمدوا منه الخلاص . ويمكن أن تصنف الفرق الهندوسية تبعاً لموضوع العبادة بحيث تكون لدينا فرق لـ : شيفا ، وشاكتي ، وفشنو .

٢٤- شيـڤـا :

أياً ما كانت حقيقة النظرية المتعلقة بأصله المنحدر من حضارة السند ، فإن شيڤا أو بالأحرى « رودرا Rudra » كما يُسَمَّى هناك ، موجود في « الريج ڤيدا » وله وظيفتان في الڤيدا المبكرة ؛ فهو « المولول أو الصارخ Howler » المصحوب بآلهة العاصفة أو « الماروت Maruts » التي تبعث البرق ، وله القدرة على التحكم في المرض ، ومن ثم في الأعشاب الشافية ، وهو إله مرعب صاخب ؛ ولهذا ينبغي استرضاؤه . وحين لا يضرب البرق قطيع

الماشية نتيجة للصلاة المقدمة إليه ، فإن هذا الإله يسمى « باشوبا Pashupa » ، أى حامى القطيع . وعندما يتقى شر المرض ، تنسب له قوى الشفاء . وفى نصوص الڤيدا المتأخرة نجد أن صفات « رودرا » قد امتدت فأصبحت له رقبة زرقاء ، وبشرة حمراء، واتسعت دائرة اختصاصه فشملت الغابات واللصوص والمنبوذين ، والأعشاب الطبية والقطعان . وهو المهلك ذو الشعر الأشعث ، ولكنه حين يُسترضى يصبح شامبهو Shambhu وشانكارا Shankara وشيڤا Shiva (أى الرءوف ، المحسن ، المبشر بالخير) ، ويعبده المرء لكى يتحاشاه ؛ وحتى يتفادى أوبئة قطيع الماشية ، فإنه يقدم ثوراً قرباناً للإله « رودرا » خارج حدود القرية مصحوباً بكل علامات شعيرة النحس . والواقع أن شيڤا المرعب المزدوج الدلالة لم يختف أبداً اختفاء تاماً .

وكان « رودرا » شخصية صغيرة فى « الريج فيدا » ، وجاء ارتفاع « شيڤا » إلى مكانة مرموقة بالتدريج بحيث أصبح مركزاً للعبادة . ومع حلول القرن الثانى ق. م بدأنا نسمع عن المتعبدين لشيڤا الذين يبدو أنهم كونوا فرقة دينية . وهناك شاهد واضح على أن « اللنجا » (الحجر القضيب) الذى تشكل فيه شيڤا ، وعُبِدَ على نطاق واسع ، قد جاء بعد ذلك ولكن بالإضافة إلى « اللنجا » المفترضة فى حضارة نهر السند ، نجد فى « الريج فيدا صلاة لاندرا Indra يقصد بها ألا يسمح لأولئك الذين يعبدون القضيب بتدمير طقوس التوسلات الآرية.

وأقدم فرقة « لشڤا » فى التاريخ هى باشوباتا Pashupata التى أسسها لا كولا La-kula الذى عاش تقريباً فى القرن الأول أو الثانى الميلادى والذى كان يعتبر تجسيداً لشيڤا نفسه . ولقد مرت فترة تكوين باشوباتا بعدة مراحل ، طبقاً لما ترويه آداب هذه الفرقة ، لتحقيق الخلاص ، ففى المرحلة الأولى اغتسل وعاش فى الرماد المتخلف من المحرقة ، وقام بشعائر العبادة فى المعبد : كالضحك ، والرقص ، والغناء، والنطق بالصوت « هودوك Hu-duk » مثل خوار الثور ، وترديد التعاويذ.

وفى مرحلة أعلى من مراحل الجدارة الروحية ، تخلى عن العلامات المميزة للفرقة أو الطائفية الدينية ، وهام على وجهه وحيداً وراح يثير غضب الإنسان العادى لغطيطه إذا نام ، واهتزازه كمن أصيب « بداء الريح » ، والقيام بإشارات غرامية للنساء ، وبالسلوك الغبى ، ولغو الكلام ، ثم يلى ذلك مراحل أعلى أكثر احتشاماً حيث يحتل التأمل مكان الصدارة .

ويفسر السلوك الغريب الذى مارسه فى المرحلة الثانية نظرية تقول إن الكرما Karma السيء لباشوباتا قد حل محله كرما خيِّر صالح يلومه على سلوكه . ولكنه إلى جانب ذلك يعَبر أقصى تعبير عن رفض الناسك للعالم وانعزاله عنه .

ونحن نعرف عدة فرق للشفا ظهرت فى قرون تالية مثل فرقة الكابليكاس Kapalikas (حملة الجماجم) التى توضح من جديد التقييم المتجاوز لكل القيم عند الناسك ، وهم فى ذلك قد يحملون عن قصد علامات « زايج براهمان » أعنى وعاء التسول على هيئة جمجمة ليجلب على نفسه الخزى والعار ، إضافة إلى الإفراط فى شرب الخمر وأكل اللحوم والممارسة الجنسية المحظورة أثناء تأدية الطقوس الدينية بحيث يمكن تميزهم والتعرف عليهم بوصفهم الجناح اليسارى فى التانترية Tantries[1] (انظر فيما بعد) ، وقد بقيت أمثال هذه الحركات من النسك المتطرف حية على الرغم من حط الكثيرين لشأنها ، فازدهرت لعدة قرون . والواقع أن نساك « شيفا » المتوحدين المنعزلين أو ما يسمى « السيدها Siddhas » قد انتشروا فى شمال الهند كله فى القرون السابقة على الفتوحات الإسلامية ، وأسهموا مساهمة كبيرة جداً فى الحركات الفلسفية والدينية فى التبت والهند .

٢٥- طرق الخلاص :

إن قبول الشيفية Shaivism من قبل المجتمع المحترم ـ ولدينا شواهد تؤكد وجودها فى القرن السابع ، وكذلك بين عددٍ غفير من الناس العاديين – يدل على تطور فرق تخلت عن أنواع من الطقوس الغريبة التى كانت تمارس فى فرق سابقة ، والالتزام بأساليب سلوكية أقل التباساً وفظاعة . وإحدى هذه الطرق هو مذهب « شيفا » الذى انتشر على نطاقٍ واسع فى جنوب الهند . وكانت طرقه لبلوغ الخلاص وهى الأوراد والتأمل الدورى ، والتأمل اليوجى ، والكفارة ، وعبادة « اللنجا » وما شابه ذلك ، قد اعتبرت برهمية ، ولم تثر أى اعتراض عليها . ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن شيفية كشمير ، ولكليهما آداب لاهوتية شاقة أو ذات أهمية ملحوظة .

---

(١) نسبة إلى تانترا Tantra ، وهى صورة من صور البوذية تؤكد السحر وممارساته لاسيما فى التبت . والتانتريزم Tantrism : هى البوذية فى التبت (المترجم) .

وتشكل الكلاموكاس Kalamukhas فرقة ازدهرت فى جنوب الهند لبعض الوقت ثم اختفت من يومها . ورغم إساءة خصومهم من « الفشنافيين » لهم ، فقد واصلوا دراسة الڤيدا كما درسوا نصوص الفرق التى تخالفهم فى معابدهم الواسعة وأديرتهم الكبيرة ، وتحاشوا ألوان السلوك البشع الذى كانت تقوم به فرق شيڤا الأخرى ، وقطعوا على أنفسهم عهداً : ألاّ يؤذوا أحداً وأن يقولوا الصدق ، ويتجنبوا السرقة ، ويتمسكوا بالعفة والفقر . وقد تأسست فرقة « الڤيراشيڤا Virashaiva » أو « اللنجايات Lingayat» فى القرن الثانى عشر[1] ، وربما كانت نسخة معدلة من «الكلاموكاس » التى اختفت فى ذلك الوقت تقريباً ، وآلت بعض معابدها الآن إلى فرق « الفيراشيفا » ، ولقد أدت التعاليم السنسكريتية وعبادة « اللنجا » دوراً هاماً فيهما معاً . والواقع أن الفرقتين « الكلاموكاس» و «الڤيراشيڤا » وصفا بأنهما « جنجامس Jangames » (تحريك اللنجا أو تجسيد اللنجا) . ويقضى الترسيم الدينى عند الڤيراشيڤا بأن يوضع « لنجا صغير » فى صندوق من الفضة يضعه كل عضو من أعضاء الفرقة حول رقبته . وكان « باساڤا Basava » مؤسس هذه الفرقة وزيراً فى عهد الملك بيجالا Bijala الكلاشورى Kalachuri (١١٤٥ - ١١٦٧م) . ويقال إنه جر على نفسه غضب الملك وأثار حفيظته عندما استنفد خزانة المملكة فى التصدق على «الجنجامس Jangames » ، ودبر بمساعدة الشعب لاغتياله بعد فترة من الاضطهاد الملكى . ويشكل « الفيراشيفيون » اليوم طبقة مغلقة أو بالأحرى جماعة من الطبقات لها كهنتها الخاصة « براهمة اللنجا » بطقوسها التى تشبه على نحوٍ مثيرٍ وهام الطقوس البرهمية الأصلية .

وفى تأميل نادو Tamil Nadu فى أقصى جنوب الهند أناشيد دينية لقديسى شيڤا تسمى « نايانارس Nayanars » تشهد بنفاذ الأوراد الشيفية الشعبية إلى أقصى حدود شبه القارة منذ القرن السابع أو الثامن على وجه التقريب حيث سبقتها البوذية والجينية كما تشهد بأنها لازالت مزدهرة هناك .

---

(١) يقول ديورانت : « النجايات » هم أخلص عباد اللنجا عقيدةً ، وهم يمثلون أشد مذاهب الهند « تزمتاً وطهراً » ، قصة الحضارة جـ٣ ص ٢٢٤ (المترجم) .

٢٦- شاكتى والتنترية Shakti & Tantricism :

لقد رأينا أن هناك مبرراً قوياً للاعتقاد بأن ربة الخصب كانت تعبد فى الهند منذ بداية العصر الحجرى الحديث ، وأن عبادتها تشكل جانباً هاماً من الخلفية غير الآرية للهندوسية . ويخبرنا « بانا Bana » أحد كتاب القرن السابع ، أن قبائل جبال ڤينذا Vindhyas فى وسط الهند قدموا قرابين من اللحم ، وجرحوا أنفسهم ؛ ليقدموا دماءهم الخاصة للربة شانديكا Chandika . وفى فقرة أخرى نجد أن ملكة « أوجاين Ujjain » فى غرب الهند ، قامت بعبادة هذه الربة نفسها لكى تنجب ابناً ، وإن كانت هذه العبادة أقل بشاعة من العبادة الأخرى . وهكذا نجد أن السكان الأصليين يشتركون مع علية القوم فى عبادة هذه الربة – الأم . وأياً ما كانت عبادة « الربة الكبرى » أو الإلهة العظيمة « شاكتى » (١) ، فإننا نستطيع القول إن عبادتها ازدهرت من القرن الخامس ، وهو العصر الذى أقيم فيه معبد « يحتشد بالشيطانات المقدسات عند الأمهات اللائى يصحن بأعلى صوت فى الظلام » حتى يومنا الراهن .

أما من الناحية الأسطورية فقد تصوروا أن « الإلهة الكبرى » هى زوجة شيڤا ، ولها مثله جوانب مسالمة وأخرى مرعبة فى آن واحد ، فهى « بارفتى Parvati » « سيدة الجبال» وهى عروس شيڤا الجميلة ، وهى « كالى » القبيحة المتعطشة للدماء التى تطلب ضحية من الحيوان قرباناً ، وفى بعض الأحيان تطلب قرباناً بشرياً . وبوصفها ساكنة جبال ڤيندياس Vindhyas (٢) فإنها تتربص بالمسافرين ،كما أنها راعية اللصوص وقطّاع الطرق ، وبوصفها « دودجا Durga » فقد ذبحت الشيطان ماهيشا Mahisha الذى تجسد فى صورة جاموسة . ولقد أصبحت بذلك مقاتلةً رهيبةً ومخلصةً للبشرية فى وقتٍ واحد ، وعبادة «دورجا » هى الآن عبادة متميزة جداً فى البنغال ، حيث يحتفل كل عام ، احتفالاً مؤثراً ، بعودتها كعروس شابة إلى بيت والدها . والواقع أن « دورجا » هو شىء يرمز للقومية البنغالية والهوية المحلية .

أما من الناحية الفلسفية فإن الإلهة الكبرى هى شاكتى Shakti أو قوة شيڤا Shiva التى تمثل القطب المضاد للذكورة والوعى والسكون . والواقع أن الفاعلية الخاصة بأى إله

---

(١) شاكتى معناها : القوة التى تبعث النشاط (المترجم) .

(٢) سلسلة من الجبال فى شمال الهند موازية لنهر ناربادا Narbada (المترجم) .

هى « شاكتى » ، وهى تتشخص فى زوجته ، أما الارتباط الذى يبعث على قدر من الدهشة بين الأنوثة وبين الطاقة والمادة من ناحية ، وبين الذكورة والسلبية Passivity من ناحية أخرى فى هذه القسمة الثنائية ، فيمكن أن تكون له جذور فى ميتافيزيقاً سانخيا Sankhya القديمة التى نشأ فيها العالم نتيجة لاتحاد بركريتى Prakriti (المادة – جنس الأنثى) وبروشا Purusha (أرواح الأفراد – جنس الذكر) التى هى المتفرج السلبى .لكن الخلاص عند « سانخيا » يعتمد على تخليص الروح من اشتباكها مع المادة ، بينما تحاول التانترية Tantricism التغلب على الاستقطاب الجوهرى بهذا الاتحاد ، وبدون « شاكتى» فإن شيفا يصبح جثة هامدة .

والتانترية هى ديانة تانترا Tantras وأى قانون كهنوتى لشيفا أو فايشنافا يمكن أن يسمى « تانترا » تميزاً له عن شاستراس Shastras الخاصة بالديانة البرهمية ، أى العلم والقانون ، غير أن مصطلح التانترية Tantricism يشير إلى تلك الديانة التى تتألف نصوصها من حوار بين شيفا والربة . وأتباع التانترا Tantras يسمون فى الأعم الأغلب شاكتاس Shaktas مع المتعبدين للربة الكبرى . و « التانترية » بالمعنى الواسع، سمة تتسم بها البوذية فى التبت ، ولقد تغلغلت عناصر التانترية فى مذهب « الجينية »، و « الفشينافية Vaish-navism » إلى حدٍ ما . لكن شيفا وزوجته شاكتى هما الإلهان الرئيسان بين التتريين الهندوس .

والعتاد الفلسفى للمذهب التنترى ليس استثناءاً بين الديانات الهندية ، فمعظم أركان الحياة الدينية فيه يمكن أن نجدها كذلك عند الفرق الهندوسية الأخرى فهناك الترسيم المعتاد الذى يقوم به المعلم الروحى Guru ، والاتصال بمنترا Mantra والطقوس الدينية ، والصلوات ، والتأمل . والملفت للنظر هو درجة تعدد « المانترا » والطقوس الدينية ، ومدى تعقد النتيجة التى تترتب على ذلك ، ومما يلفت النظر أيضاً عملية العكس المنظم والمتعمد للطعام والمحرمات الجنسية فى طقوس قلة من الفرق التنترية على نحو ما لاحظنا من قبل عن فرقة الكاباليكاس Kapalikas .

٢٧- مراحل الغبطة القصوى :

يصنف الأشخاص تبعاً لكفاءتهم الروحية إلى باشو Pashu (أى الحيوان) ، وفيرا Vira (أى البطل) ، وديفيا Divya (الإلهى) ، ولكل كفاءة طريقتها المناسبة ، وبعبارة

أخرى فإن هذا التصنيف الثلاثي للأشخاص يقابله ثلاث مراحل على طريق بلوغ الغبطة القصوى التي يمر بها المبتدىء على التوالي ، فبين الكاولاس Kaulas مثلاً عند المرحلة الأولى من مذهب القربان الفيدى تكون « باكتى Bhakti » الشفناوية ، وغنوص Gnosis شيفا على التوالى هما الطريقتان اللتان تحققان التسامى والارتفاع ، ويعقبها التكريس و « النيسا Nysa» مع الإشارة إلى الجوانب المختلفة من الجسد والنطق بـ « مانترا » الخاصة بالآلهة التي تتمكن بذلك من الدخول في المتعبد بشرط أن يتم هذا باتجاه داخلى نحو العبادة . أما مرحلة البطل فتشمل معظم طرق التانترا المتميزة ، وهى التى تسمى بطقوس «الميمات الخمسة » (البانشاماكارا » التى يشارك فيها البطل على التوالى ، فى الخمر والسمك واللحوم والحبوب الجافة والمعاشرة الجنسية[١] ، وفى المرحلة العليا يصبح السالك الطموح ميتاً بالنسبة للعالم ومتناقضاته ، ومتحرراً ، رغم استمرار وجوده فى الجسد . والواقع أن الطريقة المرموقة في جميع صور مذهب التنترية هى « ليايوجا Laya yoga » .

وتتجه ممارسات الطقوس مثل طقوس الميمات الخمسة إلى الشخص البارع أو المجرب فقط ، وهو الذى يسيطر على انفعالاته العنيفة سيطرة حازمة ، ولذلك لم تستطع أن تسير عليها سوى قلة محدودة من الفرق يسمون بالأتباع اليساريين ، وذلك يميز طرقهم عن العديد من الطرق التنترية والأكثر تقليدية لجناح اليمين [٢] الذى يستبدل رموزاً لا ضرر منها بالأشياء المحرمة ، أو ببساطة يتجاهلها تماماً وتستمد طقوس الطرق اليسارية قوتها من العكس المتعمد للأخلاق المستقرة . والهدف الواضح لطقوس الميمات الخمسة هو الارتفاع بالمتعبد فوق الثناء والذم والخجل والتفاخر بالأسرة والطائفة كخطوة نحو التحرر من القيود التى تعوق المرء عن بلوغ الغبطة القصوى ، وفى الوقت نفسه تشهد الطقوس بأن الأخلاق السائدة تمنع بقوة أشياء مثل : الخمر ، وتناول أكل اللحوم وكذلك الممارسات الجنسية خارج الزواج الشرعى .

---

(١) هذه الطقوس كلها تبدأ بحرف الميم ؛ ولهذا تسمى بالميمات الخمسة . وهى على التوالى : Madya أي : الخمر ، و Matsya أى : السمك . وممسا Mamasa أى : اللحوم ، ثم الحبوب Madia ، وأخيراً العملية الجنسية Maithuna (المترجم) .

(٢) الأتباع اليساريون هم الذين ينظمون عبادتهم عن طريق طقوس سرية بعيدة عن الأخلاق ، أما الأتباع اليمينيون فهم الذين ينظمون عبادتهم التى تتركز فى تقديس الآلهة والحياة والصحة (المترجم) .

٢٨- فيشنو Vishnu :

إن فيشنو بصفة عامة ـ على خلاف شيڤا وشاكتى اللذين نجد فيهما باستمرار وجهاً مرعباً للإله ـ هو الإله المحسن على الدوام ، وهو أشبه بأبوللو بالنسبة لشيڤا أوديونسيوس ، وهذا يتناسب مع إله ذى أصول شمسية .

وهناك إشارات قليلة فى « الريج ڤيدا » إلى تدبير فشنو للكون ، لكن هناك نسخة كاملة ذات شكل آخر للحكاية موجودة فى برهمانا شاتابات Shatapath Brahmana .

ولقد وافق الأشورراز Asuras على إعطاء أعدائهم من الديفاز Devas مساحة من الأرض لتقديم القرابين عليها شريطة ألاّ تزيد على المساحة التى يغطيها قزم بجسمه ، واختار الآلهة فشنو الذى رقد وانتفخ حتى أصبح يُغطى الأرض كلها ، وبذلك نقلها إلى حوزة الديفاز Devas .

بعد بدايات متواضعة إلى حد ما ، احتال فشنو لينمو قوامه حتى يضم فى شخصه عبادة العديد من الآلهة المختلفة وتعرّف عليه ملايين كثيرة فى الهند بوصفه الإله الأعظم ، وتبعاً للمأثورات الشعبية الهندية الكلاسيكية فإن فشنو يرقد نائماً فى المياه الأولى فوق لفات أفعى الكوبرا ذات الألف رأس . ومن سرته تنمو زهرة « لوتس » حاملة براهما الذى خلق العالم ، وهنا يتجسد فشنو فى شخص الخالق « نارايانا Narayana » ، وقد اندرجت تحته آلهة أخرى بوصفها (أفاتارا) أو تجسيدات أرضية له.

وتبعاً لنظرية الأفاتارا Avatara (تجسد الآلهة) فإن الإله فشنو اتخذ شكلا أرضياً لكى ينقذ العالم عندما هددت قوى الشر بتدميره . ويمكن بصفة عامة أن نتعرف على عشرة تجسدات هى :

١- **السمكة Matsya** التى أنقذت مانو Manu (أو الإنسان الأول) والحكماء ، والفيدا من الطوفان العظيم .

٢- **السلحفاة Kurma** التى ركبت الآلهة فوق ظهرها ، واستولوا على قمة جبل مندارا Mandara ، ومن هناك مخضوا محيط اللبن ؛ كيما يستردوا « طعام الآلهة » الذى فقدوه فى الطوفان .

٣- **الخنزير البرى Varaha** الذى قتل « هيرانيكاشا Hiranyaksha وأنقذ الأرض من المحيط الكونى الذى ألقاها فيه الشيطان .

٤- **الإنسان الأسد Narasimha** فالشيطان « هيرانيكاشابيو » نال بركة إلهية

تجعله لا يُقتل فى داخل البيت ، أو خارجه أثناء النهار أو الليل ، لا بواسطة إله ولا إنسان ولا وحش . واندفع فيشنو من عمودٍ فى قصر الشيطان على صورة الإنسان الأسد فى الغسق عندما لم يكن ثمة نهار أو ليل وقتل الشيطان على عتبة القصر .

٥- **القزم Vamana** وهو صورة مختلفة من حكاية الفيدا ، إذ يظهر القزم أمام الشيطان بالى Bali ، ويمنح بركة عبور أى مكان فى ثلاث خطوات واسعة ، فهو فى خطوتين يغطى الأرض والهواء والسماء . وكرما منه أحجم عن أن يخطو الخطوة الثالثة إلى عالم الموتى ، وتركه للشيطان بالى .

٦- **راما صاحب الفأس** (أو بارشو راما Parashu Rama) الذى نظف أرض الكشاترية Kshatriyas إحدى وعشرين مرة على التوالى دفاعاً عن البراهمة ضد النهب الملكى .

٧- **راما ، ملك أيوذيا Ayodha** بطل الرامايانا الــذى قــتل الشيطان رافانا Ravana الذى يقطن سرى لانكا .

٨- **كرشنا** (انظر فيما بعد) .

٩- **بوذا Buddha** ، وربما أضيف إلى هذه التجسيدات لكى يجذب العناصر المارقة إلى المذهب الفشنوى .

١٠- **كالكين Kalkin** وهو يجسد المستقبل ، وقد وصف فى صور مختلفة على أنه حصان ، أو إنسان برأس حصان ، وإنسان يمتطى صهوة حصان أبيض ، فى يده سيف ملتهب ، وسوف يحكم الأرض بالعدل ، ويستعيد العصر الذهبى .

وهذه الشخصيات ليس لها أتباع اليوم فيما عدا ، راما ، وكرشنا ، وبوذا . ولم تظهر عبادة راما إلا فى عصر الفتوحات الإسلامية . وهو يمثل فى « ملحمة الرامايانا ، الفروسية والبطولة الكشاترية ، أما زوجته الملكة سيتا Sita فتمثل العفة والوفاء وقد رفعت إلى أعلى مكان ولكنها لم تُؤلَّه بعد . هذا إلى أن كرشنا من ناحية أخرى كان موضوع عبادة مبكرة.

٢٩- كرشنا Krishna :

ابتهج كرشنا وهو طفل بالفكاهات الماجنة ، وأدهش الكبار بما حققه من معجزات كثيرة ، أما وهو فى سن البلوغ فقد كان راعياً للبقر ، يعزف على الناى ولهاناً ويدعو

زوجات وبنات المنطقة ليعبث معهن ، وولا سيما « راذا Radha » محبوبته [١] ولما بلغ مبلغ الرجال أصبح بطلاً يذبح خاله ـ أو ابن خاله ـ الملك كمشا Kamsa [٢] ملك ماتورا Mathura كما تنبأت النبوءة التى قالت أن كمشا أمر بذبح الأبرياء يوم مولد كرشنا ، ولقد حكم كرشنا ماتورا بعض الوقت ، لكن التقلبات السياسية أجبرته على أن يقود أتباعه من اليافا Yadava إلى ڤفارجا Dvaraka على الساحل الغربى حيث تزوج روكمين -Rukmi ni وأقام مملكته ، ولكن المملكة انهارت بعد قليلٍ بسبب عداء مستحكم بين أسرتين ، وقتل ابنه ومات كرشنا نفسه عندما أخطأ صياد كان يهيم حزيناً فى الغابة وحسبه غزالاً فرماه فى الكعب ، وهو المكان الوحيد الذى يسهل منه إصابته فى مقتل .

وتتألف قصة كرشنا من عناصر أضيفت إلى القصة الرئيسية فى عصور مختلفة ومن مصادر متنوعة . واسمه نفسه يعنى « الظلام » أو « السواد » ويوحى بإله بطل للسكان الهنود الأصليين المائلين إلى السواد ، ومجموعات قبلية مختلفة ومتميزة تربطه فى الحكاية التى تروى عنه . ويظهر كرشنا فى البداية كبطل وقاتل لـ « كمشا Kamsa » ومغامراته الشهوانية مع الجوبى Gopis أو « راعيات البقر » تلعب دوراً هاماً فى الأسطورة وفى الأدب الدينى فى العصور الوسطى فحسب ، أما كموضوع للعبادة فلم يولد الطفل كرشنا إلا بعد أن تحدد نضجه وبلوغه .

ويظهر كرشنا فى ملحمة « المهاباراتا » كسائق لعربة أرجونا Arjuna فى الصراع بين الأخوة . وفى اليوم الأول من المعركة يرفض أرجونا – عندما يرى عدداً من أقاربه بين صفوف الأعداء – أن يقاتل أو أن يقترف خطيئة قتل الأخوة ، بالغاً ما بلغت عدالة القضية. . وحواره مع كرشنا الذى اقتنع خلاله بوجوب القتال يسمى بهاجاڤا جيتا Bhagavad Gita (وهى تعنى على وجه التقريب « أنشودة (المبارك) ، وهى من أوسع الآداب الكلاسيكية انتشاراً عند الهندوس ، وأوفرها نصيباً من الرعاية والإعزاز [٣] .

---

(١) تروى القصة أن الشاب كرشنا راح يغازل فتاة بكر تحلب اللبن من بقرة ، ثم وقع فى حبها وهذه الفتاة هى راذا (المترجم) .

(٢) كان كمشا ملكاً ظالماً يقتل كل طفل ذكر وفقاً لما تقوله الأسطورة (المترجم) .

(٣) يقول « ديورانت »إنها بمثابة العهد الجديد فى الهند « والهنود » يبجلونها بعد كتب الڤيدا نفسها ، ثم يستعملونها لحلف الأيمان فى المحاكم كما يستعمل الإنجيل والقرآن . قصة الحضارة جـ ٣ ص ٢٩٨ (المترجم) .

٣٠- ورطة أرجونا :

نشأت حيرة أرجونا، باختصار شديد ، من السؤال عن دارما Dharma (وهى الاستقامة، الدين ،القانون ، الواجب) الذى يأمره بوصفه محارباً أن يقاتل ، ولكن يمنعه بوصفه قريباً أن يقتل ذوى قرباه أو عدوه كورڤاس Kauravas وحل الأزمة من زاويتين : فمن ناحية يذكره كرشنا أن من واجبه المقدس بوصفه أحد المقاتلين الكشاترية أن يقاتل دفاعاً عن الخير ، وأنه من الأفضل فى الواقع أن يؤدى المرء واجبه الخاص تجاه الطبقة التى ينتمى إليها ووضعه فى الحياة ، حتى ولو كان متديناً ، بدلاً من أن يؤدى الواجب نحو الآخرين ، بالغاً ما بلغت قيمته ، ومن ناحية أخرى بالنسبة لقتل الأقارب ، أشار كرشنا إلى أن الروح Atman لا تقتل أبداً ، وإنما تطرح الجسد بالموت وتتخذ جسداً جديداً فى ميلاد تلو ميلاد . وتحمل الفكرتان معاً نظام الطبقة المغلقة نوعاً من الالتزام الدينى ، وتجعلان من تأدية الطبقة لوظائفها وأعرافها واجباً دينياً . لكن هناك مضامين أبعد من ذلك : ألم يكن من الأفضل لأرجونا أن يطرح سلاحه ، وأن يترك المجتمع وواجباته ويسعى لبلوغ الخلاص بأن يحيا حياة الناسك فى زهد وسكينة ؟ ومادام الفعل يقود إلى التناسخ Karma ، فيبدو أن تجنب الفعل هو السبيل الأوفق ،ويعلن كرشنا أن هذا صحيح : فأولئك الذين يسعون إلى الخلاص من خلال أفعال تقديم القرابين الفيدية يواصلون التناسخ ، بينما يتفوق عليهم أولئك الذين يسعون إلى التحرر عن طريق التأمل الزاهد ونبذ الفعل .

إلى هذا الحد تكون الحجة يوبانشادية ، لكننا لو فحصناها عن كثب لوجدنا أن الناسك يخدع نفسه لو تصور أنه قد توقف عن كل فعل (إذ لا بد له أن يواصل التنفس والأكل... إلخ) وعلى ذلك فالامتناع الكامل عن كل فعل لا يمكن أن يتحقق ، ومع ذلك يمكن تجنب نتائج الفعل التى تحدث التناسخ المتعاقب عن طريق التخلى عن ثمار الفعل ، وذلك بأداء الواجب بنزاهة ، لأن الرغبة لا الفعل فى حد ذاته Per Se هى الفاعل الذى يربط الروح بهذا العالم الوهمى الفانى . وهكذا فإن رب البيت ليس بحاجة إلى أن يصبح زاهداً ليبلغ درجة التحرر من Samsara (أى دورة الكون والفساد) ، بل إنه بحاجة فقط إلى نبذ ثمار الفعل ، والقيام بواجبه دون أن يبالى بالنتيجة سواء كانت سارة أو ضارة .

تلك هى التعاليم الرئيسية « للجيتا Gita » ، والإجابة على حيرة أرجونا . ولكن هناك تعاليم أخرى اتفقت إضافتها إلى ما سبق ، وهى بالغة الأهمية : إنها تعاليم بختى Bhakti (أو محبة الله) ، فمن يعبد الإله كرشنا بروحه كله هو الناسك الأعظم ، وأولئك الذين

يتأملونه عند الموت يتحدون معه بحيث لا يكون ثمة تناسخ إذا ما وهب الإنسان قلبه كله لله، بل إن الإنسان الشرير إذا ما عبد الإله يصبح مقدساً ، وحتى النساء من الڤيزيا أو الڤايشيا Vaishyas (١) والشودرا Shudra (٢) يبلغن الخلاص إذا لجأن إلى الله .

٣١- الحركة الفشناوية :

إن ديانة التفانى والمودة هذه التى جذبت إليها النساء وأعضاء الطبقات الدنيا ، قد أُعْلِن عنها لأول مرة فى الجيتا Gita ، ثم كان لها دور طويل ومثمر فى تاريخ الهند . ومن الأمور التى لها مغزاها أن قديسى فشنوفى « تاميل نادو » من القرن السابع حتى القرن الثانى عشر (الألڤار Alvars الاثنى عشر) قد دخل فى صفوفهم أعضاء الطوائف الدنيا ، وأنهم كتبوا شعراً صوفياً فى تمجيد الإله باللغة العامية ، وهى ظاهرة تكررت فى شمال الهند تحت حكم سلطنة دلهى والمغول القدامى .

أعطى « رامانوجا Ramanuja لحركة « بختى فشنو » فى جنوب الهند فى القرن الحادى عشر أساسها النظرى ، وقد ذهب المذهب الواحدى لشنكارا العظيم ـ الذى تبلور فى تراث « اليوبانشاد » ـ إلى أن الروح متحدة فى هوية واحدة مع براهمان غير المشخص ، وأن العالم هو خدعة أو وهم براهما ، ولا يكون واقعياً إلا بالمعنى العملى المشروط . ولم تترك هذه الفلسفة المهيبة أدنى مجال للبختى (محبة الله) ؛ إذ أن الروح العظيم عندها ليست مشخصة ولا موضوعاً للحب أو التفانى . والروح الفردية جزء منها ، بحيث أن معرفة هذه الهوية ـ لا محبة الله ـ كانت فى نظرها وسيلة الخلاص وقد رجع راماجونا إلى تراث اليوبانشاد ووجد تبريراً للواحدية المشروطة (الڤيشنادڤينا) التى يكون عندها الروح الأعظم إلهاً شخصياً محبوباً صدرت عنه المادة والفرد ، وإن بقى متميزاً عنهما ويعود المرء من خلاله (بختى – أو محبة الله) إلى كتف الله ، ومع ذلك تحتفظ الروح بهويتها المنفصلة .

ويضفى « رامانوجا » على « البختى » سمات برهمية بأن يحصر ممارستها العملية فيمن ولد مرتين من الطبقات الثلاث ، كتتويج لمعرفة طقوس الڤيدا والفلسفة الفيداية . لكنه يضيف طريقة جديدة مفتوحة للجميع ، وهى طريقة براباتى Parapatti أى إلقاء المرء بنفسه تماماً بين يدى الله أو التسليم الكامل لإرادة الله . وقد انقسم أتباع « راماتوجا»

(١) طبقة الزراع والتجار (المترجم) .

(٢) طبقة الخدم (المترجم) .

حول مسألة طبيعة التسليم ، وشكلوا من أنفسهم جماعتين : مدرسة الشمال التى تقول إننا نبلغ الخلاص إذا ما تشبهنا بالقردة التى تحمل صغارها ملتصقة ببطنها ، أعنى أن على الفرد أن يبذل شيئاً من الجهد لينال الفضل الإلهى أو النعمة الإلهية . واستخدمت مدرسة الجنوب التشبه بالقطة التى تحمل صغارها من رقابها ، أعنى أن الفضل الإلهى لا يحتاج إلى جهد بشرى .

وقد سار مادهفا Madhva وهو برهمى من القرن الثالث عشر ، باللاهوت الفشنوى صراحة إلى الثنائية Dvita فقد ذهب إلى أن فشنو ، الأرواح الفردية والعالم المادى متمايزان إلى الأبد ، فالأخير يعتمد إعتماداً تاماً على إرادة فشنو ، والرب ينقذ من يشاء وإن كان لا ينقذ إلا الأنقياء فحسب ، أما الإنسان العادى فمصيره إلى التناسخ بغير توقف ، والأشرار بطبيعتهم مصيرهم إلى الظلام الخارجى ، ولايستبعد التأثير المسيحى فى نظريات مهاديفا .

وتسمى الفرق الفيشنية المبكرة ، التى نسمع عنها بهجافات Bhagavates ، وأقدم ما نعرفه عنها من نقوش هو الموجود على عمود مرتفع يعلوه جارودا Garuda الطائر الغامض الذى ركبه فشنو ، ودونه رجل يونانى من أتباع هذه الفرقة اسمه هليودورس Heliodorus وهو سفير مملكة الهند اليونانية « تكسيلاً Taxila لدى الملك شونجا Shunga فى شمال الهند فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد . ويبدو أن أتباع هذه الفرقة عبدوا فاسود ايفا Vas-udeva (كرشنا) وأخاه سنكارشانا Sankarshana ، وابنه برادیما Pradyumma ، وحفيده « أمورذا Amurudha » بوصفهم آلهة صدرت عن فشنو . وعلى أية حال فنظرية الصدور هذه بوصفها أقانيم للعقل والروح .. إلخ . كانت السمة التى تميز بها مذهب بنشارتا Pancharatru الذى اتخذ منه « راماجونا » نقطة الانطلاق .

٣٢- آلهة أخرى :

هناك آلهة أخرى لها عبادات خاصة ، أو كان لها عبادات خاصة ، مثل براهما Brah-ma الخالق (الذى يتميز عن براهمان Brahman المطلق غير المشخص) الذى كانت له معابد ، لبعض الوقت ، أُنشئت لتكريمه ، وأشرفت زوجته سارسفاتى Sarasvati على الموسيقى والكلام ، وعبدها الموسيقيون والكتاب والطلاب الذين يؤدون الامتحانات . وكان الإله سيريا Surya أو الشمس يعبد لبعض الوقت على نطاقٍ واسعٍ فى غرب الهند ، ويقوم على خدمته . « ماجا – براهمين Maga Brahmins (المجوس البراهمة) الذين يجب

الربط بينهم وبين مجوس فارس . أما ابن « شيفا » واسمه « جانشا « Gansha » وله رأس فيل ، فهو رب العقبات الذى يصلى له الناس فى بداية أى مشروع ، أو قبل القيام بطقوس دينية ، على الرغم من أن لم تكن له عبادة خاصة . وهناك ابن آخر لشيفا هو « سكندا Skandu » (كراتيكايا سوبر اهمانيا) وكان محبوباً إلى أقصى حد عند التاميل -Tamil nad » حيث اتحد مع الإله موروهان Muruhan » أحد آلهة الفترة السابقة على وجود الآريين . أما لاكشمى Lakshmi زوجة فشنو فهى ربة الحظ وهى شخصية شعبية محبوبة، رغم أنها بغير عبادة خاصة . وأما هانومان Hanuman الإله القرد مساعد راما ، فهو الروح الحارس الذى يعبده القرويُون على نطاقٍ واسع ، ولهذا كانت للقردة حماية واسعة فى الهند بوصفها ممثلة لهذا الإله .

٣٣- هندوسية العصر الوسيط :

فى القرن الثامن الميلادى ـ أو القرن الثانى الهجرى – امتدت السيطرة العربية حتى وادى نهر السند ، ونجحت فى إقامة منطقة صغيرة مستقلة (١) وفى القرن الحادى عشر الميلادى ، القرن الرابع الهجرى ، عادت الفتوحات الإسلامية بقيادة الأتراك الأسيويين فى وسط آسيا ، الذين أسسوا ، بقيادة عبد عسكرى (أى مملوك)هو قطب الدين أيبك ، سلطنة لهم فى دلهى عام ١٢٠٦ (٢) . ومع بداية القرن الخامس عشر كانت السلطنة ، قد وضعت معظم جنوب شبه القارة تحت سيطرتها ، وسرعان ما انفصل حكام المقاطعات ، وأصبحوا قوة مستقلة . وفى القرن السادس عشر أذعنت سلطنة دلهى لحكم صفوة أخرى من العسكريين الأتراك فى وسط آسيا هم المغول .

وقفت الهند ، لأول مرة فى مواجهة غازٍ لا تستطيع أن تتمثله ، فحكامه وطاقمه الإدارى الفارسى قد انتهوا إلى تراثٍ خاصٍ بهم ناضج من الناحيتين الثقافية والدينية ، كما

---

(١) كانت أول هجمات المسلمين على ملطان غرب البنجاب عام٦٦٤ م ، ثم قاموا بغارات مختلفة على مدى القرون الثلاثة التالية حتى انتهى بهم الأمر إلى توطيد سلطانهم فى وادى نهر السند ، على أن الفتح الإسلامى الحقيقى لم يقع إلا بعد نهاية الألف الأولى من التاريخ الميلادى (المترجم) .

(٢) لعله يقصد محمود الغزنوى سلطان وادى غزنة الذى يقع فى الجزء الشرقى من أفغانستان ، وقد غزا الهند عام ٩٩٧ م ، ثم قامت قبيلة تركية من الأفغان عام ١١٨٦ بغزو الهند والاستيلاء على دلهى بقيادة السلطان قطب الدين أيبك (المترجم) .

أنهم أغلقوا على أنفسهم مدناً ذات أسواراً عالية ، وكان اتصالهم الوحيد بالهندوس – باستثناء حالات قليلة جداً – وملحوظة – من خلال جهاز تحصيل إيرادات الدولة ، وهو جهاز بقيت مستوياته الدنيا في يد أبناء البلد ، وكذلك من خلال القمع العسكرى للعصيان أو التمرد الذى قد يعنى رفض الضرائب الباهظة المفروضة عليهم ، أو العجز عن دفعها أو المطالبة بتخفيفها . والواقع أن أى تكهن بتبادل مثمر للأفكار قد أصيب بالإحباط ، وربما عملت المفاهيم الدينية الأجنبية نفسها للإسلام السنى على زيادة عزلة الحاكم عن المحكومين التى فرضوها على أنفسهم . ومع الأيام اعتنق الإسلام أكثر من خُمْس سكان شبه القارة وهو أمر لا يجوز إرجاعه إلى المؤسسة الرهيبة فى سلطنة دلهى ، فالحكام المسلمون لم يفكروا قط فى وضع خطة لتحويل عقيدة السكان إلى الإسلام ، ولم يهتموا بتشجيعه ، رغم أنهم أعطوا أنفسهم ما يبرر تخريب المعابد وقمع التمرد بحجة تحطيم الأوثان القديمة ونشر العقيدة الإسلامية .

ولابد أنْ يكون التحول إلى الدين الجديد قد جاء من مصدر آخر مختلف أتم الاختلاف ، وأعنى به صوفية فارس أو الشيوخ الذين جابوا الريف مبشرين بديانة الحب الصوفى لله ، وللبشر ، وأقاموا صوامع (أو خلوات) مفتوحة لجميع طبقات المجتمع للعبادة الجماعية والتأمل الصوفى . ولقد ضربت الصوفية على كثير من الأوتار الحساسة عند الهندوسية ، لا سيما حركة بختى (محبة الله) فى مذهب الفشنية : على ضرورة وجود مرشد (بير – جورو Pir guru أو الشيخ – المعلم الروحى)(١) والانصياع له ، والاقتراب من الله عن طريق الحب والاعتماد على النعمة الإلهية ، وأهمية الاستغراق فى التأمل ، ومراحل الطريق للاتحاد مع الله وفى الأماكن التى لم يتم فيها التحول الدينى (إلى الدين الجديد وهوالإسلام) أثر شيوع الأفكار الإسلامية ورواجها بقوة فى الفكر الهندوسى من خلال الصوفية .

٣٤- الاتجاه نحو الوحدانية :

فى استطاعتك أن تجد شعراً مسهباً لقديسى « بختى الفشنوين » فى هذه الفترة بين أقدم الآداب الشعبية فى اللغة القومية لشمال الهند ، فقد أنضجوا اتجاهات التراث الهندوسى

---

(١) يستخدم المؤلف هنا لفظ « Pirs » ، وهى كلمة فارسية معناها : مشايخ الطرق ، انظر المعجم الفارسى السابق (المترجم) .

فى المناخ الدينى الذى أوجده الإسلام ، ولهذا نجد أن كثيرين منهم يهاجمون الأوثان بصراحة ، كما يهاجمون العقوبات الدينية الموجودة فى نظام الطوائف المغلقة وفاعلية الطقوس الدينية أياً كان نوعها . ولقد كان عدد كبير من هؤلاء القديسين متواضعين من الناحية الاجتماعية كما أن تعليميهم كان بسيطاً ، وكانت أداة التعبير عندهم هى الشعر لا الفلسفة النسقية أو المنهجية وكانت ديانتهم هى البختى (محبة الله) (وليس الغنوص Gnoses) فاتجهوا إلى الوحدانية ، وإلى الإله الشخصى ، لا إلى المطلق غير المشخص ، يحدوهم الأمل فى الاتحاد بالله وليس مجرد الاستغراق فى الألوهية .

وكان راماندا Ramanda فى القرن الرابع عشر شخصية نموذجية لهذه التطورات . ورغم أنه برهمى فقد تحول فى شمال الهند ليعظ هناك باللغة القومية كل أنواع البشر وفى كل الأوضاع ، وكانت فكرة الموائد المشتركة والعبادات المشتركة بين أتباعه من جميع الطوائف مبتكرة وجريئة . ونحن نجد بين القوائم التقليدية لتلاميذه أسماء حلاق هو «راجبوت Rajput » وآخر صانع جلود ، وامرأة ، ونساج مسلم وهذا الأخير اسمه «كابير Kabir » وقد ازدهرت فى القرن الخامس عشر فى الأيام الأخيرة من عصر سلطنة دلهى . ويستبعد أن يكون الاثنان متعاصرين ، أما تعاليم كابير فقد عبر عنها صاحبها فى أبيات قوية من الشعر الهندوسى ، وكان لها تأثير كبير وظلت باقية بين أشياء أخرى محفوظة فى كتب السيخ المقدسة ، وهى الفرقة التى أسسها ناناك Nanak الذى كان شاباً يعيش فى تلك الفترة، والداديوبتبز Dadupunthis وهى فرقة هندوسية كان زعيمها دادو Dadu منظف قطن مسلم من جوجارات Gujarat فى القرن السادس عشر .

لقد وجه كابير انتقادات بالغة العنف للوثنية ، وللطقوس الدينية للبراهمة ، كما انتقد مميزات المولد (فى نظام الطبقات) وذلك كله يعكس الجانب الإسلامى من تعاليمه ، ولقد أمدته الهندوسية بخلفية أفكاره ومعالمها البارزة ، كما أن ديانة القلب ضمت الاثنين . ويروى عنه أن أتباعه من الهندوس والمسلمين اعتركوا حول جسده بعد موته وتنازعوا الرأى : أيدفن ذلك الجسد أو يحرق ؟ وبينما هم فى تنازعهم ذاك رفع أحد الحاضرين الغطاء عن الجثة فإذا بهم لا يرون تحته إلا كومة من الزهور تقاسمها الفريقان ، فأحرق الهندوس نصيبهم من ذلك الزهر ، ودفن المسلمون نصيبهم . وبقيت حتى اليوم مؤسسات إسلامية وهندوسية تحيى ذكرى « كابير » . أما شعره فهو تراث مشاع بين هنود الشمال ، يتخطى الحدود الضيقة للفرق التى ظهرت بعد وفاته . ولقد كان « تلسيداس Tulsidas » فى

القرن السادس عشر شخصية أخرى بارزة بين الذين يعبدون راما Rama وصياغته « للرمايانا» تشغل مكانة مركزية فى أدب الأوراد الهندوسى .

٣٥- مراهقة كرشنا :

وبجانب عبادة راما التى ظهرت لأول مرة فى ذلك الوقت تطورت العبادة العتيقة لكرشنا فى اتجاهات جديدة ، وطوقت العبادتان معاً « الفيشناويين Vaishnava[1] فى شمال الهند. كان العنصر المشترك بينهماهو الميل إلى تفضيل عبادة الإله الأعظم على تجسيد فشنو الذى لم يعد يذكر إلا نادراً . وخلال هذا العصر احتلت مراهقة كرشنا ومداعباته الغرامية مع حالبة البقر ـ ومع راذا Radha بصفة خاصة ـ مركز الصدارة ، وفى منطقة « ڤرندا ڤانا Vrindavana (برينداپان Brindaban) قرب مدينة « مأثورة » التى كانت مسرحاً لطفولة كرشنا ومغامراته الغرامية ، تلقى أحد البراهمة فى أواخر القرن الخامس عشر ، وأوائل القرن السادس عشر ، أمراً إلهياً من كرشنا يوجهه إلى إقامة ضريح ، وأن يجمع تجسيدات رفاق كرشنا فى أيامه الأخيرة لعله يلعب معهم مرة أخرى ، وتقوم مدرسة ڤالابها Vallabha[2] بتدريس الفكرة القائلة إن أعلى صور « لبختى » هى صور لا إرادية ، وهى تأتى من الله مباشرة . ويتجمع أكثر أعضاء الجماعة تقدماً لكى يعيدوا مرة أخرى ألعاب كرشنا . وأتباع « فالا بها » الآن فى غرب الهند هم المعلمون الروحيون للفرقة ، ولهم سيطرة كبيرة على جمهور المؤمنين .

توطدّت عبادة كرشنا بسرعة كبيرة فى شرق الهند خصوصاً فى البنغال ، وأحد الأعمال الأدبية للكرشنيين ومن أكثرها رقة هو « جيتا جوفيندا Gitagovinda » الذى كتبه باللغة السنسكريتية شاعر القرن الثانى عشر « جياديف Jayadeva » ، ولا يزال أسلوب نظم التراتيل عند شعراء البنغال والميثال اللاحقين هو أساس الغناء الدينى عند أتباع « فشنا » أما كيتانيا Chaitanya ـ وقد كان معاصراً لـ « فلابها » ، فهو نموذج للقديس راعى مذهب فيشنا البنغالى ، وينظر إليه أتباعه على أنه تجسيد لـ « كرشنا » ، مثله فى ذلك مثل

---

(١) طائفة الفيشناڤا معبودها الأعلى « فشنو » ، وبعض أتباعها يجد شبهاً بين التجربة البشرية والعشق البشرى (المترجم) .

(٢) « فلابها » من شراح الفيدا ، عاش فى القرن السادس عشر ، وقد جمع حوله عدداً كبيراً من التلاميذ فكون مدرسة ، ثم تولى ابنه فيتهال هذه المدرسة من بعده (المترجم) .

« فلابها » ، وقد كان المظهر الرئيسى الذى ساد حياته هو جلسات الإنشاد التى كان يعقدها والتى جذب من خلالها الأتباع له ولعبادة كرشنا .

٣٦- الاتحاد بالله :

تستخدم آداب رادها - كرشنا تعبيرات مجازية شهوانية لشرح علاقة البشر بالله ، ولتشجع « البختى » (محبة الله) بطريقة الأسرار الصوفية ونشيد الإنشاد فى الكتاب المقدس ، فها هنا تكون الروح مؤنثة فى علاقتها بالله الذى تشتاق إليه ، وهى تصف ألم الانفصال عن المحبوب وغبطتها بالاتحاد معه . ويركز « كيتانيا » وأتباعه على الانفصال والأمل فى الاتحاد ، وهكذا يظل التعبير المجازى مجرد مجاز فحسب . وهناك فرقة أخرى أصغر هى « السهاجيا Sahajiyas تذهب إلى أن غبطة الاتحاد بالله يمر بها المرء خلال الممارسات الشهوانية ، وربما تأثرت فى هذا بالتنترية Tantaric ، وجاءت موازية لحركة « فلابها » . أما فى « المهارشترا Maharashtra » فتسود عبادة فيتوبا Vithoba (أو عبادة فشنو - كرشنا) وزوجته « روكمينى Rukmini ونادراً ما نسمع عن عشيقته راذا . ومؤسس هذه العبادة وهو جننشفارا Jnaneshara وخليفتاه ناموديف Namdev فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، و « توكارام Tukarm »[1] فى القرن السابع عشر ، هم أعظم قديسى بختى (محبة الله) المارثيين العظام .

ولقد كان قديسو« ماراثا » كغيرهم من القديسين فى ذلك العصر ، يذهبون إلى أن التجربة العليا متاحة لأى إنسان بغض النظر عن طبقته ، وأن الخطاة الذين تابوا وأحبوا الله يطهرون أُسَرِهم جميعاً ، وأن بختى (محبة الله) وحدها هى الطريق إلى الخلاص . ولقدكتب هؤلاء القديسون كذلك ، كغيرهم فى ذلك العصر ، أناشيد دينية فائقة القوة ورائعة الجمال ، وقد ظلت أساساً للإنشاد الدينى فى منطقتهم حتى يومنا الراهن .

ومع تطور العصر المغولى انقضت الفترةالخلاّقة « لبختى » فى شمال الهند ، وبحلول االقرن الثامن عشر انتهى الإصلاح والتجديد تماماً . ولكن فى الفترة الأولى من حكم

---

(١) كان توكارام من الصوفيين المارثيين الذين يكتبون باللغة العامية (المترجم) .

الإمبراطور العظيم أكبر (١٥٥٦ -١٦٠٥) [١] ، لا سيما فى تعاليم حفيده داراشيكو Dara Shikoh بلغ الاتجاه إلى دمج الصوفية الإسلامية فى البختى الهندوسى ، بل مع الغنوصية اليوبانشادية حده الأقصى ، فنبّه ذلك المسلمين وحذرهم تحذيراً شديداً . وتمثل رد الفعل عند خلفائه من الأباطرة ، لا سيما « أورنجزيب » (١٦٥٨ - ١٧٠٧)[٢] ، فى سيطرة جماعة العلماء Ulama (وهم مجموعة من الباحثين يمكن أن نصفهم بأنهم أساتذة الشريعة) الذين أصبحت لهم الكلمة على نحوٍ لم يحدث أبداً فى الماضى . أما فى الجانب الهندوسى ، فإن القديسيين من شعراء « البختى » جمعوا أتباعاً لهم تحولوا تلقائياً إلى تكوين فرق وأصبحوا ـ مع مرور الوقت ـ طوائف مغلقة ، ولا يدهشنا أن يحدث ذلك، ؛ لأنه ما أنْ يضيف أتباع أحد القديسيين العشاء المشترك إلى العبادة الشعبية ، وترتيل الأناشيد الدينية ، حتى يصبحوا عرضة للطرد من قبل زملائهم فى الطبقة ، وهم يضطرون إلى البحث بين أعضاء آخرين فى فرقهم عن أزواج لبناتهم ، وما أن تنعقد موائد العشاء المشترك ، ويتم الزواج المشترك حتى يصبح الفارق بين الفرقة والطبقة بسيطاً للغاية وهكذا أحبط المجتمع الهندوسى بوجه عام إمكان القيام بإصلاح اجتماعى داخل الفرق الدينية ، كما أحبطت هذه الفرق نفسها التعاليم المعارضة للطقوس الدينية ، والمعارضة للمعتقدات الوثنية التى قال بها مؤسسوها القديسيون وذلك بتطوير طقوس دينية متميزة تجعل من القديس وأتباعه أو كتاباته موضوعاً للتوقير .

---

(١) إمبراطور المغول الذى حكم الهند من (١٥٥٦ ـ ١٦٠٥ م) واسمه الأصلى جلال الدين ، ولقب بالأكبر لما قام به من جلائل الأعمال ، لكنه كان مستبداً شديد القسوة ، وأمكنه شن حروب متواصلة لتوسيع رقعة إمبراطوريته ، وكان أكبر أمياً لكن بلاطه كان مقصد العلماء ورجال الأدب والفنون (المترجم) .

(٢) إمبراطور المغول (١٦١٨ ـ ١٧٠٧) والتاريخ الذى يذكره المؤلف هو فترة حكمه ، كان محباً للاطلاع والعلم ، وتشدد فى إقامة العدالة بين رعيته ، والتمسك بأهداب الإسلام ، كان عصره أزهى عهود الأباطرة المغول فى الهند (المترجم) .

٣٧- القومية الهندوسية :

فى عصر « أورنجزيب » رفع أميرمن مارثا Maratha اسمه شيڤاجى Shivaji [1] لواء الدفاع عن الدين والوطن ضد حكام الهند المسلمين . وأنشأ دولة « مارثا » فى هضبةالدكن ، وسرعان ما فتت هذه الدولة من عضد القوة المغولية . وهكذا ظهرت القومية المارثية والقومية الهندوسية فى معارضة الوجود الإسلامى . وعلى الرغم من أن دولة «مارثا» أصبحت ، فى ظل حكامها المتأخرين ، تمثل سيطرة مارثا على غير المارثيين ، سواء من الهندوس أو المسلمين على حد سواء ؛ فقد وضعت سوابق كثيرة للقومية الهندوسية المتأخرة قبل سقوطها تحت السيطرة البريطانية .

٣٨- الهندوسية فى العصور الحديثة :

كما تطورت الهندوسية فى العصر الوسيط مرتبطة بوجود الدين الإسلامى ، وتحت حكم أجنبى ،فقد بزغت الهندوسية الحديثة ، مع بداية القرن التاسع عشر كرد على وجود البعثات التبشيرية المسيحية ، والحكم الإنجليزى . ولا شك أن الطرق الجديدةفى العبادة وبرامج البعثات التبشيرية ، وبعض التصورات اللاهوتية والأخلاقية للحركات الهندوسية الجديدة ، فى القرن التاسع عشر ، قد استوحت النموذج المسيحى ، كما سار الاهتمام الاجتماعى المنظم لهذه الحركات موازياً للشعور الأوربى والنموذج التبشيرى. وقد قدم المستشرقون الأوربيون مصدراً خارجياً للتأثير فى استعادة ماضى الهند على قواعد علمية .

كان الجواب الهندوسى على هذه المؤثرات وعلى خطر التهديد بالتحول إلى الديانة المسيحية هو محاولة تجاهلها على أنحاءٍ شتى ، والقيام بمحاولة لإحياء الهندوسية وبعثها ، أو إصلاحها بطرق تناسب حاجات العصر والنظرة الإنسانية فى وقتٍ واحد . والحقيقة البارزة فى هندوسية القرن التاسع عشر هى أن الإصلاح الجذرى للدين ظهر أولاً ، بينما الحركات التى انتشرت انتشاراً واسعاً وكانت أكثر صراحة فى الدفاع عن الديانة التقليدية ، ظهرت فى

---

(١) المارثيُّون : شعب يقطن فى وسط الهند ، ويتكلم اللغة المارثية ، أعلن زعيمهم الكبير شيڤاجى (١٦٢٧ ـ ١٦٨٠) استقلاله عن إمبراطور المغول فى القرن ١٧ ، ثم حل المارثيون مكان إمبراطورية المغول بوصفهم القوة التى عقدت لها الزعامة فى الهند ، حتى أخضعتهم بريطانيا عام ١٨١٨ لحكمها بالهند (المترجم).

النصف الثانى من القرن التاسع عشر تحت الضغط المتزايد للتحديث الذى أثـر على أعداد متزايدة من الهنود . ولعل أعظم أحداث ذلك العصر خطورة هو العصيان الذى حدث عام ١٨٥٧ وكان شعاره « الدين فى خطر » ولقد وقع الدين فى القرن العشرين ، وحتى استقلال الهند وباكستان ـ بطريقة لا فكاك منها ـ فى شراك القومية والمشكلات الملتهبة التى تطرحها يوماً بعد يوم . وقد ظلت القومية الدينية حية بعد الاستقلال ،وكذلك ثمار الاحتكاك المبكر ، مع الإدارة البريطانية وبعثات التبشير المسيحية وردود الفعل عليها .

٣٩- رام موهون روى Rammohun Roy :

أطلقت الأجيال المتأخرة على رجارام موهن روى (١٧٧٢ - ١٨٣٣) (١) بحق لقب « أب الهند الحديثة » فقد كان رجلاً مرموقاً ، فى عصر رجالٍ مرموقين . درس الفارسية ، والعربية ليكون فى خدمة الحكام المغول ، كما واصل الدراسة الدينية باللغة السنسكريتية ، وأتقن اللغة الإنجليزية إتقاناً تاماً أثناء عمله فى خدمة شركة الهند الشرقية ، وعندما ظهر اهتمامه بالمسيحية تعلم اللغتين العبرية واليونانية من إرساليات سرامبور Seram-pore قرب كلكتا .

لم تكن علاقات « رام موهون روى » بالإرساليات ودية على الدوام ، فقد تعاون معهم بعض الوقت فى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغتين البنغالة والسنسكريتية ، غير أن كتابه « مبادىء يسوع : مرشد للسلام والسعادة » الذى نشره عام ١٨٢٠ وامتدح فيه التعاليم الأخلاقية للمسيح ، قد أغضبهم برفضه لعقيدة التثليث ودفاعه عن الهندوسية ، ضد الهجمات الجاهلة وغير اللائقة التى كان يشنها عليها الصحفيون المسيحيون . قدم « رام

---

(١) كلمة Raja تعنى : الأمير فى الهند ، وكان « رام موهن روى » (١٧٧٤ ـ ١٨٣٣) أحد المصلحيين الدينيين الهندوس ، ومؤسسى فرقة « براهمو سماج » ، ولد فى البنغال ، ونشر عام ١٧٩٠ كتاباً ضد الوثنية ، وعمل فى الخدمة البريطانية (١٨٠٠ ـ ١٨١٤) ثم استقر فى كلكتا عام ١٨١٤ ، وكرس نفسه للإصلاح الدينى فكون جماعة روحية عام ١٨١٦ ، تطورت فيما بعد عام ١٨٣٠ إلى « براهمو سماج » ، لعبت دوراً بارزاً فى إلغاء عادة « سوتى Sutte » عام ١٨٣٠ (فن الأرملة) ، ومنحه إمبراطور دلهى لقب راجا أو أمير ، ثم زار انجلترا عام (١٨٣١) حيث توفى هناك عام ١٨٣٣ (المترجم) .

موهون روى » دعماً قوياً للعديد من إجراءات الإصلاح الاجتماعى التى كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمفاهيم الدينية ، كتحريم عادة دفن الأرملة Sutte ، وإدخال التعليم باللغة الإنجليزية ، وهماً إجراءان تما فى حياته ، ويدينان بالكثير لجهوده ، فضلاً عن أنه أثر فى تنفيذ العديد من الإصلاحات الأخرى التى ألح على المطالبة بها .

وفى عام ١٨٢٨ كون رامهون جمعية « براهمو – سماج » [1] من مجموعة من مثقفى البنغال ، كانت تجتمع أسبوعياً لقراءة « اليوبانشاد » وتلاوة المواعظ والأناشيد والتراتيل الدينية البنغال كانت ولا تختلف فى صورتها عن الخدمات الدينية البروتستانية ، وما كان لهذه الجماعة أن تستمر طويلاً بعد وفاة مؤسسها فى برستون عام ١٨٣٣ ، لو لم يُعد تنظيمها دابندرانات طاغور عام ١٨٤٣ [2] ، وهو ابن أحد الأعضاء الأثرياء المتميزين . ولقد أصبح للجماعة ـ تحت قيادته ـ طابع « تأليهى » مختلف عن الفرق الأخرى ، كما أسس مدرسة للتبشير « ببراهما » بدأت الآن تجذب أعضاءً جدداً بأعداد وفيرة . أما تحت القيادة الساحرة لرئيسها الثالث « كيشاب شادراسن Keshab Chadrasen » [3] فقد وصلت الجماعة إلى الذروة ، ثم بدأت تنحدر ، ذلك لأن كيشاب راح يبشر عام ١٨٧٩ بشريعة جديدة زعم أنه تلقاها من الله لتتويج الشرائع القديمة لليهودية والمسيحية والإسلام ، وبذلك أحدث انقساماً داخل الجماعة .

وفى الوقت الذى تأسست فيه « جمعية براهما » أو « براهمو سماج » ظهرت حركات مماثلة فى الساحل الآخر من المدن الرئيسية فى الهند البريطانية ، مدراس وبومباى، انضم الكثير منها إلى التراث كما بقى اتحادها حياً بعد الانقسام الذى حدث بين صفوف « جماعة الشريعة الجديدة » .

---

(١) معناه الحرفى « جمعية براهما » ، واسمها الكامل هو جمعية المؤمنين ببراهما الروح الأعلى (المترجم)

(٢) هو والد الشاعر العظيم رابندرانات طاغور (١٨٦١ ـ ١٩٤١) الذى نال جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩١٣ (المترجم) .

(٣) كشاب شادراسن (١٨٣٨ ـ ١٨٨٤) مصلح دينى هندوسى ، تعلم فى كلكتا ، وعمل فى أحد البنوك فى البنغال ، ثم كرس نفسه للدين والفلسفة من عام ١٨٦١ ، والتحق بجماعة « براهمو سماج» وأصبح قائداً نشطاً له كتاب « مرآة الهند » وغيره (المترجم) .

٤٠- أريا سماج [1] Arya Samaj :

كانت « أريا سماج » فى أصولها وتوجهها أقل نصيباً من الحضارة المدنية من جماعة « براهمو - سماج » وقد تأسست هذه الجمعية عام ١٨٧٥ على يد متسول دينى هو «ديننندا سارسفتى Dayananda Sarasrati » [2] الذى كان من أتباع شيفا منذ ميلاده فى « جوجارت Gujarat » على الجانب الغربى من الهند . واتخذ ديننندا شعاراً هو « العودة إلى الفيدا » ، ويتضمن هذا الشعار رفض عبادة الأوثان ، ونظام الطبقات المغلقة الذى كان مزدهراً فى ذلك الوقت . وكان الشعار يستهدف الإصلاح الدينى فسمح لجميع الطوائف فى المجتمع الهندى بدراسة الفيدا ، وهى التى كانت حتى ذلك الوقت حكراً على المولودين مرتين . فضلاً عن ذلك فقد وقفت هذه الجمعية فى صف التكنولوجيا العلمية لصالح الهند ، واستطاعت بتفسيرٍ خاص للنصوص أن تعثر على خطوط السكك الحديدية والتلغراف فى ثنايا النصوص القديمة . كما أن الحركة الدينية التى قامت فى العصر الحديث لحماية البقرة كانت ـ من ناحية أخرى ـ مستمدة من « ديننندا » وإن ظلت موضوعاً سياسياً قابلاً للانفجار . أما الاتجاه السائد فى تعاليم « ديننندا » فهو الإصلاح الدينى للهندوسية ، والدفاع عنها دفاعاً شرساً ضد من يهاجمونها ، وتقوية الهند بتزويدها بالتكنولوجيا الحديثة ، ورفض السيطرة الغربية فى الفكر والدين والتقاليد ، وعلى الأقل ضمناً فى السياسة أيضاً .

إذا كان ديننندا قد جمع بين التحديث والتقليد ، فإن راما كريشنا برامهمسا (١٨٣٤ - ١٨٨٦) Ramakrishna Paramahamsa كان نموذجاً نمطياً لقديس العصر الوسيط . فهو بنغالى غير متعلم عاش فى معبد الإلهة كالى Kali فى كلكتا ، وكثيراً ما راح فى غيبوبة خلال تعبده وتأمله للإلهة . وقد ظل فى إحدى المرات فى غيبوبة لا تنقطع حوالى

---

(١) معناها الحرفى « الجمعية الآرية » وهى جمعية إصلاح دينى أخرى أسسها واحد من البراهمة (المترجم) .

(٢) ديننندا سار سفتى (١٨١٧ ـ ١٨٨٣) أحد البراهمة ، أسس جمعية لإصلاح الحركة الدينية فى ديانة الفيدا عرفت باسم الجمعية الآرية ، وكانت تعاليمها تتلخص فى أن هناك ثلاثة جواهر أزلية هى : « الله ، والروح ، والمادة » ، كما تذهب إلى أن الترانيم الفيدية هى وحدها الكتب المقدسة الملهمة ، كما دعت إلى إصلاح نظام الطوائف ونشر التعليم وإلغاء زواج الأطفال (المترجم) .

ستة أشهر ، ولم ينقذه من الموت جوعاً سوى رفاقه الذين أدخلوا الطعام فى جوفه بالقوة خلال فترات وعيه المحدودة . وقد مر بتجارب روحية صوفية سواء كان موضوع تأمله هو الأم الكبرى أو سيتا Sita ، أو كرشنا أو محمد أو يسوع ومن هنا ذهب فى تعاليمه إلى القول بصحة جميع الأديان .

عاشت هذه الشخصية البسيطة حياة زهد وتقشف متطرف مستخدماً فى أحاديثه الأمثال البسيطة الساذجة . وسرعان ما جذب اهتمام عدد من المتعلمين والمصلحين من علية القوم فى كلكتا لا سيما « البراهمة » وذلك من خلال « كيشاب شاندراسين » - الذين نظروا إليه بإعجاب شديد . التقى به ، ذات مرة ، شاب متشكك اسمه « نارندرا نات داتا Narendra Nath Datta فلم يلبث أن غادره وقد تحول إلى العقيدة الجديدة وأصبح ناسكاً باسم « سوامى ڤيڤيكاناندا Swami Vivekananda [1] » وأسس إرسالية « راما كرشنا » للتبشير التى ساهم رهبانها فى الأعمال الخيرية والبحث العلمى ، ونشروا تعاليم أستاذهم فى جميع أنحاء الهند ، كما كان لها مراكز فى أوربا وأمريكا .

٤١- لابد من تعاون الهند والغرب :

بذل « فيفكاناندا » من الجهد أكثر مما بذل أى شخص آخر فى سبيل ذيوع الهندوسية فى الغرب ، كما عمل فى الوقت نفسه على تجديد صورتها بين المثقفين فى الهند وذلك أثناء حضوره فى عام ١٨٩٣ لاجتماع برلمان الديانات فى شيكاغو . ولقد قضى السنوات الأربعة التالية فى أمريكا فى تعليم مجموعة من المعجبين ، وعندما عاد إلى الهند ببعض التلاميذ الغربيين عُدَّ فى الحال بطلاً قومياً . ويعتقد « ڤيڤيكاناندا » أن من واجب الهند أن تتعلم العلم من الغرب ، وأن الغرب يجب عليه أن يتعلم الجوانب الروحية من الهند لكى يتغلب على ماديته ، وقد كان لهذه الأفكار تأثير واسع المدى . وما دمنا نتحدث عن انخراط

---

(١) كان ڤيڤيكاناندا (١٨٦٣ ـ ١٩٠٢) فى البداية تلميذاً « لبراهما كرشنا » لكنه أعطى للعقيدة الجديدة منحى فلسفياً ، ويقال إنه أصبح ناسكاً بعد موت أستاذه عام ١٨٨٦ ، وألقى محاضرات فى الولايات المتحدة وبريطانيا أدهشت الكثيرين ، نشرت مؤلفاته فى ٨ مجلدات عام ١٩٧٢ (المترجم) .

الهندوسية فى الحركة القومية الهندية ، فلا بد أن نشير إلى دور الثيوصوفية -Theoso phy[١] ، وهى حركة وصلت إلى الهند عام ١٨٧٩ بعد أربع سنوات من تأسيسها فى نيويورك فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولقد تبنت الثيوصوفية فكرة تناسخ الأرواح أو الكرما Karma ، كما قال بها « أساتذتها القدامى » ودافعت عن الهندوسية ، وبوذية « سرى لانكا » ضد نقادها الأوربيين . وبعد موت مؤسسة الجمعية الثيوصوفية « مدام بلافتسكى »[٢] فى نهاية القرن التاسع عشر انخطرت الثيوصوفية على نحوٍ مباشرٍ أكثر من ذى قبل فى السياسة القومية تحت زعامة آنى بزنط Annie Besant[٣] التى أصبحت عام ١٩١٧ رئيسة المؤتمر الوطنى الهندى .

لم يلجأ أول جيل من القوميين الهنود صراحة إلى الدين فى نشاطهم السياسى ، فقد كانوا رجالاً لهم وضعهم ومكانتهم ، وكانوا فى حياتهم الخاصة ذوى نزعة إنسانية ومتدينين فى الغالب ، وسعوا إلى الإصلاح الاجتماعى وإلى قيام حكومة مسؤولة ، كما تطلعوا إلى قيام حكومة مستقلة استقلالاً ذاتياً داخل الإمبراطورية البريطانية ، من هؤلاء القوميين

---

(١) حركة روحية حديثة نشأت فى الولايات المتحدة عام ١٨٧٥ ، وبنيت فى المقام الأول على أساس التعاليم البوذية والبرهمية (المترجم) .

(٢) بلافتسكى Blavatsky (١٨٣١ ـ ١٨٩١) رحّالة روسية ابنة نبيل ألمانى ، تزوجت جنرالاً روسياً لكنها هجرته وزارت التبت والهند واهتمت بالحياة الروحية ، ثم سافرت إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٣ ، وأسست الجمعية الثيوصوفية عام ١٨٧٥ ، ثم فرعاً لها فى الهند ـ بومباى ـ عام ١٨٧٩ ، وأصدرت جريدة خاصة هى الثيوصوفى ، وعندما ماتت كان لها أكثر من مائة ألف من الأتباع فى مختلف أنحاء العالم ، كتبت الكثير من المؤلفات مثل « إيزيس بلا قناع » فى مجلدين عام ١٨٧٧ ، و « المعتقدات السرية » فى مجلدين عام ١٨٨٨ ، و « الطريق إلى الثيوصوفية » عام ١٨٨٩ ، و «صوت الصمت » عام ١٨٨٩ (المترجم) .

(٣) « آنى بزنط » (١٨٤٧ ـ ١٩٣٣) ثيوصوفية إنجليزية ، وزعيمة سياسية فى الهند ، تزوجت من فرانك بزنط عام ١٨٦٧ ، ثم انضمت إلى الجمعية الثيوصوفية عام ١٨٨٩ ، وأصبحت تلميذة مخلصة ، « لمدام بلافتسكى » رئيسة الجمعية ، أسست كلية هندية فى بنارس Benares ، ورأست المؤتمر القومى الهندى عام ١٩١٧ ، كتبت الكثير من الكتب منها « تناسخ الأرواح » عام ١٨٩٢ ، و « الكرما » و « الثيوصوفية » و « علم النفس الجديد » عام ١٩٠٤ ، و « المشكلة الدينية فى الهند » عام ١٩٠٢ (المترجم) .

جوبال كرشنال جوكهال Gopal Krishna Gokhal الذى عمل فى المجلس التشريعى فى بومباى، ثم فى المجلس التشريعى الهندى . وأسس «جمعية خدام المجتمع» الهندى عام ١٩٠٥ لتدريب ومؤازرة العمال الذين وهبوا أنفسهم لحياة البساطة ، وللنهضة الاجتماعية العملية ، وكان أعظم هؤلاء « الخدام » شهرة شاب اسمه موهنداس كراما شاند غاندى (١٨٦٩ - ١٩٤٨) .

٤٢- الفوضى والاغتيالات :

فى العقد الأول من القرن العشرين طفا على السطح انقسام سياسى حاد خصوصاً فى معارضة تجزئة البنغال إلى منطقتين : واحدة للمسلمين ، وأخرى للهندوس عام ١٩٠٥ تحت قيادة « لورد كيرزن Lord Curzon »[١] ، وأصبحت مسألة طرد البريطانيين واجباً مقدساً فى هذا الصراع مما أدى إلى الفوضى والاغتيالات ، كانت الهندوسية قد اندمجت مع القومية . وعلى الرغم من أن هذا الخليط المؤثر الفعال أحدث شغباً يكفى لإعادة توحيد البنغال المنقسم بالقوة عام ١٩٦١ فقد أسهم كذلك فى تجزئة ثانية عام ١٩٤٨ عندما انفصلت باكستان عن الهند ، وهكذا دفع التوحيد بين القومية والهندوسية بالعلاقات بين المسلمين والهندوس إلى أقصى حدٍ من العداء . كان للقومية الهندوسية كذلك مناطق ومقاطعات غلبت عليها النعرات المحلية والإقليمية لا سيما البنغال التى كانت تحميها «الإلهة الأم» ، وفى دولة بومباى حيث كان بال جاجاذ تيلاك Bal Gagadher Tilak (١٨٥٦ - ١٩٢٠) يقيم احتفالات سنوية على شرف جانيشا Ganesha ، وهى احتفالات تزامنت مع احتفال المسلمين « بالشهر الحرام » « وبشفاجى » بطل مارانا الذى أحيا « تيلاك » ذكراه كرمز للقومية الهندوسية للشعب الماراتى . ولقد حملت شروح تيلاك على

(١) جورج كيرزن (١٨٥٩ ـ ١٩٢٥) سياسى إنجليزى ، وعضو البرلمان عن المحافظين عام ١٨٨٥ ، سافر كثيراً إلى آسيا ، وعين بالخارجية لشؤون الهند (١٨٩١ ـ ١٨٩٢) ثم حاكماً عاماً للهند (١٨٩٩ ـ ١٩٠٥) وهو الذى نظم العلاقات المالية بين المقاطعات الهندية والحكومة ، وتقاعد بسبب خلافه مع لوردكتشنر ، وعاد إلى مجلس اللوردات ١٩٠٨ ، فوزيراً للخارجية عام ١٩١٩ ، له الكثير من المؤلفات منها « مشكلات الشرق الأقصى » عام ١٨٩٤ ، و كتاب « لورد كيرزن فى الهند » ١٩٠٦ ... إلخ (المترجم) .

« الباجفادجيتا Bhagavad Gita » رسالة تقول إن العمل السياسى كان من تعاليم كرشنا كما تضمنت القول بأن للعنف فى تدعيم هذا العمل أهمية مقدسة .

كان القادة الثلاثة العظام للهندوسية فى النصف الأول من القرن العشرين هم : «المتطرف السابق أوربندو جوز Aurobindo Ghose (١٨٧٢ – ١٩٥٠) والمعتدل «رابندرانات طاغور » (١٨٦١ – ١٩٤١) ، والقائم بدور الوساطة بين هذين القطبين هو « المهاتما غاندى » (١٨٦٩ – ١٩٤٨) وقد كانت حياة جوز ، ودوره كقومى متطرف، إبان اضطرابات الانقسام الأول حول البنغال حياة قصيرة ، وبعد أن أُفرِج عنه وخرج من السجن هجر العمل السياسى ، وأسس صومعة دينية للنساك فى مقاطعة بوندشيرى Pondichery وكانت آنذاك مقاطعة فرنسية ، وأصبح معلماً روحياً لعددٍ كبيرٍ من الأتباع الذين أطلقوا عليه لقب سرى أوربندو Sri Aurobindo أما « رابندرانات طاغور » فلم يكن رجل سياسة على الإطلاق ، وإنما كان أعظم شعراء البنغال على الإطلاق ، ونال جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩١٣ ، وقد ولد فى أسرة براهمية مشهورة ، وعُرِف بتدينه العميق ، وثقافته العالية ، ونظرته المستنيرة واسعة الأفق . ولقد حذر « طاغور » فى كتاباته ومحاضراته من أخطار النزعة القومية التى بدأت تنتشر فى العالم ، ولم يقبل تصور غاندى لها ؛ إذ بداله هذا التصور تعبيراً عن الخوف المرضى من الأجانب ، فضلاً عن تخلفه ورجعيته .

٤٣- مهاتما غاندى :

كان المهاتما غاندى مختلفاً أشد ما يكون الاختلاف عن طاغور ، فبساطة حياته والتجاؤه إلى الدين حركا الجماهير ، كما أن كراهيته للعنف ورغبته فى جعل الإصلاح والنهضة الأخلاقية جانباً تكميلياً لحركة التحرر زادت نضاله شرفاً ونبلاً . اعتقد غاندى مثل تلاك Tilak أن « الباجفاد جيتا » تُعَلِّمنا أن الدين حياة ذات فعل هادف . لكنه على خلاف « تلاك » رفض العنف وجاء بفكرة « الأهمسا » (١) ، ليستخدمها فى الحياة

---

(١) أهمسا أو أهمشا Ahimsa كلمة سنسكريتية معناها الحرفى « لا أذى » ، أو الامتناع عن إيذاء أى كائن حى ، وهى الفضيلة الأخلاقية الأساسية التى أذاعتها الهندوسية والبوذية فى الهند عبر عصور طويلة ، ثم طورها المهاتماغاندى إلى نظريته المعروفة فى المقاومة السلبية (المترجم) .

السياسية . ولقد أحرجت طريقته فى « اللاعنف وعدم التعاون » القادة الإنجليز إحراجاً لامثيل له. كما جعلت سيطرته فعلية على المؤتمر القومى الهندى بعد وفاة تيلاك مهندس الاستقلال الهندى . والواقع أن فكر غاندى يعود ، بصور مختلفة إلى ثورو[1] ، ورسكن[2]، وتولستوى[3] ، وإن كان معظمه يعتمد على مذهبى « الفشنا » و « الجينية » اللذين أخذهما من موطنه الأصلى جوجارات Gujarat لقد كان فعّالاً ونَشطاً فى مسألة الذين لا يجوز لمسهم (أى الطبقات الدنيا فى الهند)و هم الذين أطلق عليهم اسم « هاريجان Harijan » أى أطفال الله ، وعمل على تحريرهم من العجز الاجتماعى ، كما ساند بفكره حماية البقرة ، وحظّر الحرمات ، واستخدام اللغة الهندوسية بوصفها لغة قومية . وكانت رؤية غاندى للهند هى رؤيته لبلد يتألف من مجموعة من القرى المكتفية بنفسها ، لا تلوثها شرورالصناعة الحديثة ، إنما تغزل قطنها بنفسها ، وتنسج منه ملابسها ، وتوفر غذاءها بجهدها وتعيش فى وفاق ووئام وقناعة . وكان النجاح الذى حققه هو قيام جمهورية هندية مستقلة.

ولقد سعى خليفته أكاريا فينوبابهاف (توفى عام ١٩٨٢)إلى التوسع فى رؤية غاندى بمحاولة إقناع القرويين والأغنياء من ملاك الأراضى بالتعاون على رعاية أراضيهم ، والعمل

---

(١) هنرى ديفيد ثورو H . D . Thoreau (١٨١٧ _ ١٨٦٢) أديب ومفكر أمريكى ، عمل مدرساً فى بداية حياته وتعرف على الشاعر الأمريكى أمرسون وأصبحا صديقين حميمين ، اعتزل المجتمع فى كوخ بجوار بحيرة والدن حيث كرس نفسه لدراسة الطبيعة والكتابة ، كان يميل إلى العزلة والتأمل ، والدفاع عن قيمة الفرد فى مجتمع مادى ، جمعت مؤلفاته بعد وفاته فى عشرين مجلداً ، ونشرت عام ١٩٠٦ (المترجم) .

(٢) جون رسكن John Ruskin (١٨١٩ _ ١٩٠٠) كاتب ومفكر وناقد إنجليزى ، ولد فى لندن ودرس فى أكسفورد ، وأراد أبوه إعداده للكنيسة فتأثر تفكيره وذوقه بلغة الإنجيل فى سن مبكرة ، نشر كتاباً بعنوان « الرسامون المحدثون » دافع فيه عن الرسام الإنجليزى ترنر وأسلوبه فى الفن ، وأصبح أول أستاذ للفن فى انجلترا (أكسفورد ١٨٧٠) حيث كان يلقى محاضراته فى حشد من الطلاب (المترجم) .

(٣) ليون تولستوى (١٨٢٨ _ ١٩١٠) روائى وفيلسوف من أعظم أدباء العالم ، مر بأزمة روحية عنيفة كانت نتيجتها ارتداده إلى الإيمان بالمحبة المسيحية ، واعتناقه مبدأ المقاومة السلبية للشر ، وأدت الاعتبارات الخلقية والاجتماعية دوراً أخطر فى مؤلفاته التى ألفها بعد ارتداده (المترجم) .

فيها ، والاشتـــراك فى التمتـــع بمحصولها معـاً (وهو ما سمى بام بهودان Bhudan أو « سياسة منحة الأرض » ولقد نجح فى تخصيص حوالى أربعة ملايين فدان تزرع على هذا النحو وكانت الخطة التى وضعها أقرب إلى شيوعية القرية ، مع إحلال المحبة والإقناع القائم على أساس أخلاقى محل الصراع الطبقى.

حزن غاندى حزناً عميقاً بسبب العداوة بين المسلمين والهندوس وما نتج عنها من تجزئة ساعدت النزعة القومية الهندوسية على تغذيتها ، فأضرب عن الطعام وأعلن الصيام ، وقام بأعمال المصالحة ليثوب المتعادون إلى رشدهم ، وفى ٣٠ يناير عام ١٩٤٨ اغتاله هندوسى من القوميين المارثيين ، ولكن التيارات العميقة التى أثارها « تيلاك » واصلت التأثير فى بعض فرق الهندوس ، ولا يحتمل أن يزول تأثيرها بسرعة .

٤٤- طيف الهندوسية :

لا يزال طيف الهندوسية يرى حتى اليوم فى الهند على الرغم من أن الفرق التى لم تمسها المؤثرات الحديثة عددها قليل ، ومعظم هذه الفرق قد فتح مدارس ، وحقق النصوص المهملة وقام بطبعها ونشرها ، وأدخل الإصلاحات على نظام الكهنة وإدارة المعابد وممارساتها، وأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن الديانة وأعمال التبشير . وتقف مؤسسة « راما كرشنا » التبشيرية شاهداً وممثلاً للهندوسية اللبرالية الحديثة ، ومع ذلك فما تزال توجد بجانبها نظم وفرق أقدم منها تحافظ على خصائصها التقليدية . أما مايكشف عنه المستقبل فذلك شيء لا يعرفه سوى نبى ، وإن كان تفكك نظام الطبقات المغلقة سيغير الهندوسية تغييراً عميقاً ، وبطرق لا يعلمها إلا الله وحده ، وفى استطاعة المذهب الإنسانى اللاأدرى ، على المدى البعيد، أن يخفض للغاية من عدد أعضائها (أى الهندوسية) ، ولكن سجل تاريخها الطويل فى الماضى يقول إن فرصها فى البقاء لا تزال جيدةً .

* * *

الفصل الثامـن

الچيـنيــة Jainism

ربما كانت الجينية هى الديانة المارقة الوحيدة[١] التى ظلت باقية فى الهند حتى يومنا الراهن ، والتى استمدت جذورها من الشرامان Sharmanas (المعلمين الدينيين القدامى) الذين يتميزون عن البراهمة لعقيدتهم فى الخلاص عن طريق الزهد والإلحاد (راجع الفصل السابق من الهندوسية) . وهى أساساً ديانة هندية تتميز باعتناق الفكرتين التوأم : فكرة تناسخ الأرواح ، وتحرير الروح ، لكنها رغم ذلك غريبة عن الهندوسية برفضها لتنظيمات البراهمة الخاصة بنظام الطبقات المغلقة ، ونظام القرابين ، وهى بذلك ترتبط مع البوذية بوشائج قربى ، ولاسيما مع مدرسة ترافادا Theravda التى شاركتها أيضاً أيامها الأولى فى منطقة وادى نهر الكنج ، وفى لغة منطقة ماجاذا . Magadhen[٢] التى وضعت بها كتبها الأصلية المقدسة فى معارضة اللغة السنسكريتية ، لكن على حين أن البوذية طُمِسَت معالمها من الأرض الأم ـ رغم انتشارها المدهش خارج الهند ـ فإن الجينية التى لم يبق فيها سوى أقلية ضئيلة مبعثرة لاتزيد على ثلاثة أو أربعة ملايين من الأتباع ما زالت تحافظ على بقائها، وتواصل التأثير فى الحياة الاجتماعية والثقافية للهند الحديثة .

لقد عُرف الجينيون فى العصور القديمة باسم « نجانتا Niganthas » ، أى : المستقلون عن كل ارتباط ، أما اسم « الجينية » فقد استمدوه من اللغة لسنسكريتية من كلمة Jii-na[٣] ومعناها « المنتصر » ، وهو وصف أطلقوه على معلميهم العظام الذين يسمون أيضاً باسم تيرتانكارا Tirthankara أى « صانعى المخاوض »[٤] لعبور نهر التناسخ . ويعتقد

---

(١) الجينية والبوذية : هما أساساً ثورتان على النصوص الهندوسية الجامدة ، ومحاولتان للتحرر من سطوة الفيدا وسلطان البراهمة ؛ ولهذا اتهمتهما الهندوسية بالمروق مرة ، والإلحاد مرة أخرى . ولكن يكاد الرأى يجمع على أن الجينية اتخذت طريقاً وسطاً بين الهندوسية والبوذية ، فأقرت بمبدأين من أكثر المبادئ شيوعاً فى الهند هما : مبدأ الزهد والتقشف إلى أقصى حد ... ومبدأ الامتناع عن إلحاق الأذى بأى كائن حى (المترجم) .

(٢) هى المدرسة البوذية السائدة فى « سريلانكا » و« بورما » و « لاوس » و « تايلاندا » (المترجم) .

(٣) تنسب الجينية إلى « جينا Jiina » ، وهى ليست اسم علم ، بل صفة معناها : القاهر أو المتغلب أو المنتصر . وقد وصفت بهذا الوصف لأن مؤسسيها عرفوا بقهر شهواتهم والتغلب أو الانتصار على رغباتهم (المترجم) .

(٤) « صانعو المخاوض » درجة من درجات العلم تسمى بالدرجة الخاصة ، وهى درجة العلم المطلق ، ويوصف صاحبها بأنه « مرشد » الأرواح إلى طريق الخلاص ، وهو الذى يعبّر بها نهر التناسخ (المترجم).

الچينيون أن الكون الذى لا بداية له ولا نهاية يمر بعدد لامتناه من الدورات الكونية ، تنقسم كل منها إلى مرحلتين متعاقبتين من الصعود والهبوط ، تمّ خلالهما صعود تدريجى للحضارة البشرية ، وفى كل مرحلة من هاتين المرحلتين يظهر أربعة وعشرون من صانعى المخاوض الذين لا يصلون فحسب إلى مرحلة تحرير أنفسهم ، وإنما يعلمون غيرهم من الناس كذلك طريق الخلاص ، وكان « ريشابها Rishabha » أول الأربعة والعشرين من صانعى المخاوض فى عصرنا الحاضر ، عصر الانهيار والسقوط . ولما كان « ريشابها » أول مشرع للقانون ، فإنه يسمى كذلك « Adi-Nata » أى السيد الأول[1] ، ولم يحفظ لنا التراث عنه وعن خلفائه سوى قصص أسطورية ، لكن آخر ثلاثة منهم عرفوا معرفة جيدة فى تاريخ الهند القديمة « فالچينا Jina » الثانى والعشرون الذى يسمى Nemi هو ابن عم كرشنا فى حرب « المهابهاراتا » .

وكان خليفة نيمى هو المنتصر بارشڤا Parshva من « بنارس Benares » الذى ازدهر حوالى عام (٨٥٠ ق . م) . وآخر صانعى المخاوض فى عصرنا . وأعظم معلمى الچينية فى أيامنا هو ڤارذامانا مهاڤيرا « Vardhamana Mahavira » (٥٩٩ ـ ٥٢٧ ق . م . أو ٥٤٠ ـ ٤٦٨ ق . م) ، وكان معاصراً لبوذا جوتاما (٦٢٤ ـ ٥٤٤ ق . م أو ٥٦٤ ـ ٤٨٤ ق . م) .

١ ـ حياة مهاڤيرا[2] :

وفقاً لما تقوله الـ « كلبا ـ سترا Kalpa-Sutra » ـ وهى سيرة حياة شبه أسطورية صنّفت فى (القرن الثالث ق . م) ـ فإن مهاڤيرا ولد فى كنداجراما kundagrama، قرب مدينة « بـتنا Patna » الحديثة بولايـة « بيهار » ، وكان أبوه «سد هارتها Siddharth »

(١) أخذ يعلم الناس ثلاثين سنة فسموه « السيد » وهو مؤسس الچينية ، ولقد قام تلاميذه بجمع مواعظه ومحاضراته فى ستة وأربعين مجلداً باللغة البراكريتية Prakrit . وهى اللهجة الشمالية العامية من اللغة السنسكريتية ، وسميت هذه الكتب « أكاماس » ، وصارت فيما بعد كتب الچينية المقدسة (المترجم) .

(٢) يكتب اسمه أحياناً فى اللغة العربية « مهاويرا » والكلمة سنسكريتية وتعنى حرفياً « البطل العظيم » وقد منحه شعبه هذا الاسم منذ شبابه عندما أبدى إقداماً نادراً لا مثيل له (المترجم) .

رئيساً للكشافيز Licchavis [1]، أما أمه فهى « ترى شالا Trishala[2] » .

وقد ظل « مهاڤيرا » طبقاً لبعض الروايات التقليدية أعزبَ طوال حياته ، بينما تذهب رواية أخرى إلى أنه تزوج من أميرة تسمى « يشودا Yashoda » أنجبت له بنتاً تسمى أنوچا « Anoja » ، وقد توفى والداه وهو فى سن الثامنة والعشرين ، فهجر « مهاڤيرا » حياته الأسرية ، وراح يتسول وفقاً للتقليد الـــذى وضـــع « الچين » المنتصر « بارشڤا Parsh-va » [3].

كان تخليه عن الدنيا تجلياً كاملاً فخلع ثيابه ـ حتى الإزار الذى يستر عورته ـ وراح يتجول عارياً تماماً ، وظل اثنى عشر سنة كاملة فى تأمل وصمت يمارس أشد ألوان الرياضة خشونة وقسوة ؛ لكى يبلغ مرتبة الچينا Jina أى المنتصر ، وفى السنة الثالثة عشرة بعد صيام طويل ، كان « مهاڤيرا » خارج مدينة جرمبهيكا جراما Jrimbhikagrama على ضفة نهر رجوباليكا Rijupalika فى حقل يملكه « سماجا Samga » ، وأثناء جلوسه تحت شجرة الراتنج[4] فى تأمل عميق بلغ على نحو تام وكامل ولامتناه ، وبغير عقبات ولا تشويش ، أفضل معرفة وأرفع حدس يسمى : كيڤا Kevala .

وتزعم الكتب المقدسة أنه رأى وعرف جميع أوضاع عوالم الآلهة والناس ، والشياطين أينما كان مصدرهم ، وسواء ولدوا بشراً أو حيوانات ، أو أصبحوا آلهة أو موجودات جهنمية، وكذلك أفكارهم وآراءهم وما يدور فى أذهانهم ، كما رأى وعرف جميع الكائنات الحية فى العالم : طعامهم وأفعالهم ورغباتهم وأيضاً أعمالهم الظاهرة والخفية . إن الأرهاتArhats (أى الموجود المقدس) الذى لا تخفى عليه خافية يرى ويعرف الكائنات الحية كلها الموجودة فى العالم ، ويطلع على ما تفكر فيه وتقوله وتفعله فى أى وقت .

وعندما بلغ « مهاڤيرا » مرتبة العلم بكل شئ ، وهى مرحلة الخير الأقصى عند الجينية، تحرر من قوى الكرما (الجزاء) التى تؤدى بالمرء إلى الوقوع فى دورة التناسخ . لقد أصبح

---

(١) يقال إنه كان فى الهند فى ذلك العصر إحدى عشرة جمهورية من بينها جمهورية ليكشافيز .

(٢) تقول بعض الروايات إن أمه كانت من أسرة نبيلة ، وهو ضرب من تقديس الأسرة التى ينتمى إليها صاحب الديانة ، والأرجح أن الأسرة كانت من طبقة « الكشاترية » أى المجلندين (المترجم) .

(٣) تقول الرواية إنه حزن حزناً شديداً لوفاة والديه ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره فأخذ يتأمل معنى الحياة والموت ، ثم انضم إلى جماعة الرهبان المتسولين ونذر الصوم عن الكلام اثنتى عشرة سنة (المترجم) .

(٤) شجرة : الراتنج نوع من الأشجار تسيل منه مادة صمغية عند قطعها أو جرحها (المترجم) .

الآن « نيرثانكارا » (أحد صانعي المخاوض) أي مرشداً أو قائداً لنظام ، وتلك حقيقة تشهد بها الكتب المقدسة لخصومه من البوذيين المعاصرين له ، وقضى « مهاڤيرا » الثلاثين سنة التالية من حياته فى نشر عقيدته ، وفى تنظيم الجماعات الهائلة من الأتباع التى تألفت من عامة الناس ، رجالاً ونساء ، ومن الرهبان والراهبات الذى كان عدد ضخم منهم ينتمى لنظام برشڤا Parshva القديم ، ثم دخل فى « النرڤانا Nirvana »(١) أو الراحة الأخيرة، وهو فى الثانية والسبعين ، فى مدينة « باڤا Pava » وهى مدينة صغيرة لاتبعد كثيراً عن مسقط رأسه .

٢ ـ طريق اللاعنف :

يقال إن « مهاڤيرا » ألقى أول عظاته على جمع من البراهمة الذين كانوا منشغلين بإعداد طقوس القرابين ، واستطاع أن يغير معتقداتهم ويحولهم إلى طريق اللاعنف ، وأصبح أحد عشر رجلاً من هؤلاء البراهمة من تلاميذه الرئيسيين الذين يسمون الجنادهارا « Ganadharas » وقد كان أبرزهم : « جوتاما » و « مسورهارما » و « جامبو » الذين تلقوا تعاليمه ونقلوها إلى الأجيال فى صورة تراث شفهى ، وقد قنن هذا التراث (أى تحول إلى شريعة) فى مجلس الرهبان الذى دعا إليه حبر الأحبار «استولابدرا Sthulabandra » فى مدينة « بطلى بترا Pataliputra » عاصمة الإمبراطور شاردراجوبتا Chardragupta »(٢) (٣١٧ ـ ٢٩٣ ق . م) الذى قيل إنه تنازل عن العرش ليصبح راهباً چينياً، واشتملت الشريعة التى جمعت فى هذا المجلس على أجزاء معينة من « البورڤاس Purvas » (وهى النصوص القديمة التى يرجع رجوعها إلى عصر برشڤا Parshva) وعلى الأعضاء الأحد عشر ، (أى الأطراف أو الأجزاء) ونصوص أخرى متنوعة . ولقد روجعت هذه النصوص ثم دونت فى النهاية فى مجلس ثان للرهبان عقد فى مدينة «ڤلابهى Valabhi» فى سورشترا Saurashtra فى القرن الخامس الميلادى.

---

(١) النرڤانا : فى اللغة السنسكريتية تعنى «الفناء» أو «الانطفاء» والمقصود فناء روح الفرد فى الروح الأقصى أو إنفطاء الرغبات والشهوات وبلوغ الغبطة الكاملة أو السعادة النهائية (المترجم) .

(٢) هو المعروف عند اليونان باسم ساندروكوتس Sandrokotus وهو أول ملوك مجاذا (الهند الهندوسية) التقى فى شبابه بالإسكندر ، ثم قاد ثورة حطم فيها الحامية المقدونية التى تركها فى الهند . حكم إمبراطورية ممتدة من شمال الهند وشملت أفغانستان ، انهزم بعد ذلك فى البنجاب على يد السلوقيين ، فقيل إنه هاجر إلى جنوب الهند حيث انتحر هناك ، وقالت رواية أخرى إنه رحل إلى الجنوب ليصبح راهبا چينياً (المترجم) .

٣ - انشقاق عظيم :

شهد مجلس مدينة « باطلى بترا » أيضاً انشقاقاً كبيراً قسّم الجماعة الچينية إلى فرقتين. ويؤكد التراث الچينى أن « بهادراباهو Bhadrabahu » الحبر الحادى عشر - تنبأ بقدوم فترة مجاعة فى الشمال ؛ فهاجر إلى الجنوب إلى المركز الرئيسى الحالى للجينيةفى « شراڤانا - بلجولا Shravana-Belgola » فى ولاية ميسور Maysore تاركال « امستولابدرا » رعاية هؤلاء الرهبان الذين اختاروا أن يكونوا من أتباعه ، وعندما عاد « بهادراباهو » إلى ولاية بيهار بعد مضىّ اثنتى عشرة سنة ، وجد أن رهبان الشبان قد تخلوا عن الطرق الجافة الخشنة التى وضعها أستاذهم ، بل اكتشف أنهم أخذوا يرتدون فى رياضتهم الثياب البيضاء وهو زى غير مصرح بارتدائه للرهبان الچينيين فى نظر الفرقة المحافظة التى كان عليها أن تنبذ جميع الأغلال بما فى ذلك الشعور بالخجل أو الحياء حتى تصل إلى حالة انعدام الانفعال Vita-raga(١) .

وانقسمت بذلك جماعة الرهبان - وأتباعهم من العامة - إلى فريقين هما « دجامبيرا Digambara » أى لابسى السماء ، و « الشفيتمبرا Shevetambera » أى أصحاب الزى الأبيض ، أما الطائفة الأولى فقد نذرت العرى الكامل علامة على التخلى الكامل أسوة بـ « مهاڤيرا » - على أساس أن العرى شرط ضرورى للراهب الجينى عند هذه الفرقة ، وأما الطائفة الثانية فقد اعتبرت ذلك النذر محض اختيار شخصى ، وذهبت بناء على شواهد من النصوص الدينية (آثار اذهيايانا - الباب الثالث والعشرون) إلى أن ممارسة ارتداء الملابس مصرّح بها بناء على أمر المرشد السابق « برشڤا » (أحد صانعى المخاوض) ، ولقد قاد فرقة العراة « بدراباهو Bhadrabahu » الذى أعلن أن فريق الملابس البيضاء مرتدون وأنهم رفضوا قبول الشرائع التى صنفها « استولابدرا » مدعين أنها غير أصلية .

٤ - الفرق تتشعب :

يبدو أن الفرقتين منذ ذلك الوقت واصلتا ابتعادهما الواحدة عن الأخرى ، مع مدّ

---

(١) ظل أتباع الچينية متحدين فى حياة رئيسهم ، ثم انقسموا بعد وفاته وحدثت بينهم خلافات كان أشهرها الخلاف الذى دار حول الملابس : أيجوز للجينى أن يغطى جسده بالملابس أم أن ذلك يخالف تعاليم المذهب؟! طائفة منهم أباحت أن تكون الملابس بيضاء وطائفة أخرى رفضت الزى تماما وفضّلوا أن يكونوا عُراة وأطلقوا على أنفسهم اسم « لابسى السماء » وذهبوا إلى أن ارتداء الملابس دليل على الشعور بالخزى أو الخجل عند العُرى ، وهذا يخالف مبدأ أساسياً عندهم هو انكار الذات ، وعدم الاكتراث بأى انفعال (المترجم) .

نشاطها إلى أجواء الهند المختلفة ، أما فريق العراة فلا يزالون يرسمون صور « صانعي المخاوض» متجردين من كل ملابسهم ، ونظراً لصرامة قواعدهم فقد فقدوا نظام الرهبان ، واقتصر جمهور المؤمنين منهم في الغالب على إرشاد أرباب الأسر المتقدمين من الناحية الروحية . وأما فريق الملابس البيضاء فلا يزال لديهم مجموعة كبيرة من الرهبان ، ولكن ممارساتهم للعبادة في المعابد الچينية حيث توجد صور « الچينات Jinas » (أو المنتصرين من صانعي المخاوض) مزخرفة زخرفة بديعة بالحرير والجواهر ـ قد أدى في عام ١٦٥٣ إلى ظهور حركة إصلاح ديني يسمى أصحابها الـ « ستناكافيزز Sthanakavasis » (سكان القاعات) الذين ادانوا كل أشكال الأيقونات وعبادة المعبد بوصفها لا تتسق مع تعاليم مهاڤيرا .

ولم يؤد الانشقاق ـ رغم أنه كان ضاراً بوحدة الجماعة ـ إلى أي ابتعاد أو أي انحراف عن تعاليم مهاڤيرا الأساسية ، فالچينيون جميعاً ـ بغض النظر عن ممارساتهم الطائفية ـ يؤمنون بالمعتقدات الثلاثة الأساسية التي تتسم بها دياناتهم وهي :

١ ـ الإيمان بأنه لا يوجد ما هو مطلق (الانيكانڤادا Anekanvada) .

٢ ـ قدرة الفعل (كرما ـ ڤادا Karma-Vada) .

٣ ـ والأهمسا أو اللاعنف Ahimsa .

وهذه المعتقدات تصف على التوالي طبيعة الواقع ، وأسباب العبودية ، وطريق الخلاص .

٥ ـ طبيعة الواقع :

إنَّ عقيدة اللامطلق (أو عدم الإيمان بما هو مطلق)[1] تميّز الچينية عن المذاهب التقليدية الأخرى في الفلسفة الهندية ؛ فالأخيرة تتجه إلى تحديد الواقع وتعريفه : إما بأنه أزلي أو مؤقت ، وكلاهما يفشل في تفسير ظواهر التغير ويلجأ في النهاية إلى نظرية الوهم ، وبهذا ينكر حقيقة العبودية نفسها . ولقد تخلّت الچينية عن هذين الطرفين القصيين مؤكدة أن طبيعة الواقع معقدة ، ومعرفة الموجود بأنه ما يتسم على نحو متآن بعمليات : النشأة ، والدمار ، الجوهر ، والدوام .

وعلى ذلك لابد أن يتألف موضوع المعرفة من جوانب ثلاثة لا يمكن أن ينفصل بعضها عن بعض ، وهي : الجوهر ، والكيفيات التي لا تحصى الملازمة ، والعدد اللامتناهي من الصور والتعديلات التي يمر بها الجوهر في لانهائية الزمان والمكان . وفي مسار هذا

---

(١) نظرية المطلق هنا Absolutism : عقيدة ترى أن الله يعمل على نحو مطلق في موضوع الخلاص ، لكنها تعني الحسم المطلق وإصدار القرارات النهائية بالنسبة للواقع (المترجم) .

السيّل المتدفق باستمرار يكتسب جوهر الروح (وهى چيڤا Jiva التى تناظر كلمةAtman فى مدارس الڤيدا) يكتسب شكلاً جديداً فى الوقت الذى يهجر فيه صورته القديمة ، ومع ذلك يظل خالدا لأنه لا يتخلى عن صفته الجوهرية وهى الوعى أو الشعور . وهكذا تكون الروح خالدة إذا ما نظر إليها من زاوية الجوهر ، وهى فى الوقت نفسه مؤقتة وزائلة إذا ما نظر إليها من حيث تحولاتها فحسب . وتؤكد الچينية على نحو مماثل أنّ الروح هى فى آن واحد متناهية ولامتناهية ، مقيدة وحرة ، جسمية وغير جسمية ... إلخ ، إذا ما نظرنا إليها من زوايا مختلفة . ويصدق هذا أيضاً على المقولات الباقية التى يعترف بها الچينيون مثل : المادة، ومبادئ الحركة ، والسكون ، والزمان ، والمكان .

٦ - نظرية الترجيح :

ما دام الكلام لا يصلح للوصف المتأنى لجوانب الواقع المتعددة دون الوقوع فى تناقض، فإن الچينيين يقدمون نظرية الكلام الكفء بوصفها نتيجة لنظرية اللامطلق . وتسمى هذه النظرية « سيادڤادا Syad-Vada » أو نظرية الممكن ؛ فعبارة « س خالدة » ليست دجماطية قطعية فحسب ، ولكنها خاطئة كذلك مادامت تنكر أنها زائلة ومؤقتة أيضا ، ومن ثمّ فإنّ العبارة الصحيحة هى أن تقول « ربما تكون س خالدة » ؛ فهذه العبارة تشير إلى وجود خصائص أخرى لم يعلن المتحدث عنها صراحة ، وهناك سبعة احتمالات كهذه ممكنة : يرجح نعم ، ويرجح لا ، يرجح نعم ولا ، يرجح أنها لا تقبل الوصف ، بالإضافة إلى ثلاث تركيبات أخرى من هذه .

وفى الوقت الذى تؤكد فيه نظرية اللامطلق واقعية الحالات المتعددة للروح ، فإن نظرية الفعل (الكرما Karma) تفسر حالة العبودية ، إذ يؤمن الچينيون بأن الروح فى حالتها الطبيعية التى توجد عليها بالقوة - حتى فى ورقة العشب - تعرف الأشياء جميعاً كما تكون فى حالة غبطة تامة لا يعوقها ملامسة أى شئ مادى ، أما فى حالتها غير الطبيعية فإنها تعانى درجات مختلفة من التحديد مشروطة ببدنها - وليس للروح أى شكل خاص بها ، ولكنها فى حالة عبوديتها تكون قادرة على التقلص والانبساط ، وهى تمتد مع الأجسام التى تسكنها فى عملية التناسخ التى ليس لها بداية فى الزمان ، ولا أى فاعل كالخالق أو الإله .

وتعدد الأرواح لا متناه ، وهى تُصنّف إلى خمسة أقسام تبعاً لعدد ملكات الحس عندها، والعدد الأكبر يتألف من الموجودات غير المرئية التى هى فى أدنى درجات الوعى ،

وتكون العناصر ذاتها ـ الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب ـ هى أجسامها ، كما تتألف من الكائنات النباتية هائلة الكم التى لا تملك سوى حاسة اللمس فقط . أما المجموعة الثالثة فتتألف من مجموعة من الحيوانات الدقيقة (التى لا تُرى بالعين المجردة) وهى تملك حاستين هما : اللمس ، والذوق . أما الحشرات كالنمل والبراغيث ، فلديها حاسة زائدة هى حاسة الشم ، فى حين أن الحشرات الأكبر كالدبور والفراشة لديها ـ فضلاً عن ذلك ـ حاسة الذوق ، وجميع الموجودات الأخرى بما فى ذلك الحيوانات الأعلى ، والبشر ، والموجودات السماوية والجهنمية ، تملك خمس ملكات ، وهى عرضة لأن تفقدها فى نهاية حياتها بنفس الطريقة التى يمكن أن تكسب بها الأنواع الدنيا حواس أعلى ، وذلك كله طبقاً للقانون الذى لا يرحم ، وهو قانون : الكرما Karma .

٧ ـ قانون الكرما [١]:

يفترض قانون الكرما (Karma) أن لأى فعل متعمد نتيجته الخاصة التى تلاحق الفاعل حتى فيما وراء القبر ، وهكذا يكون السبب فى أن الروح تسكن الأجسام الكثيفة فى مجرى عملية التناسخ هو أفعالها الإرادية الخاصة ؛ فالأفعال الأخلاقية الطيبة تنتهى بالروح إلى الأجسام البشرية والسماوية ، أما الأفعال الشريرة فتنتهى بها إلى الأجسام الحيوانية والجهنمية .

وتؤمن ديانات الهند جميعاً بقوة تأثير الكرما (أى تأثير الفعل) كما تؤمن بالجسم النفسى أو الروحى كجهاز آلى يقوم بنقل الأفعال من ميلاد إلى ميلاد . غير أن الچينيين يتميزون بنظريتهم فى الجسم الكرمى الذى يتألف من نوع خاص من ذرات المادة بالغة الدقة ، التى تقع الروح فى شراكها أثناء عملية التناسخ ، ولا تستطيع منها فكاكاً حتى ساعة الموت . وعندما ترتبط المادة الدقيقة بالروح فإنها تعوق صفاتها الفطرية فى العلم بكل شئ والغبطة الكاملة ، ويمكن توضيح مسار عملها على النحو التالى : عندما تنشط الجزيئات التى تتألف منها أعضاء الذهن ، والجسم ، والكلام فإنها تحدث ذبذبات (يوجا Yoga)

---

(١) كانت الكرما مسألة معنوية فى الهندوسية ، فهى تعنى قانون الجزاء (وهذا هو معنى كلمة الكرما فى اللغة السنسكريتية) ، فلا أحد يهرب من جزاء أعماله ، الذى يكون بالتناسخ أو بتجوال الروح « فى دورات مستمرة من جسد إلى جسد » . أما الچينية فقد حولت الكرما إلى كائن مادى يخالط الروح كأنه يمسك بها أو يحيط بها كما تحيط الشرنقة بالفراشة ، ولا سبيل إلى تحرير الروح إلا بشدة التقشف والحرمان (المترجم) .

في الروح ، وتجذب المادة الكرمية التي تملأ المكان ، لكن هذا السيّال المتدفق لا يكفي وحده لإعاقة الروح ، فإذا كانت الروح تحركها الانفعالات الطاغية (كاشايا Kashaya) كالولع والنفور ، وتنغمس في أفعال شريرة ، فإن هذه المادة الكرمية تمتصها الروح كما تمتص الملابس المبتلة الغبار .

وتسمى نصوص الكتب المقدسة عند الجينيين « بالكرما ـ جرنتا Karma-granthas » وهي تتحدث بإسهاب وتفصيل عن دروب الإرادة والفعل المتنوعة التي تظهر تدفق الأنواع الجزئية للكرما ، ودوامها ونتائجها ، بالنسبة للروح . والكرما تنقسم بصفة عامة إلى ثمانية أنواع : فإخفاء المعرفة خوفاً من الحسد ، على سبيل المثال ، يجذب الكرما التي تعمل على غموض المعرفة التي ستؤدي بدورها إلى نقص في ذكاء ذلك الشخص عند نضوج تلك الكرما ، والرحمة والإشفاق على الذات سوف يظهران الكرما التي تنتج الشعور الذي يتسبب في إحداث مشاعر سارة ومشاعر غير سارة على التوالي ، والكرما التي تضلل الإيمان تسبب عدم الإيمان بالطبيعة الحقيقية للواقع ، والانفعالات الحادة التي تتسبب فيها الانفعالات الطاغية تحدث الكرما المضللة للسلوك التي تحدث بدورها نقصاً في مقاومة الأفعال الشريرة . أما بالنسبة للكرما التي تحدد الأجل أو العمر فهي تعمل على تحديد مدة حياة الشخص ، أما الكرما التي تحدد الوضع الاجتماعي فهي تعمل على تحديد الأوضاع الاجتماعية العالية أو المنخفضة داخل هذه الحالات ، ويقال إنّ ذم الآخرين أو الغير ومدح الذات هو الذي تنتج عنه الكرما التي تخلق الأوضاع الاجتماعية المتدنية . أما الكرما المعوّقة فهي تقف حجر عثرة في طريق نجاح أي مشروع ، ولاسيما تلك المشروعات المتعلقة بالربح أو المتعة .

وتظل الكرما التي جاءت على هذا النحو مغروسة داخل الروح ـ إن صحّ ـ التعبير أحيانا لبضع لحظات فحسب ، وأحيانا تستمر دهراً ، منتظرة حتى يأتي وقت نضجها ، وعندئذ تنفصل طواعية عن الروح بعد إفراز ثمرتها تبعا لشدة الإرادة وطبيعة الأفعال التي أحدثت تدفقها ، غير أن هذه الكرما سوف تمتصها مرة أخرى سلسلة جديدة من الانفعالات لأفعال. وهكذا تستمر عجلة التناسخ في دورانها على نحو متواصل ودائب . والواقع أن كل روح قد تشربت (أو تمتعت) على التعاقب بجميع جزئيات المادة في الكون بأسره ثم تخلت عنها . كما أن كل روح دارت دورات لا حصر لها في فلك المادة ، وليس ثمة نقطة في فضاء الكون بأكمله لم تكن مستقرا لميلاد روح ، وبهذه الطريقة تكون كل روح قد حامت مرات عديدة وشغلت جميع النقاط في دورة الفضاء .

٨ - طريق الخلاص :

قد لا تكون هناك بداية لمسار عملية التناسخ هذه ، لكنها ليست بغير نهاية بالنسبة لتلك الموجودات - وعدد أمثال هذه الأرواح هو أيضاً لا متناه - التى منحت قدرة فطرية على الخلاص . غير أن الطريق إلى الحرية ليس آلياً أو تلقائياً ، كلا ، ولا نحن نحصل عليه من النعمة الإلهية المنقذة ؛ لأن الچينية لا تؤمن بإله خالق ، أو بإله يمكن أن يتدخل ليرفع الأرواح من مستنقع التناسخ . ومع ذلك يوجد صف طويل ممتد من « صانعى المخاوض » (التير ثنكارا) الذين بفضل جهودهم تمّ التحقق من الطريق والكشف عنه للموجودات الأخرى ؛ شفقة منهم ورحمة ، وعلى الرغم من أن القلة النادرة هى التى يمكن أن تطمح لأن تكون من « صانعى المخاوض » - وهو وضع دنيوى يتم عن طريق نظام خاص لازم للمعلم - فإنّ جميع الذين يتبعون الطريق قد ضمنوا بدورهم التحرر النهائى مع المجد الكامل للعلم المحيط بكل شئ .

٩ - توقيف الانفعالات الطاغية :

لا يكون الخلاص ممكناً إلا بوقف سيّال الكرما ، ووقف الانفعالات الطاغية ومراقبة قنوات نشاطها وحراستها ، وهذا يتطلب : الإيمان الصحيح ، والمعرفة الحقة ، والسلوك السليم . وهى جميعاً تشكل الطريق إلى التحرر ، وهم يعرفون الإيمان الصحيح بأنه الإيمان المستنير بالطبيعة الحقيقية للروح بوصفها متميزة عن البدن ، وبقوى الكرما ، وهو ما يبلغه الإنسان الچينى عن طريق الحدس أو الإرشاد من أولئك الذين تحققوا منه على نحو تام ، ولا يمكن أن ينال ذلك عن طريق الآلهة الزائفة التى يقول بها المؤلهة الخاضعون - كما يثبت الچينيون - خضوعاً واضحاً للانفعالات الطاغية ، كذلك لا نستطيع أن نبلغ الإيمان المستنير عن طريق الكتب المقدسة الزائفة ، أو ما يسمى « بكتب الوحى » التى تشرح وجهات نظر مطلقة[1] ، ولا عن طريق المعلمين الذين يعبدون آلهة زائفة ويؤدون الطقوس ، ويقدمون القرابين أو ينهمكون فى عمليات إماتة الذات وقهر الجسد التى لا تفضى إلى اقتلاع الانفعالات الطاغية ، ومن ثُم فإن الچينى الحق لا يجد ملاذاً إلا فى « الجينا » (القاهر -

(١) الهجوم العنيف الذى تشنه الچينية ضد الآلهة المزيفة والكتب المقدسة الزائفة - يستهدف الهندوسية أساساً . وقد سبق أن ذكرنا أنها - ومعها البوذية - كانت ثورة على النصوص الهندوسية الجامدة ، ومحاولة للتحرر من سطوة الڤيدا وكهنوت البراهمة ، وهذا واضح من حديثهم التالى عن المعلمين الذين يعبدون آلهة زائفة ويقدمون لها القرابين (المترجم) .

المنتصر) العليم بكل شئ والمتجرد من الانفعال ، وفى الكتب المقدسة التى تتسق مع مذهب اللامطلق Non-absolutism[1] وفى معلم يرفض أن يملك شيئاً أو أن يتعلق بشئ.

١٠ ـ معابد بغير آلهة :

لا تحتفظ المعابد الچينية بصور الآلهة ، وإنما تحتفظ بصور « صانعى المخاوض » ، وهم يصورونها جلوساً أو وقوفاً وهى مستغرقة فى التأمل ، وهناك عدة أمور مثل : غسل صور المعلمين (صانعى المخاوض) ، وجعل المصابيح تتمايل أمام هذه الصور على عزف الموسيقى للتراتيل الدينية ، والاحتفال بالمناسبات الخمسة الميمونة فى حياتهم وهى (الحمل ، والميلاد ، والتخلى (عن متع الدنيا) ، والاستنارة ، والنرڤانا) هذه الأمور كلها جوانب من الاحتفالات الشعبية التى يقوم بها جمهور المؤمنين ، لكن الواقع أن هذه الأعمال لا تنطوى على عبادة حقيقية فى غيبة الإله .

١١ ـ ابتهالات :

يمكن ملاحظة العلاقة غير الشخصية بين المتعبد وصانعى المخاوض فى الابتهالات الشهيرة المسماه « نماس كرامننترا Namas-Karamanta » التى لا يرد فيها ذكر لأية شخصية تاريخية ، ولا حتى « مهاڤيرا » ، وإنما تشير إلى خمسة أنواع من الموجودات الجديرة بالعبادة (الأرهات Arhats أو الموجودات المقدسة ـ والسيدها Siddhas الموجودات الكاملة ـ والسادهو Sadhus أو الملهمون) ، وتشمل المجموعة الأولى جميع الموجودات التى بلغت مرتبة التنوير ، ولاسيما (صانعى المخاوض) ، وأولئك الذين يعظون الناس بينما هم لا يزالون فى حالة التجسد ، والموجودات الكاملة (السيدها) هى تلك الموجودات ـ لا متناهية العدد ـ التى بلغت مرحلة التحرر النهائى ، وتبقى أرواحهم الطاهرة باستمرار على قمة الكون ، أما المجموعات الثلاثة الأخيرة ، فتشير إلى أعضاء من مراتب مختلفة داخل نظام رهبان الچينية .

١٢ ـ السلوك السليم :

يعتمد السلوك السليم على التخلى عن جميع الأنشطة ـ سواء أكانت أنشطة عقلية أو

---

(١) مذهب يرفض القول بأن الله يتدخل فى موضوع الخلاص على نحو مطلق (المترجم) .

صوتية أو بدنية ـ التى تنبع من الانفعالات الطاغية ، كالغضب ـ مثلاً ـ أو الزهو ، أو الخداع، أو النهم ، وبذلك تعمل على تحريك دورة الكرما ، مسببة أذى كبيراً لنفسها وللآخرين . وهذا التخلى عن جمهور المؤمنين هو بالضرورة ذو طبيعة جزئية ، وهو يتألف من سلسة متدرجة من النذور القاسية التى تعّد الفرد لحياة الراهب ـ أو الراهبة إن كانت أنثى ـ الذى يكون تخليه عندئذ تخليا كاملا ، وأول مجموعة فى هذه السلسلة هى ما يسمى بالنذور الخمسة « المحدودة » وهى (اللاعنف ـ الصدق ـ الامتناع عن السرقة ـ العفة (أو براهما ، وهى التى تعنى الإخلاص فى نذر الزواج) وعدم التعلق بشئ (التقليل من طيبات الدنيا) إلى جانب ثلاثة نذور إضافية تسمى جونا ـ ڤراتاس Guna-vratas ـ إذا راعاها جمهور المؤمنين الذين حصروا أنفسهم فى منطقة محددة تحديداً دقيقاً كأن تكون مدينة أو منطقة ريفية ، وفى اتجاه معين داخل هذه المنطقة كأن يكون الشرق أو الغرب بحيث يتجنبون كل الأنشطة التى لا طائل وراءها ، والتى ربما أصبحت بعد ذلك حجر عثرة يعوق ممارسة النذور الخمسة الأساسية . وتتألف الحلقة الأخيرة فى السلسلة من نذور الصيام فى اليومين : الثامن ، والرابع عشر من كل أسبوعين من الشهر القمرى ، وتوزيع الصدقات التى ذاع بسببها صيت الجينية ، فضلاً عن نذور أخرى تختص بالممارسات الروحية التى تناسب رب البيت .

وفى مقدمة هذه الأمور ما يسمى بالسمايكا Samayka(١) ، وهو فعل تأمل يستهدف التحقق من الطبيعة الحقة للذات ، وخلال هذا الفعل الذى قد يستغرق ساعة لمرتين أو ثلاث مرات يومياً ـ يعتكف الطامح إلى هذه المنزلة فى مكان منعزل ، ويتخلى مؤقتا عن جميع الارتباطات بما فى ذلك ارتباطاته بالأسرة وبالممتلكات ، ويتعهد ألا يحنث بالنذور ، وأن يغفر ويطلب الغفران لجميع الموجودات ، ويمر على هذا النحو بتجربة السلام العظيم والسكينة الكبرى ، ويصبح عامة الناس بهذه الأفعال زاهداً ، وإن كان ذلك لفترة قصيرة ؛ فالسلام الذى ينعمون به يشدُّ أزرهم خلال حياتهم الخشنة .

١٣ ـ هى حياة ، فهى مقدسة :

إنَّ الأساس الأخلاقى للنظام الجينى كله هو فكرة « الأهمسا Ahimsa » ، واللاعنف فالحياة بكافة أشكالها مقدسة مصونة ولا يجوز الاعتداء عليها ، حتى حياة الموجودات تعسة الحظ التى ولدت حيوانات ، وتعانى من نتائج الكرما الخاصة بها . ولقد استهجنت الكتب

---

(١) كلمة سنسكريتية تعنى حرفياً الإتزان أو رباطة الجأش (المترجم) .

الچينية المقدسة العادة الشائعة التى تكاد تكون عامة بين الناس وهى أكل اللحوم ، واهتمت اهتماماً كبيراً بقواعد تنظيم الطعام ، فالمذهب النباتى المنتشر انتشاراً واسعاً فى الهند المعاصرة هو إلى حد كبير نتيجة لتأكيد الچينية على الشرور الناجمة عن تدمير الحياة الحيوانية من أجل الرياضة ، أو الطعام ، أو القرابين . وبينما تتسامح مدارس البراهمة فى تقديم قرابين من الحيوانات ، بل تستحسن أطباقًا معينة من اللحوم فى مناسبات خاصة ، وبينما يشارك البوذيون بحرية فى تناول اللحوم التى يقدمها الآخرون ، فإن الچينين يحرمون اللحوم تحريماً مطلقًا ، كما يحرمون الخمور والعسل أيضاً على أعضاء جماعتهم .

بل إنَّ الجينين ليعملون على تجنب أنواع مختلفة من الطعام ـ حتى ـ نظام تغذيتهم النباتى ، وكلما ارتقوا إلى المراحل العليا على طريقهم الروحى المسمى «براتيماس Pratimas» كلما عملوا على اجتناب أنواع مختلفة من الطعام ، ولاسيما الفواكه ذات البذور الكثيرة ، ومنتجات اللبن المتخمرة ، والامتناع عن تناول الطعام بعد غروب الشمس ؛ خشية إلحاق الأذى من الحشرات التى تبدأ حياتها وتتولد بعد الغسق ، ولهذا السبب نفسه فإننا نجد وسائل العيش متاحة للمتعبد الچينى باستثناء الحرف التى قد تؤدى إلى هلاك النبات أو استخدام النار أو المواد السامة ، والتجارة المرتبطة بالرق وتربية الحيوان . ولهذا السبب أيضاً نجد الچينين اليوم كما كانوا فى الأيام الماضية يكثرون ـ فى الأغلب الأعم ـ بين الطبقات المتوسطة من طبقة « الڤيزا » وهى طبقة التجار المغلقة فى الهند .

١٤ ـ التنازل الكامل أو التخلى الشامل :

ينظر عادة إلى رب البيت الذى يتم تدريبه تدريباً جيداً فى المراحل المبكرة من التدين ـ على أنه يصلح لتلقى النزور المُقدمة الخاصة بالراهب (أو الراهبة) . وهذه النذور تسمى النذور الكبيرة (ماها ـ ڤراتاس Maha-Vratas » ، حيث يتخلى الراهب عن كل شئ تماما بما فى ذلك أسرته ، وملكيته الخاصة ، وحقوقه المدنية ، فى حالة «الدجامبرا Digambara » لابسى السماء (من العراة) يتخلى عما يستر عورته ، ويحتفل الچينيون بمناسبة هذه الانطلاقة (براڤراجيا Pravrajya) احتفالاً فخماً ومهيباً ، بأن يأخذوا (المتدين) الطامح إلى هذه المرتبة فى موكب إلى معبد چينى حيث يتم ترسيمه فى نظام الرهبان ، إما بواسطة رئيس النظام المحلى أو عن طريق كبير الرهبان ، ويقوم الطامح بنزع خمس خصلات من شعره بيده كرمز لعدم اكتراثه بالألم البدنى ، ثم يتلقى اسماً جديداً

من معلمه للدلالة على ميلاده الروحى الجديد ، ويتلقى كذلك مذبة مصنوعة من ريش الطاووس (فى حالة فرقة العراة أو الديجامبارا) أو مصنوعة من خيوط مغزولة (فى حالة فريق الملابس البيضاء أو الشفيتمبارا Shevetambara) ، لكى يزيح بهـا الحشرات من طريقه ، وهى تصلح كذلك كعلامة تميز وضعه بين الزهاد . وهناك شعبة من فريق الملابس البيضاء تسمى « شتناكفس Sthanakavas » تضع ـ فضلاً عن ذلك ـ قطعة من القماش على الفم للغرض نفسه .

وعلى هذا الراهب من الآن فصاعداً أن يتسول ليحصل على طعامه ، وألاّ يستقر فى مكان واحد باستثناء موسم المطر ، ولا يُسمح له باستخدام أية وسيلة من وسائل الانتقال ـ لا مظلة ، بل ولا زوج من الحذاء الخفيف (الصندل) ـ ويتحتم عليه أن ينفق حياة التجوال فى دراسة الكتب المقدسة ، وفى الكفارات : كالصمت ، والصوم . وفى التأملات ، وتوقيف تدفق الكرما الجديدة والتخلص من قيود الكرما القديمة . وعندما يدرك أن نهايته قد اقتربت يكون عليه أن يسعى إلى الموت بنفسه عن طريق الصوم حتى يمكن له أن يموت كما يموت القديس فى سلام وصفاء . مثل هذا الطامح سيكون أقرب إلى هدفه ، فقد قدر له أن يحطم دورة الميلاد من جديد ، وأن يبلغ حالة الغبطة الكاملة .

١٥ ـ ما حققته الچينية :

بغض النظر عن انشغالهم بالزهد والتخلى عن الحياة الدنيا ، فقد زعم الچينيون أن ملوكاً لامعين فى الهند القديمة كانوا أعضاء فى جماعتهم يشاركونهم إيمانهم ، كما كان منهم أفراد بارزون من الحاشية فى بلاط عدد كبير من الأسر الحاكمة فى العصر الوسيط فى « الدكن » « وجوجارات » ، وهناك قطع فنية جميلة من عمارة المعابد تشهد على مجدهم القديم ، ولاسيما الأعمدة الضخمة الفخمة فى « باهوبالى Bahubali » فى الجنوب ، ومعبد « دلورا Delwara » فى جبل آبو فى راجستان الشهيرة بدقة صناعتها المرمرية ، كما اشتهر رهبانهم بالبحث وتأسيس مكتبات جميلة لاتزال قائمة إلى اليوم وتضم كتباً نادرة لعظماء القدماء حول جميع أنواع المعرفة تقريباً ، ولقد ساهموا مساهمة هائلة فى حقلى المنطق والفلسفة ، كما كانوا رواداً فى تطوير الآداب الشعبية القديمة فى « تاميل Tamil » و « كنادا Kannada » كما كانوا متحمسين فى نشر وترويج نظرية اللاعنف ، وحصلوا ـ حتى من المغول ـ على قرارات بتحريم ذبح الحيوانات فى الأيام المقدسة عند الچينين .

ولقد واصل الچينيون فى العصور الحديثة كذلك أنشطتهم فى هذه الاتجاهات ، مضافًا إليها تأكيدهم على تطبيق اللاعنف فى مجالات أوسع . ولقد صاغ المهاتما غاندى فى الأيام الأولى من حياته العملية فلسفته السياسية والاجتماعية والاقتصادية على أسس من الصدق واللاعنف بتأثير من الچينيين إلى حد كبير ، ولاسيما القديس الچينى «رايشارد Rayachard» .

* * *

الفصل التاسـع

مذهـب السيـخ Sikhism

السيخ ـ على نحو ما نعرفهم اليوم ـ هم حصيلة ثلاثة عناصر أولية :

أولاً : النظام الدينى الذى علمه للناس المعلم الروحى ناناك Nanak فى البنجاب خلال العقود المبكرة من القرن السادس عشر . **ثانياً** : بنية المجتمع فى البنجاب ولاسيما المجتمع الريفى البنجابى . **ثالثاً** : حقبة التاريخ البنجابى التى تمتد من زمن المعلم الروحى « ناناك » حتى يومنا الراهن . وإلا يمكننا أن نفهم السيخ بغير الإشارة إلى هذه العناصر الثلاثة مجتمعة. لقد أضافت الأنماط الاجتماعية وضغط الظروف التاريخيةإلى القاعدة الأساسية التى أقامتها تعاليم المعلم ناناك ـ معتقدات وأعرافاً وسلوكاً اجتماعياً ، شكلت جميعها طريقاً متميزاً فى الحياة . كما وجد هذا المجتمع تعبيراً دينياً متماسكاً فى المذهب الذى عرف عند السيخ أنفسهم باسم الجورمات Gurmat ، والذى عرف عند الغرب باسم مذهب السيخ .

ولا بد لنا أن نسوق هنا كلمة تحذير قبل أن نقوم بأية محاولة لوصف هذا المذهب: فمن الأهمية بمكان ألا نحدد الخطوط بدقة مبالغ فيها ، لأن التقسيمات الواضحة الحادة سوف تكون مضللة فى فهم الطبيعة الحقة لديانة السيخ ومجتمعهم . ولاشك أن هناك منطقة للعقيدة وللطقوس يتميز بها السيخ ، غير أن الحدود الأبعد من ذلك لمذهبهم تلقى ظلالاً لا تدركها العين فى المدى الفسيح للتراث الدينى فى شمال الهند ، ويتضح ذلك لأول وهلة من الناحية الاجتماعية حيث نجد خيوطاً طبقية مشتركة تجرى أفقياً خلال مجتمعى الهندوس والسيخ ، ويصدق الأمر نفسه من الناحية العقائدية .

بيد أن مناطق المعتقدات والممارسات المشتركة ، لا ينبغى أن تعمل على الخلط بين التميزات وتشويشها ، فمذهب السيخ لايتوحد تماماً مع التراث الهندوسى ، ولا يتميز تماماً عنه . وثمة مقياس للتوحد يُعْتَدّ به ويمكن أن نجده فى مقدمات فكر المعلم ناناك فى القبول العام لتصورات مثل عقيدة التناسخ ، وفى مراعاة أعراف مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً . أما التميزات فنجدها فى رفض بعض المواصفات الهندوسية العامة مثل الدلالة الدينية لتقسيمات الطبقات المغلقة ، وفى عقيدة الأخوة بين السيخ أو « الخلسا Khalsa »[1] وإصرار السيخ أنفسهم على التميز .

---

(١) تعنى حرفياً : الطاهر أو النقى (المترجم) .

١- حياة المعلم ناناك :

تتوافر مادةغزيرة حول حياة المعلم الروحى « ناناك » ، ولا تزال أعظم أشكال النثر البنجابى شعبية حتى الآن فى القرن العشرين ـ هى تلك التى تسمى « جنام ساخى Janam Sakhi أى « شواهد الميلاد » للمعلم ، غير أن شواهد الميلاد هذه إنما هى أقرب إلى سير حياة القديسين ، وهى وروايات تفيض بالورع ، وتضفى المثالية على « ناناك » ، ولكنها لا تنقل لنا إلا النزر اليسير عن حياته الفعلية ، ولا نستطيع من هذه الكتابات ومن الإشارات العارضة فى كتب أخرى إلا أن نعيد كتابة موجز بسيط .

ولد المعلم الروحى ناناك Nanak عام ١٤٦٩م ، والمكان الحقيقى الذى ولدفيه موضع خلاف ، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شك فى أن والديه ينتميان إلى القرية تلفاندى Talvandi التى تبعد أربعين ميلاً جنوب غرب « لاهور » ، وتعرف الآن باسم « ننكانا - صاحب Nankana Sahib » ولقد قضى ناناك طفولته ، وشبابه فى هذه القرية ولم يتركها إلا بعدأن تزوج وأنجب غلامين .

ثم انتقل ناناك ، وهو لا يزال شاباً ، إلى مدينة « سلطانبور Sultanpur » وهناك دخل فى خدمة « النواب » المحلى . وفى أواخر عام ١٥٠٠ غادر هذه المدينة وتبنى حياة الزهاد المتجولين . ويصف كتاب « شواهد الميلاد » تنقلاته وصفاً مسهباً ، ولكنه لا يقدم إلا أقل القليل مما يمكن الاعتماد عليه . ومن الواضح على كل حال أن المعلم لا بد أن يكون قد أنفق عدة سنوات وهو يتجول داخل الهند بهذه الطريقة ، ومن الممكن أن تكون تنقلاته وأسفاره قد ذهبت به إلى مسافات نائية خارج حدود الهند .

ويتضح من الإشارات التى ذكرها فى كتبه أنه شهد جانباً من غزوات إمبراطور المغول بابير Babur ، وأن شخصاً ما تبرع له بقطعة أرض تقع على ضفاف نهررافى Ravi فأقام عليها قريته المسماه «كارتر بور Kartur Pur » ، ومن الواضح أنه قضى معظم سنوات حياته المتبقية فى هذه القرية إلى أن مات هناك قرب نهاية العقد الرابع من القرن السادس عشر حوالى شهر سبتمبر ١٥٣٩ .

٢- مقدمات فكر المعلم ناناك :

تعرض تعاليم المعلم الروحى « ناناك » ـ فى العادة ـ على أنها مزيج ملفق من تراث الهندوس وإيمان المسلمين ، وتلك مبالغة مسرفة فى التبسيط ينبغى رفضها رفضاً تاماً حين

يعبر عنها بأنها « خليط من الهندوسية والإسلام » . صحيح أن تعاليم « ناناك » تمثل بالفعل مركباً ، غير أن العناصر التي يتألف منها هذا المركب لا يمكن تعريفها أبداً بأنها جمع بين الهندوسية والإسلام ، مهما يكن هذا التعريف مرناً فضفاضاً .

لقد كان المركب الذى عبر عنه المعلم « ناناك » ـ مثل هذا التعبير الواضح ـ مذهباً System تطورت عناصره الجوهرية من قبل . فقد وجدت على عهده مجموعة متنوعة من الإيمان الدينى يشار إليها الآن باسم « نرجونا سمبراديا Nirguna Sampradaye » أو باسم « تراث سانت Sant Traditin للهند الشمالية ، وكان « كابير Kabir » هو أعظم شراح هذا التراث قبل ناناك ، ويتم الخلط في العادة بين هذا التراث وبين تراث « فشنافا بختى Vaisnava Bhakti » (المخصص لعبادة تجسدات فشنو) ولا شك أن الأخير يقدم بعض المكونات الرئيسية « لتراث سانت » لكن الاثنين ليسا شيئاً واحداً على الإطلاق.

لقد أضيف إلى تراث فشنافا عنصر أساسى ، رغم تغيير شكله من عناصر اليوجا التنترية Tantric Yoga بجانب قدر ضئيل من تأثير التصوف (الصوفية الإسلامية) ، وكانت النتيجة نمطاً من الإيمان يؤكد أهمية الخصائص الفشنافية Vaisnava فى عبادة المحبة ، ولكنه يختلف عن « الفشنافية بختى » فى نقاط هامة . فقد رفضت نظرية الأفتار Avatar (التجسد) الإلهى ، واستخفت بعبادة الأصنام وذكرت أهمية التمسك بدقة بالعبادة الباطنية ، وأعلن أن هذا النمط من التأمل الباطنى ليس هو الطريق السهل للبختى التقليدية ، إنما هو طريق ضيق لا يمكن أن يأمل فى السير عليه سوى القلة .

كان هذا المركب هو الذى ورثه المعلم « ناناك » ، ونقله إلى أتباعه ، لكن هذا الاعتراف ينبغى ألا يوحى بأن تعاليم « ناناك » تنقصها الأصالة أو أنها لا تمثل نقطة تحول جديدة . إذ الواقع أن أصالة المعلم « ناناك » تكمن فى طرحه الجيد لمركب «سانت » على ضوء خبرته وبصيرته الخاصة ، وفى عبقريته فى تعبيره عنه بجمال ووضوح.

٣- تعاليم المعلم ناناك :

مع بداية أول مؤلف تم تسجيله من كتب السيخ المقدسة نجد الرقم (١) الذى يمثل وحدانية الله ، وهو مفهوم فسره المعلم (ناناك) تفسيراً واحدياً . فالله عند المعلم « ناناك » شخصى وواحد ،وهو الخالق ، المفارق ، المتعالى الذى يجب أن يرتبط به ارتباطاً وثيقاً أولئك الذين يبحثون عن الخلاص . وهذا السعى من أجل الخلاص هو الذى يهم « ناناك » الذى يكرر القول بأن طريق الخلاص هو الذى يشكل فحوى تعاليمه .

ويعبر المعلم « ناناك » عن فهمه لله بعدد من المصطلحات المكررة من قبل . المصطلح الأول هو نرنكر Nirankar أى « ما لا شكل لـه » ومن أبرز ما يوصف بـه الله أنـه هـو « الواحد الذى لا شكل له » ، والصفة الثانية لله هى أكال Akal أى « الأزلـى » ، والثالثةهى ألخ Alakh أى « مالا يوصف » وهناك تأكيد خاص على أهمية هذه الصفة الأخيرة . ولقد استخدم المعلم كلمات لا حصر لها للتعبير عنها : فكيف يمكن للمرء أن يعرف الله ؟ الجواب الأول للمعلم « ناناك » أن المرء لا يستطيع أن يعرف الله ؛ لأن الله فى تمامه يجاوز كثيراً فهم الموجودات الفانية .

غير أن هناك إجابة ثانية تقول : إذا كان الله فى تمامه « لا يمكن معرفته » فليس عدم إمكان معرفته « تاماً » ، ذلك لأنه أيضاً هو إله النعمة الذى بعث بوحى يمكّن للإنسان العادى محدود العقل فهمه ، وهو الوحى الذى يتجلى فى الخلق ، فالله « حاضر فى كل مكان » (ساراب فـياباك Sarab Viapak) وهو محايث فى كل مخلوقاته ،ويمكن لعين الشخص اليقظ روحياً أن تراه فى كل مكان . ولهذا الوحى العام بؤرة مركزية معينة هى القلب البشرى ، ولا بد للمرء أن يكون قادراً على الرؤية بعينه الخارجية ، ولا بد له كـــذلك ـ أولاً ـ أن يكون قادراً على الرؤية بعينه الداخلية ، ولا بد للتأمل أن يتم فى الباطن ، وسوف تتاح للشخص المتأمل بهذه الطريقة استنارة تدريجية تؤدى فى النهاية إلى الخلاص . وللوحى المتجلى فى الخلق أهمية بالغة عند المعلم « ناناك » ؛ إذ يمكن عند هذه النقطة أن يتم الاتصال بين الله وبين الموجودات البشرية . ولا يمكن لطريق الخلاص الذى يهبه الله أن يوجد إلا إذا فهم هذا الاستبصار وطبق بصرامة .

٤- طريق الخلاص :

إن العقبة الرئيسية التى تعوق عملية السعى إلى الخلاص هى الوضع البشرى ، فالناس فى ضلالهم واقعون فى عبوية العالم ؛ لأن ولاءهم للعالم ولقيمه ، وهذا التعلق بالعالم يسجنهم داخل دورة تناسخ لا نهايـة لها من الميلاد والمـوت . إن العـدو العظيم هو « المايا Maya » (اللاواقع) [١] ، و« المايا » عند المعلم ناناك لا تعنى نظرية عن اللاواقعية المطلقة عن العالم ذاته ، بل هى بالأحرى عن لا واقعية القيم التى تمثلها . إن العالم يقدم

(١) المايا Maya : هى أيضاً الوهم أو العدم أو اللاوجود (المترجم) .

كيفيات يقبلها الناس على أنها خيِّرة ومرغوبة فى آن واحد ، مع أنها وَهْمٌ « وخداع » . وأولئك الذين يقبلون العالم على هذا النحو ،ويسعون بالتالى إلى تحقيق الخلاص عن طريق التعلق بالقيم الدنيوية ـ هم ضحايا « المايا » ، ضحايا الوهم الذى يصور لهم أن هذه التعلقات ، إن لم تكن هى الحقيقة فى ذاتها ، فهى على الأقل ليست معادية للحقيقة . ونتيجة هذا التعلق أو الولع بالعالم هى التناسخ أو عذاب الموت بعد الموت ، بدلاً من الفرح الأزلى بالرؤية السعيدة ، ذلك لأن مصير الضال الذى لا يتوب ولا يندم هو الانفصال الدائم عن الله .

إن وضع الضال (الجاحد) وضع يائس ، ولكنه لا يعدم الأمل . ذلك لأن الله بفضله ونعمته قد كشف عن نفسه فى خلقه ، ويمكننا أن نظفر بالخلاص عندما نحوز على هذا الكشف . والمصطلحات الرئيسية التى يستخدمها ناناك ليعبر بها عن هذا الكشف الإلهى هى: نام Nam ، سهاباد Shabad ، وجورو Guru ، وحكام Hukam. وأول مصطلحين ، وهما Nam « الاسم الإلهى » و Shabad الكلمة الإلهية ـ مترادفان ، وكل مصطلح منهما يصلح لتلخيص الكشف أو التجلى الإلهى فى شموله . وكل ما يقال عن الله هو جانب من الاسم الإلهى أو الكلمة الإلهية . لكن الناس ، فى حالة الضلال وعدم التوبة ، تفشل فى إدراك تجليات الحضور الإلهى ، وهذه التجليات هى التى يوضحها لهم المعلم الروحى Guru (المصطلح الثالث) ، أو المرشد الإلهى الذى يدل فى استخدام ناناك على صوت الله الذى ينطق بطريقة غامضة داخل الجانب الباطن من فهم الساعى اليقظ المتهيىء للخلاص . أما لفظ حكام Hukam أو النظام الإلهى ، فهو يعبر عن طبيعة الكشف الإلهى أو التجلى ، ويتحتم على الناس أن تفهم النظام الإلهى للكون ، مادياً ونفسياً ، وأن تكافح لكى تصل بأنفسها إلى الانسجام معه ، وبلوغ هذا الانسجام معناه الخلاص .

٥- نظام العبادات :

لكى يحقق الساعى إلى الخلاص هذه الغاية عليه أن يدخل فى نظام للعبادة ، وأن يثابر على تطبيقه بانتظام حتى يبلغ الانسجام النهائى . وهذا النظام كما أوضحه ناناك لا علاقة له بالشعائر الخارجية : كطقوس المعبد ، أو صلاة المسجد ، أو الحج ، أو الزهد . إن المقصد

الوحيد المقبول للحج « والبيت الوحيد الذى يمكن قبوله للعبادة هو القلب البشرى الذى ينطق فيه المعلم الروحى بالكلمة الإلهية » .

والمصطلح الذى يستخدم ، فى الغالب ، للتعبير عن النظام الذى يعلمه المعلم « ناناك » هو نام سمرام Nam Simram (تذكر الاسم الإلهى) وقد كان التكرار الآلى لكلمة معينة أو لمقطع من كلمة مقدسة يعنى ممارسة محددة للعبادة ، لكن المعنى الذى يضيفه المعلم ناناك إلى المصطلح يتجاوز ذلك بكثير . فهناك أولاً إصرار على الجانب الباطنى المطلق للنظام . ثم توسع فى الكلمة الواحدة لتصبح نظرية متطورة عن التأمل . وحتى هذا التأمل لا يكفى وصفاً للممارسة ، فالمثل الأعلى هو التعرض الكامل لكيان المرء أمام الاسم الإلهى ، والتطابق الشامل لكل ما يكونه المرء ويعمله مع النظام الإلهى الذى يجد التعبير عنه فى الاسم الإلهى .

٦- النمو فى اتجاه الله :

ونتيجة التطبيق المنظم لمصطلح « تذكر اسم الله » (نام سيمرام) هو النمو نحو الله ، والنمو فى الله . وهى عملية متدرجة شبهها المعلم ناناك بسلسلة من المراحل الصاعدة ، وخامس هذه المراحل وآخرها هى المسماة « عالم الحقيقة » (ساخ كهاند Sach Khand » وهى الإتمام النهائى أو الإنجاز الأخير ، حيث تجد الروح اتحادها الصوفى بالله . وفى هذا الوضع الذى تشعر فيه بسعادة لا يمكن وصفها تنتسخ أغلال التناسخ ، وتبلغ الروح مرحلة الانعتاق المطلق باندماجها فى الله .

٧- أول خلفاء المعلم ناناك :

عين المعلم ناناك قبل وفاته تلميذاً يخلفه ، وانعقد لواء القيادة فى الجماعة الجديدة لأكثر من قرن ونصف قرن لسلسة من المعلمين الروحيين . وانتهت هذه السلسلة بموت المعلم العاشر وهو « جوبند سنج Gobind Singh » عام ١٧٠٨ . وكان أتباع المعلم يسمون فى البداية « ناناك بانتيز Nanak Panthis » (المتحدون مع ناناك) ثم سرعان ما حملوا اسم « السيخ » Sikh، وهى كلمة تعنى بالمعنى الحرفى « المتعلم » أو « التلميذ » .

لم تكن لفترة المعلم الثانى « أنجاد Angad » أية أهمية نسبياً ، ولكن بعض التطورات الهامة طبعت عهد خليفته المباشر المعلم « عمار داس Amar Das » ، ففى خلال عهده

نجد علامات لا يخطئها البصر على مجموعة دينية متحررة من الأتباع تتبلور في جماعة متميزة، والظاهر أن تأكيدات المعلم « ناناك » قد انحصرت تقريباً فى السعى إلى الخلاص وأساليب الحصول عليه . ومن الواضح أن « المعلم أنجاد » قد حافظ على هذه التأكيدات ، ولكن في عصر المعلم « عمار داس » تزايد الشعور بالحاجة إلى قدر أكبر من التماسك ، ولقد لبى المعلم « عمار » هذه الحاجة بإقامة احتفالات متميزة للميلاد ، والزواج والموت ، وبتأسيس نظام مبدئى للرقابة الرعوية (وهو نظام مانجى Manji) ، وحددت ثلاثة احتفالات هندوسية باعتبارها كذلك احتفالات للسيخ ، كما أن إقامة المعلم فى مدينة جوندفال Goindval جعل من المدينة مركزاً لحج السيخ .

وهناك عامل آخر له أهمية أولية ويبدو أنه ظهر فى عهد المعلم « عمار » ، وذلك هو الأساس الريفى لتطور جماعة السيخ ، فالمعلمون الروحيون أنفسهم كانوا جميعاً ينتمون إلى طائفة الخاترى Khatri المتمركزة فى المدينة (والتى تشتغل بالتجارة والإدارة والكهانة) وكان كثير من تلاميذ المعلمين الروحيين (الجورو) من « الخاترية » . ولكن خلال الفترة نفسها بدأ أتباعهم القادمون من « جاتز Jatz » أو المناطق الزراعية يتزايدون ، وفى النهاية صارت الغلبة للفلاحين داخل الجماعة . وعند هذه النقطة أصبحت سيادة النماذج الاجتماعية الريفية لا سيما النماذج الثقافية المتميزة للمزارعين واضحة للغاية ، ولقد كانت التطورات السياسية والعسكرية التى جرت بعد ذلك داخل الجماعة ـ فى جانبٍ منها ـ استجابة لهذه العوامل الأساسية ، ووجدت هذه التطورات إبان القرن الثامن عشر التعبير النظرى عنها فى معتقدات السيخ المتطورة .

أما المعلم « عمار داس » فقد خلفه زوج ابنته « رام داس Ram Das » مؤسس مدينة « عمر ستار Amristan » ، وقد خلفه هو نفسه أصغر أبنائه « أرجان Arjan » وسار هذا التسلسل فى خط ذكور أسرة معينة (هى سوذى خاترى Sodhi Khatri) فكان جميع المعلمين الذين تولوا الخلافة من نسل هؤلاء المعلمين الثلاثة . أما فترة المعلم « أرجان » فكانت هامة لسببين : فالمعلم أرجان هو المسؤول عن جمع كتاب مقدس بعينه هو المسمى (آدى جرانت Adi Granth أو جرانت صاحب Grant Sahib) وفى عهده لفت تزايد قوة الحركة أنظار السلطات المغولية المتنمرة لأول مرة .

وفى خلال حكم الإمبراطور « جهانكير » قبض على المعلم الروحى أرجان ومات فى السجن عام ١٦٠٦ (١) .

---

(١) الإمبراطور جهانكيز (١٥٦٩ ـ ١٦٢٧) الملقب « بقاهر العالم » إمبراطور هنوستان ، ورابع إمبراطور مغولى ، وهو ابن أكبر العظيم (المترجم) .

٨- التورط السياسى والعسكرى :

كان مطلع القرن السابع عشر هو حقبة الرجعة النقشبندية [١] فى الهند المغولية التى تصدت للقوة المتنامية لجماعة السيخ ، ومن الطبيعى أو يؤدى ذلك إلى اهتمام رسمى متزايد بهم ، وتدهور مناظر فى العلاقات بين معلمى السيخ والدولة . وكان موت المعلم الروحى أرجان ، ووقوع سلسلة صغيرة من ثلاث مناوشات مع القوات المغولية هى الأسباب التى دفعت المعلم الروحى السادس « هاروجوبند Hargobind » إلى ممارسة قدر من السلطة السياسية والعسكرية ، وبذلك طرأت على جماعة السيخ تغيرات هامة فى الاتجاه السياسى والعسكرى ، ولكن هذه التغيرات لم تكن على حساب التخلى عن النظام الدينى الذى وضعه المعلم الأول . ولقد أدت التغيرات التى جاءت نتيجة لزيادة التورط العسكرى والسياسى للجماعة إلى توسعات ذات مغزى فى مذهب السيخ ، وإن لم تؤد إلى تخليه عن أسسه الأصلية .

وتجدد الصراع بين السيخ والسلطات المغولية خلال فترة تولى المعلم التاسع « تيغ بهادر Teg Bahadur » ثم تزايدت شدته خلال فترة المعلم العاشر والأخير « جوبند سنغ » Go-bind Singh [٢] وفى فترة هذا المعلم الأخير امتد الصراع أيضاً إلى أمراء Rajahs تلال شفاليك ، وهى مشهورة بسيادة الإلهة شاكتى Shakti ، وتصورات القوة المرتبطة بها ، ولقد قضى المعلم جوبند سنغ معظم حياته فى هذه المنطقة كما اتخذ داخل إطار هذه الأحداث قرارات بالغة الخطورة .

٩- « الخلسا Khalsa » [٣]

كان قرار المعلم الروحى « جوبند سنغ » نتيجة واضحة لاقتناعه بأن أتباعه يحتاجون إلى تنظيم أكثر قوة ورسوخاً ، وكان من بين القرارات لتى اتخذها تأسيس الخلسا Khalsa عام

---

(١) النقشبندية : طريقة من طرق الصوفية أسسها بهاء الدين النقشبندى (١٣٦٧ ـ ١٣٨٩) فى فارس، وألف فيها مجموعة من الكتب « كالأنوار البهائية » ، و« سلك الأنوار » ، و« هدية السالكين » واهتمت بالذكر ، وكان لها أفرع فى الصين والهند وتركستان وتركيا (المترجم) .

(٢) أسس جوبند سنغ (١٦٦٦ ـ ١٧٠٨) قوة عسكرية وأصبح قائداًعسكرياً ، وأضاف إلى اسمه سنغ أو أسد ، وكان قوة أخويه تحمل اسم « خلسا » الطاهر (المترجم) .

(٣) كلمة الخلسا : تعني حرفياً الطاهر أو النقى ، والمقصود بها « جماعة الأبرار الأنقياء » وتلك صورة جماعة السيخ فى أواخر القرن السابع عشر على يد المعلم العاشر الذى أسس من ناحية أخرى قوة عسكرية للجماعة (المترجم) .

١٦٩٩ . وأفضل وصف للخلسا هو أنها نظام من الأخوة تندمج فيه الواجبات الدينية والعسكرية مع الواجبات الاجتماعية فى نظام واحد ، ونحن لا نعرف ماذا حدث بالضبط عند تأسيس هذا النظام بالفعل فى عام ١٩٦٩ ، وإن كانت بعض الكتابات المتأخرة تسهب فى وصف الاحتفال . لكن ليس لذلك سوى أهمية ثانوية ، أما الأهمية الأولى فهى أن جماعة الخلسا أو الأخوة فى القرن الثامن عشر ، أصبحت بالنسبة لمجتمع السيخ هى بؤرة الحاجات ، والمثل العليا ، والطموحات التى تطورت سريعاً خلال ذلك القرن .

وكان القرن الثامن عشر المضطرب بالنسبة لجماعة السيخ حقبة تميزت باتساع الآمال والتوقعات ، فقوة المغول فى البنجاب تنهار تحت تأثير الضربات المتلاحقة من قائد جماعة السيخ « بندا بهادر Banda Bahader » (توفى عام ١٧١٦) ومن نار شاه فى فارس، وأحمد شاه عبد الله الأفغانستانى ، وتحت وقع هذه الضربات المتلاحقة تداعت قوة المغول فى النهاية ، وقامت على حكامها القوة العسكرية للسيخ ، ظهر السيخ فى أواسط القرن كجماعة مهلهلة من المحاربين غير النظامين تسمى « مسلس Mmisls » وقرب نهاية القرن تمكن واحد من قادتهم اسمه « رانجت سنغ Ranjit Singh » من السيطرة الشاملة على الفرق الأخرى ، وأسس مملكة للسيخ شملت معظم البنجاب .

وخلال هذا القرن المضطرب الممتد من عام ١٦٩٩ حتى ظهور « رانجت سنج » وقع التحول الرئيسى ، فمن الأحداث الأساسية التى تعزى لهذه الفترة ظهور مصطلح السيخ Sikhism ، ودخول جماعة السيخ فى هذه الفترة بتنظيم مهلهل ونظام بدائى ، ثم خروجها منه بتنظيم محكم ونظام متميز للخلسا Khalsa (أو نظام الأبرار) .

ومن السمات الرئيسية فى هذا النظام ظهور عدد من المحرمات ، وبخاصة تحريم « تدخين الغليون» والإصرار على الالتزام « بالكافات » الخمسة [١] وهى :

١- كيش Kesh أى عدم قص الشعر .

٢- وكانجا Kangha مشط لتصفيف الشعر .

٣- وكيربان Kirpan خنجر أو مدية .

٤- وكارا Kara سوار من الصلب ، أو خلخال من الفولاذ .

٥- والكاخ Kachh سروال قصير لا يتجاوز تحت الركبة .

ولم يكن لبس العمامة مطلوباً بصراحة ، لكنه أصبح ضرورياً بعد الإصرار على عدم

---

(١) المقصود أنها كلها تبدأ بحرف « ك » مما يصعب نقله إلى اللغة العربية على هذا النحو (المترجم) .

قص الشعر وعلى جميع السيخ الذكور الذين انتظموا فى جماعة الخلسا (الأبرار) أن يحملوا اسم سنغ Singh [1] ، واسم كور Kaur فى حالة النساء . أما السيخ الذين تطهروا « بالخلساء » وانضموا إليها ثم هجروا طقوسها ، فأولئك يشير إليهم إخوانهم أعضاء الجماعة على أنهم باتت Patit (أى الساقطين) ، والآخرون الذين لم يتطهروا قط ـ وإن أعلنوا أنهم من أتباع المعلم ـ يسمون « السيخ بطيىء التبنى » .

أما إلى أى حد كانت هذه التطورات قائمة فى نية المعلم الروحى « جوبند سنغ » ، فذلك موضوع لم يسبر غوره بعمق ، ولا شك أيضاً فى أن هناك سمات أخرى ظهرت استجابة للأحداث التى وقعت عقب وفاته . وقد أصبح النموذج واضحاً مع نهاية القرن الثامن عشر ، وسيطر منذ ذلك الوقت على تاريخ السيخ وديانتهم . وكان هناك عدد كبير من « بطيىء التبنى » الذين يدّعون أنهم من السيخ دون أن يقبلوا الانضمام إلى نظام « الخلساء» غير أن المثل الأعلى للخلساء قد زعم منذ ذلك الحين أنه هو الصورة الحقة للإيمان عند السيخ.

١٠- كتب السيخ المقدسة :

هناك مجموعتان من الكتابات التى ترتفع إلى مرتبة الكتب المقدسة لجماعةالسيخ ، رغم أن إحدى هاتين المجموعتين واسمها « آدى جرانت Adi Granth » هى التى تتمتع بوضع تشريعى لا خلاف عليه ، أما الأخرى اللاحقة لها « داسام جرانت Dasam Granth» فلها أهمية متميزة .

والمجموعة الأولى آدى جرانت Adi Granth ـ والاسم يعنى حرفياً المجلد الأول ـ جمعت خلال عامى (١٦٠٣ و ١٦٠٤) بواسطة المعلم الروحى « أرجان Arjan » ويستخدم المعلم الروحى فى هذه المجموعة تصنيفاً آخر كان قد تم إعداده فى فترة مبكرة تلبية لوصية المعلم « عمار داس » ، ثم أضاف إليه مؤلفاته الخاصة ومؤلفات والده المعلم « رام داس » ، وبعد ذلك لم تضم للمجموعة سوى أعمال قليلة أضافها المعلم الروحى « تاج بها دوره » ، ثم اكتمل التشريع أثناء فترة المعلم الروحى « جوبند سنغ » أو بعدها بقليل . وفضلاً عن ترنيمات المعلمين ، فقد أضيف عدد من مؤلفات شخصيات مبكرة فى « تراث

---

(١) يتخذ كل سيخى ينتمى إلى جماعة المحاربين ، أو ينتسب إلى طائفة الخلسا لقب سنغ أى أسد (المترجم) .

سانت Sant » قد اشتهر من بينهم كابير Kabir ، ونامديف Namdev ، ورافيداس -Ravi das ، كما أضيفت مجموعة من المقاطع الشعرية المزدوجة(الكوبلية أو الدويت) تعزى إلى الشيخ فرى الباك بتانى Pak Pttan .

ويصنف المجلد كله تبعاً للوزن الشعرى (راج) ، وداخل كل وزن أو بحر تقسيمات فرعية أخرى تبعاً للمؤلف ووفقاً لحجم القصيدة . ومعظم المادة تتألف من التراتيم التى استخدمها المعلمون من قبل فى إرشادهم الدينى ، وهى كلها - تقريباً - مكتوبة بلغة « سانت بهاشا » « Sant Bhasha » وهى لغة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكل من اللغتين الهندوسية والبنجابية ، كما أنها لغة استخدمها أصحاب الديانة الشعبية على نطاق واسع فى أواخر العصر الوسيط فى شمال الهند كلغة مشتركة عامة ، والنص المكتوب هو « جرميخى Gurmukhi » الذى لا يستخدمه اليوم إلا أهل البنجاب .

ويمثل الوضع الحالى لـ « آدى جرانت Adi Granth » (أى المجلد الأول) الوضع الأخير فى تطور عقيدة السيخ على يد « الجورو » أو المعلمين الروحيين . فقد كان المعلم الروحى فى التراث الهندى معلماً إنسانياً على الأصالة ، ثم أصبح فى « تراث سانت Sant » وعند ناناك Nanak هو صوت الرب أو كلمة الله ، وسرعان ما تحول دوره داخل جماعة السيخ إلى الرجال الذين قدموا التعبير المعتمد عن تلك الكلمة الإلهية ، وهكذا اكتسب مرة أخرى مفهوماً شخصياً . ولقد أعلن المعلم الروحى « جوبند سنغ » قبل وفاته كما يقول تراث السيخ : إن خط الجورو (المعلم الروحى) الشخصى قد انتهى ، وأن وظائفة تتمثل فى جانبين معاً هما : جانب الجماعة المتماسكة ، وجانب الكتب المقدسة .

ويبدو أن هذا التفسير قد استمر فترة من الزمن ، لأننا نجد عنه إشارات قبل المعلم « جوبند سنغ » كما أن الفراغ من القيادة (أو الفراغ القيادى) الذى أعقب موته شجع تشجيعاً قوياً على إيجاد صيغة محددة لهذا المذهب . غير أنه لا يمكن أن يكون ثمة شك فى أنه اكتسب أهمية أساسية إبان القرن الثامن عشر ، ومع ظهور « رانجيت سنغ « Ranjit Singh أهمل جانب الجماعة المتماسكة وارتفع جانب الكتاب المقدس ، فاحتل مكانة السلطة المطلقة التى احتفظ بها منذ ذلك الوقت . ونحن نجد لـ « آدى جرانت » (أو المجلد الأول) دلالة مركزية مطلقة فى الحياة اليومية للسيخ المؤمنين ، وفى احتفالات السيخ جميعاً حيث يعرف بصفة عامة باسم« جورو جرانت صاحب Guru Granth Sahib » .

وفى مقابل ذلك نجد أن رفيقه الذى جاء بعده لا يقرأ إلا قليلاً فى يومنا الراهن ، ولقد جمع هذا الرفيق وهو « داسام جرانت Dasam Granth » فى القرن الثامن عشر من أعمال متنوعة تنتسب إلى المعلم « جوبند سنغ » ، وظهرت صحة هذه النسبة فى بضع مؤلفات قليلة ، لكن الجانب الأكبر من المجموعة يتألف من حكايات هندوسية ، وروايات عن حيل النساء ، ولا يمكن أن يكون مما كتبه هذا المعلم . غير أن أهمية « داسام جرانت » الخاصة تكمن فى الشهادة التى قدمها عن المثل العليا عند السيخ فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كما ترجع كذلك إلى أنها مصدر ذو قيمة كبرى لتاريخ السيخ فى هذه الفترة .

١١- عبادة السيخ :

تعبر العبادة المنتظمة للسيخى المخلص عن نفسها فى ثلاثة طقوس :

أولاً : التلاوة اليومية لفقرات معينة من كتاب العلم « جرانت صاحب » خصوصاً الجابجى Japji للمعلم ناناك الذى ينبغى تلاوته من الذاكرة بعد النهوض من النوم والاغتسال مباشرة . ثانياً : الطقوس اليومية للأسرة رغم أنها ليست عامة على الإطلاق فتتجمع كثير من الأسر كل صباح ، ومعهم نصوص المعلم « جرانت صاحب » ويقرأون فقرات يتم اختيارها عشوائياً . ثالثاً : هناك لقاء مع الأسرة الكبرى ، وهى أسرة الخلسا (إخوة الأبرار) فى الجوردوارا Gurdwara [١] أو المعبد .

ومنذ أيام المعلم الروحى ناناك و « الجوردوارا » ـ أو البناء المناظر له ـ يشغل مكانة ذات أهمية ملحوظة فى حياة جماعة السيخ . ونمط العبادة المتبع فى « الجوردوارا » يعتمد أساساً على إنشاد فقرات من نصوص « المعلم جرانت صاحب » ، وعندما يدخل السيخى هذا البناء لأول مرة فإنه يتجه نحو الكتاب المقدس وهو الجورو جرانت صاحب ، ويلمس الأرض بجبهته ويقدم قرباناً . وفى أوقات معينة يشترك جميع الحاضرين فى تلاوة الأرداس Ardas أى صلاة السيخ ، وهى شكل معين من الابتهالات للنعمة الإلهية ، وتذَكُّر الآلام الماضية التى مرت بها الجماعة وكذلك أمجادها . وقد نشأت هذه الصلاة إبان القرن الثامن عشر ولم يطرأ عليها منذ ذلك التاريخ سوى تعديلات عرضية طفيفة ، وهى تختتم بالإشارة إلى «جورو جرانب صاحب » بوصفها التجلى الجسدى للمعلم ، وبالإعلان الشهير بأن : « الخلسا سوف تحكم » ! « راج كاريجا خالسا Rai Karega Khalsa » .

---

(١) الجوردوارا : هو المعبد عند السيخ (المترجم) .

١٢- السيخ اليوم :

يبلغ تعداد السيخ الذين يعيشون اليوم فى الهند حوالى ١٢ مليون نسمة ، وهم يمثلون بنسبة ٣٪ من سكان البلاد، وحوالى ٩٠٪ من هذا العدد الإجمالى يعيشون فى مقاطعة (البنجاب Punjab وهارايانا Harayana) ، وحوالى ٤٪ يعيشون فى المنطقة المتاخمة لشمال راجستان ودلهى ، ولا يبقى سوى ٦٪ فقط ينتشرون فى بقية أنحاء الهند . ولقد هاجر عدد كبير منهم إلى بلاد أخرى ، ولكن لا تتوافر لدينا إحصاءات عن عدد هؤلاء المهاجرين .

لم ترجح كفة السيخ العددية فى أى مكان من الهند ، فهم حتى فى ولاية البنجاب يشكلون حوالى ٥٠٪ من السكان ، وإن كان لهم تأثير كبير يزيد عن حجم تعدادهم لا داخل ولاية البنجاب وحدها ، بل كذلك داخل ميادين واسعة من الحياة الهندية ، وهذا التأثير يشمل القوات المسلحة ، والنقل والمواصلات ، والنشاط السياسى والنشاط الرياضى . وتنعم جماعة السيخ أيضاً بوضع اقتصادى ممتاز نسبياً ، وهم يبلغون فى التعليم درجة أعلى من المتوسط فى كل أنحاء الهند .

وهناك أسباب متعددة يمكن أن تفسر هذا الوضع المميز . أحد هذه الأسباب وأكثرها أهمية هو أن الغالبية العظمى من السيخ يعيشون فى مناطق عالية الخصوبة . وقد تحالفت البيئة مع وسائل التقنية الزراعية المتقدمة ، فأنتجت الكفاية الاقتصادية ، وجلبت فى حالات كثيرة رخاءً ملموساً إلى طبقة المزارعين من السيخ الجات Jat[1] ، وليس فى عقيدة السيخ أو إيمانهم ما يعوق هذا التقدم ، بل إن تحررهم بصفة عامة من العادات والتقاليد المعوقة قد أعطاهم ـ على العكس من ذلك ـ ميزة كبرى لم يتوانوا عن استغلالها .

أما طائفتا الخاترى Khatri والأرورا Arora (وهما من الطوائف الدنيا فى المدينة) فهما تنعمان كذلك بقدرٍ وافرٍ من النجاح الاقتصادى فى الصناعة والحرف والمهن المختلفة . ويمكن أن نفسر ذلك من ناحية ، بأنه يرجع إلى المهارة التجارية الموروثة ، كما يرجع ، من ناحية أخرى ، إلى تأكيد السيخ على أهمية التعليم . والسيخ فى أيامنا هذه هم وحدهم الذين ينتمون إلى الجماعات المنبوذة التى تعانى من عدم الأمان الاقتصادى الواسع النطاق ، وإن كان وضعهم ، بصفة عامة ، أفضل من وضع الهندوس أو الطبقات المسيحية المقهورة.

---

(١) أى إلى المزارعين أو الفلاحين من السيخ (المترجم) .

وقد ظلت العلاقات المتواصلة بين السيخ والهندوس ، عموماً ، علاقات صداقة وزواج متبادل عبر خط حدود الطبقات المغلقة – وهى علاقات ليست مجهولة على الإطلاق صحيح أن قادة السيخ يعلنون بين الحين والحين عن وجود نوايا سيئة عندالهندوس ، غير أن هذه التصريحات تكون عادة لأغراض سياسية ولا تؤثر فى العلاقات إلا قليلاً . غير أن خلافاً أكثر خطورة نشب فى مجتمع البنجاب أدى إلى تصدع الجماعة ، والانشاق بين «الجات Jats » (الفلاحين والمزارعين) ، وبين بعض الطبقات المدنية . ولقد كان هذا الخلاف فى أساسه خلافاً اقتصادياً ، كما كان ارتباطه بالتميزات الدينية ثانوياً .

ومن أهم مظاهر تحرر السيخ من العادات والتقاليد المعوقة استعدادهم للهجرة إلى بلاد أخرى . ويمكن أن نجد السيخ اليوم فى كل ركن من أركان المعمورة ، لا سيما فى المملكة المتحدة ، وشرق أفريقيا وماليزيا ، والساحل الغربى لكندا ، والولايات المتحدة الأمريكية. وقد كان عدد كبير من المهاجرين الهنود الذين جاءوا إلى المملكة المتحدة من السيخ ، وفى انجلترا اليوم خمسون جوردوارا Gurdiwara « معبداً للسيخ » . أما القول بأن عدداً كبيراً من هؤلاء المهاجرين أصبح من الصعب التعرف عليهم بوصفهم أعضاء فى مذهب السيخ ، فإنه يشير إلى لونٍ من ألوان القلق الذى تعانى منه هذه الجماعة . ولقد أظهرت السنوات الأخيرة استعداداً لدى شباب السيخ للتخلى عن الرموز الخارجية لعقيدتهم عندما يعيشون خارج الهند ، بل إننا نجد علامات مميزة لهذا الاتجاه داخل البنجاب نفسها .

* * *

الفصل العاشر

البوذية Buddhism

إن ما أصبح معروفاً اليوم فى الغرب باسم مذهب البوذية ـ بالمماثلة مع غيره من المذاهب ـ يعرف فى موطنه فى آسيا باسم بوذا ـ ساسانا Buddha Sasana أعنى طريقة حياة، أو نظام « الواحد المتيقظ » وهو البوذا ، وهو يعرف أيضاً باسم « بـــوذا ـ داهما Buddha Dhamma ، وتعنى فى هذا السياق بقدر ما يمكن أن يكون المعنى الإنجليزى مؤدياً لكلمة « داهما » الحقيقة الخالدة للواحد المتيقظ ، وهذه الترجمة بالطبع ملتبسة الدلالة وغامضة . ويتمثل الغموض والالتباس فى المصطلح الأصلى ، و بالأحرى فى كثرة معانية ، فالحقيقة الخالدة « للواحد المتيقظ » تعنى فى آن واحد الحقيقة التى تدور حول واقعة «المتيقظ » ، على نحوٍ أصيل ، ألا وهو « بوذا » أو جوتاما Gautama الذى عاش فى شمالى الهند فى القرن السادس قبل الميلاد .

ولا بد هنا من شرحٍ بسيطٍ يساعدنا على تجنب الخلط حول تنوع الأسماء والألقاب التى عرف بها هذا الرجل على مر التاريخ . فكما عرف كاتب المسرح الإنجليزى فى عصر الملكة إليزابيث باسم « شكسبير » ، فكذلك عرف هذا الرجل باسم « جوتاما » ، إذ كان هذا هو اسم عائلته ، أما اسمه الشخصى فهو « سدهاتا » (فى اللغة السنسكريتية سدهارتا) وكانت أسرته من عشيرة جمهورية تدعى أنها من أصل نبيل وعريق ، وهى عشيرة سكياس Sakyas ، ولذلك كان اللقب الذى عرف به سدهارتا هو لقب حكيم سكياس أو سكيامونى Sakyamuni ، وهناك أسماء وألقاب أخرى تطلق عليه فى الكتب المقدسة البوذية، مثل « التاجاتا Tathagata »[(١)] ومعناها غامض ، لكن أفضل اسم هو الذى عرف به عموماً فى الغرب وهو « بوذا Buddha » لكن هذا ليس اسماً شخصياً ، ولا بد أن يكون القارىء قد تحقق من ذلك الآن ، ولا ينبغى أن يستخدم على أنه اسم شخص ، فالواقع أن بوذا – طبقاً للتراث البوذى – قد ظهر من وقت لآخر طوال التاريخ البشرى ، وسوف يواصل الظهور على هذا النحو كلما فقد الناس معرفة الداهما Dhamma ، وتوقفوا تماماً عن ممارسة « الساسانا Sasana » ، ويحدث هذا حسب مصطلحاتهم التقليدية تقريباً كل ٥,٠٠٠ سنة .

ويسجل التراث البوذى أسماء ما لا يقل عن ٢٤ بوذياً سبقوا بوذا جوتاما ، وليس هناك دليل على وجودهم كشخصيات تاريخية ، وإنما وجودهم مؤكد « كحقيقة تجلت » وأعلنها بوذا جوتاما . وهكذا يتصور التراث البوذى فترة زمنية تقدر بمائة وعشرين ألف سنة سبقت

(١) تترجم أحيناً بالمستنير الكامل أو الحكيم ، أو « المنقذ المنتظر » وهى تعنى حرفياً باللغة السنسكريتية ... «الشخص الذى حضر » وهو أحد اسماء « بوذا » الثلاثة إلى جانب باجافا أى « السيد » (المترجم) .

العصر الذى عاش فيه « جوتاما » فى القرن السادس قبل الميلاد ، غير أن هذه كلها ليست سوى أرقام رمزية .

إن قياس الزمن عند الرجل البوذى ـ وفى الفكر الهندى عموماً ، شاسع جداً إذا ما قورن بمقاييس التاريخ الغربى ؛ فهو يرتد فى الماضى ارتداداً لا أول له ، ويمتد إلى الأمام امتداداً لا نهاية له . ومسار زمان الساعة ليست له دلالة أولية ، رغم أنه ليس بغير دلالة على الإطلاق ، فإذا أمكننا أن نقول زمان الساعة أفقى الأبعاد يمتد من الحاضر إلى الأمام وإلى الخلف ، فإن البعد الذى له مغزى مطلق عند الرجل البوذى هو بعد رأسى أو عمودى . إنه يهتم بما حدث فى هذا البعد داخل مسار الزمن المتقدم ، ويرى من الضرورى بصفة خاصة أن نوقظ فى الناس بعض الوعى بهذا البعد مهما يكن هذا الوعى معتماً ؛ لأنه سوف يؤدى إلى حالة اليقظة أو إلى عالم آخر من الوجود ، غير أن فى ذلك استباقاً لما ينبغى أن نقوله حول تعاليم جوتاما بوذا ؛ ولهذا يتعين علينا أولاً أن نقول كلمة عن حياته وتجاربه .

١-حياة جوتاما :

إن ما نعرفة عن حياة بوذا يقوم أساساً على شواهد من نصوص الشريعة ، وأكثر هذه النصوص اتساعاً وشمولاً هى التى كتبت بلغة بالى Pali ، وهى إحدى لغات الهند القديمة، وتشكل هذه النصوص شريعة الكتب المقدسة لمدرسة ترافادا Theravada (البوذيون الترافيديون) فى « سرى لانكا » ، و « بورما » ، وتايلند ، وكامبوتشا ، ولاوس ، رغم أن البوذيين من مدرسة ماهاينا Mahayana البوذية فى الصين وكوريا واليابان ينظرون إليها كذلك باحترام (وسوف نعالج فيما بعد الفروق بين هذين النمطين من مدارس البوذية) وتقدم لنا نصوص « بالى » كذلك شهادة أيدت بعض جوانبها المكتشفات الآثرية فى المنطقة.

كان بوذا جوتاما وفقاً لما يقوله التراث – ابناً لأحد قادة قبيلة سكيا Sakya ، التى كان موطنها مينة على تلال الهملايا تسمى كابيلا فاستو Kapilavastu ، وتقع فى الإقليم الذى يعرف اليوم باسم نيبال . فها هنا فى التلال الواقعة أسفل جبال الهملايا نشأ الشاب سدهاتا Siddhat ، وقضى فترة رجولته المبكرة ، وتزوج وأنجب ابناً هو راهولا Rahula ، وبدأ سدهاتا ينشغل ويقلق – ولا يزل ابنه طفلاً ـ بمشكلات أزلية مثل : لماذا يولد الإنسان ؟ هل يولد فقط ليعانى المرض ، ثم تنهكه الشيخوخة وفى النهاية يموت ؟

وتروى النصوص كيف التقى – على التوالى – برجل يعذبه المرض ، ثم برجل فى آخر مراحل الوهن والشيخوخة ، ثم بجثة محمولة إلى مكان المحرقة ، ومن خلفها يسير الحزانى من الأقارب والأصدقاء ، وبينما هو يتفكر فى هذه الوقائع ، وكيف أن هذا هو مصير كل إنسان ، إذ رأى شخصاً رابعاً هو رجل مقدس حليق الرأس جوال متدين ، وواحد من الذين نذروا أنفسهم للسعى إلى حياة الزهد ، لكى يعثروا على طريقٍ للتحرر من عبث الحياة الظاهر . وهؤلاء الرجال المتدينون الجوالون هم الذين يعرفون باسم « الشرمانيين Shramanas » ، ولم يكونوا ظاهرة غريبة على الهند القديمة . وهكذا تحول « سدهاتا » إلى هذه الحياة ، حياة الزاهد المتجول ، آملاً أن يجد حلاً لمشكلات الوجود البشرى .

٢- القادة الدينيون فى الهند فى القرن السادس قبل الميلاد :

كثيراً ما يصور هؤلاء الشرمان Shramanas أو المتجولون المتدينون فى صورة مخالفة للشخصيات الدينية الرئيسية الأخرى فى الهند في ذلك العصر ، وأعنى بهم البراهمة Brahmins ، أو الكهنة ، إذ يقوم الشرمان ، فى الأعم الأغلب ، بتعليم بعض العقائد الدينية والنظريات الفلسفية ، وهى عقائد متنوعة ومختلفة كانت تجعل الشرمان ينشغلون بالمجادلات الدينية ،ولكن الشيء الذى كان يوحد بينهم عموماً هو أنهم يمثلون بدائل للمذهب البرهمى وطقوس التضحية والقرابين . ولما كان نظام القرابين الذى يترأسه البراهمة معقداً أو مكلفاً فإنه لم يقدم الكثير مما يلائم رب البيت العادى أو المزارع أوصغار التجار . ولهذا كان هؤلاء ينجذبون بقوة إلى تعاليم الشرمان ، وكان الدافع المسيطر على معتقداتهم المختلفة هى فكرة التحرر من متاعب الحياة ،وذلك فى أغلب الأحيان عن طريق التنظيم الصارم أو الزهد.

انضم « سدهاتا» إلى جماعة من النساك أو الزهاد ، وظل فترة من الوقت يعمل بجدية تامة ، جاهداً فى السعى وراء الحقيقة الروحية بمنهج الزهد ، وأخيراً وجد أنه لم يتقدم كثيراً فى سعيه ، على الرغم من أن نظام الزهد الذى اتبعه بلغ من الصرامة حداً جعله « جلداً على عظم » ، واقترب به كثيراً من الموت ،فقرر أن ما يبحث عنه لايمكن الوصول إليه عن هذا الطريق ، ولا عن أى طريق آخرمن الطرق التى يمثلها القادة الدينيون المعاصرون له .

٣- الصحوة :

ترك « سدهاتا » الزهّاد ، ومضى فى حال سبيله حتى وصل إلى ضفة نهر جايا

Gaya، وهو رافد يصب فى وسط نهر الكنج ، وجلس تحت شجرة البو Bo Tree ، وهناك بدأ فى التأمل الجاد على طريقة الرجال المقدسين فى الهند ، عازماً على أن يظل فى تأمله على هذا النحو حتى يصل إلى الاستنارة التى يسعى إليها . ويخبرنا التراث كيف هاجمه الشيطان مارا Mara وبناته الثلاث ،وكيف حاولوا بحيلهم المختلفة أن يجعلوه يحيد عن تحقيق هدفه فى أن يصبح بوذا (أى المستنير) ، غير أن جهودهم كلها ذهبت هباء(١) وبعد ليلة من الصراع الروحى أمكنه أن يتغلب على جميع العوامل الشريرة التى تربط الناس ـ فى رأى البوذية ـ بهذا العالم الفانى الناقص . وهكذا ، استيقـــظ بوذا ودخل فى نطـاق الوجـود الأزلى المتعالى .

ويوضح التراث أنه كان باستطاعته عند هذه النقطة أن يظل هكذا ، دون أن ينشغل أو يهتم بالعالم الفانى الزائل ، لكن بوذا رحمة منه،وشفقة على جماهير الجنس البشرى طرح هذا الإمكان لكى يكرس نفسه خلال الفترة الزمانية الباقية من حياته الفانية لإعلان الدهاما Dhama أو الحقيقة الأزلية التى أيقظته(٢) .

ومن ثم ظل فى تأمله لمدة أسبوع واحد آخر ، ثم لبث فترة يتجول جيئة وذهاباً فى المنطقة المجاورة لشجرة « البو »(٣) وخلال هذه الفترة عاد إليه الشيطان « مارا » من جديد وحثه – وقد أصبح الآن بوذا – أن يهجر عالم الفانين هذا ، ويستمتع بغبطة النبانا Nibba-na ـ وإن كانت كلمة النرفانا Nirvana السنسكريتية أكثر شيوعاً ـ فأجابه بوذا بقوله : إنه لا بد له أن يعلن أولاً الدهاما Dhamma للآخرين ، ولا بد أن يرى نظام الرهبان وقد استقر، وعندها فقط يغادر نهائياً هذا العالم الفانى .

---

(١) تشبه جداً تجربة الأربعين يوماً فى المسيحية ، حيث كان الشيطان يحاول غواية السيد المسيح « أخذه إبليس إلى جبلٍ عالٍ وأراه جميع ممالك العالم ، ومجدها ، وقال له أعطيك هذه جميعاً إن خررت وسجدت لى حينئذٍ قال له يسوع : اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد » متى ٤ : ٧ ـ ٨ (المترجم).

(٢) سمعت صوتاً بداخلى يقول بقوة : « نعم فى الكون حق أيها الناسك ، هناك حق لا ريب فيه ، جاهد نفسك حتى تناله » (المترجم) .

(٣) تسمى أحياناً « شجرة العرفان » التى تحتها أشرقت شمس الهداية على بوذا ، ويرى البعض أنها شجرة من فصيلة التين ، وقد عنى البوذيون بأمرها عناية كبيرة ، جعلوها موضع تقدير إلى درجة التقديس . ويرى البعض أنها كانت فصيلة التين . ويربطون بينها وبين الآية الكريمة « والتين والزيتون وطـور سنين فالتين رمز لبوذا الأكبر ، والزيتون رمز لعيسى عليه السلام ، وطور السنين لموسى ـ وتقديم التين على الزيتون إشارة إلى أن ظهور بوذا كان قبل ظهور عيسى عليه السلام .. إلخ .

راجع فى ذلك كله الأستاذ / حامد عبد القادر فى كتابه « بوذا الأكبر » ص ٥٤ ـ ٥٧ (المترجم) .

ويقال إن أول موعظة ألقاها بوذا عن « الداهما » (الحقيقة الخالدة) كانت فى الهواء الطلق فى حديقة غزلان قرب « بنارس » ، وتعرف هذه الموعظة فى التراث البوذى باسم « موعظة تحريك عجلة الداهما »[١] . ومن المرجح أن الشك الذى حفظ به نص هذه الموعظة فى لغة بالى Pali كان نتاج فترة متأخرة ، رغم أنها قد احتوت على بعض العناصر الأساسية فى الفكر والممارسات البوذية المبكرة (وسوف نشرح المعالم الرئيسية لهذا المذهب المبكر فيما بعد) .

٤- بداية الجماعة البوذية :

بدأ بوذا منذ ذلك الوقت يجذب إليه التلاميذ الذين كانوا شغوفين لسماع المزيد من تعاليمه ، والاسترشاد بالطريق (ماجا Magga) الذى يتحدث عنه . ولقد كانت تعاليم بوذا توجه إلى كل الناس بغير استثناء سواء كانوا من علية القوم ، أو من أراذلهم ، كم عبرت عنها بألفاظٍ ذات معنى حتى بالنسبة لأبسط الناس –وذلك على خلاف تعاليم البراهمة وغيرهم من فلاسفة الهند القديمة ، وهم الذين حفظت فلسفتهم فى بحوث عرفت باسم اليوبانشاد (وهو اسم يشير إلى حلقة خاصة من التلاميذ)[٢] .

ولقد عرض بوذا هذه التعاليم فى مجموعة كبيرة من الحكايات ، والأمثولات ، والتشبيهات ، والطرائف ، وأمثالها من أساليب التعليم الشعبى ، وكان باستمرار يشرح ذلك بطريقة تثير اهتمام الناس وتشجعهم على أن يلزموا أنفسهم على نحوٍ شخصى « بالطريق » الذى عن طريقه وحده ، يمكن أن يأملوا فى الوصول إلى فهمٍ تامٍ وعميقٍ للحقيقة . وهذا التأكيد على أهمية الحاجة إلى التحقق الشخصى مما تم قبوله فى البداية على أساس الإيمان قد ظل هو السمة الغالبة على الممارسات البوذية حتى يومنا الراهن .

كان أتباع بوذا خلال الأربعين سنة التى قضاها فى ممارسة نشاطه العام ، من جميع الطبقات ومن كافة المهن والأعمال . وقد احتقر البوذيون نظام الطبقات المغلقة الهندى المتزايد، فعندما ينضم رجل إلى نظام « السنغا Sangha »[٣] وهو نظام أولئك الذين انشغلوا

---

(١) « أو » موعظة دوران عجلة الحقيقة ، على اعتبار أن الحقيقة هنا هى فلسفة بوذا الأكبر التى تقدم تفسيراً لأسرار الحياة ، وبداية دوران عجلة الحقيقة أو تحريكها يعنى أن بوذا انطلق مبشراً بديانته الجديدة (المترجم) .

(٢) سبق أن ذكرنا أنها تعنى الجلوس بالقرب من المعلم (المترجم) .

(٣) السنغا : هى جماعة المتصوفة دعاة البوذية (المترجم) .

طول الوقت بالسعى وراء الحياة البوذية المقدسة ـ لا يهم من أية طبقة أو طائفة جاء ـ لأن احترام أعضاء النظام إنما يكون بناء على درجة قداستهم فحسب ، أعنى بناء على عمق تجربتهم فى نظام « السنغا » ، وقد كانت هناك كثرة أخرى ، إلى جانب أولئك الذين دخلوا النظام ، ممن ظلوا أتباعاً عاديين يمارسون قواعد الحياة البوذية لرب البيت ، حتى يأتى الوقت الذى يقررون فيه الانخراط فى حياة الرهبان البوذيين فيصبحون مثلهم بلامأوى ، ولا مقتنيات ، مكرسين أنفسهم أساساً لحياة التأمل .

٥- تطور النظام :

كان بوذا وتلاميذه فى البداية يشكلون جماعة من « الشرمان » المتجولين ، ولم تتبن هذه الجماعة طريقة مستقرة فى الحياة إلا فيما بعد ، وغُطِّيت منطقة وسط وادى نهالكنج كلها بمدنها المختلفة ، كبيرة أو صغيرة ، بجماعة الرهبان البوذيين الجائلين ذهاباً وإياباً ، حتى أصبح اسم « حكيم سكياس » (بوذا) معروفاً معرفة جيدة ومحترماً للغاية بطول هذه المنطقة وعرضها .

وكانت ظروف العصر مواتية لنمو الجماعة البوذية ، فقد اختفت الاتحادات القبلية قبل قدوم النظم الملكية الأكثر قوة والأشد عدوانية كالنظام الملكى فى منطقة مجاذا Magahda بعاصمته بتليبوتا Pataliputta (بتنا Patna) . ومع اختفاء الجمهوريات اختفت كذلك طرق وأساليب الحياة القديمة المألوفة ، وكان تنظيم النظم الملكية أوضح ، وغير شخصى أكثر ؛ ولذلك سُرَّ الناس أن يجدوا فى الجماعة البوذية التى نظمت على غرار الاتحادات القديمة ـ شيئاً من الحياة المشتركة التى فقدوها . وفضلاً عن ذلك فقد أدت الظروف المضطربة للعصر إلى ظهور أسئلة كهذه بمزيد من الحدة : لماذا نعانى نحن البشر ؟ وما الغاية النهائية من الحياة البشرية ؟ وما إلى ذلك . وقد وجد الكثيرون إجابات شافية عن هذه الأسئلة فى التعاليم البوذية .

لم يكن بوذا وتلامذته يتجولون طوال العام ، إذ يصبح التنقل مستحيلاً لمدة ثلاثة أشهر ـ أو نحو ذلك ـ وهى فترة الأمطار الموسمية الغزيرة فى شمال الهند ، وكانت مجموعات الرهبان البوذيين تلجأ خلال هذه الفترة إلى أماكن أشبه بالمخابىء حيث يعيشون حياة جماعيــة ، ثم يعـودون بعد أن تنتهى فترة المطر إلى التـفرق فى أماكن شتى مرة أخرى .

ولكن مع مرور الزمن امتدت هذه الممارسة للحياة المشتركة خلال انحسار المطر إلى فترة ما بعد انتهائه حيث بدأت جماعات من الشرمان البوذيين فى الاستقرار [١] .

٦ - استقرار البوذية فى الهند :

لا يتضح من الشواهد المتاحة طبيعة التسلسل التاريخى للكهانة البوذية . ويبدو من التراث المروى أنه عندما توفى بوذا فى سن الثمانين كان قد أصبح شخصية شهيرة ومحترمة للغاية ، كما كان له أتباع ومؤيدون من الأغنياء والفقراء على السواء . فقد كان ملك «مجاذا» المسمى بمبزار Bimbisara واحداً من أخلص تلاميذه [٢] ، ويبدو أن موقف بوذا تجاه النظام الملكى كان يشوبه بعض الالتباس ، إذ تدل بعض الأقوال المنسوبة إليه ، على أنه نظر إلى ممارسة الملكية بوصفها عقبة فى سبيل السعى إلى الحياة الدينية وأنها مصير ينبغى تجنبه إذا أمكن . ويبدو من ناحية أخرى أنه أخذ بوجهة النظر التى تقول إن الملك إذا كان لديه استعداد طيب نحو « الحقيقة البوذية » ، يستطيع أن يفعل الكثير لتيسير التطبيق المؤثر للحياة البوذية على رعاياه ، وذلك بأن يؤكد وجود عدالة اجتماعية داخل مملكته ، وأن أحداً لا يعانى من الفقر أو الحاجة ، كما لا تسنح الفرصة لأحد لكى يزداد ثراءً على نحوٍ فاحش.

ونحن نجد هنا تطبيقاً للمبدأ الذى تميزت به البوذية ، ألا وهو « الطريق الوسط » ، وهو يعنى الطريق الذى يقع بين حياة الحس والمتعة المسرفة ، وبين حياة الزهد والتقشف المتطرفة . ولقد رفض بوذا نفسه هاتين الحياتين المتطرفتين فى مسار حياته وهو يدنو من البوذية . والظاهر أن خلق الظروف المثالية لتحقيق حياة بوذية بأكبر عددٍ ممكن من المواطنين ، كان فى نظر بوذا هو المهمة الحقيقية للملك الورع . فالنظام الاجتماعى العادل تفترضه سلفاً تعاليم بوذا بدلاً من أن تأمر به ، على الرغم من أننا لا نفتقر إلى الإشارات الكثيرة فى

---

(١) كانت جماعة الرهبان البوذيين وفقاً للتقليد البوذى ، تستخدم الكهوف منذ أقدم الأزمنة لاسيما كملاجئ فى موسم الأمطار ، ومع أن هذه الملاجئ استبدل بها تدريجياً أديرة مبنية ، فقد استمر التقليد القديم فى بعض أجزاء الهند ، حيث كشفت الحفريات عن عددٍ من الكهوف التى لم تكن تستعمل للسكن بل للعبادة (المترجم) .

(٢) تقول الرواية أن بوذا ومعه أتباعه ذهبوا إلى مقر الملك ، وألقى عليهم بوذا مواعظ « ذاب لها قلبه » فقبل الدين الجديد ، وأصبح من أشد تلاميذه إخلاصاً ! (المترجم) .

تعاليم بوذا التى تقول بوضوح إن هذا النمط من الحياة الاجتماعية هو الذى تهدف إليه . ولهذا السبب فإن المؤرخـــين الهنود المحدثين من أمثال « د. د. كوزامبى D. D. Kosambi » و « روميلاتابر Romila Thaper » يعتبرون البوذية فى بدايتها « فلسفة اجتماعية » يجد أى حاكم صالح أنه من الضرورى أن يتوافق معها .

٧- وفاة بوذا :

سجلت الأسابيع القليلة الأخيرة فى حياة بوذا ، على خلاف السنوات السابقة بشىء من التفصيل فى مقال « حول الدخول فى النرفانا النهائية » ماهابارينيبانا سوتا Mahaparinibbana Sutta وها هنا نجد الشيطان « مارا » يواجه « بوذا » ، مرة أخرى على نحو ما فعل مرات عديدة خلال السنوات التى انقضت منذ أن أصبح « بوذا » ، وإن كان دائماً قد تراجع مهزوماً مدحوراً . وفى هذه المرة أيضاً يلح على بوذا أن ينسحب من الحياة الأرضية ويدخل النرفانا الأخيرة ، ولقد تلقى الشيطان هذه المرة ما يبدو أنها إجابة مقبولة ، فقد أكد له بوذا أن هذه النهاية ستكون بعد ثلاثة أشهر من ذلك اليوم .

غير أن الرواية تبين بوضـوح أن الشيطان مارا لم يجد فى هذه الإجابة أى لون من الراحة، فنظام الأخوة فى البوذية ، ونظام الأخوات فيها ، وكذلك أنظمة العامة من التلاميذ من الجنسين ، قد استقرت الآن تماماً . وبعد سبعة أيام من وفاة بوذا فى مدينة كوشنجارا Kushingara (وفى السنسكريتية كوزنجارا Kusinagara) ، وهى مدينة صغيرة (اسمها الآن كازيا Kasia) إلى الشمال الغربى من بتنا Putna وبالتحديد جنوب حدود نيبال ، تم إحراق جثته . وأقيم احتفال مهيب بهذه المناسبة على غرار ما كان يحدث فى حالة وفاة الملك فى تلك الأيام ، وقسم رفاته (ما تبقى من حرق الجثة) بالتساوى على ثمانى مجموعات ، ونقلت كل جماعة نصيبها ، حيث أقامت فوقه ضريحاً مقدساً على غرار أحد أشكال تخليد وتكريم الموتى المعروفة فى الهند باسم « ستوبا Stupa » ، وأصبح هذا الضريح عند عامة البوذيين مركزاً لعبادتهم ، ثم تطور إلى الصورة التى عرف بها فى سرى لانكا وجنوب شرق آسيا إلى ما يسمى الباغودا Pagoda على نحو ما سنذكر فيما بعد .

٨- مذهب بوذا :

سيكون من الحمق أن تفترض أن أية عقيدة دينية أصيلة يمكن تركيزها فى بضع

صفحات مضغوطة ، ثم تقديمها كعينات للباحث المهتم ليأخذ منها ما يريد . ولا يصدق هذا على شيء كما يصدق في حالة العقيدة البوذية ـ لأنها ببساطة ليست نسقاً أيديولوجياً قصد به التقييم العقلي . ويصر البوذيون ـ وهم على حق ـ على : « إنك إذا أردت أن تفهم العقيدة البوذية فلا بد لك أن تمارسها ! » فتعاليم العقيدة أريد لها ـ منذ البداية ـ أن ينفذها أولئك الذين ارتبطوا بالحياة البوذية ، وأن ترتبط بمواقف الحياة عند التلميذ ، خطوة خطوة ، وهذا هو أسلوب ممارستها في آسيا حتى يومنا الراهن ومع ذلك فإن ما يمكن نقله مطبوعاً ومضغوطاً هو الوصف العام لوجهة النظر البوذية من الموقف الإنساني، والحاجات الروحية للإنسان ، وهي التي يعترفون أن بوذا بلغهم عناصرها الجوهرية .

٩- الحقائق الأربعة المقدسة :

يمكن لأي عرض لهذه العقيدة أن يبدأ بأي نقطة من بين عدد من النقاط . ومن المناسب هنا أن نبدأ بأفضل العروض التمهيديـة المعروفة – وهي تبدأ بما عرف عند البوذيين « بالحقائق الأربعة المقدسة » .

أولى هذه الحقائق :

التأكيد على أن الوجود الفاني كله يتسم « بالدوخا Dukkha » وهي كلمة تشمل جميع المعاني التي تحملها كلمات « المـرض » ، و « الشـر » و « الضيق أو السخـط » و « النقص » و « الداء أو العلة » فهناك أوقات في حياة الإنسان قد تمتد فترات طويلة – لا يدرك فيها المرء عن وعي هذه الخصائص كلها ، ولكنها تؤكد نفسها في النهاية . ويمر المرء بتجارب مُـرّة ؛ فيشعر أن الأشياء ليست على نحو ما ينبغي أن تكون عليه ، ولا كما يتمنى لها المرء أن تكون ، وكلما كانت حساسية الإنسان مرهفة ازداد وعيه بهذه الحاجة الأساسية لكل وجود فان .

الحقيقة الثانية هي :

ما يسمى « بالسامودايا .. Samodaya » أو « نشأة » هذا الإحساس بالضيق ، وهو يأتي من الشهوة أو الرغبة ، ويقصد بها عطش الروح البشرى الدائم إلى استهلاك الأشياء أو التجارب أو الأفكار ، وهو في الواقع ميل الفرد للتحكم في البيئة من حوله واستغلالها في إشباع ملذاته .

الحقيقة الثالثة هى :

« النيروذا Nirodha » أو « كف » الرغبة ، أى وضع حد للرغبة الفردية ، الأمر الذى يعنى كذلك وقف تجربة « الدوخا » ، وهذا التوقف يعادل «النرفانا » وهى الحالة المثالية للوجود ، فأن تكون فى هذه الحالة المثلى معناه أن تكون فى حالة « النبوتا .. Nib-buta » ، وهى كلمة تستخدم فى الحيـاة اليوميـة فى الهنـــد ، وكانت تعنى فى عصر بوذا « البرودة » بمعنى حالةالبرودة التى تعقب الحمى ، أعنى حالة الصحة والعافية . ولقد كانت كلمة النبوتا تعنى فى الاستخدام البوذى الخاص وصفاً للإنسانية المثالية التى هدأت أو « بردت » من حرارة الانفعالات الرئيسية الطاغية ، من الكراهية ، والجشع ، والوهم ، (والأفضل من ظلام الروح أو عمى الروح) .

الحقيقة المقدسة الرابعة :

إن هناك طريقاً يمكن أن يسلكه المرء لإيقاف الرغبة ، والوصول إلى مثل هذه الحالة النقية من الوجود التى تحدثنا عنها فيما سبق . وهذا هو « الطريق Magga » الذى أراده بوذا ، والذى يمكن كذلك للآخرين أن يتعلموا كيف يسلكونه .

١٠- الطريق البوذى :

(أ) الأخلاق :

إن الوصف الأساسى والقديم للطريق هو أنه ذو ثلاث شُعبٍ هى : الأخلاق والتأمل ، والحكمة . وهى ليست ثلاث مراحل متعاقبة يمر المرء بالواحدة منها تلو الأخرى ، وإنما هى شُعبٍ أو دروب نسير عليها جميعاً فى وقت واحد ، بيد أن للأخلاق أولوية خاصة : فبدون الجهاد الجاد فى مراعاة المبادىء الأخلاقية لن تكون ثمة ممارسة فعالة ومؤثرة للتأمل.

ويُعبر عن القواعد الأخلاقية الخمس الأساسية بالنسبة للرهبان ولعامة الناس على حد سواء فى صيغة تستخدم بانتظام فى العبادات اليومية ، ويمكن ترجمتها على وجه التقريب كما يلى : « أتعهد بالإحجام عن إلحاق أى أذى بالكائنات الحية ، وأن لا آخذ شيئاً لم يعط لى (أى أن أمتنع عن السرقة) ، وبأن أمتنع عن الممارسات الجنسية اللا أخلاقية ، وعن الكذب ، وتناول الخمر والمخدرات التى تذهب العقل » . وهناك درجة أكثر تقدماً فى النظام الأخلاقى يتبعها البعض من عامة الناس ، وتعتمد على مراعاة ثلاثة مبادىء إضافية هى : أن أمتنع عن تناول الطعام بعد الظهر ، وأن أمتنع عن الرقص والغناء وألعاب التسلية ،

وأن أمتنع عن استخدام أكاليل الزهور أو مستحضرات التجميل ، وألاّ أتزين بأى نوع من أنواع الزينة .وهذه الإضافات إلى قاعدة الحياة لعامة الناس يؤخذ بها فى الغالب أيام العطلات والأيام المقدسة كتعبير عن عمق الإيمان .

ومجموعة القواعد الثمانية هذه هى التى يشير إليها البوذيون الجادون ، عندما يتحدثون عن « مراعاة المبادىء الثمانية فى الأيام المقدسة فى المعبد والدير » وهذه المبادىء الثمانية ينبغى ألا تختلط مع الطريق ذى الشعاب الثمانية ، لأنها مجرد تطوير أبعد وأوسع للبنية الثلاثية الأصل للأخلاق والتأمل والحكمة ، وسوف نعرض لها فى القسم التالى . وينبغى على أعضاء النظام فى جماعة « السنغا Sangha » مراعاة المبادىء الثمانية فى جميع الأوقات ، مع إضافة مبدأين هما الامتناع عن قبول الذهب والفضة ، والامتناع عن استعمال فراشٍ وثير . وهناك التزامات وواجبات أخلاقية واجتماعية أخرى يتعين على الرهبان العامة مراعاتها ، وسوف نشير إليها عندما نتحدث عن المسؤوليات الاجتماعية .

قد يبدو حتى الآن أن طريق البوذية سلبى إلى حدٍ كبير ، أعنى أنه يعتمد فيما يظهر على الامتناع عن أنواع مختلفة من الأنشطة التى تعتبر ضارة بالتقدم الروحى وقد يبدو كذلك أننا لم نقل الشيء الكثير حتى الآن عن المذهب البوذى .. والواقع أن النقطة الأولى الهامة فى هذا المذهب هى أن الحياة الأخلاقية الطيبة هى الأساس الذى يجب أن يبدأ منه فهم الطبيعة الحقة للأشياء ، وتقول تعاليم بوذا إن هذا هو نوع الحياة الأخلاقية الذى ينبغى اتباعه .

(ب) التأمل :

والجانب الرئيسى الثانى من الطريق الذى وضع بوذا معالمه هو التأمل . فالسلوك الحق ينبغى أن يصحبه الفكر الحق أو المواقف الحقة . والفكر والعمل معاً مرتبطان بالوجود الحق ، لأن تنمية الفكر الحق ، أو المواقف الحقة (أو النصائح السديدة) أى السليمة من الناحية الأخلاقية هى من أول أهداف التأمل . والتأثير المتبادل بين الفكر والعمل موجود فى الوصف المفصل للحياة البوذية بوصفها طريقاً ذا ثمان شعب ، والبنود الثمانية وعلاقتها بالتخطيط الثلاثى للأخلاق والتأمل والحكمة يمكن أن تعرض على النحو التالى :

١- الفهم الحق	الإيمان	الحكمة
٢- الفكر الحق	كبداية	كنهاية أو غاية
٣- الكلام الحق		

٤- الفعل البدني السليم　　　　　　الأخـلاق
٥- المعيشة الحقة
٦- الجهد الأخلاقي الحق
٧- الانتباه العقلي السليم　　　　　　تأمـــــل
٨- التركيز الحق

وسوف نرى أن مسلسل : الأخلاق - التأمل ، الحكمة ، يسبقه الإيمان بصورة مبدئية وفي بداية الحياة البوذية نجد أن الفهم الحق (أى فهم طبيعة العالم والموقف الإنسانى) والفكر الحق (أى الموقف الذهني الداخلي الحق) يعتمدان على قبول التفسير الذى قدمه بوذا للأشياء . ولكن ، في النهاية ، وبعد أن نحيا حياة بوذا الأخلاقية والتأملية ،يصبح ماسبق قبوله عن طريق الإيمان موضوعاً للمعرفة المباشرة أو الحكمة . ويصبح الفهم الشخصي للحقيقة ممكناً ، حيث كان ينبغي قبوله في البداية اعتماداً على ارتباطه بهذا التحقق النهائي من خلال مسار الحياة البوذية .

يكفي أن نقول هنا ، بالنسبة للتأمل ، إنه في حين أن تعاليم بوذا كانت تشتمل على إشارات كثيرة لممارسات التأمل العملية ، فإن موضوع التأمل نفسه من حيث مراحله المختلفة ، وفوائده المتعددة كان أحد الموضوعات التى ينظر إليها فى تراث البوذية على أنها تعلم على أفضل وجه عن طريق الإرشاد الشخصى من قبل أستاذ أو معلم للتأمل . ولابد أن يوضع في الاعتبار الموقف الشخصي للتلميذ ، ومزاجه ، ونوع شخصيته ، ومنهج التأمل المناسب له . وبمقدار ما يمكن بحث هذا الجانب من البوذية بمساعدة الكتب ، فيمكن أن نوصي القارىء بالاطلاع على كتاب إ. كونز E. Conze عن التأمل البوذى .

(ج) الحكمة :

إن السمات الرئيسية للحكمة التى يصل إليها ، فى النهاية ، من يحيا الحياة البوذية ، متخذاً من وصايا بوذا مرشداً ، تعرضها تعاليم بوذا ، ولكن ينبغي التأكيد على أن وجهة نظر بوذا هي أن الحقيقة حول طبيعة الأشياء التي أدركها بوذا وأعلنها لن تفرض على المتعلق بالدنيا أن يقبلها مباشرة ، فالفهم الشخصي لهذه الحقيقة هو الحكمة : وهو الهدف من الطريق البوذى ، ولكن بلوغ هذه الحكمة يقتضى الارتحال عبر هذا الطريق .

والسمات الرئيسية للحكمة التى أعلنها بوذا كالآتى : لقد لاحظنا فيما سبق أن الحياة كلها « دوخا Dukkha » ولا بد أن نضيف إليها خاصية عامة أخرى للحياة الفانية ، وهى أن « الكل زائل » أو « أنيكا Anica » (وفى اللغة السنسكريتية أنيتا Anitya) أى عدم الدوام ، لا شىء يمكن أن يبقى نفس الشى ، أو أن يظل على حاله ، فالكون كله الذى يمثل أمام الإدراك الحسى هو فى حالة تدفق مستمر ، والناس لا ينظرون إلى الأشياء على أنها دائمة إلا على سبيل الخطأ ، وهم يخطئون حين يتصورون أنها أساساً على ما هى عليه عبر جميع الأحداث العارضة التى تمر بها ، ويقودنا إدراك هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى ، وهى « العلامة » أو الخاصية الثالثة للوجود الأرضى ، وأعنى بها « أناتا Anatta » (فى اللغة السنسكريتية Anatman) وهى الحقيقة ذات الأهمية القصوى التى تقول إنه لا توجد روح دائمة ، ثابتة وحقيقية (Atman) داخل الفرد الإنسانى .

ويرى بوذا أن الناس فى حمقهم يعتقدون فى وجود مثل هذا الكائن الحقيقى الذى لا يتغير داخل كل فرد . إنهم يفكرون ويتصرفون على هذا الأساس فيحارب بعضهم بعضاً للدفاع عن تلك الأرواح الفردية الخالدة المزعومة أو لإنقاذها . ولقد أعلن بوذا ، معارضاً بعض فلاسفة الهند المعاصرين له ، الذين يعلمون الناس أن الحقيقة الكونية النهائية (وهى برهمان Barahman) متحدة مع الروح (Atman) ـ أعلن بوذا أن الأرواح البشرية تتألف من التحام زمنى مؤقت لخمس مجموعات من العوامل (أو الخندات Khand-has)[(١)] ، أولها عوامل بدنية والمجموعات الأربع الأخرى غير بدنية .

١١- التدفق المستمر :

لايستغرق اتحاد هذه المجموعات الخمسة إلا لحظات مؤقتة ؛ فهى فى تدفق مستمر . وفى النهاية ـ عند موت الفرد ـ يتوقف ارتباط هذه العوامل ، ولا يبقى منها شىء . وهذه المجموعات الخمسة من العوامل هى :

١- الصورة البدنية .

٢- الإحساس .

---

(١) الخندات : هى المجموعات ، وهى خمس مجموعات رئيسية تنقسم إلى مجموعات فردية يتألف منها الفرد عند البوذيين (المترجم) .

٣- الإدراك الحسي .

٤- الإرادة .

٥- الوعي .

وينبغي أن نلاحظ أن مذهب بوذا لا يؤكد أنه لا شيء خالد ، وإنما يذهب فحسب إلى أن (هذا الشيء) لا يمكن أن يوجد في الفرد البشرى المنعزل .

لقد أنكر بوذا حقيقة الروح الفردى ، وهذا الإنكار هو أهم مايميز مذهبه عن مذاهب الفلاسفة الدينيين الآخرين في الهند ، ولهذا نظرت هذه المذاهب الفلسفية إلى آرائه على أنها هرطقة ، وقالوا إننا إذا أنكرنا الروح ، فإن السعى الأخلاقي سيكون بلا قيمة ، ولن يكون هناك أساس للعدل الأخلاقي . وإذا لم تكن هناك روح باقية وثابتة ، فلن يكون هناك من يستحق المدح أو الذم ، والثواب أو العقاب ، وإذا لم يجن الإنسان ثمار أعماله الصالحة أو الطالحة ، فما الذى يجعله يهتم بطريقة حياته ؟

هذا الالتجاء إلى المصلحة الذاتية كباعث محرك للحياة الأخلاقية ، بدا عندئذ للكثيرين - ولا يزال يبدو حتى الآن - وجهة نظر صحيحة كل الصحة يقتضيها الحس السليم بالأشياء ، ولا يمكن التخلى عنها إلا لصالح الفوضى الأخلاقية والاجتماعية .وقد كانت هذه الحجة من القوة بحيث نشأت حتى بين البوذيين أنفسهم فرقة غير تقليدية عرفت باسم « الشخصانيين Personalists » ذهبت إلى أنه على الرغم من أن بوذا أنكر حقيقة الروح ، فلا بد أنه أكد حقيقة الشخص بوصفه الأساس الدائم للوجود .

لكن بوذا في رفضه ما اعتقد أنه وهم « الذاتية Selfhood » الذى ينبغى أن يبدد بواسطة الأنظمة الأخلاقية والتأملية للحياة البوذية ، قد أكد حقيقة عالم أوسع للوجود لا ينحصر داخل حدو « الأنا » أو ذاتى ، أو ملكى Mine ، كما ألح على الناس مبيناً أهمية تدمير هذه النظرة المتمركزة حول الذات Egocentric ، وهى النظرة التى تفرض بالضرورة أن تتألف الحقيقة الروحية من كثرة من موجودات متمركزة حول ذاتها ، وذلك لكى يستطيع الناس أن يعيشوا حياة أوسع وأكثر حرية ، وهى الحياة التى تجاوز الحدود الضيقة لرغبات الفرد وشهواته ، الحياة المتعالية المتحررة من الرغبة التى هى النرفانا Nirana ، والسعى نحو هذه الحالة المتعالية هو الذى يزودنا بكل دافع ضرورى للكفاح الأخلاقى ،طبقاً لوجهة النظر البوذية ، وهو الطريق الذى دعت الناس أن يسلكوه ، ولقد كان بوذا يتكلم من موقع رجلٍ

خبر ما تحدث عنه . وفى مثل هذا الموقف الممتاز لا نستطيع فى الواقع أن نقول إلا ما قاله بوذا وهو : إيهى باسيكوا Ehi Passiko ، أى : « تعال وانظر ! » .

١٢- جماعة بوذا :

كانت الدعوة فى المقام الأول ، دعوة إلى أن يفقد المرء وجوده الفردى فى الحياة المشتركة لجماعة « السنغا Sangha » أو النظام البوذى « للبهخوس Bhikkhus » وهذه الكلمة الأخيرة تترجم عادة «بالرهبان » أو « الراهبات » وهى بغير شك ترجمة أقرب إلى معناها من كلمة « كاهن » التى يستخدمها الأوربيون أحياناً استخداماً خاطئاً عندما يطبقونها على أعضاء الجماعة البوذية فى آسيا فى وقتنا الراهن . والكلمة تعنى حرفياً «المشارك Sharer » ، وكانت تشير فى البداية إلى واقعة أن « البهخو Bhikku » يعتمدون فى قوت بعضهم على المشاركة فى الطعام الذى يقدمه كل من يريد دعم الجماعة من أصحاب النوايا الطيبة، وهى تعنى كذلك الشخص الذى يشارك فى الرصيد العام من «الصدقات » التى تقدم إلى الجماعة فى أية منطقة معينة سواء أكانت أطعمة أم سلعاً .

وحياة « البهخو » كانت (ولا تزال)حياة تستلزم نبذ جميع المقتنيات ، والامتيازات الشخصية ، والاستعداد للعيش فى حياة مشتركة من الفقر والعفة ، وداخل هذه الحياة المشتركة بأنظمتها المعترف بها ، وممارساتها التأملية ، تنحل « أنا » الفرد ، ويزداد وضوح المنظور البوذى الحق .

لقد طورت البوذية فى مرحلة مبكرة وقننت قاعدة للحياة عرفت باسم الفينايا Vinaya أى « النظام » ، وقد كانت البنود المنفصلة فى هذه الشريعة البوذية فى المقام الأول أحكاماً أصدرها بوذا ، حول مشكلات نوعية تتعلق بالسلوك ، ظهرت فى مواقف معينة ، ثم قبلت هذه الأحكام فيما بعد ، وأصبحت معياراً اتخذ شكل القانون فى مجموعة هائلة تشغل الآن القسم الأول من الأقسام الثلاثة هى :

١- النظام .

٢- الأحاديث .

٣- لب المذهب (١) .

---

(١) وهى على الترتيب : فنيايا ـ بيتاكا Vnaya-Pitaka ، سوتا ـ بيتاكا Sutta-Pitaka، وأبهيد هاما Abhidhama-Pitaka ـ بيتاكا (المترجم) .

وكانت إحدى الوظائف الهامة لجماعة « السنغا » هى حفظ هذه المجموعات ، ونقلها فى البداية مشافهة ثم فى شكلٍ مكتوب ، ولا تزال هذه هى وظيفة السنغا حتى يومنا الراهن، وهى وظيفة ينظر إليها بجدية تامة ، لا سيما فى مدرسة ترافادا Theravada البوذية التى تنتشر فى « سرى لانكا » وجنوب شرقى آسيا .

١٣- انتهاكات ينبغى تجنبها :

أهم قسم بالنسبة للبهخوس من كل المجموعة المعروفة باسم « النظام » هو قسم يضم قائمة من ٢٥٠ بنداً تتعلق بالسلوك وتعرف باسم « الباتيموخا Patimokkiha » ، وهى تتألف فى الواقع من قائمة من الانتهاكات التى ينبغى تجنبها ابتداء من أكثرها خطورة ، وهى التى تكون عقوبتها الطرد من النظام، يعقبها انتهاكات عقوبتها وقف العضو لفترة زمنية محددة ، ثم انتهاكات تقل خطورتها بالتدريج حتى يصل الأمر إلى مسائل تتعلق بآداب السلوك واللياقة . وهذه القائمة تتلى فى الاجتماع الكامل الذى تعقده الجماعة كل ١٤ يوماً ، ويطلب فيه الاعتراف بأى انتهاكٍ لها وهذه التلاوة ضرب من الممارسة القديمة للنظام البوذى ، ولا تزال تراعى بإيمان وخشوع فى أديرة الرهبان والراهبات على حد سواء ، وهى تذكرة مستمرة للرهبان والراهبات بمعيار السلوك الملائم لأعضاء جماعة « السنغا » .

هناك فارق هام بين « السنغا » البوذية والأنظمة الدينية فى الغرب ، وهو أن العضوية فى حالة البوذية يمكن أن تستمر أو لا تستمر طوال حياة الرجل أو المرأة ، فإذا ما شعر العضو «أو البهيخو » فى أى وقت أنه لم يعد قادراً على الاستمرار فى النظام ، وأن عليه أن يعود إلى الحياة العادية ، فهو حر فى أن يفعل ذلك ، بعد أن يبدى رغبته إلى رئيس الدير . وليس من غير المألوف فى بعض بلدان جنوب شرق آسيا أن يصبح الشخص عضواً فى جماعة « السنغا » لمدة محدودة فحسب . وينظر إلى ذلك على أنه أمر جدير بالتقدير ، كما أنه نافع ومفيد . فإذا استطاع العضو البقاء فى « السنغا » طوال حياته كان ذلك أفضل . وكثير من البوذيين يفعلون ذلك بطبيعة الحال ، فيصبحون محترمين لهم تقدير خاص فى المركب الاجتماعى الدينى فى المجتمع البوذى فى آسيا .

هناك خطأ يقع فيه الغربيون بسهولة عندما يتصورون أن « السنغا » البوذية هى انسحاب من العالم . ويرجع ذلك، من ناحية ، إلى استخدام الكلمة المضللة إلى حد ما وهى كلمة « الراهب » ، والواقع أن الرهبان البوذيين ليسوا ـ فى العادة ـ رجالاً قطعوا صلتهم بالمجتمع

كله، وليس الدير البوذى مكاناً منفصلاً عن المجتمع الأوسع ، فهناك علاقات متبادلة بين الرهبان وعامة الناس ، والناس يزودون الرهبان بالطعام والثياب ، ويساندون الدير بطرق شتى ، بينما يقدم الرهبان خدمات مختلفة إلى الناس المحليين .

ويعد التعليم من أوضح الخدمات التقليدية : فالدير مدرسة يذهب إليها البنين والبنات من أبناء القرية لتعلم القراءة والكتابة . والنتيجة هى أن بوذية الريف فى آسيا تحصل ، عموماً، على نسبة أعلى من المتوسط فى معرفة القراءة والكتابة . وهناك خدمات أخرى يقدمها الرهبان وتختص بالاحتفالات ، ولاسيما فى الأعياد أو فى المناسبات المختلفة مثل الجنازات . وهم يقدمون إرشادات منتظمة للجمهور حول طريقة الحياة البوذية ، ويعلمون مرشدين روحيين وناصحين أخلاقيين . وفضلاً عن ذلك فهم يؤدون دوراً قيادياً فى شؤون المجتمع المحلى ومشروعاته ولاسيما فى تايلند على سبيل المثال ، حيث تسعى الجهات الحكومية (فى الزراعة والطب .. إلخ) إلى تعاونهم فى تنفيذ الخطط الحكومية .

١٤- الواجبات الاجتماعية لعامة الشعب :

هناك التزامات اجتماعية وأخلاقية معينة ومعترف بها - بالإضافة إلى المبادىء الأخلاقية الموجهة لعامة الشعب التى سبق أن ذكرناها ـ وصفها بوذا فى أحد أحاديثه المعروفة باسم السيجالوفادا سوتا Sigoaloada Sutta ، وهو حديث يشرح واجبات الأبناء نحو آبائهم ، والآباء نحو أبنائهم ، والتلاميذ نحو معلميهم ، والمعلمين نحو تلاميذهم ، والأزواج نحو زوجاتهم ، والزوجات نحو أزواجهن ، والخدم نحو مستخدميهم ، والمستخدمين نحو خدمهم ، وأخيراً واجبات عامة الناس نحو معلميهم الدينيين (أعنى الرهبان) وواجبات الرهبان نحو عامة الشعب . وهذه المجموعات من الواجبات التى يبدو أنها ترجع إلى فترة قديمة جداً فى تاريخ البوذية لها فى حالات كثيرة تطبيقات حديثة ملائمة بصورة ملفتة للنظر . وهذه السوتا Sutta بوجه خاص معروفة جيداً فى سرى لانكا وجنوب شرقى آسيا ، وهى على العموم تراعى بإخلاص شديد أكثر من أمثالها من الشرائع الأخلاقية القديمة .

١٥- انتشار البوذية فى الهند :

إذا عدنا الآن إلى قصة تطور الجماعة البوذية بعد وفاة بوذا (٤٨٤ ق. م) فيكفينا أن نلاحظ خلال القرنين الأولين النمو المستمر لعدد أعضاء « السنغا » ، ولتأثيرها أيضاً كما

نلاحظ تدهوراً إلى حدٍ ما فى الحمية الدينية وهذا اللون من رد الفعل ليس مجهولاً فى أنواع التراث الدينى الأخرى حيث يخبو حماس السنوات الأولى . فقد انشغل بعض الرهبان، على نحوٍ متزايد بالتفصيلات الحرفية للشريعة المنظمة ، وانصرفوا عن روح المذهب إلى النواحى القانونية ، فبدأوا فى انتقاد غيرهم من الرهبان الذين اتهموهم بالتراخى والإهمال فى مراعاة النظام . ولقد أدى ذلك إلى حدوث انقسامٍ كبيرٍ فى المذهب بعد قرن واحد من وفاة بوذا ، إذ انفصل أولئك الذين تمسكوا بحرفية النظام وشكلوا جماعة خاصة استقلت عن أصحاب النظرة الأكثر تحرراً . أما التطور الرئيسى الثانى الذى حدث فى القرنين الأولين فهو تطور المنهج التحليلى للفلسفة البوذية الذى كان قد بدأه بوذا .

١٦- جوهر العقيدة أو أبهى داهما Abhidhamma :

كانت تعاليم بوذا توجه إلى جمهور المستمعين ، ولهذا جاءت إلى حد كبير على هيئة محاورات ، وأمثولات ، وحكايات طريفة (طرائف) وتشبيهات ، وما إلى ذلك . لكن بعض الأحاديث المنسوبة إليه ، لا سيما تلك الأحاديث التى كان يعلم فيها « البهيخوس Bhikk-hus » تحتوى على تلخيصات للمسائل الجوهرية فى قوائم أو رءوس مجموعات تستهدف المساعدة على التذكر . ونجد هذا بوجه خاص فى تحليل مجموعات العوامل الخمس «الخندات Khandha » التى تشكل ما يسمى « بالشخص » ، ولقد خضعت هذه المجموعات من العوامل لتحليلات أخرى ، ونتجت عن ذلك قائمة من الظواهر الذهنية والنفسية وعلاقاتها المتبادلة ، وتفاعلاتها شكلت ما عرف باسم « أبهيداهما » أو « جوهر العقيدة » .

وأصبحت دراسة هذه التجريدات أحد الموضوعات التى نالت اهتماماً كبيراً من رهبان البوذية فى الفترة التى تلت وفاة بوذا : نشأت الاختلافات حول تفسير بعض النقاط ، وبعد حوالى قرنين تطور الخلاف إلى انقسام كبير بين مدارس فكرية . غير أن تعقيدات « جوهر العقيدة » (الأبهيداهما) تجاوز نطاق بحثنا الحالى . ويمكن للقارىء أن يجد فكرة عن طبيعة هذه الموضوعات فى كتاب « كونز Conze » اللفكر البوذى فى الهند ، الجزء الثانى ، وكتاب « ت. ر. ف مورتى T. R. V. Murti » الفلسفة المركزية للبوذية ، الفصل الثالث . ومن المناسب هنا أن نشير فحسب إلى أن المجادلات دارت إلى حدٍ كبيرٍ حول مشكلة ما إذا كان من الممكن النظر إلى الأحداث الماضية والمقبلة على أنها حقيقية ، قبل

حدوثها أو بعده . ويؤكد « الستافيراس » الكبار (أو التقليديون) أن الأحداث التى تقع فى الحاضر هى وحدها الأحداث الحقيقية . أما خصومهم من السارفاستقادين -Sarvastiva dins فيؤكدون أن أحداث الماضى والحاضر والمستقبل هى كلها بالتساوى أحداث حقيقية، ومن هنا استمدوا اسمهم من سارفا بمعنى كل ، و آستى « Asti » بمعنى « يوجد »، وقاديز Vadins أى المؤكدين أو المثبتين .

١٧- التطورات البوذية فى عهد أشوكا :

لم يكن تحول واحد من أقوى حكام الهند ، وهو الإمبراطور أشوكا (٢٧٣ - ٢٣٢ ق. م) إلى الديانة البوذية عملاً ذا تأثير ضئيل على التطورات التالية للجماعة البوذية ، لا سيما أنه أصبح بوذياً فى فترة مبكرة من حكمه ، وقد حدث ذلك بعد اشتباكه فى معركة عسكرية مع كالينجا Kalinga مما أدى إلى اتساع إمبراطوريته حتى الساحل الشرقى بعد انتصاره عليه . غير أن سفك الدماء أثناء القتال ، جعل أشوكا يشعر بالاشمئزاز حتى لقد مر بأزمة روحية ونذر أن لا يسمع بعد ذلك صوت الطبول فى مملكته ، وأن يسمع فحسب صوت الدهما Dhamma (جوهر العقيدة أو الحقيقة) .

ولقد أقام أشوكا فى جميع أنحاء الإمبراطورية العديد من المبانى الصخرية ذات الأعمدة التى تم اكتشافها فى العصور الحديثة ، وكانت مصدراً غزيراً للمعلومات التى تكشف عن خطط أشوكا وأعماله التالية . وعلى الرغم من أنه هو شخصياً كان يدعم « السنغا » البوذية، فقد مد بوصفه الإمبراطور رعايته وحمايته إلى جماعات دينية أخرى متنوعة . وتدل المبانى التى أقامها على رغبته فى رؤية التقوى والعدالة والرخاء الاجتماعى فى المجتمع الذى كان يحكمه ، وأدت صلة أشوكا الشخصية بالجماعة البوذية إلى نموها وزيادتها من حيث العدد والاتساع ، فضلاً عن نتيجة أخرى هى الزيادة الملحوظة فى شعبية « السنغا » حتى أصبحت تضم ضمن طبقاتها رجالاً دخلوها لأسباب ودوافع لم تكن دائماً هى الأسباب والدوافع السامية .

وحوالى عام ٢٥٠ ق. م أى فى منتصف حكم أشوكا ، انعقد مجلس الرهبان البوذيين فى بتنا Patna وكان من أهدافه الأولى مناقشة الموضوعات الفلسفية التى انقسم حولها البوذيون ، كما سبق أن ذكرنا ـ إلى ستافيراس Sthaviras وسارفستفادا -Sarvastva dins »وفى النهاية انحسم الموقف لصالح المدرسة الأولى . ويبدو أن « سارفستفادا » قد

انتقلت منذ ذلك الوقت تقريباً من العاصمة إلى الشمال الغربى فى أعالى وادى الكنج ، وأخيراً اتخذت مركزاً لها مدينة « ماثورة » (وهى مترا الحديثة جنوبى دلهى) على نهر جيمنا Jumna ، وامتدت إمبراطورية « أشوكا » حتى الحدود الشمالية الغربية للبنجاب ، ولما كان الرهبان البوذيون أحراراً فى التنقل فى شتى أنحاء المنطقة فمن المرجح أن تكون الجماعة قد وصلت قرب نهاية عهد أشوكا إلى حدود مملكته حيث التقوا بإحدى الممالك الهلنستية فى جاندهارا Gandhara .

ولم يكن هذا الاحتكاك بالثقافة الهلنستية بغير أثر على البوذية ، وإنما كانت إحدى نتائجه أن تطورت فنون العبادة وأشكالها ، كما حدث لتمثال بوذا الذى يشير إليه الغربيون عادة باسم « صورة بوذا » فى حين يسميه البوذيون بوذا – روبا Bddha Rupa أى هيئة بوذا[1] فحتى هذه الفترة لم تكن هناك تماثيل أو نحت لبوذا ، ولكن يبدو أن استخدام صور بوذا قد بدأ منذ فترة الاحتكاك بثقافة البحر الأبيض فى شمال الهند . وبعض الأمثلة المبكرة التى تبدو فيها شخصية بوذا واقفاً تشبه شبهاً قوياً شخصية « أبوللو » اليونانى . غير أن هناك وجهة نظر أخرى تذهب إلى أن تطور هذا الشكل فى الفن البوذى لا يرجع إلى صلات ثقافية أجنبية بقدر ما يرجع إلى تطور محلى تمركز حول مدينة « ماثورا » .

ولقد كانت الطريقة التى يعبر بها عن محبة بوذا حتى ذلك العصر ، طريقة رمزية تستخدم أشكالاً حجرية صلبة أو ربوة عالية (ستوبا Stupa) تمثل نصباً تذكارياً يضم رفاتاً من نوع ما . وتم بناء الكثير من هذه الأشكال فى شمال الهند فى عهد الإمبراطور « أشوكا» تعبيراً عن تقوى البوذى . ولا تزال بعض نماذج هذه الأشكال المعمارية القديمة قائمة فى الهند .

١٨- النشاط التبشيرى :

كانت إحدى طرق انتشار البوذية فى عهد أشوكا هى التخطيط المنظم لحركة التبشير ، فقد أرسل عدد من البعثات من مدينة بتنا Patna فى تلك الفترة ، وانتشرت فى جميع المناطق التى تقع على حدود إمبراطورية أشوكا . ومن الصعب الآن أن نحدد بيقين الأماكن التى ذهبت إليها هذه البعثات المذكورة فى الوثائق . ولكن هناك منطقة لا يمكن الشك

---

(١) كلمة تعنى : الشكل والمادة معاً ، وهى هنا تعنى التمثال الذى يجسد هيئة بوذا (المترجم) .

فيها، فقد أرسلت بعثـة من الرهبان إلى « سِرى لانكا » وسوف نعود إلى الحديث عنها فيما بعد .

استقرت جماعات البوذية فى جميع أنحاء الإمبراطورية التى أقامها أشوكا وازداد عددها، ومن المرجح أن تكون قد ازدادات من حيث الاتساع ، ومن حيث التوقير والإجلال الذى لقيته أيضاً . وبينما كانت « السنغا » مفتوحة باستمرار أمام الرجال والنساء على حدٍ سواء ومن جميع طبقات المجتمع ، كانت هناك إضافات ملحوظة إلى « السنغا » من طبقات البراهمة ، فيبدو أنها لم تبلغ من الكثرة العددية مثل ما بلغته فى عصر « أشوكا » وما بعده . ولقد ساهم ذلك فى ظهور اتجاه جديد فى الفكر والممارسة البوذيين سمى فى النهاية بالمهايانا Mahayana أما كيف ظهرت ، وكيف تطورت فهذا ما ينبغى علينا أن ندرسه الآن .

١٩- نمو بوذية المهايانا فى الهند :

كلمة « المهايانا » تعنى « المنهج الكبير » أعنى المنهج أو الطريق التى تحقق هدف البوذية ، ولقد تبنى الاسم أتباع هذه المدرسة وهم على وعى بالفرق بينها وبين ما سمى باسم « المنهج الصغير » أو الميناياناMinayana ، والفرق بين هاتين المدرستين هو أن المهايانا كانت أكثر وعياً بالشمولية ،بمعنى أنها تقدم نفسها لقطاع أوسع من المجتمع . أما الصورة الأقدم والأكثر تقليدية للحياة البوذية ، فقد تضمنت تفرقة أكثر حدة بين الرهبان وعامة الناس عندما أكدت أهمية حياة الأديرة ودعت إلى المراعاة الدقيقة لشريعة « الفيايا Vi-naya » ، كما ذهبت إلى أننا لا نستطيع أن نبلغ هدف البوذية ، وهو النرفانا Nirvana ، إلا إذا عشنا حياة الأديرة . أما أتباع « المهايانا » فقد رأوا أن هذه نظرة ضيقة لا ضرورة لها، ورغم أنهم لم ينكروا صحتها أو مشروعيتها ، فقد اعتقدوا ببساطة أنها صارمة بغير داع . وكان هناك جانب نقدى آخر وجهته مدرسة « المهايانا » إلى مدرسة « المينا » ، وهو أن تأكيد المدرسة الأخيرة يشجع على الغرور الروحى ، وهو غرور يقوم فى رأيهم على أساسٍ سيىء .

كان التوجه الشعبى للمهايانا ، إلى حد ما ، استمراراً لأحد الجناحين الكبيرين اللذين ظهرا بعد وفاة بوذا بقرن من الزمان تقريباً أعنى : الجناح الذى أخذ بتفسير أقل حرفية

وصرامة لنظام الأديرة . وهناك وشائج قربى بين هذه الحركة التحريرية المبكرة فى القرن الرابع الميلادى وبين المهايانا ، أى بعد وفاة بوذا بحوالى خمسة قرون .

٢٠- مفهوم البوذيستفا Bodhisattva [١] :

كانت إحدى الخصائص الرئيسية للبوذية إذن هى الأساس الشعبى الواسع الذى قامت عليه ، بالإضافة إلى موقفها الأكثر تحرراً من القواعد والممارسات الدينية ، ومعنى هذا أن الأشكال الشعبية للإيمان والعبادة وجدت قبولاً سريعاً . ولقد تبنت البوذية باستمرار موقفاً متسامحاً من المعتقدات الأصلية فى البلاد التى دخلتها ، ومن ممارسات الناس الذين انتشرت بينهم ، ولم تزل تفعل هذا فى المجتمعات الريفية فى آسيا ، وكان هذا الاتجاه على كل حال أكثر ظهوراً بين أتباع المهايانا ، وقد نتج عن ذلك اندماج قدر لا بأس به من العبادات المحلية واستيعاب الآلهة المحلية البوذية التقليدية الصارمة . أما كيف حدث ذلك فهو ما لايمكن تفسيره إلا بالإشارة إلى تطور آخر طرأ على « المهايانا » ، وأعنى به مفهوم « البوذيستفا » يقال إن « البوذيستفا » هو كل شخص يكون على أعتاب « النرفانا » ثم يؤجل عامداً الدخول فى حالة الغبطة النهائية « النرفانا » شفقة منه على جماهير الناس العاديين . وبدلاً من أن يتحول إلى « بوذا » كامل فإنه ـ أو هى ـ يظل مقيماً فى العالم الزمانى المؤقت مكرساً نفسه لخلاص الآخرين . هذا التأكيد على أهمية « الشفقة » التى يمثلها مفهوم « البوذيستفا » لم يكن أمراً جديداً كل الجدة . فقد اعتبرت الرحمة بالآخرين فضيلة عند البوذية المبكرة ، لكنها كانت تحتل فيها مكاناً تابعاً للحكمة ، ثم احتلت مع تطور المهايانا ، موضعاً مماثلاً للحكمة بوصفها فضيلة أساسية للمثل الأعلى الروحى الذى تمثله « البوذيستفا » لكن حتى هذا التطور لم يكن سوى استعادة لماكان عليه المثل الأعلى الروحى المبكر أو ما يسمى بالأراهات Arahat (أهل الفضل والاستحقاق) أى الأشخاص الذين جاوزوا حدود فكرة « الذات Self » ، وأصبحوا لهذا السبب مصدراً للتأثير الروحى الأخلاقى الخير . غير أن المثل الأعلى « للأراهات » قد فسد خلال القرون التى سبقت نشأة المهايانا مباشرة ؛ ولهذا احتاجت إلى اكتساب هذه الصورة الجديدة .

---

(١) المعنى الحرفى للكلمة هو « القريبون من اليقظة » أو الذين هم على أعتاب الصحوة ، على اعتبار أن كلمة « بوذا » تعنى « المستيقظ على الحقيقة فى بعض معانيها . وبالتالى « فالبوذيستفا » هم الذين على وشك بلوغ هذه المرحلة ، ويسميهم البعض « البوذات الصغرى » على اعتبار أنهم أقل درجة من بوذا الأكبر (المترجم) .

هكذا نُظر أيضاً إلى البوذيستفا بوصفه شخصياً تحرر من الخضوع للحدود البدنية للحياة البشرية ، وأصبح يسكن عالماً « سماوياً » ومجالاً روحياً أوجده بفضل قداسته وقد اعتقد الناس أنه يستطيع أن يدخل الاخرين فى هذا العالم المبارك عن طريق قواه الروحية . ولم يكن هناك ، من الناحية النظرية ، حد ضرورى للأعداد الممكنة من البوذيستفين » ، ولذلك نشأ الإيمان بعدد من هؤلاء الأشخاص الذين يعرف كل واحد منهم باسمه إن كان ذكراً أو باسمها إن كانت أنثى ، وقد عرفت أسماء بعض هذه الشخصيات المرموقة مثل « أفالوكيتشوارا Avalokiteshwara » أى ذلك الذى يتواضع ويرحم ، و« أميتبها Amitabha » أى النور الذى لا حد له ، و «مانجوشرى Manjushri » أى « السيد الجميل » وكل واحد من هؤلاء الأشخاص أصبح عند عامة الشعب فى الهند فى تلك الأيام الشخصية الرئيسية فى عبادة كانت ـ من الناحية الظاهراتية (الفينومينولجية) ـ قريبة الشبه جداً بعبادة إله واحد ، ومن هذه الزاوية تمثل بوذية المهايانا انتقالاً من عبادة آلهة الهند المحلية إلى العقيدة البوذية وتطبيقاتها العملية .

٢١- تطور فلسفة المهايانا :

فى الوقت الذى كانت فيه المهايانا تتطور لتصبح إغراءً بوذياً واسعاً لعامة الشعب فى الهند ، كان رهبانها يطورون فلسفة دينية على درجة عالية من التجريد . وانعكس ازدياد أعداد الرجال من أسر البراهمة (الكهنة) الذين دخلوا جماعة « السنغا » البوذية ـ انعكس على الدرجة المتزايدة من النقد العقلى البرهمى الذى تعرض له نظام « الأبهى داهما » القديم .

كان البراهمة أساتذة المنطق الهندى القديم ؛ ولهذا نقدوا نظريات الأبهى داهما ومدارس المهايانا على أسس منطقية . أما منهج « الأبهى داهما » الذى يقوم بتحليل ما يبدو أنه كائنات موضوعية حقيقية إلى مكوناتها العارضة فقد تبلور فى النمط النهائى «للداهما» التى كان يظن أنها هى « الذرات » النهائية والواقعية التى تتألف منها جميع الأحداث الذهنية والنفسية والبدنية ، كما كان يعتقد أن عددها معين محدود (وإن كان العدد الدقيق يختلف من مدرسة إلى أخرى) .

انتقد فلاسفة « المهايانا » هذه النظرية فى الوجود بحجة أنها تتعارض مع المنهج التحليلى ، وذهبوا إلى أن الهدف من هذا المنهج هو أن يبين أنه لا توجد كيانات حقيقية مطلقة طالما كان الأمر يتعلق بالعلم التجريبى ؛ فمن غير المنطقى النظر إلى الروح البشرى

على أنه واقعي . ذلك أن كل شيء في تدفق مستمر ، وقد كان منهج بوذا يستهدف بيان ذلك، ولم يقل بوجود أي « محطة » نهائية ساكنة داخل العالم التجريبي ، حتى ولا فيما يسمى « بالدهما » ؛ ولهذا اتبعوا المنهج التحليلي بصراحة تامة مؤكدين أن « الداهما » التي قال بها رهبان الهنايانا Hinayana لم تكن سوى محطات تعسفية خالصة .

لا يمكن من الناحية المنطقية أن يكون هناك حد لعملية التحليل والمزيد من التحليل؛ فلا يوجد شيء يمكن أن ننسب إليه صفات دائمة ، ولا نستطيع أن نصل إلى الواقع الحقيقي Reality إلا بعد أن نستبعد كل صفة إيجابية ؛ لأن أي صفة أو خاصية تحمل معها قدراً من النسبية ، ومن ثم لا يمكن النظر إليها على أنها مطلقة . والحق أن ما كانوا يسعون إليه هو شيء مطلق ، وقد وصفوا هدف التحليل البوذي بأنه هو ما نصل إليه عندما تفرغ كل صفة إيجابية وتصبح « خواء » . والمصطلح الذي يستخدمونه للإشارة إلى المطلق هو Shunyata الذي يترجم أحياناً بكلمة « الخواء Void » .

ولقد أطلق على فكر مدرسة المهايانا كلمة مدهياميكا Madhyamika التي يمكن ترجمتها على وجه التقريب « بمذهب الحياد » ، كما تعرف أحياناً أخرى باسم شونيا – ڤادا Shnya Vada[1] وأكبر دعاة هذه المدرسة كان راهباً بوذياً من أسرة برهمية في جنوب الهند اسمه « نكارجونا Nagarjuna » وتلميذه أرياديفا Aryadeva ، وقد كان نشاطهما في أوائل القرن الثالث الميلادي .

٢٢- رد فعل :

إذا كان هذا النوع من الموضوعات يبدو بعيداً جداً عن الممارسات العملية للدين فإن علينا أن نتذكر أن أمثال هذه الرياضة العقلية لم تكن تمارس إلا في سياق حياة العبادة التأملية داخل الأديرة . لكن حتى في هذه الحالة كانت هناك درجة معينة من رد الفعل في الدوائر البوذية ضد الإسراف في البراهين العقلية . ولقد اتضح ذلك في شكل واحد انبثقت عنه مدرسة تعرف باسم « يوجاكارا Yogacara » نشأت في الهند حوالي نهاية القرن الرابع الميلادي . وكان دعاتها من الناحية الأدبية هما اسنجا Asanga (٣١٠ – ٣٩٠) وشقيقه فاسوباندا Vasubandha (٣٢٠ – ٤٠٠) .

وتمثل اليوجاكارا Yogacara [2] تحولاً عن التشدد السائد داخل المهايانا ، وعودة إلى

---

(١) تعرف أحياناً بمذهب « أهل الحل الوسط » (المترجم) .

(٢) أي مدرسة اليوجا العملية (المترجم)

الجوانب الأخلاقية والتأملية في الدين . وفي مقابل إصرار « المادهيمكا Madhyamika » على « الخواء » بوصفه الشيء الوحيد المطلق ، تؤكد مدرسة « يوجاكارا » حقيقة الوعي الخالص « فيجنانا Vijnana » ، وأصبح هدف االحياة البوذية هو تنقية الوعي وتطهيره عن طريق التأمل والجهد الأخلاقي ، وبالتالي بلوغ الوعي الخالص الذي هو الشيء الحقيقي والمطلق .

٢٣- انتشار البوذية في الصين واليابان :

في الوقت الذي نشأت فيه مدرسة « فيجنانا - فادا » في الهند ، كانت البوذية قد وصلت بالفعل إلى الصين ، وبدأت تمكن لنفسها هناك . وحوالي منتصف القرن الثاني الميلادي ، ارتحل الرهبان البوذيون على طول الطريق التجاري المزدحم المؤدي من شمال غرب الهند خلال آسيا الوسطى إلى غرب الصين . ولقد قامت في ذلك الجزء من الهند ، مراكز بوذية واسعة ومأهولة كانت من المناطق ذات التأثير القوي في تطور « المهايانا » . عهد بوذا نفسه بمهمة التبشير للرهبان الأول ، ونشر « الداهما » بين جميع الناس . ولقد أصبحت هذه المهمة ـ من جوانب معينة ـ أسهل بالنسبة لرهبان « المهايانا » منها بالنسبة لرهبان «الهنايانا» ؛ لأنهم لم يعتبروا أنفسهم ملتزمين التزاماً دقيقاً بحرفية الشريعة في نظام الدير ، وإنما استطاعوا مثلاً عندما كانوا يخاطرون بالتجول في الأجواء الباردة ، أن يرتدوا ثياباً تبعث على الدفء أكثر من ثوب الراهب الذي كان في العادة مقرراً على رهبان الهند . وقد كان الوضع مستقراً في الصين في أواخر حكم أسرة « هان Han » (النصف الأخير من القرن الثاني) مما جعل الناس في حالة استعداد لتقبل ديانة جيدة . صحيح أن فقهاء الكونفوشية- من علية القوم - ربما نظروا إلى الأمر بازدراء ، لكن غالبية جماهير الشعب الصيني كانت على استعداد للترحيب بالتعاليم الجديدة ، لا سيما رسالتها عن « البدهشتا » « السماوية » التي يمكن أن يلجأ إليها المرء للمساعدة لالتماس الخلاص من شرور هذه الدنيا وأحزانها .

وما أن استقرت مدرسة « المهايانا » البوذية في الصين حتى انتشرت من هناك إلى كوريا ، ومنها إلى اليابان ، في أواخر القرن السادس الميلادي . وأصبحت عقيدة البودهشتفا - أميتبها Bodhistattu - Amitabha بصفة خاصة ، عقيدة شعبية عرفت في اليابان باسم « أميدا Amida » ، وصار الإيمان بقدرة البوذية على تخليص البشر بنعمتها ، وإدخالهم

عند الموت فى جنتها ، أو أرضها الطاهرة، صار هذا الإيمان أحد التيارات المسيطرة على بوذية اليابان وظل كذلك حتى العصور الحديثة .

٢٤- تدهور البوذية فى الهند :

فى ذلك الوقت كانت « اليوجاكارا » تمكن لنفسها فى الهند مما ساعد على تطور العديد من عبادات التأمل وممارسات اليوجا التى استخدمت فيها على نطاق واسع الرسوم البيانية السرية أو المندال Mandalas والأشكال المقدسة ، والمانترا Mantra ، ومعينات أخرى مختلفة للمساعدة على تهيئة حالات الغيبوبة . ولقد استمدت كثرة من هذه الممارسات من الديانة الشعبية التقليدية فى الهند ، ثم اندمجت ـ مع بعض التعديل أو بغير تعديل ـ فى سياق البوذية من الناحية الاسمية . وهكذا تطورت صورة البوذية المعروفة باسم مانترا -Man-tra أو « مانترا – يانا » ، التى تميزت بها فترة العصور الوسطى فى الهند ، والتى سبقت الاختفاء الفعلى للديانة البوذية من معظم شبه القارة . ولقد لعب الميل إلى حياة الأديرة دوراً فى تدهور الطقوس من ناحية ، والإيمان البوذى من ناحية أخرى بين عامة الشعب ، إذ صاحب زيادة عدد مراكز الأديرة الكبرى – حيث كان يتم تدريس التعليم الدنيوى والفلسفى لذاته – تناقص مماثل فى عدد الأديرة المحلية الصغيرة « أو الأبرشيات » التى ظلت حتى ذلك الحين تخدم البوذية كنقاط تجمع مركزية لأهل الريف والمدن الصغيرة.

أما الحجاج البوذيون الصينيون فأخذوا يفدون على الهند « أرض بوذا » المقدسة والحكايات التى يرويها بعضهم عن رحلاتهم تقدم شهادة لها قيمتها عن حالة البوذية فى الهند من القرن الخامس حتى القرن السابع الميلادى . وهناك مجموعة من أشهر حجاج الصين الذين جاءوا إلى الهند سعياً وراء المخلفات أو النصوص المقدسة ومعرفة طقوس البوذية ونظم الأديرة – من أمثال فا – هسين Fa - hsien (الذى بقى فى الهند من عام ٣٩٩ حتى عام ٤١٤م) ، وهو ساغ – تساغ Hsueng Tsang الذى استغرقت رحلته منذ سفره من الصين حتى عودته من عام ٦٢٩م حتى عام ٦٤٥م ، و « أى – تسنج I - Tsing الذى بقى فى الهند من (٦٧١ حتى ٦٩٥م) وقد تدهورت البوذية فيما بين زيارة « فا – هسين » وهو « ساغ تساغ » ، تدهوراً واضحاً فأصبحت الأديرة التى وجدها أول هؤلاء الحجاج الصينيين – مهدمة ومهجورة على أيام آخرهم ، كما أن « هسواغ – تساغ وجد لومبينى Lumbini (قرب مدينة كابيلا فستو) مسقط رأس بوذا على هذا

النحو من الإهمال . وتلك واقعة لها أهميتها الخاصة من زاوية التوقير والإجلال الذى تضفيه البوذية المبكرة على الأماكن المقدسة الأربعة وهى : « لومبينى » مسقط رأس بوذا ، وبوذا – جايا وهى المكان الذى شهد الصحوة ، ثم « سارنات Saranat » المكان الذى ألقى فيه بوذا موعظته الأولى عن الداهما Dhamma ، وأخيراً كوشنجافا Kushingava المكان الذى توفى فيه بوذا . وهكذا يوحى إهمال « لومبينى » فى القرن السابع الميلادى لا بتدهور الأديرة المحلية فحسب ، بل يدل كذلك فى هذه الحالة على فقدان الاهتمام بالأماكن المحلية التى ارتبطت بشخصية بوذا – جوتاما التاريخية . وربما حدث ذلك نتيجة لتشديد الاهتمام بفكرة « البوهستافا » الموجودة الآن .

٢٥- ازدهار بضعة مراكز :

فى هذه الأثناء ازدادت من حيث الحجم والمكانة الاجتماعية مجموعة من مراكز الأديرة الكبيرة التى ازدهرت فيها فى البداية فلسفة « الماهيانا » ، ثم ازدهر الفكر النظرى التنترى Tantric بعد ذلك . وكانت المراكز البارزة موجودة فى نالاندا Nalanda فى إقليم بيهار وفكراماسيلا Vikramasila غرب البنجاب[1] ، وأمارافاتى Amaravati ، ونكارجونا كوندا Ngarjunakonda فى جنوب الهند (منطقة أندرا برادش) ، ويصف سكوماردت Sukumar - Dut فى كتابه « رهبان البوذية والأديرة فى الهند » (لندن عام ١٩٦٢) – هذا التحول فى مركز الجاذبية من أديرة محلية صغيرة إلى مؤسسات ضخمة تشبه الجامعات بأنها حركة انتقال من « دراسة العقيدة » إلى « دراسة المعرفة » .

وخلال هذه الفترة انتشرت البوذية فى التبت ، وكان مؤسسها الفعلى فى ذلك القرن هو « باندا – سامبهافا Panda - Sambhava » وتصطبغ صورة الديانة البوذية التى أدخلها هذا الرجل إلى التبت بالتنترية على نحو واضح ، أعنى بصورة الإيمان والممارسة التى تضفى أهمية كبرى على الرموز السرية ، والأناشيد المقدسة ، والأنشطة الدينية المستورة الأخرى . وكان ذلك من الأسباب التى جذبت إليها أهل التبت ، فهم شعب لعب السحر دوراً كبيراً

---

(١) لم تكن هذه المراكز مجرد أديرة للرهبان كغيرها ، بل كانت جامعات دينية بمعنى الكلمة ، فقد احتوت على معابد وكليات متعددة ذات تأثير بالغ ، وكانت المناقشات الحامية تدور بين هذين المركزين الكبيرين حول الطريقة التنترية (المترجم) .

فى ديانتهم حتى ذلك الوقت . وبعد أن واجهت الديانة البوذية قدراً من المعارضة والاضطهاد ثبتت أقدامها فى بداية القرن الحادى عشر . وكان أتيشا Atisha وهو أحد الشخصيات اللامعة التى أعادت إدخال البوذية إلى التبت - راهباً بنجالياً من دير « فكرااسيلا » ، ومرة أخرى كانت الصورة التنترية هى التى نقلت إلى التبت من شمال الهند ، وهى التى أضفت على بوذيــة التبــت ملامحها الخاصة التى عرفت بها عنـد الأوربيـين فى العصور الحديثة .

٢٦- البوذية فى الهند منذ عام ١٢٠٠ :

هناك ما ينبغى أن يقال حول وجهة النظر التى ترى أن البوذية اختفت تماماً من الهند حوالى عام ١٢٠٠ ، ولقد سبق أن رأينا أن تدهور المراكز البوذية المحلية ذات التأثير قد استمر لعدة قرون ، وأن الأشكال المؤسسة للبوذية بدأت تتركز على هيئة معاهد دينية سرعان ما تحولت بالتدريج إلى مراكز كبرى مثل دير « نالندا Nalanda » . وفى النهاية ، عندما جذبت ثروة هذه المراكز الكبرى وفخامتها أعمال السلب التى قام بها غزاة مسلمون من الشمال الغربى ، كان سقوطها يعنى من الناحية الفعلية نهاية البوذية كمؤسسة معترف بها فى الهند غير أن مسؤولية هذا السقوط لا تقع يقيناً على الإسلام ، أو حتى على عاتق وحشية الممثلين الفرديين للإسلام الذين عاجلوا ، فيما يبدو ، المؤسسات البوذية فى الهند ، بضربة قاضية فى ذلك الوقت [١] فالواقع أن البوذية ـ بوصفها مذهباً دينياً مستقلاً عن معتقدات الهندوسية وفرقها ـ كانت إلى حدٍ كبير قد اختفت فعلاً عن الأنظار .

ولقد ذهب البعض إلى أن ديانة البوذا تواصل الحياة فى مذهب التفانى والولاء الدينى Devotionalism الموجود فى معتقدات البختى Bhakti الهندوسية . ولا شك أن مركب الأفكار والممارسات المعروف باسم الهندوسية مدين بدين كبير للأفكار والمؤثرات البوذية . ولقد قيل إن البوذية ـ وقد أورثت كنوزها للديانة الهندية على هذا النحو ـ اختفت برقة وهدوء عن المسرح كديانة قائمة بذاتها . ويبدو أن بعض جوانب عبادة الإله « فشنو » بصفة

---

(١) يريد المؤلف أن يقول : إن المؤسسات البوذية كانت تترنح بالفعل ؛ فجاءت الضربة مجهزة عليها ، ولهذا يستخدم تعبير « coup de grace » أى رصاصة الرحمة ، كما تترجم أحياناً ، وهى الرصاصة التى تطلق على من تم إعدامه للتأكد من موته السريع بحيث لا يترك يتعذب (المترجم) .

خاصة يمكن أن تدعم هذه النظرة ، لا سيما مرونتها النسبية تجاه التمييزات الطائفية، ومذهبها فى الحب المتفانى ، وعقيدتها فى التجسيدات أو التجليات Avatras التى كان بوذا واحداً منها ، وسلوكها النباتى .. وما إلى ذلك . ومن ناحية أخرى رأى البعض أن المكانة الاجتماعية التى يتمتع بها فيلسوف هندوسى مثل « شنكارا Shankara » ترجع بصورة غير مباشرة إلى تأثير التفكير البوذى ، لأن هذا الفيلسوف قد تأثر فيما يبدو ببعض أفكار المهايانا فى صياغة فلسفته الواحدية حتى قيل عنه إنه « بوذى متخفى » .

ولاعتبارات من هذا القبيل أخذا كونز Conze مثلاً بالرأى الذى يقول إن الوجود المستقل للبوذية لم يعد يخدم أى هدف نافع ، وأن اختفاءها لم يكن خسارة لأى إنسان ،بل لقد خضع أيضاً لقانون التغير والتحول الكلى الذى أعلنه بوذا . ومن وجهة النظر هذه «يكون السبب فى موت البوذية فى الهند هو الشيخوخة أو « الإنهاك الكامل[1] » ومع ذلك فالبوذية فى « سرى لانكا » لم تمت من الإنهاك أو الشيخوخة بالغاً ما بلغ اقترابها منها فى بعض الحقب التاريخية ، وهى اليوم أبعد ما تكون عن الضعف والوهن بعد مرور اثنين وعشرين قرناً من الوجود المتواصل فى تلك الجزيرة . ويبدو من المرجح من وجهة نظر المؤرخ ، أن المصير الذى لقيته الجماعة البوذية فى الهند يرجع إلى مجموعة معقدة من الظروف ، يمكن أن نتعرف على عدد منها : كالنزعة المركزية ، وفقدان الصفات المميزة مع اقتراب المهايانا من الهندوسية ، وفقدان الحماية الملكية ، وأخيراً هجمات الغزاة المسلمين .

لكن البوذية لم تختف تماماً ، بل ظلت صامدة فى الأماكن النائية على حدود الهند لاسيما فى الشمال . وفى القرن العشرين نما عدد البوذيين فى الهند ، وكان ذلك بسبب التحول الدينى لجماهير غفيرة من الطبقة التى كانت تعرف باسم طبقة من لا يجوز لمسهم. ولقد كان الباعث الهام على هذا التحول هو التأييد العلنى للبوذية من جانب الدكتور « د. ر. أمبدكار D. R. Ambedkar الوزير السابق فى مجلس وزراء الهند المستقلة عام ١٩٥٦م. وكان « أمبدكار » رائداً لطبقة « من لا يجوز لمسهم » فحذا حذوه معظم اعضاء هذه الطبقة .

ولقد ذهب جماعة من رهبان « سرى لانكا » ومن أماكن أخرى إلى الهند لكى يساعدوا الجماعة البوذية الجديدة ، وتوجد نسبة كبيرة منهم فى ولاية « مهاراشترا Maha

(١) كونز « تاريخ موجز للبوذية » عام ١٩٦٠ ص ٨٦ (المؤلف) .

rashtra » ويبلغ عددهم الآن حوالى خمسة ملايين .وبالإضافة إلى هؤلاء يلاحظ الاهتمام بالبوذية على مستوى مختلف تماماً : فقد ظهر اهتمام متجدد بالبوذية بين بعض المواطنين الهنود « المتحذلقين » والمتشبعين بالطابع الغربى ، رغم أن هذه حركة ثقافية إلى حدٍ كبير ، ويصعب أن توصف بأنها حركة بعث شعبى للبوذية .

٢٧- البوذية فى سرى لانكا (١) :

كانت سرى لانكا ، بقدر ما نعرف حتى الآن ، هى أول بلد خارج إمبراطورية أشوكا فى الهند تستقبل البوذية ، ولا شك أنها البلاد ذات التاريخ الطويل المتصل لممارسات البوذية وأنشطتها . أما عن قصة دخول البوذية إلى جزيرة بواسطة الراهب ماهندا ورفاقه فإننا نعتمد ـ فى معظمها ـ على الأحداث التاريخية باللغة البالية Pali(٢) ، ورغم بعض الزخرفة التى ربما زينت بها تفصيلات القصة ، فليس ثمة شك كبير فى أن بدايات البوذية فى سرى لانكا ترجع على الأقل إلى القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد يرجعها البعض إلى فترة أقدم .

كان ملك سرى لانكا فى ذلك الوقت هو الملك ديفانمبيا Davanampiya ويعنى اسمه « تسا المحبوب من الآلهة » ، وفى اسمه إشارة إلى الديانة الموجودة فى « سرى لانكا» قبل دخول البوذية ، وهى ديانة تعتمد على عبادة عدد من الآلهة يحمل معظمهم نفس أسماء آلهة « الڤيدا » التى عُبِدت فى الهند القديمة فبراهما Brahma ، و « أندرا In-dra » ، و « ياما Yama » و « فارونا Varuna » ، « وكوفيرا Kuvara » ، كانت هى الآلهة الرئيسية هناك - إلى جانب آلهة أخرى تشمل « بلاديڤا Bladeva » و « راما Rama » و « فاسوديفا Vasudeva » ولقد أصبح الملك نفسه ، طبقاً للرواية المأثورة ، بوذياً عادياً مثله مثل معظم الناس فى سرى لانكا، ولم تتوقف عبادة الآلهة القدامى، وإنما تعدلت بالتدريج وتحولت إلى مذهب بوذى فى أساسه ، افترض فيه تحول آلهة الڤيدا إلى الديانة البوذية بحيث أصبحت الآن تابعة لبوذا الذى راحوا يقدمون له أسمى ألوان التوقير والاحترام.

---

(١) سيلان فى السابق (استقلت عام ١٩٤٨) وهى جزيرة استوائية آسيوية فى المحيط الهندى ، وفى القرن السادس (ق . م) أقيمت فيها أول مملكة سنغالية ، وقد دخلتها البوذية فى القرن الثالث (ق . م) وأصبحت أنورا ضابورا مركزاً بوذياً عظيماً (المترجم) .

(٢) لغة هندية آرية كان يتحدثها أهل الهند فى الشمال فى القرنين الثانى والثالث (ق . م) ، وأصبحت لغة الجزء الأكبر من الكتابات البوذية المقدسة ثم انتقلت إلى سرى لانكا وبورما (المترجم) .

وقد كانوا يعبرون عن محبة بوذا تعبيراً رمزياً بعبادة تمثاله Stupa ، أو تقديس الربوة التى تضم رفاته ، أو تقديس شجرة « البو Bo »[1] . وأول تمثال نُحت فى سرى لانكا أقامه الملك تسا Tissa فى العاصمة [2] ، وكانت فى ذلك الوقت أنورا ضابورا ، ولا يزال الحجاج البوذيون يمجدونه حتى الآن ، ولقدأحضر البوذيون نبتة[3] من شجرة البو الأصلية من «بوذا جايا - Buddha Gaya » فى موكب مهيب وغرسوها فى احتفال لائق فى مكان أعد لها خصيصاً فى جنوب المدينة[4] ، وكان الحدث الأكثر أهمية أثناء توطيد دعائم البوذية فى الجزيرة هو دخول الرجال والنساء من السنغاليين فى مراتب السنغا San-gha ، وإقامة دير فى « أنورا ضابورا » عرف باسم مهافيهرا Mahavihara (أى الدير العظيم) ، وأصبح منذ ذلك الوقت أهم مراكز الديانة البوذية فى الجزيرة .

أما المدرسة البوذية التى وصلت « سرى لانكا » وصارت لها السيادة فى عاصمة الإمبراطور أشوكا فهى مدرسة ستافيرا Sthaviras أى الشيوخ أو الكبار (أو مدرسة الناضجين) وقد عرفت فيما بعد باسم مدرسة ترافادين Tharavadin ، وظلت النمط المسيطر من البوذية فى سرى لانكا ، وكان رهبانها محافظين فى موقفهم من التعاليم الأساسية عند « بوذا جوتاما » ، وفى تفسيرهم لشريعة الأديرة ، وهم الذين حافظوا على الكتب المقدسة باللغة الباليه Pali .

(أ) خصومة حادة :

فى تاريخ لاحق لاستقرار البوذية فى سرى لانكا ظهرت محاولة - نجحت لبعض الوقت - لإدخال صورة المهايانا من جنوب الهند ، وقد نشأت خصومة حادة بين رهبان الترافيدا (أو رهبان الدير العظيم) وبين رهبان دير المهايانا المقام حديثاً أو الأبهياجيريين

---

(١) شجرة من فصيلة التين أشرقت تحتها شمس الهداية على بوذا الأكبر ، عُنى البوذيون بأمرها عناية كبيرة وجعلوها موضع تقدير إلى درجة التقديس ، وقد سبق الإشارة إليها فى بداية الفصل (المترجم) .

(٢) عاصمتها الآن كولمبو ، وهى أهم موانيها (المترجم) .

(٣) انظر قصة نقل هذه الفسيلة عام (٢٥٤ ق . م) وغرسها فى مكانها الحالى ، وانظر أيضاً عن الربط بين شجرة التين والزيتون أو البوذية والمسيحية كتاب الأستاذ . حامد عبد القادر « بوذا الأكبر » ص ٥٤ وما بعدها (المترجم) .

(٤) بوذا جايا : قرية شمال شرقى الهند فى أقليم بيهار (المترجم) .

Abhayagiri » واستمرت هذه الخصومة عدة قرون ويحظى هذا الجانب ، فى بداية الأمر ، بمساندة الحاكم ثم يتلوه الجانب الآخر ، وإن كان الشعب ، فيما يبدو ، قد وقف بصفة عامة فى صف رهبان الترافيدا . وانتهت الخصومة فى القرن الرابع الميلادى عندما تدخل الملك لصالح الترافيديين الذين كتبت لهم السيادة بعد ذلك حتى أصبحوا بالفعل المدرسة الوحيدة للبوذية التى استمرت فى الوجود فى سرى لانكا .

ولقد ساعدت على صعود هذه المدرسة وسيطرتها فى القرن الخامس أعمال بوذا جوستا Buddha - Ghosta [1] الذى يمكن أن تكون إنجازاته فى ميدان عرض الكتب المقدسة وشرحها ، وفى تأليف مرجع شامل حول أصول العقيدة ، شبيهة بإنجازات القديس توما الإكوينى فى التراث المسيحى . لقد ظلت دراسة البوذية بلغة بالى Pali فى تدهور لعدة قرون، إذ حجبتها تقريباً المكانة التى حصلت عليها اللغة السنسكريتية التى هى لغة براهمة الهند ، ولغة مدرسة المهايانا البوذية . وكان « بوذا جوستا » هو الذى استعاد للغة بالى مكانتها فى التعليم والأدب وأنزلها منزلة الشرف ، وأصبح بذلك الشخصية التى استحقت من البوذيين أعظم الاحترام والتقدير ، لا فى سرى لانكا وحدها ، بل فى جميع أنحاء جنوب شرق آسيا بعد ذلك . وربما كان أعظم مؤلفاته هو كتاب « طريق التطهر » الذى يعد فى نفس الوقت ملحقاً لكتابات البوذية المقدسة وعرضاً نسقياً للروحانية البوذية .

ثم واصلت الممارسات البوذية فى سرى لانكا – بعد ألف سنة من وفاة بوذا جوستا متابعة النموذج الذى أخذه هذا الرائد عن الرهبان القدامى الذين تلقى العلم بالتراث على أيديهم ، ثم صاغه بعد ذلك بتمكن فى صورة أدبية . ولقد ظل الحظ فى القرون التالية يبتسم « للسنغا » حيناً فى سرى لانكا ويعبس لها حيناً آخر ، واقتضى الأمر فى بعض الأحيان العمل على إحياء « السنغا » فى البلاد البوذية المجاورة لجنوب شرق آسيا وهى بورما ، وتايلند، وكمبوديا ، وفى أحيان أخرى كان الرهبان الترافيديون انفسهم يقومون بإحيائها فى تلك البلاد عندما تنحط مكانتها .

---

(١) بوذا جوستا : أحد فقهاء البوذية فى بداية القرن الخامس الميلادى ، ولد شمال الهند ، وذهب إلى أنورا ضابورا التى كانت فى ذلك الوقت مركزاً بوذياً هاماً لدراسة النصوص البوذية ، وترجم الكثير من هذه النصوص والشروح السنغالية إلى اللغة البالية ، ثم عاد إلى قرية « بوذا جايا » وبدأ فى التأليف فكتب عدة مؤلفات أهمها « الطريق إلى التطهر » ، وهو تلخيص للعقيدة البوذية (المترجم) .

(ب) وصول البرتغاليين إلى سرى لانكا :

لعل أصعب الفترات فى تاريخ البوذية فى سرى لانكا قد بدأت على الأرجح مع وصول البرتغاليين الكاثوليك فى القرن السادس عشر . ففى خلال قرن أو ما يقرب من سيطرتهم على سرى لانكا ، ثم بعد ذلك تحت حكم الهولنديين لمدة قرنين ، وأخيراً تحت حكم البريطانيين مع بداية القرن التاسع عشر ، مرت البوذية بفترة حرمت فيها أديرتها من أراضيها، كما تحطمت علاقاتها بالدولة ، وأجبر أتباعها من عامة الشعب إما على ترك دينهم ، وإما على التظاهر باعتناق دين آخر . وهكذا عانت البنية الرقيقة للمجتمع البوذى - سواء فى ذلك عامة الشعب أو رهبان الأديرة - من أضرار خطيرة . ومع ذلك فقد بدأ بعث البوذية فى سرى لانكا من جديد فى نهاية القرن التاسع عشر ، وكانت فى ذلك الوقت فى أشد حالاتها تدهوراً .

وبدأت تظهر حركات جديدة من الرهبان وعامة الشعب ، كما تجدد الاهتمام بكنوز الأدب المكتوبة بلغة بالى ، ويرجع ذلك إلى حد ما لحماس المستشرقين الغربيين وطلاب الدين . ثم أقيمت مراكز جديدة للتعليم البوذى العالى ، كما بدأت ممارسة التأمل البوذى تبعث من جديد فى أديرة حديثة أو فى صوامع فى الغابات . ومع مرور الوقت أصبحت سرى لانكا أمة مستقلة مرة أخرى عام ١٩٤٨م ، واستعادت البوذية مكانتها على نطاق واسع ، وإن لم تستعدها بصورة تامة ، باعتبارها القوة الرئيسية المرشدة والموجهة للثقافة فى سرى لانكا . وامتد تأثير البوذية من سرى لانكا مرة أخرى وبصفة رئيسية من خلال منشورات الرهبان التبشيرية وأنشطتهم لا إلى بلدان آسيوية أخرى فحسب ، بل إلى الغرب أيضاً .

٢٨- البوذية فى بورما :

قدم المبشرون من الرهبان خلال القرون الأولى للعهد المسيحى كلاً من « الهنايانا » و « المهايانا » إلى جنوب شرقى آسيا ، وكانت منطقة جنوب بورما وجنوب تايلند بأكملها مأهولة بشعب يسمى « المون Mons » ، وكان هؤلاء يتبعون صورة البوذية الترفادية Thervada التى جاءتهم على الأرجح من شرق الهند واستقرت مدرسة هامة للهنايانا فى وسط بورما وشمالها ، وهى مدرسة سارفستفيدا Sarvastivada ، وأصبح لها تأثير ملحوظ ، وهكذا كان للمهايانا تأثيرهم مع حلول القرن الخامس الميلادى ، وهناك شواهد من علم

الآثار على أن هاتين المدرستين من مدارس البوذية قد ازدهرتا فى بورما العليا فى تلك الفترة ، وربما وصلا إلى بورما من البنجاب عبر أحد الطرق البرية . ويبدو أن المراحل التى مر بها تطور المهايانا البوذية فى الهند قد تكررت مرة أخرى فى بورما ، ومما لا شك فيه أنه بحلول القرن السابع الميلادى بدأت البوذية تظهر فى صورتها التنترية فى بورما العليا على نطاقٍ واسع

وفى ذلك الوقت كان الجزء الشمالى من بورما يحكمه ملوك من الجنس « التبتى البورمى – Tibto - Burmese » أسلاف سكان وادى بورما المعاصرين . وكان أحد هؤلاء الملوك هو « أنا وراتا Anawrahta » الذى بدأ حكمه عام ١٠٤٤م ، ثم تحول إلى الصورة الترفادية من البوذية بتأثير راهب من جنوب بورما ، ولقد شرع « أناوراتا » فى ذلك الحين فى إعداد برنامج لإصلاح البوذية التنترية التى يمارسها فى مملكته كهنة يسمون Aris (حرفياً : « المقدسون » أو « أصحاب القداسة » ، وهو لقب يبدو أنه غير مناسب تماماً فى هذه الحالة) وقد حصل من مملكة مجاورة عن طريق مناف للروح البوذية ، وهو طريق استخدام القوة المسلحة ، على نسخة كاملة من الشريعة المقدسة بلغة بالى Pali وجعلها معيار ممارسة البوذية فى مملكته .

وهكذا أصبحت الترافيدا هى صورة البوذية السائدة فى جميع أنحاء بورما ، واختفت «المهايانا » وإن بقيت حية فقط حين تمارس فى المناسبات الطارئة التى اندمجت مع توليفة الإيمان البوذى والمحلى للسكان الأصليين ، وممارساتهم بحيث أصبحت تشكل النموذج المتميز لما ينبغى أن يسمى « بوذية بورما » على مستوى عامة الناس . وعلى كل حال فإن الديانة التى تمارس فى أديرة بورما تتحد مع ترافيدا بلاد أخرى فى جنوب آسيا (سرى لانكا تايلند، كمبوديا ، لاوس) وتقوم أساساً على شريعة بالى .

(أ) أديرة كثيرة :

فى بورما أديرة كثيرة ، وهى توجد بالقرب من كل مدينة وقرية تقريباً ، لا سيما فى مناطق بورما السفلى حيث يعيش معظم السكان . ولقد كان للأديرة تأثير قوى على الحياة الأخلاقية فى البلاد ، كما كانت عبر القرون مراكز محلية للتربية . وقد تخصصت الأديرة فى بورما فى دراسة الأدب الخاص « بالأبهاداهما » (أو جوهر العقية) ، وهو القسم الثالث من الشريعة الذى يعالج تحليل الظواهر العقلية والأخلاقية . ولقد أشار « م. هـ. بود M. H. Bode » إلى أن الخلفية التى تكمن وراء هذا النوع من المعرفة هى ذلك القدر الملحوظ

من الدعم من جانب الأثرياء الأتقياء من عامة الشعب لأن العمل الأدبي يتطلب فيهارا Vi-hara (أى مبانى للأديرة) ، توفر من الاتساع والراحة أكثر مما تحتاجه جولات المتسول فى حياته العادية ، فضلاً عن مكتبة كاملة من النصوص المقدسة ، والقيام بتزويد الرهبان بذلك كله ، إلى جانب الضرورات الأخرى للمعرفة ، عمل جدير بالثناء إلى أقصى حد . وكان الأثرياء من عامة الشعب شغوفين بالحصول على هذا الثناء بتلك الطريقة بقدر اغتباط الرهبان بقبول عطاياهم (م. هـ. بود M. H. Bode « الأدب البالى فى بورما » عام ١٩٠٩ وقد أعيد طبعه عام ١٩٦٦ ص ١٥) .

وقد تحقق بعث آخر للبوذية فى الجزء الجنوبى من بورما فى القرن الخامس عشر وكان المسؤول عنه ، فيما يبدو ، هو الملك « دماتشى Dhammaceti » (١٤٦٠ - ١٦٩١)، وكان هذا الملك قد تحول إلى راهب فى فترة مبكرة من حياته ، كما عرف بتقواه بعد أن أصبح ملكاً ، فاستمر يعمل على حماية « السنغا » طوال عهده ، واهتم بإصلاح جوانبها الأقل تشدداً فى التمسك بالمعتقد القديم ، كما أرسل بعثة من الرهبان إلى سرى لانكا للدراسة وإعداد أنفسهم للعمل على بعث حياة الدير فى مملكته بعد عودتهم ، وقرب نهاية القرن الخامس عشر تراجع استخدام لغة بالى بصورة مطلقة بوصفها لغة الدين أمام استخدام اللغة البورمية ، وهى عملية اكتسبت دفعة قوية فى القرن السادس عشر بعد أن تزايد بالتدريج عدد الكتب المقدسة ، والشروح ، والتعليقات ، والأدب الدينى التى بدأ إنتاجها باللغة العامية (وهى عملية توازى بشكل مثير عملية مماثلة حدثت فى نفس الوقت تقريباً فى الهند وأوربا مع استخدام اللغة السنسكريتية واللغة اللاتينية على الترتيب) .

(ب) الإنجليز يحكمون بورما :

لم تتأثر بورما ، على خلاف سرى لانكا ، إلا أقل تأثر بقدوم البرتغاليين . ولم يبدأ الاستعمار الأوربى فى التأثير على بورما إلا فى مطلع القرن التاسع عشر ، وتم ذلك عن طريق التوسع التدريجى لحكم الإنجليز على ثلاث مراحل « ١٨٢٦ و ١٨٥٣ و ١٨٨٥م» وقد عزل آخر ملوك بورما من مدينة مندلاى Mandalay [1] وأصبح الإنجليز هم حكام

---

(١) كانت عاصمة بورما العليا من (١٨٦٠ حتى ١٨٨٥) وأصيب قصرها الملكى ومعابدها المشهورة بالقنابل فى الحرب العالمية الثانية (المترجم) .

البلاد كلها . ونتج عن استغلالهم مواردها الطبيعية ، مع دفع تعويضات بالغة الضآلة عن المنافع الاقتصادية ، آثار مدمرة على الحياة فى بورما لم تبرأ منها حتى يومنا هذا ، كما تحطم النموذج القديم للحماية الملكية « للسنغا » ورعايتها ولم يفعل البريطانيون شيئاً لإصلاح الأضرار التى أحدثوها مما جعل حياة « السنغا » تعانى بشدة نتيجة لذلك.

وعلى الرغم من أن التكوين الاجتماعى الخاص بالمعاهد البوذية فى بورما قد عانى من أضرار الحكم الاستعمارى ، فإن التكوين المادى بقى قائماً دون أن يمس من جانب البريطانيين أو من جانب حكم اليابانيين الذى كان أقصر منه قليلاً .

وفى بورما توجد مجموعة من أفخم « الباغودات Pagodas[١] البوذية فى آسيا وأعظمها شهرة هو المسمى Shwe Dagon أو الباغودا « الذهبية » فى الضاحية الشمالية من مدينة رانجون Rangoon[٢] ويتألف هذا المركز العظيم للعبادة البوذية من كتلة من الحجارة الدائرية المركزية تغطيها تماماً صفائح رقيقة من الذهب الخالص ، ويبلغ ارتفاعه قدر ارتفاع قبة كاتدرائية القديس بولس فى لندن ، ويحيط بالمبنى رصيف دائرى مكشوف من المرمر ، أقيمت على أطرافه الخارجية مجموعة متنوعة من الهياكل والأديرة . وهو مكان يؤمه الحجاج البوذيون من كل أنحاء جنوب شرقى آسيا ، ولاسيما مدن وقرى بورما ، وهناك باغودات أخرى شهيرة فى مدينة مولمين Moulmein وفى العاصمة السابقة مندلاى .

كان بعض رهبان البوذية ـ خلال تقلبات فترات الاستعمار ـ يدعمون التراث التقليدى فى دراسة « الأبهى داهما » التى اشتهرت بها بورما ، وكذلك أساليب معينة فى التأمل تقوم على أحاديث بوذا فى شريعة « بالى » التى تخصص فيها رهبان بورما .

وهناك خاصية ملحوظة منذ حقبة الاستقلال ، ألا وهى :نمو مراكز التأمل التى يرتادها عامة الشعب لاسيما حول مدينة « انجون » ، حيث يزور هذه المراكز خدم وتجار ومعلمون ... إلخ لقضاء فترة أسبوعين أو ثلاثة ـ وربما أربعة أسابيع فى ممارسة التأمل تحت إشراف وإرشاد .

دقيقتين من أستاذ فى التأمل .

٢٩- تايلند :

يرتبط أقدم شاه على وجود البوذية فى تايلند بشعب المون Mons (وقد سبق أن ذكرناه ونحن نتحدث عن بورما) وتدل شواهد أثرية فى بعض المواقع فى سهل جنوب تايلند ـ

---

(١) الباغودا : معبد بوذى مكون من عدة طوابق ذات تصميم خاص (المترجم) .

(٢) عاصمة جمهورية بورما الآن (الترجم) .

مثل سهل « نكورن باتون Nakorn Pathon حيث يوجد هيكل Stupa [1] قديم وضخم على أن البوذية كانت تمارس طقوسها هناك منذ القرن الثانى الميلادى . ويبدو أن القطع الفنـية التى عثر عليها ، وهى تماثيـل لبـوذا ، وقطع من الفخار عليها كتابات منقوشة و « والهما كارا » (عجلة العقيدة) ، ويبدو أنها لموضوعات تنتمى إلى هذه الحقبة . ولقد ظلت تقريباً صورة البوذية منذ هذه الفترة المبكرة وحتى قرب نهاية القرن السابع الميلادى هى أساساً صورة الهنايانا البوذية .

لكن منذ القرن الثامن وما بعده تزايدت قوة المملكة المجاورة – مملكة شرى فيجايا Shri- Vijaya (فى سومطرة) لدرجة جعلتها تؤثر تأثيراً كبيراً فيما يسمى الآن بجنوب تايلند . وقد شمل ذلك تأثير الدين الذى كان سائداً فى سومطرة فى ذلك الوقت ، وهو خليط من مهايانا البوذية وبعض عناصر هندوسية . وتماثيل بوذا التى عثر عليها فى تايلند وتنتمى تاريخياً إلى هذه الحقبة ، أى فترة سيادة مملكة « شرى – فيجايا » تعكس خصائص المهايـانا . وقل مثل ذلك عن شرق تايلند الذى وقع تحت سيطرة أسرة (خمير Khmers) (مملكة هندوسية فى المنطقة المعروفة الآن باسم كمبوديا) فيما بين القرن الحادى عشر والرابع عشر، الأمر الذى نتج عنه تدفق سيل من عناصر الثقافة الهنوسية . لكن فى القرن الثالث عشر كان شعب التايى Thai يتحرك بالفعل نحو شمال البلاد قادماً من جنوب الصين[2] ، ثم انتشر فى الجنوب مع مطلع القرن الرابع عشر . وأثناء انتشاره استوعب صورة الهنايانا البوذية الخاصة بشعب المون الذى يقطن السهل الأوسط .

ومنذ هذا التاريخ فصاعداً نشأت فيما يبدو فى تايلند علاقة تشبه تلك التى قامت فى بورما بين الملك والرهبان ، حيث نجد الحاكم فى معظم الأحوال يبسط حمايته ورعايته على جماعة السنغا فى مملكته . ولقد شهدت مدرسة « ترافيدا » البوذية حركة إصلاح فى «سرى لانكا » إبان القرن الرابع عشر تحت حكم الملك المشهور باركاما باهو Parkkama Pahu ، وجذب ذلك عدداً من الرهبـان من تايلند إلى سرى لانكا ، وعندما عاد هؤلاء

---

(١) ستوبا Stupa : الهيكل أو الضريح الذى كان يقام على رفات بوذا ، ثم تطور إلى الباغودا البوذية فى جنوب شرق آسيا (المترجم) .

(٢) الجنس التايى أو السيامى : هو الذى يؤلف العنصر السائد فى تايلاند التى كان اسمها سيام من قبل (المترجم) .

الرهبان إلى وطنهم أدخلوا فيه الإصلاحات التى أدخلت على الترافيا سواء فى الممارسات أو التعليم ، ومنذ ذلك الحين وصورة مدرسة الترافيدا هى المسيطرة فى تايلند .

(أ) عاصمة جديدة :

فى نهاية القرن الثامن عشر أقيمت عاصمة جديدة فى جنوب البلاد على نهر تشاوفيا Chao Phya (أو نهر مينام) أولاً باسم دهون بيرى Dhonbur على ضفة النهر الغربية ، ثم بعد ذلك على الضفة الشرقية المقابلة لدهون بيرى فى كرنج تيب Krung Thep أو بانكوك . ولقد عرفت أسرة ملوك تابى الذين أسسوا هذه العاصمة الجديدة باسم راما Rama[1] ، الذى جرى العرف على أن يلحق به رقم معين . ومن أشهر هؤلاء الملوك : الملك راما الرابع المعروف كذلك باسم مونجوت Mongkut ، وقبل أن يصبح ملكاً عقب موت أخيه عام ١٨٥١ كان قد عاش راهباً بوذياً لمدة ثلاثين عاماً ، وظل فى الجزء الأخير من هذه الحقبة رئيساً للدير أو المعبد Wat فى بانكوك . ولقد أدخل فى هذه الفترة عدداً من الإصلاحات ، وسعى إلى تطوير تفسير جديد للأفكار البوذية من منظور الفكر المعاصر ، فقد كان هو نفسه عالماً ، وملما بالثقافة الغربية فى عصره . وكان تأسيس مدرسة متطورة «للسنغا» تسمى داهما يتيكا Dhamma yatika واحداً من أهم إنجازاته ، والواقع أن هذه المدرسة لم تعرف كمدرسة مستقلة من مدارس السنغا إلا فى العهد التالى لمونجوت » ، وهو عهد ابنه شولا لونجكورن Chulalongkorn (أوراما الخامس) .

ولقد خرجت هذه المدرسة من أفواج الرهبان الذين بدأ مونجوت فى تجميعهم عندما عين رئيساً لمعبد بوفورانيف فى بانكوك عام ١٨٣٧ ، وفى خلال الأربع عشرة سنة التى حكم فيها اكتسب مونجوت سمعة طيبة استحقها كواعظ ومعلم وشارح لأفكار البوذية بمصطلح سهل يستطيع جميع المستمعين فهمه . ولقد تعلم اللغة اللاتينية من أسقف كاثوليكى كان جاراً له هو الأسقف بالليجوا ، ثم تعلم اللغة الإنجليزية من بعثة تبشيرية تابعة للكنيسة المشيخية الأميريكية . واهتم بصفة خاصة بالمعرفة العلمية المعاصرة وتطبيقاتها

---

(٢) هى نفسها أسرة شاكرى Chakkri حكم راما الأول (١٧٨٢ ـ ١٨٠٩) والرابع (١٨٥٩ ـ ١٨٦٨) وهو الذى بدأ تحديث سيام وعقد معاهدة مع انجلترا عام ١٨٥٥ (المترجم) .

العملية ، كما أنه كان يحتك باستمرار ، فى جولاته اليومية بوصفه راهباً ، بعامة الناس فى مدينة بانكوك وعندما ترك الدير ليتولى مسؤوليات الملك بعد وفاة أخيه عام ١٨٥١ ، كان معبد بوفورانيف Bovoranives قد أصبح واحداً من أعظم مراكز « السنغا » البوذية أثراً فى تايلند .

لم يسع « مونجوت » إلى تفسير « الاهما » تفسيراً معاصراً فحسب ، بل نجح كذلك فى أن يرد لحياة « السنغا » بعض جوانبها الأساسية العامة التى كانت قد غابت عن الأنظار ولقد أدى تطهيره لحياة السنغا ، وإصلاحه لنظامها إلى تنشيطها وإنعاشها ، الأمر الذى انتشر من الدير الذى كان يرأسه إلى أديرة أخرى كثيرة وظلت هذه العملية متواصلة حتى يومنا الراهن .

(ب) الأثر الباقى للبوذية :

تقدم لنا تايلند مثلاً جيداً لنوع الحياة (الدينية ، والأخلاقية ، والإجتماعية) التى كانت « الترافيدا » البوذية قادرة على تطويرها وتدعيمها فى جنوب شرقى آسيا عندما تحررت من الآثار المدمرة للاستعمار والشيوعية . لقد قنع الشعب تماماً بالفرص التى قدمتها «الترافيدا » للتعبير عن الحياة الدينية وممارساتها ، فقد عملت بعثات التبشير المسيحية بين شعب تايى Thai لعدة سنوات وتلقاها بروح طيبة ، واحترمها بصفة عامة ، ولكن لم يعتقد سوى أقل من ٢ ٪ من الشعب بضرورة التحول إلى ديانة أخرى .

فى عام ١٩٨٢ كان فى تايلند ٢٤ ألف دير ، و١٧٥ ألف راهب وراهبة ، وحوالى ١٠٠ ألف راهب تحت الإعداد . والسبب فى تأرجح أعددا الرهبان هو أن كثيراً من الناس لا يلجأون إلى حياة الأديرة إلا فى مواسم المطر فقط ، أى من شهر يونيو حتى أكتوبر . ومنذ عام ١٩٠٢م ، و « السنغا » تدير أعمالها مستقلة عن الحكومة الدنيوية من خلال «مجلس السنغا الأعلى » ، رغم أن الملك ظل بوذياً وراعياً للنظام وحامياً له . وقد نشط الرهبان فى الوعظ ، وتفسير العقيدة البوذية والأسلوب البوذى فى الحياة فى جميع أنحاء البلاد، لا عن طريق الاجتماعات المحلية فى المعابد فحسب ، بل كذلك عن طريق الإذاعة والتليفزيون . وهكذا تم إرسال الرهبان فى بعثات تبشيرية بوذية إلى ماليزيا ، والهند ، ولاوس، وانجلترا . وأصبحت بعض الأديرة مراكز للخدمة الاجتماعية وشملت بداخلها مدارس مختلطة ومكتبات ومستشفيات .

٣٠- كمبوديا ، ولاوس ، وڤيتنام :

ظلت المستعمرة الفرنسية السابقة فى الهند الصينية لعدة قرون تشمل عدداً من الممالك المستقلة قبل أن يستعمرها الفرنسيون فى أواخر القرن التاسع عشر . وكان التراث الدينى البوذى هو المسيطر فى كل هذه الممالك ؛ إذ سيطرت مدرسة تراڤيدا فى كمبوديا ولاوس ، والمهايانا فى ڤيتنام ، لكن تراث المهايانا كان هو السائد قبل القرن الثالث عشر فى كمبوديا ولاوس أيضاً ، وهو تراث اندمجت فيه عناصر من الديانة البرهمية . ومع نهاية القرن الثالث عشر كانت المجموعات الدينية الثلاث الممثلة فى كمبويا هى الهندوسية ، والبراهمة عبدة الإله شيفا ، ومدرسة التراڤيدا البوذية ونتيجة لتأثير التيى ، منذ القرن الرابع عشر وما بعده - بدأت كمبويا تصبح أكثر فأكثر بلاد ترافيدية . ثم تأسست دولة لاوس عام ١٣٥٣ بواسطة أمير تايى علمه أحد الرهبان البوذيين فى كمبوديا . ومنذ ذلك الحين ولاوس تتطور إلى بلاد تسودها التراڤيدا البوذية التى ارتبط رهبانها بروابط وثيقة برهبان البلد المجاور وهو تايلند .

وكانت المهايانا البوذية قد وصلت إلى ڤيتنام فى فترة سابقة على القرن الحادى عشر الميلادى ، ولقى فيها الرهبان البوذيون قدراً من الاحترام لتميز حياتهم ، وتعاليمهم على حد سواء وفى عام ١٠١٠م تولى أحد البوذيين واسمه « لى تايى - تو Ly Thai to حكم ڤيتنام ، ومن ذلك الحين فصاعداً حظيت بوذية تشن (زن Zen) بمكانة مرموقة . وكان خلفاؤه من أسرة « لى Ly » فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر حتى عام ١٢٢٥ - أتباعاً متحمسين لبوذية زن Zen ، ثم وقعت البلاد تحت سيطرة الصينيين فى أوائل القرن الرابع عشر ونتج عن ذلك نمو الأثر الكنفوشى ، والتاوى ، والحد من نشاط رهبان البوذية . أما فيما يتعلق بعامة الشعب فقد أدى ذلك إلى نشأة نزعة التوفيق الدينية ، وخضعت البوذية مرة أخرى لقيود صارمة فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر تحت حكم الاستعمار الفرنسى، وكان ذلك نتيجة لنمو التأثير الكاثوليكى ، وواصلت الأقلية المخلصة من الرهبان ممارساتها الدينية فى عزلة ، بينما ساند الرهبان البوذيون المنخرطون فى الحياة العامة Bonz-es[1] نزعة (تلفيقية) ضمت عناصر من البوذية التنترية مع الديانات البدائية وتعدد الآلهة .

ومنذ بداية القرن العشرين ، وحتى اندلاع العداوات التى خربت البلاد فى ستينات القرن - بدأت البوذية فى استرداد عافيتها بانتظام فى ڤيتنام . وقد كانت أبرز صور إحياء البوذية

(١) يطلق هذا اللفظ على رهبان الصين بصفة خاصة (المترجم) .

هى أميدا Amida (أى الأرض الطاهرة) ، وهى صورة من المهايانا التى نمت على حساب بوذية (زن Zen) وإن كان تأثير مدرسة ترافيدا قد أخذ كذلك فى النمو . ففى عام ١٩٥١ تشكلت رابطة تضم جميع البوذيين الفيتناميين ، ولعدة سنوات ظل رهبان البوذية الفيتنامية يلتقون معاً ، لا مع مواطنيهم فحسب ، وإنما مع البوذيين من بلاد أخرى أيضاً ، وكانوا يزدادون وعياً بأن البوذية جماعة دينية عالمية . وبعد عام ١٩٦٢ فرض على قادة البوذية فى فيتنام القيام بدور سياسى أكثر علانية ، فى الوقت الذى أحيا فيه بعضهم ممارسات المهايانا الصينية التى تقول بالتضحية بالنفس فى سبيل بوذا . وتشهد الصورة الحديثة لهذه الممارسات بإخلاصهم وإيمانهم بالتراث البوذى بقدر احتجاجهم على تخريب البلاد وتدمير الشعب الفيتنامى .

٣٢- أندونيسيا :

لا نعرف الشيء الكثير عن تاريخ البوذية المبكر فى البلاد التى تعرف الآن باسم أندونيسيا ، ولكن يمكن القول ـ ونحن مطمئنون ـ بأنها دخلت إلى جزيرة « جاوة » حوالى القرن الخامس الميلادى ، وأنها قامت بدور هام خلال القرون التالية فى معظم المناطق الأخرى التى تعرف اليوم باسم أندونيسيا . ويبدو أن دخولها هذه المنطقة جاء نتيجة لنفس الدافع التبشيرى الذى اتسمت به بوذية الهند . ولقد استقرت فى سومطرة فى القرن السابع تحت حكم ملوك أسرة Sriijaya الذين كانوا يحكمون الجزيرة فى ذلك الوقت . وشهد أحد الحجاج البوذيين الصينيين بأهمية مملكة « سرفيجيا » كمركز للتعاليم البوذية عندما زار جزيرة سومطرة خلال رحلاته .

أدى الاحتكاك بالهند الشرقية إلى تطور فى المهايانا البوذية فى الهند انعكس فى سومطرة ، ومع مطلع القرن الثامن كانت الصورة التنترية للبوذية قد انتشرت هناك ، ومنذ بداية القرن التاسع استقرت البوذية تماماً فى شبه جزيرة الملايو التى كانت عندئذ تحت حكم أسرة سلندرا Sailendra . وفى « جاوة » بناء ضخم يعرف باسم البوربودير Borobudur[(١)] وهو منحوت على شكل هرم كبير ، ويرجع تاريخه على الأرجح إلى القرن الثامن ويدل على المكانة الكبيرة التى اكتسبتها البوذية فى جاوة ـ وطوال الفترة التى اكتسبت فيها البوذية مكانة شعبية مرموقة فى أندونيسيا ظلت تتعايش على نحو ودى وحميم مع الصورة

---

(١) هو معبد فخم بالقرب من مدينة جاكارتا « بجاوة » حيث ترقد حفنة من رماد بوذا (المترجم) .

« الشيفية» من الديانة الهندوسية ، كذلك مكنت الصورة التنترية من البوذية إلى حد ما للنزعة التوفيقية مع المعتقدات والممارسات الدينية الوطنية فى أندونيسيا ، والملايو ، ثم أزاحها الإسلام ابتداء من القرنين الثالث عشر والرابع عشر وما بعدهما بطريقة تدريجية وسلمية إلى أقصى حد ، ويرجع ذلك إلى أن صورة الإسلام التى جاءت إلى أندونيسيا من الهند نفذت بعمق عن طريق الصوفية ، وتحولت الأديرة البوذية إلى مراكز دينية إسلامية ، كما أن نمط الحياة الدينية الذى أقامته تلك المراكز الدينية الإسلامية كان يشبه نمط الحياة الدينية فى النظام الاجتماعى البوذى (١) شبهاً لم يشعر أحد معه بتغير كبير أو صغير .

وعلى الرغم من أن معظم سكان أندونيسيا الآن من المسلمين فلا يزال فيها بعض البوذيين ، وعلى حين أن عددهم قد يكون ضئيلاً ، فإن ذلك لم يمح الأثر البوذى تماماً فالاحتفال المسمى فيزاك Vasak ـ وهو احتفال بمولد بوذا وصحوته ودخوله النرفانا الأخيرة لاپارينيرفانا Pariniana ـ لايزال يقام سنوياً ، كما أن هناك مركزاً بوذياً وديراً فى باندونغ . وبصرف النظر عن ذلك فقد تركت البوذية بصماتها على كثير من جوانب الثقافة الأندونيسية ، ولعبت دوراً أساسياً فى إضفاء سمات معينة على أندونيسيا المسلمة .

٣٢- التبت :

استقرت البوذية فى التبت ، كما سبق أن رأينا ، منذ القرن الحادى عشر . وفى عام ١٠٧٦ اجتمع فى التبت الغربية مجلس « ثو – لنج Tho - Ling » وأتى إليه الرهبان ، كما قيل ، من جميع أنحاء البلاد ، فبدا واضحاً منذ ذلك التاريخ أن البوذية قد انتشرت انتشاراً واسعاً فى التبت . وتميزت فترة النمو من القرن الحادى عشر حتى القرن الخامس عشر بظهور عدد من الحركات المختلفة . وقد نشأت هذه الحركات على نطاق واسع ، كما يحدث عادة فى أنواع أخرى من التراث الدينى ، نتيجة للاختلافات الاجتماعية والسيكولوجية بين الأتباع المختلفين المؤمنين بدين معين ، ولكن ربما يكون نمو هذه الحركات كذلك علامة على حيوية كبيرة اكتسبتها الديانة البوذية فى التبت فى تلك الفترة.

ولا شك أن البنغال المجاورة شهدت ضرباً من الإحياء ، أو الانتعاش للبوذية إبان القرن

---

(١) لعله يقصد « بنمط الحياة الدينية » هنا الحياة الصوفية التى تتشابه فى جميع الديانات (المترجم) .

الحادى عشر ، وشق كثير من الرهبان طريقهم من البنغال إلى التبت خلال هذا القرن والقرون الثلاثة التالية . وترجع هجرة الرهبان البنغاليين هذه ـ إلى حدٍ ما ـ إلى الصعوبات المتزايدة فى تدعيم مراكز الأديرة فى البنغال خلال تلك الفترة التى نمت فيها القوة الإسلامية فى شمال الهند . وقد انتقلت الصورة التنترية من البوذية إلى التبت فى أواخر هذه الفترة ، وجلب الرهبان معهم قدراً من الروح السائدة فى مراكز التعليم العظيمة من أمثال نالندا Nalanda . وكانت النتيجة أن أصبحت المراكز المماثلة للأديرة ذات سمة خاصة تميزت بها بوذية التبت واحتفظت بها حتى القرن العشرين .

وكان هناك راهب يدعى ميلا Mila هو أحد الشخصيات الكبيرة فى القرن الحادى عشر فى التبت ، ثم أضيف إلى اسمه لقب Repa (أو لا بس القطن) إشارة إلى تقشفه التام فى طريقة حياته ، وارتدائه ثوباً من القطن على الرغم من برودة الجو فى التبت ، كما قيلت أشياء كثيرة حول زهده البالغ ، فضلاً عن أنه كان شاعراً نظم « مائة ألف أغنية » ، أصبح الكثير منها شائعاً عن أهل التبت ولا يزال كذلك . وكان هذا الراهب نفسه تلميذاً لمعلم اسمه « ماربا Marpa » أسس فرقة من أكثر الفرق شعبية اسمها « كا – جيو – با Ka - Gyu - Pa » اهتمت اهتماماً خاصاً بممارسة « اليوجا » وغيرها من الرياضيات الروحية أكثر من اهتمامها بالحكمة الفلسفية . وهناك فرقة أخرى تقابلها عنيت بالالتزام الدقيق بالشريعة التقليدية لنظام الدير ، وفرقة ثالثة اهتمت بالسعى وراء الأفكار الفلسفية العميقة ، وفرقة رابعة انصب اهتمامها على التنظيم الاجتماعى الذى كان من آثاره العارضة تقديم أسس راسخة للتنظيم الاجتماعى فى البلاد بعد تدهور النظام الملكى . غير أن هذه الفرق المختلفة لم توجد داخل البوذية متنافسة متناحرة ، بل كانت فى حالة انسجام ووئام ، واتفق على أن تنوعها واختلافها يجعلها تؤلف معاً وحدة واحدة ، فكل فرقة تقدر الفرق الأخرى ، وتعتبرها أجزاء من كل شامل هو الذى يشكل البوذية فى التبت .

وبدأت فى القرن الرابع عشر حركة إصلاح هامة بقيادة معلم اسمه تسنج كابا Tsong - Kapa (١٣٥٧ – ١٤١٧)[1] انتهت بتشكيل « جلج با Gelug - Pa » وهى فرقة

---

(١) نادى فى حركته الإصلاحية بأن يعود رجال الدين إلى التقاليد البوذية فيحرموا على أنفسهم الزواج ، ويلبسوا الملابس الخشنة تقشفاً ، ولكى يميز أنصاره دعا مريديه من رجال الدين إلى ارتداء أردية صفراء أو برتقالية كما كان يفعل بوذا ، أطلق الناس عليهم اسم « أصحاب القبعة الصفراء » (المترجم) .

معروفة على المستوى الشعبى باسم « جماعة أصحاب القبعات الصفراء » ، وقد أحْـيَت هذه الفرقة تراث نظام الأديرة الدقيق ، فأعضاؤها لا يتناولون الخمر ، ولا يتزوجون « على خلاف بعض رهبان التبت الآخرين » ويتمسكون بقدر عال من الأخلاق الشخصية . وشاع الاعتقاد بأن أحد رؤساء الأديرة الذى توفى عام ١٤٧٥ قد تجسد مرة أخرى فى جسد راهب شاب ، وأنه بدوره تجسد بعد موته فى راهب آخر .

وهذا الـ « لاما Lama » الذى تجسد المرة تلو الأخرى ، ونظر إليه بإجلال كبير أطلق عليه اسم « التالاى Talai (المحيط) ، ومن هنا بدأت سلسلة التالاى أو الدلاى لاما [1] وفى عام ١٦٤٢ أصبح أصحاب القبعات الصفراء القوة الحاكمة فى التبت ، واستمروا على هذا النحو حتى استولى الصينيون على التبت فى عام ١٩٥٠ ، وكان « الدلاى لاما » بوصفه الزعيم الروحى لأصحاب القبعات الصفراء ، هو أيضاً رأس الدولة فى التبت ، ويمكن أن نقارن مركز « الدلاى لاما » بوضع البابا فى أوربا الكاثوليكية ، فهناك أوجه شبه بينهما ، لكن الفارق الجوهرى هو الاعتقاد بأن الدلاى لاما هو تجسيد لكائن سماوى أو بوديساتفا Bodhisattva » (وهو أعظم « البوديستافات » الذين تقول بهم مهايانا الهند شهرة) والاعتقاد السائد هو أنه عندما يموت الدلاى لاما يكون التجسيد التالى طفلاً يولد بعد تسعة وأربعين يوماً ، وهناك طريقة معتادة ، ومحددة تحديداً جيداً ، للبحث عن الطفل والتعرف على ذلك الذى سيصبح الدلاى لاما الجديد ؛ وذلك لتدريبه على الواجبات الروحية.

ولقد ظل عدد من أديرة التبت قائماً لمدة تبلغ الثمانية قرون حتى عام ١٩٥٠م كما ظل مسايراً لتراث جامعات الأديرة فى الهند بوصفها مراكز كبرى للتعليم . وكانت دراسة التاريخ تمثل أحد الاهتمامات الرئيسية عند عامة الشعب ، فالمؤرخ بو – ستون Bu - Ston، وهو من أهل التبت ، هو الذى كتب أقيم وأشهر كتاب فى تاريخ بوذية الهند .

أما بوذية عامة الناس فى التبت فقد تشربت الكثير من الديانة المبكرة التى سبقت البوذية، وكانت تعرف باسم « بون Bon أو « Pon » ، وكانت ضرباً من « الشامانية

---

(١) كلمة لاما : هكذا بلغة التبت ، وحرف الباء ساكن ـ تعنى راهب الدير .

أما الدلاى : فهى تعنى الكبير ، وعلى ذلك « فالدلاى لاما » تعنى حرفياً « الراهب رئيس الدير » لكنها تدل اصطلاحاً على الزعيم الروحى فى التبت (المترجم) .

Shamanism مع عبادة الأرواح والآلهة الحرسة من مختلفة الأنواع . وكان إله التربة ، وهو أحد الآلهة الهامة ، يتم تبجيله بواسطة عصا مستقيمة ، أو عمود تتم زخرفته فى الغالب بقطع من الخرق أو القماش الملوك . ولهذا وصف الرحالة الذين مروا بالتبت أهلها بأنهم مشغولون بصفة مستمرة « بعجلة الصلاة » إذ يقدمون الصلوات إلى هؤلاء الآلهة كلما فرغوا من أعمالهم الأخرى ، وكانت هذه سمة من سمات الديانة السابقة على البوذية . أما أعظم خاصية للرمز البوذى ، وأعنى بها المعبد أو الباغودا ، فكانت له صورة خاصة فى التبت معروفة باسم « تشو – تن Cho - ten » وهو منظر مألوف فى التبت .

ويشير « هـ . أ . ريتشاردسون H. E. Richardson » وهو أحد مؤرخى التبت المحدثين – إلى أن السمات التصويرية المعتادة فى بوذية التبت هى التى كثيراً ما لفتت أنظار الغربيين ، على حين أننا لا نسمع إلا قليلاً عن التقى اللافتة للنظر والتأثير الأخلاقى للحياة الهادئة فى الأديرة وهو يضيف إلى هذا أن حياة عامة الناس يسودها التدين الصادق الذى لايثير ولا يلفت الأنظار ، وهو يمارس داخل الأسرة ، ويعد عنصر تماسك واستقرار فى حياة أهل التبت .

لقد كان الأثر البارز الذى تركته البوذية فى شعب التبت هو تحويل القبائل التى كانت فى السابق مولعة بالقتال والعدوان إلى شعب مسالم بلغت نزعته إلى المسالمة حد النفور من القتال والعجز عن مقاومة الغزوات التى يشنها من الشمال شعوب أخرى من غير أهل التبت. وآخر مثال على ذلك هو سيطرة الصين على البلاد بحجة أن التبت من الناحية السياسية جزء لا يتجزأ من الصين ، وهو ادعاء يقوم على أساس أمثلة تاريخية أقدم لحكم صينى مماثل . وقد نتج عن هذه السيطرة تشكيل جذرى جديد لبنية الحياة التقليدية فى التبت التى اختفت تقريباً فيما يبدو داخل التبت نفسها ، وإن احتفظت لنفسها بوجود قلق بين المهاجرين من التبت الذين يعيشون فوق التلال الملاصقة لسلسة جبال الهمالايا فى شمال الهند ، حيث تقدم الحكومة الهندية الصديقة بعض المؤن لهؤلاء اللاجئين ؛ حتى تنقذ ما تبقى من ثقافتهم التقليدية ، ويمكن على كل حال أن نتصور أن جماعة التبت فى شمال الهند تستطيع أن تقوم فى المستقبل بدورما فى إعادة استقرار البوذية فى البلد الأصلى الذى جاءت منه . وقد أعيد فتح « قصر بوتالا » فى عام ١٩٨٠ فى « لهسا » للبوذيين من أهل التبت ، كما سمح لبعض الحجاج بزيارته .

٣٣- خاتمة :

ربما يكون من المناسب أن نسوق فى خاتمة هذا البحث الموجز بعض الملاحظات العامة لتساعد القارىء على أن يحكم من منظور سليم على ما ذكرناه عن البوذية فى الفترات التاريخية المتعاقبة وفى البلاد المختلفة التى انتشرت فيها .

وإذا كان فى استطاعتنا أن نفرق بين قسمين رئيسيين فى البوذية هما : المهايانا، والهنايانا (ولا تمثل الأخيرة فى الوقت الحاضر إلا واحدة فحسب من مدارسها الأصلية الثمانية عشر وهى مدرسة تراڤيدا) ، فسوف يكون من الخطأ النظر إلى هذين القسمين على أنهما يشكلان انقساماً أو انشقاقاً يشبه ذلك الذى حدث فى التاريخ المسيحى بين الكنيسة الرومانية ، والأرثوذكسية اليونانية ، أو بين الكاثوليكية الرومانية ، والبروتستانتية . ورغم أن الظروف المحلية أدت ، فى فترات معينة ، إلى خصومة عنيفة بين دير المهايانا ودير الهنايانا (كما حدث فى سرى لانكا) فقد استطاع رهبان المدرستين فى ظروفٍ أخرى ـ كما هى الحال فى الهند ـ أن يعيشوا معاً فى دير واحد . وهناك اليوم ، كالأيام الخوالى تماماً ، مشاركة ملفتة للنظر فى التعليم والتجربة بين ممثلى الجناحين . والاختلافات بينهما هى بالضبط اختلافات فى التشديد على جوانب معينة . وفى البلاد التى تسيطر فيها إحداهما (كما هى الحال فى بورما وتايلند مثلاً حيث تنتشر صورة التراڤيدا البوذية) لا نفتقد الشواهد التى تدل على انتشار أفكار المهايانا وتطبيقاتها .

والواقع أن طابع البوذية وروحها غريب تماماً عن التعصب الأعمى تجاه أولئك الذين يختلفون معها فى الرأى . ويمكن توضيح ذلك على مستوى آخر هو : كرم الضيافة أو حسن الوفادة ، الذى استقبلت به مدرستا المهايانا والهنايانا معتقدات البلد الأصلية وتعاليمها . فهى لم ترفض هذه المعتقدات رفضاً عنيفاً ولم تدنها بغير تردد ، بل سمحت لها بالاستمرار وضمتها بالتدريج للمعتقدات والممارسات البوذية التى تتم فى الأديرة حتى أصبحت وسائل للتعبير عما هو بوذى أساساً .

ربما وجد الملاحظ الغربى فى ذلك أخطاراً حقيقية تهدد المحافظة على الصورة (النقية) للدين ، لكن الشواهد التى تقدمها ٢,٢٠٠ سنة من التاريخ البوذى ، فى سرى لانكا مثلاً، تدل على أن التسامح ، عندما يرتبط بالحرص الجاد على الدعوة وبالتعاطف الرحيم ، لا يؤدى إلى اختفاء الاستبصار الأصلى أو إلى إضعاف التجربة والممارسة الدينية – والموقف

الذى تلخصه العبارة القائلة بأن « ما تؤمن به وتمارسه يختلف عما أؤمن به وأمارسه ، وما دامت الصورة التى أؤمن بها صحيحة ، فلا بد أن تكون الصورة التى تؤمن بها خاطئة، وينبغى عليك أن تقلع عنها » هو فى الحقيقة موقف لا يتناسب مع السياق البوذى حيثما كان موطنه ، وعند الاختيار بين التسامح والإحسان من ناحية ، وبين العداء وامتلاك الحقيقة المطلقة الشاملة من ناحية أخرى – نجد أن البوذيين يفضلون بصفة عامة الخيار الأول .

هكذا ظل الحظ يتبسم للبوذية حيناً ويعبس لها حيناً آخر ، ولا شك أنه سوف يواصل ذلك . ويقدم لنا تاريخ سرى لانكا مثالاً واضحاً على ذلك ؛ فهناك امكانان اثنان على الدوام: ففى عصور الانهيار والمصاعب والمقاومة أو الكراهية من قبل الشعب ، يتعرض التراث البوذى لأشد أنواع المعاناة من تزايد العداء له ، غير أن هناك أيضاً إمكاناً آخر هو أن تبعث البوذية من جديد ، وأن تسترد عافيتها ، على نحو ما حدث فى عدة مناسبات طوال التاريخ . ومن الصواب بصفة عامة أن نقول إن البوذية لم تنتشر قط بقوة السلاح ، وأنها قد قاست فى بعض الأحيان من العجز عن التأثير بسبب روحها النبيلة الرقيقة . قد يكون ذلك عيباً ، لكنه قد يثبت من ناحية أخرى أنه ربما يكون فى المستقبل فى صف البوذية .

ليس الرجل البوذى رجل سلام بالمعنى السلبى ، فهو بموقفه الباطنى قوة فعالة لصنع السلام ، على نحو ما يثبت التاريخ الداخلى للبلاد البوذية . فقد ازدهرت البوذية فى أوقات السلام ، واستخدمت ـ باستمرار ـ فنون السلام بنجاح تام لخدمة أهدافها . وفن النحت البوذى ، والرسم ، والعمارة تقدم شهادة ناطقة على الأثر النبيل الرفيع الذى كان للبوذية على المجتمع البشرى . وفى التحليل النهائى نجد أن الأفق البوذى ـ شأنه شأن الأفق المسيحى، ليس محدوداً بالعالم الزمنى والمادى العابر الزائل ، فالسلام الذى أعلنه بوذا أو الداهما Dhamma ، وكذلك « السنغا » ، هو سلام عالم أزلى .

* * *

الفصل الحادى عشر

الصيـــــــــــن

تقف الصين وحدها وسط حضارات العالم العظيمة . فقد تطورت فى عزلة تامة تقريباً ، عن بقية الحضارات ؛ ولهذا كانت إنجازاتها فريدة ، وهذه الخاصية الفريدة جعلتها فى آن واحد ممتعة لمن يشاهدها ، محيرة لمن يحاول فهمها . أجل ؛ فقد تطورت الصين بنفسها وساعدتها على ذلك عزلتها الجغرافية عند النهاية الشرقية القصوى (فى الطرف الشرقى الأقصى) من العالم الأوربى الأسيوى القديم ، تحيط بها جبال وصحراء ولا تمر بها أية طرق للتجارة.

ويتكلم الصينيون لغة لا يربطها صلة بأية جماعة لغوية أخرى . وتكتب بخط اخترعوه لا يشبه غيره ، لكن لهذا الخط ميزة كبرى ؛ إذ تعبر رموزه فى الكتابة عن الأفكار لا الأصوات ، ولذا يمكن قراءته فى جميع أنحاء الصين بغض النظر عن « لهجة » المتكلم ، بل إن الكتب التى كتبت بهذا الخط قبل ألفى سنة يمكن قراءتها اليوم بسهولة ، وقد قامت اللغة وطريقة كتابتها بدور قوى فى إحساس الشعب ، لا بالوحدة والهوية فقط ، بل كذلك بالاستمرار والاتصال .

كان الشعب الصينى فى تراثه التقليدى يعتبر نفسه مركزاً للكون ، وكلمة شنج كيو Chung - Kuo وهى الاسم الصينى للصين ، تعنى حرفياً « مملكة الوسط » ، فقد عد الصينيون أنفسهم ، على نحو ما فعل الإغريق ، جزيرة من الثقافة وسط بحر من التوحش والهمجية – وظلوا لمدة طويلة ، على خلاف الإغريق وعلى نحو أشبه بالرومان ، يفهمون فنون الإدارة الحكومية على نطاق واسع ، وابتداء من الخدمة المدنية التى تقوم على أساس اختيار الكفاءة ، فإن البيروقرطية الصينية حافظت على الإمبراطورية ، فظلت سليمة لا تمس لمدة ألفين من السنين . ولقد ظلت خاصيتا : التفرد ، والاتصال ، اللتان يتميز بهما روح الشعب الصينى حيتين على نحو مذهل ، رغم أن هذه الإمبراطورية حل محلها فى البداية النظام الجمهورى « من ١٩١٢ حتى ١٩٤٩ » ، ثم النظام الشيوعى .

لقد كان للصين كذلك ، مثلها مثل الغرب ، عصر تشكل فى فلاسفة ، وفترات إمبراطورية ، وعصور نهضات ثقافية ، وإن كانت الحضارة الصينية تتعارض فى كل نقطة تقريباً مع التجربة الغربية . ومن حيث الأفكار الدينية والفلسفية ، بالإضافة إلى أمور أخرى كثيرة ، استوعبت التجربة الصينية مشاعر وتطلعات الجنس البشرى كله ، ولكنها عبرت عنها باستمرار بطريقة صينية خاصة .

١- ثلاثة ديانات رئيسية :

لعبت ثلاثة ديانات الدور الرئيسى على مدى ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الصينى ، وهذه الديانات هى : الكونفوشية ، والتاوية (الطاوية) والبوذية . أما الكونفوشية والتاوية فهما ديانتان قوميتان أصيلتان فى الصين ، وجدتا قبل دخول البوذية إليها من الهند بحوالى خمسمائة سنة . وحتى قبل ظهور الكونفوشية والتاوية كانت هناك ديانة أقدم (تفرغت عنها الكونفوشية والتاوية كل بطريقتها الخاصة) وسيطرت هذه الديانة القديمة على الصين لما يقرب من ألف سنة . وهكذا امتد تاريخ الدين فى الصين لأكثر من ألف عام ونصف الألف قبل أن تواجه أفكاره تحدى التراث الأجنبى .

وقد بقى هذا التراث القومى قوياً حتى بعد أن دخلت البوذية إلى الصين ، إذ ازداد طابعها الصينى ، وظهرت المدارس البوذية الصينية الخالصة . ولكن تأثير الفكر الهندى ، وتجربته الدينية على عقول الصينيين ، كان كذلك من القوة بحيث غير من الكونفوشية والتاوية ، اللتين عادتا إلى الظهور فى شكلين جديدين هما : الكونفوشية الجديدة ، والتاوية الجديدة ، اللذين لم يكونا سوى إعادة تشكيل للتراث القومى الأصلى حتى يواجه تحدى التراث الغريب الجديد .

فى حضارة كالحضارة الصينية التى استمرت هذا الأمد الطويل ، وظلت متماسكة على نحو لم تؤثر فيه ، نسبياً ، حضارات خارجية - كان لا بد أن تزدهر عبادات ونحل كثيرة ، وقد أدخلت إليها كذلك ديانات غريبة عليها ، ولا سيما الصور الغربية من الديانة المسيحية ، رغم أن دخولها إليها قد تأخر إذا ما قورنت بالبلاد الأخرى . ومع ذلك فإن الكونفوشية ، والتاوية ، والبوذية ، قامت على المدى البعيد بالأدوار الأساسية فى التجربة الدينية الصينية .

ومن المهم أن نذكر القارىء الغربى ، ونحن نتحدث عن الكونفوشية والتاوية بوصفهما ديانتين ، أنهما تمثلان عند العقل الصينى « شياو Chiao (أى تعاليم) » وأن هذه التعاليم ليست تعاليم دينية على سبيل الحصر ، أو التخصيص ، رغم أنها تتعلق بأمور كثيرة مما ننظر إليه نحن على أنه يخص الدين .

لقد نظر إلى كتابات مؤسسى الكونفوشية والتاوية على أنها جزء من التراث الثقافى الجامع للصينيين . أما فى حالة الكونفوشية فإن شريعتها المقدسة لا تتكون من مؤلفات مؤسسى الكونفوشية فحسب ، بل كذلك من الوثائق الدنيوية التى كانت موجودة قبل

كونفوشيوس وتشكل التراث الكلاسيكي للصين . لقد ظلت الشريعة الكونفوشية لألفين من السنين هى العصب الرئيسى لمنهج التربية والتعليم فى الصين ، وكان الإلمام بالشريعة على سبيل المثال ، هو أحد المتطلبات الرئيسية فى امتحانات الخدمة المدنية . وفى جزء كبير من تاريخ الصين اعتقد الصينيون أنفسهم أن الكونفوشية والتاوية (الطاوية) مظهران أصيلان للروح القومى ، لا مجرد أنواع من الإيمان الدينى الذى يدعو إلى الهداية ويتطلب الانتماء والالتزام الشخصى.

ومن ناحية أخرى ، ظهرت مع دخول البوذية فى بداية العهد المسيحى فكرة الدين بوصفه مؤسسة رسمية منتظمة – فطورت التاوية ـ كرد فعل عاجل على البوذية ـ مؤسسات من هذا القبيل ،كان لها على نحو ما كان للبوذية بالفعل نظام كهنوتى هرمى ، كما كانت لها معابد وأديرة وشريعة مقدسة ، وجذبت كل منهما مؤيديها بوصفهم المهتدين إلى الإيمان . ثم كانت هناك فترات فى تاريخ الصين أصبح فيها الولاء الطائفى الذى ظهر على هذا النحو حرجاً للغاية . وكان الأمر كذلك ـ بصفة خاصة ـ فى تلك الفترات النادرة التى اعتنق فيها أعضاء الأسرة الإمبراطورية الديانة البوذية أو التاوية . غير أن القصر الإمبراطورى والمؤسسة الحاكمة فى الصين ظلتا فى المقام الأول كونفوشيتين ، وتأصلت الكونفوشية ، بوصفها الفلسفة السائدة بين الطبقات المسئولة عن الإدارة ، فى المراسم والطقوس الرسمية وما تقدم الدولة من قرابين إمبراطورية . وبهذه الطريقة أصبحت جزءاً من الجهاز الحكومى ، بل أصبحت عقيدة الدولة . غير أن كلاً من الكونفوشية والتاوية ، كانتا فى الأصل ـ وببساطة ـ مذاهب فلسفية خالية من أى عنصر من عناصر العقيدة ، وتعتنقهما « مدارس » وأفراد ، ولم يشكلا مؤسسة ، ولا كان لهما طابع دينى خاص .

٢- عالم العرافة أو التنبؤ بالغيب :

يبدأ التاريخ المسجل للصين بأسرة شانغ Shang التى استمر حكمها من القرن السادس عشر حتى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، وكانت سجلاتها تتألف من مجموعة من العظام نقشت عليها نبؤات ، وتم اكتشافها قرب نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد حيث أصبحت منذ ذلك الحين المصدر الرئيسى لتاريخ أسرة « شانغ » . وكانت هذه العظام إجابات عن أسئلة قدمت إلى العرافين ، وقد تم إنقاذ مئات الألوف من شذراتها ، وكانت الأسئلة تحفر على عظام الحيوانات والقواقع والأصداف ، وتوجه إلى الأرواح طلباً للهداية والإرشاد ، وبعد

أن يحفر السؤال ، يقوم العراف بتسليط النار على ثقوب يحدثها فى العظم ، ثم يؤول ما ينتج عن الحرارة من تصدعات بأن الأرواح تجيب ببشائر خير أو نذير شؤم [١] ..

ونحن نحصل من طبيعة الأسئلة المطروحة على صورة لمجتمع ينظمه - فى كل جانب تقريباً ، من جوانب الحياة اليومية - التنبؤ بالغيب وتحكمه اعتبارات الحظ الحسن أو الفأل السيىء ، أما « القوى » التى يستشيرونها فى عملية التنبؤ بالغيب فهى أرواح الموتى من الملوك أو « تى Ti » ، وكذلك أرواح الأسلاف . ونحن نعرف أن هناك عنصراً جنسياً فى هذه العبادة ، وذلك من الآثار الباقية من أشكال الخطوط التى لا يزال من الممكن تمييزها. ولكننا نعرف أيضاً ، من الأسئلة التى تطرح حول آداب تقديم القرابين وتأدية الطقوس ، أن آلهة التلال والأنهار وغيرها من آلهة الطبيعة والأرواح الحارسة ، كانت تعبد إلى جانب أرواح الموتى . ولم يكن الموتى وحدهم هم الذين يسألون عن الهداية والإرشاد فى سائر السلوك ، بل كان يتوسل إلى قوتهم الداخلية (مانا Mana) حتى تكفل خصوبة الرجال والنساء والمحاصيل والحيوانات .

٣- الديانات القديمة :

لم تكن الأرواحية Animism [٢] (عبادة آلهة الطبيعة) ، وطقوس الخصوبة وعبادتها ولا سيما عبادة الأسلاف مجرد مظاهر لأقدم الممارسات الدينية الصينية التى حفظها التاريخ فحسب ، وإنما هى تتكرر فى صور منوعة ومختلفة فى « الديانة الشعبية » للعصور التالية.

وفى عام ٢٠٢٧ ق. م خلفت أسرة تشو Chou أسرة شانغ Shang ، وحكم القصر الملكى لأسرة تشو حتى عام ٧٧١ ق. م بوصفهم « الملوك - الكهنة » ، وظلوا يسيطرون سيطرة تامة على العالم الصينى . ولقد بقيت من هذه الحقبة مجموعة من الوثائق ، وعدد لا بأس به من النقوش على أوانى برونزية مقدسة ، وهى جميعاً تعطينا فكرة عن ديانة القصر

---

(١) كانوا يستخدمون صدف السلحفاة ، فيقوم العراف بإحداث ثقب فيها ، ويعرضها للحرارة فتظهر شروخ يفسرها العراف بأنها إجابة عن سؤاله ، قارن مثلاً حكمة الصين للأستاذ فؤاد شبل جـ ١ ص ٣٢ ، دار المعارف بمصر (المترجم) .

(٢) مصطلح عسير التعريب ؛ ولهذا يفضل د. أحمد أبو زيد أن يكتبه كما هو « الأنيمزم » ، انظر كتابه عن تايلور ص ١٠٠ ، وما بعدها من توابغ الفكر الغربى ، ويترجم أحياناً بالمذهب الحيوى ، وهو بعيد عن المعنى الدقيق الذى يشير إلى نظرة الإنسان إلى مظاهر الطبيعة من حوله بوصفها مليئة بالأرواح أو الأشباح أو الآلهة (المترجم) .

الملكى لأسرة تشو . والديانة الملكية لأسرة تشو تدعى لنفسها أهمية خاصة لا تتناسب مع أهميتها الحقيقية ؛ وذلك لأن كونفوشيوس نظر إلى هذه الحقبة على أنها العصر الذهبي. وقد استشهد ببعض وثائقها باعتبارها شواهد قديمة ، وبذلك ضمت إلى الشريعة الكونفوشية، وهكذا دخلت كثرة من عناصر ديانة « أسرة تشو » الملكية إلى العقيدة الكونفوشية .

كان ملوك الصين الأوائل ملوكاً وكهنة فى آن واحد ، وتعتمد سيادة الملك على أن السماء هى التى قلدته « مهام منصبه » . وعندما ثار « ون Wen » (وهو الذى لقبه ابنه بلقب الملك بعد وفاته) على أسرة شانغ تولى ابنه الملك « وو Wu » (١٠٢٧ – ١٠٢٥ ق. م) العرش وأسس أسرة تشو . وحكمت هذه الأسرة على نحو ما تؤكد وثائق عهدها، معتقدة أن رسالتها قد قضت بها السماء ؛ فالسماء هى التى أزاحت أسرة شانغ وأنهت تفويضهم بالحكم ، وهى التى كلفت أسرة تشو الملكية بتولى هذا المنصب الذى هو «تفويض من السماء » [١] .

وتعتقد أسرة « تشو » أن الإله الأعلى هو السلف الأعظم (شانغ – تى Chang - Ti) وهو لفظ مرادف لـ « تين Tien » (أى السماء) وتمسك السماء – أو هكذا كان الاعتقاد السائد – بيدها الكون بأسره (العالم الطبيعى وسكانه – وهو العالم المعروف للصينيين) ، وتقضى بتعاقب الفصول فى مواقيتها ، وتأمر بدورة الموت والتجدد ، وتكفل خصوبة الرجال والنساء والحيوانات والمحاصيل . غير أن السماء تمنح مسؤولية تنظيم الكون لوصيها على الأرض ، وهو « ابن السماء تين تزو (Tien - Tzu) . ولقد وقع الاختيار على أسرة تشو للقيام بهذا الدور كما تزعم . و« تنظيم الكون » مسألة لابد أن تكون مقبولة عند السماء (بى Pei) عن طريق الطقوس والشعائر ، ومن خلال تأدية هذه الطقوس التى تستحث وقائع النظام الطبيعى وتسلسله فى الكون وسط الجنس البشرى .

٤ـ دور الملك :

كانت السماء تبدى غضبها بأن تقلب الجو فى غير أوانه ، أو ترسل علامات أخرى خارقة كالصواعق (وهما اضطراب فى الدورة المنتظمة) ، وكذلك عن طريق الفشل فى

---

(١) أو هكذا شاءت السماء كما يقولون أحياناً (المترجم) .

الإخصاب (بأن يسحب الموتى الأقوياء قوتهم الداخلية أو المانا-Mana) لذلك كانت الوظائف الكهنوتية للملوك تعتمد على تقديم القرابين للملوك والأموات وإلى « شانغ – تى Shang - ti » الأكثر بعداً ، ومن ثم الأكثر قوة من بينهم . كما تعتمد على تقديم تقرير لله عن مسار الأحداث الدنيوية ، والانخراط فى طقوس إيمائية مثل حرث الأرض ، وبذر البذور ، أو الغزل الشعائرى لشرانق الحرير من شجرة التوت فى حالة مليكاتهم ؛ لكى تكفل الخصوبة ، ولتبدأ من جديد دورة الحياة وتجدد السنة .

وقد كانت عبارة « مقبول من السماء عن طريق الشعائر » (باى Pei) هى رخصة الملك إلى السيادة ، وهى التى تزوده بالنفوذ السياسى القوى الذى يلزم رعاياه بالولاء له . ويساعد الملك فى التأدية الصحيحة لواجباته الكهنة والمرتلون ؛ فهم خبراء فى أشكال الطقوس . ومن أهم واجباتهم المراقبات الفلكية التى يقون بها وتجعل إعداد التقويم ممكناً .

ويشهد على طبيعة الملك شبه الإلهية اختيار السماء له على أنه ابنها ، مما يعطى للملك سلطة سياسية على رعاياه الذين يكلفون بدورهم « بالمناصب » عن طريقه . وكما أن الملك يحكم بفضل « تفويض » السماء له ، فكذلك يفعل أمراء الإقطاع فى مملكته ؛ إذ تكون لهم سيادة محلية تحت إشراف الملك . وأمراء الإقطاع بدورهم وهم يفوضون الإقطاعيين التابعين لهم بالقيام بواجبات معينة . وهكذا نجد الهرم الإقطاعى كله لأسرة تشو الغربية يقوم من القمة إلى القاع على إرادة السماء .

والملك يحكم على نحو مباشر فى ملكه ، بينما يحكم الإقطاعيون بتفويض منه فى ولايات الأركان الأربعة ، ولكل إقطاعى داخل نطاق سيادته الحق فى العبادة واستحضار الأرواح الحارسة . و « الشؤون الكبرى للدولة هى التضحية والحرب » ، على نحو ما تقول القاعدة الدينية القديمة . ونحن نجد النبلاء ـ فى الديانة الملكية لأسرة تشو ـ هم : الكهنة والمحاربون فى الدولة .

٥ـ العبادة الملكية :

تقام العبادة الملكية فى معبد الأسلاف ـ وهو المبنى المركزى فى مجموعة مبانى القصر، أما متخوم القصر التى تواجهها الشمس صوب الجنوب . ويتم الاقتراب من البوابة الجنوبية ، فتفتح على فناء عظيم يقع فى الجانب الشمالى منه ضريح أسلاف أسرة « تشو »

وفى المؤخرة عبر بوابتين أخريين يوجد الفناء الرئيسى ، حيث يقوم فى جانبه الشمالى القصر الذى يقيم فيه الملك .

ويصف قائد مظفر ـ فى نقوش على آنية مقدسة ـ المراسم النموذجية التى شارك فيها ، وكانت فى جانب منها عبادة ، وفى الجانب الآخر حفلاً ملكياً ، فيقول : فى اليوم الأول وقبل الشروق يقوم الكهنة الكبار بتجهيز الملك فى قصره ، ثم يتقدم الملك إلى معبد الأسلاف ، ويقف أمراء الإقطاع العائدون من حملات عسكرية أمام البوابة الجنوبية ، ثم يدعون إلى الفناء الكبير حيث يعرضون أسراهم ، عندئذ يضحى بالأسرى كقرابين فى معبد الأسلاف ، ويتقدم المشاركون نحو الفناء الرئيسى حيث يتلى تقرير عن الحملة ، ثم يسير الملك من الفناء الرئيسى إلى المعبد لتقديم القرابين للأسلاف الملكيين . وفى اليوم التالى تعقد وليمة للرعايا المجتمعين من اللحوم والخمور التى سبق تقديمها مكافأة لهم من الملك .

ولقد حفظت لنا الطقوس التى كانت تؤى فى مثل هذه الخدمات الدينية فى أقدم قسم من « كتاب الأغانى » ، وهو مختارات من الشعر الصينى المبكر ، وهى ترنيمات لملوك أسرة تشو ، وبغض النظر عن أنها أقدم شعر فى اللغة الصينية ، فإن لها أهمية خاصة بوصفها أول تعبير أدبى للصينيين عن المشاعر الدينية .

وتتألف الترنيمات من تضرعات ،واعترافات موجهة إلى الأسلاف من الملوك وترتيل تتلى للآلهة عن أعمال البسالة . وقصائد أخرى تحتفى أمام الآلهة بحضور الإقطاعيين وأتباعهم أثناء الاحتفال وتأدية الطقوس . وهناك أغان ترحب بالأتباع وأغانٍ أخرى تعبر عن الإخلاص والولاء ينشدها هؤلاء الأتباع للملك . ومن ذلك كله تتألف طقوس العباة الملكية . ويبدأ الشعر فى الصين بإنشاد هذه الطقوس الدينية ، ولقد نشأت المحاولات الأولى لعلم العروض من فقرات نثرية وضعت لتتلاءم مع دقات الآلات وإيماءات الرقص فى طقوس المعبد .

ويمكن أن نكوّن فكرة عن المشاعر الدينية التى تنطوى عليها طقوس المعبد من المقتطفات التالية :

« بهدوء جليل ، وانسجام مهيب
يسجل الوزراء والفرسان الحاضرون
فضائل سيدهم المنشىء
المتكفل بنا من قبل السماء
الملك العظيم ون .. Wen

آه يامولاى ! لعلك تجد وأنت فى جلالك العظيم
فى العمــل المتــزن ، والكلمة المهذبــة
مــديحاً لا يغـضـبك من بشـرٍ فـانين
جليـــل ولا حــد لجــــلاله
هــو تكليــف السـمــاء .
فـضــيلتك أيهــا الملك الشــهـيـر ون
تهـبــط لتــغــمــر بالبــركـــة
خـــدمـــاً علـــى الأرض .
ليس علينا إلا أن نتلقى عطفك وإحســانك
فليحـفظــهـا من يأتـــون بعــدنــا
إننا نأتى ، بتــواضع ، بما لدينا من قــرابين
مـن ثـيـــران وخــــراف
فلتــتـــبـــع منهـــا
عــنــايـــة الســـمـــاء
ورضــــا المــلـــك
ليكن علينا على الدوام أن نخشى غضب السماء
حــتى نصـــون عطــف الملــك
ونحــافظ على طريقنا المســتـقــيم
ينبـغى علينا ، لكى نجلب السـلام على الأرض
أن نـطيـع أوامــــر الملـك ون Wen
وأن نثـــق فى تشـــريعـــاتــــه
وسوف يراقبنا من بعيد ، ويشملنا بالتشجيع والتأييد
ثيــابـــه من الحـــريــــر البــراق
وقـبـعـتـه مـرصـعـة بالأحـجـار الكريمة
خـمـره مـعـتـقـة للغاية لكنهـا لا تسكر
فى تواضع جليل يمشى هوناً وبلا صـــوت !
وســط الركـــائـــز المقـــدســــة .

والقـــرون الخـــاصـــة بالشـــراب .!
يمشى من القـــاعـــة إلى العـــتـــبـــة
بخطـــوات مـــحـــســـوبـــة
ويمنح عفـوه فى النهاية للمسيئين » .

ولقد أمدت توجيهات ملوك أسرة تشو ، وترنيمات كهنتهم الدينية أثناء تأدية الطقوس- أمدت كونفوشيوس « بوثائق الماضى العتيق » كما أيدت أفكاره السياسية والدينية بسلطات قديمة . فأصبحت أفكار معينة من الديانة الملكية لأسرة تشو ، معتقدات دينية أساسية عند كونفوشيوس ، وفى الدولة الكونفوشية التى جاءت بعد ذلك . ومن هذه الأفكار الأساسية فكرة « الموجود الأسمى » (تشاغ - تى Shang - Ti) أو « الله فى الأعالى ») وفكرة الملك الذى تقلده السماء نائباً أو مفوضاً عنها (تكليف السماء) ، وفكرة أن السماء تسحب تفويضها من الأشرار وتوافق على خلع الأسرة الحاكمة عندما تنضب فضائلها ، وتبرر إحلال أسرة أخرى محلها بأنها « مقبولة من السماء » .

ولقد أدت مركزية الأسلاف من الملوك فى مجتمع الآلهة الملكى ، كما أدت عبادتهم وتقديم القرابين إليهم فى الديانة الملكية - إلى مركزية الأسلاف فى الممارسات الدينية التالية، كذلك أصبح إجلال الأموات الأقوياء ، والتضرع « للمانا Mana » عندهم من أجل الإبقاء على حياة العشيرة ، جزءاً من العادات الاجتماعية للصينيين ، كما أصبح ولاء الأبناء للأسرة أحد تعاليم كونفوشيوس المركزية .

وقد أضفى كونفوشيوس الوازع الأخلاقى على الكثير من الممارسات الدينية المبكرة ، لكنها ترجع إلى عصر ما قبل الأخلاق (كما يذكرنا قدر كبير من القرابين البشرية التى ذكرناها فيما سبق) فلم يكن الباعث الذى يحرك الأفكار الدينية أخلاقياً ، سواء كان خيراً أم شراً ، وإنما كان هو التحكم فى القوى عن طريق الشعائر ، لضمان حسن الطالع ولتجنب الحظ السيىء ، وللتضرع للقوة الجامعة للأموات الراحلين .

وبينما انشغل الملوك والأرستقراطيون « بالحرب والتضحية » وتأدية وظائفهم الكهنوتية فى الديانة الملكية ، فإن الإيمان فى الريف - كما تدل على ذلك إشارات من القصائد الأخيرة فى كتاب الأغانى - اتخذ شكل طقوس الإخصاب ، فكانت جموع الناس فى

الربيع والخريف تتضرع إلى « مانا » Mana الميت لتخصيب أرضهم وحيواناتهم ، بل وإخصابهم هم أنفسهم .

٦ـ الديانة الأرستقراطية :

في عام (٧٧١ ق. م) ، نقل ملوك أسرة تشو الغربية عاصمتهم إلى الشرق ، ومع تغيير العاصمة جاء انهيار قوتهم ونفوذهم ؛ إذ انتقلت القوة السياسية الحقيقية في مقابل القوة الشرقية ، إلى أمراء دولة المدينة . ثم أكد حكام دولة المدينة استقلالهم شيئاً فشيئاً بعد أن كانوا في الأصل حكاماً إقطاعيين تابعين للبيت الملكي في أسرة « تشو » . ومع نمو الاستقلال اتخذوا لأنفسهم ، على نحو متزايد ، بعض الامتيازات الملكية ، ومنها : الوظائف الكهنوتية التي كان يتقلدها الملوك القدامى ، وترأسوا الطقوس الدينية التي كانت تقام للتربة والمحاصيل (أعني عبادة آلهة الخصب المحلية التي استمتع الأمراء بالسيطرة عليها) ، وأكدّوا عبادة الأسلاف في هياكل الأسرة . وبذلك وضعوا أيديهم على رموز السلطة في دول المدينة ورد أمراء الإقطاع نسبهم إلى أبطال الماضي الذين يعبـدون محلياً . وهكذا أصبح « هو – تش » أمير ميلت Millet هو الجد الأكبر المزعوم لعشرة تشي Chi ، وصار « يو العظيم » بطل الطوفان الزوال ، هو الجد المزعوم لأسرة تسو Szu . وبهـذه الطريقـة دخل عدد من أبطال الزراعة– الذين كانوا حتى الآن محليين ومجهولين في الديانة الملكية لأسرة تشو الغربية دخلوا مجمع الآلهة الصيني . ثم اخترع المؤرخون فيما بعد أساساً تاريخياً لأبطال العبادة هؤلاء ، ورتبوهم في تسلسل تاريخي . ولقد حدث ذلك في الحقبة العظيمة للكتابة التـاريخيـة من القـرن الثـاني إلى القـرن الأول ق. م . وهكذا دخـــل « الأباطـرة الأسطوريـــون » بتواريخهم « الخيالية » التاريخ الصيني ، وأرجعوه إلى الوراء عدة آلاف من السنين ، وأصبح لهؤلاء الأباطرة أهمية كبرى في العبادة ، ولاسيما عند أسرة هان Han وأخذوا يظهرون كشخصيات لامعة في « العبادات المحلية » والديانة الشعبية لذلك العصر . والواقع أنه ليست هناك سوى دلائل قليلة من الفترة السابقة لأسرة « شانغ » على وجود أية شخصية من الشخصيات التاريخية التي حكمت الصين .

وهكذا استطاع أمراء دول ـ المدينة ، من خلال استحواذهم على الخدمة الدينية المحلية، وحقهم في القيام على خدمة آلهة الخصب ، مع سهولة وصولهم إلى « مانا » أسلافهم المقدسين ـ استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم السياسية على رعاياهم .

ولقد حافظت دول – المدن على السجلات التى بقى واحد منها كاملاً ، فى حين بقيت شذرات متفرقات من بعضها الآخر . وتزودنا « حوليات الربيع والخريف Ch'un Ch'ui [١] لمملكة « لو Lu » والشروح التى قامت عليها بالمصدر الرئيسى للأفكار الدينية التى كانت سائدة فى تلك الحقبة . وتحتوى السجلات نفسها على رءوس موضوعات فى عبارات موجزة تسجل أموراً خاصة بالأسرة المالكة : كحالات الزواج ، والموت فى البيت الملكى ، والمعاهدات والاتفاقات التى عقدت بين « لو » والولايات الأخرى ، والأحداث المشؤومة (كالطقس فى غير أوانه ، أو ظهور مواليد مشوهة ، وماشابه ذلك) ، ومراقبة الكسوف والخسوف والشهب . وكان لهذه السجلات غرض شعائرى هو أن تحفظ وتدون ما يتعلق بالأسرة الحاكمة . ولقد حكمت تقاليد الشعائر عبارات التدوين التى صُنِّفت على أساسها . ويذكر كونفوشيوس بكل الإكبار أنه كان له الفضل فى جمع « حوليات الربيع والخريف » حتى أن الحوليات أدخلت فى كتب الشريعة المقدسة لكونفوشيوس [٢] وأصبح التفسير السرى لها – الذى كتب فى أسرة هان – جزءاً من التعاليم الكونفوشية .

٧ ـ شامانية الجنوب :

تختص جميع المصادر التى بين أيدينا عن أسرة تشو فى الشرق ، تقريباً ، بديانة أمراء دولة المدينة ، وبديانة الطبقات الأرستقراطية ؛ فنحن فى هذه الفترة لا نعرف إلا القليل عن الديانة الشعبية . لكن من ولاية تشو Ch'u التى أصبحت منذ القرن الرابع قبل الميلاد تسيطر على الجزء العلوى من نهر يانغ تسى وضمت أجزاء تعرف الآن باسم أنهوى Anhwei وهونان Honan وهيونان Hunan وهيبه Hupeh وستشوان Szechuon ـ بقى لنا مجموعة من أغانى الشامان كجزء من « مرثيات تشو » ، وهى « الأغانى التسع » المعروفة بترنيمات الشامان .

---

(١) حوليات الربيع والخريف : كتاب جمعه كونفوشيوس من محفوظات مملكة « لو » وسجل فيه تسجيلاً موجزاً خالياً من التنسيق ما وقع من الأحداث فى هذه الولاية أو مملكة « لو » وهى مسقط رأسه ، ولما كانت نصوص الحوليات مختصرة وغامضة ، دأب الكتاب الصينيون على شرحها وتفسيرها والتعليق عليها (المترجم) .

(٢) ترك كونفوشيوس وراءه خمسة مجلدات كتبهـا أو أعدهـا للنشر أصبحت تعرف فى الصين باسم (الجنجات الخمسة) أو كتب القانون الخمسة ، وكان من بينها هذه الحوليات (المترجم) .

وتختلف الممارسات الدينية الموصوفة هنا تمام الاختلاف عن الشعائر الدينية للأمراء فى دول المدينة ؛ فالآلهة التى يتضرعون إليها من آلهة المناطق المحلية فى كيو Ch'u هى آلهات الجبال والأنهار والأبطال المحليين . ويغتسل الشامان - سواء الرجال منهم أو النساء - طبقاً للشعائر ، ويتعطرون ، ويرتدون ثياباً رائعة الجمال ، ويغنون ، ويرقصون على أنغام الموسيقى وهم يؤدون طقوس الغزل ، ويدعون الآلهة للنزول والاشتراك فى معاشرات شهوانية . وعندما تنصرف الآلهة يبدأون فى النواح حزناً لفراقهم . أما الطقوس المعروضة فى « الأغانى التسعة» وهى تعد أغانى همجية من وجهة نظر كونفوشية لما فيها من جنس وروعة وحزن - فقد أنتجت شعراً رفيع المستوى ، وهاك مثالاً منه : -

« بدأت أخرج من الشرق مندفعاً ،
وأشرق « فو - سانغ » على عتبتى ،
وبينما كنت ألح على خيلى لتحث الخطى ،
سطع ليل السماء ، ولاح ضوء النهار .
وركبت عربة التنين ، وقدت المركبة وسط الرعد ،
بينما كانت رايات السحب ترفرف فوق الريح ،
أطلقت تنهيدة طويلة عندما بدأت الصعود ،
كارهاً الرحيل ، متطلعاً بشغف إلى العودة ،
فللجمال والموسيقى سحر خاص ،
يجعل المشاهد المستمع ينسى أن عليه أن يمضى .
شد أوتار القانون ثم اتركها تتآلف مع النغم
اقرع الأجراس حتى تترنح المنصة التى تحملها !
ولتعزف الناى ! ولتنفخ فى أنابيب المصفار (١)
انظر إلى الكاهنات : كم هن ماهرات فاتنات !
يدرن بخفة ، وينخفضن ويرتفعن كالطير أثناء طيرانه !
ينشدون بالأغنيات ، فى حينها ، للراقص !
وطبقات الصوت مع النقرات فى انسجام تام !

---

(١) المصفار : آلة موسيقية بدائية تتألف من سلسلة من الأنابيب المتدرجة فى طولها (المترجم) .

وتهبط الأرواح لتحجب الشمس
في سترتي الداكنة كالسحاب ، وتنورتي المزركشة كقوس قزح
أحلق عالياً في السماء قابضاً على قوسي .
صوبت سهمي الطويل وأطلقته على ذئب السماء .
وأمسكت بالمغرفة لأغرف خمراً بلون القرفة !
ثم قبضت على العنان ، وهبطت مسرعاً إلى موضعي
عائداً إلي الشرق بعد رحلة ، في ليلة مظلمة » .

ويبدو أن البلاط في « تشو Ch'u » كان ينعم بهذه الممارسات الدينية . ومن المحتمل أن يكون السر في بقاء الأغاني التسع أنها خلبت لب البلاط بهذه المشاهد الدينية . ولكن يكمن خلفها عقيدة شامانية لم تحصر نفسها في الجنوب . وإنما انتشرت كديانة شعبية بين الناس داخل دول المدينة . ولقد لعب الشامان دور طاردى الأرواح الشريرة ، ودور الأنبياء والعرافين أو قارئي (البخت) ، ومفسرى الأحلام ، كما كانوا أيضا الأطباء الذين يعالجون الأمراض .

وتوحى الإشارات المتفرقة عن الشامانيين في آداب تلك الفترة أنهم كانوا متواجدين في كل مكان . وفي الاقتراحات التي قدمت من أجل الأعداد لاستعمار جديد في القرن الأول قبل الميلاد ، على سبيل المثال : كان على المستعمرين الجدد أن يتزودوا بالأطباء وبالشامانيين للعناية بهم في مرضهم ، لمواصلة تقديم تضحياتهم » مفترضين أن العرف قد جرى على أن يكون « الشامان » عضواً من أعضاء مجتمع القرية . وتشير عبارة « أسرة الشامان » إلى أن مهنة الشامان كانت وراثية . لكن مع ظهور الكونفوشية ظهرت آراء متحيزة ضد الشامان ، بدأت بقول كونفوشيوس « إن الأرواح ينبغي احترامها ، وإن كان ينبغي أيضاً إبقاؤها بعيدة عنا » . ولما كان الجانب الأكبر من الأدب في أيدى الكونفوشيين ، فقد ازداد تحفظه تجاه الشامانية .

٨- عصر الفلاسفة :

لقد تم وضع البذور الدينية لكل من الكونفوشية والتاوية خلال عصر الفلسفة . فمن القرن السادس حتى القرن الثالث قبل الميلاد في دول المدينة الواقعة في السهل الرئيسي في

الشمال ، نعمت الصين بفترة غير عادية من ازدهار العقل البشرى ، وكثر عدد الفلاسفة وأخذوا ينتقلون من بلاط إلى بلاط يجمعون الأتباع حولهم ، ويشرحون نظرياتهم ، ويطرحونها للنقاش فى حوار علنى ، وكل منهم يسعى للعثور على أمير « يضع طريقهم (أى فلسفتهم) موضع التطبيق العملى » ولقد وصفهم « تسو ماشين Szu ma - chien » (ازدهر من سنة ١٤٥ - ٩٠ ق. م) الملقب بأبى التاريخ الصينى - وصفهم بأنهم «المدارس المائة » ، ومن هذه المدارس المائة خرجت مدرستا الكونفوشية والتاوية اللتان أقيمت عليهما تعاليم الفلسفتين والديانتين الكونفوشية والتاوية فى القرون التالية .

غير أن الفكر يعتمد على البيئة التى ينشأ فيها ، إذ لم يتوقف تنازل ابن السماء حاكم الصين الموحدة عن السلطة إلى أمراء الصين المقسمة إلى إمارات مستقلة عند هذا الحد ، وإنما انتقلت السلطة داخل دول - المدينة نفسها من الأمراء إلى الأوليجاركيين ، وهم جماعات النبلاء الأقوياء ، ومن الأوليجاركيين وعلى الأقل فى حالة واحدة إلى دكتاتور من الرعاع . ولقد أبرز ذلك من وجهة نظر دينية المشكلات الخاصة بإقرار السماء للسلطة السياسية ، وحقوق رعاية الخدمات الدينية .

ثم أضيفت أيضاً مشكلة التغير الاجتماعى والاقتصادى إلى الوضع السياسى المتدهور لحكام دول المدينة ؛ إذ كان المجتمع الصينى فى حالة تغير . والمؤرخ الاقتصادى يلاحظ - بغير شك - أن كثيراً من التواريخ الأساسية عنده هى تواريخ لأحداث وقعت فى القرن السابع ق. م حيث عرف الحديد وسكت النقود ، وهناك أسطورة تشير إلى وجود مدينة لسك النقود - كما ظهرت فى دول المدينة جماعات من التجار منظمة تنظيماً يكفى لجعلهم قادرين على التفاوض مع أمرائهم بشأن الأوضاع والعمليات التجارية . كما ذكر شىء فى هذا السياق أيضاً عن احتكار الدولة لصناعة الملح وتوزيعه ، وكذلك عن تحكم الدولة فى سوق السمك .

وباختصار : برزت فجأة ضغوط قوية للتعقيدات المربكة للإنتاج المتخصص وللتجارة بين المناطق ، وأسس يقوم عليها الاقتصاد مختلفة عن اقتصاد تخزين السلع الكمالية المؤدى إلى تراكم الثروة ، واشتدت هذه الضغوط على المجتمعات ذات الاقتصاد الزراعى البسيط التى تكفى نفسها بنفسها محلياً ، والتى لم يكن لها التزامات خارجية سوى إرسال الجزية إلى الحاكم الأعلى ، وقد أدت هذه التغيرات فى مجال الاقتصاد إلى اضطرابات عميقة الجذور فى التوازن الاجتماعى ، كما أدى التغير الاجتماعى إلى قلاقل سياسية . وهكذا توجهت

الفلسفة الصينية فى المقام الأول إلى دول - المدينة الناشئة ومشكلات الحكم التى اقترنت بها. وازدادت كذلك الحركة الاجتماعية بين الطبقة الارستقراطية ؛ إذ انقلب بعض الارستقراطيين إلى مرتزقة ووضعوا أنفسهم فى خدمة من يحميهم .

وأصبح آخرون تجاراً انخرطوا فى مهنة التجارة بين الولايات (والكلمة الدالة على التجارة هى « شانغ Shang » وربما جاءت من استقرار ذرية حكام أسرة شانغ فى ولاية «سونغ Sung » . وآخرون أجروا أنفسهم ليعملوا مؤدبين لأبناء الأسر النبيلة ، أو قاموا بفتح مدارس .

وقد أطلقوا على أنفسهم لقب « جو Ju » أى « المهذب » أو « الطيع الوديع » وراحوا يعلمون الناس : فنون الحياة فى دولة المدينة ، والمراسم ، والطقوس ، والقراءة والكتابة ، مستخدمين مقتطفات أدبية مختارة من الأغانى الشعبية ، وأغانى البلاط ووثائق الدولة التى اعتمدوا عليها جميعاً لتكون بمثابة كتب مدرسية . وشكل تلاميذهم « حلقة » تحولت فيما بعد إلى أتباع أو أنصار ، وسرعان ما ظهرت بينهم مدارس متميزة ، وشخصيات رائدة ، وبدأوا ينتشرون فى دول - المدينة ، ويقدمون للأمراء نظرياتهم عن الحكومة وخدمات تلاميذهم . ومع حلول القرن الرابع قبل الميلاد ، أصبح الفيلسوف « المشاء » شخصية مألوفة فى بلاط الأمراء والحكام ، ونظم بعض الحكام لهؤلاء الفلاسفة مناظرات علنية ، وبذلك أمكن مناقشة النظريات المتنافسة وعرضها على الملأ . وأنشأ أحد الحكام ـ وهو ملك تشى Chi ـ أكاديمية حاضر فيها أئمة الفلاسفة فى هذا الوقت ، وكانت هذه الأكاديمية بشيراً بأكاديميات العصر الإمبراطورى - وهى الجد المباشر للجامعة الصينية الحديثة .

وهكذا واكب عصر الفلاسفة فترة معقدة مركبة من التغير والتجديد ؛ فالقوى الاجتماعية والاقتصادية كانت تسير فى اتجاهات خاطئة ، ولم تفهم طبيعتها فى ذلك الوقت إلا على نحو غامض . ولكنها طرحت مشكلات لم يكن من الممكن الإجابة عليها إلا بعد فترة طويلة من التفكير والتأمل النظرى . غير أنه كان يعتقد باستمرار أن المشكلة ذات طبيعة سياسية وهى : كيف يمكن استعادة النظام والتوازن فى دولة المدينة ، ذلك التوازن الذى لا يزال حياً فى الذاكرة ، لكنه تحطم بفعل الأحداث الحديثة ؟ !

وأكثر ما يهم دارس الدين من بين مدارس العصر الفلسفى هى مدرسة كونفوشيوس وخليفته فى الكونفوشية ، وهما منشيوس Mencius وهسون تسو Hsun - Tziu ، ومدرسة المتصوفة ، شواغ تسو Chuang Tzu ، ولاوتسو Lao - Tzu ؛ ذلك لأن الكونفوشية

والتاوية ارتفعتا فوق صراعات المدارس المائة وأورثتا الإمبراطورية الصينية فلسفتهما الرئيسيتين والأصليتين .

٩ـ كونفوشيوس :

الكونفوشية هي أقدم المدارس الكثيرة التي تتألف منها المدارس المائة ، وكان مؤسسها، كونفوشيوس ، هو الفيلسوف الصيني الأول . ولد عام « ٥٥١ قبل الميلاد » في دولة المدينة في مملكة « لو Lu » ، ومات فيها عام ٤٧٩ ق. م ، واسمه هو الصورة اللاتينية لـ « كونغ فو – تسو K'ung fu - Tzu » الصينية التي تعني « المعلم كونغ » وهو ينحدر من أسرة أرستقراطية ، وبوصفه مؤدباً لأبناء الطبقة الأرستقراطية في المدينة ، فقد علمهم فنون الحياة في دولة المدينة ، ودراسة كتاب « الوثائق التاريخية » وهو مجموعة من السجلات التي تتعلق أساساً بأسره تشو الغربية ، وإن لم تكن مقصورة عليهم ، و « كتاب الأغاني » الذي يحتوي، ضمن أشياء أخرى ـ على ترانيم شعائرية لملوك أسرة تشو الأول . وهكذا غرس في تلاميذه ذوي الأصل الأميري مذهب أسرة تشو في الديانة الملكية .

غير أن كونفوشيوس لم ينظر إلى هذه الوثائق على أنها إنجيل الديانة الملكية ـ رغم أن الكثير منها يتعلق بالدين ويزودنا بالسوابق القيمة لممارسة الدين عند الحكام وإنما ينظر إليها كبقايا للعصر الذهبي . ولقد كانت استعادة القيم والممارسات المعروفة في هذا العصر هي في رأي كونفوشيوس الإجابة السياسية على مشكلات دولة المدينة ، وعنده أن أبطال هذا العصر الذهبي هم ملوكه المؤسسون « ون ، وو Wen & Wu » ، ودوق تشو – الوصي على « تشي نغ Ch'eng » ابن الملك « وو ». وكانت القاعدة السياسية التي سار عليها كونفوشيوس هي استرجاع سياسات ملوك أسرة تشو الأول . ولقد استند كونفوشيوس ، بوصفه فيلسوفاً إلى نصوص « كتاب الأغاني » وكتاب الوثائق التاريخية ولجأ إليها باعتبارها سلطته المرجعية ، وكان منهجه كتابياً « أشبه بمنهج الكتاب المقدس » ، وكانت رؤيته كمنظر سياسي ، رؤية محافظة ، أما برنامجه فهو استعادة التراث المبكر والمحافظة عليه ، وهو يعلن أنه إنما « ينقل ما تعلمه دون أن يخترع من عنده شيئاً » (المختارات رقم ٧ ، ١) .

١٠ـ نظام أخلاقي واجتماعي :

وباستخدام هذه الوثائق التاريخية ككتب مقدسة ، وتأويل لغتها العتيقة تأويلاً معاصراً أنشأ

كونفوشيوس مذهباً أخلاقياً واجتماعياً من كتابات تتعلق بالعرافة ويسيطر عليها السحر واللا أخلاقية . وهكذا نجد « تى Te » القوة السحرية ، ومانا Mana (القوة الداخلية) عند القدماء تصبحان فضيلة بالمعنى الأخلاقى والاجتماعي . وتصبح القوة التى تمارسها «المانا » هي قوة المثال التى رأى كونفوشيوس أنها قادرة على تحويل « الخير » إلى قوة لا يمكن مقاومتها وصار أمير النصوص القديمة « تشن شو Chun Tzu » عند كونفوشيوس هو «الأمير الحقيقى » وهو الرجل المهذب على نحو ما ينبغى أن يكون عليه الرجل المهذب، كما صارت جين Jen التى تدل على صفات أعضاء القبيلة ذوى المستوى الرفيع ، عند كونفوشيوس صفة عالية للخير لا يصل إليها إلا حكماء الماضى وحدهم .

ولقد كانت عبقرية كونفوشيوس هى التى قلبت الكثير من مفردات لغة الديانة البدائية إلى مفردات أخلاقية ، وحولت تلك الديانة إلى نظام أخلاقى وذلك مع انتقال المجتمع مع الاهتمام بالفأل الحسن والسيء ، إلى الاهتمام بالصواب والخطأ . ولما كان كونفوشيوس قد أنشأ نظاماً أخلاقياً جديداً فقد ظل يؤثر فى الصين ، كما ظل موضوع إجلالهم واحترامهم لألفين من السنين ، وإن كان إخلاص أتباعه له قد جعلهم يخلعون عليه شرف النجاح العالمى باعتباره رجل دولة ودبلوماسى حتى مجدوه ونادوا به « ملكاً لم يتوج قط » أما كونفوشيوس التاريخى – فى مقابل كونفوشيوس الذى قدمته الأساطير وولاء الطلاب – فكان فى الحقيقة معلماً جوالاً محبطاً ، يئس من أن يضع حاكم مدينته تعاليمه موضع التنفيذ ؛ فارتحل إلى ولايات مجاورة لم يجد فيها إلا نفس الإهمال والاستقبال العدائى . ولم يعترف بفضله فى أيامه إلى حلقة صغيرة من الأتباع والمريدين ، وكان لابد من مضى قرون قبل أن تسود تعاليمه ، ومات وهو يشعر بالإحباط .

١١- المختارات :

جمعت تعاليم كونفوشيوس فى كتابٍ عنوانه « المختارات » (Lun - Yu) وهى تشتمل على عشرين كتاباً (أى فصلاً) ، يتألف كل منها من مجموعة من الجمل أو الفقرات من أقوال المعلم التى سجلها تلاميذه . ومن المرجح أن يكون تاريخ بعض أجزاء المختارات سابقاً على وجود كونفوشيوس ، لكن هذه مشكلات لا تهم إلا المختصين ، كما هى الحال مع الكتابات الدينية المقدسة بصفة عامة . أما الرجل الكونفوشى العادى فإن «المختارات » عنده هى أقوال كونفوشيوس ، وهى من هذه الناحية تشكل جزءاً من الشريعة

الكونفوشية المقدسة ، ولقد أضيفت إلى « المختارات » على نحو ما ظلت تدرس قرناً بعد قرن شروح للتوضيح وتوسعات فى التأويل . ثم وجد الكونفوشيون المتأخرون أفكار كونفوشيوس الأصلية على النحو التالى :

هناك طريق على الأمير أن يتبعه وهو « طريق الملوك السابقين » . ولما كان الملوك السابقون ـ فى نظر كونفوشيوس ـ قد سلكوا فى حكمهم وفق ما أمرت به السماء ، فقد قدموا نماذج تحتذيها الأجيال القادمة ، وقد فعلوا ذلك لأنهم كانوا مهذبين « Jen. » وكلمة « جين » كانت تدل فى الأصل على عضو من أعضاء العشيرة رفيع المستوى (قارن كلمة gens اللاتينية) ، وهى عند كونفوشيوس تعنى أن تكون خيراً إلى أقصى حد وبأوسع معنى ممكن للكلمة . ومن ثم كانت صفات مثل « انعدام الأنانية » ، واحترام الآخرين ، والأدب ، والولاء للأسرة ، والإخلاص للأمير ـ كلها صفات الرجل « الجين ». فالرجل المهذب الخير (الجين) لا يتذمر ولا يشكو وقت المحن ، وهو جرىء واضح فى مسألة الحق . لكن هذه كلها مجرد جوانب « للجين » ، فعند كونفوشيوس أن « الجين » نفسه هو نموذج متعال لم يبلغه سوى حكماء الماضى . إنه كيان صوفى وهو الصفة الجوهرية للقداسة .

١٢ـ الفضيلة :

إذا كانت « الجين Jen » هى صفة القداسة ، فإن تى Te هى القوة التى تبلغ بها هذه القداسة : فالفضيلة ليست مضادة للرذيلة ، وإنما هى ، بالأحرى ، فضيلة باطنية ملازمة ـ هى قوة شىء ما أو فاعليته ، وهى بهذا المفهوم أقرب إلى المعنى الذى يقصده كونفوشيوس . وهكذا يكون على الأمراء أن يحكموا عن طريق الفضيلة ، التى هى مركز رفيع تجاوز قوته كثيراً القوة البدنية أو القهر . والشخص الخير يمارس الفضيلة فيتحول الآخرون إلى الخير ، والإنسان الذى يسعى لأن يكون « جين » بتهذيب قوته Te ، يبلغ المثل الأعلى للأمير ، وهذا المثل الأعلى الأميرى وهو « تشن – تزو Chun - Tzu (حرفياً : الأمير) يصبح فى تعاليم كونفوشيوس تجسيداً للمثل العليا للسلوك البشرى . إنه الإنسان فى أحسن أحواله ، الإنسان كما ينبغى أن يكون ، وهذا الإنسان الأعلى « تشن – تزو » تحكم « لى Li » (الشعائر) سلوكه كله . وكلمة « لى Li » ـ تعنى طقوس الديانة المبكرة – أصبحت عند كونفوشيوس شريعة كاملة للسلوك المهذب ؛ فهى تتحكم فى ارتداء الثياب ،

وفى المراعاة الدقيقة للآداب الاجتماعية والأخلاق الحسنة ، بصفة عامة ، بل فى التصرفات والإيماءات والإشارات بحيث يضاف المظهر الخارجى الملائم إلى السلوك الأخلاقى . وتحت سطح التأكيدات الكونفشية لدقائق الحياة اليومية يكمن الاعتقاد القديم القائل بأن للطقوس نفسها قوتها السحرية .

ويهتم كونفوشيوس فى حديثه عن الخير ، وتهذيب القوة التى تولده ، وأداء الإيماءات والإشارات المناسبة التى هى علامته الخارجية - يهتم بالأخلاق الشخصية والأخلاق الاجتماعية ؛ لأن هذا هو الطريق إلى الإنسان المهذب الحقيقى أو المثل الأعلى عند كونفوشيوس ، وتلك هى إضافة كونفوشيوس نفسه المتميزة للديانة القديمة ؛ إذ أضفى على الدين مضموناً أخلاقياً .

ويبدو أن كونفشيوس - أثناء انشغاله بالسلوك الشخصى ، وبالواجب الشخصى قد أوحى بأنه لا يهتم إلا قليلاً بعالم الأرواح وعالم ما فوق الطبيعة : « لم يتحدث المعلم عن مشيئة السماء ، أو عن معجزات الطبيعة أو اضطراباتها » (المختارات ٧ : ٢٠) « ولم يتحدث عن الأرواح (المختارات ١١ : ٢) ، لكن المسألة هنا مسألة تشديد فى الاهتمام ، فكيف يمكنك أن تخدم الأرواح خدمة صحيحة قبل أن تؤدى هذه الخدمة إلى الأحياء من البشر ؟! » بذلك رد كونفوشيوس على سؤال وجه إليه عن أهمية الطقوس الدينية باختصار : إن خدمة الإله تصبح لا معنى لها إذا أهملت خدمة الناس . من هنا انصب اهتمام كونفوشيوس الأساسى على مشكلات الإنسان الأخلاقية والاجتماعية فى علاقته برفاقه من البشر ، وذلك هو جوهر تعاليمه .

١٣- ولاء الأبناء :

الولاء البنوى هو أحد تعاليم كونفوشيوس الأخرى ، وقد اكتسبت أهمية كبرى عند بعض مدارس الكونفوشية . وهو باللغة الصينية « هسياو Hsiao » التى تعنى أصلاً : الولاء للآباء الموتى وللأسلاف ، والواجبات التى ينبغى أن تؤدى لهم كتقديم القرابين ، والطعام . أما بالنسبة لكونفوشيوس الذى كان يشدد على تأدية الواجب للأحياء ، فقد أصبح الولاء البنوى يعنى « خدمة الوالدين أثناء حياتهما » ، ومن ثم اكتملت العلاقات الخمسة لتعاليم كونفوشيوس ، وهى علاقة الأمير بالرعية ، وعلاقة الابن بأبيه ، والأخ الأكبر بأخيه الأصغر وعلاقة الزوج بزوجته ، وعلاقة الصديق بصديقه ، واحترام الصغير للكبير ، والحب والمودة

المتبادلين من جانب الكبير للصغير ، فكلاهما جزء من السلوك اليومى بين الأحياء ، ومن الالتزام الدينى فى مراسم العبادة بعد الموت .

١٤ـ منشيوس :

بعد موت كونفوشيوس عام ٤٧٩ ق. م تفرق تلاميذه (ويروى أنهم كانوا سبعين تلميذاً) ونشأت منهم مدارس كونفشية متعددة . وأهم شخصيتين بين هؤلاء التلاميذ هما «منشيوس Mencius » وهسون تسو Hsun - Tzu ، ولقد ذهب واحد من الفلاسفة الصينيين المحدثين إلى تشبيه مكانة كونفوشيوس فى تاريخ الصين بمكانة سقراط فى تاريخ الغرب ، كما شبه منشيوس (المثالى فى مزاجه الخاص فى فلسفته) بأفلاطون ، وهسون تسو) الواقعى « بأرسطو » يشكل كونفوشيوس ومنشيوس ، وهسون تسو – نوعاً من الثالوث بوصفهم الآباء المؤسسين للكونوفوشية .

ولد منشيوس بعد وفاة كونفوشيوس بقرن . واسمه الصينى هو « منج كو « Meng K'o ، لكنه يشار إليه بإجلال على أنه « منج تسو » (أى منج المعلم) ، قد ولد عام ٣٩٠ ق. م فى إمارة صغيرة جداً هى « تسو Tsou » لا تبعد كثيراً عن دولة مدينة « لو » مسقط رأس كونفوشيوس ، وتوفى عام ٣٠٥ ق. م . وكان مثل كونفوشيوس سليل طبقة أرستقراطية ، رغم أننا لا نعرف إلا أقل القليل عن أسلافه المباشرين ، ويجعله التراث الصينى تلميذاً لـ « تسو – زو Tzu - szu » حفيد كونفوشيس ، وهو أمر قد لا يكون صحيحاً. وكان منشيوس مثل كونفوشيوس معلماً شغوفاً أن ينال منصباً فى بلاط دولة من دول المدينة؛ فبحث عن أمير « يضع طريقه موضع التطبيق » ، ومر مثل كونفوشيوس بتجارب محبطة عندما أخفق فى العثور على مثل هذا الأمير . وبعد أن خدم فترة وجيزة وزيراً فى ولاية «تشى » اعتزل العمل ليعيش حياته الخاصة ، وهنا واصل تعليم طريقه لتلاميذه المخلصين .

وبعد وفاة منشيوس جمع أتباعه أقواله وتعاليمه . وهناك نص بعنوان « أعمال منشيوس» لا يزال باقياً ويحتوى على كثير مما جمع بهذه الطريقة . ويسير كتاب أعمال منشيوس على غرار كتاب « المختارات » لكونفوشيوس ؛ فهو يحتوى على أقوال للمعلم على شكل جمل وفقرات ، وحكايات توضيحية ، وحكم وأمثال سائرة وما شابه ذلك .

غير أن الفقرات مطولة ، والمعالجة أكثر تفصيلاً مما هي عليه عند كونفوشيوس ، وليس ثمة محاولة ملحوظة لترتيب الفقرات حسب الموضوعات أو التسلسل . والقارىء ـ الذى لا يوجه إليه منشيوس الحديث مباشرة ـ مدعو (إن صح التعبير) إلى أن يسترق السمع للمحاورات التى تدور بين المعلم وتلاميذه ، وإلى أن يتجول عشوائياً عبر جميع درجات الطيف لفكر منشيوس . وبدلاً من أن يحصل على أية تعاليم مباشرة فإن عليه أن يقوم بضم شتات تلميحة هنا ، أو إشارة ضمنية هناك ، أو مثل ، أو حكاية رمزية ، وأمثولة ، وحكمة – بحيث يسلك ذلك كله فى عبارة منسقة هى فلسفة منشيوس . إن كتاب « أعمال منشيوس » مثله مثل « المختارات » ، يشكل جزءاً من الشريعة المقدسة للكونفوشية .

والهدف الذى نذر له منشيوس نفسه – كما فعل معلمه ومرشده كونفوشيوس – هو أن يستوعب حكمة القدماء دون أن يبدع شيئاً من ذات نفسه [1] لكن عملية النقل دون إبداع ، على نحو ما حدث فى أحيان كثيرة فى تاريخ الكونفوشية ، تحولت إلى عملية « الإبداع عن طريق النقل » فقد كان منشيوس يتحدث إلى عصره الذى رأى من الواجب عليه تأويل حكمة القدماء تأويلاً جديداً . وفى هذه العملية نفسها يكمن إسهامه المميز فى الكونفوشية .

١٥ـ أفكار عن التاريخ :

كان طريق الملوك السابقين ـ عند كونفوشيوس ـ هو طريق أباطرة أسرة تشو المبكرين (فى القرنين الحادى عشر والعاشر ق. م) ، أما أسرة تاشنج Shang وأسرة هسيا Hsia اللتان سبقتا أسرة تشو ، فقد وجدتا فى رأى كونفوشيوس فى عهود وهمية مبهمة ، وهو لا يكاد يذكر البطلين « ياو Yao » و « شون Shun » [2] أما فى عصر منشيوس فقد نمت أفكار الصينيين عن تاريخهم المبكر ، ووصلت إلى مرحلة موغلة فى القدم ومن هذه الزاوية بدأ بالطوفان ، ثم أصبح صالحاً للسكنى بفضل جهود ثلاثة من الأبطال هم (ياو ، وشون ،

---

(١) كانت هذه أيضا هى فكرة كونفوشيوس الذى يقول عن نفسه « إنه ناقل وليس مبدعاً » ، وقد سبقت الإشارة إليها ، قارن فى ذلك الأستاذ فؤاد شبل حكمه الصين جـ ١ ص ٨١ ، دار المعارف بمصر (المترجم) .

(٢) ملكان من أعظم الملوك الخمسة الذين حكموا الصين فى العهود الغابرة (المترجم) .

ويو الأكبر) ولقد عين ياو و شون من يخلفونهما على العرش ، أما يو الأكبر فقد ظهر معه مبدأ تولى الملك بالوراثة ، وبذلك أصبح يو الأكبر هو المؤسس المزعوم لأسرة « هسيا »[1] ثم نظم المؤرخون بعد ذلك هؤلاء الأبطال فى أسر واعتبروهم حكاماً دنيويين. ولكن فى أيام منشيوس كان العصر الذهبى ، أو عصر الكمال الأول ، هو عصر « ياو وشون » وأصبحت أفكار منشيوس عن القداسة أكثر دنيوية وسط هذه اليوتوبيا الموغلة فى مثاليتها . ففى إمكان أى إنسان أن يكون « ياو أوشون » ، كذلك أصبح الجين Jen ، وهو المثل الأعلى الذى لا يمكن تقريباً بلوغه عند كونفوشيوس ، أصبح عند منشيوس « سلوكاً إنسانياً » أى مثلاً أعلى يمكن لأى إنسان بلوغه فى سهولة ويسر . لقد اهتمت التعاليم الأساسية لمنشيوس بالمثل العليا « للجين » والـ « يى Yi » ، وهى فى الأصل كلمة تعنى « الحقوق شديدة القدم أو ذات الجذور السحيقة – وأصبحت عند منشيوس تعنى العدالة : العدالة الاقتصادية والاجتماعية . وهكذا أصبحت الإنسانية والعدالة العلامتين الرئيسيتين لتعاليم منشيوس .

١٦- الإنسانية والعدالة :

أدخل منشيوس من خلال تأكيده على العدالة ، الاهتمام بالناس العاديين أو الشعب ، أى المين min فى مقابل الجين Jen (أو الأرستقراطية) . لم يكن لدى كونفوشيوس ما يقوله عن الشعب إلا أقل القليل ، فى حين أصبح ضمان وصول الشعب إلى حقوقه هو واجب الأمير الأول عند منشيوس ، ثم إن السماء هى حارسة الشعب ، وهى تبدى استياءها وغضبها عندما يعانى الناس . هذا التأكيد على أهمية خير الناس وسعادتهم فى الكونفوشية ، والفكرة التى تقول إن ذلك هو معيار الحاكم الفاضل كانت إحدى إسهامات منشيوس فى « الطريق » . ولقد كان لدى منشيوس الشيء الكثير ليقوله عن الاقتصاد ، وعنده أن حلقة الاتصال بين الاقتصاد والأخلاق حلقة محكمة : « فالذهن الثابت بلا معيشة ثابتة أمر مستحيل (منشيوس ٣ أ : ٥) وهكذا يصبح هدف الحكومة هو « توفير ضرورات الحياة بكميات كافية » (منشيوس ٧ب : ١٢) .

---

(٣) كان المبدأ المتبع من قبل أن يعين الإمبراطور قبل وفاته من يخلفه على العرش ، غير أن يو جعل الملك لأول مرة وراثياً فى أسرته (المترجم) .

والرجل المهذب عند منشيوس « هو الذى يكون مهذباً بحق » فلا يكفى أن يكون قادراً على تحقيق « الجين » ، بل يجب أن يكافح لتحقيقها بالفعل . والأمير الذى تتحقق فيه هذه الصفات ، هو الذى يحقق أهداف الحكم الملكى الصحيح ، وهى : رفاهية الدولة ، واستمرار الملك فى نسله ، وولاء العالم كله له . إن « الجين » يتولد عنها السلطة أو القوة «تى Te » وهى الهيبة أو المكانة والمصداقية التى هى الضد المقابل للبا Pa (أى القوة البدنية أو الإكراه) . ومن ثم يكون الواغ Wang (وهو الحكم الملكى الصحيح) ، والبا Pa (الحكم عن طريق القوة) هما على هذا النحو ضدين متعارضين ، وسوف يصبح الحكم عن طريق فضيلة علياً بدلاً من الحكم عن طريق القوة عاملاً مؤثراً للغاية فى التفكير السياسى الكونفوشى المتأخر . أما التزامات الطاعة والولاء البنوى فهى تلقى تأييداً خاصاً عند منشيوس. وإذا كانت إحدى الفلسفات المعارضة تذهب إلى أن « الناس ينبغى عليهم أن يحبوا بعضهم بعضاً على قدم المساواة » فإن منشيوس يرى تعارضاً بين « الواجب الأسرى الخاص » وتدرج العواطف بأولياتهم من حيث كبر السن والتماسك الاجتماعى الذى يكفل ذلك – وبين «حب البشرية بأسرها » ، وهو الحب الذى رأى أنه يدمر التنظيم الاجتماعى للأسرة والدولة .

١٧ـ الموجودات البشرية ومصيرها :

كان منشيوس يدخل فى النقاش المستمر الذى دار فى عصره حول موضوع الطبيعة البشرية والمصير الإنسانى . وبينما نجد أن كونفوشيوس لم يتحدث قط فى هذا الموضوع ، فقد كانت الطبيعة البشرية (هسينج Hsing) عند منشيوس خيرة بفطرتها (وظهرت فى عصره عدة نظريات حولها) فيشهد على صدق خيريتها الفطرية وجود إحساس عام شامل عند الناس بالتقارب وبالصواب والخطأ . ووجود هذا الإحساس يجعل الموجودات البشرية مختلفة عن غيرها من الكائنات الحية الأخرى . بيد أن الطبيعة البشرية يمكن أن تشوه وأن تصاب بالضمور والاختفاء ما لم ترب على نحو قويم . وتعتمد تربية الطبيعة البشرية على حماية الذهن ، «تسون – هسين Ts'un Hsin » ؛ وذلك لأن العقل هو مستقر العدالة الإنسانية . والطبيعة (هيسنج Hsing) والعقل (هسين Hsin) يحددان من نحن وماذا نكون . فقدرنا (مينج Ming) هو الذى يتحكم فى حظنا ويحدد فرصنا فى الحياة ، ولقد كان القدر أو المصير Ming ـ فى الأصل ـ فى يد صاحب الإقطاعية ، وكان منحة من ابن

السماء بوصفه نائباً عن السماء فى حكم الإقطاعية ، ثم أصبح فى الاستخدامات الأوسع هو نصيبنا فى الحياة أو المصير الذى رسمته السماء . وإذا كان الناس قادرين على حماية عقولهم وتحديد سلوكهم ، فإنهم لا يستطيعون تحديد مصيرهم الذى هو بين يدى السماء . وهكذا اعتقد منشيوس أنه على الرغم من أن جميع البشر هم بفطرتهم خيرون ، فإن تحقيق هذا الخير يرتبط بمعرفة الذات وتهذيب النفس .

١٨- هسون تسو :

هسون تسو (ازدهر حوالى ٣١٢ - ٢٣٨ ق. م) هو العضو الثالث فى ثالوث الآباء المؤسسين للكونفوشية . عاش قرب نهاية عصر الفلاسفة . لقد قدم كونفوشيوس ـ بوصفه رائداً لعصر الفلاسفة ـ تعاليمه دون أن يتحداه الفلاسفة الخصوم . ثم قام منشيوس بتطوير تعاليم كونفوشيوس تحت تأثير هجوم النفعيين واللذين (انظر فيما بعد رقم ٢٠) . أما هسون تسو فقد دافع عن الكونفوشية وهو مزود بالمعرفة الكاملة لدعاوى الفلسفات التى تطورت مع اقتراب العصر من نهايته ، فعرض الكونفوشية بطريقة جعلت من عرضه أكمل البحوث الفلسفية وأحسنها تنظيماً فى عصر الفلاسفة .

وعلى حين أن منشيوس أعجب بالفضيلة عند كونفوشيوس ، فإن « هسون تسو » أعجب بتعاليمه . ويهاجم « هسون تسو » منشيوس بسبب ميوله المثالية ، مفضلاً لنفسه عقلية أكثر صرامة ونظرة واقعية للمشكلات . ولقد أعاد هسون تسو ، لهذه النظرة ، تأويل الكونفوشية بطريقة تختلف فى جوانب هامة عن منشيوس .

لجأ « هسون تسو » مثل أسلافه إلى القدماء ، لكنه فضل على خلاف منشيوس عصر ملوك أسرة تشو المبكرين مقترباً بذلك من كونفوشيوس . ولقد أطلق عليهم اسم « الملوك المتأخرين جداً » فى مقابل تسمية منشيوس لهم « الملوك السابقين » ؛ لأن القدم على الأصالة فى رأى منشيوس يعنى أيام البطلين الأسطورين « ياو » و « شون » . أما عند «هسون تسو » فتعبر عنه الحقبة التاريخية المسجلة للملك الأول من أسرة تشو ، وبذلك جعل السلطة تقوم على أساس متين من سجلات التاريخ ووثائقه بدلاً من أن تعيش فى عالم الأساطير والخرافات اليوتوبى .

ولقد أصبحت الكونفوشية عند « هسون شو » فى مثل هذا الجو العقلى الصارم أكثر عقلانية ، وأكثر مادية . وصارت السماء غير مشخصة ، وغدت هى الطبيعة والصورة

الطبيعية . والطبيعة البشرية التى هى أبعد من أن تكون خيرة بالفطرة ـ كما ذهب إلى ذلك منشيوس – كانت فى أساسها شريرة فى رأى هسون تسو .

ربما كانت كونفوشية « هسون تسو » أقل من غيرها تعالياً (ترنسند نتالية) وأكثر تركيزاً على الجانب الإنسانى ؛ فقد بدأ من مقدمة قاسية تقول إن البشر ولدوا شريرين ، لكنه ـ فى الوقت نفسه ـ يؤكد بقوة على اعتقاده بأنه فى استطاعتهم أن يصبحوا أخياراً بالتربية والتهذيب الأخلاقى . وتستمد التربية والتهذيب الأخلاقى من النصوص الكلاسيكية ومن النظر إلى حكماء الماضى باعتبارهم قدوة . وهؤلاء الحكماء لا يختلفون عن سائر البشر فى طبيعتهم ومواهبهم الأساسية ، وإنما هم نماذج لما يمكن للمرء بلوغه بالفهم والبصيرة الأخلاقية ، إذا هو استخدم العقل استخداماً سليماً . وإذا تم ذلك فإن « هسون تسو » يقدم آمالاً براقة لا حد لها للإصلاح من خلال الدراسة ، وهذا الارتفاع بفضائل الدراسة والبحث ، أعطى للكونفوشية – على نحو ما تطورت فيما بعد – إحدى سماتها الأساسية . وكذلك أصر « هسون تسو » على أن غاية العملية التربوية هى خدمة الدولة ، والوظيفية المناسبة للرجل المتعلم هى أن يحكم ، ومن ثم فقد أصبحت إحدى بدهيات الكونفوشية المتأخرة هى القول بأن أفضل المتعلمين هم أولئك القادرون على خدمة الدولة ، وهى فكرة عبرت عن نفسها فى الخدمة المدنية الصينية ، التى كانت تزود بحاجتها من الموظفين الأكفاء عن طريق الامتحانات .

هذه الوجهة المتفائلة من النظر – رغم قسوتها ـ إلى الآمال البشرية المرتقبة فى هذه الحياة ، جعلت « هسون تسو » لا يرى فى السماء إله كونفوشيوس المتعالى ، ولا إله منشيوس المشخص الأخلاقى – وإنما يرى الطبيعة غير المشخصة ، وعملية الصيرورة الطبيعية.

١٩ـ العقل البشرى ـ مركز الكون :

مادام النظام الأخلاقى ، والكمال البشرى ، يبدآن من العقل ، فإن العقل البشرى يصبح فى نظر « هسون تسو » مركزاً للكون . ولقد قادته هذه الفكرة إلى نظرة إنسانية وعقلانية للدين ؛ فأدان ـ بغير تحفظ ـ بعض الممارسات الدينية واعتبرها من قبيل الخرافات ـ ومن ذلك : الصلاة استجلاباً للمطر ، وطرد المرض بالرقى والتعاويذ ، وقراءة (بخت) المرء من ملامح وجهه . لكنه أباح غير ذلك من أمور : كالتنبؤ بالغيب ، شريطة أن تقوم

التأويلات على ضوء العقل البشرى ، كما أنكر وجود الأرواح الشريرة والأشباح الضارة . وأصبحت أرواح الأسلاف وقوى الطبيعة عند « هسون تسو » تجليات للسمو الخلقى . وبالفهم الكامل للطبيعة يستطيع الناس فى رأيه أن يسيطروا على الكون وعلى بيئتهم ، وهكذا أصبح « هسون تسو » أعظم الفلاسفة العقليين فى الكونفوشية .

لقد سبق أن رأينا أن « لى Li » (طقوس الديانة المبكرة) عند كونفوشيوس أصبحت شريعة السلوك البشرى ، ومراعاة « لى » تؤدى دوراً هاماً فى الكونفوشية المتأخرة . ولقد اشترط « هسون تسو » تبريزاً عقلياً جيداً للدور الذى تقوم به « لى » فى الحياة . فمراعاة الإشارات أو الإيماءات المناسبة ، وارتداء الملابس اللائقة ، والمحافظة على المظهر السليم ، والسلوك الصحيح ، أى : كل ما تتضمنه « لى » عند « هسون تسو » تعد فى نظره نظاماً لكبح الرغبات ، ولتصحيح السلوك السيىء الذى يتعرض الموجود البشرى الفطرى « غير المتعلم» للوقوع فيه . بذلك أصبحت « لى » وسيلة تدريب نافعة فى تنقية الانفعالات البشرية وتجميلها .

ولقد أدى هذا المذهب العقلى الكامل ، والآراء التشاؤمية عن الطبيعة البشرية الأصلية ، فى مقابل تعالى منشيوس — أدت بالكونفوشية المتأخرة ، عندما أصبحت آراء منشيوس تقليدية ، إلى قدر من الاستهانة بشأن « هسون تسو » ، ولكنه عبر عن فكرة أصبحت مركزية فى الكونفوشية ، وهى : التأكيد على أهمية الفضائل فى التربية ، وواجب العالم فى أن يحكم .

ونحن نجد فى كتابات « كونفوشيوس » و « منشيوس » و « هسون تسو » النواة الفلسفية والدينية ، إن صحّ هذا التعبير ، لما عرف فيما بعد باسم الكونفوشية . لقد كان على الكونفوشية المبكرة فى عصر الفلاسفة أن تتنافس مع المذاهب المعارضة ، ولم تكن قد قبلت بعد على أنها الفلسفة والدين الرسميان ، وقد استمر هذا الحال لمدة قرنين أو ثلاثة ، وكان على الكونفوشية أن تتعرض للمزيد من التهذيب على يد الفلاسفة المتأخرين قبل أن تستقر صورتها التقليدية .

٢٠ـ النفعيون واللذيون :

كان منشيوس يشكو من أن العالم بأسره يخضع فى أيامه لتعاليم يانغ تشو Yang chu وموتسو Mo - Tzu وهما فلسفتان منافستان ، تمثل الأولى مذهب اللذة عند « يانغ تشو » كما تعبر الثانية عن مذهب المنفعة عند « مو — تسو » ، وهما معاً يمثلان تحدياً جاداً وخطيراً للكونفوشية المبكرة .

ولقد كان « لموتسو » (الذى ازدهر عام ٤٧٩ - ٣٨١ ق. م) والمدارس الفلسفية التى تطورت بين تلاميذه - تأثير قوى فى عصر الفلاسفة ، ولكن هذا الأثر تضاءل فى عصر الإمبراطورية ، حتى لقد عانت فلسفة « مو أو الموهية Mohism » من خسوف حقيقى . ثم زاد الاهتمام بها - وعلى نطاق واسع - فى العصر الحديث ، إذ يبدو أنها احتوت أفكاراً معينة سارت فى تواز مع تعاليم المسيحية والماركسية فى آن واحد .

لم يستفد مو . على خلاف كونفوشيوس ، من سلطة القدماء إلا قليلاً ، فهو لم يجد بأساً من الاقتباس من السابقين القدماء ، ولكنه فضل أسرة هسيا Hsia على أسرة « تشو » كما أنه لم يلجأ على الإطلاق لأى حدس صوفى ، إذ تكشف لنا الفقرات المسهبة التى خصصها المتصوفة فى كتاباتهم نقد منطق « مو » وتفنيده إلى أى حد كانت المعارضة التى أثارها « مو » ومدرسته ضد التصوف مرعبة. فمشكلات المجتمع عند « موتسو » لا يمكن اقتحامها إلا بنبذ السلطة والسلف ، والبدء من جديد فى ضوء العقل الخالص . ولقد وصل مو إلى مسلماته عن طريق الاستنباط ثم أخذ يواصل الحجاج بطريقة استقرائية من مقدمات معطاة . ذهب مو إلى أن المجموع الكلى للتجربة البشرية يشهد بوجود إله ، وأن لهذا الإله غاية وإرادة ، ويمكن أن نتصور الغاية والإرادة فى الحب والرحمة . والنظام هو التجلى النهائى للرحمة الإلهية . ويكمن سر نجاح الأمير فى بحثه عن أسباب الاضطراب ؛ إذ يمكنه عندئذ فقط أن يعالج شروره . ومادامت الناس جميعاً تصغى للسماء ، فمعنى هذا أن الناس جميعاً متساوون فى أعين السماء . إن السماء تمطرعلى العادل والظالم (١) والسماء تنشر حبها على الناس جميعاً - بغض النظر عن أشخاصهم - ويترتب على ذلك أنه ينبغى على الناس أن يحبوا بعضهم بعضاً بلا تمييز وبقدر متساو .

والفكرة التى تقول إن على الناس أن يحبوا بعضهم بعضاً على قدم المساواة بصرف النظر عن أولوية الحب للأسرة وللأمير ، بدت لمنشيوس مدمرة للحياة ذاتها ؛ ولهذا نراه يحتج قائلاً « إنها إهانة للمشاعر البشرية كلها » . وفى العصور الحديثة ، ومع الدعاية لإنجيل المسيحية فى الصين ، اكتشف بعض الباحثين الصينيين فى « موتسو » مبشراً آخر بإنجيل المحبة .

وعلى الرغم من اعتراضات الكونفوشية على نظرية المحبة للناس جميعاً على قدم

---

(١) تقترب من قول السيد المسيح « لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماء ، فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين » إنجيل متى ٥ : ٤٥ (المترجم) .

المساواة، فقد واصل « موتسو » عرض فكرته موضحاً أن الناس يفهمون ما الذى يجلب لهم النفع ، وما الذى يسبب لهم الضرر ، ولو أتيحت لهم الفرصة لاختاروا المحبة الشاملة الجامعة. ولا بد أن يكون المعيار هو الإجماع على الصالح العام ، وهذا الصالح العام لا بد أن يكون المحبة الشاملة الجامعة .

ولقد أدت فكرة الإجماع على الصالح العام « بموتشو » إلى بديهيتين سياسيتين ، الأولى هى بديهية الصالح العام (أعظم نفع لأكبر عدد من الناس) الثانية هى : بديهة الإجماع العام (النظرية التى تقول : إن السياسة التى تؤدى إلى أعظم نفع لا بد أن يوافق عليها الجميع) . وينتج عن ذلك أن القادرين وحدهم هم الذين يصلحون لخدمة الدولة بغض النظر عن الطبقة أو الأسرة . ويجب أن تكون أسمى آيات الشرف وأعظم ألوان التقدير من نصيبهم .

إن الفعل الأخلاقى الأسمى للفرد - فى مذهب موتسو - إنما يوجد فى فعل التضحية من أجل الجميع . ولقد كون مع تلاميذه لتحقيق هذه الغاية جماعة متعاهدة من الإخوان، وانخرطوا فى مذهب متطرف من الزهد ، وارتدوا ثيابا خاصة ، ووضعوا شعارات مميزة وأذعنوا تماماً لرئيس الجماعة أو النظام . وهم يذكروننا بنظم الرهبنة الدينية فى الغرب المسيحى، وقد كانت الحرب فى نظام الأخوة عند « مو » هى النقيض الصريح للحب الشامل ، ولهذا انتقد هذا النظام أى ضرب من ضروب العدوان انتقاداً شديداً ، وذهب خصومه إلى أن الحرب هى سوط عقاب فى يد الصالحين ، وأن القتال فى سبيل قضية عادلة هو نفسه عدالة ، بينما ذهب أتباع « مو » إلى أن الحرب فى ذاتها شر ، وإن كان ذلك لم يمنعهم أيضاً من القول بأن الصالح العام الذى هو أعظم قدر من الخير قد يكون فى دفع العدوان .

ولقد كرس فرع من المدرسة نفسه لتحقيق هذه الغاية عن طريق دراسة فنون الدفاع عن المدينة . وكان من أعجب النتائج الجانبية لهذا الهدف اختراع عدد من وسائل التحصين . وتتضمن « قوانين المنطق » عند مدرسة « مو » ، إشارات عديدة إلى الميكانيكا ، ومبادىء علم البصريات - ولا شك أن منشأ ذلك هو الاهتمام بالهندسة الحربية - وهى تعد من أقدم الملاحظات العلمية فى اللغة الصينية . وكان يؤكد للمدينة التى تدعو الأخوة « الموهيين » - فى تلك الأيام - لتولى شؤونها أن الدفاع عن المدينة خليق بأن يتولاه رجال كرسوا أنفسهم للفكرة القائلة بأن أعظم قدر من الخير يكمن فى تضحية المدافعين بحياتهم . وهناك آثار طريفة لهذه الفكرة فى اللغة الصينية إلى يومنا الراهن ؛ لأن تعبير « موشو Mo Shou »

(التى تعنى : دفاع مو) هو تعبير يرادف الدفاع « العنيد » ، أو الدفاع « بدون تفكير » ومع ذلك فقد تفوق تلاميذ « موتسو » فى الدفاع عن مذهبهم . أما الغرض الرئيسى من كتابهم عن قوانين المنطق فكان هو دراسة أساليب البرهنة التى أخذوها على عاتقهم .

ولقد ذهب « يانغ شو Yang chu » الفيلسوف الأبيقورى ـ المنافس الرئيسى الثانى لمنشيوس ، إلى أن دولة المدينة أصبح إنقاذها أمراً متعذراً ؛ إذ لم يعد من الممكن أن تسترد عافيتها ، ولهذا ينبغى أن يكون الاهتمام الرئيسى عند الناس هو اهتمامهم بأنفسهم ، وعليهم أن يبحثوا ـ فى عصر محفوف بالمخاطر ـ عن المحافظة على أشخاصهم هم ، والعناية بتكاملهم ، كما ينبغى عليهم أن يرفضوا التورط فى الانشغال بالأمور المادية ، وألا يتركوا شيئاً رهينة فى يد القدر بانغماسهم فى رغبة غير مثمرة . وقبل كل شىء ينبغى عليهم ألا يورطوا أنفسهم مع رفاقهم . ولقد رفع « يانغ شو » راية المذهب الفردى ضد فضائل النظام الاجتماعى . وبدلاً من أن ينقذ المدينة اعتقد أن الأهم هو إنقاذ الحياة الفردية .

لم يترك لنا « يانغ شو » أية كتابات ، ولم تعرف فلسفته إلا من إشارات الخصوم إليها. وهناك كتاب يستظل باسمه هو جنة اللذة الذى كتب وطبع بعد موته بوقت طويل ، وربما كان تجميعاً منحولاً . ولقد عانت سمعته كما عانت سمعة أبيقور ـ ولنفس الأسباب ـ إلى حد كبير . ومن المرجح أن يكون هو الذى بشر بالمفكرين التأمليين والمتصوفة الذين جاءوا بعده بوقت قصير ، والذين اشتهروا بأسماء « شوانغ تسو » و« لاوتسو » .

٢١- التاوية الفلسية :

كانت الكونفوشية والموهية Mohism فلسفتين فعالتين اهتمتا بفنون الحكم فى دولة المدينة وبالأخلاق الإجتماعية ؛ وبذلك كانتا فلسفتين دنيويتين مشغولتين بالعالم الذى نعيش فيه . وقد كان من شأنهما أن يؤديا فى النهاية إلى كونفوشية تصبح هى ديانة الدولة وهو جانب الحياة الدينية الصينية الذى يمكن أن نفكر فيه باعتباره جانباً أخلاقياً .

ولكن بينما كان الفلاسفة « الفعالون » يدعون إلى نظرياتهم فى بلاط دول المدينة وعواصمها ، كانت أنشطة فلسفية مختلفة تمام الاختلاف تتم فى الريف ، أعنى خارج المجتمع إن صح التعبير ، وكانت هذه الأنشطة هى فلسفات دعاة السكينة و « الطمأنينة » .

انصب اهتمام هذه الفلسفات على « العالم الآخر » ، وسعت إلى إدراك الذات وتهذيب النفس من خلال تمرينات « اليوجا » للوصول إلى أقصى درجات العلو . وهم يرون فى

العلو تلك الواحدية الثابتة التى تكمن خلف عالم التغير ، وتعطى فى نفس الوقت كلاً من قوة الدفع وحركة الحياة ، وهذه الواحدية هى التى يسمونها « تاو Tao »[1] ويتحدث جميع الفلاسفة فى الصين القديمة عن التاو عندهم ، أى عن طريقهم ، أما فلاسفة الطمأنينة فهم يتحدثون عن التاوية نفسها ، ونتيجة لذلك أطلق عليهم اسم « التاويين » . وكانت أفكار هؤلاء التاويين هى التى أوحت فى النهاية بالديانة التاوية ـ وذلك جانب من الحياة الدينية الصينية يمكن أن نقول عنه إنه جانب صوفى .

لقد ألهمت الكونفوشية ديانة الأخلاق والسلوك الاجتماعى ، وكانت لها جذور فى ديانة القدماء الأرستقراطية . أما التاوية فقد ألهمت ديانة التصوف ، وأصولها أقرب إلى الديانة الشعبية عند القدماء ؛ فهم يسعون إلى دخول عالم المعرفة عن طريق غيبوبة الشامان أكثر مما يفعلون ذلك عن طريق سجلات القدماء ووثائقهم . وتعكس الكونفوشية والتأوية فى صورتيهما المتأخرين – شيئاً من هذه الأصول : فالكونفوشية كانت ، فى الأعم الأغلب ، ديانة البلاط وعلية القوم من الأرستقراطيين ، فى حين لم تفقد التاوية قط صلتها بجذورها الشعبية .

٢٢- محور الكتابات المقدسة عن التاويين :

أُضيف لنا مجموعتان من كتب التاوية من عصر الفلاسفة ، وهما المجموعة المسماة بكتب شوانغ تسو Chuang Tzu و « ليه تسو Lieh Tzu » وفضلاً عن ذلك فهناك كتاب تاوى موجز ظهر غُفلاً قرب نهاية هذه الحقبة ، وهو كتاب خلافى للغاية فى نغمته عرف باسم « تاوتى كنج Tao te Ching وتشكل هذه الكتب الثلاثة محور التاوية ، وهى بغير شك أقدم كتب فى المؤلفات الدينية التاوية من بين مجموعة هائلة من الدراسات التاوية التى تشكل الشريعة التاوية .

ينسب مؤلف « تاوتى كنج » [2] فى التراث التاوى ، إلى « لا وتسو » ، وهو شخصية

---

(١) « التاو » من أهم مصطلحات الفلسفة الصينية ومعناها : الطريق أو المنهج أو أسلوب الحياة (المترجم) .

(٢) قارن الترجمة العربية للكتاب المقدس للطاوية بعنوان « تاو تى ـ كنج ـ كتاب الطريق إلى الفضيلة » ترجمة وتقديم د/ مصطفى ماهر ـ القاهرة سلسلة الألف كتاب رقم ٦٤٣ ـ مؤسسة سجل العربى عام ١٩٦٧ (المترجم) .

تعد من الناحية التاريخية موضع شك ، وتلك هى الحال نفسها مع كتاب « ليه تسو » أما تشـوانج تسـو (٣٦٩ - ٢٨٦ ق. م) (١) فقد كان على خلافهما شخصية تاريخية ومعاصراً لمنشيوس ، غير أن الكتاب الذى يحمل اسمه يحتوى فيما يبدو ، على كتابات لمؤلفين مختلفين وفى فترات مختلفة . وإذا نظرنا إلى هذه الكتب من حيث هى فلسفة ، فلابد من النظر إليها فى ضوء هذه النظرة التاريخية الصارمة . أما من حيث هى كتابات مقدسة لديانة متأخرة ، فيمكن النظر إليها على أنها شرائع « لاوتسو » و « تشوانج تسو » المؤسسين المزعومين للتاوية الدينية ، اللذين يضيف إليهما احترام الأتباع فيما بعد الكثير من تفصيلات سير القديسين .

وتتمثل أفرع الفكر التاوى فى الأجزاء المختلفة من كتب « شوانج تسو » و« ليه تسو » و « لا وتى تشنج » ولكن هناك أفكاراً أساسية معينة وأسساً مشتركة بينها جميعاً ، وتلك هى الفلسفة التاوية .

ويصف كتاب « شوانج تسو » فى صورة أمثولات أو حكايات رمزية ، وحوارات متخيلة بين « شوانج تسو » ونقاده ، وانتقادات لاذعة لأحاديث المقاطعة ، وقصص عن القديسين التاويين - يصف شكلاً من أشكال المعرفة لا يلم به إلا الخبير أو السالك فحسب . والحديث عن هذه المعرفة ـ دع عنك مناقشته مع أى شخص آخر فيما عدا الخبير ـ عمل لا طائل وراءه ، فكما أن آلهة النهر لا تعرف شيئاً عن البحر ، أو أن الحشرة لا يمكن أن تتصور طيران الطيور الكبيرة المهاجرة ، فكذلك الإنسان « قليل المعرفة » (أو صاحب الفكر الدنيوى) لا يمكنه أن يتصور « المعرفة الأعظم (أو رؤى الصوفى) فهذه المعرفة يظفر بها الخبير فى حالة الوجد ، وهى حالة « أفقد فيها ذاتى » .

يمضى الخبير فى حالة الوجد ؛ فى رحلة ممتطياً صهوةالريح ، تحمله « عربات السحب» إلى اللامتناهى ، فيرى « أن السماء والأرض ظهرا إلى الوجود معى ، ومعى أصبحت الأشياء جميعاً شيئاً واحداً » . وفى هذه الرؤية تكون كل الأشياء نسبية ، وتتآلف جميع الأضداد ، وتنسجم جميع المتقابلات . والواحد هو التاو Tao إنه التلقائية الشاملة لجميع الأشياء ، فكل شىء هو كذلك من ذات نفسه ، ومن ثم يستطيع « التاو » « أن

(١) من كبار فلاسفة التاوية ، بل يعتبر المؤسس الثانى لهذه المرسة ، انتقد بعض آراء « موتسو » وعاب عليها مناهضتها للطبيعة البشرية (المترجم) .

يفعل كل شىء بألا يفعل شيئاً » ، و « التى Te » (أى الفضيلة أو الأخلاق عند الكونفوشية) هى عند التاوى « التاو » المباطن فى كل شىء ، فهى « قوته » . إن «التاو» ، (الطريق أو النهج أو التى Te (قوته) تصوران أساسيان للتاوية الفلسفية . وما دام كل شىء هو كذلك من تلقاء ذاته ، فإن له ، إن صح القول ، تلقائية ، وأى تدخل بشرى هو تدمير له . ومن ثم يعارض الخبير المؤسسات والقوانين الأخلاقية والحكومية بوصفها حيلاً بشرية تعترض الدور الحر للتاو وتعرقله ، وكذلك عمل الـ « تى Te » لذلك كانت أفضل طريقة لحكم العالم هو ألا تحكمه . وقل مثل ذلك فى فن الحياة ، فالسعادة يمكن بلوغها بالترك : بالسماح للتاو بالقيام بدوره الحر ، والإنغماس فى أنشطة ليست أفعالاً ، إن الصفات والقيم نسبية ، وما هو موجود فهو خير .

وأخيراً فليس الموت إلا مظهراً للوجود ـ مثله مثل الحياة ـ إنه استبدال صورة من صور الوجود بصورة أخرى . وكما يقول « شواغ تسو » : « الحياة والموت شىء واحد ، وكذلك الصواب والخطأ » ، وهذا هو ما يحرر الإنسان من قيوده وأغلاله .

إن التاوتى – كنج « أى (الطريق وقوته) » هو كتاب التاوية الكلاسيكى . وقد كتب معظمه شعراً ، ومنهجه فى العرض هو أساساً منهج الشعر . ولقد تم تأليفه قرب نهاية عصر الفلاسفة ، وتخلى مؤلفه عن طريقة الحكاية والقص المستخدمة فى كتاب « شواغ تسو » وركز جوهر تعاليم مذهب الطمأنينة فى كل واحد . وإذا وضع كتاب « تاوتى كنج » فى مكانه التاريخى فى الفلسفة الصينية المبكرة أمكن أن يقرأ على أنه تعبير عن الوضع الفلسفى لأصحاب مذهب الطمأنينة ، وتفنيدهم لخصومهم من الفلاسفة فى عصرهم . ولكنه ينسب بوصفه كتاباً مقدساً » ، إلى « لاوتسو »الأب الروحى للتاوية ، ولذلك كانت له الصدارة فى التاوية الدينية . وفى اللغة الإنجليزية أكثر من ثلاثين ترجمة لكتاب «تاو تى كنج » وقد عرف بوجه عام ككتاب كلاسيكى فى التصوف يتجاوز حدود الصين.

٢٣- مدارس أخرى :

أشرنا حتى الآن إلى مدرستين رئيستين تعبران عن الديانة المحلية للصين من بين المدارس المائة التى ظهرت فى عصر الفلاسفة – وهما المدرسة الكونفوشية والمدرسة التاوية ـ وذكرنا أيضاً مدرسة « موتسو » التى كان تصورها للسماء أقرب التصورات التى نلتقى بها فى الفكر الصينى القديم إلى فكرة الإله المشخص ، وإن لم تكن لذلك أهمية كبيرة من الناحية

التاريخية فى تطور الفكر الدينى الصينى ، ومع ذلك فقد تم إحياء الاهتمام « بموتسو » فى العصر الحديث بسبب هذه الفكرة إلى حد كبير .

وفضلاً عن ذلك فقد كانت هناك حركتان فلسفيتان لا بد من الإشارة إليهما ؛ إذ كان لهما أثر هام فى التاريخ الدينى ، وأول هاتين الحركتين هى : حركة الكسمولوجيين .

فى وقت ما من أوائل القرن الثالث قبل الميلاد بدأ الفكر النظرى يدور حول نظرية الكون بوصفه كلا منظماً ، وحول القوانين التى تحكمه . ولقد لمع فى هذه الحركة « تسو ين » Tsou Yen ومدرسته التى أثرت تأثيراً عميقاً فى مسار الفلسفة فى عهد أسرة هان وفى عهود تالية .

لقد وضع « تسو ين » دورة من خمسة عناصر هى : الأرض ، والخشب ، والمعادن ، والنار ، والماء . وكل عنصر منها يتغلب بدوره على العناصر السابقة عليه فى دورات متكررة ويبقى قائماً فترة من فترات التاريخ ، ومن هذه الفكرة وضع «تسو ين » نظرية الدورات التاريخية التى كان لها أثر كبير فى الفكر الصينى المتأخر . ولكن كل عنصر من هذه العناصر يحكم العالم الطبيعى فى فترة ظهوره وانهياره بحيث يمكن تفسير جميع الأحداث الطبيعية والبشرية (أو التنبؤ بها) من هذه الزاوية . ولقد عرف أتباع « تسو ين » باسم مدرسة « ين ياغ » وكلمة ين Yin تعنى حرفياً « الجانب المظلم » كما تعنى كلمة ياغ Yang الجانب « المشمس » ومع ظهور نظرية العناصر الخمسة تقريباً وردت كلمتا « ين وياغ » كمقولتين فى النظرية الكسمولوجية الثنائية ، التى كان فيها « ين وياغ » أى : النور والظلمة ، والذكر والأنثى ، والقوى والضعيف يعدان مبدأين كسمولوجيين (كونيين) تنتج ظواهر الكون كلها من خلال التفاعل بينها .

ولقد دخل مذهب « ين ياغ » الثنائى إلى العقيدة الكونفوشية ، فأدمج فى « كتاب التغيرات » (آى كنج I Ching) وهو تجميع متأخر وتنظيم عقلى للكتب القديمة التى تدور حول التنبؤ بالغيب . و « كتاب التغيرات » مرتب من حوالى ثمانى فقرات ثلاثية تتألف كل منها من ثلاثة أسطر مقسمة أو غير مقسمة ، وعن طريق الجمع بين كل فقرتين ثلاثيتين ، نحصل على ٦٤ شكلاً سداسياً تضاف إليها أوصاف لمعانيها الرمزية المفترضة . وكان يعتقد أن الأشكال السداسية وتأويلاتها انحدرت من ماض سحيق ، كما جرت العادة أن تنسب بعض الملاحق فى كتاب التغيرات خطأً إلى كونفوشيوس . ومن هذا

الطريق دخل كتاب التغيرات مع « الين والياغ أو« الجانب المظلم والجانب المنير » [1] إلى الشريعة الكونفوشية .

ولقد ألهم « ين ياغ » والعناصر الخمسة معظم الفلسفة الطبيعية الصينية التى جاءت بعد ذلك ، ولكنها دخلت كذلك الديانة الشعبية عن طريق التاوية ، وأصبحت رموزها عاملاً مشتركاً فى صنع الأيقونات فى الفن الشعبى الصينى .

٢٤- مدرسة القانون (الشرائع) :

وأخيراً هناك مدرسة فكرية يطلق عليها الصينيون اسم مدرسة القانون (أو مدرسة الشرائع) لأنها أيدت إحلال القانون محل الأخلاق . ولقد نشأت من تعاليم « الملك شانغ Lord Shang » فى دولة « تشن Ch'in » ، وهى الدولة التى غزت بقية الصين فى نهاية عصر الفلاسفة ، وأقامت فى ظل أول إمبراطور الدولة التى وحدت الأمة الصينية . ولقد نبذت مدرسة القانون أى التجاء إلى التراث أو اعتماد على توجيهات قوى تعلو على الطبيعة أو أى ثقة فى إرشاد هذه القوى وهدايتها ؛ فاهتمت فحسب « بواقع العالم على نحو ما هو موجود » فى الوقت الحاضر .

ونادت مدرسة القانون (الشرائع) بإلغاء الامتيازات الإقطاعية ، وتقنين واجبات الشعب تقنيناً دقيقاً تدعمه العقوبات الصارمة ، وتشجع عليه المكافآت السخية . وعندما تسلح حكام تشن بهذه الأساليب الصارمة فرضوا على الصين كلها الوحدة والسلام ، وبذلك أنقذوا البلاد من الاستنزاف الذى أصابها بالشلل من حروب دول المدن المتنازعة . ومع ذلك فقد بلغت ضراوة النظام الشمولى الذى أخذ به الإمبراطور الأول ، حداً جعل مدرسة القانون أو الشرائع تسقط من نظر الناس من حيث هى فلسفة .

٢٥- الدين فى العصر السابق للإمبراطورية :

كان التراث الدينى للصين ، فيما قبل عصر الإمبراطورية (أى قبل القرن الثانى ق. م) يتألف من عنصرين متمايزين تماماً . وتأتى أهمية أولهما من تأثيره على الجوانب الدينية للكونفوشية ، وأعنى به عبادة السماء والأسلاف المقدسين ، حيث كان الأمراء والطبقات

---

(١) تترجم أحيانا بالجانب السلبى والجانب الإيجابى ، أو الجانب القمرى والجانب الشمسى ، انظر مثلاً حكمة الصين جـ ١ ص ٤٥ (المترجم) .

الأرستقراطية يقومون فى هذه العبادة باسترضاء السماء والأسلاف ، ويلتمسون عون الموتى الأقوياء الذين حكموا ـ إذا صح التعبير ـ وفق نظام تصاعدى سياسى فى السماء ، ونقلوا التفويض بالحكم الذى حصلوا عليه منها إلى مندوبيهم الذين يحكمون على الأرض. وهذه العبادة كان الهدف منها أن تظل السماء على وفاق مع الموجودات البشرية عن طريق الطقوس السحرية أولاً ثم عن طريق وصايا الأخلاق ، بعد ذلك – هى التى أصبحت بفضل الكونفوشية عقيدة الدولة فى عصر الإمبراطورية الصينية .

أما العنصر الثانى الذى كان يتألف منه التراث الدينى للصين فهو عالم السحر والعرافة الذى يمثل فيه الروح الوسيط أو الشامان حلقة وصل بين البشر والأرواح . ولقد بقيت هذه العقيدة حية بين الناس ، محتفظة بعناصر ديانة أكثر بدائية أدت فيها التعاويذ ، والتنبؤ (بالبخت) وما شابه ذلك بالنسبة لطبقات الفلاحين ـ وظيفة الطقوس والممارسات الدينية . وتتوازى مع حالة النشوة أو الغيبوبة التى يمر بها الشامان ، حالة أخرى متعالية هذبتها التاوية وأصبحت هى الأساس المعرفى للتاوية الصوفية . ولقد قام كهنة التاوية بكثير من الوظائف التى كان يتولاها الشامانيون الأوائل .

٢٦- الدين فى عهد أسرة شن وأسرة هان :

انتهى عصر الفلاسفة بانهيار دول – المدينة ، وقيام الإمبراطورية تحت حكم أسرة شن Ch'in وتوحدت الصين لأول مرة خمسمائة عام . ولقد استلهم حكام تشن مذهب التطبيق الحرفى للقانون فى تطبيق نوع من الحكم الشمولى ، فوحدوا دول المدينة فى دولة واحدة تمثل الأمة . ونجح أول إمبراطور من أسرة شن فى إخضاع الأمراء والشعوب السابقة لدول المدينة وجعلهم رعايا له هو وحده ، بل سعى كذلك لكى يثبت لهم أن سيادته المطلقة تمتد إلى المذابح فى المعابد والآلهة التى يعبدونها أيضاً . وقد قام بسلسلة من الرحلات طاف فيها حول الإمبراطورية ، صاعداً جبالها المقدسة ، وزائراً هياكلها ، ومقدماً القرابين المناسبة للآلهة المحليين ، وبذلك أكد سيادته التى لم تقتصر على الناس بل شملت جميع آلهة البلاد. ولقد رمز إلى الزعم بأن قوتهً الدينية لا تقل عن قوته الزمنية باللقب الذى اتخذه لنفسه وهو « Chin Shih Huang - ti شن شيه هوانغ تى » وكلمة شن هى اسم بيته الحاكم ، و « شيه » تعنى : الأول ـ الأول فى سلسلة تخيل أنها تمتد لعشرة آلاف جيل – وكلمة Ti هى الاسم الذى كان يتسمى به الملوك الآلهة فى الماضى ، وهواغ تعنى « المرموق » أو «الشهيرة » وتوحى بأنه كان « أكثر ملوك تى شهرة » .

واستجاب « شن شيه هواغ تى » لمشورة وزرائه من مدرسة القانون أو الشرائع ؛ فأمر بإحراق جميع الكتب فيما عدا الكتب الخاصة بالفنون العملية النافعة ، قاصداً من وراء ذلك تدمير تعاليم المدارس المائة .

ولما تقدم الإمبراطور الأول فى العمر سعى لصاقة الشامانيين والسحرة من مختلف أجزاء الإمبراطورية باحثاً عندهم عن عشب الخلود على أمل إطالة عمره إلى غير حد . وفى هذه العملية جاءت عناصر الديانة الشعبية إلى البلاط بكل أنواعها الأصلية المختلفة . ومات الإمبراطور المصاب بجنون العظمة دون أن يأسف عليه أحد .

أما أسرة « هان » (من ٢٠٢ ق. م إلى ٢٢٠ بعد الميلاد) التى خلفت أسرة « شن» فقد ورثت البنية والمؤسسات ووحدة أسرة شن ، ولكنها نبذت كلا من قسوة قوانين أسرة شن ، والتطبيق الحرفى للقانون وما فيه من تعصب . وكانت أسرة هان تبشر باقتراب فترة غنية من منجزاتها العقلية ، والثقافية ، ولا يزال الصينيون حتى اليوم يحبون أن يطلقوا على أنفسهم لقب « رجال أسرة هان » وخلال هذه الفترة استقرت الكونفوشية عندما أصبحت هى العقيدة الرسمية . كما أصبحت التاوية ديانة شعبية ، وقرب نهاية عصر أسرة هان ، ظهرت البوذية فى الصين لأول مرة .

٢٧- انتصار الكونفوشية :

وصلت أسرة شن إلى السلطة عن طريق الغزو العسكرى ، وخلفتها أسرة « هان » من خلال ثورة مسلحة ، ولكن عانى الملوك من الإمبراطور الأول - حتى عصر الإمبراطور « وو Wu » - معاناة شديدة من مشكلات القرارات البينية التى تعد النظام الملكى ، وتؤيد شرعيته . ولقد سبق أن رأينا كيف أثرت هذه الفكرة فى سلوك الإمبراطور الأول ، كما انزعج الأباطرة الأول من أسرة هان بمشكلات مماثلة ، وقد أرخ أبو المؤرخين الصينيين « سو - ما - شن Su - ma - ch' ein » فى بحث يسمى « قرابين فنج Feng وشان Shan » لتاريخ الانشغال بهذه المشكلات ، فكتب فى أثناء عصر الإمبراطور « وو Wu » معبراً عن الإيمان السائد فى ذلك الوقت بقوله : إن تفويض السماء يقتضى أن يكون الحاكم قادراً على تقديم قرابين «فنج وشان» . وفى محاولته لتعقب تاريخ هذه القرابين ، قدم لنا هذا المؤرخ ما يعد فى الواقع تاريخاً للإيمان الدينى الملكى الذى يزودنا بقدر كبير من المعلومات عن الإيمان الدينى فى عصره رغم أنه كان فى بداياته الأولى خيالياً .

والواقع أنه ليس ثمة دليل على أن قرابين « فنج وشان » كانت تمثل جانباًمن الطقوس التزم بها الملوك قديماً ، ولكن البحث عن الصيغ الملائمة أدى بملوك أسرة هان الأول إلى استكشاف مدى الإيمان الدينى فى سائر الإمبراطورية ، وقد دونت فى سجلات هذا البحث أشياء كثيرة لم تسجل فى أى مكان آخر .

بدأ نجم فقهاء الكونفوشية - خلال تقديمهم النصائح المتضاربة لأباطرة أسرة هان الأول عن تأدية الطقوس والمراسم وواجبات الملك فى تقديم القرابين - بدأ فى الصعود فى بلاط أسرة هان ؛ حتى انتهى بالانتصار النهائى للكونفوشية ، بوصفها عقيدة الدولة ، والحارس، والوسيط للطقوس الدينية المتعلقة بحكامها . وراح الكونفوشيون يعلمون الأمراء فى القصر الملكى ، وأصبحوا مرموقين فى خدمة الدولة . وفى عصر الإمبراطور « وو Wu » (حكم من ١٤٠ - ٨٧ ق. م) الذى تعلم هو نفسه على يد الكونفوشيين ، قُدم اقتراح فحواه أن الكونفوشية ينبغى أن تكون هى الفلسفة الوحيدة للحكومة . وعين الموظفون الرسميون فى البلاط ليخصصوا فى دراسة الآداب الكلاسيكية للكونفوشية وتفسيرها . بل لقد أنشئت جامعة إمبراطورية لتدريس الكونفوشية واختيار ضباط الدولة من بين خريجيها ، وهكذا تم بالتدريج تحت وطأة هذا الضغط طرد أتباع الفلاسفة غير الكونفوشيين . وفى النهاية تحت حكم الإمبراطور هسوان Hsuan (حكم من ٧٣ إلى ٤٩ ق. م) دعى مجلس إمبراطورى من ثقات الكونفوشيين ليناقش على مدى ثلاث سنوات مشكلات تأويل الآداب الكلاسيكية ، وكتبت مداولات المجلس فى مذكرة رفعت إلى الإمبراطور ، وفى عام ٥١ ق. م صدق الإمبراطور على مضمونها ، ومنذ ذلك الحين استقرت عقيدة رسمية وتأويل رسمى للآداب الكلاسيكية الكونفوشية التى أصبحت لها سلطة رسمية فى الحكومة .

وهكذا نجد الكونفوشية - التى كانت محرومة من الحماية فى عهد أسرة شن Chin، كما كانت حركة محلية صغيرة فى بداية حكم أسرة هان - وقد انتصرت مع استمرار حكم هذه الأسرة على المدارس المائة جميعاً ، فأصبحت عقيدة البلاط وعقيدة الدولة ، كما أصبحت آدابها الكلاسيكية مادة المناهج التى تدرسها الطبقات المثقفة . وكانت البراعة فى هذه الآداب هى المحك فى اختيار الأعضاء لخدمة الدولة ، وهى معيار ترقيتهم ، كما صارت الأفكار الدينية الكونفوشية ، وما تحدده من طقوس للعبادة هى الديانة الرسمية للقصر الملكى. وهكذا أصبحت الكونفوشية هى عقيدة الدولة .

٢٨- الحاجة إلى آلهة مشخصة :

إبان عصر الفلاسفة ، حلت بالتدريج محل فكرة الإله المشخص ، وأفكار الشفاعة ، والتوسط الفردى ، والعبادة – بين الفلسفات « النشطة » أفكارمادية شبه علمية عن الكون ، ونظام طقوسى للسلوك البشرى خال تماماً من التعالى . وحذف الفلاسفة المتأخرون حذفاً كاملاً عناصر الديانة الملكية لأسرة تشو Chou التى كانت قد تحولت إلى سر أخلاقى على يد الفلاسفة الأول . ولقد كانت طرق الوجد والنشوة ـ عند فلاسفة الطمأنينة ، كما كانت أهداف « السالك » فى هذا المذهب – بعيدة تمام البعد (بغض النظر عن صلتها الأولى بها) عن أفكار الشامان فى الديانة الشعبية الذين كانوا وسطاء بين الناس والآلهة ، وبين الناس والأرواح ؛ لتلبية الحاجات الدينية للشعب .

غير أن الإيمان بآلهة مشخصة استمر قائماً كما انتشر وجود الأرواح المشخصة والشامان والسحرة والمشعوذين . وأياً ما كانت تعاليم الديانة الرسمية ، فإن الناس ظلت تسعى لإقامة علاقات شخصية وفردية مع الآلهة والأرواح . والإيمان بوجود مثل هذه الآلهة والأرواح ، وكذلك الإيمان بأن الشفاعة الشخصية ممكنة من خلال توسط الشامان وغيرهم ، كان يلبى تلك الاحتياجات الدينية التى تجاهلها الفلاسفة وأهملتها الديانة الرسمية .

أما بالنسبة لأولئك الذين يشقيهم مصيرهم بعد الموت أو مصير من يحبون ، فلم تقدم لهم الديانة الرسمية أى عزاء ؛ إذ ساد الاعتقاد بأن أرواح الشخص – المتعددة ـ تنفصل عند الموت وتتفرق ، أما البدن فيتحلل . ولقد ادعى الشامان ، والمشعوذون والسحرة ، من ناحية أخرى ، أنهم قادرون على استحضار أرواح الميت الهائمة ، كما زعموا أنهم ، بوسائل تقنية مختلفة وعقاقير معينة ، قادرون على ضمان خلود الجسد ، وهكذا يمكن أن تتكامل الأرواح المبعثرة من جديد فى جسد خالد ، ويمكن تجنب ما يحدثه الموت من فناء .

وانشغل الإمبراطور الأول بالبحث ـ فى جميع أنحاء الدولة ـ عن مثل هذا الخلود عند أصحاب الوصفات الطبية ، أى عند أولئك الكهنة الشعبيين القادرين على تلبية مثل هذا العزاء ، وانكشفت أثناء هذا البحث مدى انتشار العقائد والممارسات الدينية الشعبية وراء حدود النخبة المثقفة . وانشغل أحد أباطرة أسرة هان ـ وهو الإمبراطور وو Wu ـ بعد ذلك بقرن ونصف القرن ببحث مماثل عن حياة أخرى . ولقد كان السحرة والمشعوذين الذين ظهروا فى بلاطه ـ واستنكرت وجودهم النخبة الكونفوشية المتزايدة فى البلاد استنكاراً شديداً ـ كانوا أبلغ شاهد على استمرار شعبية الدين القديم بين الناس .

٢٩- السماء الصفراء :

قرب نهاية حكم أسرة هان وصل مجموعة من المشتغلين بالكيمياء القديمة والعلاج إلى نتيجة تقول : إنه سرعان ما تحل « السماء الصفراء » محل « السماء الزرقاء » ، ويكون لها مركز الصدارة والقوة فى الكون . وتنبأوا بعمل ثورى جديد يبدأ فى عام ١٨٤ ميلادية، ويبشر بألف سنة من السلام الشامل ولقد حدثت هذه الرؤيا الكوارثية فى عصر كان فى معظمه عصر اضطراب سياسى شامل ، مما أثار صحوة الفلاحين الذين استجمعوا قواهم للثورة . وكان المتمردون يضعون على رؤوسهم مناديل صفراء اللون علامة على ارتباطهم بالسماء الصفراء ، ولهذا السبب عرفت حركة تمردهم باسم « ثورة أصحاب العمامة الصفراء »

وأياً ما كانت أسباب التمرد ، فإن هذه الحركة كانت تاوية فى قيادتها ، كما أنها استلهمت التاوية فى أيديلوجيتها ، واتجهت لتحقيق الإصلاحات التى سعت إليها عن طريق دولة تاوية . لكن التمرد تم قمعه ، وإن كان قد كشف عن وجود ديانة سمت نفسها تاوية وهى ديانة منظمة تنظيماً جيداً مع نسبة كبيرة من أتباعها من الشعب . وأصبح من الواضح أنها استقرت قبل ثورة ١٨٤ ميلادية بفترة طويلة .

ويذكر « شاغ لياغ Shang liang » فى التاريخ التاوى وهو الذى خدم الإمبراطور الأول فى أسرة هان ، وكان تلميذاً للمذهب التاوى - يذكر أنه سعى عبثاً « لبلوغ الخلود » وبعد ذلك بسبعة أجيال هاجر واحد من سلالته هو « شاغ لنج Chang ling » إلى غرب الصين حيث كتب بحثاً عن المذهب التاوى ، وكون جماعات من التلاميذ ، يقال إن عددها بلغ عشرات الألوف . واشتهر عنه أنه وصل إلى مرحلة الخلود . وفى القرن الثانى الميلادى وجت بالفعل كنيسة تاوية ، وكان لقب شاغ فيها لا معاً ومرموقاً ، كما كانت السلالة المحترمة لأسرة « شاغ لنج » من قادتها المرموقين .

وانقسمت الكنيسة التاوية إلى جماعتين حسب المناطق : واحدة فى الشرق بتوجيه «شاغ شوه Chang Chueh » وأخويه (وهم الأخوة شاغ الثلاثة) وأخرى فى الغرب بتوجيه الشاغيين Changs المنحدرين من أسرة « شاغ لنج » . ولقد قيل : إن الكنيسة الشرقية فى عصر ثورة أصحاب « العمامة الصفراء » حصلت على ولاء ثمانية أقاليم ، أى ثلثى إمبراطورية هان ، وأنها جندت ٣٦٠,٠٠٠ من أتباعها ، وكان للكنيسة التاوية فى هذه الأقاليم الثمانين ٣٦ منطقة ، وكان على رأس النظام الهرمى الأخوة الثلاثة شاغ : قائد

وحاكم السماء ، وقائد وحاكم الأرض ، وقائد وحاكم الإنسان . و « الخبير أو السالك الأعظم » هو المسؤول عن المناطق الواسعة ، مع أكثر من عشرة آلاف شخص من المريدين - أما المناطق الصغرى فتخضع لمسؤولية « الخبير هنج Chang Heng و « شانغ لو Chang Lu » وامتد النظام الدينى التصاعدى هابطاً إلى المجتمع الفردى مشكلاً مراتب من الكهنة وجمهور المؤمنين .

٣٠- الطقوس والخدمات الدينية :

طورت الكنيسة التاوية ضروباً من الطقوس والخدمات الدينية التى تقام للتكفير عن الخطيئة وكفارة المرض (الذى يعتقد أنه حدث بسبب الخطيئة) . ويقوم الكاهن بتلاوة بعض التعاويذ على الماء ثم يقدمه إلى التائب ليشربه ، فإذا فشلت هذه العملية فى تحقيق الشفاء يعزى الفشل إلى نقص الإيمان . وفى الكنيسة الغربية يدفع المؤمن خمسة مكيالات من الأرز فدية مالية (وقد ظلت الكنيسة الغربية لعدة قرون بعد ذلك تعرف على المستوى الشعبى باسم « عقيدة مكيالات الأرز الخمسة ») وتدون الخطايا كما تسجل الاعترافات : تعد ثلاث نسخ توجه إلى السماء ، والأرض ، والماء ، توضع واحدة على قمة جبل، بينما تدفن الثانية فى باطن الأرض ، وتغطس الثالثة فى الماء - أما الخطايا التى يكفر عنها بهذه الطريقة فهى ، السكر ، والفسق والسرقة .

كانت الديانة التاوية - والكنيسة التى تدعو لها - فى نهاية أسرة هان أبعد ما تكون عن مدرسة التصوف التى كانت تحمل اسم التاوية فى القرنين الرابع والثالث ق. م فقد تحولت التاوية من نظرية فلسفية تقوم على أساس الحدس الصوفى إلى ديانة للخلاص، ومن مسألة تأمل شخصى ، (وخاص) إلى كنيسة منظمة ذات نظام كهنوتى تصاعدى وأتباع . وفى نهاية أسرة هان تحولت التاوية إلى ديانة على نحو ما كانت عليه البوذية ، وما صارت إليه الكونفوشية - كانت استجابة الناس لها شعبية وعلى نطاق واسع ، وازدادت أهميتها واستجابة الشعب لها خلال عهود ست أسر حاكمة وحتى أسرة « تاغ T'ang » بل إنها صادفت بعض العصور التى تمتعت فيها بفترات وجيزة من الرعاية الإمبراطورية .

قدمت التاوية ، بوصفها ديناً ـ طريقاً للخلاص ، بل عبدت للمؤمن عدة طرق توصله إلى الجنة . ولما كان المؤمن المخلص لها فى صورته الشعبية البسيطة للغاية شديد الفقر بحيث يعجز عن المشاركة فى الأساليب المكلفة من غذاء صحى ، وتنفس ، وتناول العقاقير ،

والتقشف ، ولما كان كذلك منعدم الثقافة بحيث لا يمكنه أن يتابع البحوث الموضوعية عن الاتحاد والجذب الصوفى ـ فقد كان باستطاعته عن طريق التقوى والاعتراف والتكفير أن يكتسب ميزة ضرورية يمكن بواسطتها بعد الموت والبقاء فترة فى العالم السفلى ، أن يتم إنقاذه أو إنقاذها فينقل إلى الجنة .

ويستطيع المؤمن كذلك ـ عن طريق الالتزام بالتقوى ، وتأدية خدمات دينية خاصة فداء لأرواح الموتى ـ يستطيع أن يصلى لهم لعلهم بصلاح الأحياء أن يظفروا فى النهاية بالانعتاق من العالم السفلى ودخول الجنة .

وفى مرحلة عليا من التدين يستطيع المؤمن بالإحسان ، والتقشف ، وتأدية الخدمة للجماعة الدينية ، أن يبلغ مرحلة يلحق فيها بطبقة الموظفين الرسميين فى العالم السفلى ، ومن خلال الخدمة فى نظامها التصاعدى يضمن دخول الجنة .

٣١- تجنب الموت :

غير أن السالك الحق كان يسعى إلى تجنب الموت تماماً ، والعبور إلى عالم الخالدين . عن طريق الانتقال إلى السماء مباشرة ؛ فهناك أساليب متعددة ، ونظم كثيرة يمكن بواسطتها بلوغ مرتبة الخالدين . لكن هذه المرتبة تدخر بالطبع لأكثر السالكين تقدماً على الطريق .

وهذه النظم ـ بأوسع معنى للكلمة ـ هى عادات خاصة بالغذاء الصحى وتمرينات التنفس ، وضبط العملية الجنسية وما شابه ذلك ، ويقصد منها حلول عناصر أثيرية لا تفسد محل العناصر الغليظة الفانية فى الجسد الفانى . ولقد قيل إن الأبخرة التسعة كانت مندمجة فى العماء Chaos مع بداية الخلق ، ثم انفصلت : فتكونت السماء من أنقاها ، وتكونت الأرض من أغلظها ، وتكون الجسم البشرى من العناصر الغليظة ، ثم منح الحياة عندما دخله البخار الأصلى لحظة الميلاد . ويتصل هذا البخار (أو الجوهر) فتتشكل الروح وهى : مبدأ الحياة . وعند الموت ينفصل البخار عن الماهية . والجسم تحكمه الأرواح التى تحكم الكون . وإذ أريد للجسم ألا يتحلل فإن هذه الأرواح لا بد أيضاً أن تظل موجودة لتمنع مغادرة الروح والماهية ، وبذلك يبلغ مرحلة الخلود .

وتستخدم أربع مجموعات رئيسية من أساليب الممارسة لتحقيق هذه الغاية . أما المجموعة الأولى فهى « تغذية مبدأ الحياة » ، والثانية هى « تغذية الأرواح » ، والثالثة هى

«المحافظة على الواحد سليماً » . وقد ذهبوا إلى أن أحد أسباب الموت هو الإسراف فى تناول الحبوب ، لأن أبخرتها تغذى الأرواح الشريرة فى المعدة . وتستقر هذه الأرواح فى المخ والقلب والمعدة .

وعن طريق الانتظام فى الغذاء الصحى ، واستخدام العقاقير ، وتمرينات التنفس ، يمكن كبت هذه الأبخرة ، فيحل البخار الأصلى – وهو أزلى خالد ـ بالتدريج محل الأبخرة الغليظة والأرواح الغليظة . وحين يتم امتصاص الزنجفار (كبريت الزئبق) تتحول العظام إلى ذهب كما يتحول اللحم إلى حجر اليشم (الأحجار الكريمة) . هذا وعد آخر للفرار من الفساد والتحلل . وفى استطاعة المرء عن طريق التنفس أن يجبر الماهية (أو الجوهر) على الارتفاع من خلال النخاع إلى المخ لتقوية اتجاه البخار والماهية . وبذا يتم تغذية الأرواح التى تمنع التحلل ، وعندئذ ، يستطيع المرء أيضاً – عن طريق التأمل ، والتركيز العميق ، وحالة السكينة أو الطمأنينة ـ يستطيع أن يدخل فى اتصال مع الأرواح الخيرة بداخله ، وهى التى تؤدى بالتدريج ، وكلما تقدمت الرؤية إلى مشاهدة الثالوث الأعظم الذى يتحقق فيه الخلود.

٣٢- الجماعة التاوية :

وأخيراً يأتى بالطبع ، أعظم السالكين ، وهم أولئك الذين ساروا فى طريق « شوانغ تشو» و« لاوتسو » ونبذوا الخلود الشخصى فى سبيل مرحلة أعلى هى التوحد مع « التاو » نفسه، وهى حالة لا يمكن أن يلابسها أى احتواء مادى على الإطلاق .

تركزت الحياة فى الكنيسة – تحت زعامة أسرة شانغ – حول جماعات المؤمنين المحلية، ويتولى أمور الجماعة معلم « شيه Shih » . وتندرج تحته جماعة الموظفين الرسميين ، مرتبة وفق ألقاب مناسبة فى ثلاث درجات : الأتقياء والأغنياء فى آن معاً ، ثم الأغنياء فقط، وأخيراً الأتقياء الفقراء . وقد كان هؤلاء يؤدون طقوس الترسيم لمن بلغوا سن الثامنة عشرة ، ويساعدون المحتاجين إلى عون خاص فى حالة المرض ، ويجمعون المال للاحتفالات والأعياد الدينية ، ويقومون بصفة عامة برعاية الجماعة . ويعرف الأعضاء العاديون فى الجماعة باسم « تاو – مين Tao - min (أى الشعب التاوى) . وكان التعليم مهنة تورث فتنتقل من الأب إلى الابن . وقد ظلت سلالة هؤلاء المعلمين ـ فيما تعيه الذاكرة – تتحمل مسؤولية الجماعات التاوية وممتلكاتها ، ويوجه إليها الخطاب بلقب شيه كينج Shih Kung أى «المعلم المحترم » .

وكانت الحياة فى الجماعة حياة ممتلئة ، فلكل سنة تقويم خاص بالاحتفالات والأعياد الدينية ، وبعضها إلزامى ومحدد ، وبعضها الآخر يقام بناء على رغبة خاصة من أحد أعضاء الجماعة . ويلتقى جماعة المؤمنين ثلاث مرات كل عام للاحتفال بالعوامل الثلاثة الفعالة : السماء ، والأرض ، والماء – وهم الذين يحددن ألوان الثواب والعقاب ، وتقام الخدمة الدينية خمس مرات كل عام للمؤمن الراحل ، وهناك خدمات معينة كالولائم الدينية تقدمها الأسر المتدينة للمعلم بمناسبة الميلاد والوفاة ، وقد كان بعضها ـ بمعنى من المعانى ـ قداسات تقام وتقام بعض القداسات من أجل مصالح خاصة – كمولد ابن أو الشفاء من مرض ، أو نزول المطر ، أو الترقى فى الرتبة ، أو احتفالات بتحقيق مصالح معينة .

وازدادت بالتدريج طقوس الكنيسة من حيث العدد والتعقيد ، فمن الطقوس التى ظهرت بعد ذلك عيد « تعويذ الذهب » الذى يقام احتفالاً بالإمبراطور ، ويخصص لتفادى كوارث الطبيعة : كالفيضانات ، والآثار الضارة التى يسببها الكسوف أو الخسوف ، وما شابه ذلك ولضمان رخاء الأمة . وهناك كذلك عيد « تعويذ حجر اليشم » الخاص بصحة أفراد المجتمع جميعاً ورخائهم ، سواء أكانوا مؤمنين أو غير مؤمنين ، وعيد الغبار والرماد الذى يحتفل به كفارة عن المرض، وعيد الطلسم الأصغر لضمان الخلاص من الجحيم للأسلاف حتى الجيل السابع .

٣٣- مقدم البوذية :

سبق أن رأينا أن الكونفوشية انتصرت ، وأصبحت ديانة رسمية لبيت الحاكم وموظفيه أثناء حكم أسرة « هان » ، فى حين أن التاوية سرعان ما انتشرت فى الريف بين جماهير الشعب ، وأصبحت الديانة الشعبية والقومية للصين . لكن بينما كان ذلك يحدث ، بهدوء، وربما على نحو لم يلحظه أحد ، وردت إلى الصين من الهند ديانة أجنبية شكلت تحدياً جاداً وخطيراً لكل من التاوية والكونفوشية ، هذه الديانة هى : البوذية .

ولا نعرف على وجه الدقة متى وصلت البوذية إلى الصين ، لكن الصين كانت على صلة بالهند ، وبالغرب ، منذ أواسط القرن الأول قبل الميلاد . كانت إمبراطورية هان فى ذلك الوقت قد استقرت تماماً فى وسط آسيا وسيطرت على طريق الحرير المتجه إلى الغرب. وبعد ذلك بقرن ، فى عام ٦٥ ميلادية ، سجل وجود جماعة بوذية فى بلاط أحد أمراء أسرة هان . لكن قبل ذلك كان الرسل والجنود الصينيون قد خدموا فى البلاد البوذية فى

آسيا الوسطى . وفضلاً عن ذلك استقرت مستعمرات غير صينية من هذه البلاد البوذية فى المدن التجارية للصين ذاتها .ثم ظهرت قرب نهاية القرن الأول الميلادى جماعة بوذية فى «لوياغ Loyang » العاصمة ذاتها .

وجاء إلى هذه الجماعة فى عام ١٤٨م مبعوث بارثينى اسمه « شيه كاو Shih Kao »[١] وهو أول شخصية تاريخية لا جدال حولها فى تاريخ البوذية الصينية . ولقد بدأ «شيه كاو » هذا بالتعاون مع أعضاء البعثة فى الكنيسة البوذية « فى لوياغ » (من السوجديان ، والبارثينيين ، واليوشيهين والهنود)[٢] ، فى عمل طويل الأمد هو : ترجمة الكتب البوذية المقدسة إلى اللغة الصينية . وفى عام ١٦٦ ميلادية أقام الإمبراطور « هوان Huan » من أسرة هان مراسم تاوية وبوذية فى القصر الإمبراطورى ، فكان ذلك بمثابة إعلان رسمى عن مقدم البوذية إلى الصين .

كانت البوذية ـ كالتاوية ـ ديانة للخلاص ، لكن ينبغى علينا ألا نفترض أن البوذية التى ضربت بجذورها فى الصين فى عهد أسرة « هان » كانت عقيدة ذات كيان عضوى متكامل وممارسات دينية مثلما كانت فى الهند حيث انقسمت إلى مدارس متعددة ، سبق أن تطورت بالفعل تطوراً لا بأس به ، لقد تلقى الصينيون البوذية على أنها صورة أجنبية من التاوية .

٣٤- عقيدة متناقضة :

كانت التاوية والبوذية عقيدتين متناقضتين فى عدد من الجوانب الأساسية ؛ فالتاوية تسعى لإدامة الشخصية الإنسانية ، فى حين تنكر البوذية وجودها ذاته ، فلايوجد عند البوذيين ما نسميه « نفساً أو أنا » والتاوية تتطلع إلى خلود الجسد المادى ، بينما تنظر البوذية إلى الجسم البشرى – على نحو ما تنظر إلى جميع الأشياء المخلوقة – على أنه عابر وزائل .

غير أن هذه الخلافات العقائدية كانت فى البداية غامضة ومبهمة فى أعين الصينيين . لقد كان للبوذية فى ممارستها الدينية أشياء مشابهة ـ فى ظاهرها ـ للتاوية ، فهى تمارس عبادة شعبية بغير قرابين ، وتضفى أهمية على التأمل وممارسات اليوجا ، وعلى الصوم

---

(١) أى من بارثينا Parthia منطقة قديمة فى إيران (المترجم) .

(٢) أسماء لشعوب قديمة فالسوجيان كانوا يسكنون وايا فى جمهورية أزبكستان الحديثة ، والبارثيون سكان منطقة خورسان فى إيران قديما ... إلخ (المترجم) .

والتقشف . وقد ظل الاعتقاد شائعاً فى الصين لعدة قرون بأن « لاوتسو » أب التاوية ، هو الذى علم بوذا . وأن البوذية هى ببساطة : صورة أجنبية من التاوية .

وكانت مشكلات نشر الإيمان مشكلات هائلة ؛ إذ كان إيماناً ينتشر فى وسط اجتماعى مختلف أشد الاختلاف عنه فى الصين ، ويفترض التسليم بأمور كثيرة تحظى فى الهند بقبول عام ، ولكنها غريبة تماماً عن الصين ، ويعبر عنه بلغة تختلف عن اللغة الصينية بقدر ما تختلف عنها السنسكريتية ، وبواسطة رهبان لم تستطع إلا قلة منهم التعبير عن أنفسهم تعبيراً جيداً باللغة الصينية (قبل أواخر القرن الرابع الميلادى لم يكن أحد من الصينيين يعرف اللغة السنسكريتية) .

ولما ووجهت العقيدة والممارسات بهذه المشكلات المحرجة ارتدا إلى العناصر التى وجدت لها نظائر فى الحياة الدينية الصينية وفى الفكر الصينى سواء قام هذا التناظر على أساس تشابه حقيقى أو مزعوم ، كما كان من الممكن تكيفها (أى تلك العناصر) مع الممارسات الصينية ودمجها فيها .

٣٥- عصر الإيمان :

على مدى القرون الأربعة التالية حل محل وحدة أسرة هان فترة من التمزق والتفكك عرفت بفترة الممالك الثلاث والأسر الست ، واستمر التفكك حتى عادت الصين إلى الوحدة مرة أخرى فى عهد أسرتى سوى Sui وتانغ T'ang .

وكانت فترة التفكك السياسى بداية لعصر الإيمان فى الصين ، فقد أرخت الحظوظ المتقلبة للبيت الملكى قبضة الكونفوشية عن المثقفين ، وفى هذه التربة الحرة الطليقة ازدهرت الكنيسة التاوية ، وبدأت الكنيسة البوذية ـ بالتدريج ـ تثبت أقدامها .

٣٦- الكونفوشية فى عصر الإيمان :

خدمت الكونفوشية الدولة فى ظل السيادة لأسرة هان ، ونجح الكونفوشيون نجاحاً كبيراً ، فى استبعاد الخصوم من المناصب المؤثرة . ومع انهيار سلطة أسرة هان وسقوط الصين فى التفكك السياسى ، فقدت الكونفوشية مكانتها المرموقة ، وأحيا علماؤها « الإداريون » الاهتمام ببعض المدارس المعارضة ومنها : مدرسة التطبيق الحرفى للقانون (أو مدرسة الشرائع Legalism) ، والموهية Mohism ، والتاوية الصوفية وفى أواسط القرن الثالث الميلادى ، ومن داخل حلقات الكونفوشية نفسها ظهر تعليم جديد هو « التعليم

المظلم » (هسوان هسوية Husen Huueh أو المعرفة المظلمة التى أصبحت ـ عند الأرستقراطية المثقفة ـ صورة عقلانية من الكونفوشية المستمدة إلى حد كبير من إعادة تأويل لكتاب « شواغ تسو» ، وكتاب « تاو - تى - كنج » و « كتاب التغيرات » ، وأصبحت طريقة رائدة فى التفكير ، كما أصبحت بما انطوت عليه من فضول عقلى ونزعة ميتافيزيقية فلسفة الطبقات الأرستقراطية المترفة وتسليتها . وهكذا أصبح الجو العقلى القائم من العوامل المؤثرة على تطور البوذية . أما صورة الكونفوشية التى ثقفت الأسر الحاكمة فى أسرة هان وغلب عليها التشدد فى التشريع والاعتقاد فقد كان عليها أن تتنحى لتخلى السبيل أمام كونفوشية ذات نزعة تأملية وعقلانية أصرح ، تمكنت أن تخلق فى أتباعها ذهناً أكثر تعاطفاً مع دقائق الفكر البوذى .

٣٧- البوذية فى عصر الإيمان :

إبان القرن الثالث المضطرب حصرت الكنيسة البوذية فى الصين -وقد كانت لا تزال إلى حد كبير فى أيد غريبة - حصرت معظم طاقاتها فى ترجمةالكتب البوذية المقدسة ، وتعرضت فى سبيل ذلك لظروف بالغة الصعوبة فى كثير من الأحيان . وقد استطاع المبشرون الأجانب - وكثيراً ماكانوا ينشأون ويتعلمون فى الصين فى ذلك الوقت ـ أن يصلحوا من تعقيد الترجمة ويصقلوا أسلوبها إلى حد كبير .

كان هذا النشاط على جانب كبير من الأهمية ؛ فالبوذية قد جلبت إلى الصين صورة جديدة من التنظيم الاجتماعى - وهو تنظيم جماعة الرهبان أو « السنغا » الذى أصبح ظاهرة اجتماعية لها دلالتها الكبرى فى المجتمع الصينى فى العصر الوسيط ، إذ لبت الحاجة إلى النشاط العقلى بطريقة لم تكن معروفة من قبل فى الصين ، غير أن الكنيسة احتاجت إذن الطبقات الحاكمة ، ورعايتها ، لأهمية ذلك وضرورته بالنسبة لمؤسسة ثورية ومكلفة إلى هذا الحد . ولهذا كان على البوذية أن تتغلغل فى هذه الطبقات التى كانت بمثابة حراس الثروة ورعاتها . وعلى الرغم من المجهود الهائل الذى بذلته البوذية فى القرن الثالث للحصول على الكتب المقدسة وترجمتها فقد أحرزت تقدماً بطيئاً فى هذا المضمار . ولكن خلال القرنين الرابع والخامس نجحت الكنيسة البوذية فى تشكيل صفوة كهنوتية عقلية من الرهبان الصينيين والأجانب المتوطنين الذين أخذوا يقومون بدور الدعاة لبوذية متكيفة مع ظروف البلاد ، حتى تمكنت هذه الصفوة من النفاذ إلى الطبقات الصينية العليا ، وقويت البوذية منذ ذلك الحين وأصبحت تمثل تحدياً قوياً وخطيراً للتاوية .

ومن أهم الهدايا الثقافية التى منحتها البوذية للصين إثراء آدابها ، لا بالكتابات البوذية وحدها ، بل بأشياء أخرى كثيرة لها قيمتها العلمية والفلسفية المستمدة من الثروة الأدبية الهندية . ومن أهم الدلائل المثيرة على تقوى المؤمنين البوذيين ذلك القدر الكبير من الطاقة والموهبة الذى وضعوه فى جهدهم فى الترجمة . ولقد سبق أن تحدثنا عن الصعوبات التى وجهها المترجمون الأول . ولكن جهد الترجمة اتخذ منحنى جديداً مع بداية القرن الخامس، عندما أعد كوماراجيفا Kumarahuva وهو بوذى من آسيا الوسطى - مكتباً للترجمة ، بمساعدة الإمبراطور ، وفاق أى تنظيم من نوعه وجد فى الصين حتى ذلك الوقت . فها هنا مع حشد ضخم من المساعدين استطاع أن يخرج كتباً مقدسة جديدة ، كما أعاد ترجمة الترجمات السيئة السابقة ونشرها خارج البلاد ، ولقد قام هو ومعاونوه بترجمة ما يقرب من ٩٨ كتاباً بقى لنا منها ٥٢ كتاباً دخلت ضمن الشريعة البوذية ، ولقد أضفت رشاقة ترجمات « كوماراجيفا » على الكتابات البوذية المقدسة سحراً جديداً اجتذب المثقفين الصينيين الشغوفين بالأدب .

٣٨- ترجمات شتى :

تزايد عدد الترجمات منذ ذلك الوقت وأصبحت أكثر دقة ، وفتحت مكاتب مختلفة للمترجمين ليواصلوا جهود « كوماراجيفا » . ولا بد لنا أن نذكر بصفة خاصة بارامارثا Paramartha وهو رجل هندى من أسرة (برهمية براهمان Brahman) الذى ترجم حوالى سبعين كتاباً فى منتصف القرن السادس . ونخص بالذكر أيضاً « هسوان تسانغ Hgean - Tsang »[1] وهو صينى من أسرة موظفين رسميين كرس بقية حياته- بعد رحلة حج إلى الأماكن المقدسة بالهند عام ٦٤٥ ميلادية - لترجمة النصوص المقدسة التى جمعها فى رحلاته . وقيل إن حجمها بلغ خمساً وعشرين مرة من حجم الإنجيل ! وترجمة « آى شنج I ching » الذى قام برحلة حج مماثلة بعد وفاة « هسوان تساغ » بوقت قصير ، فزار الهند عن طريق البحر من جنوب الصين .

سارت الجهود التى بذلت لإحضار الكتب المقدسة إلى الصين وترجمتها بخطى حثيثة، وثابتة ، منذ قدوم البوذية إلى الصين ، وحتى القرن الثامن عندما انقطع الاتصال بآسيا

---

(١) هوان تساغ (٥٩٦ ـ ٦٦٤ م) حكيم صينى يعد من أعظم الفلاسفة والأدباء الذين أنجبتهم الحضارة الصينية (المترجم) .

الوسطى وبالهند عن طريق البر ، وقد أضافت هذه الجهود الشيء الكثير إلى الفلسفة الصينية والفكر الصينى بعامة . غير أن نشر الإيمان بين الجماهير كان إلى حد كبير من النوع الذى وصل إلى الصين فى نهاية أسرة « هان » ، وحقبة الممالك الثلاث ، إذ كان هو إيمان البوذية التى عدلتها الممارسات التاوية تعديلات كثيرة ، وتوافقت مع أفكار البلاد الأصلية ، ولقيت القبول من الشعب الصينى . غير أن البوذية المترهبنة قد طورت فى الصين صورها المتميزة ونفذت هذه الصور ببطء إلى عامة الناس .

كانت العقيدة البوذية وممارساتها قد استقرت ثابتة فى الهند وآسيا الوسطى قبل أن تصل إلى الصين بوقت طويل . غير أن البوذية ، كما سبق أن رأينا ، سواء فى صورة الهنايانا (المركبة الصغرى) ، أو المهايانا (المركبة الكبرى)وبوصفها ديانة للرهبان أو لعامة الناس ، جاءت إلى الصين من خلال عملية ذيوع بطيء فى كثير من الأحيان عن طريق الكتابات المقدسة والوعظ ، وفى أشكال بسيطة وأشكال معقدة ، عبرفترة بلغت حوالى خمسة قرون ، واستقبلت فى بلاد لديها نظام أو نسق قومى من المعتقدات الدينية لا يقل عمره عن ألف عام ، وترجمت إلى لغة كانت مفرداتها ذاتها مفعمة بالأفكار الصينية فى كثير من الأحيان وتتعارض مفرداتها تعارضاً ملحوظاً مع مفردات اللغة السنسكريتية لغة البوذية ورغم هذه الصعوبات جميعها فقد جلبت إلى الصين ديانة تقوم على أساس الإيمان ببوذا ، وبجوهر عقيدة بوذا ، وحقائقها الأربع الأساسية : والحقيقة المقدسة الأولى هى أن الحياة شر ، والوجود معاناة ، والحقيقة الثانية هى أن الميلاد الجديد يعمل على إدامة الحياة ، وأن الاشتياق والرغبة هما اللذان يسببان هذا الميلاد من جديد ، والحقيقة الثالثة هى القول بأن التحرر من الميلاد الجديد يمكن أن يتحقق بالتخلص من الرغبة والاشتياق . والحقيقة الرابعة هى أن ثمانى خطوات تؤدى إلى إيقاف شر الحياة . وتعتمد الطريق ذات الثمانى شعب على الفهم السليم ، والفكر السليم ، والكلام السليم والسلوك البدنى السليم والمعيشة السليمة ، والجهد الأخلاقى السليم ، والانتباه السليم ، والتركيز السليم .

وهناك طريق واحد فحسب للفرار من هذه المعاناة ، وهو الطريق الذى اكتشفه بوذا ، والذى يؤدى إلى النرفانا Nirvana ، أعنى : إلى الوجود المطلق غير المشروط ، الوجود الذى يدوم دون أن يفضى إلى الموت أو إلى ميلاد جديد ، ويأتى الخلاص عن طريق الإيمان ببوذا وتطبيق الشريعة Dharam كما تعظ بها جماعة الرهبان (السنغا) . ومن هنا يأتى الاعتراف بالإيمان لديها : « إنى أجد ملاذى فى بوذا ، إننى أجد ملاذى فى الشريعة ، إننى أجد ملاذى فى جماعة الرهبان » .

٣٩- الرهبان وجمهور المؤمنين :

للبوذية ـ كالتاوية ـ نمطان من الحياة الدينية : حياة الرهبان وحياة العامة . وبينما كان الرهبان وأهل الفكر ، والمثقفون فى الديانتـــين يجادلون فى الخلافات العقائديـة ، ويؤثرون بمجادلاتهم فى الحيـاة العقلية الصينية بصفة عامة ، كانت الديانتان تتنافسان من أجل استمالة أرواح الشعب الصينى. والديانتان معا تردان العقيدتين اللتين بلغتا مستوى عالياًمن الرهافة والعمق الميتافيزيقى إلى صيغ بسيطة تسمح لرجل الشارع أن يتذوق بواسطتها العزاء الذى يعينه على الحياة ، ويعطيه الأمل فى دخول الجنة فى الحياة الأخرى ، على الرغم من أنه قد يفتقر لأى قدر من الثقافة يمكنه من الدخول فى مناظرات مدرسية . وربما كان أفقر من أن ينبذ العالم من أجل الدير البوذى أو المستعمرة التاوية .

وعندما عبرت البوذية فى الصين عن نفسها من خلال العبقرية الصينية ، وتم تفاعلها مع التاوية ، أنتجت عدداً من الفرق البوذية الصينية الخالصة . ومن هذه الفرق الأساسية بوذية « تشن Ch'en » وبوذية مدرسة الأرض الطاهرة Tien Tai، وفرقة تشن ين Chen yen التنترية .

٤٠- مدرسة تشن : Ch'an

أول مدرسة من هذه المدارس الصينية هى مدرسة «تشن» (وهى الكلمة الصينية التى تقابل الكلمة السنسكريتية ديانا Dhyana ، أى التأمل ، والكلمة اليابانية زن (Zen) . ومن تعاليم مدرسة تشن الأساسية القول بأن « الخلاص يأتى من الاستنارة الداخلية . وتأتى هذه الاستنارة فى لحة خاطفة على نحو ما حدث لبوذا . إنها تحول فجائى يمكن بلوغه هنا والآن وهى تعلمنا أن الحقيقة الوحيدة هى طبيعة بوذا ، وعندما نستدير إلى داخل أنفسنا بنظرتنا الفاحصة نستطيع أن نرى ذلك ، وبرؤية واحدة نهائيـــة تنكشف لنا بغتـة . وهكـذا نجد أن « تشن » تعادى ما أصبح تراثاً فى البوذية ، وتنظر نظرة عدائية إلى الصور والكتابات المقدسة ، وتنبذ النظر الميتافيزيقى وكذلك النظرية ، لصالح الفكر العينى ، وبذلك تخلت عن عمليات التجربة الدينية المتدرجة ومستوياتها فى سبيل لحظة واحدة وتجربة شاملة . ولقد جمعت « تشن » فى هذه الأمور أشياء كثيرة مشتركة مع تعاليم التاوية الصوفية .

أصبحت « تشن » مدرسة مستقلة فى بداية القرن الثامن ، وبحلول عام ٧٥٠ ميلادية كان لديها نظام خاص بالأديرة وقواعد الحياة فيها ، وقد زعمت أنها ترتبط بأصول موغلة

فى القدم ، وردت بداياتها إلى تشونا وشنج ChuTas - Sheng (الذى ازدهر عام ٣٩٧ - ٤٣٤ ميلادية) وتلاميذه الذين تعلموا على يدى لنكافاترا سوترا Lankavatara - Sutra الذى هاجم فكرة « الامتياز أو الجدارة » وإلى « بوذا أهرما Bodhidharama » فى أوائل القرن السادس ، الذى تنسب إليه الأساطير شرف الحملقة فى جدار أبيض ناصع البياض لمدة تسع سنوات ، وإلى الرهبان المشهورين الذين التفوا حول « هوى ننج Hui neng » (٦٣٧ - ٧١٣ ميلادية) لكن تلميذاً لـ « هوى ننج » هو « تشن هو » أسس مدرسة فى جنوب الصين حيث ازدهرت « تشن » فيما بعد . وفى القرنين الثامن والتاسع بلغت « تشن » أوج عصرها البطولى ، وفى ذلك الوقت نفسه عمل أساتذة تشن العظام . وبحلول الألف الأول الميلادى لم يكن لـ «تشن » من منافس إلا بوذية الأرض الطاهرة . ومع أسرة سنج Sung كان أثر تشن قوياً فى تصوير المناظر الطبيعية ؛ حتى أن هذا الأثر تغلغل بقوة فى الحياة الجمالية للصين .

٤١- مدرسة الأرض الطاهرة :

ثانى مدارس الصين هى مدرسة « شنج تون Ch'ing Tu » ـ الأرض الطاهرة) أو اللوتس Lotus أو مدرسة أميدا Amidist Sch ، ومدرسة الأرض الطاهرة هى مدرسة بوذية الإيمان البسيط . لقد كان أحد الفروق بين « المهايانا » ، و« الهنايانا » ، أن الأولى تذهب إلى أن من يعجز عن بلوغ الاستنارة بنفسه يمكن أن يصل إليها عن طريق الإيمان بفاعلية « بوذا » و « بوذا المنتظر » ، فبعض « البوذا » خلقوا أرض بوذا ، وأرض أميتبها هى الأرض الطاهرة فى الغرب ، والتضرع البسيط لا سم أميتبها مقروناً بالإيمان بفاعليته يضمن للمؤمن الميلاد من جديد فى الأرض الطاهرة .

نشأت عقيدة أميتبها « Amitabha » [1] (وهو بوذا صاحب الحياة الطويلة اللا متناهية) فى الهند ، وفى القرن الرابع وصل إلى الصين من أواسط آسيا ، مبشر هو « فا - تو - تنج Fa - tu - tong » (توفى ٣٤٩ ميلادية) ، واستقر فى مدينة «لوياغ Loy-ang»[2] ، وبنى الكثير من المعابد برعاية الإمبراطور ، كما انشغل بالتبشير بإنجيل البوذية على نطاق واسع لإقامة كنيسة بوذية تجذب إليها جماهير الناس ، ورجال البلاط على

(١) أميتبها Amitabha تعنى حرفيا « النور اللامتناهى » وه موضوع الإيمان الأول فى بوذية المهايانا اليابانية وهم يضرعون إليه للخلاص باسم « اميدا » (المترجم) .

(٢) كانت هذه الدينة عاصمة فى عهد كثير من الأسر التى حكمت الصين : « شو ، وهان ، وغيرهما » وهى مدينة صناعية كبيرة ومركز تجارى هام فى الصين (المترجم) .

السواء. وواصل واحد من تلاميذه هو « تاو - آن Tao - an » (٣١٤ - ٣٨٥م) مهمته التبشرية إلى مدى أبعد . وتتلمذ عليه أحد أتباع التاوية السابقين وهو « هوى - يوان Huit - Yuan مـــن (٣٣٤ - ٤١٦) [١] وهو الذى أسس مدرسة الأرض الطاهرة مستخدماً أساليب التاوية فى التعبير المجازى .

وانتشرت عبادة « بوذا » و « البوذا ستافا » (أى المنتظرين) وهم الذين على وشك أن يصلوا إلى مرتبة البوذا ، لكنهم يحجمون عن الدخول فى « النرفانا » ليعملوا على خلاص الآخرين . وفى الصين اكتسب بوذا وبوذا ستافا (أى بوذا المنتظر) أسماء صينية خالصة ، كما ظهروا فى رسومات الأيقونات وصورها . وأصبح « جوتاما » ، أو بوذا التاريخى يحمل اسم شيه - شيا - فو Shih Shia Fu (ساكيامونى Sakyamuni) [٢] ، ويظهر جالساً فى زهرة اللوتس فى حالة تأمل ، أو مضجعاً • (بوذا النائم) ، أو على هيئة ناسك . وأصبح بوذا ستافا (أى المنتظر) « أفالوكويتسفارا Avalokitesvara يحمل اسم « كوان - ين Kuan - Yin » [٣] ، (وهو لقب ظهر فى أساطير التاوية) وكان فى الأصل ذكراً ، لكنهم يصورونه - فى العادة - فى صورة أنثى هى آلهة الرحمة لمن هم فى خطر . وأصبح كيشتجاربها Kshitigarbha [٤] ، يحمل اسم تى تساغ Ti - Tsong أو بوذا المنتظر الذى

---

(١) « هوى - يوان » كاهن بوذى صينى شهير كوّن جماعة من الرهبان ، ومن عامة المتعبدين لعقيدة بوذا أميتبهما ، وهى الجامعـــة التى تفرع منها بعد عدة قـرون (فى القرنـين السادس والسابـــع) مدرسة « الأرض الطاهرة » التى أصبحت اليوم أكثر صور البوذية شعبية فى شرق آسيا ، وكان « هون - يوان » فى بداية حياته منتميا إلى التاوية ثم انتقل إلى الكونفوشية وأخيراً إهتدى إلى البوذية (المترجم) .

(٢) ساكيامونى تعنى حرفيا « حكيم ساكياس Sakyas » وهو « بوذا جـوتامـا » التـاريخى أو بـــوذا الأكبر (المترجم)

(٣) « كـوان - ين Kuan-yin » هو الصورة الصينية لبوذا المنتظر الرحيم الشفوق الذى عرف فى اليابان باسم « كـانون Kannon » ينظر إلى هذا المصطلح عـادة على أنه التـرجـمـة الحـرفـيـة للكلمـة السنسكريتية Avalokites Vara التى تعنى « الســيـد المنتظر » أو « بوذا القـادم » الذى يتـحلى بصفات الرحمة والشفقة (المترجم) .

(٤) كلمة سنسكريتية : معناها الحرفى « رحم الأرض » وهى تشير إلى بوذا المنتظر على نحو ما عرف فى الهند فى القرن الرابع الميلادى ، ثم أصبح شخصية شعبية فى الصين باسم « تى - سواغ » وفى اليابان باسم « جيزو Jizo » وهو مخلص المضطهدين المحتقرين ، نذر نفسه ألا يوقف نشاطه حتى يخلّص أرواح الموتى الذين حكم عليهم بالبقاء فى الجحيم ، ولهذا نظروا إليه فى الصين على أنه صاحب السيطرة على الجحيم ، وكان يضرع إليه المحتقرون ، أما فى اليابان فقد أصبح جيزو الإله الرحيم الشفوق الذى يهتم بالموتى من الأطفال (المترجم) .

يسافر عبر الأعراف ليسلم أرواح الملعونين . كما أصبح ميتريا Maitreya يحمل اسم «مى – لو – فو Mi - Lo - Fu » وهو بوذا المخلص الذى سيعيد إلى الأرض تعاليم بوذا عندما ينسى الناس شريعته .

وعلى الرغم من أن هذه العقائد ، ومعها عقائد أخرى ، انتشرت منذ القرن الرابع وما بعده ، فقد ارتبطت عقيدة أميتبها Amitabha (وهو فى اللغة الصينية أومى – تو Omi-To) وعقيدة « كوان – ين » – ارتباطاً وثيقاً بمدرسة الأرض الطاهرة . وألهبت جنة « أميتبها » خيال الصينيين ، بنفس الطريقة التى ألهبته بها جنة التاويين أو موطن السحر فى جبال كون – لون Kun - Lun[1] ، التى كانت موطن الملكة الأم فى الغرب .

وتتطلب مدرسة الأرض الطاهرة إيماناً بسيطاً وابتهالات بسيطة من المؤمن المتواضع الذى يرتبط بعمله اليومى ؛ فهو أفقر من أن ينغمس فى دراسة الشعائر الدقيقة وممارستها . ولقد كانت هذه المدرسة – بقدر ما تعى الذاكرة الحية ـ أكثر صور البوذية شعبية بين العامة . وما أن حلت سنة ١٠٠٠م حتى جذبت مدرسة شان Ch'an ومدرسة الأرض الطاهرة ولاء الغالبية العظمى من الرهبان الصينيين .

٤٢- مدرسة « تيان تاى » و « شن - ين » :

أسس شيه يى Chih Yi (٥٣٨ – ٥٩٧م) مدرسة تيان تاى Tien - Tai [2] وهو تلميذ « هوى – سو Hui - su (توفى عام ٥٧٧م) الراهب الذى عمل بهمة للإبقاء

(١) سلسة من الجبال تمتد إلى ما يقرب ١,٦٧٥ ميلاً من الاتحاد السوفيتى غربا حتى التبت ، وهى تعد أطول سلسلة جبال فى آسيا الوسطى .

(٢) مدرسة « تيان تاى » مدرسة عقلية فى الفكر البوذى استمدت اسمها من سلسلة جبال « تيان تاى » فى جنوب شرقى الصين حيث كان يعيش مؤسسها ويلقى تعاليمه فى القرن السادس ، ثم انتقلت إلى اليابان وعرفت باسم « تنادى Tandai » والكتاب المقدس الرئيسى عندها هو « سوترا اللوتس » أو نصوص اللوتس ، وتستند عقيدتها إلى حقيقة ثلاثية هى : ١ ـ تفتقر الأشياء جميعا إلى حقيقة أنطولوجية ـ٢ـ ومع ذلك فللأشياء وجود مؤقت عابر ـ٣ـ الأشياء جميعا موجودات غير حقيقية ومؤقتة فى آن معا . كل واحدة من هذه الحقائق تتضمن الأخرى ، وكان أول من علّم هذه الحقيقة الثلاثية « هوى ـ ون » (٥٥٠ ـ ٥٧٧) ، لكن الرئيس الثالث لهذه المدرسة « تشيه يى » هو الذى ينظر إليه على أنه مؤسسها ؛ لأنه الذى نظم الشرعية البوذية بطريقة جدية (المترجم) .

على حياة الآداب البوذية . وكانت تعاليم « شيه يى » الذى كان فى بداية حياته مفسراً وشارحاً للشان Ch'an (١) ، تقول إن الخلاص لا يكمن فى عملية واحدة فحسب ، وإنما يكمن فى توازن دقيق للتأمل والتركيز ، ودراسة الكتب المقدسة ، والنظام الأخلاقى ، ومراسم الطقوس ، وهذا الرفض للتطرف ، بجانب الدور الذى خصص لدراسة الشريعة المقدسة كانا مبعث جاذبية خاصة شدت إليها الكونفوشيين . ولقد أخرجت هذه المدرسة كثرة من الباحثين المتمكنين ، كما كتب « شيه يى » عدداً من الشروح والبحوث عن البوذية جذبت إليها الطبقات التى دربت على النظام الكونفوشى بفضل اعتدالها وتنافسها وتفسيرها المنهجى البسيط .

أما المدرسة الثانية فكانت من نوع مختلف تمام الاختلاف ، وأعنى بها مدرسة « شن ين» Chen - Yen (مدرسة الكلمة الصادقة) وهى فرقة خرجت من صورة الإيمان المعروفة باسم البوذية التنترية Tentric أو السحرية . وكانت تسمى ، فى بعض الأحيان ، باسم « مى — شياو mi - chiao (أى التعاليم السرية) بسبب طبيعتها المستورة . ويبدأ الخلاص فى هذه المدرسة بترسيم من يريد أن يكون مؤمناً للدخول فى حلقة معلم يذعن له إذعاناً تاماً ، ويأخذ عنه الحقيقة ، أو الأسرار . والخلاص يعنى امتلاك هذه « الأسرار » التى تلتمس باستخدام الرقى ، وتأدية أيماءات وحركات صامتة ، والتوحد عن طريق التأمل بكثير من آلهة مجمع التنترية .

دخلت مدرسة « شن — ين » إلى الصين فى القرن الثامن ، وتأسست على مذهب أموجها فاجارا Amoghavajara (٧٠٥ — ٧٧٤م) (٢) وسرعان ما شقت طريقها بعد ذلك من الصين إلى اليابان حيث لايزال لها كثرة من الأتباع مثل فرقة شنجون (٣) Shin

(١) كلمة Chan صينية من الكلمة السنسكريتية Dhyama التى تعنى التركيز فى التأمل ، وهى صورة من بوذية المهايانا نشأت فى الصين ، وشددت على أهمية الوعى أو الإدراك الحدسى المباشر لطبيعة بوذا ، وهى التى انتشرت انتشاراً واسعاً فى العصور الحديثة فى اليابان باسم بوذية « زن Zen » (المترجم) .

(٢) راهب بوذى هندى ، وأحد ثلاثة يطلق عليهم اسم « الصوفيون الأطهار » هو الذى جلب فرقة «الكلمة الصادقة » البوذية إلى الصين فى عهد أسرة « تانغ Tang » (المترجم) .

(٣) فرقة بوذية سرية كان لها تطور فى اليابان منذ أن قدمت إلى الصين فى القرن التاسع ، وشنجون : تعنى الكلمة الصادقة ، وهى بالصينية « شن ين » ترجمة لكلمة « مانترا Mantra» السنسكريتية ، وهى محاولة للوصول إلى حكمة بوذا الأزلية التى لا يعبّر عنها بكلمات ولا تكون موضوعا لتعاليم عامة (المترجم) .

gon وتخاطب البوذية التنترية الشعور بالأسرار الخفية التى تعود إلى فجر التاريخ ، وقد قدمت للبوذية فى الصين شعائر سحرية وألواناً من السحر كانت بالفعل جزءاً من الديانة التاوية .

٤٣- التاوية فى عصر الإيمان :

وصلت الكنيسة التاوية إلى ذروتها خلال عصر الإيمان ، ولا سيما إبان حكم الأسر الست ، ورغم نجاحها فى عهد أسرة « سوى Sui وبداية عهد أسرة تانج Tang » فإنها بدأت بعد ذلك فى الانحدار الطويل البطيء إلى أن وصلت إلى حالة الاحتضار فى العصور الحديثة . وقد أصبحت هذه الكنيسة تعارض سياسة العرش مع نهاية أسرة هان Han ، أما بعد القرن الرابع الميلادى فقد تمتعت بحماية البلاط والأسر الكبيرة ، وظهر مشاهير الشعراء من أمثال « تاويان – منج Tao Y » (٣٧٥ – ٤٢٧م) ، والفنانين من أمثال الخطاط وانغ – هس – شيه Wang Hsi -chih (٣٣١ – ٣٧٩) ، والرسام « كوكاى – شيه Ku,kai - Chih » (٣٤٤ – ٤٠٦م) الذين تأثروا بالتاوية . وخلال حكم أسرة « سوى Sui » وأوائل عهد « أسرة تانج » نالت هذه الفرقة عطف الإمبراطور بسبب « حجر الفلاسفة »[١] الذى قام الكيمائيون التاويون بإعداده ، كما أرسل ثانى إمبراطور فى أسرة «تانج » نسخة من « تاو – تى - كنج Tao - Te - Ching »[٢] باللغة السنسكريتية إلى أمير أسام Assam[٣] وأبدى أباطرة أسرة « تانج » الذى تطابق لقبهم مع اسم « لاو – تسو » (أعنى لى Li) تعاطفاً خاصاً مع التاوية – رغم وصولها إلى مستوى التعاطف الرسمى – فقدت بعد عصر الإيمان شعبيتها التى نالتها بين الجماهير ، وتقلصت تدريجياً حتى أصبحت ديانة للرهبان والمشعوذين .

واشتبك البوذيون والتاويون فى صراع عنيف خلال عصر الإيمان للاستحواذ على أرواح الصينيين ؛ فقد وجد التاويون صعوبة فى أن يغفروا للبوذيين أنهم سحبوا منهم أتباعهم بهذه الأعداد الغفيرة ، وأحنق البوذيين ، من ناحية أخرى ، أن يوصم دينهم بأنه ليس سوى صورة

---

(١) مادة كان قدماء الكيمائيين يعتقدون أنها قادرة على أن تحيل المعادن الخسيسة إلى ذهب (المترجم) .

(٢) مجموعة من الكتابات الصينية الكلاسيكية وهى تعنى « الطريق إلى القوة » وكانت تسمى قبل ذلك كتابات « لاو ـ تسو » على اعتقاد أنها من تأليفه ، وهى ترسم طريقا فى الحياة لاستعادة الانسجام والسكينة فى المملكة التى فرقتها الاضطرابات (المترجم) .

(٣) ولاية هندية تقع شمال شرق الهند على حدود بنجلاديش (المترجم) .

أجنبية من التاويـة ، ونشب جدل عنيف حول ما إذا كـان بوذا هو معلم « لاو – تسو » أو تلميذه .

وكلما غلب الطابع الصينى على البوذية غلبت عليها كذلك ـ بطريقة ما ـ الروح التاوية . غير أن التاوية بدورها استمدت خلال تطورها الكثير من البوذية .

٤٤- الكونفوشية الجديدة :

لم تفقد الكونفوشيـة أبداً سيطرتهـا على المثقفين وأهل الفكر Literati رغم انشغالهم « بالتعليم المظلم » خلال عصر الإيمان ، وبقيت شريعتها ـ بالنسبة للمثقف ـ تمثل جوهر الثقافة الصينية ، كما استمرت دراسة الكلاسيكيات الكونفوشية بعد أن اعترف بها القصر الإمبراطورى رسمياً فى عهد أسرة هان . وفى القرن الثانى الميلادى كتب « ما جنج - Ma Jung » ، و« شنج – هسوان « Cheng - Hsuan » ، شروحاً على هذه الكلاسيكيات ، وبذلك بدأ تراث من البحث المدقق لتفسير أفكار « كونفشيوس » ودراستها لتكون أفضل وسيلة لنشر أفكار كونفوشيوس – وفى القرن السابع كتب « كونغ – ينج – تا Kung Ying Ta » شروحاً أوسع انبثقت عنها تدريجياً وحدة الكونفوشية ، فاعتبر كل كتاب من كتب الشريعة الكلاسيكية مظهراً من مظاهر التعاليم الكلية الموحدة . وعندما درب المثقفون على هذا النحو كتبوا تواريخ الصين وهو تراث بدأ من أسرة هان وظل يتدعم أسرة بعد أسرة حتى القرن الحالى . ومع عودة الوحدة فى عهد أسرتى « سوى وتانغ » ورغم افتتان بعض الحكام بالتاوية أو البوذية فإن الكونفوشية أكدت تأثيرها بوصفها التراث الكلاسيكى للطبقات المثقفة . وكانت أعمال الإدارة الواسعة النطاق تتطلب موظفين مدربين على الكونفوشية لا أصحاب إيمان بوذى أو تاوى .

حافظت النخبة الكونفوشية الموجودة فى بلاط الأباطرة ـ حتى فى عصر الإيمان وبصورة أشد فى الفترة التى تلته ـ على معارضتها الثابتة المستمرة للبوذية والتاوية ، ونظرت إلى البوذية على أنها ديانة أجنبية ، واعتبرتها غير وطنية منذ عصر أسرة « تانغ » وما بعدها ، أما التاوية فقد كانت خصماً للكونفوشية منذ العصور الكلاسيكية . غير أن الكونفوشية ـ بغض النظر عن أخلاقها الاجتماعية فشلت ـ فى تلبية المطالب الدينية ، كما فشلت فى التصدى بصورة مقنعة للتحدى الذى كان الفكر البوذى والهندى قادراً على مواجهتها به .

وتغير ذلك كله فى عهد أسرة « سونغ Sung » خلال القرن الحادى عشر الميلادى ، حيث ازدهرت الدراسات الكونفوشية بصفة خاصة ، كما عقد العزم على خطة إصلاح ذى طابع قومى خاص ، وقد شرع فلاسفتها ـ بصفة عامة ـ من أمثال « شاو يونغ Chao Ying » [(١)] ، و « شـــو تون – آى Chou-Thun-i » [(٢)] ، والأخـويـــن « تشنج Ch'eng »[(٣)] فى استخراج كلاً منظماً من الكونفوشية – تحت ضغط تحدى البوذية والتاوية – يُعبر للمثقفين عن أفكار تدمر حول الجنس البشرى ، والكون . ثم اكتمل هذا الفكر النظرى فى صورة نهائية على يد شخصية عظيمة هى « تشو هسى Chu Hsi » (١١٣٠ – ١٢٠٠م) [(٤)] . وأصبحت الكونفوشية الجديدة بعد وفاته العقيدة الرسمية للدولة ، وظلت كذلك على مدى الزمن الذى تعيه الذاكرة الحية . ولهذا أطلق على

---

(١) شاو يونغ (١٠١١ ـ ١٠٧٧) فيلسوف صينى كان له الأثر الكبير فى تطوير الجانب المثالى من الكونفوشية ، ويقال إن أبحاثه فى الرياضة أثرت فى الفيلسوف الألمانى ليبنتز ، انتمى فى بداية حياته إلى التاوية ، ورفض جميع المناصب الحكومية مفضلاً الاعتزال فى صومعة متواضعة قرب مدينة « لويانغ » يناقش الأصدقاء ويعكف على النظر الصوفى ، ثم اهتم بالكونفوشية من خلال دراسته للكتابات الكلاسيكية الكونفشية ، فطوّر نظرياتها على نحو رياضى عندما ذهب إلى أن الأعداد هى أساس الوجود كله (الترجم) .

(٢) « شوتون ـ آى » (١٠١٧ ـ ١٠٧٣) فيلسوف صينى يُعد من المبشرين بالكونفوشية الجديدة ، وهو المذهب الذى أصبحت أفكاره الأخلاقية والميتافيزيقية ممثلة للفكر الصينى لما يقرب من ألف عام (المترجم) .

(٣) « الأخوان شنج » هما « شنج هاو Cheng Hao » و « شنج آى Cheng I » ولد الأول فى مدينة ليانغ عام ١٠٣٢ ، وتوفى بها عام ١٠٨٥ . وولد الثانى عام ١٠٣٣ ، وتوفى ١١٠٧ . وقد عملا معاً على تطوير الكونفوشية الجديدة فى صورة مدرسة فلسفية منظمة ، وعلى الرغم من أن فلسفتهما تكاد تكون واحدة ، فإن الأول أثر فى الجانب المثالى من الكونفوشية الجديدة ، فى حين كان للثانى أثره فى تطوير مدرسة عظيمة تلخصها حكمته الشهيرة « المبدأ واحد لكن تجلياته متعددة » (المترجم) .

(٤) شوهسى (١١٣٠ ـ ١٢٠٠) أعظم الفلاسفة الصينيين أثراً طوال ألف عام حيث سادت الكونفوشية الجديدة التى طورها وسيطرت على الحياة العقلية فى الصين ، ثم امتد أثرها إلى كوريا واليابان ، ولابد من دراسة شروحه للكتابات الكلاسيكية الصينية لكل من أراد أن يعرف الكونفوشية الجديدة ، فقد كان فقيهاً وعالماً وشارحاً ! أكمل فى عام ١١٨٩ شروحه الأربعة للنصوص الكونفوشية ، وقد عرفت هذه الشروح باسم « الكتب الأربعة للكونفوشية الجديدة (المترجم) .

شوهسى لقب « توما الأكوينى الكونفوشية » [1] .

من الصعب تلخيص الكونفوشية الجديدة . ويمكن القول كما جاء فى كلمات شو هسى أنها تذهب إلى « أنه يوجد فى أى عقل بشرى ملكة للمعرفة ، كما يوجد فى أى شيء مبرر وجوده » . ويرجع نقص معرفتنا إلى عدم كفاية بحثنا عن علة كل شيء ولا بد للطالب أن يذهب إلى جميع الأشياء الموجودة تحت قبة السماء ، بادئاًمن المبادىء المعروفة ، وساعياً للوصول إلى أسمى المبادىء ، وبعد بذل الجهد الكافى يأتى اليوم الذى يصبح فيه كل شيء واضحاً ومفهوماً . تلك هى كونفوشية « شوهسى » التى أصبحت رسمياً ، منذ القرن الثالث عشر وحتى القرن العشرين ، موضوع الإيمان عند معظم المثقفين الصينيين .

وبانتصار الكونفوشية الجديدة التى وضعت نظاماً رسمياً للتعليم أصبح الأساس المشترك للإيمان عند الطبقة المثقفة ـ انهارت التاوية والبوذية تدريجياً ، وأصبح جانب كبير من فكرهما جزءاً من روح الشعب الصينى ، وفقدا طابعهما المميز .

٤٥- الديانات الصغرى :

تمثلت ثقافة الشعب الصينى تمثلاً تاماً كلاً من التاوية ـ وهى الديانة الأصلية للبلاد ، والبوذية ـ وهى الديانة القادمة من الهند ـ أما الديانات الأخرى التى دخلت الصين فقد لاقت نجاحاً أقل . فقد جاءت إليها المسيحية النسطورية [2] ، فى القرن السابع الميلادى ، وبعدها بقليل « المانوية » [3] وكذلك « المزدكية Mazdaism [4] ، والإسلام ، واليهودية

---

(١) القديس توما الأكوينى (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) فيلسوف ولاهوتى إيطالى ، ومن أشهر وأهم ممثلى الفكر الكاثوليكى ، يلقب باسم « الدكتور الملائكى » دلالة على صفاء ذهنه ، كتب « الخلاصة اللاهوتية » وهى عرض شامل للعقيدة المسيحيـــة ، و« الخلاصة ضد الأمم » وهى دفاع عن المسيحيـة ضد اليهود (المترجم) .

(٢) نسبة إلى نسطورس بطريرك القسطنطينية فى القرن الخامس الميلادى ، وقد ذهب إلى أن الطبيعتين الإلهية والبشرية ظلتا منفصلتين فى المسيح ، وألف مذهباً أثار الكثير من الجدل بين الكنائس المسيحية (المترجم) .

(٣) مذهب المانوية : هو ديانة مانى بن فاتك الفارسى ، وقد ظهرت فى القرن الثالث الميلادى ، وانتشرت فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية وآسيا ، تأثرت بالزرادشتية ، فقالت بإلهين أحدهما للنور والآخر للظلمة ـ أو الخير والشر ـ وأن الصراع قائم بينهما (المترجم) .

(٤)هى نفسها الديانة الزرادشتية ويطلق عليها أحيانا اسم « المزدية » نسبة إلى أهورا مزدا إله الخير فى هذه الديانة (المترجم) .

بوصفها ديانة التجار الأجانب خلال عهد أسرة « تانغ Tang » وازدهر الإسلام فى عهد أسرة « يوان Yuan » ولاسيما بين القادة المسلمين فى جيش المغول . ويوجد المسلمون اليوم فى الصين على هيئة جماعات متفرقة ، وإن كانوا يوجدون بأعداد كبيرة فى أقصى الغرب وفى الشمال الغربى .

لم تطبع واحدة من هذه الديانات الحياة الصينية بطابعها على نحو جاد ، وحتى الإرساليات الهائلة التى بعثت بها الكنيسة المسيحية إلى الصين فى القرون الثلاث الأخيرة ، عادت بنتائج مخيبة للآمال من وجهة النظر الدينية . غير أن النشاط التبشيرى تحالف تحالفاً وثيقاً مع المشروعات التعليمية ، ففعل الشىء الكثير فى نقل الثقافة الغربية إلى الصين لكنها جاءت فى وقت كان الغرب نفسه يزداد فيه اتجاهاً نحو النزعة الدنيوية، كما أن أثر التبشير فى الطبقات المثقفة فى الصين ـ وهى نفسها الوارثة للتراث الدنيوى للكونفوشية الجديدة – كان فى الثقافة الدنيوية أكبر بكثير من أثره فى الأفكار الدينية .

٤٦- تحت السيطرة الشيوعية :

وقع الجزء الأكبر من بلاد الصين تحت السيطرة الشيوعية عام ١٩٤٩م ، وشن هذا المذهب حملات عنيفة ضد جماعات دينية معينة بوصفها « مناهضة للثورة » غير أن الديانة الشعبية قد وجدت بين الصينيين منذ زمن سحيق ، مغزولة فى نسيج الممارسات الاجتماعية، بين جماعات الأقارب ، والجماعات الاجتماعية والاقتصادية والمجتمعات المحلية يشهد على ذلك وجود هياكل الأسلاف المحلية المنتشرة فى أرجاء الصين ، فى كل قرية ، وفى كل تجمع ، وهياكل الآلهة المحلية ، والأبطال المحليين ومعابد يتولى شؤونها رهبان البوذية والتاوية ومعبد كونفوشى ، وعلى نحو أكثر تكراراً معابد مجمع الآلهة المشترك الذى يشمل عناصر من جميع الديانات ويكشف فى بعض الأحيان عن نزعة (تلفيقية) تتحدى أى تحليل ولقد هاجمت الحركات الثورية ـ منذ بداية القرن الحالى ـ الديانة الشعبية فيما سمى باسم حركة القضاء على الخرافة ، غير أن المعابد والهياكل ظلت باقية ، فى بعض الأحيان فى حالة سيئة ـ لكنها تقف شاهداً حياً على الحضور الشامل للديانة الشعبية على مدى الزمن الذى تعيه الذاكرة .

كان للكنائس البوذية والتاوية ـ فى ذروة مجدها ـ تنظيم حقيقى ، ونخبة واضحة من الأتباع . ولم يكن للديانة الشعبية شىء من ذلك . وبعد انهيار البوذية والتاوية ـ وهى عملية

بطيئة ، استمرت منذ القرن الثالث عشر وما بعده ـ حافظت جماعات من الرهبان فى مراكز منعزلة على إيمانها بشىء من نقائه الأول ، ولا تزال آثارها باقية . غير أن السيطرة الشعبية قد امتصت الكثير من العناصر البوذية والتاوية .

ومن الغريب أننا لا نعرف إلا أقل القليل عن هذه الديانة الشعبية ، رغم أن عناصر منها لا تزال باقية فى كل جماعة صينية ، ولقد اتجهت أنظار الباحثين نحو ديانات الطبقات البارزة ، وسجلوها فى كتاباتهم قرناً بعد قرن ، واستنتج بعضهم من النزعة الدنيوية الكونفوشية، ومن مصير كنائس التاوية والبوذية أن الصينيين ليسوا متدينين على نحو متميز . ولكن المعتقدات والممارسات الدينية بين الناس ـ رغم سوء تنظيمها ـ قد وجدت منذ عصور سحيقة

٤٧- التسامح (بقلم المحرر) :

بعد وفاة ماوتسى تونغ عام ١٩٧٦ ظهرت اتجاهات أكثر تسامحاً نحو الدين الذى عانى من الكبت خلال ثورته الثقافية . وفى عام ١٩٨٠ أعيد إصلاح أكبر معبد تاوى فى بكين على نفقة الحكومة ، جنباً إلى جنب مع إصلاح مجموعة من المعابد والأديرة البوذية . وظل « الدلاى لاما » (١) فى منفاه فى التبت فى الهند ، ولكن أعيد افتتاح قصر بوتالا فى لهاسا أمام البوذيين الوافدين من التبت ، كما سمح لبعض الحجاج بزيارته . وكذلك سمحت الحكومة بإعادة فتح بعض المساجد والكنائس العامة . وفى عام ١٩٨١م اقترحت الجريدة الرسمية « صحيفة العلم الأحمر » شيئاً من الدعم ، وبعض المعارضة فى آن معاً، للحرية الدينية عندما قالت « هناك فى الوقت الحالى عدد كبير من الناس فى الصين يؤمنون بالدين ، ولا بد لنا من احترام الحقيقة الموضوعية .

* * *

---

(١) الدلاى لاما : هو الزعيم الروحى للبوذية اللامية فى التبت ، ويقع فى عاصمتها لهاسا قصر بوتالا ، وهو المركز الرئيسى للدلاى لاما ، ولما استولى الشيوعيون الصينيون على التبت حرموه من معظم حقوقه عام ١٩٥٠ (وكان قد جلس على عرش بلاده منذ ٢٢ فبراير ١٩٤٠) فاضطر إلى مغادرة بلاده عام ١٩٥٩ ، وأقام حكومة بالمنفى فى الهند (المترجم) .

الفصل الثانى عشر

اليـــابـــان

تقدم لنا اليابان خليطاً من التراث الدينى يشبه ذلك الخليط الذى وجدناه فى الصين، رغم أن « الخلطة » مختلفة . فالديانة الرئيسية فى هذه الحقبة التاريخية هى البوذية من غير منازع، وإن كان التاريخ المكتوب لليابان لا يبدأ إلا فى القرن الخامس للميلاد . لكن البوذية حتى فى هذه الحالة ، تعكس – كما سيتضح فيما بعد – صورتها الصينية المركبة التى تلاءمت إلى حد كبير مع روح الشنتو Shinto (١) ، وهى أقدم تراث دينى فى اليابان .

وخلال العصر الحجرى كان السكان اللذين يعيشون فى الجزر اليابانية الرئيسية الأربعة ، إلى حد كبير ، من أرومة الأينو Ainu (٢) ويبدو أن ديانتهم التى كانت تشمل التضحية بالدم والطقوس الفظة لم تؤثر فى اليابانيين الغزاة الذين دخلوا البلاد فى وقت واحد – من كوريا وسيبيريا فى الشمال ، ومن جزر المحيط الهادى فى الجنوب . وكانت قبيلة ياماتو Ya-mato التى كتبت لها السيادة فيما بعد ، ونشأت قبل الأسرة الإمبراطورية – تنتمى إلى جماعة الغزاة الجنوبيين .

وأقدم ما فى حوزتنا من وثائق كتاب « كوجيكى Kojiki (٣) (أى سجلات الآثار القديمة) الذى كُتب عام ٧١٢ ميلادية ، وهو مكتوب بالحروف الصينية التى تصوِّر الألفاظ الصوتية للسكان الأصليين ، وكتاب « نيهو نجى Nihongi (٤) (الأحداث

---

(١) الشنتو : مجموعة المعتقدات الدينية الأصلية فى اليابان ، والمعتقد الرئيسى فيها هو الإيمان بالقوى الغامضة المسماة « بالكامى » وتوجد فى أشكال متنوعة ، انظر الهامش الخاص بها (المترجم) .

(٢) الأينيون : هم العنصر البدائى الأبيض الذى وفد إلى اليابان فى منطقة نهر أمور فى العصر الحجرى ، ثم جاء عنصر أصفر مغولى من كوريا فى نحو القرن السابع قبل الميلاد (المترجم) .

(٣) كتاب « كوجيكى أو سجلات الآثار القديمة » مصدر هام موجز للعادات والطقوس والممارسات السحرية فى اليابان ، ويشتمل على حكايات وأساطير ، وأحداث من البلاط الإمبراطورى من أقدم العصور، وهو مكتوب بلغة صينية ، وقد ترجم إلى الإنجليزية لأول مرة عام ١٨٨٢ (المترجم) .

(٤) كتاب « نيمونجى » : ومعناها الحرفى « الأحداث التاريخية لليابان » يؤلف من الكتاب السابق ، أول سجل مكتوب لليابان ، وللنصوص المقدسة لديانة الشنتو ، وهو يتألف من ثلاثين فصلاً تغطى تاريخ اليابان كله منذ بداية العالم حتى عام ٦٩٧ ، ويتناول الجزء الأول منه كثرة من الأساطير والحكايات الخرافية عن اليابان القديمة ، وهو مصدر هام لفكر شنتو ، أما الفصول الأخيرة فهى تروى أحداثاً تاريخية وسياسية أكثر دقة ، كما تتحدث عن العشائر والأسر الإمبراطورية ، وقد كُتب الكتاب باللغة الصينية ، وهو يعكس أثر الحضارة الصينية المبكرة على اليابان (المترجم) .

التاريخية لليابان) وهو وثيقة كُتبت باللغة الصينية عام ٧٢٠ ميلادية ، ويستهدف عرض تاريخ اليابان من بدايته حتى عام ٦٩٧م ، والكتاب الأخير متأثر بالتأكيد الصينى على الخط الإمبراطورى كما يسعى لإثبات قدم اليابان ، وعراقة أسرتها الإمبراطورية بصفة خاصة فى آن واحد ، ويوحى الكتابان بأن لليابان رسالة إلهية على الأرض ، وبهذا ينتقلان فى سهولة ويسر من الأسطورة إلى التاريخ ، وهما يعرضان الأساطير الخالصة كما لو كانت تاريخاً يمكن إثباته . ويفسح عصر كامى Kami (الذى بدأ مع ظهور الكون من العماء)المجال لعصر التاريخ البشرى ، عندما هبط ننجى Ningi حفيد إلهة الشمس كامى (أماتيراسو - أو - ميكامى Amarterasu - O - Mikomi إلى الممالك الدنيا ، وأصبح حفيدها العظيم جيمو Jimu أول إمبراطور لليابان الموحدة .

والتاريخ الذى تؤرخ به هذه الحادثة هو عام ٦٦٠ ق. م ، غير أن المؤرخين يصعب عليهم قبول هذه الدقة فى فترة تمتد ألف سنة قبل ظهور الكتابة ، كما أننا لو قارنا هذا التاريخ بالسجلات العينية لوجدنا أن قبيلة ياماتو Yamato لم تظهر بحيث يكون لها أهمية إلا فى القرن الأول قبل الميلاد (بل بعد ذلك) ولذلك يعتقد المؤرخون أن توحيد البلاد لم يكتمل إلا بعد هذا التاريخ بنحو ستمائة أو سبعمائة سنة . ويظهر من الوثائق العينية أن السلطة كانت فى يد الحكام من النساء اللائى عملن فى وظيفة الشامان أو الوسيطات ، وبذلك احتفظن فى شخصهن بالوحدة الملكية (أو السياسية) ، وبوظيفة الكاهن (أو الوظيفية الدينية) التى قام بها الإمبراطور بعد ذلك .

ويعد كتابا « كوجيكى » و « ينهونجى » مصدرين قيمين لمختلف الأساطير القديمة ، أما كتاب « إنجشيكى Engishki [1] (قوانين فترة إنجى Engi) الذى يرجع تاريخه إلى عام ٩٢٧م فهو يشمل النوريتو Norito القديمة (طقوس الصلوات) التى كانت تستخدمها عائلات الكهنة [2] .

---

(١) تعنى حرفيا « مدوّنة فترة إنجى » وهى مجموعة من القواعد الإدارية الدقيقة التى سادت اليابان فى فترة قانون العقوبات الإدارى من القرن السابع حتى القرن التاسع ، وأهملت المدونة وأصبح يعمل بها فى المحاكم عام ١٩٦٧ ، وتُعد الأجزاء الأولى منها مصدراً هاماً لطقوس وشعائر ديانة شنتو القديمة (المترجم) .

(٢) النوريتو : أى الكلمات التى يتوجه بها المؤمنون إلى الله فى صلواتهم فى عبادة شنتو القديمة ، وكان الاعتقاد السائد هو أن فاعلية الصلاة تعتمد على قوة الكلمات ، فالكلمات الجميلة والمناسبة تجلب الخير ، أما الكلمات الفظة القبيحة فإنها تجلب الشر ، وبالتالى فإن « النوريتو » يتألف من مجموعة من الكلمات الجميلة الأنيقة على غرار لغة كتاب « إنجيشيكى » (المترجم) .

١- تفاعل الأفكار البوذية والشنتوية :

عندما نصل إلى مرحلة دخول البوذية إلى اليابان فى القرن السادس ، فإننا نستطيع أن نعتمد على وثائق مكتوبة ، كما نستطيع أن نلاحظ ، لا التنوع الطائفى الواسع فحسب الذى تتميز به فعلاً المهايان البوذية ، بل كذلك اندماج ديانات هند – صينية جديدة مع التراث الدينى القديم فى اليابان ، وظهور أشكال توفيقية جديدة . بل إن الفرق البوذية الأقدم عهداً اتخذت بعداً جديداً على أرض اليابان ، وفى خلفية الصراع الإقطاعى ، ازدهرت الثقافة البوذية ازدهاراً كبيراً ، وتفريعات كثيرة للفرق أصبحت ملحوظة فى القرن الثالث عشر .

وقد استمر التفاعل بين الأفكار البوذية والشنتوية ، وتعمق الوعى الدينى القومى ، بظهور الأوربيين عام ١٥٤٩ عندما سعى « فرانسيس إكسافير F . Xavier » لإدخال المسيحية لأول مرة إلى اليابان [١] . وقد مكنت الخصومات الإقطاعية البعثات التبشيرية المسيحية من التقدم ، فبلغ عدد المهتدين أكثر من ثلثمائة ألف مع نهاية القرن. غير أن التشريع المعادى للمسيحية أولاً ، وهو المسمى بتشريع « هيديوشى Hideyoshi »[٢] ويرجع لعام ٥٩٧ ، ثم سياسة أسرة « توكوجاوا Tokugawas »[٣] ، الأكثر صراحة

---

(١) هو القديس فرانسيس إكسافير (١٥٠٦ ـ ١٥٥٢) ، وهو مبشر أسبانى قام على رأس بعثة تبشيرية تتألف من سبعة من الجزويت بالعمل على إدخال المسيحية إلى الهند التى وصلها عام ١٥٤٢ ، وحقق نجاحاً مذهلا بعد ثلاث سنوات ، وافتتح مركزاً لتدريب القساوسة ، ثم وصل اليابان فى أغسطس عام ١٥٤٩ ، وعاد إلى الهند عام ١٥٥١ ، ومات وهو ينتظر دخول الصين (المترجم).

(٢) إمبراطور « تيتومى هديوشى Toyotomi Hideyoshi » (١٥٣٧ ـ ١٥٩٨) هو الذى أكمل وحدة اليابان فى القرن السادس عشر ، وقد أصدر هذا الإمبراطور أمراً للبعثة التبشيرية المسيحية بمغادرة البلاد خلال عشرين يوماً : « وعلى من يعصى الأمر تقع عليه عقوبة الإعدام » وذلك لأنهم أرغموا الناس على اعتناق المسيحية ، بل ذهبت بهم الجرأة إلى تحطيم معابد الآلهة القديمة ، على حد ما جاء بالمرسوم الإمبراطورى (المترجم) .

(٣) أسرة من الشوجن Shogun (أى الحكام) العسكريين أساسها ايياسو توكوجاوا (١٥٤٣ ـ ١٦١٦) بعد أن ظفر لنفسه بالسلطات بقوة السلاح ، قد استشاط غضباً عندما عرف أن المبشرين المسيحيين كانوا أحياناً يستخدمون طلائع للفاتحين ، فأمر سنة ١٦١٤ بتحريم العبادة المسيحية أو التبشير بها فى اليابان ، وطالب المعتنقين لهذه الديانة إما أن يغادروا البلاد وإما أن يرتدوا عن عقيدتهم .. وعندما مات تولى ابنه « هيديتاما توكوجاوا » (١٥٧٩ ـ ١٦٣٢) فأحكم قبضته على البلاد =

وعداء (منذ عام ١٦١٢)- أدّيا إلى عزلة اليابان وردتها إلى الأنماط القديمة - وهى عزلة استمرت حتى عام ١٨٥٣ ، إلى أن تم إلغاء التشريع المعاى للمسيحية عام ١٨٧٣ .

٢- وضع الشنتو :

كانت الحرية الدينية من بين ما كفله الدستورالجديد على النمط الغربى لعام ١٨٨٩ ، لكن ذلك لم يكن يعنى غير السماح الصورى للمسيحية بتنظيم نفسها جنباً إلى جنب مع البوذية والشنتوية . والحركات الدينية اليابانية الأخرى التى نشأ عدد منها فى أوائل القرن التاسع عشر ، وكان لا يزال عليها أن تزدهر تحت مظلة الشنتوية أو البوذية ، وأن تسجل نفسها بوصفها فرقاً بوذية أو شنتوية ، غير أن المرسوم الإمبراطورى للتعليم الذى صدر عام ١٨٩٠ واستغل فى تلك الفترة ، أساطير الشنتوية وأخلاق الكونفوشية ـ أدخل ذلك الجانب الرسمى من الشنتوية الذى يعرف أحياناً باسم التيمويهة Temoism (من تيمو Temo) التى تعنى « الملك السماوى ، وأصبحت لقباً للإمبراطور) . وبناء على هذه العقيدة الجديدة أعلن أن الشنتوية الرسمية (أو شنتوية الدولة) ليست عقيدة دينية ، وأنها مفروضة على جميع المواطنين اليابانيين ، وذلك رغم احتوائها على أساطير الشنتو المعتادة ، ومراسمها الدينية . وبقى أمام احتلال الحلفاء عام ١٩٤٥ مهمة إزالة الحماية الحكومية للشنتوية ، وكان على الدستور الجديد عام ١٩٤٧ ، أن يضمن الحرية الدينية ، مع حق تسجيل الهيئات الدينية المستقلة ، ونشر المعتقدات التى تؤمن بها أى هيئة دينية فى آن واحد . وبسبب هذه الحرية الجديدة وُجدت مئات من الحركات التى كثيراً ما تسمى « ديانات جديدة » ، رغم أنها تعكس إلى حد كبير ، كما سوف نرى ، الطابع التلفيقى للديانة الشعبية فى اليابان ، كما تبرزعلى السطح كثرة من الأفكار والممارسات التى ظلت موجودة لفترة طويلة داخل تراث الشنتوية والبوذية القديمة ، ولقد جلبت المسيحية معها مجموعة من الأفكار الجديدة ، ولكنها اتجهت ، كما حدث مع الكونفوشية فى تاريخ سابق ، إلى تقديم الأساس الأخلاقى الذى لم يكن ظاهراً باستمرار فى الحركتين الدينيتين الأخريين .

= وواصل سياسة أبيه تجاه المسيحية ، وشهد حكمه موجة وحشية من الاضطهاد الدينى كان من أثرها أن محيت المسيحية من اليابان محواً تاماً تقريباً ، كما اتخذ أولى الخطوات نحو عزلة البلاد وانغلاقها ، فمنع التجارة أو الاتصال بالدول الأجنبية ـ وباختصار كان عهد هذه الأسرة الديكتاتورية مليئاً بالأفكار الرجعية المختلفة (المترجم).

ومع ذلك ينبغي علينا أولاً أن نتجه إلى ماضي اليابان - أى إلى الشنتوية ، لنرى كيف بنى هذا الماضي فى الحاضر .

والشنتو Shinto ليست هى نفسها كلمة يابانية ، لكنها صيغت فى القرن السادس عندما دخلت البوذية إلى البلاد لتعبر عن التراث الدينى الأقدم عهداً ، وهو « طريق كامى » Kami ، وكثيراً ما توصف بأنها « عقيدة أصيلة » فى اليابان ، لا لأن عبادتها ذات النزعة الطبيعية القوية لا تضاهيها عبادة أخرى فى أى مكان ، بل لإثرائها لروح التدين اليابانى المتميز الذى أثر كذلك على صور الإيمان اليابانى الأخرى. وتعد سمتها « الحدسية » مظهراً واضحاً من مظاهرها ، مع تشديد على التجربة الدينية أعظم من الاستدلال من مبادىء لاهوتية [1] ونادراً ما يسأل المؤمنون بالشنتوية أسئلة أنطولوجية [2] ، بل هم ، بالأحرى ، يشعرون بحقيقة الكامى Kami وواقعيته ، لأن المرور بتجربة مباشرة مع الألوهية والإدراك المرهف للسر الغامض أكثر أهمية بالنسبة لهم من النظر العقلى لدقائق العقيدة .

٣- معنى الـ كامى Kami [3] :

على الرغم من أن كلمة « كامى » كثيراً ما تترجم « بإله » أو « آلهة » ، فإنه من الأفضل ، فيما يبدو ، أن تظل بغير ترجمة ؛ لأنها تقال على الوحوش ، والطيور ، والنباتات والبحار ، والجبال ، وظواهر الطبيعة : كالعاصفة ، والريح ، والصدى الذى يبث الرعب فى

---

(١) الطابع الحدسى : يعنى الإدراك الباطنى السريع للحقيقة بغير مقدمات ، وهو عكس الاستدلال العقلى الذى يسير خطوة خطوة إلى النتيجة (المترجم) .

(٢) أى أسئلة تتعلق بطبيعة الوجود بصفة عامة مثل : هل هذا الوجود الذى نعيش فيه يتألف من عنصر واحد أو عنصرين أو أكثر ؟ وهل هو عنصر روحى أو مادى أو محايد ... إلخ (المترجم) .

(٣) كامى Kami : هو موضوع العبادة فى الديانة الشنتوية اليابانية ، وكثيراً ما تفهم الكلمة بأنها تعنى « إله » أو « روح » لكنها تشمل قوى أخرى كثيرة فى الطبيعة خيرة وشريرة معا ، وأصبحت هذه القوى لتفوقها أو لسموها موضوعا للتوقير والاحترام ، فالأرواح الخالقة والأسلاف العظام ، والأشياء الحية وغير الحية كالنباتات والطيور والوحوش والأسماك والصخور يمكن أن تكون أمثلة للكامى ، ولقد كان الكامى السماوى فى الشنتوية المبكرة أكثر سمواً من الكامى الأرضى ، أو يقيم فى موضوعات رمزية كالمرآة التى يعبدونه على صورتها فى هياكل الشنتو ، وتتحدث أساطير الشنتو عن أكثر من « ٨٠٠ عشرة آلاف » من الكامى للتعبير عن العدد اللامتناهى ، بل تظهر أعداد جديدة من الكامى بصفة مستمرة (المترجم) .

النفوس ، وكذلك تنطبق على أسلاف العشيرة أو المحاربين . وبعد أن أقر أحد فقهاء الشنتوفى القرن الثامن عشر – وهو « موتورى نورينجا Motoori Noringga » بعجزه عن فهم معنى هذه الكلمة راح يعرفها ، بصورة عامة ، بألفاظ مقدسة فيقول « جميع الأشياء، أياً كانت، التى تستحق التبجيل ، وتبعث على الرهبة لأنها فوق المألوف ، وكذلك القوى الفائقة التى تملكها تسمى : كامى . » ويقول أيضاً : إنها لا تحتاج أن تكون مرموقة بسبب نبلها الفائق أو خيريتها أو نفعها (اقتبسه و. ج استون فى كتابه « الشنتوية : الديانة القديمة لليابان » ص ٦– ٧) ولابد أن الفقيه الشنتوى الحديث سيظل يقول : « إن شعب اليابان نفسه ليست لديه فكرة واضحة عن الكامى Kami » فهو يدرك الكامى ، بطريقة «حدسية فى أعماق وجدانه ، وهو يتصل به اتصالاً مباشراً دون أن يكوّن فكرة عما هو الكامى من الناحية التصورية ، أو اللاهوتية . ومن ثم فمن المستحيل أن نوضح ونصرح بما هو فى أساسه غامض بحكم طبيعته نفسها (أونو سوكو « طريق الكامى » ص٨) .

ومع ذلك فكلمة « كامى » موجودة فى اللغة اليابانية ، وهى تعنى « فوق » أو «أعلى» وسوف يكون من الحكمة أن نربط بينها وبين المقطع « Ka » الذى هو تعبير عن التعجب أو الحيرة التى يثيرها الشئ المخيف ، أو مالا يمكن الإحاطة به . وربما يكون مرور الأيام قد جلب معه بعض التنقيح لهذه الفكرة ، لكن التنقيح وعدمه يوجدان معاً حتى الآن.

٤– تصورات الإلهى :

يشير « بللاه Bellah (١) فى تحليله العام للديانة اليابانية ، إلى تصورين أساسيين لما هو إلهى : « التصور الأول أنه أى « كائن » فائق مستغنى عن الغذاء أو الرعاية أو الحب » ، غير أن هذه النظرة إلى ما هو إلهى لا تميزه بوضوح عما هو بشرى ، فهى تشبه أن تلقى بظلها على ما لا يدرك حسياً فتجعله أقرب إلى الوالدين أو الرؤساء السياسيين الذين نعاملهم على أنهم مقدسون ، على الأقل فى جانب من جوانبهم . أما التصور الثانى فهو أساس الوجود، أو هو الجوهر الداخلى للواقع . وينتمى إلى هذه المقولة تصور طبيعة بوذا (التى

(١) روبرت بللا R. Bellah : عالم اجتماع أمريكى ولد عام ١٩٢٧ ، ويُعد من أكبر المتخصصين فى تراث اليابان والشعوب الأسيوية (المترجم) .

يقال إنها حاضرة فى الكل) ، وكذلك تأويلات « كامى » التى يغلب عليها الطابع الفلسفى ، والتى نشأت نتيجة للتأثير البوذى .

ولقد أثرت الأفكار الكونفوشية عن « التيان Tien » (أى السماء) فى نظرة كاتب من كتاب القرن السابع عشر الأخلاقية إلى الكامى فكتب يقول : « عندما نقول : إن الكامى يختلف عما هو غير طاهر . فإن ذلك يرادف قولنا : إن شخصاً غير طاهر القلب يثير استياء الكامى .. وسبب ذلك أن الكامى يجسد الاستقامة والأمانة الجوهريتين . ومن ثم فهو تقدير سماوى يجعلنا نعيش حياة سعيدة وأمينة تنسجم مع إرادة الكامى ، كما أراد كاتب آخر أن يربط بين كلمة « كامى » وكاجامى Kagami (أى المرآه) « ذلك الموجود فى السماء هو الكامى Kami وهو الروح فى الطبيعة ، وهو الإخلاص فى الإنسان» (الفضيلة الرئيسية فى فكر الشنتو) .

٥- طقوس الشنتو :

كانت طقوس الشنتو فى البداية بسيطة إلى أقصى حد ، إذ لم تكن تتطلب مبانى خاصة ، بل تقام الصلوات ، وتؤدى الطقوس ، فى هياكل طبيعية ، تحت شجرة ساكاكى Sakaki المقدسة مثلاً ، وهى موجودة الآن داخل كل هيكل فى أية ضاحية ، ويتلفظ بالكلمة الإلهية عن طريق الشامان ، وهو فى حالة استحواذ الكامى عليه ويعبر عنها بلفظ كامى – جاكارى Kami - Gakari أو كانجاكارى Kangakari التى كثيراً ما تتجلى فى رقصة الوجد . (ولا تزال خليفة الشامان الأنثى موجودة فى الهياكل حتى يومنا الراهن ، وذلك فى أشخاص الميكو Miko [1] وهن مشرفات الهيكل من النساء المسئولات عن الكاجورا Kagura وهى الرقصة الصوفية التى ترمز عادة إلى توحد المتعبدين مع (كامى الهيكل) ، ولم تتطور بالتدريج كهانة نوعية خاصة فحسب ، بل ظهر كذلك نمط خاص من بناء الهيكل . وليست هناك صورة تمثل « الكامى » بل مجرد «شنتاى Shintai» يعبر تعبيراً رمزياً عن الكامى الذى يمكن أن يكون واحداً من Yaos - Yorozo - No - Kami (حرفياً : ثمانية ملايين كامى) التى تحدث عنها كتابا «كوجيكى » و « نيهونجى » .

---

(١) الميكو Miko كاهنة كانت تلحق بمعبد الشنتو اليابانى ، وتقوم بتأدية الرقصات الدينية ، ومساعدة الكاهن فى حفلات الزواج ، وهى فى العادة فتاة عذراء تخدم المعبد من خمس إلى عشر سنوات قبل أن تتزوج ، وقد تكون امرأة تقوم بدور الوسيط وإبلاغ كلمات الإله للناس ، وهى فى حالة غيبوبة (المترجم) .

كانت العبادة فى بدايتها مسألة عائلية خاصة بشئون الأسرة لا العشيرة ، ولما كانت العشيرة امتداداً للأسرة . فهناك عدد كبير من الهياكل مخصصة للـ « يوجى جامى -Uji gami » (أى كامى العشيرة) ، وهى تختص بالمصالح المشتركة للعشيرة ، والقول بأن الجماعة تستمد وحدتها من علاقاتها « باليوجى جامى » بوصفهم « يوجيكو Ujiko » (أى أطفال العشيرة) لابد أن يوحى فى الحال بأن « يوجى جامى» يقوم مقام الأب Loco Parentis بالنسبة للجماعة (أعنى أنه ال أويا Oya أو « الأب ») كما يوحى بأن طلب الحاجات المادية له مغزاه ، لأن الأب على استعداد أن يمنح أطفاله هبات سخية . وهيكل «يوجى جامى » يسمى « هيكل العشيرة » ، أو « هيكل عشيرة كامى » .

وعلى الرغم من أن تنقلات السكان حطمت روابط الأسرة والعشيرة القديمة ، فلا يزال هناك إحساس بأن هيكل الجماعة هو بؤرة الهوية الواحدة ، ويحقق عيدها تماسك التجمع المحلى ، وعندما يؤخذ الطفل إلى الهيكل لا يتم ذلك لكى يشارك فى عبادة عامة أو ليتلقى تهذيباً ، بل لكى يتعرف ببساطة على الرابطة الأساسية التى تربط بينه وبين جماعته وبين الكامى Kami .

٦- هياكل خاصة :

كان تأثير عبادة الأسلاف يعنى ، بالطبع ، أن الـ « يوجى جامى » يمكن النظر إليه على أنه السلف الرئيسى المحلى أو القائد المحلى ، ويمكن أن يحدث العكس ، إذ يمكن للسلف الفعلى أن يتخذ مكانة الـ « يوجى جامى » . ويبدو أن الحالة الأولى كانت هى حالة الأسرة الإمبراطورية التى كان فى يدها زمام القيادة فى عشيرة ياماتو Yamato، فالإمبراطور لا بد أن يكون كاهن نفسه فى عقيدة « أسرته » التى تحولت فى تاريخ مبكر إلى « الهيكل الكبير أيس Ise [1] » وأصبح ينظر إلى حارس الأسرة « كامى » على أنه

(١) Ise مدينة أيس : على خليج آيس على المحيط الهادى ، وهى تضم أعظم هياكل ديانة الشنتو وأكثرها أهمية ، وقد شيد فى القرن الثالث الميلادى ، ويتألف من هيكل داخلى وهيكل خارجى ، أما الداخلى فهو مخصص لعبادة الإلهة « أماتيرا سو » آلهة الشمس وللجد الأول فى الأسرة الإمبراطورية اليابانية ، وهو يضم « المرآة المقدسة » التى هى جزء من الرموز الملكية وتجسيد للآلهة . أما الهيكل الخارجى فقد تأسس فى أواخر القرن الخامس الميلادى وخصص للإلهة « تويوك ميكامى » » إلهة الزراعة وتربية دودة القــز . وكان التقليد أن يكـون القيمّ أو الحـارس لهذه الهياكل أميرة غير متزوجة (المترجم) .

سلف الإمبراطور (وقد احتفظ لمدة طويلة بالنموذج الشامانى الأقدم عهداً . حيث كان يمثل الإمبراطور فى الهيكل أميرة من الأسرة الإمبراطورية) .

وبالمثل كان هيكل « تيشا Taisha » فى إزومو Izumo هو هيكل عشيرة « إزومو»(١) كما وصفت العاصفة كامى ، وهى « سوزانو - نو - ميكوتو Susano-no-Mikoto بأنها مشتبكة فى صراع مع « أماتيرا سو أو ميكامى » وهى « كامى » عشيرة « ياماتو » ، وكثيراً ما كان يطلق على منطقة « أزومو » اسم « أرض كامى » ؛ إذ كانت هى مركز الديانة فى اليابان القديمة ، وهيكلها هو أقدم هيكل فى اليابان . ويقال : إنه فى شهر أكتوبر من كل عام يجتمع هناك « الكامى » من جميع أنحاء البلاد فى لقاء عظيم ، ويعقدون الزيجات ؛ ولهذا السبب يسمى شهر أكتوبر فى « أزومو » كامى - أرى - زوكى Kami - ani - Zuki (أى شهر مع كامى) ، بينما تتحدث مناطق أخرى عن Kanna Zuki (أى شهر بدون كامى) .

تتجه الهياكل ، فى العادة ، نحو الجنوب ، وأحياناً نحو الشرق ، أما الشمال والغرب فهما مناطق غير محظوظة كما يعتقدون . وعندما يقترب المتعبد من الهيكل فإنه يمر عبر الـ تورى Torii (أى بوابة الهيكل) ، وربما مر عبر مجموعة كاملة من هذه البوابات . وبوابة الهيكل تشبه بوابة أى منزل ، وقد تصنع من الخشب أو الحجر أو البرونز أو حتى من الأسمنت . وكانت الهياكل القديمة تستخدم بوابات من خشب السرو . وكثيراً ما كان يحتفظ بالطابع الطبيعى للشجرة ، رغم أننا نلاحظ الأثر البوذى الصينى بعد ذلك فى طلاء الثورى (البوابة) ، والهيكل كله (باللون الأحمر فى العادة) ، وإذا تركنا « الثورى » وجدنا الطريق إلى الهيكل مملوءاً بمصابيح من الحجر تبرع بها المتعبدون ، وكان الهيكل فى كثير من الأحيان يحرسه كلبان كوريان ، أو أسدان صينيان . باستثناء هياكل الإنارى Inari(٢) (المخصصة « لكامى » حقول الأرز) التى يحرسها تمثال الثعلب الذى

(١) كانت مدينة « أزومو » بدايتها سوقاً تجارياً هاماً للمنتجات الزراعية المحيطة بها ، لكن ترجع شهرتها إلى أنها مركز دينى هام للشنتية ، وفى ضاحية « تيشا » التى تبعد خمسة أميال فى الشمال الغربى يقع أقدم هيكل لديانة الشنتو فى اليابان ، وهو يجذب الحجاج طوال العام ، وهناك هياكل كثيرة فى منطقة « أزومو » ، وكان يعتقد أن آلهة الشنتو تجتمع فى شهر أكتوبر من كل عام فى أحد الهياكل الصغيرة ولهذا كانوا يسمون أكتوبر « شهر بلا آلهة » (المترجم) .

(٢)هو الإله الذى يحمى زراعة الأرز فى الأساطير اليابانية ، وهو أيضا إله الرخاء ، وكانوا يصورونه على هيئة رجل ملتح يمتطى ثعلباً أبيض أو امرأة طويلة الشعر تحمل حزم الأرز وكان الثعلب هو رسول «إنارى» ولهذا توجد تماثيل كثيرة للثعلب داخل الهياكل المخصصة لإله الأرز وخارجها (المترجم) .

اعتقدوا أنه رسول « كامى » ، وهو كذلك رمز للخصوبة التى كانت الهدف من إقامة هياكل إنارى.

٧- السلوك المستقيم :

إذا كانت زيارة الهيكل زيارة خاصة سار المتعبد على قدميه بمجرد أن يتخطى «الشورى» الأول (البوابة الأولى) ، ولا بد أن يغسل يديه وفمه من ماء نبع طبيعى فى مجمع الهيكل ، أو من حوض الماء المحفور فى الصخر ، مستخدماً أوانى يزوده بها الهيكل ، ثم يصفق المتعبد – أو تصفق إن كانت أنثى – وهو يحنى الرأس إجلالاً أثناء تقديم توسلاته . غير أن التوسل يمكن أن يكتب على ورق ، ويعلق على إحدى أشجار السكاكى Sakaki المقدسة .

وتتضمن العبادة الرسمية أكثر من ذلك أربعة عناصر هى :

(١) فعل التطهر (هاراى Harai) بالإضافة إلى الاغتسال ، عندما يُلَـوِّح الكاهن بفرع من شجرة السكاكى (أو بورقة منها) على رأس المتعبد .

(٢) ثم القربان (شينسن Shinsen)الذى يكون من الحبوب أو الشراب . وإن كانت العادة جرت الآن أن يكون من المال ، أو قد يكون رمزياً فى صورةغصن من شجرة السكاكى .

(٣) وطقوس الصلاة norito .

(٤) الوليمة الرمزية (neorai) ، دلالة على تناول الطعام مع كامى ، وكثيراً ما يشمل العنصر الأخير رشف قطرات قليلة من خمر الأرز (ميكى Miki المقدس الذى كان يقدم فى البداية فى عيد من أعياد الحصاد) الذى يقدمه الكاهن أو إحدى الكاهنات من الميكو Miko ، ويمكن لجماعات المتعبدين أن تطلب أيضاً تأدية الرقصة المقدسة للمعبد (كاجورا Kagura) التى يوجد منها خمس وثلاثون رقصة تُعبِّر عن الأساطير القديمة) .

وتكاد صلاة نوريتو Norito أن تكون محصورة تقريباً فى موضوع المطالب البشرية . وإحدى هذه الصلوات ، على سبيل المثال ، تضرع للكامى من أجل محصول وفير :

أولاً وقبل كل شيء ، هناك فى حقلك المقدس أيها الإله المهيمن
... ليت حبة الأرز الأخيـرة التى سيحصدونها
ليت الحبة الأخيرة من الأرز التى ستحصد

بحبـــــات العـرق المتساقـط من سواعدهــم
وتشـــد ، مع الوحــل العالــق بالفخذيــــن
ليــت هذه الحبـــة تزدهـــر بفضلـــك أنت
وتتفتح سنابل الأرز التى تتوق إليها الأيدى الكثيرة
فتكــون أولى الثمــرات فى الشــراب ، وأعواد النبات (١)

... وكان على الكهنة فى كل هيكل إعداد صلوات يرونها ملائمة لكل مناسبة ، وظلت هذه العادة قائمة حتى عصر ميجى Meiji (٢) ، عندما بدأت الدولة تستخدم ديانة الشنتو لأغراض قومية . لكن الدولة قدمت ، منذ عام ١٨٧٥ ، صلوات رسمية تؤدى فى الأعياد والطقوس المقررة ، ومنذ عام ١٩٤٦ بدأت « جمعية هياكل الشنتو » التى يرتبط بها أكثر من ٨٠,٠٠٠ هيكل فى إعداد الصلوات ، وإن تركت للكهنة حرية تأليف صلواتهم الخاصة بهم إذا ما رغبوا فى ذلك .

٨- العبادة فى المنزل :

جاءت عبادة الشنتو إلى المنزل من خلال « كامى – دانا Kami - dana أو (رف – كامى) أو « الإله على الرف » ، وهو هيكل المنزل . وكان من المألوف أن توجد فيه تمائم مجلوبة من هيكل « آيس Ise » (وهو الهيكل الذى أصبح هيكلاً قومياً كلما توحدت الأمة بوصفها أسرة واحدة مع الإمبراطور الذى يقوم بدور الأب) أى هيكل االعشيرة أو الهيكل المحلى . ولا بد من تقديم القرابين، كل صباح وكل مساء ، لألواح الهيكل وألواح الأسلاف فى آن معاً . ولا بد للمتعبد الورع أن ينحنى ، بعد مراسم الوضوء أمام الهيكل ويصفق بيديه مرتين ، ثم ينحنى مرة أخرى فى صمت لمدة دقيقة .

---

(١) د. ل فليبى : « الصلوات » ص ٢٦ D. L. Philippi : Norito .

(٢) عصر ميجى فى تاريخ اليابان (١٨٦٨ ـ ١٩١٢) نسبة إلى الإمبراطور ميجى (١٨٥٢ ـ ١٩١٣) الذى تولى عرش اليابان عام ١٨٦٧ ، وهو عصر تحديث اليابان وإضفاء الطابع الغربى عليها ، وفتح الموانئ اليابانية أمام الأجانب . وقد بدأ هذا العصر بالإطاحة بحكم أسرة « توكوجاوا » القديمة التى سبق أن تحدثنا عنها ، والتى كانت فترة حكم عسكرى رجعى ، وبدأت الأفكار الغربية عن الحياة النيابية وحقوق المواطن تدخل اليابان ، ومن ثم فهو عصر النهضة اليابانية وخروجها من العصور الوسطى (المترجم) .

٩- رموز الشنتو :

تخلو ديانة الشنتو ، ، أساساً ، من الصور ، أما الرموز فهى وفيرة ، وأكثرها شيوعاً المرآة التى تربط الأساطير بينها وبين الإلهة « أماتيراسو Amatersu إلهة الشمس » ، فهى واحدة من ثلاثة رموز : أما الرمزان الآخران فهما السيف والجوهرة التى وهبتها لحفيدها عندما هبط إلى الأرض ، وقد تعلم « ننيجى – نو – ميكوتو Ninigi - no - mikoto »[1] توقيرها وعبادتها بوصفها « روحها » ؛ ولهذا أصبحت المرآة هى الرمز المقدس فى كثير من الهياكل – ولا سيما فى هيكل آيس Ise الكبير .

١٠- أعياد الهيكل :

هناك أنماط كثيرة لأعياد الهيكل ، وبغض النظر عن الأعياد الموسمية التى تعكس المجتمع الزراعى ، وعن عيد السنة الجديدة ، فإنها ترتبط بالتراث وبالظروف المحلية ، ويحمل شباب المنطقة أثناء الاحتفال – ميكوشى Mikoshi المحمول (المحفةالمقدسة للكامى) على أعمدة طويلة ، وبمصاحبة قدر كبير من المرح العفوى . وقد يستعيد الموكب بعض الأحداث التاريخية ، وقد يكون مجرد إشارة إلى أن « الكامى » موجود مع أتباعه ، وقد جاء لكى يباركهم.

ولقد ظل هيكل الشنتو مرادفاً لدولة الشنتو حتى عام ١٩٤٥ ، عندما سحب الاعتراف به . وقد تأسست دولة الشنتو على فكرة أن رخاء الأمة وسلامة البيت الإمبراطورى ، وسعادة الشعب هى نعم إلهية توهب عندما تتفق سياسة البشر مع إرادة الآلهة (جمعية هياكل الشنتو : المصطلحات الأساسية للشنتو ص٣٣) . أما مبدأ سايزى اتشى Saisei itchi (وحدة الطقوس الدينية والسياسة) فقد استمد من اقتناع ضمنى فى الشنتوية بأنه لا ينبغى للحياة أن تقسم إلى أجزاء ، ولا ينبغى أن تكون هناك تمييزات حادة بين المقدس والدنيوى .

١١- بدايات البوذية فى اليابان :

يبدو أن البوذية دخلت اليابان ، لأول مرة عام ٥٣٩ ميلادية ، عندما عقد حاكم مملكة كورية صغيرة تحالفاً مع حاكم ياماتو Yamato ، ولكى يرضيه أرسل إليه تمثالاً صغيراً

---

(١) حفيد آلهة الشمس ، ومنه نشأت سلسلة من البشر ، هم كل أباطرة اليابان (المترجم) .

لبوذا، وبعض النصوص البوذية (السوترا Sutra) التى وصفها بأنها « أعظم كنوز يمكن أن يرسلها إليه ، وكانت اليابان قد تأثرت بالفعل ، إلى حد كبير ، بالفكر والثقافة الصينية من خلال إدخال النظام الصينى فى الكتابة عام ٤٠٥ ، كما أن عبادة الأسلاف الصينية كانت قد أثرت أيضاً على مواقف اليابانيين من الماضى ، واتحدت عناصر السحر التاوى والتنبؤ بالغيب بمعتقدات الشنتو الوطنية .

ربما يكون من الصواب أن نقول : إن الفرق البوذية الأولى التى لا تزال ثلاث منها باقية والتى يتألف أعضاؤها من حوالى ١٣٠ ألف عضو ، قد أثرت تأثيراً كبيراً على أعضاء الجماعة الذين كانوا على استعداد كامل لقبول ثقافة أجنبية . ولقد كانت فرق نارا Nara أجنبية تماماً (وقد سميت بهذا الاسم لأن مدينة نارا كانت هى العاصمة حينئذ [١] ، ولم تبذل إلا أقل الجهد للتكيف مع الثقافة اليابانية ، أو لتلبية مطالب عامة الناس .

وعلى الرغم من أن دخول البوذية إلى اليابان جاء عن طريق كوريا ، فإن استمرار الاتصال كان مع الصين ، حيث تكيفت البوذية بالفعل مع صور فكرية من الكونفوشية والتاوية . ومن ثم كان من الطبيعى أن تدخل الصورة الصينية من البوذية إلى اليابان ، وهى بوذية المهايانا ، حتى وإن امتزجت بعض المدارس بتعاليم « الهنايانا » .

عارضت الكهانة الشنتوية ، فى البداية ، بشدة الإيمان الجديد ، وعندما انتشر الطاعون نسب الكهنة ذلك إلى أن العبادة اتجهت إلى « كامى » أجنبى ، وأدى هذا الاتهام إلى حرق المعابد البوذية ، وتحطيم تماثيل بوذا .

غير أن الديانة الجديدة لقيت دعماً من دوائر البلاط ، فقد أدخل أحد القادة المرموقين فى الثورة الثقافية والدينية ، وهو الأمير شوتوكو (٥٧٤ - ٦٢١) Shotoku [٢] الذى

---

(١) كانت مدينة « نارا » قديما مركزا ثقافيا ودينيا هاما ثم عاصمة لليابان من (٧١٠ ـ ٧٨٤) ويوجد بها أقدم المعابد البوذية التى ترجع إلى القرن السابع الميلادى (المترجم) .

(٢) « تايشى شوتوكو Shotoku, Taishi » (٥٧٤ ـ ٦٢١) واحد من أعظم الشخصيات اليابانية الحاكمة ، عين وصيا على العرش عام ٥٩٣ وظل فى هذا المنصب حتى وفاته ، لكنه كان مثقفا نشطا عمل على تطوير البوذية والكونفوشية ، وأنشأ الكثير من المعابد البوذية من أهمها المعبد الذى أقامه عام ٦٠٧ قرب مدينة « نارا » وأصبح أقدم بناء خشبى فى العالم . كما جمع الأحداث التاريخية الهامة فى تاريخ اليابان على غرار ما كان يفعل الصينيون . وألف أول كتاب فى تاريخ اليابان فضلاً عن شروحه الدينية الكثيرة (المترجم) .

كان وصياً على العرش ، دستوراً جديداً يقوم على مبادئ البوذية ، فأصبحت البوذية من الناحية العملية، بهذا الدستور ، ديانة تعترف بها الدولة (وظهر ميل ، سواء فى ذلك الوقت أو بعد ذلك إلى التوحيديين البوذية والقوانين الوطنية ، مما جعل الدولة تتكفل بحماية الدين، وتنال حق التصديق الدينى فى وقت واحد . وبنى الأمير « شوتوكو » المعابد والأديرة ، بوصفه بوذياً ورعاً ، كما أظهر سعة اطلاعه وقدرته على البحث عندما نشر شروحاً على بعض النصوص المقدسة Sutra) [(١)] . وبجوار المعابد توجد علامات واضحة على روح التعاطف البوذية ، فهناك مستوصفات للناس ، وللحيوان ، ونزل للمرضى ، واليتامى ، والمسنين ، ولا يزال معبد « هوريوجى Horyuji » الجميل يقف شاهداً على حماسه الدينى [(٢)] .

وقد عقد أحد الكتاب المحدثين مقارنة بين البوذية الأولى وبوذية العصر الحديث ، فأكد أن البوذية الراهنة ترتبط دائماً بمعابد مكتئبة ، وبكهنة يكشفون عن مفارقة تاريخية [(٣)] ، وبإنشاد نصوص « السوترا » للموتى .. « بينما كانت البوذية فى أيامها الأولى تمثل حركة ثقافية متقدمة ، كما كانت النصوص المقدسة (السوترا) تعتبر متقدمة فى فكرها فى ذلك الوقت ، وكذلك ارتبطت الثورة فى الفن والأدب والعمارة والموسيقى والسياسة بالبوذية .

١٢- البوذية الشعبية :

كانت صورة البوذية التى قبلتها العامة ــ وعلى نطاق واسع ــ هى الصورة التنترية Tan-tric [(٤)] التى جعلت لها تأثيراً ظاهراً . لقد كانت الكتابات المقدسة ، والتماثيل والمعابد

---

(١) Sutra كلمة سنسكريتية : تعنى حرفياً « الخيط » ولم يكن فلاسفة الهند الأول يميلون إلى تأليف الكتب ، ثم ظهرت حاجة ماسة إلى إعداد شروح دينية موجزة تهدى المؤمنين ، فظهرت خيوط مرشدة هى « السوترا » ، وهى مجموعة من النصوص الموجزة التى أصبحت هامة وأساسية فى البوذية بغض النظر عن استخداماتها الهندوسية ، ومن هنا أصبحت كلمة « سوترا » تدل على كتب العقائد أو النصوص الشارحة لها فى آن معاً (المترجم) .

(٢) « أى حماس الأمير » شوتوكو ، ومعبد هوريوجى : هو المعبد الخشبى الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وقد شيده عام ٦٠٧ ــ انظر الهامش السابق (المترجم) .

(٣) المفارقة التاريخية أن تتحدث عن شئ فى غير زمانه ، كأن تتحدث عن السيارة قديما فتقول مثلا : إن قيس بن الملوح كان يستخدمها فى تنقلاته ، أو أنه كان يتحدث إلى ليلى بالتليفون .. (المترجم) .

(٤) Tantra كلمة سنسكريتية : معناها « خيوط الطيف » ، وهو اسم عام يطلق على نصوص بعض الفرق الهندوسية والبوذية والجينية ، وتعمل هذه النصوص على تحرير المرء من الجهل ، والولادة الثانية ... إلخ وهى تشبه نصوص « السوترا » مع فارق أساسى هو أن « التنترا » وثائق خاصة سرية لا يستخدمها سوى المختصين ، فى حين أن السوترا نصوص عامة شائعة فى متناول الجميع (المترجم) .

(ولا تزال) لدى الكثيرين وسائل لضمان منافع مادية ، سواء فى الشفاء من المرض ، أو هطول الأمطار على حقول الأرز ، أو تحقيق السلام للجماعة أو الأمة ككل ، وكانت هناك حاجة (ولا تزال) إلى تثبيت العقيدة ، وإلى « اتباع العلامات » لنشر الإيمان واحتاج الأمر من البوذية إلى وقت طويل ، بلغ سبعة قرون حتى يستوعبها الناس فلا تظهر بعد ذلك بمظهر الديانة الأجنبية ، وكان من أيسر الأمور بالنسبة للغالبية العظمى أن يفهموا الجوانب الثقافية للبوذية ، أكثر من فهمهم للجوانب الأيديولوجية والميتافيزيقية الأكثر صعوبة .

١٣- رجال مقدسون :

كان التراث الشامانى فى الشنتوية قوياً جداً ، كما سبق أن رأينا ، فقد شعر الناس أنه يمكن أن تكون لهم علاقة بالقوى غير المنظورة من خلال توسط الشامان . ورغم أن دخول البوذية إلى اليابان كان يعنى على المستوى الرسمى ، تطوراً واسع المدى لديانة منظمة فإن التراث غير التقليدى للقائد الملهم ازداد رسوخاً ، وسعى « رجال مقدسون من خارج المؤسسات الدينية الرسمية إلى تقديم الحياة الدينية لعامة الناس .

ويسمى هؤلاء الرجال Hijiri (رجال مقدسون) وهم يركزون كثيراً على أهمية التقوى الفردية . وقد سار كثيرون منهم على نهج النساك البوذيين ، وأطلق عليهم أوباسكو Ubasku (من الكلمة السنسكريتية Upaseki) التى تعنى « الناسك »أو « الساحر ») وأصبح نظامهم الصارم أساساً لطريقة شوجندو Shugedo (أى طريقة النساك) . وكان الاعتقاد السائد هو أن الناسك يستطيع أن يبلغ قوة سحرية تفوق قوة البشر ، نتيجة الميزة التى حصل عليها من خلال ممارساته الدينية الصارمة ، وكان بعض النساك يتنقلون من قرية إلى قرية، ويعملون كشامانيين محليين ، وارتبطت طريقة النساك بعبادة الجبال الشنتوية البدائية ، ولا يزال « اليامابوشى Yamabushi » (متسلقو الجبال) هم سحرة الجبال الذين يسعون إلى حالة « الإلهام » (بمعنى حالة الوجد الصوفى) أثناء تسلقهم للجبال . وأضيف إلى الفكر البوذى الفكرة التى تقول : إن صعود الجبال يوازى الصعود فى الطريق ذات الثمانى شعب ، والتى تؤدى إلى الغاية ، وهى : الاستنارة .

كان جيوجى Gyogi (٦٧٠ - ٧٤٩) واحداً من النساك المبكرين ، غير

التقليديين، ثم أصبح بوذياً بدرجة تعادل درجة بطريرك ، ومسؤولاً عن تشييد معبد «تودايجى» (١) ، فى مدينة « نرار » الذى يزدان بتمثال ضخم لبوذا ــ « فيروكانا Vairocanca » (٢) ويقال : إن معبد آيس Ise أبدى ، بهذه المناسبة ، استحسانه لتشييد المعبد عام ٧٤٢م ، وسرعان ما تم ، بعد ذلك ، تشييد هيكلاً داخل مجمع المعبد لـ « هاشمان Hachman » وهو «كامى» الحرب عند الشنتو . وبترتيب متبادل ، تم إيداع تمثال بوذا فى هيكل (٣) المعبد داخل هيكل آيس العظيم . ولقد نظر إلى « جيوجى » حتى أثناء حياته على أنه « بوذا منتظر » وارتبطت صور الشنتو الأقدم عهداً ، مع خلفائه ، بطقوس السحر البوذية وشعائرها ، جنباً إلى جنب مع الخرافات الشعبية للتاوية .

ترددت فى تراث « الرجال المقدسين » أفكار الاستحواذ على كامى Kami أو على بوذا، كما أننا نجد الرجال الأفذاذ أو الملهمين ينتقلون ، فى بعض الحالات ، من جيل إلى جيل داخل الأسر، كما هى الحال مع « يامابوشى Yamabushi (٤) » ، أو كما هى الحال مع مييكو Miko كاهنة هيكل الشنتو ، وقد يعملون وسطاء بفضل موهبة خاصة لديهم .

١٤- تأسيس فرق التنداى Tendai والشنجون Shingon :

سميت فرقة « التنداى » Tandai على اسم فرقة «تيان تاى Tien Tai » البوذية

---

(١) معبد رئيسى ضخم أقيم فى مدينة « نارا » عام ٧٤٥ م ، ثم اكتمل عام ٧٥٢م ، ويعد أوسع وأضخم دير للبوذية فى اليابان ، شيدت فى وسطه « قاعة بوذا الأكبر » على مساحة ميلين مربعين تحيط بها باغودات ومبانٍ جانبية ، ويقع فى القاعة الرئيسية المبنى الخشبى الكبير الذى يتوسطه تمثال بوذا الضخم المصنوع من البرنز ، ويبلغ ارتفاعه أكثر من ٥٣ قدما (حوالى ١٧ متر) (المترجم) .

(٢) فيروكانا Vairocana : كلمة سنسكريتية معناها : المستنير ، وهو لقب كان بوذيو المهايانا فى الشرق الأقصى والتبت ونيبال يطلقونه على « بوذا الأكبر » (المترجم) .

(٣) هاشمان : وتعنى باليابانية « الرايات الثمانى » ، وهو لقب أطلق على أكثر آلهة الشنتو شعبية ، وهو الإله الذى يرعى العشائر والمحاربين بصفة عامة ، وكثيراً ما يشار إليه على أنه إله الحرب (المترجم) .

(٤) يامابوشى : تعنى حرفياً « الواحد الذى ينام فى الجبال » وهو إله كان يعمل مرشداً للحجاج الذين يقومون بزيارة الجبال المقدسة التى تسكنها آلهة الشنتو (المترجم) .

الصينية [1] وأدخلها الكاهن سيكو Saicho (٧٦٧ - ٨٢٢) إلى اليابان ، وهو الذى عرف بعد وفاته باسم « دنجيودايشى Dengyo Daishi » وقد أقام معبداً على منحدرات جبل هياى Hiei قرب مدينة كيوتو Kyoto التى أصبحت عاصمة عام ٧٩٨م ، وهو المعبد المسمى « أندريا كوجى Engrayakaji » ، والذى أصبح مركزاً للنشاط البوذى فى اليابان لمدة ثمانمائة سنة تقريباً ، وفى أثناء فترة تأثيره العارم امتلأ منحدر الجبل بالمعابد والرهبان الذين كانوافى استطاعتهم أن يؤثروا كذلك فى السياسة عن طريق غزو العاصمة بعصابات مسلحة .

كانت فرقة « التنداى » فى جوهرها صورة تلفيقية من البوذية سعت لضم التأويلات المتناقضة فى الظاهر فى طريق واحدهو طريق الخلاص . وذهبت فى أساسها إلى أن الحقيقة أو الواقع واحد ، ومع ذلك كان هذا الواحديمكن أن نعرفه عن طريق ثلاثة آلاف من تجلياته . ومن هنا اشتملت تعاليمها على أسرار غامضة ، وعلى عنصر التأمل الذى أكد عليه، فيما بعد، تراث « الزن Zen » [2] ، مع فكرة الإيمان ببوذا أميتبها Amitabha الذى بعث حياً فى فرقة الأرض الطاهرة فى القرن الثالث عشر .

وتقع نصوص اللوتس Lotus Sutra فى قلب تعاليم فرقة التنداى بتأكيدها على أهمية الأيكايانا Ekayana (العربة المفردة) التى تلغى ، ومع ذلك تشمل ، « المركبات » الأخرى ، سواء أكانت هى المهايانا (المركبة الكبرى) ، أو الهنايانا (المركبة الصغرى) .

ولقد كان التأكيد على حقيقة نهائية واحدة (أكيجيتسو Ichijitus) مشجعاً لفرقة التنداى على البحث عن علاقة بالشنتو على أساس الفهم القائم على أن « الكامى » اليابانى تحتل مكاناً داخل هذه الوحدة النهائية .

---

(١) Tendai : مدرسة بوذية هامة دخلت إلى اليابان من الصين ، واستمدت اسمها من اسم جبل « تيان تاى » على جنوب شرق الصين الذى كان مركزاً لتعاليمها ، وقد أسس هذه المدرسة فى اليابان الكاهن سيكو عام ٨٠٦ ، وكان قد سافر إلى الصين معلناً أنه ذاهب صراحة لدراسة تعاليم فرقة « سامون Sammon ، والثانية فرقة جيمون Jimon » ويرأسها الرهبان « إنينن Ennin وإنشين Enchin » غير أن الفوارق بينهما لم تكن جوهرية (المترجم) .

(٢) Zen : تعنى حرفياً : « التأمل » ، وهى مدرسة من أهم المدارس البوذية فى اليابان ، وتزعم أنها تعبر عن جوهر البوذية وروحها ، عندما تحاول المرور بتجربة الاستنارة التى بلغها « بوذا الأكبر » ، وقد نشأت هذه المدرسة فى الصين فى القرن السادس باسم مدرسة « شان Chan » ، وهى صورة من صور المهايانا البوذية ، ثم انتشرت فى اليابان منذ القرن الثانى عشر (المترجم) .

١٥- السر فى قلب الكون :

أدخل القديس كوكاى Kukai (٧٧٤ - ٨٣٥) [(١)] الذى سمى بعد موته بكوبو دايشى Kobo Daishi فرقة الشنجون (أى الكلمة الطاهرة) البوذية [(٢)] وكانت الكلمة السنسكريتية الأصل التى اشتقت منها كلمة شنجون - كانت تعنى « الصيغة السحرية » ، وبهذا يشير الاسم إلى الطابع المستور لهذه الفرقة . ولقد درس كوكاى - مثلما فعل سيكو - فى الصين ، وشيد بعد عودته ديراً خاصاً به على جبل كويا Koya.

ويكمن السر ، طبقاً لتعاليم هذه الفرقة فى قلب الكون ، وهو سر يُعبِّر عنه بالرموز والشعائر الدينية . ولقد ابتكر « كوكاى » اثنين من الماندالا Mandala [(٣)] يقدمان تمثالين رمزيين للكون ، فيصور أحدهما عالم الأمور أو الحقائق التى لا تفنى ، ويشير الآخر إلى رحم العالم ، حيث يكمن صراع الصيرورة والواحدية المثالية التى لم نبلغها بعد .

وينظر إلى « كوكاى » على أنه « بوذا منتظر »، وأنه ممثل « ميتريا » على الأرض [(٤)]

---

(١) كوكاى Kukai (٧٧٤ _ ٨٣٥) : واحد من أشهر وأحب القديسين البوذيين فى اليابان ، أسس مدرسة شعبية هى مدرسة شنجون التى تؤمن بالرقى والتمائم والسحر .. إلخ ، كما أسهم مساهمة كبيرة فى تطوير الفن والأدب اليابانى ، إذ كان نحاتاً ومصوراً وأديباً وقديساً فى آن واحد ! (المترجم) .

(٢) شنجون Shingon : فرقة بوذية خفية ، كان لها انتشار ملحوظ فى اليابان منذ أن قدمت من الصين فى القرن التاسع الميلادى ، وتعنى كلمة شنجون « الكلمة الصادقة » ، وهى ترجمة للكلمة السنسكريتية « مانترا Mantra » ، ويمكن أن نعتبرها محاولة لتعليم الحكمة الخالدة لبوذا التى لا يمكن التعبير عنها فى كلمات ، وبالتالى لم يقلها فى تعاليمه المعلنة . وتعتقد هذه المدرسة أن هذه الحكمة يمكن تطويرها وتحقيقها من خلال وسائل شعائرية خاصة تستخدم الجسد ، والكلام والذهن .. إلخ ، وذلك مثل استخدام الإيحاءات ، والإيماءات الرمزية ، والمقاطع الصوتية ، والتركيز الذهنى (اليوجا) ، ويستهدف ذلك كله إيقاظ الإحساس المباشر بالحضور الروحى لبوذا الذى يكمن فى كل كائن حى (المترجم) .

(٣) تعنى حرفياً : حلقة ، أو دائرة ، أوه رسماً تخطيطياً رمزياً فى تأدية الشعائر المقدسة كأداة للتأمل ، وتمثل « الماندالا » أساساً لكون أو منطقة تصلح لمشاهدة الآلهة ، ويدخل الإنسان أو العالم الصغير ذهنيًا إلى « الماندالا » التى ترمز بصرياً إلى العالم الكبير (أو الكون) ويتقدم نحو مركزه ، وقد ترسم الماندالا على ورق أو قماش بغرض التأمل ، كما ترسم على أرض معدة بعناية بخطوط بيضاء أو ملونة ، ويبدو أنها قريبة الشبه بكلمة « المندل » العامية (المترجم) .

(٤) Maitreya : وتعنى « بوذا المستقبل » فقد كان هناك على ما يقول تراث البوذية أكثر من بوذا فى الماضى ، وسوف يكون هناك أكثر من بوذا فى المستقبل ، وميتريا موجود الآن فى الحاضر بوصفه « بوذا المنتظر » وهو يسكن واحدة من السموات الست الدنيا التى يسكنها أيضا مجموعة من الآلهة والآلهات، ومعهم يوجد بوذا منتظراً أن يظهر إلى الدنيا ليعلم الناس شريعة بوذا . وكلمة « ميتريا » مشتقة من السنسكريتية التى تعنى « الصداقة » ، وهى نفسها الكلمة التى تحولت فى اليابانية إلى « ميروكو Miroku » (المترجم) .

(وهو فى اللغة اليابانية ميروكو Miroku) ، أى : بوذا المستقبل. ويعد مذهب « شنجون » أكثر صور البوذية حظاً من التوفيقية للبوذية . ولقد قيل : إن « كوكاى » هومؤلف ريبو ـ شنتو Ryobu - Shinto [1] أو اندماج البوذية مع الشنتوية الذى أصبح سمة للحياة الدينية اليابانية ، وهكذا ظهرت نظرية « الهونجى Honji (أى الوطـن) ، وسويجـاكو Suijaku (أى آثار الأقدام) التى أصبح كامى الشنتو (وكذلك ساكامـونى نفسه) بنـاء عليها مستمـدين من الواقع الميتافيزيقى النهائى الذى يمثله الوطن. ولقد كان المدافعون عن العقيـدتين الشنتوية والبوذية قادرين على مناقشة وضع « الكامى » ، ووضع بوذا على الأرض، فى مقابل بوذا النهائى (المطلق) وفى مواجهة بعضهم بعضاً .

١٦- بوذية الأرض الطاهرة :

اشتملت تعاليم التنداى بالفعل ، كما سبق أن رأينا ، على عناصر الإيمان بالأميدا Amida أو الأمتابها التى لخصت جانب التعاطف والرحمة فى المهايان ، وأصبحت حركة قوية داخل البوذية اليابانية . فقد اعتنت بجعل الخلاص فى متناول الجميع . ولهذا أكدت أنه لكى تصل إلى مرتبة « البوذا » ، فلا مفر من العون الخارجى (تاريكى Tariki) الذى ينفع حيثما يفشل العون الذاتى (جيريكى Jiriki) . ويأتى هذا العون من بوذا أميتابا (أميدا فى اليابانية) أى بوذا صاحب النور اللا محدود ، والحياة اللا متناهية ،وهو تجسيد للرحمة ذاتها، ومحب البشر والحمى والملاذ .

ولقد قيل إن « أميدا Amida » ليس شخصاً آخر غير الراهب « هوزو Hozo » (٢) الذى نذر ، منذ عصور كثيرة مضت ، ألا يدخل مرحلة « النرفانا » (أى الانطفاء والتلاشى) ؛ حتى يصبح من الممكن تعميم مزاياها على نحو شامل . ولقد قيل : إن تعاطفه ورحمته التى لا حد لها هى التى خلقت أرضاً طاهرة يستطيع كل إنسان بلوغها

---

(١) تعنى حرفياً « وجهان للشنتو » ، وهو الاسم الذى يستخدم للتعايش اليابانى بين البوذية والديانة الأصلية الشنتو ، وهو يطلق بتخصيص أكثر على مدرسة توفيقية ألفت بين الشنتو وتعاليم مدرسة شنجون البوذيـة (وهى تعرف أيضا باسم سنجون ـ شنتو) (المترجم) .

(٢) كاهن بوذى يابانى : هو الذى أسس فرقـة « الأرض الطاهـــرة » فى اليابـان باسم « الجودو Jodo » (المترجم) .

بفضل نعمته . ويتم الخلاص من خلال تحول المزايا التى حصل عليها ، ونذره الثامن عشر يشير إلى إمكان الميلاد فى الأرض الطاهرة من خلال تكرار اسمه ، وتذهب فرقة الجودو Jodo (الأرض الطاهـرة) التى أسسها أتبـاع « هونـن » إلى ضرورة التـوسل باسم أميـدا « الذى ينبغى تكراره بصفة مستمرة » « نامو - أميدا - بوتسو Namu, Amida, Bus-tu»[١] فذلك هو الطريق إلى الأرض الطاهرة. وبغض النظر عن هذا التشديد على النعمة التى يهبها «أميدا» فإن فرقة الجودو Jodo ، تشجع الأعمال الصالحة لأنهاتساعد العضو المتدين على الدخول إلى « الأرض الطاهرة » .

ومع ذلك ذهب شنران Shinran (١١٧٣ - ١٢٦٢) [٢] ، الذى كان تلميذاً لـ « هونن » - إلى أن ذلك يقيه من « الجيركى » Jirki (أى مساعدة الإنسان لنفسه) ، كماذهب بتأسيسه لفرقة الجودو سنشو (أى فرقة الأرض الطاهرة الحقة) إلى أن الإيمان سلبية كاملة (أو تقبل تام) ، وعنه أن رحمة « أميدا » لا تفرق بين الشخص الخير والشخص الشرير [٣] . يقـول فى ذلك : « ليس ثمة شرير يبلغ من القـوة حداً يجعله يتجنب أن يشمله حب أميدا اللامتناهى » ، وعلى حين كان « هونن » يقول : «حتى الرجل الشرير سوف يقبل فى أرض بوذا،ناهيك عن الرجل الطيب ! » فإن شنران عكس الفكرة ، فقـال إنه « حتى الرجل الطيب سوف يقبل فى أرض بوذا ، فكيف بالرجل الشرير»: وهكذا أصبح الإيمان هو الشرط الوحيد للخلاص ، وطرح جانباً كل جهد أخلاقى

ويذهب شنران إلى أن الإيمان والنذر شىء واحد ، فقـوة الإيمان تنبثق من النذر ، والترديد المستمر لاسم «أميدا » هو نفسه كشف عن وجود الإيمان ، أما النمبوتسو Nem-butsu (عربة الخلاص) فهى هبة « أميدا » للبشرية ، لأنها تذكر الناس بالكارما Karma الخاصة بهم ، أى : التفـاهة ، أو الحطة التى تجعل بلوغ الإنسان للخلاص من خلال جدارته الشخصية أمراً مستحيلاً : إنها صيحة الفرح ، كما يقول ، التى تتعرف على نعمة أميدا Amida .

---

(١) أى منشداً باسم بوذا المنتظر (المترجم) .

(٢) شنران : فيلسوف بوذى ومصلح دينى ، أسس مدرسة « جودو شنتو Hodo Shinshu (أى مدرسة الأرض الطاهرة الحقة) وهى من أكبر المدارس البوذية فى اليابان الحديثة (المترجم) .

(٣) نفس الفكرة المسيحية التى تقول : إن الأب « الذى فى السموات يشرق شمسه على الأشرار والصالحين يمطر على الأبرار والظالمين » إنجيل متى الإصحاح الخامس : ٤٥ (الترجم) .

ولقد عقدت مقارنات بين الإيمان « الجودو شنشو » وتعاليم « لوثر » ، لكن هناك فروقاً أساسية بينهما ، لأن شنران Shinren يظل مشدوداً إلى الفلسفة البوذية ، كما أن «أميدا» ليس أكثر من وسيلة نافعة ، أى تجسيد لمبدأ الرحمة . ولقدكتب الرئيس السابق لإحدى جامعات « شنتو » فى كيوتو يقول : « من خلال النمبوتسو (عربة الخلاص) حاول شنران إدراك جوهر المهايانا البوذية الهندية بأسرها ، وهى التى تتجمع فيها الحكمة والرحمة لتصبحا شيئاً واحداً (س. ياما جوشى : بوذا المتحرك ، وبوذا الساكن » ص١٠)غير أن «أميدا » بالنسبة للمؤمن العادى هو موضوع حقيقى للعبادة .

تأتى الأيام وتمضى ، وأنا مع أميدا .

لتغرب الشمس حيثما شاءت .

فكم أنا ممتن حقاً ! نامو – أميدا – بوتسو ! (١)

(د. تسوزوكى «متفرقات من تعاليم شن البوذية » ص٧٤) .

ولما كانت هبة « أميدا » بغير شروط تقيدها ، فقد أصبحت « شنشو » ديانة العامة ومن أجل العامة بمعنى الكلمة ، فليس فيها مقام خاص بأتباعها ، بل إن « شنران » قد شجع إطراح مذاهب النسك البوذية القديمة ، فقد تزوج هو نفسه ، وأدى هذا إلى إقامة نظام الكهانة الوراثية الذى أثر كذلك تدريجياً على الفرق الأخرى . وكان انجذاب الناس إلى تعاليمه عظيماً ، كما أنك تستطيع أن ترى الطابع الشامل لتعاليمه فى واقعة أن الايتا Eta (وهم المنبوذين فى المجتمع اليابانى) ، فقد أصبحوا أتباعاً لهذه المدرسة .

١٧- بوذية زن :

كلمة زن Zen هى التحوير اليابانى لكلمة تشن Chan الصينية ، وهذه مشتقة من الكلمة السنسكريتية Dhyana التى تعنى « التأمل » أو « التفكر » ، ولقد كان التأمل دائماً جانباً هاماً من جوانب البوذية . وعندما دخلت إلى الصين (على يد « بودى هارما Bod-hidharma (٢) ، كما تقول الرواية ، وهو راهب هندى مات عام ٥٢٨م) انسجمت مع

(١) « نامو ـ أميدا ـ بوتسو » هى الصيحة التى تحدث عنها المؤلف من قبل ، وهى نداء لـ « اسم بوذا » المنتظر ! (الترجم) .

(٢) بودى هارما Bodhidharma : راهب هندى ازدهر فى القرن السادس الميلادى أسس فرق زن البوذية ، وتردد الكثير من الحكايات عن إخلاصه للتأمل ، منها أنه جلس متأملاً فترة طويلة جداً حتى ضمرت ساقاه ! ومنها أنه قطع جفون عينيه فى نوبة غضب ؛ لأنه راح فى النواح أثناء التأمل ، ومن جفنيه بعد أن سقطا على الأرض ظهرت شجرة الشاى ، وكانت هذه الحكاية هى الأساس التقليدى لرهبان بوذية زن الذين اعتادوا شرب الشاى ليظلوا فى حالة يقظة (المترجم) .

العناصر المعبرة عن السكينة فى تراث التاوية .

أدمجت « بوذية زن » مع تعاليم تنداى Tendai ، ولكنها لم تزدهر كمدرسة مستقلة حتى أسس الراهب إيزاى Eisai (١١٤١ - ١٢١٥) مدرسة زن « رنزاى Rinzai » [١] فى سنة ١١٩١ وكان « ايزاى » نفسه انتقائيـاً إلى حد ما ، واهتم بالجوانب الثقافية فى بوذية زن أكثر من أى جوانب أخرى ، وذلك إذا ما قارنا بينه وبين دوجن Dogen (١٢٠٠ - ١٢٥٣) [٢] ، أحد فلاسفة اليابان العظام الذى لم يكن لديه هو نفسه أية نية لإنشاء مدرسة خاصة ، وإن كان البعض قد اعتقد فيما بعد أنه مؤسس مدرسة زن سوتو Soto فى اليابان [٣] .

وتنظر بوذية زن إلى تتابع استنارة الرسل ، ابتداء من سكايامونى Sakaymuni (بوذا الأكبر) أول مستنير ، حتى عصر تلميذ شاب وصل فى قاعة التأمل - التى أصبحت سمة يتميز بها كل معبد من معابد الـزن - إلى معنى الكوان Koan الذى سأله معلمه [٤]

---

(١) مدرسة أسسها الراهب البوذى « إيزاى » ، وهى إحدى فرقتين رئيسيتين فى بوذية زن اليابانية ، وتركز على بلوغ الإستنارة بطريقة مفاجئة عن طريق إيقاظ الوعى المتبصر ، ثم انقسمت هذه الفرقة حديثا إلى خمس عشرة فرقة فرعية ، لها ما يقرب من ستة آلاف معبد عام ١٩٧٥ (المترجم) .

(٢) كجين دوجن Dogen : أحد قادة البوذية اليابانية فى حقبة « كاماكورا » (١١٩٢ ـ ١٣٣٣) وهو الذى أدخل بوذية زن إلى اليابان على شكل فرقة « سوتو » ، وكان شخصية مبدعة جمعت بين ممارسة التأمل والنظر الفلسفى ، ولد فى أسرة نبيلة وأصبح يتيماً فى السابعة ، ورُسّم راهباً فى الثالثة عشرة، ودرس الكتب المقدسة البوذية ، ولكنها لم ترو تطلعاته الروحية ، كما درس التأمل فى الصين فيما بين (١٢٢٣ ـ ١٢٣٣) ، وقد وصل إلى مرحلة الاستنارة بإشراف أحد معلمى الزن ، ثم عاد إلى اليابان وعاش فى معابد مختلفة ، كما عمل على نشر ممارسات التأمل ، وألف كتاباً عن هذه الممارسات (المترجم) .

(٣) فرقة « سوتو » الفرقة الثانية الكبيرة فى بوذية زن اليابانية ، وهى تتبع أسلوب التأمل الهادئ للوصول إلى الاستنارة ، وقد تأسست فى الصين فى القرن التاسع وعرفت باسم فرقة تستوتنج نسبة إلى الدير الرئيسى المقام على جبال تستوتنج ، ثم أدخلها كوجن إلى اليابان وأسس لها معبداً عام ٢٤٤ ، وأصبحت شعبية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر (المترجم) .

(٤) الكوان Koan : سؤال موجز أو عبارة مقتضبة ، تعبر عن مأزق عقلى أو حيرة ذهنية يستخدمه الراهب المبتدئ فى تأملاته ويبذل جهداً فى حله ، والهدف إنهاك العقل والإرادة حتى يصبح الذهن مهيئا لتلقى الجواب بطريقة حدسية . ومن أمثلته السؤال الآتى : « عندما تصفق اليدان تحدثان صوتا ، فهل تستطيع الإصغاء إلى صوت اليد الواحدة ؟! » ويقـال إن هنـاك ١,٧٠٠ كوان جمع معظمها الراهب الصينى « فوان وو Vuan-wu » (المترجم) .

و « الكوان » وسيلة تعليمية قدمت إلى الصين حوالى القرن الحادى عشر ، واستخدمتها مدرسة « رن زاى Rin Zai » فى الوقت الذى أصرت فيه مدرسة « سوتو Soto » على أهمية التأمل بما هو كذلك ، من حيث إنه يؤدى إلى التوصل الفجائى إلى الحقيقة . وبعد أن يقضى الطالب ما يقرب من اثنتى عشرة أو خمس عشرة سنة فى الدير فى ممارسة التأمل ، وبعد أن يقتنع معلمه أنه وصل إلى المعنى الداخلى للبوذية ، يستطيع أن يحظى بسمة الإجازة التى تسمح له أن يكون بدوره معلماً .

ويدرس صغار الرهبان (الذين لم يرسموا كهنة بعد) ، ويتأملون تحت إشراف معلم مقيم،كما يتعلمون فن إدارة المعبد ، وتأدية الشعائر الرسمية ، وهم يعيشون حياة خشنة صارمة . ثم تعقد للراهب المبتدىء مقابلات مع معلمه ، فى معبد « رن زاى » لكى يكشف عن مدى فهمه « للكوان » ،كما تلقى عليه محاضرات ، لا بقصد التثقيف بل للإيحاء والإلهام .

ويقبل عامة الناس كذلك فى دورات تدريبية مؤقتة ، ولكنا لا نجد فيها ذلك النوع من الرعاية ، بإشراف الكاهن على نحو ما نجده فى معابد هو نجانجى Honganji عند بوذية « شن Shin »[1] حيث يحظى الناس ، فى كثير من الأحيان ، بالنصح والإرشاد . غير أن كلمة « زن » ترتبط عند كثير من الناس بالفنون : بتنسيق الزهور ، إقامة حفلات الشاى ، أو الصفاء الصوفى الهادىء – فى حديقة ليس لها شكل محدد فى الظاهر . وقد يرى البعض أنه من خلال ذلك يمكن أن يكون هناك استبصار مباشر « بصحوة عميقة » أو وثبة حسية وجودية إلى المطلق .

١٨- بوذية نشرين Nichiren[2]

(١) كلمة Shin : معناها هو الحقيقى أو الصادق ، وهى الفرقة التى أسسها « شنران » فى القرن الثالث عشر فى اليابان تحت اسم « مدرسة الأرض الطاهرة » ، وكانت ترى الخلاص فى الإيمان ببوذا المنتظر والإيمان وحده يكفى عندها ، وذلك بترديد اسم « المنتظر » كثيراً ، ولهذا تقوم فيها الموسيقى والأناشيد بدور هام (المترجم) .

(٢) ولد « نشيرين » فى (٣٠ مارس ١٢٢٢) ، ودخل الدير فى سن الحادية عشر ، ورسم كاهناً بعد ذلك بأربع سنوات ، ثم ذهب إلى مدينة « كاماكورا » الدراسة المذاهب الدينية الرئيسية ، وانتهى عام ١٢٥٣ إلى أن تعاليم « سوترا اللوتس » هى وحدها العقيدة الحقة ، وأن جميع المذاهب الأخرى زائفة فطرد من الدير وراح يعظ الناس فى مفترق الطرق المؤدية إلى « كاماكورا » ، وجمع حوله الأتباع ، فحوكم وحكم عليه بالإعدام ، ثم خفف الحكم إلى النفى إلى جزيرة سادو Sado ، وفى هذه الجزيرة كتب مؤلفاته الرئيسية ، ومات فى نوفمبر ١٢٨٢ (المترجم) .

أسس نشرين (١٢٢٢ - ١٢٨٢) فرقة تحمل اسمه [١] ، عندما جمع عام١٢٥٣ عدداً قليلاً من الأتباع في « كاماكورا Kamakura » ، وانتقد جميع الفرق البوذية الموجودة في ذلك الوقت ، فاضطهده الرهبان والعامة ، كما اضطهده الموظفون الرسميون في الحكومة من أنصار هذه الفرق سواء بسواء ، وقد ظهر ولاؤه لبوذية دهما Dhamma[٢] (التي رأى أنها تمثلت بشكل نهائي) ، وعلى نحو فريد ، في نصوص (سوترا اللوتس Lotus Sutra) ،كما ظهر إخلاصه لرخاء بلاده في عنوان أطروحته عام ١٢٦٠ (ريسشو أنكوكو - رون Rissho Ankoku - ron) التي ترى أن « الأمن القومي يعتمد على إقامة القانون البوذى » ، وذهب إلى أن اليابان لن تبلغ مرحلة السلام الداخلى ، ولن تكون آمنة من تهديد الغزو المغولى إلا باستقرار التراث الدينى التقليدى . وكان فى الوقت ذاته حريصاً على أن يرى تعاليم « سوترا اللوتس » تحققاً للحركات الدينية القومية . وكانت الماندالا Mandala [٣] التي ابتكرها مصنوعة من أشكال الكتابة الصينية المرسومة بالفرشاة ، ويلتقى فيها كامى الشنتو Shinto Kami ، مع آلهة الهند ديڤا Devas ، مع البوذا المنتظر

---

(١) مدرسة نشرين : وهى مدرسة من أوسع المدارس البوذية انتشارا فى اليابان فى القرن الثالث عشر ، وسميت باسم القديس نشرين ، وبلغ أتباعها فى تعداد سبعينات القرن الحالى أكثر من ثلاثين مليونا ، وهى تؤمن بأن جوهر تعاليم بوذا تكمن فى « سوترا اللوتس » (أو الكتاب المقدس لـ لوتس قانون الخير) ، وبالتالى فإن بقية الفرق أساءت فهم الحقيقة ، لهذا عارضتها بقوة كما عارضت الحكومة التى تساند هذه الفرق، وأعلنت أن خلاص الأمة اليابانية يعتمد على الإيمان بالمضمون الحقيقى الكامن فى اللوتس ونصوصها المقدسة ، واعتبر « نشرين » نفسه بوذا المنتظر الذى يعانى من أجل إعلان الحقيقة وسط بحر من الظلام ، وانقسمت المدرسة بعد موته إلى فرقتين أهمهما فرقة « نشرين شو » التى مازالت تسيطر على المعبد الرئيسى (المترجم) .

(٢) كلمة « Dhamma سنسكريتية » تعد مصطلحاً رئيسياً ذا معان متعددة فى الهندوسية والبوذية والجينية، فهو فى الهندوسية : القانون الأخلاقى والدينى الذى يحكم سلوك الفرد ، أما فى البوذية : فهى الحقيقة الكلية التى يشترك فيها جميع البشر فى كل العصور التى أعلنها بوذا الأكبر . أمّا فى الجينية : فهى الفضيلة الأخلاقية ، فضلاً عن أنها ـ وهذا خاص بالجينية وحدها ـ هى الجوهر الأزلى الذى يحرك الموجوات جميعاً (المترجم) .

(٣) كلمة « ماندالا Mandala » (أو المندل) سنسكريتية معناها : « حلقة أو دائرة » وهى رسم تخطيطى رمزى يستخدم فى تأدية الشعائر المقدسة كأداة للتأمل ، قد سبق أن تحدثنا عنها (المترجم) .

فى البوذيــة بوديساتفــا Bodhisattva فى أنشــودة تسبيــح وشــكر ، معدة لتكريــم الدهما « Dhamma » العجيب ، كما تقضى تعاليم « نصوص اللوتس » (بتبجيل القانون الرائع لنصوص اللوتس) .

ولقد تميزت هذه الفرقة طوال تاريخها باهتماماتها القومية وميولها التوفيقية ،كما تميزت بدعاويها المتطرفة ومطالبها المطلقة . أما دعوة « نشرين » إلى الشاكوبوكو Shaku-buku [1] (ضرب من الهداية الجبرية) فقد اعتنقتها بعد ذلك فرقة سوكو جاكاى Soka Gakkai (٢) .

وتعتقد معظم جماعات نشرين أن هذا القديس هو التجلى المنتظر لبوذا ، أو Jogyo الذى صورته نصوص اللوتس وقالت إنه سيظهر فى عصر انهيار التعاليم البوذية . أما جماعة « سوكاجاكاى Soka Gakai » فقد زعمت أنه تجسيد لبوذا الأزلى .

ويبدو أن « نصوص اللوتس » تعطى لرجل الشارع وضعاً مساوياً للراهب . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أنه انبثقت داخل تراث نشرين ماسمى بـ Zaike Bukkyo ، أى بوذية رجل الشارع ، وهى ثورة ضد المغالاة فى الكهنوتية . فبوذية رجل الشارع هى محصلة التشديد على أن الناس العاديين هم فى الواقع البوذيون المنتظرون (البوديساتفا) ، الذين يحملون فى قلوبهم الرحمة ويمكنهم أن يتطلعوا إلى استنارة بوذا ، وفى الوقت ذاته فإن الاهتمام بالعامة يعنى تبسيط الطقوس والتعاليم ،كما أنه محاولة للوصول إلى جوهر هذه التعاليم ، ووفقاً لهذا سعت المجلات الشعبية ومواعظ المعبد معاً إلى إعادة تفسير الإيمان القديم فى لغة معاصرة موجهة مباشرة إلى المواقف الفعلية .

١٩- العبادة فى المعبد :

المعبد هو دائماً بناء يحيط به سياج ، وقد لا يحتوى المجمع على معبد واحد . بل سلسلة كاملة من المعابد . ويحرس مدخل المعابد ، عادة ، تماثيل منفردة ذات وجوه عابسة

---

(١) تعنى حرفيا باليابانية « اضرب ولطِّف » ، وهى وسيلة استخدمتها البوذية فى اليابان لإجبار العامة على اعتناق البوذية ، ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية (المترجم) .

(٢) تعنى حرفيا باليابانية « جماعة الخلق القيم » ، وهى إحدى الفرق الدينية التى ارتبطت بفرقة « نشرين » ونمت بسرعة فى خمسينات القرن الحالى ، وتعد من الحركات الدينية الجديدة الناضجة فى اليابان والمؤمنة بتعاليم نشرين ، وقد بدأت بثلاثة آلاف عضواً ، ازدادوا إلى نصف مليون ، وأصبحوا الآن ستة عشر مليوناً (المترجم) .

يعتقد أنها تمنع الشر. وتغطى المعابد ، فى العادة بالورق ؛ لأن المتعبدين يكتبون التماساتهم على قصاصات من ورق ، يقذفون بها ،بعد أن يلوكوها بأفواههم ، إلى التماثيل ، فإذا التصقت بها كان معنى ذلك إجابة الالتماس . وكثيراً ما يحتوى المعبد على« باغودا Pago-da » ترتفع من ثلاثة إلى أربعة طوابق مزخرفة ومنمقة فى العادة . ويحتوى المحراب الرئيسى على مذبح به شموع مضاءة ، مع تماثيل لبوذا ، والبوذات المنتظرين (بودساتڤا) ، وآلهة الهند (ديڤا) ، وحول المذبح صناديق تشتمل على السوترا (النصوص) ولن تحصل فرقة واحدة على الشريعة الصينية برمتها ، بل سيكون لكل فرقة أن تنتقى منها النصوص التى تعتقد أنها هى النصوص الأصولية المعتمدة .وتختلف الصورة المركزية فوق المذبح تبعاً لكل فرقة.

ويقوم الكهنة بإنشاد النصوص ، وتلاوة الصلوات بمصاحبة الطبول والأجراس ، وحرق البخور ، ونادراً ما يحضر المؤمنون العاديون هذه الصلوات ، فعبادة هؤلاء شخصية إلى حد كبير ، وهي تنحصر فى كثير من الأحيان فى بوتسون Butsudan المنزل [١] ، وهو صورة مصغرة مما يوجد فى المعبد .

وتقدم كثير من المعابد -- بصورة أساسية -وجبات وفقاً لحاجة الناس ، كما تزودهم بتذكارات ، وتنقش أسماءالمساهمين فى موارد المعبد المالية على بعض الأشياء المقدسة ، أو الزخارف التى يمكن وضعها فى مذبح الأسرة فى المنزل . ويتأكد الجو الصوفى الغامض للمعبد بتوزيع التمائم والرقى ، مع شيء خاص بالمعبد البوذى هو ميدالية تشبه القديس كريستوفر St. Christopher [٢] ، لسائقى سيارات الأجرة المنهمكين فى عملهم فى طوكيو . أما الكهنة ، فى معظم المعابد ، فهم على استعداد لتأدية الطقوس العامة والشعائر الخاصة ، حيث لايطلب من المتوسل أكثر من التوقير الخرافى لصحة النصوص الدينية .

وبغض النظر عن الحقيقة التى تقول بأن عقيدة الأناتا Anatta (للأرواح) [٣] تكمن

---

(١) مذبح الأسرة البوذية فى اليابان ، وهو أشبه بخزانة الحائط ، التى تشمل مجموعة من الأرفف ، يوجد فيها عادة ما يسمى « بإله الرف » ، كما يحتوى على ألواح لذكرى الأسلاف ، ومجموعة من الشموع والبخور ، كما تقدم إليه الزهور فى الطقوس اليومية وفى المناسبات (المترجم) .

(٢) القديس كريستفر .. شخصية ازدهرت فى القرن الثالث الميلادى لقديس يرعى المسافرين ، ثم أصبحت فى القرن العشرين راعياً لركاب السيارات أو سائقيها ، ورغم أنه من أشهر القديسين وأكثرهم شعبية ، فليس ثمة ما يؤكد وجوده التاريخى (المترجم) .

(٣) الأناتا Anatta « اللاذات » ، أو « اللاجوهر » وهى فى البوذية الاعتقاد بأنه لا يوجد فى الإنسان جوهر خالد ودائم يسمى « الروح » ، وتمثل هذه الفكرة ابتعاداً عن معتقدات الهندوسية (المترجم) .

فى قلب البوذية ، فإن قوة عبادة الأسلاف ـ كما تتمثل فى القيام بالطقوس الجنائزية والتذكارية للمتوفى ـ تشغل الكاهن أكثر بكثير مما يشغله التعليم المنتظم للبوذية ، ونتيجة لذلك كان عيد « أو – بون O - Bon (الذى يقام فى اليوم الخامس عشر من الشهر السابع) – هو أكثر الأعياد شعبية ، إذ يعتقد أن أرواح الموتى قد عادت إلى موطنها الأصلى، فيتم الترحيب بها بالفوانيس والألعاب النارية .

لقد ظهرت لوحات الأسلاف فى مذبح الأسرة – وهى التى يعتقد أن أرواح الأسلاف تسكنها ، ووجدت لها مكاناً فيه ابتداء من القرن الثالث عشر الميلادى ، فأصبحت تعبد جنباً إلى جنب مع التماثيل الصغيرة لبوذا ، ونسخ من النصوص المقدسة ، وكما أن المتعبد الشنتوى يتطلع إلى أن يصبح روحاً Kami عندما يموت فكذلك ينتظر البوذى أن يصبح بوذا ومن المشكوك فيه أن يكون هناك أى فرق بين التصورين .

أما بالنسبة لموضوع قرابين النذور ، فهناك فارق بسيط على المستوى الشعبى بين ممارسة الشنتو– ، فهناك نذور للشفاء من المرض ، ونذور للحمل السهل أو الولادة الآمنة للطفل،كما يقدم نموذج لثدى قرباناً أثناء الصلاة ليكون لبن الأم غزيراً ، وتقدم مغرفة للطفل أثناء الصلاة ، لكن إذا كان قاع المغرفة غير صالح ، فإن الإجهاض يكون موضوع التوسل .وتقدم شخصيات الدهارما Dharma(أى بودى دهرما المؤسس المزعوم لبوذية زن) بغير عيون حتى يستجاب الطلب .

٢٠– ديانات جديدة : خلفيتها :

لم تستطع الحركات الجديدة أن تحظى باعتراف شعبى حتى العصور الحديثة ، فقد ظلت البوذية لمائتين وخمسين عاماً خلال حكم أسرة شوجن توكوجاوا [١] هى الديانة الرسمية ، على الرغم من حدوث امتزاج على المستوى الشعبى بين أفكار ديانة شنتو ، والأفكار البوذية ، وقبول هذا الامتزاج على المستوى الرسمى ، أما بالنسبة للأخلاق

---

(١) Tokugawa توكوجاوا حقبة استمرت فى تاريخ اليابان من (١٦٠٣ ـ ١٨٦٨) وهى آخر فترة فى اليابان التقليدية قبل دخولها العصر الحديث ، وكلمة « شوغن » تعنى المحارب أو الحاكم العسكرى ، وهو لقب اتخذه لنفسه الإمبراطور « إياسو » مؤسس الأسرة ، وسوف يرد الحديث عن خصائص هذه الحقبة فيما بعد (المترجم) .

الاجتماعية والعامة ، فقد جاء الإلهـام من الكونفوشيـة أكثر مما جاء عن طريـق التراث الديني لبوذية الشنتو .

وكان هذا العصر عصر قيود صارمة ؛ فزيارة الهيكل المحلى ، أو الاحتفال بأعياد المعبد ، أو الحج إلى هياكل مختلفة ، خصوصاً هيكل آيس Ise الكبير ،كانت هى وحدها المناسبات التى يستطيع فيها الشخص العادى أن يخرج على نماذج السلوك المتعارف عليها ، أو يسافر فيما وراء الحدود المحلية . وقدكانت أرادة الحج ـ بوجه خاص ـ شيئاً محبباً إلى نفوس عامة الشعب،كما كان يطلق عليه « أوكاجه مايرى Okage Mairio ، أى : « الذهاب لتقديم الشكر» .

وبعد عودة السلطة الإمبراطوريةعام ١٨٦٨ ، طور عامة الناس أغانى شعبية على غرار «السوترا » البوذية ،بل واستخدموها وسيلة لعرض رسالة اجتماعية جديدة ، كما طوروا فى الوقت ذاته رقصات ذات وصفات سحرية تسمى ee ja naika « إنها طيبة ، أليس كذلك ؟!» وعندما اتضح أن الإصلاح الاجتماعى والسياسى لن يتم ،كان من الطبيعى أن تجرب الجماهير حظها مع الحركات الدينية التى بدأت تظهر فى أواسط القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه الحركات جديدة تماماً ، بل لم يكن من الممكن أن يقال عنها إنها ديانات جديدة ؛ لأنها تعكس الطابع البسيط للديانة الشعبية التى تؤثر عليها عناصر الوجد والتجلى تأثيراً كبيراً ، ولقد أدخلت حركة مثل حركة تنريكيو Tenrikyo [١] الرقصات كمصدر للإلهام ، بينما ظهر اهتمامها بالقضايا الاجتماعية من رؤيتها الطوباوية للمستقبل ونقدها للنماذج المعاصرة .

---

(١) تنريكيو Tenrikyo أو عبادة الحكمة الإلهية فى اليابان ، وهى أوسع وأنجح فرق الشنتو الحديثة ، وعلى الرغم من أنها تأسست فى القرن التاسع عشر فإنه ينظر إليها بوصفها من الديانات الجديدة المعاصرة فى اليابان . أنشأت هذه الفرقة الكاهنة ميكى نكاياما Miki Nakayma (١٨١٧ ـ ١٨٨٧) التى كانت امرأة لديها مقدرة كبيرة على اجتذاب العامة . وقد زعمت وهى فى سن الأربعين أن روحا تلبسها وهى روح « سيد الحكمة الإلهية» فأنشأت عبادة تتميز برقصات وجد وممارسات شامانية . كانت النبؤات تصل عن طريقها مركزة على الإحسان والصدقات وشفاء المرضى ، واشتهرت الفرقة فى حياتها رغم أنها كانت تتعرض بين الحين والحين لاضطهاد السلطات الحكومية (المترجم) (١

٢١- طوائف الشنتو :

عندما قامت حكومة « ميجى Mijii »[١] فى عام ١٨٨٢ بتقسيم التنظيمات الاجتماعية إلى ثلاث فئات هى : البوذية ، والمسيحية ، والشنتو – فإن التنظيمات التى لم يكن من الممكن تصنيفها مع البوذية أو المسيحية ، صنفت مع فرق الشنتو ، وكان معنى ذلك هو التفرقة بين شنتو الهيكل Jinja وفرقة كيوها الشنتوية Kyoha ، ولقد كانت هذه الفرق متنافرة تماماً ، ثم سمح فى النهاية بتسجيل ثلاث عشرة فرقة تنتمى إلى خمس جماعات يضم بعضها مثل تايشاكيو Taishukyo أكثر من ثلاثة ملايين عضو تتمركز حول هيكل أزوموتايشا Isumo Taishe القديم[٢] وهى فرق شنتوية خالصة . وبعضها الآخر استلهم الكونفوشية ، أما بعضها الثالث فرأى أن أساس العقيدة عنده هو العبادة الجبلية القديمة ، ويركز بعضها الرابع على طقوس خاصة بالتطهر .

غير أن أكثر الفرق إثارة للاهتمام هى الفرق الثلاثة ذات الأصل الريفى ؛ لأنها تضع نموذجاً تحتذيه حركات أخرى كثيرة نشأت فى القرن العشرين ، وهذه الفرق الثلاثة هى : فرقة كروزيميكو Kurozumiko[٣] وفرقة « تنريكيو Tenrikyo » وفرقة « كونكوكيو Konkokyo »[٤] ، وهناك ـ فيما يبدو ـ بعض السمات العامة التى تتميز بها هذه الفرق

) ميجى (١٨٥٢ ـ ١٩١٢) إمبراطور يابانى حكم من ١٨٦٧ وحتى وفاته . ازدهرت اليابان فى عصره حتى تحولت إلى واحدة من القوى العظمى فى العالم الحديث (المترجم) .

(٢) مكان واسع يبعد عن مدينة « أزومو » ثمانية كيلومترات ، ويقع فيه أقدم هيكل للشنتو فى اليابان ، ويجذب الحجاج طوال العام ، أنشئت مبانيه فى القرن التاسع عشر على مساحة أربعين فداناً ، ويضم مجموعة من المعابد تحتوى على آيات فنية ، كما يوجد فى هذه المنطقة عدد كبير من الهياكل الأخرى حيث يُعتقد أن جميع آلهة الشنتو يجتمعون فى واحد منها فى شهر أكتوبر من كل عام ، ولهذا يسمونه « شهر بلا آلهة ! » (الترجم) .

(٣) كروزيميكو ـ حركة دينية تعد نموذجاً للحركات الدينية الجديدة ـ أنشأها فى القرن التاسع عشر كاهن من الشنتو ، وهو كيروزومى (١٧٨٠ ـ ١٨٥٠) والمؤمنون بهذه الحركة يبجلون إلهة الشمس زما تراسو ويعتبرونها أسمى الآلهة وخالقة الكون ، أما جميع الآلهة الأخرى فليسوا سوى تجليات لها (المترجم) .

(٤) الكونكوكيو : حركة دينية نموذجية للديانات الجديدة ، أسسها فلاح غير مثقف فى القرن التاسع عشر زعم أن الإله كونكو عيّنه وسيطا بين الله والناس ، وبذلك أصبح قادراً على أن يحمل عن الناس عذابهم وآلامهم لينقلها إلى الإله ، وقد شددت هذه الديانة على الاعتماد المتبادل بين الإله والناس ، وهى نفسها العلاقة بين الأب والابن ، وهى أساس فرقة من فرق الشنتو (المترجم) .

وتشترك فيها مع مايسمى بالديانات الجديدة منها :

١- أنها حركات نشأت فى زمن الأزمة الاجتماعية .

٢- أن لها قائداً يخلب لب الجماهير .

٣- لها علامات تنبؤية ، وكرامات عجيبة .

٤- سلوك الوجد بين أعضائها ، وإطلاق العنان لهم فى المشاركة التامة فى العبادة ، وفى أنشطة العبادة .

٥- الميل نحو التلفيق ،كما أن طابع الانتشار الخاص بالديانة الشعبية ظاهر فيها، .

وتذهب فرقة « كوزيميكو » إلى أن نقطة بدايتها هى التجربة الدينية الشخصية لـ « كروزومى مونتادو Kurozumi Munetado» (١٧٨٠ - ١٨٥٠) الذى كان لديه ولاء عميق لإلهة الشمس « أما تيراسو» ، فقد اعتبرها مصدر حياة الكون ، واعتقد أنه بلغ مرتبة الوحدة مع كامى Kami « فأطلق عليه أتباعه لقب إيكى جامى Ikigami ، أى : كامى الحى وأطلق على كامى Kami اسم أويا Oya ، أى : الأب ، وهكذا اعتقد « كروزومى » أن المؤمن قادر ، من خلال الصلاة ، على النفاذ إلى مصدر الحياة .

٢٢- ديانة الحكمة السماوية :

أسست نكياما ميكى Nakayama Miki (١٧٩٨ - ١٨٨٧) فرقة تنريكيو Ten-rikyo (أى ديانة الحكمة السماوية) ، ولقد كانت هذه الكاهنة ابنة عصرها وبيئتها بمعنى الكلمة ، إذ تتحدث الكيوسودن Kyosoden (أى سيرة حياة المؤسسة) عن صلتها بالمعابد البوذية (ولاسيما معبد الجودو شنشو Jodo Shinshu) [1] ، وهياكل الشنتو، وعن اهتمامها بالحج إلى آيس Ise ، وتوسلها بالإله يامابوشى Yamabushi [2] لشفاء ابنها.

وفجأة تلبسها الكامى Kami فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٣٨ ، وكان ذلك إيذاناً ببداية دين جديد ، وتشدد كتب الشريعة لديانة « تنريكيو » على الطابع الكشفى لتجربتها الدينية، وتروى أنها عندما أصبحت وسيطاً راح الكامى Kami (الإله الروح) يتكلم من خلالها ،

(١) أى معبد مدرسة الأرض الطاهرة الحقة ، وقد سبق الحديث عنها (المترجم) .

(٢) يامابوشى : تعنى باليابانية حرفياً « الواحد الذى ينام فى الجبال » ، وكان هذا الإله يرشد الحجاج الذين يقومون بزيارة الجبال المقدسة التى تسكنها آلهة الشنتو (المترجم) .

وهذا « الكامى » هو الذى اتحد بها بعد ذلك باسم « كومى – توكو – تاشى – نو – ميكوتو Kumi - Toko - Tachi - no-Mikoto » (وهو من أوائل الكامى الذين تحدث عنهم كتاب كوجيكى Kojiki ، وكتاب « نهونجى Nihongi » ، وقد ارتبط بفعل الخلق) وهذا الكامى جعلته « ميكى » مرادفاً للقمر (Tsuki) (١) . وقد تلاه كامى آخر تكلم من خلالهـا أيضاً ، واتحد مع الشمس Hi ، وتقول القصة ، إنه أعقـب ذلك ثمانيـة أزواج من « الكامى » ، كان آخرها « إزاناجى Izanagi » ، و « إزانامى Izanami »(٢) وهما الإلهان الخالقان الأولان فى أسطور الشنتوالشعبية ،كما أنهما الجدان الأولان للجنس البشرى فى أسطورة « ميكى » الخاصة بالخلق التى تسمى ،عادة ، « السجل القديم لبحر الوحل » .

وبينما أرغمت فرقة « تنريكبو » إبان حقبة المد القومى العارم قبل عام ١٩٤٥ على أن تتقارب فى تعاليمها مع ديانة الشنتو الرسمية ، فإن جهوداً أكبر تبذل الآن للتوحيد بين الآلهة ، بحيث تتكامل فى ألوهية واحدة . وهكذا أصبح تسوكيهى Tsukihi إلهاً واحداً وسمى كذلك باسم « تنـرى – أو – نو – ميكوتو Tenri - o- no - Mikoto » كما اعتبر « الكامى » الثمانية الأخرين أدوات فى يد « تسوكيهى » ، وليس لها وجود مستقل .

أما النصوص المقدسة الأساسية فهى أفيدساكى Ofudesaki التى كتبت فى الفترة الممتدة من ١٨٦٩ إلى ١٨٨٢ ، و « أنشودة الرقص » ميكاجورا – أوتا Mikagura - Uta التى كتبت فيما بين ١٨٦٦ و ١٨٨٢ ، و « السجل القديم لبحر الوحل » ، وهو يتألف من تدوينات أخذت من الذاكرة مما روته « ميكى » مشافهة ، « والإرشاد أوساشيزو

(١) تسوكى Tsuki : إله القمر ، ولد فى عين إزاناجى اليمنى (ويقال : إن الشمس ولدت فى عينه اليسرى !) وهو فى بعض الأساطير شقيق إلهة الشمس أما تيراسو ، وشقيق إله العاصفة سوسانوو Su-sanowo(المترجم) .

(٢) إله وإلهة : وهما شخصيتان رئيسيتان فى أسطورة الخلق اليابانية ، وهما ضمن ثمانية أزواج من الآلهة والإلهات ـ أخوة وأخوات ـ تظهر بعد انفصال السماء والأرض عن العماء Chaos، وكانت الآلهة تنجب ذكراً وأنثى ثم تموت ، حتى صدر الأمر فى النهاية من شيوخ الآلهة إلى اثنين منهما هما «أزاناجى و إزانامى » ، وهما أخ وأخت من الآلهة ـ بأن يخلقا اليابان ـ فوقفا على جسر السماء العائم وقذفا فى المحيط برمح مرصع بالجواهر ، ثم رفعاه إلى السماء فتقطرت من الرمح قطرات أصبحت هى « الجزيرة المقدسة » ، وشهدت الآلهة ما تصنعه الضفادع فى الماء ، فتعلمت منها سر اتصال الذكر بالأنثى ، ومن ثم التقى أزاناجى وأزانامى التقاء الزوجين ، وأنسلا الجنس اليابانى (المترجم) .

Osashizo الذى يعتقد أنه نبؤات أرسلتها الآلهة ، حتى بعد موت ميكى Miki ، وهو موت وصف بأنه يعنى « صعودها إلى السماء » .

وكلمة تنرى Tenri هى الآن اسم المدينة التى يوجد فيها المحراب الرئيسى ، وهى تسمى أيضاً باسم « أوياساتو Oyasato » أى مدينة الأصل (أو الأب) ، فهم يعتبرونها موضع الخلق ، واكتمال الأشياء جميعاً فى آن واحد ، وذلك عندما يسقط الندى السماوى على النصب التذكارى المركزى .وهناك إلى جانب الهيكل الرئيسى مصلى مخصص للكاهنة التى أسست هذه الديانة (ديانة الحكمة السماوية) ، ومصلى آخر دفن فيه أسلاف أعضاء هذه الفرقة .

ويتم التشديد على يوكى جوراشى Yoki Gurashi (أى الحياة المرحة) التى تنتج من النظر إلى الحياة على أنها وديعة من الله . ومن إزالة « الغبار » العالق ،كذلك يؤكدون أهمية العمل الإرادى الذى يظهر بوضوح الامتنان لله ، كما أنه هو المسئول إلى حد كبير عن برنامج البناء الواسع فى مدينة تنرى Tenri ، فها هنا نجد خدمات تربوية ، وطبية ، وثقافية، ورياضية ، فضلاً عن وجود الهيكل الرئيسى ، ومهاجع تتسع لعشرات الألوف من الزوار .

٢٣- ديانة المعدن النقى :

بدأت كونكوكيو Konkokyo (ديانة طهارة الطبع ، أو المعدن النقى)بفلاح غير مثقف يدعى كاواد Kawade (١٨١٤ - ١٨٨٣) ، اشتهر باسم كونكو دايجن Kon-ko Dajin وادعى عام ١٨٥٩ أنه « أيكى جامى Ikigami » أى « كامى الحى » ، وذهب إلى أنه وسيط « تنشى - كان - نوكامى - Tenchi - Kane - nokami وأعلن أن هذا هو الكامى الأعظم ، وأنه « أصل الكون » ، وأن على البشر جميعاً أن يقوموا بواجبهم نحو الأب « كامى » وأن ينموّا الطبيعة البشرية التى منحها لهم : كما أعلن فى الوقت ذاته أن وجود الكامى نفسه يعتمد على البشر . ويشدد « كامى » على الفضل الإلهى : « إذ بفضل النعمة الإلهية تحل البركة على الإنسان ويتم إنقاذه ، ويمضى العالم فى سلام ورخاء! » ولقد كانت نتائج الموقف الجديد تجاه الحياة مزدوجة ، فهناك ، من ناحية سكينة الذهن فى الحياة وفى الممات . وهناك ، من ناحية أخرى ، انسجام فى البيت والمجتمع ، «لأنه لا يوجد شيء تحت الشمس اسمه اللا - علاقة ».

وها هنا نجد باعثاً أصبح عاماً ومشتركاً بين جميع الديانات الجديدة تقريباً - فلا بد

لهذه الديانة أن ترتبط بالحياة اليومية ارتباطاً وثيقاً . ولابد لها كذلك أن تؤدى إلى الحياة الطيبة .

٢٤-جماعة أموتو Omoto للحركات الدينية [١]:

بينما يستحيل فحص جميع الحركات الدينية الجديدة ، فإن مجموعة ديانات أموتو Omoto هي مؤشر للطابع التلفيقى البارز لقدر كبير من الفكر الدينى الحديث فى اليابان .وتبدأ قصة «أموتو» بالسيدة « دجوشى ناو Deguchi Nao » التى تلبسها الكامى عام ١٨٩٢ ، فظُنَّ أنها جنت . وقدكتبت ـ وهى فى حالة التلبس هذه ـ نصوصاً مقدسة تعرف باسم أفوديساكى Ofudesaki ، بأسلة من غصن ، قام بتفسيرها ، فيما بعد ، أصغر أتباعها الذى أصبح زوج ابنتها ، وتسمى باسم « دجوشى أونيسابورو Deguchi Onisaburo وتشكل الأفوديساكى التى كتبتها دجوشى ، و « القصص عن عالم الروح » التى كتبها أونيسابور ، والنصوص المقدسة الأساسية لهذا المذهب ، وقد تحدث أونيسابور عن نفسه فى هذه القصص باعتباره يوحنا المعمدان .

وتوحى نبرة تعاليم « أموتو » فى بعض الأحيان بالوحدانية ، ثم نراها تؤكد أن المذهب يقوم على نظرة للإله تشمل فى آن معاً كل تناقضات الوحدانية ، ووحدة الوجود (أو شمول الألوهية) وتعدد الألهة ، وهى تؤكد الغاية منها عندما تزعم أن جميع ديانات العالم قد بشرت « بالأموتو » . وعلى حين أن « أونيسابورو » قد استلهم أساساً ديانة الشنتو – وفرقته الآن تدخل فى جمعية فرق الشنتو – فقد قيل إنه أصبح يستضيف روح ميروكو Miroku (أى بوذا المنتظر) ، وفى ذلك إشارة إلى « مذهب المخلص المنتظر أو المسيحانية Messianin، وهى تقربنا من فكرة الإله القاضى والمخلص فى آن معاً ، الذى يطيح بالنظام القديم ، ويقيم المملكة القادمة . لقد تطور الاضطهاد الذى تعرضت له فرقة أموتو قبل

---

(١) تقوم تعاليم « أموتو » على تنبؤات إلهية كانت الإلهة تبعث بها من خلال فلاحة يابانية تدعى « دجوشى ناو Deguchi Nao » جذبت قدرتها على شفا المرضى كثيرا من الأتباع فى مرحلة مبكرة ، وكان أول وحى تلقته فى عام ١٨٩٢ ينبئ بإنهيار العالم ، وظهور المخلص المنتظر ، ثم تولى قيادة المذهب وتنظيمه زوج ابنتها « دجوشى أوينسابورو » (١٨٧١ ـ ١٩٤٨) الذى نبذ الحرب والتسلح ، وأعلن نفسه قائداً لنظام جديد فى العالم . وجذب أكثر من مليونين من الأتباع فى ثلاثينات هذا القرن لكنه عادى الحكومة فاعتقلته مرتين الأولى عام ١٩٢١ ، والثانية عام ١٩٣٥ ، وهدمت معابد المذهب ، ثم عادت وأفرجت عنه عام ١٩٤٥ فأعاد بعث الفرقة التى عُرفت بأسماء كثيرة (المترجم) .

الحرب إلى أن قامت الحكومة بقمعها عام١٩٣٥ – ولقد شجع ذلك الفكرة التى تقول إن « كوارث منتظرة » لا بد أن تسبق مجىء المملكة .

أسس « ناكانو يونوسوك Nakano Yonosuke » عام ١٩٣٤ فرقة « أنانيكو Ananaikyo » عندما انشق عن فرقة « أموتو » ، غير أن الجماعة الحالية لا يؤرخ لها قبل عام ١٩٤٩ ، وهو أيضاً تابع متحمس « لمذهب الروح (أو المذهب الروحى) Spiritism كما يذهب إلى أنه يتلقى رسائل من العالم الروحى ، وأنه خليفة دجوشى أو ينسابورو ، ويقبل « ناكانو » مذهب المخلص المنتظر لعقيدة « ميتريا »داخل البوذية ، ويتحدث عن توحيد جميع الأديان حول هذه المسألة . والاسم أناى Ananai نفسه يشير إلى نزعته الكلية فأحد تفسيرات هذه الكلمة يعنى الحبل الذى يربط المؤمن بحقائق العالم الآخر ، مع العلم بأنها تُقال عن حبل من خيوط القِنب[1] تتعلق به الأجراس الموجودة فى واجهة هيكل الشنتو . كما تكتب هذه الكلمة مع الأعداد «٣» ، و «٥» وأحد التفسيرات أن العدد « ثلاثة » يمثل ثلاثة أديان هى الأموتو ، وهنج –وان – تسوهوى ، والبهائية[2] Omoto, Hun, wan, Tsu, hui Bahai فى حين أن العدد « خمسة » يمثل خمسة أديان فى العالم هى: المسيحية، والإسلام ، والكونفوشية ، والبوذية ، والتاوية ، وتشدد هذه الديانة على التأمل وإقامة مراصد فى جميع أنحاء البلاد ، إذ ينظر إليها على أنها وسائل اتصال بالكون Cosmos

٢٥- القوة فى لؤلؤة:

تأسست ديانة سيكايكسكو Sekaikyuseiko • أى ديانة (إنقاذ العالم أو العالم المنتظر) على يد « أوكادا موكيشى Okada Mokichi » (١٨٨٢– ١٩٩٥) عندما انشق عن فرقة أموتو Omoto » . وقد اعتقد أنه وهب القدرة على الأعمال الخارقة ، وهى قدرة كانون Kannon (أى بوذا المنتظر صاحب الرحمة) ، وتذهب إحدى القصص التى تروى

(١) القِنب : نبات حولى زراعى ليفى من الفصيلة القنبية ، يفتل لحاؤه حبالاً . والقنب الهندى : نوع من القنب يستخرج منه المخدر المعروف بالحشيش .

(٢) البهائية : مذهب دينى أسسه مفكر فارسى هو بهاء الله . وتولاه من بعده ابنه عبد البهاد (١٨٤١ ـ ١٩٢١) وهو مذهب شديد القرب من البابية ، متأثر بالكثير من المذاهب الصوفية والغنوصية .. يدعو إلى وحدة الأديان بضرب من التربية والدعوة إلى الإسلام على الأرض ، والأخذ بلغة عالمية احدة (المترجم) .

عنه إلى أن هذه القدرة تتضمنها لؤلؤة صغيرة داخل جسمه ، ويشع نور من هذه اللؤلؤة يقتل البكتريا ! كما يعتقد أن لديه القدرة على شفاء الأمراض ، وإثراء المحاصيل ، وبسبب ذلك سمى هيكارى – سان Hikari - san ، أى : « رجل النور » . ويزعمون أنه قادر على تحويل القوة الشافية إلى قصاصات من ورق تكتب عليها العلامة اللغوية الدالة على «النور »، وهناك محاولة داخل مراكز هذا الدين لإقامة « المملكة » ، فالشغل الشاغل لهذه الفرقة هو « إزالة المرض ، والفقر ، والحرب من هذا العالم ، وتحويله إلى جنة أرضية » .

ويسمى الإله باسم ميروكو Miroku (بوذا المنتظر) ،كما يقال إن الصحة والثراء والسلام هى علامات مملكته . وتقول إحدى الترانيم : –

« تعال ، ياميروكو ، يا أيها الإله العظيم ، مزوداً بقوة عظمى ،
ميروكو ،يا أيها الإله العظيم ، لقد أنشأت السماء
فوق الأرض من قديم الأزل ،
ميروكو ، يا أيها الإله العظيم ، حتى عندما يتسلل لص ، فإنك
تكون قد ولدت تحته بطريقة خفية .
تاركاً خلفك العرش الممجد الرفيع ،
فأنت دائماً ما تولد تحته لكى تجلب الخلاص »

... وهو يسمى أيضاً كوميو ينوراى Komyo Nyorai (أى بوذا صاحب النور أو أميدا « النوراللامتناهى ») .

٢٦- بيت النماء :

تزعم حركة « سيكو –نو– آى Seicho - no - Ie » (أى بيت النماء) ، « إنها حركة غيرطائفية تسعى نحو الحقيقة ، وتقول تعاليمها إن جميع الأديان صدرت عن إله واحد كلى » . ولقد أسس هذه الجماعة تانجوشى ماساهارو Taniguchi Masaharu عام ١٩٢٨ عندما اقتنع بأنه لايوجد سوى كائن واحد حقيقى ، أطلق عليه اسم « جيسو Jisso »[١] ، أما جميع الموجودات الأخرى فهى ، ببساطة ، من نتاج فكر الإنسان الخاص . ويمكن أن يقال إن هذا الوجود الحقيقى هو« الكامى » عند متعبدى الشنتو ويمكن أن يكون هو«بوذا » أو أميدا (النوراللامتناهى) عند البوذيين .. إلخ . ولابد أن يكون هو المسيح عند المسيحيين.

---

(١) إله رحيم يهتم بالموتى من الأطفال ، وقد سبقت الإشارة إليه (المترجم) .

ويمارس «التأمل» عادة في المراكز الرئيسية في مدينة طوكيو في « برج النور » ، وهو يسمى Shiso Kan (أى رؤية العقل الإلهى) ، ومن هذه المراكز الرئيسية تخرج الـنمبا Nempa ، أى : « أمواج الرغبة الروحية » ، وتقع « السوترا » المقدسة في قلب تعاليمهم ، وتسمى « هطول الرحيق الإلهى من المذاهب المقدسة » ، ويفترض أنها ذات قوة فعالة في تحقيق الإنسان لوضعه الحقيقي .

٢٧- حركات نشرين :

سوف نشير إلى ثلاث فقط من الحركات الكثيرة التى استمدت إلهامها من نشرين وتعاليم اللوتس : تأسست المدرسة الأولى المسماة « ريوكاى Reiyukai » (١) (أو جماعة أصدقاء الروح) عام ١٩٢٥ ونالت شعبية واسعة النطاق .ورغم أنها زعمت أنها تسير على التعاليم التقليدية لنشرين ، وأنها تستخدم نصوص « اللوتس » فى طقوسها اليومية ، فإن جاذبيتها الرئيسية تكمن فى تشديدها على عبادة الأسلاف ، وقد جذب ذلك ، بصفة خاصة ، النساء المتزوجات اللائى سمح لهن بإقامة حلقات اتصال بماضى أسلافهن .وقدأظهر من المؤسس وخليفته ،وهى السيدة « كوتانى ميكى Kototani Miki سمات شامانية ، فهما يعدان الأتباع بالاتصال بـروح العالـم من خلالهـما .ولم يتم حصر أعضاء « يوكاى » فمعظم المليونين أو الثلاثة ملايين الذين يدعى أنهم أتباع لها ، هم فى الوقت ذاته ، أعضاء فى جماعات بوذية أو شنتوية أخرى .

أما المدرسة الأخرى وهى ريسهو كوزايكاى Risshokoei Kai (٢) ، فهى جماعة

---

(١) ريوكاى Reiyukai : أو جماعة أصدقاء الروح ، وهى جماعة دينية يابانية تقوم على تعاليم مدرسة نشرين البوذية . أسسها عام ١٩٢٥ نجار يدعى كوبوكالوتا Kubo Kakutero، وتولت قيادتها سيدة تدعى كوتانى ميكى Katani Miki عام ١٩٤٤ ، بعد وفاة « كوبو » ، ووصلت إلى قمة نشاطها فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية وبعدها ، ولقد كانت تلك الجماعة هى الأصل الذى تفرع منه سبع ديانات جديدة كانت أكثر منها نجاحاً ، منها الجماعة المسماة « رسهو كوزاى كاى Rissho-Kosei-Kai » ، تشدد جماعة أصدقاء الروح على عبادة الأسلاف ، وفعالية نصوص اللوتس ، وهى لا تعتمد على كهانة بل على معلمين من عامة الشعب ، يعقدون لقاءات مع الأعضاء فى منازلهم ، وهى تزعم أنها تضم أكثر من أربعة ملايين عضو (المترجم) .

(٢) Rissho-Kosei-Kai جماعة دينية يابانية تقوم على تعاليم مدرسة نشرين البوذية . واسمه يعنى حرفياً « جماعة إقرار الاستقامة والعلاقات الأخوية » ، وهو فرع من جماعة « ريوكاى » السابقة وانفصلت عنها عام ١٩٣٨ ، وقد أسسها بائع لبن هو « نيواتونيكيو » وزوجة ورعة هى « ناجنوما » وقد توفيت عام ١٩٥٧ ، وهذه الجماعة مثلها مثل الجماعات الأخرى التى انشقت عن مدرسة نشرين .. تشدد على أهمية نصوص اللوتس والترنم بها (المترجم) .

تستهدف إقامة « القانون الحق » فى العالم ، و« الأخوة » فى الإيمان ، وتحقيق الكمال ، وقد ظهرت الجماعة إلى الوجود عالم ١٩٣٨ عندما إنسحب نيوانونيكيو Niwano Nikyo و ناجانوما ميوكو Naganima Myoko » من جماعة « رايوكاى » ، واشتهرت السيدة «ناجانوما » بسبب قدراتها الروحية ومواهبها فى شفاء الأمراض ، فأكسبها ذلك شعبية كبيرة ، ونظر الناس إليها على أنها « بوذا الحى » ، ومنذ وفاتها عام ١٩٥٧ لم تعد العناصر الشامانية بارزة كما كانت فى السابق ، وإنما زاد الاهتمام بجماعات الاستشارة (Hoza)، وبمحاولة إظهار البوذية فى ثوب حديث ،بوصفها عقيدة تمنح السلام والإرادة الطيبة .

ومن هنا نجد « نيوانو » يتحدث فى شروحه الشعبية لنصوص اللوتس المقدسة عن الناس الذين يتطلعون لبلوغ مرتبة البوذا (أو التحقيق بالبوذا)عندما تزول سحب الخطأ السوداء من حياة الرجال والنساء اليومية ، الذين يتحتم عليهم قبول مطالب بوذا ؛ لأن هذا وحده يمكن المرء من إظهار التوبة النصوح التى تساعد على تحطيم « الكرما Karma » [1] (أو الولادة الثانية) . وحياة الإيمان تعنى الاتحاد مع بوذا ، الذى هو اتحاد مع « الحياة العظيمة للكون » ، والدخول إلى عالم بوذا .

لم تبرز هذه الحركة شيئاً من خصوصية بوذية نشرين المألوفة ، وإنما كشفت عن الرغبة فى إقامة علاقات فى جميع الاتجاهات ، ومن أمثلتها الزيارات التى قام بها « نيوانو » إلى الفاتيكان ، وجنيف ، ولامبيث! [2] .

وكانت القاعة المقدسة الكبرى فى طوكيو التى افتتحت عام ١٩٦٤محصلة لمساهمات أكثر من مليون ونصف المليون من الأعضاء ،وهى تشهد اجتماعات حاشدة .

---

(١) Karma كلمة سنسكريتية معناها « الفعل » ، وقد سبق الإشارة إليها من قبل ، وهى من أهم مصطلحات الفلسفة الهندية، وتعكس اعتقاداً عاماً بأن هذه الحياة ليست سوى حلقة فى سلسلة من الحيوات Samsara تحدد أفعال المرء فى الحياة السابقة ، وهم يعتقدون أن ذلك هو قانون الطبيعة الذى لا يحتمل أى نقاش ، ويكشف هذا القانون عدم كفاءة المخلوقات ، ففى مجرى سلسلة الحياة وحلقاتها المتعددة يستطيع المرء بكفاءته وكماله الخلقى أن يرتفع إلى مصاف الإله براهما ، أو أن ينحط بنفسه ليولد من جديد حيوانا ، وسلوك المرء هو الذى يحدد سعادته أو شقاءه (المترجم) .

(٢) حى من أحياء مدينة لندن ، يقع فيه مقر كبير أساقفة كانتربرى (المترجم) .

٢٨- نمو رائع :

كان تطور حركة « سوكاجاى Soka Gakkai » أو « جماعة خلق القيم » [١] ، تطوراً غير عادى أكثر من أى حركة دينية أخرى . فبينما كان عدد أعضائها لايزيد عن خمسين ألفاً عند افتتاح برنامج « شاكوبوكو Shakubuku » عام ١٩٥١ ، فإنهم يبلغون اليوم ما يقرب من ١٦ مليوناً ، و « لحزب الحكومة النظيفة » الذى يرتبط بهذه الحركة ، ثالث أكبر تمثيل فى اثنين من غرف المجالس النيابية (فقد بلغ ٥٩ عضواً عام ١٩٨٠) .

واسم هذه الحركة يعنى « الجمعية العلمية لخلق القيم » ، وهى تعكس الهدف النفعى لمؤسسها « ماكى جوشى تسونيسا بورو Makiguchi Tsunesaburo (١٨٧١ - ١٩٤٤)[٢] وقدقامت فى البداية كمذهب فى التربية يستهدف خلق قيم الخير ، والجمال، والمنفعة . لكنه مع أصغر أتباعه تودا جوزى Toda Josei (١٨٩٩ - ١٩٥٨) وقع تحت تأثير جماعة « نشرين شوشو Nichiren Shoshu » (فرع من مدرسة الأرض الطاهرة) وهى جماعة صغيرة ،ولكنها متعصبة لتراث نشرين ،إذ زعمت أنها الممثل الشرعى الوحيد لتعليم القديس نشرين ، وهذه الجماعة هى التى وحدت بين القديس نشرين وبوذا الأزلى ، وأهملت « سيكامونى Sakyamuni » (بوذا الأكبر) ،كما زعمت أن الماندالا Manda-la فى دايزكجى Daisekiji ، وهومعبدها الرئيسى قرب جبل فوجى Fujii) هو المعبد الأصلى الوحيد الذى أنشأه نشرين ، ولهذا كان له الأثر الفعال فى خلاص البشرية ، وقد كان هدف هذه الجماعة هو الحصول على اعتراف بأن معتقداتها تمثل الديانة القومية .

فلا يوجد من أعضاء « سوكايجاكاى » سوى نسبة ضئيلة تنتمى لجماعة « نشرين شوشو » ، لكن لا شك فى أن التطرف ونزعة الخلاص الشديدة اللذين اشتهرت بهما

---

(١) جماعة خلق القيم : جماعة دينية ارتبطت فى اليابان بفرقة نشرين البوذية ، ونمت نمواً سريعاً منذ خمسينات القرن الحالى حتى أصبحت أنجح حركة دينية فى اليابان ، وإن كانت تنتمى من حيث ارتباطها بالقديس نشرين ، إلى تراث القرن الثالث عشر ، وقد أنشأت عام ١٩٦٤ حزباً سياسياً هو «حزب الحكومة النظيفة » الذى فاز بمقاعد كثيرة فى المجلسين التشريعيين فى اليابان (المترجم) .

(٢) ناظر مدرسة سابق .. اهتم بالجانب البرجماتى (العملى) للدين ، فوضع نصب عينيه تحقيق ثلاثة أهداف هى : قيم « الجمال ، والخير ، والربح أو المنفعة » عانى من اضطهاد الحكومة أثناء الحرب العالمية الثانية ، وبعد وفاته قام تلميذه « تودا » بإحياء الجماعة عام ١٩٤٦ . أما الرئيس الثالث «ايكيوا» فهو الذى يتولى قيادة الجماعة منذ عام ١٩٦٠ (المترجم) .

الجماعة الكبيرة مستمدان من تعاليم الجماعة الأصغر ، ويرجع نجاح سوكو جاكاى فى جانب كبير منه إلى رغبتها فى التعبير عن الوعى القومى اليابانى ، فقد صممت بنية الجماعة تصميماً يتيح التخفيف من غلواء الفرد ، ومع ذلك يسمح للجماعة بالنمو جماهيريا متخلصة من مساوئ الجماعة الأكبر ، ولقد كانت التجمعات الأولى من القوة بحيث أمكن لهذا التنظيم أن يصمد ، فى حين أن العلاقات المتداخلة للجماعات الأولى ضمنت عدم انقسام الحركة إلى عدد لا حصر له من الجماعات المنشقة ، على نحو ما حدث لبوذية شنجون Shingon ، وكثير من الحركات الدينية الجديدة ، ولما كانت الجماعات الأولى قليلة العدد ، فإن الفرد لم يشعر فيها أبداً بالضياع .

٢٩ ـ الحقيقة المطلقة :

يعتمد المبدأ اللاهوتى لهذه الجماعة على أنها حركة تقوم على الحقيقة المطلقة ، وأن السعادة تكلفتها هذه الحقيقة ، وهذه المقدمة كامنة بقوة فى تنظيمها ، وإن كانت تضم ببراعة العناصر التقليدية مع العناصر الجديدة ، (وهى جماعة عملية ينصب اهتمامها على هذا « العالم الدنيوى ») كما أنها خالية من أخلاقيات الزهد ، ويمكن أن تصل بسهولة ويسر إلى الشخص العادى القادر على التكيف ، والصلوات اليومية مطلوبة وإن كانت بسيطة وتتسم بالتكرار ، أما الحج إلى ديزكيجى Dosekijii فهو أبعد شئ عن التنسك . وهناك مصدر قوة آخر هو التخلى عن الترتيب الهرمى المألوف فى المجتمع ، فتحديد مرتبة الفرد فى هذه الحركة يعتمد على جهده الخاص .

٣٠ ـ حركات جديدة أخرى :

وتُعد حركة كيوان Kyodan (أى الحركة الكاملة) مثالاً جيداً للحركات الجديدة المتنوعة التى ازدهرت فى العشرين سنة الأخيرة ، أسسها ميكى توكوهارو Miki Tokuharu (١٨٧١ ـ ١٩٣٨) باسم « هيتو ـ نو ـ ميشى Guti Nomichi » (أى طريق الإنسان) بيد أن هذه الحركة قُمعت عام ١٩٣٧ ، ثم أعاد «ميكى توكوشيكا Miki Toku-chika » تأسيسها عام ١٩٤٦ باسم « جماعة الحرية الكاملة » ، واستخدام اللغة

الإنجليزية نفسه يكشف عن زعم التحديث[١] وتتبع عقيدتها المقدمة الأساسية التى تقول : إنّ « الحياة فن » ، ويظهر الجانب العملى فى الأنشطة الموجودة فى المراكز الرئيسية لهذه الحركة فهناك ملاعب للجولف ، وأفران لصناعة الفخار ، وملاعب رياضة منوعة ؛ لأن الرياضة والتربية والرعاية الاجتماعية ، والصلاة هى كلها رموز للتعبير البشرى عن الانسجام الذى يكافح الإنسان ليصل إليه ، وللنشاط البشرى معنى لأنه يعبر عن الخلق الإلهى ، ومن خلال هذا النشاط يتحقق السلام والوئام .

٣١ ـ الإنسان يعكس الإله :

إنّ فكرة الموجود البشرى بوصفه العالم الصغير Microcosm عامل مشترك بين معظم الديانات ، ولكن الديانات اليابانية نظرا لتأثرها الكبير بتشديد الشنتو على أهمية العالم ـ اهتمت اهتماماً بالغاً بالنشاط البشرى أكثر جداً من اهتمامها بالفكر البشرى ، ومن هنا ربطت جماعة الحرية الكاملة بين النشاط والشخصية . فالناس تعكس الإلة فى نشاطها الخلّاق (أو هم مرآة لهذا الإله) وهذا النشاط نفسه يكشف عنهم ،كما يحافظ على فكرة الفردية التى ترغب المرحلة الديمقراطية لما بعد الحرب فى تجسيدها ، وفى استطاعة (الإنسان) « أن يعبّر عن هذه الفردية فى كل فعل يقوم به ، ولا شئ فى شؤون البشر يستعصى على أن يصبح فنّا ، وحياة الإنسان تبدأ وتنتهى « بالتعبير عن الذات » . (الحرية الكاملة : كيف تحيا حياة سعيدة ص ١٧) .

يمكن القول بأن الديانات الجديدة استعادت صلابة الجماعة وتماسكها بالنسبة لأناس يعيشون عصر تغير اجتماعى سريع ، فقد مروا بتجربة انهيار الأنظمة الاجتماعية القديمة التى ظهرت لتحقيق أمان الفرد والجماعة ، والفرد بانضمامه إلى الحركة الجديدة يجد دفئاً جديداً ، وإحساساً جديداً بالجماعة . ويمكن كذلك أن يكون هيكل الشنتو رمزاً لتضامن الجماعة ، وإن كان تراثها ينقصه تلبية حاجة أولئك الذين يتطلبون قدراً من التحديث ، غير أن الاعتمادية ليست هى كل شئ ، فهناك أيضا الدعوة إلى التحقيق الإيجابى للذات ،

---

(١) انفردت جماعة « كيودان » ـ الكلمة اليابانية تعنى كنيسة أو جماعة دينية ـ باستخدامها للكلمات الإنجليزية ، وهى ترى أن هدف الإنسان هو التعبير عن نفسه على نحو ممتع ، ولهذا جعلت النشاط البشرى كله فنّاً (المترجم) .

الذى يعنى نمو الثقة بالنفس ، وهكذا بدأت المشكلات الشخصية تحل ، ولا يترك الحج الجماعى والخدمة الاجتماعية ، وقتا للاستبطان الذاتى المرضى الذى يؤدى إلى حالة الـ « فيوان Fuan » (القلق) . فى حين أن برنامج البناء الشامل الذى جعل البعض يسمون الحركات الجديدة باسم Tatem ono Shukyo (أى ديانات المبانى) يعطى الإحساس بالنجاح .

٣٢ ـ إحصاءات دينية :

ليست الإحصاءات الدينية مما يوثق به دائماً ، ولا يمكن فى أية حال أن تكشف عما إذا كان أتباع دين معين أتباعاً حقيقيين أم اسميين ؛ فكثير من الفرق البوذية تحصى الأسر التى تودع ألواحها فى معابدها ، ثم بعد ذلك يخصصون خمسة أفراد للأسرة ، ومن الواضح أن ولاء الأسرة قد يختلف عن الولاء الشخصى ، وليس غريباً أن يبلغ المجموع الكلى للإحصاء ١٨٠ مليون عضو تقريبا ، رغم أن العدد الإجمالى لسكان اليابان لا يزيد قليلا عن ١١٠ مليون نسمة !

وتميل هياكل الشنتو إلى تسجيل جميع الداخلين فى سلك الجماعة الذين يُسهمون فى احتفالات الهيكل ، وهو ما يفسر العدد التقريبى للأتباع بـ ٨٥ مليون نسمة ! ومع ذلك فلا يوجد إلا ٢٢ ألفاً من الكهنة يقومون بالخدمة الدينية فى ثمانين ألف هيكل . والأرقام التى تقول بها الفرق أكثر دقة مع فرقة تنريكو Tenrikyo التى تذهب إلى أنها تضم حوالى ٢ مليون عضو ، لهم ١٥ ألف كنيسة (أو دار عبادة) ، وأكثر من مائة ألف ممن تلقوا تدريباً على القيام بالخدمات الدينية ، وتضم فرقة « كونكوكيو Konkokyo » أكثر من ٦٠٠ ألف عضو يؤدون طقوس العبادة فى ١,٣٥٠ معبد ، ويقوم بالخدمة الدينية ٣,٦٠٠ كاهن ، أما فرقة (كيروزميكو Kurozumikyo) فتذهب إلى أن عدد أتباعها أكثر من ٧٠٠ ألف ، وإن كانت لا تملك سوى ٣٠٠ معبد يقوم بالخدمة فيها ٣,٤٠٠ كاهن .

أما الفرق البوذية (التى تزعم أن مجموع عدد أعضائها يبلغ حوالى ٣٧ مليون عضوا) فهى فرقة « جودو شنشو Jodo Shinshu » ، و « فرقة نشرين » ، وهما أكثر الفرق شعبية، وتضم كل منهما أكثر من تسعة ملايين عضو . وعدد أعضاء الجماعات المختلفة المرتبطة بالشنجن Shingon أكثر من سبعة ملايين عضو ، وفرق الزن Zen أربعة ملايين

ونصف المليون ، والجودو أربعة ملايين فما فوق ، والتنداى حوالى المليونين . ومن المرجح أن تشمل الأرقام بالنسبة لبوذية نشرين أعضاء ديانات جديدة مثل جماعة «رشوكوزيكاى Risshokoseikai » ، وإن كان من الممكن أن ترفع هذه الأرقام لو شملت إحصاءات بأعضاء فرقة سوكا جاكاى Soka Gakkai .

أما الديانات الجديدة مثل حركة « جماعة الحرية الكاملة » فهى تضم حوالى مليون عضو ، كما تضم جماعة « سيكاكيو سيكو » أقل من نصف المليون بقليل ، وجماعة « سيكونويمى » أكثر من مليون ونصف مليون عضو ، غير أن هذا المجموع الكلى يشير ببساطة إلى عدد المشتركين فى نشرتها الأدبية ! وتضم جماعة « أموتو Omoto » حوالى مائة ألف عضو ، وجماعة « أنانيكو Ananaikyo » حوالى ٢٠٠ ألف عضو .

أما المسيحيون فهم يشكلون فى اليابان أقلية ضئيلة تزيد قليلاً عن ثلاثة ملايين نسمة ، أى حوالى ٣٪ من السكان .

* * *

تم بحمد الله

ملحـــق

معجم بالمصطلحات

بقلم المترجم *

(*) راجع بشأن هذه المصطلحات « معجم ديانات وأساطير العالم » للدكتور إمام عبد الفتاح إمام ـ الناشر مكتبة مدبولي ـ بالقاهرة .

- A -

Abhivayatana أبهيفياتانا ـ كلمة سنسكريتية تعنى حرفياً « السيطرة التامة على الحواس » ، وهى تنقسم داخليا إلى ثمان مراحل يشعر فيها الإنسان أن العالم المادى أصبح غريبا عنه ، وبذلك يتحرر من الأشياء الحسية .

Abhidhamana Pitaka مجموعة النصوص الثالثة التى تشكل شريعة ترافادا Thera-vada (أى طريق الشيوخ) فى بوذية جنوب شرقى آسيا ، وهى مجموعة كلمات بوذا نفسه للتلاميذ ولفقهاء البوذية .

Abydos أبيدوس – مدينة قديمة غرب النيل قريبة من البلينة الحالية فى صعيد مصر . كانت المركز الرئيسى لعبادة أوزريس رب الموتى ، وسيد العالم الآخر .

Adad حدد (أو أد) إله الطقس عند السومريين – يهب الحياة ويمكن أن يدمرها فى آن معاً ، يصورونه ثوراً جامحاً كالصاعقة ، يختلط أحياناً بالإله « بعل » .

Addu أدو – هو نفسه الإله السابق حدد .

Adema أديما – ألهة مهمتها مراقبة الأطفال فى الأساطير الرومانية .

Adi-grant آدى جرانت – تعنى حرفياً المجلد الأول – المجموعة الأولى من كتب السيخ المقدسة .

Adi-nata السيد الأول : لقب للمخلص فى الديانة الجينية فى الهند.

Adityas أبناء أديتى Aditi (اللامحدود) فى أساطير الفيدا ، عددهم غير معلوم ، ويقودهم فارونا .

Adonis — أدونيس – (أدون = السيد ، أدونى = سيدى) شاب رائع الجمال فى الأساطير اليونانية ، حبيب أفروديت ، قتله خنزير برى ، توسلت أفروديت عند زيوس ، فأمر بصعوده من العالم السفلى إلى الأرض ستة أشهر – يرمز ظهوره إلى الربيع والخصب والنماء .

Advaita — اللاثنائية ، الواحدية – مدرسة من مدارس الفيدانتا فى الهند، ترفض الثنائية وترى أن الواحدية هى الحقيقة النهائية ، نشأت فى القرن السابع الميلادى .

Adyton — ممنوع الدخول ، كانت تستخدم عند اليونان لمنع الجمهور من دخول المحراب فى الهيكل أو الكهف السرى الذى تقيم فيه العرافة .

Aeneas — آيناس ، بطل الإنيادة لفرجيل والجّد الأسطورى للرومان

Agape — أجابى – المحبة – الحب الروحى أو الدينى فى مقابل Eros الحب الشهوانى .

Agathe Tyche — تيكى أجاثى أو الصدفة الطيبة فى أساطير اليونان .

Akito — عيد رأس السنة الجديدة عند البابليين .

Agni — أجنى – إله النار ، وهو المحور الذى يربط عالم الناس وعالم الآلهة فى أسفار الفيدا .

Agnosticism — اللاأدرية ، موقف فلسفى يتوقف عن الحكم بوجود أى شىء أو معرفته ويكتفى بالجواب « لا أدرى ! » – وصف به مذهب كونفوشيوس .

Ahimsa — أهمسا – كلمة سنسكريتية تعنى حرفياً « اللا أذى » ، مبدأ أخلاقى أساسى فى ديانات الهند : الهندوسية ، والجينية، والبوذية ـ يدعو إلى عدم إيذاء الكائنات الحية .

Ahriman	أهرمان – إله الشر أو الشيطان أو إبليس فى الديانة الزرداشتية .
Ahura Mazada	أهورا مزدا ـ مكـون من ثلاث كلمات معناها « أنا الوجود الخالق » إله الخير والإله الخالق فى الزرادشتية .
Aite	الإله آيتى إله العالم السفلى فى الديانة الرومانية القديمة هاديس عند اليونان .
Akal	الصفة الثانية لله عند السيخ ، وتعنى الأزلى .
Akal Takht	عرش الواحد الأزلى عند السيخ .
Alakh	ألاخ ـ الصـفـة الثـالثـة لله عند السيخ وتعنى « مالا يمكن وصفه » .
Albigenes	الألبجنيز – فرقة دينية انشقت عن المسيحية وبشرت بتعاليم مانى الثنائية .
Alcmene	ألكيمنا – انتهز زيوس ـ كبير الآلهة ـ فرصة غياب زوجها أمفتريون Amphitryon فى الحـرب ، وتنكر فى هيـئـة زوجـهـا وجامعـهـا وأنجب منهـا البطل هرقل ، ومن هنا جاءت كراهية هيرا زوجة زيوس لهذا البطل .
Allat	اللات ـ الإلهـة الأنثى ـ أو الإلهـة الأم ، أو « الأم العظيـمـة» فى بعض مناطق الشرق الأدنى .
Amharaspands	الملائكة المقربون فى الديانة الزرادشتية .
Amavavati	مدرسة فى النحت الهندى ازدهرت فيما بين القرن الثانى قبل الميـلاد والثـالث الميـلادى – أنشـأت الكثـيـر من المعـابد ولاسيما المعابد البوذية الضخمة فى الهند .
Amaterasu	أما تيراسو – إلهة الشمس فى اليابان ، يعتبرونها الجد الأول للأسرة الإمبراطورية .

Amun Amaunnet — أمون وأمونت : زوجان من الآلهة المصرية القديمة الثمانية التى لعبت دوراً جوهرياً فى خلق العالم فى ديانة مصر القديمة .

Amitabha — أميتبها – تعنى حرفياً « النور اللامتناهى » الذى هو حقيقة بوذا وماهيته ، موضوع الإيمان الأول فى البوذية ، يضرعون إليه للخلاص فى بوذية المهايانا اليابانية باسم أميدا Amida .

Amoghaajara — أموجها فاجرا (٧٠٥ – ٧٧٤م) راهب بوذى هندى أحد ثلاثة يسمون « بالصوفية النقية » ، هو الذى أدخل بوذية الكلمة الصادقة إلى الصين .

Amun — آمون – ملك الآلهة ورب الأرباب فى الديانة المصرية القديمة ازدهر فى الدولة الوسطى فى طيبة ، وفيها شُيد معبده الضخم « الكرنك » ، هرع الإسكندر إلى معبده فى سيوة يتلقى بركاته .

Amurru — أمورو – إله البدو القاطن فى الصحراء عند السومريين ، وهو نفسه إله الطقس .

An — آن – إله السماء عند السومريين ، والكلمة تعنى الأعالى أو السماء وهو زوج الإلهة « كى » أو الأرض ، وهو نفسه الإله آنو Anu .

Analects of Confucius — مختارات كونفوشيوس – مجموعة من المحاورات والأحاديث لحكيم الصين ، وتسمى أحياناً شذرات كونفوشيوس – هامة فى الديانة الكونفوشية .

Ananaikyo — أنانيكيو – فرقة دينية انشقت عن جماعة أموتو – ازدهرت ابتداء من عام ١٩٤٩ داخل بوذية اليابان ، تنزع إلى توحيد الأديان .

Anansi أنانسى – شخصية فى الأدب الشعبى الأفريقى تلعب دور المخادع .

Anat عناة – إلهة الحب والخصب عند السومريين ، وهى عشتار عند البابليين ، مذكورة فى أسفار العهد القديم يشوع ١٩ : ٣٨ وقضاة ٣ : ٣١ .

Anata الأناتا ـ اللاذات أو اللاجوهر ، وهى فى البوذية الاعتقاد بأنه لا يوجد فى الإنسان جوهر خالد دائم يسمى « بالروح » .

Angad أنجاد (١٥٠٤ – ١٥٥٢) المعلم الروحى الثانى للسيخ.

Angas أنجاس ـ كلمة سنسكريتية معناها أقسام ، وهى تشير إلى نصوص الشريعة البوذية وأقسامها .

Ani آنى ـ أحد حكماء مصر القديمة ، ألف كتاباً من أمتع ما خلفه الأدب المصرى .

Anicca الزوال ، اللادوام : صفة أساسية لكل الموجودات فى الديانة البوذية .

Animal Worship عبادة الحيوان ـ أخذت بعض الحيوانات فى مصر القديمة تجسيداً لقوى معينة ،كالإخصاب فى حالة الثور ـ مثلاً ـ وفى اليونان اتخذت البومة رمزاً للحكمة ، أو الإلهة أثينا لكنه قد يُعبد لذاته كما هى الحال فى الطوطمية .

Anu آنو – إله السماء عند السومريين ، وهو نفسه الإله آن .

Anubis أنوبيس – إله الموتى عند قدماء المصريين ـ كان حارساً للجبانة، ومشرفاً على التحنيط ـ تخيلوه على هيئة إنسان له رأس ابن آوى – هو نفسه الإله سوكاريس – طغى عليه أوزريس – يعرف أحياناً باسم أنبو Anpu .

Annunaki	أنوناكي – إلهة العالم السفلى عند الأكاديين .
Aphrodite	أفروديت – إلهة الجمال والحب والجنس عند اليونان ، وهى نفسها فينوس عند الرومان – ولدت من زبد البحر (Aphros= زبد) أو الأعضاء الجنسية لأورانس إله السماء ، بعد أن قتله ابنه كرونوس وألقاه في البحر – راعية غانيات أثينا – هى نفسها عشتار الآسيوية .
Apis	عجل أبيس أو الإله الثور – عبده المصريون في منف كتجسيد للخصوبة ، من أقدم نماذج عبادة الحيوان في مصر .
Aplu	أبلو – الاسم القديم للإله أبوللو .
Apollo	أبوللو – إله متعدد الوظائف فى أساطير اليونان ، تأثيره قوى بين الآلهة ، يجعل الناس يدركون خطاياهم ويطهرهم منها؛ ولهذا سمى بالمطهر والمضيء – ابن زيوس والإلهة ليتو Leto ، وشقيق أرتميس .
Arallu	أرالو – الجحيم المظلم أو العالم السفلى ، أودار الأشباح فى الأساطير البابلية .
Aranykas	أرانياكا – نصوص الغابة ، وهى خاصة بالرهبان ، لكن يمكن أن تهدى الشيوخ الذين تركوا أهلهم ليقيموا فى الكهوف والغابات .
Archontes	الأرشونتيون ، حكام الظلام فى الديانة المانوية ، من أجسادهم خُلق العالم .
Ardha - Magadhi	لغة كتابة النصوص فى الديانة الجينية ، وهى غير لغة براكريت Prakrit ، أى اللغة الدارجة أو الشعبية .
Ares	آريس – إله الحرب فى أساطير اليونان وعشيق أفروديت إلهة الحب والجمال وزوجة هيناستوس – شاهدهما «هليوس»

إله الشمس فأخبر الزوج . و آريس عند اليونان هو نفسه الإله مارس عند الرومان .

Arhat — راهب البوذية الذى وصل إلى مرحلة النرفانا .

Aritimi — الإلهة أرتيمى عند الرومان هى نفسها الإلهة أرتيمس عن اليونان .

Arjuna — أحد أبطال المعركة التى روتها ملحمة البهابهاراتا .

Arora — الطبقة الدنيا فى مجتمع السيخ .

Artemis — آرتميس إلهة الحيوانات البرية والصيد ازدهرت عبادتها فى كريت .

Aruru — أرورو – إلهة سومرية زوجة الإله « أيا » ، وقد ساعدت زوجها فى خلق البشر من الطين بقوة الكلمة الإلهية .

Arydeva — أرياديفا (١٧٠ – ٢٧٠م) فيلسوف بوذى أسس إحدى الفرق البوذية ذات النظرة الوسطى .

Aryans — النبلاء – علية القوم – الآريون – الهند – أوربيون .

Aryan - Samaj — الجماعة الآرية : فرقة دينية لإصلاح الهندوسية الحديثة أسسها عام ١٨٧٥ راهب هندوسى هو « ديا ننا سار سفاتى » للعوة إلى السلطة الروحية للفيدا أقدم الكتب المقدسة فى الهند .

Asag — أساج – عفريت الأوبئة والأمراض فى الديانة السومرية .

Asanga — أسانجا (فى القرنين الرابع والخامس م) راهب بوذى أسس مدرسة مثالية داخل البوذية هى : « التطبيق العملى لليوجا » .

Asat — العالم السفلى فى الديانة الهندوسية.

Asceticism مذهب الزهد أو النسك أو التقشف – انتشر فى كثير من الديانات القديمة ، نهت عنه الزرادشتية .

Asclepius إله الطب والشفاء عند اليونان والرومان – ابن زيوس وعروس البحر كرونيس Coronis ، كان بارعاً فى فن الشفاء ـ خشى أبوه زيوس أن يجعل الناس خالدين فقتله بصاعقة، وهو والد هيجيا Hygieia إلهة الصحة عند اليونان .

Assuras أشوراز – آلهة الفيدا صنفان ديفاز وأشوارز ، والثانية مستمدة من أهوراز الإيرانية .

Astarte عشتار أو عشتروت إلهة كبيرة فى مجمع الآلهة السومرى إلهة الحب والجنس والخصب والحرب أحياناً ، عُبدت باسم أنانا وعشتار وعشتاروت ، مذكورة فى العهد القديم بكثرة: ملوك أول ١١ : ٢٣,٥ ، وثانى ٢٣ : ١٣ ـ أصبحت إزيس وحتحور عند المصريين ، وأفروديت وأرتميس عند اليونان ، وفينوس وجونو عند الرومان .

Atar عتر – إلهة عند عرب الجنوب فى اليمن ، وهى فتاة عند السوريين .

Atargatis أتار جتيس – الإلهة الأم أو « الأم العظيمة » عند اليونان وهى هيرا .

Atharvaveda القسم الرابع من أسفار الفيدا فى الديانة الهندوسية ويحتوى على ترانيم وتعويذات ورقى سحرية ... إلخ .

Atheism الإلحاد أو الزندقة ، عكس التأليه Theism ....

Athena أثينا – إلهة الحكمة عند اليونان ، وهى نفسها مينرفا عن الرومان ، خرجت من رأس زيوس ، بعد أن أصيب بصداع شديد إلهة للحرب أيضاً وحامية مدينة أثينا .

Atisha أتيشا (٩٨٢ - ١٠٥٤م) مصلح بوذى هندى كانت تعاليمه الأساس لإنشاء فرقة بوذية فى التبت .

Atman الروح فى أسفار الڤيدا الهندية .

Atrahasis أتراحسيس - ملحمة بابلية قديمة تصف خلق الموجودات البشرية فى شيء من التفصيل .

Atum آتوم ـ أو (آتون) ـ الإله الخالق فى الأساطير المصرية القديمة ـ اسمه يعنى « الإله الذى أتم نفسه بنفسه » ؛ فقد خلق نفسه أولاً ثم خلق العالم وهو نفسه الإله خبرى Khrpri .

Augurs المتطيرون - جماعة العرافين الذين يدرسون إرادة الآلهة بمعرفة اتجاه الطير فى تحليقه .

Avalokitesvera أفالوكيسفارا ـ كلمة سنسكريتية معناها « السيد المنتظر » أو «بوذا القادم » صاحب الرحمة اللا متناهية .

Avasyakas طقوس إلزامية فى الديانة الجينية .

Avatamsaka Sutra مجموعة أحاديث بوذا - نصوص مقدسة فى بوذية المهايانا ، أهم تعاليم بوذا الأكبر .

Avatara أفاتارا ـ كلمة سنسكريتية معناها الحرفى « هبوط » ، وهى تعنى : تجسد أحد الآلهة فى هيئة بشرية أو حيوانية فى الديانة الهندوسية .

Avesta الأبستاق ـ كلمة فارسية تعنى « الأصل » أو « المتن »، الكتاب المقدس عند الزرادشتية . وهناك Aend - Avesta أى الشروح على المتن يحتوى الكوبنات التانوت - الترانيم ـ تعاليم زرادشت ... إلخ .

- B -

Ba — با – الروح عند قدماء المصريين ، تخيلوها على هيئة طائر لقدرتها على ترك الجسم والطواف فى أماكن كثيرة .

Bacchus — باخوس – إله الخمر والنشوة عند اليونان (انظر ديونسيوس) .

Bahaism — البهائية – مذهب دينى أسسه مفكر فارسى هو بهاء الله (١٨١٧ – ١٨٩٢) .

Bahubali — باهو بالى – قوى الذراع – ابن المخلص الأول فى الديانة الجينية .

Bali — بالى ـ الشيطان فى الديانة الهندوسية .

Basaa — باسافا ـ مصلح دينى .

Bel — بعل ـ (والكلمة ، تعنى حرفياً : السيد أو الزوج) إله المطر والسحاب عند البابليين – ويختلط أحياناً بالإله « حد » .

Benben — بن بن ـ حجر قديم مخروطى الشكل وجد فى معبد الإله رع فى هليوبوليس ، يقال إنه تمت محاكاته بدقة فى بناء الأهرامات .

Bhadrahu — بهادراهو – راهب هندى (توفى ٢٩٨ ق. م) رأس الجينية، ومؤسس جماعة العراة Daimbava .

Bhagavantara — بجفانتارو ـ إله الرعد والمطر عند القبائل الآسيوية .

Bhagavan — بجفان – الإله الذى يهيمن على الكون عند القبائل الآسيوية.

باكتى ـ حركة دينية داخل الهندوسية تشدد على تكثيف عاطفة المتدين فى حبه للإله الذى يعبده .

Bhikkus — الراهب البوذى ـ أحد جماعة السنغا .

Bhutas — بهوتاز : الروح القلقة فى الهندوسية ـ ويمكن أن تكون مؤذية إذا لم تؤد لها الطقوس المناسبة ـ يخشاها الأطفال والنساء وحديثو الزواج .

Bo	بو ـ شجرة مقدسة فى الديانة البوذية ـ وصل بوذا تحتها إلى مرحلة الاستنارة .
Badhidharama	بودهراما ـ راهب بوذى اشتهر بقدرته الفائقة على البقاء فى حالة تأمل فترة طويلة .
Bon	بون ـ الديانة الأصلية لسكان التبت قبل دخول البوذية .
Book of Change	كتاب التغيرات ـ من الكتب الأساسية فى الكونفوشية ـ قيل إن كونفوشيوس كتبه بنفسه ـ لكنه جمعه من تراث الصين القديم ، ويسمى I ching .
Book of dead	كتاب الموتى – مصطلح أطلقه العلماء على مجموعة من الرقى والتعاويذ التى تحمى الميت وترشده فى العالم الآخر، اسمه المصرى « الخروج من الموت بالنهار » .
Brahma	برهما ـ أحد آلهة الفيدا الرئيسية فى الديانة الهندوسية ـ مع ظهور الفرق والطوائف طغى عليه « فشنو وشيفا – ولا ينبغى الخلط بين برهما فى صورته المذكورة وبين برهمان Brahman المحايد من حيث الجنس ، الذى هو القوة العليا والحقيقة النهائية للكون ، وقد ارتبط بالإله الخالق فى الفيدا ، وسمى باسم براجباتى Prajapati .
Brahma	الإله الخالق فى الهندوسية (انظر المصطلح السابق) قيل إن براهما ولد من بيضة من ذهب ، ثم استدار فخلق الأرض وجميع الأشياء ، وذهبت بعض الطوائف الأخرى إلى أنه ظهر من زهرة اللوتس Lotus التى خرجت من سرة فشنو.
Brahmacarya	العفة – حالة الطالب الدينى الهندوسى غير المتزوج ، وإحدى المراحل الأربعة فى حياته .

Brahman — برهمان : الاسم الذى أعطته الأبنشاد للموجود الأسمى ـ وبرهمان محايد من حيث الجنس – وقد تجسد فى الإله الخالق براهما • (المذكر) ووضع فى مثلث مقدس هو : برهما (الخالق) فشنو (الحافظ) وشيفا (المدمر) .

Brahmana — البرهمى – فى السنسكريتية مالك براهما – أعلى طبقة اجتماعية فى الهندوسية ، وهى طبقة الكهنة ، ويرجع وضعهم الرفيع إلى تقسيم الفيدا للسكان إلى أربع طوائف مغلقة . الشروح الملحقة بالفيدا ، أقدم الكتب المقدسة فى الهندوسية وهى تفسر معنى الفيدا على نحو ما تستخدم الطقوس والقرابين، والمضمون الرمزى لأعمال الكهنة . وكلمة براهمانا Brahmana قد تعنى إما أقوال البرهمى Brahmana ، أو شرح معنى الكلمات المقدسة .

Brahman Aspati — برهمانا سباتى – إله قوى السحر التى تمسك بالكون فى الهندوسية .

Brahmanism — البرهمية – ديانة الهند القديمة ، وهى مستخرجة من كتب الفيدا ، وقد استمدت اسمها من أهمية براهمان بوصفه قوة عليا ، ومن وضع طبقة البراهمة (الكهنة فى الهندوسية) فى آن معاً .

Brahma - Samaj — جماعة براهما – حركة دينية داخل الهندوسية تشبه البروتستانتية ، تأسست فى كلكتا عام ١٨٢٨ ، لا تعترف بسلطة الفيدا ، ولا تؤمن بتجسد الآلهة .

Buddha — بوذا (٥٦٣ – ٤٨٣ ق. م) مؤسس البوذية اسمه الحقيقى سد هارتاجوتاما، وكلمة بوذى تعنى « المستنير » «المتنور »

أو المستيقظ – ابن أحد حكام مقاطعة ساكاس (ولهذا يسمى حكيم ساكاس) ، نقطة التحول فى حياته عند سن ٢٩ ، عندما أدرك أن الإنسان يعانى المرض والشيخوخة والموت – أقلع عن حياة الإمارة ، وتحول إلى ناسك متجول حتى جاءه الإلهام (الاستنارة) تحت شجرة البو Bo .

Buddha - Carita
« حديث عن أعمال بوذا » – كتاب يروى حياة بوذا فى قصيدة ، كتبه أحد شعراء الهند فى القرن الثانى الميلادى – نموذج رائع للأدب البوذى .

Buddha - Dhamma
دهما بوذا – الحقيقة الكلية عند بوذا ، أو العناصر الأولية التى يتألف منها العالم فى ميتافيزيقية البوذية .

Buddha Ghosa
بوذا جهوزار : مفكر هندى بوذى فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، اشتهر بكتابة « الطريق إلى النقاء أو الطهارة »، وهو تلخيص للمذاهب البوذية الرئيسية فى عصره .

Buddhahood
المرتبة البوذية : حالة الاستنارة التى يمكن أن يصل إليها البوذى وهى مثله الأعلى .

Buddhism
البوذية – ديانة وفلسفة أسسها « سد هارتا جوتاما » فى شمال الهند فى القرن السادس ق. م ، ثم انتشرت فى وسط آسيا والصين وكوريا واليابان ... إلخ تعتمد على تركيز التأمل للوصول إلى حالة النرفانا – وهى تعنى بإنكار الذات وضبط العواطف وقتل الرغبة أكثر من عنايتها بالشعائر .

Buddhist Meditation
التأمل البوذى – ممارسة التركيز الذهنى من خلال أربع مراحل (الانفصال عن العالم الخارجى – تركيز الوعى –

زوال المتع – السكينة) يؤدى إلى الحرية الروحية أو «النرفانا» ويحتل التأمل مركزاً رئيسياً فى البوذية .

Bodhi — المتنور أو المستنير أو المستيقظ : آخر مرحلة يأمل البوذى فى الوصول إليها بعدها يتخلص من دورة التناسخ ويدخل فى النرفانا ، أو يصل إلى التحرر الروحى .

Bodhisattva — بوذا المنتظر – أو الشخص الذى يصل إلى مرحلة ما قبل الاستنارة ـ أى الشخص الواعد أن يصبح بوذا ـ وعدد هؤلاء من الناحية النظرية لا حصر له ـ يحمل أسماء مختلفة فى الصين والتبت واليابان .

Bu - ston — فقيه البوذية فى التبت (فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر) .

Butsudan — مذبح الأسرة البوذية فى اليابان : خزانة فى الحائط توضع فيها أشياء مقدسة مع الشموع والبخور .

- C -

Callisto — أحد توابع جوبتر (المشترى) عند الرومان : إلهة صغيرة كانت ترافق أرتميس وترتدى زيها ، غرر بها زيوس فمسختها أرتميس دبة لغضبها منها .

Canons of Logic — أحكام المنطق – الكتاب الرئيسى للفيلسوف الصينى موتسو Mo - Tzo (٤٧٠ – ٣٩١ ق.م) .

Carmentes — آلهة تقدم النور والسحر اللازمين لولادة الطفل السهلة فى أساطير الرومان .

Caste System — نظام الطبقات المغلقة فى مجتمع الڤيدا الهندى وهى أربع : البراهمة (الكهنة) ـ الكشاترية (المقاتلون) ـ الفيزيا (الزراع والتجار) ـ الشودا (أى الخدم) .

Castor & Pollucks — كاستور وبولكس : توأم من « ليدا » ملكة طروادة ،كان الأول من زوجها الملك فكان فانياً ، والثانى من زيوس فكان خالداً – أصبحا فى الفلك الجوزاء .

Catechism — التعاليم الشفهية فى الدين عن طريق السؤال والجواب (انظر الزرداشتية) .

Ceres — كيرس – أوسيرس : إلهة الأرض والمشرفة على الزراعة – إلهة القمح فى أساطير الرومان .

Ch'an — تشين – كلمة صينية تعنى التركيز والتأمل ، ومنها جاءت كلمة زن اليابانية .

Ch'an Buddhism — بوذية المهايانا فى الصين ، وركزت على التأمل ؛ ولهذا سُميت بوذية التأمل، وسميت فى اليابان بوذية زن (أى التأمل) .

Chance — الحظ أو الصدفة : إلهة سيطرت فى العصر الهلنستى (انظر Tyche) .

Chaos — العماء ـ الفوضى أو الفراغ الأول قبل ظهور الموجودات فى أساطير اليونان ـ ذكره هزيود فى أنساب الآلهة .

Centauras — القناطير –جماعة من الوحوش البرية ، فى أساطير اليونان، لها رأس إنسان وجسد حصان ، وتعيش فى الغابات وأعالى الجبال .

Chen ye Budd-hism — بوذية الكلمة الصادقة فى الصين ـ وهى نفسها بوذية شنجون فى اليابان – محاولة للوصول إلى الحكمة الخالدة لبوذا التى لم يعبر عنها فى كلماته ، ولم تكن معلنة للناس .

Ch'ing - Tu	مدرسة « الأرض الطاهرة » البوذية فى الصين ، تؤمن بعقيدة بوذا أميتبها (صاحب النور اللامتناهى) ، تأسست فى الصين فى القرن الرابع ، وانتقلت إلى اليابان فى القرن الثاني عشر.
Chou - Tun - i	فيلسوف صينى من المبشرين بالكونفوشية الجديدة (١٠١٧ – ١٠٧٣) ، وهى المذهب الذى أصبح نموذجاً للفكر الصينى لمدة ألف عام تقريباً .
Ch'u	المائدة أو المأدبة التاوية – لقاء مشترك من مجموعة من الأسرة التاوية ، يرشدها ويوجهها معلم محلى فى أيام معينة ومناسبات خاصة .
Chuang - tzu	شوانغ تسو – اسم كتاب يحمل أيضاً اسم مؤلفه ، وهو حكيم صينى ازدهر فى القرن الرابع ، وترجع أهميته إلى تأثيره الكبير فى تطور بوذية التأمل فى الصين .
Chu Hsi	تشوهسى – فيلسوف صينى (١١٣٠ – ١٢٠٠) صاحب نظرية فى الكونفوشية الجديدة ، سيطرت فلسفته فى الصين وكوريا واليابان لفترة طويلة .
Chum - Tzu	الإنسان الأعلى أو المتفوق ، حرفياً « الإنسان المهذب الكامل » وهو مَنْ تُطَابِق تصرفاته وسلوكه المثلَ العليا للكونفوشية الصينية .
Claros	مدينة كلاروس على ساحل أيونيا ، كان بها عرافة شهيرة للإله أبوللو .
Cleanthes	كليانتس (٣٣١ – ٢٣٢ ق. م) فيلسوف رواقى كان يتغنى باسم زيوس كبير آلهة اليونان .

Coffin Texts
متون التوابيت : مجموعة من النصوص الجنائزية فى مصر القديمة ، مكتوبة على التوابيت التى تصنع عادة من الخشب وهى تتميز بأنها تقدم للأشخاص غير الملكيين .

Cinfucianism
الكونفوشية – ديانة ومذهب فلسفى أسسه حكيم الصين كونفوشيوس مستمداً عناصر كثيرة من العقائد السابقة – يقوم على مبادىء منها : حسن العلاقة بين الأفراد ، أواصر الود فى الأسرة – حسن التعامل بين الرئيس والمرءوس ، اقترحت قيام حكومة عالمية .

Confucius
كونفوشيوس (٥٥١ – ٤٧٩ ق. م) بالصينية كونغ – فو – تسى ، أى كونغ المعلم – أسس الكونفوشية مذهباً أخلاقياً فى أساسه إلا أنها تأثرت بعناصر دينية مستمدة من المعتقدات السابقة .

Coressus, Mount
جبل كوريسوس فى أفسس أحد القمم التى أُقيم عليها معبد زيوس

Cosmology
الكسمولوجيا أو الكونيات – دراسة عقلية لأصل العالم وطبيعته وقوانينه العامة ..... إلخ .

Cow Protection
حماية البقرة – على الرغم من أن الثور يضحى به فى الديانة الهندوسية ، ويقدم لحمه قرابين فى فترة الفيدا – فإن ذبح البقرة التى تدر اللبن كان محرماً ، وهناك نصوص فى الريج فيدا تشير إلى تقديسها .

Cremation
إحراق جثث الموتى فى الهندوسية فى مقابل التحنيط عند المصريين القدماء Embalment ، والدفن Buriel عند البابليين ، أو عرض جثث الموتى فوق « ابراج الصمت

Towers of Silence Dakhmas لتلتهما الطيور الجارحة فى الزرادشتية ، حتى تتجنب تلويث الأرض بالدفن ، أو تلويث الهواء ... إلخ .

Cronus

كرنوس : إله الزمان فى أساطير اليونان ، ابن أورانوس (السماء) وجيا (الأرض) ، خصى والده بناء على نصيحة أمه بمنجل ، ففصل السماء عن الأرض ، وتزوج أخته « ريا » فأنجبت له هستيا ، وديمتر ، وبوزيدون ، وهيرا، وهاديس ، فابتلعهم كرنوس خوفاً من أن يفعلوا معه مثلما فعل هو مع والده « أورانوس » ، فيما عدا « زيوس » الذى أخفته أمه « ريا » فى جزيرة كريت ، ووضعت حجراً فى لفائف ابتلعها كرونوس ظاناً أنها ابنه الأخير الذى أصبح كبيراً للآلهة .

Crocodile - God

الإله - التمساح : ظهرت عبادته فى أرض البحيرة فى الفيوم فى مصر القديمة .

Cunina

كونينا ـ إلهة المهد عند الرومان ، وهى مخصصة لهز المهد لينام الطفل .

Cybele

سيبيل - إلهة الأرض أو الإلهة الأم (وأحياناً أم الألهة) عرفت بهذا الاسم عند اليونان والرومان وآسيا الصغرى حتى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم عرفت بأسماء أخرى كثيرة : عناة ، عشتار ، ايزيس ... إلخ .

- D -

Dadu	دادو ـ راهب هندوسى أسس فرقة دينية فى القرن السادس عشر ـ رفض سلطة الڤيدا أقدم الكتب المقدسة ، والتمييز بين الطبقات ، وصور العبادة الخارجية .
Dadu Panthis	أتباع دادو ، وكان معظمهم من الرهبان .
Dagan	دجن ـ إله الطقس عند البابليين .
Dakhaamas	« أبراج الصمت »طريقة التخلص من جثث الموتى بوضعها فوق الأبراج لتلتهمها الطيور الجارحة عند الزرادشتية (قارن ـ Cremation) .
Dalai Lama	الدلاى لاما – الزعيم الروحى للبوذية فى التبت .
Darshamas	الكلمة تعنى « يرى أو ينظر » فهى وجهة نظر أو مذاهب ستة فى الهندوسية .
Dasam Granth	دسام جرانت – مجموعة من الكتابات منسوبة إلى المعلم الروحى « جوبند سنج » المعلم العاشر وآخر قائد للسيخ ، لا يحظى بمرتبة أدى جرانت (قارن) .
Davaras	مجموعة من الآلهة (والكلمة تعنى العبودية والقصور الذاتى) يقودهم الإله فارونا فى أسفار الڤيدا .
Dayananda Sarasati	ديانند اسار سفاتى (١٨٢٤ – ٨٨٣م) : راهب هندوسى ومصلح اجتماعى أسس عام ١٨٧٥ حركة تزعم العودة إلى السلطة الروحية للڤيدا أقدم الكتب المقدسة فى الهند.
Delos	جزيرة على بحر إيجة – مركز دينى هام فى الديانة اليونانية القديمة .

Delphi دلفى – أقدم وأهم مقر لعبادة الإله أبوللو فى اليونان ، توجد فيه عرافته الشهيرة ـ كانوا يعتبرونه مركز الكون .

Demter الإلهة ديمتر ابنة كرونوس وريا ، وأخت زيوس ، هى الأرض الأم (اسم الإلهة هيرا فى إليوسس) اشتهرت بالبحث عن ابنتها برسفونى التى خطفها هاديس إله العالم السفلى.

Dengyo Daishi اسمه الحقيقى سيكو (٧٦٧ – ٨٢٢) راهب بوذى أسس مدرسة تندابى (قارن) فى اليابان .

Determinism الحتمية – نظرية ترى أن سلوك جميع الأشياء ، بما فيها الأفعال الأخلاقية ، تحددها سلفاً أسباب موجودة ، وبالتالى ترفض أن يكون لدى الإنسان إرادة حرة .

Devas الديفاز – آلهة الفيدا وتصنف حسب قوى الطبيعة ، فهناك إله للسماء ، والهواء ، والأرض (فارونا ، اندرا ، سوما Soma) ، بعد تطور الهندوسية وظهور البوذية والجينية أصبحت هذه توابع لوجود سام واحد لا يسمى « ديفا » بل « السيد ».

Devourer of Dead ملتهم الموتى – وحش فى أساطير المصريين القدماء يقف فى انتظار محاكمة الموتى ، فمن كان صالحاً كتبت له السعادة الأبدية ، ومن يدان يلتهمه الوحش .

Dhamma دهما ـ كلمة سنسكرتيتة – تُعد من المصطلحات الرئيسية ذات المعانى المختلفة ، فهى فى الهندوسية « القانون الأخلاقى» وفى «البوذية » « الحقيقة الكلية » وفى الجينية «الفضيلة الأخلاقية » والجوهر الأزلى الذى يُحرك العالم فى آن واحد .

Dhyana — دهيانا ـ كلمة سنسكريتية ـ تعنى التأمل أو التفكر – تحولت إلى « شن » فى الصينية و « زن » فى اليابانية .

Diana — ديانا – إلهة رومانية اتحدت مع أرتميس اليونانية ، واسمها يعنى « المنير أو المضيء » ؛ لهذا كانت إلهة القمر ، وراعية الحيوانات الأليفة ، ترتبط بالإخصاب تضرع إليها النساء فى الحمل والولادة .

Digambara — فريق العراة فى الجينية (الفرقة الرئيسية الثانية إلى جانب فريق الأردية البيضاء) ملتحفو السماء ، رهبان الجينية ، يسيرون عراة باستمرار ، ويرفضون دخول النساء فى سلك الرهبنة .

Di - manes — أرواح الموتى – كان الرومان يشعرون نحوها بالرهبة والإجلال فى عبادة الأسلاف عندهم .

Dingir — دنجير – إله الريح فى الديانة السومرية .

Dion — الإلهة ديون ابنة الأوقيانوس – زوجة زيوس قبل هيرا – وكثيراً ما يقال إنها أم أفروديت من زيوس .

Dionysus — ديونسيوس ـ وهو نفسه الإله باخوس فى الديانة اليونانية – إله الخمر ومغذى الكروم وحارسها ، وهو ابن زيوس من سميلى Semele ابنة ملك ثيبة ، مات وبعث من جديد – تحتسى النساء فى عيده الخمر بلا حساب فى طقوس شديدة الانفعال .

Di - Upiter — دى أوبتر – الأب ديوس ، الإله الهندو – أوربى الذى تحول إلى جوبتر عند الرومان .

Divi - Filus — ابن الإله – لقب كان يتخذه الإمبراطور الرومانى – وهو مثل لعبادة الحاكم .

Dominus & Deus — السيد والإله – لقب اتخذه بعض أباطرة الرومان – وهو يعنى أن الحاكم هو مالك للعبيد ، وإله للفانين .

Dualism — الثنائية : القول بوجود مبدأين أو إلهين للعالم ، كما هى الحال فى المانوية .

Durga — إلهة هندوسية – راعية اللصوص وقُطاع الطرق – إحدى صور الإلهة شاكتى ، تسكن الجبال – اشتهرت بذبحها للشيطان ماهيشا Mahisha الذى تنكر فى صورة «جاموسة» .

Dumuzi — دموزى (أوتموز Tammuz) وهو عند السومريين الشاب الجميل حبيب الإلهة عشتار ، وهو أدونيس حبيب فينوس وأفروديت – قتله خنزير برى فتوسلت حبيبته إلى الآلهة أن يبعث لها ستة أشهر من كل عام . وهكذا أصبحت حياته وموته رمزاً لدورة فصول السنة

Dyaus — ديوس : إله السماء ، وهو الاسم القديم لزيوس (كبير الآلهة عند اليونان).

Pitar — أبو السماء أو إله السماء فى أساطير الڤيدا ، وهو يقابل زيوس عند اليونان وجوبتر عند الرومان .

- E -

Ea	إيا ـ وهو فى السومرية إنكى ـ ثالث عضو فى مثلث مجمع الآلهـة السومـرى الأكادى إلى جانب آنو (آن) وبعـل (إنليل) - إله الأعماق والحكمة .
Ea	آيا - زوجة إله الشمس فى الديانة السومرية (وهى غير الإله السابق) .
Earth - Mother	الأم الأرض نظرة دينية ظهرت فى الديانات القديمة تجعل من الأرض معيناً لا ينضب لكل شيء - قد تصبح فى بعض الأساطير شخصية محددة هى الأرض الأنثى وزوجها السماء .
Edusa	إلهة تشرف على نمو الطفل عند الرومان .
Eightfold Path	طريق الثمانية - مذهب بوذا الأكبر ، فى أول موعظة له يسميه الطريق الوسط بين متع الحس وإماتة الذات .
Eisai	إيزاى (١١٤١ - ١٢١٥) كاهن يابانى مؤسس فرقة رنيزاى من بوذية زن اليابانية .
Ekayana	ايكايانا ـ كلمة سنسكريتية تعنى العربة الواحدة أو المفردة ، مفهوم اختلف تفسيره باختلاف المدارس الفلسفية فى البوذية ، وهو يميز « سوترا اللوتس » .
En	إن - رئيس الجماعة الدينية فى بابل .
Enki	إنكى - إله الأرض والحكمة عند السومريين ، زوج الإلهة نينكى .
Enkidu	إنكيدو - صديق ورفيق جلجامش فى الملحمة الشهيرة .

Enlili (Elil)	إنليل – رئيس مجمع الآلهة السومرى – إله الريح وسيد النسيم وزوج الآلهة نينليل أو الإلهة الأم .
Ensi	الإنسى – عندما يرتفع المركز الروحى لرئيسى الجماعة «إين » فى بابل يصبح حاكماً أو ملكاً أو أنسى .
Enuma Elish	اينمواليش – ملحمة الخلق عند البابليين .
Eos	إيوس – إلهة الفجر فى ميثولوجيا الرومان وهى نفسها الربة أوروا فى أساطير اليونان أخت هليوس إله الشمس وسيلين إلهة القمر .
Ereshkigal	أريشكيجال – إلهة العالم السفلى فى الأساطير البابلية وزوجة الإله نرجال .
Eros	إيروس – إله الحب فى الأساطير اليونانية ، يغلب عليه الارتباط بالجسد والشهوة .
Esagila	إيزاكيل – أى المعبد الذى تناطح ذروته السماء ، وهو معبد الإله مردوخ فى بابل .
Eta	طبقة المنبوذين فى اليابان .
Etana	ايتانا – الراعى الذى حاول أن يرقى إلى السماء على أجنحة النسر ففشل . فكان الموت نصيب البشر .
Etemenanki	إتمنانكر – المبنى الذى هو أساس السموات والأرض ، معبد الإله تنار إله القمر فى بابل .
Etemu	إتيمو ـ الروح فى أساطير بابل ، وكانت تؤذى الأحياء إذا لم يدفن الميت بطريقة مناسبة .
Euhemerism	الأومهيمرية – نظرية أويهيمروس اليونانى فى القرن الثالث ق. م تقول : إن الآلهة ليسوا سوى أبطال وطنيين أدوا خدمات جليلة فرفعهم الخيال الشعبى إلى مصاف الآلهة .

- F -

Fa - hsein — فا – هسينى (ازدهر حوالى ٣٩٩ – ٤١٤) راهب بوذى صينى – زار الهند عام ٤٠٢ ودرس البوذية مع رهبانها– عاد إلى الصين ، وترجم النصوص البوذية السنسكريتية إلى الصينية .

Fasti — الفاستى – الأيام المقدسة عند الرومان – الأيام التى يسمح فيها القيام بممارسة الأشغال العامة أو يمنع . وهى أيضاً اسم كتاب للشاعر الرومانى « أوفيد » جمع فيه أصول الاحتفالات المقدسة عند الرومان .

Fatalist — الجبرية – (القدرية) مذهب يرى أن كل ما يحدث للإنسان قد قُدر عليه سلفاً .

Fatalist School — المدرسة القدرية فى الزرفانية (الزرادشتية) ترى الموجودات البشرية دمى فى يد القدر – تنكر الإرادة الحرة .

Fates — إلهات القدر فى أساطير اليونان ، وهن ثلاث : كلوتو Clotho ولاخيسس Lachesis ، وأتروبوس Atropos .

Fa - Tsang — فاتساغ (٦٤٣ – ٧١٢م) راهب بوذى يُعد مؤسس مدرسة هواين Hua - Yen البوذية فى الصين .

Felictas — فليسيتاس – إلهة الحظ فى أساطير الرومان .

Fertility — الإخصاب – قوة الإنتاج فى الطبيعة وعند المرأة – عُبدت فى مصر واليونان والرومان – وفى الصين واليابان وفى الديانة الهندوسية على صور مختلفة .

Fetials — الفيتالى – أو المفاوضون الدبلوماسيون – كهنة من الرومان كان اختصاصهم التصديق على المعاهدات .

Fire	النار – من الطقوس الأساسية فى الديانة الزرداشتية .
Five K's	الكافات الخمسة – خمسة شعارات للخلسا فى ديانة السيخ تبدأ كلها بحرف « ك » أهمها كسا Kesa (الشعر) حيث ينبغى عدم قصه . وكان للعدد خمسة مغزى صوفى فى البنجاب « أرض الأنهار الخمسة » .
Five M's	الميمات الخمسة – طقوس هندوسية تبدأ بحرف الميم مثل Madya أى الخمر ، و Matsya أى السمك ، و Mam-sa أى اللحوم ... إلخ .
Five Pecks of Rice	حركة تمرد دينية بدأت فى الصين فى أوائل القرن الثانى عشر بقيادة شانغ لنج Chang Ling الذى كان أول قائد دينى فى الكنيسة التاوية فى الصين .
Flamen Dialis	كاهن الإله جوبتر فى الديانة الرومانية .
= = Matialis	كاهن الإله مارس فى الديانة الرومانية .
= = Quirinualis	كاهن الإله كوير نيوس فى الديانة الرومانية . وهم يساعدون « الحبّر الأعظم » فى تأدية الطقوس الدينية فى روما القديمة .
Flood	الطوفان – مذكور فى معظم الديانات القديمة – غرق الأرض والإنسان بالمياه بسبب أفعال الإنسان الشريرة ، أشهرها مذكور فى ملحمة جلجامش عند البابليين .
Flora	الإلهة فلورا ـ ربة الزهور فى ديانة روما القديمة .
Foamborrn	مولود من زبد البحر ـ أفروديت فى الأساطير اليونانية .
Fortuna	فورتونا – إلهة الحظ والصدفة عند الرومان ، وهى نفسها تيكى (أوتيخى) عند اليونان .

Fox Deity	الإله الثعلب – رسول « كامى » الذى يحرس حقول الأرز فى بوذية اليابان .
Fravashi	الفرافاشى – أرواح هادية للبشر ، ولجميع الأشياء الطبيعية عند الزرادشتية .
Funerary	عبادة جنائزية عند المصريين القدماء .

- G -

Gansha	جانيشا – إله هندوسى له رأس فيل – ابن شيفا وبرفاتى – مزيل العقبات – أول من يضرع إليه فى بداية العباة أو فى فى بداية مشروع جديد تجد صورته فى مدخل المعابد والمنازل.
Garelamaisama	جاريلا مايزاما – إلهة ترتبط بالصيد وجمع النباتات الصالحة للأكل عند قبيلة تشنتشو الآسيوية .
Garuda	جارودا – طائر الإله فشنو فى الريج فيدا (وهو الحدأة)
Gathas	جاثا – سبع عشرة ترنيمة من ترانيم زرادشت .
Gayatri	جترى مترا – نصوص من الريج فيدا يتلوها الهندوس فى صلواتهم .
Ge (Gea)	الإلهة جى (جيا): إلهة الأرض ، وزوجة أورانوس (السماء)
Geb	جب – إله الأرض عند المصريين القدماء وزوج نوت إلهة السماء .
Gelug - Pa	« نموذج الفضيلة » وأيضاً « القبعة الصفراء » : فرقة بوذية فى التبت .

Genius & Luna	القوة الجنسية للذكر والأنثى عند الرومان ، وكانا موضع عبادة عندهم .
Ghat	الجوط - دَرَج يهبط عليه الهندوس إلى الأنهار المقدسة فى الهند .
Gibil	جيبيل - إله النار عند البابليين ويمكن أن يكون مصدر خير أو شر وفق التأثير الذى تحدثه النار نفسها .
Gilgamesh	جلجامش - من أهم الملاحم القديمة - تروى قصة ملك بابلى أراد ألا يموت ، فراح يبحث عن سر الخلود .
Girsu	جيرسو ـ إله الحرب والصيد عن السومريين .
Gitagovinda	جيتا جوفندا ـ كلمة سنسكريتية ـ تعنى حرفياً القصيدة التى غنى فيها قطيع البقر ، وتروى قصة راعى البقر المقدس كرشنا وحبيبته راذا .
Glaucus	جلوكس أو جلوكا مجموعة من عرائس البحر عند اليونان ومنهم إله البحر بونطس Pontius ابن الملك مينوس ملك كريت ، سقط وهو طفل فى جرة عسل ، فأصبح ناعم الملمس .
Gobin Singh	جو بن سنج - مؤسس « الخلسا » رفقة السلاح فى ديانة السيخ .
Gokhale	مصلح اجتماعى أسس منظمة لتحرير الهند .
Gnosis	غنوص - كلمة يونانية معناها المعرفة الباطنية لعالم ما فوق الحس .
Gnosticism	الغنوصية - حركة فلسفية ودينية نشأت فى العصر الهلنستى تذهب إلى أن الخلاص يتم عن طريق المعرفة أكثر مما يتم بالإيمان .

Gopis Graces	الجونز أو راعيات البقر : رفاق اللعب مع كرشنا فى الهندوسية. إلهات النعمة أو الحسن ، وهن ثلاث شقيقات ، أجليا Aglaia (التألق) ويوفروزين Euphrosyne (البهجة) وثاليا Thalia (النضارة) . .
Gramadevata	جراما ديفاتا ـ كلمة سنسكريتية معناها « إلهة القرية » ـ نموذج للإلهة الشعبية الموجودة فى ريف الهند – وهى باستمرار أنثى راعية للزراعة .
Granth Sahib	كتاب يحوى مجموعة من التراتيل لمعلمى السيخ .
Great Mother	الأم العظيمة – عبادة الإلهة الأنثى ، انتشرت فى مناطق واسعة من الشرق الأدنى ، فهى « إنانا » وعشتار ، وهيرا وديمتر .. إلخ .
Great Tradition	التراث العظيم (فى الصين) ، ويقصد به الكونفوشية والتاوية.
Gula	الإلهة جولا – إلهة الشفاء عند البابليين .
Gunas	القوى – أو الخصائص الأساسية التى تسبب الخير والانفعالات الطاغية فى مذهب سانخيا الهندوسى .
Guna - Vratas	نذور فى الديانة الجينية تحكم سلوك الناس والرهبان على السواء.
Gurdwara	معبد السيخ – دار العبادة فى مذهب السيخ .
Guru	الجورو – المعلم الروحى فى الهندوسية والسيخ ... إلخ .
Gyopi	جيوبى (٦٧٠ – ٧٤٩) أحد النساك البوذيين تولى إنشاء معبد تودايجى Tod - aji فى مدينة نارا الذى يحوى تمثالاً ضخماً لبوذا .

- H -

Hachiman	هاشيمان: تعني باليابانية الربات الثمانية التي أصبحت لقباً لإله في ديانة الشنتو السومر يرعى العشائر والمحاربين بصفة عامة.
Hadad	حدد (أو أدد) : إله الطقس عند السمريين ، ويصورونه ثوراً جامحاً كالصاعقة .
Hades	هاديس (كلمة يونانية معناها الحرفي « غير المرئي ») إله الجحيم في أساطير اليونان ، ابن كرونوس ريا وشقيق زيوس وبوزيدن .
Haoma	هوما – نبات مقدس عند الزرادشتّين وشراب يؤخذ منه ما يشبه شراب العنب ، سام أحياناً ، ومسكر أحياناً .
Hathor	حتحور – إلهة السماء في الديانة المصرية القديمة .
Hatha Yoga	مرحلة في اليوجاتركز على أوضاع بدنية صعبة حتى يستغرق اليوجي في التأمل .
Hauhet (Hah)	حوح وحوحيت إله وإلهة في الديانة المصرية القديمة يرتبطان باللانهاية .
Hebe	هيبة – ربة الصبا والشباب ، ابنة زيوس ، وساقيته ، وحاملة كؤوسه ، تزوجها هرقل .
Hecate	الإلهة هيكاتي (توحدت مع برسيفني) إله تراقية . سيطرت على السحر والشعوذة .
Hendonists	اللذيون – مَنْ يعتبرون اللذة أو المتعة معياراً للسلوك الجيد.
Helios	هليوس ـ إله الشمس في أساطير الينان ، يقود عربته الإلهية وعليها الشمس يومياً ويقطع بها السماء من الشرق إلى الغرب.

Hellenistic	العصر الهلنستى ـ الحقبة اليونانية التى تبدأ بعد وفاة الإسكندر الأكبر .
Hepatoscopy	التنبؤ بالغيب عن طريق تشريح الكبد عند البابليين .
Hephaestus	هيفاستوس – الإله الأعرج الذى ولدته هيرا قبل اكتمال إله الحدادة والبراكين زوج أفرديت – خالق المرأة (بروميثوس خالق الرجل) .
Hera	الإلهة هيرا (اسمها يعنى « السيدة ») سيدة السماء ، وزوجة زيوس ، راعية الزواج والأسرة ، وأم هيفاستوس أنجبته وحدها في لحظة غضب فكان شائهاً .
Heracles	هرقل (هيكيوليس عند الرومان) : أشهر الأبطال فى أساطير اليونان والرومان ، كانت شجاعته خارقة وقوته جبارة وكانت هيرا تكرهه لأنه ابن زيوس من الكيمينا Alcene.
Hermes	الإله هرميس – الإله المرشد للمسافرين والتجار – رسول الآلهة الذى يرافق الموتى إلى العالم الآخر – يتصف بالمكر والخداع ؛ ولهذا نراه أحياناً يحمى اللصوص وقطاع الطرق.
Hestia	هستيا ـ ربة المدفأة والمنزل فى الأساطير اليونانية ، وهى نفسها فستا عند الرومان .
Hi	الكامى الذى توحد مع الشمس فى بوذية اليابان .
Hibil - Ziwa	هيبل زيوا – مُخلص اقتحم العالم السفلى وهزم الأرواح الشريرة عند فرقة المانديين الزرادشتية .
Hieros Gamos	الزواج المقدس عند اليونانيين ، كالارتباط فى الأساطير بين إله آلهة الذى يرمز فى الأعم الأغلب إلى الإخصاب .

Hijiri	الرجال المقدسون – النُساك فى ديانة اليابان .
Hikari - San	هيكارى سان أو « رجل النور » : لقب أطلق على أوكادا موكيتشى مؤسس ديانة سيكايكسكو فى اليابان .
Hike	هيكى فى الديانة المصرية القديمة تترجم عادة بالسحر أو القوة السحرية ، لكن معناها الحقيقى مازال غامضاً – تجسيد لإحدى صفات رع إله الشمس .
Hinayana	الهنايانا ـ كلمة سنسكريتية تعنى « العربة الصغرى » ـ اسم أطلقه أصحاب المهايانا (العربة الكبرى) فى التراث البوذى عند المدارس المحافظة .
Hinduism	الهندوسية – ديانة معظم شعب الهند ، تعد الڤيدا من أقدم كتبها المقدسة ، ثم مجموعة شروح دينية ، تؤمن بتعدد الآلهة ـ وأضاف البراهمة مجموعة معقدة من العقائد .
Hirayakshs	الشيطان ، فى الهندوسية الذى تجسد للإلهة فشنو فى هيئة خنزير برى وقتله .
Hito - no - Michi	طريق الإنسان حركة دينية جديدة ازدهرت فى القرن العشرين فى اليابان .
Honen	هونن (١١٣٣ – ١٢١٢) راهب بوذى أدخل دفعة قوية فى بوذية المهايانا اليابانية عندما جعل الخلاص فى متناول الجميع .
Honganji	معابد بوذية فى اليابان يُقبل عليها عامة الناس فى دورات مؤقتة.
Horse Sacrifice	التضحية بالحصان : وله أهمية خاصة لتاريخه الطويل بالهند.
Horoscope	خريطة البروج : كان يستعان بها فى علم التنجيم فى الديانات القديمة .

حورس : ابن إيزيس وأوزريس الذى يصوره المصريون على هيئة صقر أحد عينيه الشمس والأخرى القمر ، انتشرت عبادته فى مصر كلها . — Horus

- I -

باسيون (أوجاسيون) : إله قديم للزراعة قبل مجىء الإغريق (Jasion) ، أنجب من الربة ديمتر الإله بلوتو عندما جامعها فى حقل محروث – قتله زيوس بصاعقة عندما علم بذلك . — Iasion

جيل إدا – ولد عليه زيوس كبير الآلهة فى اليونان . — Ida

إجيجى ـ آلهة السماء السبعة العظام ، المسماة بآلهة المصير عند الأكاديين . — Igigi

ايكيجامى أى « كامى الحى » : لقب كان يطلق على مونتادر مؤسس إحدى الفرق الدينية فى اليابان . — Ikigami

اينانا – إلهة الحب والخصب عند السومريين ، وهى الإلهة العظمى إنين وإنانا هو الاسم الشعبى لها . — Inanna

هيكل يابانى مخصص « لكامى » حارس حقول الأرز . — Inari

إندرا ـ رب كل حى فى الديانة الهندوسية ، أو هو الشمس التى تولد الحى من الحى – إله الحرب والعواصف وملك الآلهة وقائدهم فى المعارك فى أسفار الفيدا . — Indra

الترسيم ـ الاحتفال بدخول عضو فى سلك جماعة دينية عن طريق تأدية طقوس معينة . — Initiation

Innin — إنين ـ سيدة السماء عند السومريين ، هى عشتار عند البابليين.

Ino Leucothen — إنولوكوثيا ـ هى ربة البحر التى ساعدت أوديسوس فى محنته بعد أن حطم بوزيدن زورقه .

Instruction of Ptah-hotep — « تعاليم بتاح حوتب » : كان بتاح حتب حاكماً على منف وكبير وزراء الملك - اعتزل فكتب لابنه كتاباً يحوى الحكمة الخالدة .

Ishtar — إشتار ـ إلهة الحب والأمومة عند البابليين وهى نفسها عشتار.

Ishvara — اشفارا - الإله فى مذهب اليوجا - فكرة يجوز للإنسان تأملها لتكون وسيلة للمعرفة .

Isis — إيزيس ـ أشهر معبودات المصريين القدماء ، ثم زوجه لأوزريس وأم لولده حوريس فى الأسطورة الشهيرة ، عبدها الإغريق ثم الرومان ، ونقلا عبادتها إلى أوربا .

Isimud — إسيمود - رسول الإله إنكى الذى أرسله فى أثر الإلهة «إنانا» التى هربت بألواح القدر فى الأسطورة البابلية .

Izanagi — إزاناجى - إله هام فى أساطير اليابان ، ولدت الشمس من عينه اليسرى .

Izanami — إزانامى - إلهة هامة فى أساطير اليابان ، خلقت مع شقيقها السابق جزر اليابان .

- J -

Jaina Canon — مجموعة النصوص المقدسة للجينية - تختلف باختلاف الفرق: الأردية البيضاء ترى أن هناك ٤٥ كتاباً - « فريق العراة » يتشكك فيها .

==== Vratus — وكلمة Vrata سنسكريتية تعنى « النذر » النذر التى تحكم سلوك الرهبان وعامة الناس ، منها النذر الخمس الكبرى : (الامتناع عن الإيذاء - وعن الكذب - وعن السرقة - العفة - عدم التملك) .

Jainism — الجينية ـ ديانة هندية ظهرت فى القرن السادس ق. م (مع البوذية) ، يعتقدون أنه ساهم فى تأسيسها ٢٤ قديساً، آخرهم مهافيرا (البطل العظيم) .

Jangames — جانجيس - تحريك اللنجا أو تجسيد اللنجا فى الديانة الشيفية المتفرعة عن الهندوسية .

Janus — جانوس - إله البوابات فى أساطير الرمان - ثم أصبح إله البوابات بصفة عامة ، يصورونه بوجهين ليرى الجانبين ـ منه جاء شهر يناير January ؛ لأنه يفتتح سنة جديدة .

Japji — جابجاى ـ قسم من « آدى جرانت » ، الكتاب المقدس عند السيخ .

Jat — جات - مصطلح يشير إلى طبقة الهندوس - علية القوم.

Jatakas — الميلاد - مصطلح شائع فى البوذية يشير إلى أنواع الحياة الكثيرة التى عاشها « بوذا » فى السابق .

Jayadeva — شاعر ازدهر فى البنغال فى أواخر القرن الثانى عشر ، اشتهر بقصيدة سنسكريتية « أغنية قطيع البقر » التى تصف

حب كرشنا لراذا .

Jen	الود أو العطف أو الشفقة – صفة أخلاقية أساسية فى الكونفشية لا بد من توافرها فى الحاكم الصالح .
Jina	جينا ـ كلمة سنسكريتية معناها « المنتصر » أو « القاهر » أو «الظافر » – صفة تطلق على مؤسسى الجينية الذين تغلبوا على رغباتهم الحسية ، وقهروا شهواتهم – ومن هذا المصطلح استمدت الجينية اسمها .
Jinja Shinto	جنجا – الهيكل أو المعبد أو مستقر الآلهة فى ديانة الشنتو.
Jirki	جيركى ـ مساعدة الإنسان لنفسه ليبلغ مرحلة الاستنارة بجهوده الذاتية عند بوذية اليابان .
Jisso	الإله الأوحد الحقيقى فى جماعة سيكونو (بيت النماء) وهو رحيم شفوق بالموتى من الأطفال .
Jiva	جيفا ـ الجوهر الحى أو « الروح » فى مقابل الجوهر المادى عند الجينية .
Jizo	جيزو ـ بوذا المنتظر فى اليابان ـ الذى يساعد الموتى ـ هو المخلص فى بوذية الصين .
Jnana	جينانا – المعرفة الشاملة فى الهندوسية ـ معرفة الوجود الأعلى.
Jnanadeva	جينانا ديفا – (١٢٥٥ – ١٢٩٦) راهب هندوسى – مؤسس مدرسة صوفية هى « مدرسة الحج » فى الهندوسية التى تشدد على أهمية الحج للأماكن المقدسة.
Jnaneshvari	كتاب الراهب السابق شرح « لأنشودة الرب » .
Jodo Sect	فرقة الجودو والبوذية ، وهى فى اليابان « مدرسة الأرض الطاهرة » ، التى تعتقد أن ترديد اسم بوذا أميدا Amida (أى صاحب النور اللامتناهى) تخلص الإنسان من تكرار الولادة .

Jodo Shinshu — جودو شنتو أى « مدرسة الأرض الطاهرة الحقة » مدرسة بوذية كبيرة فى اليابان أسسها شنران (١١٧٣ – ١٢٦٢) .

Jogyo — بوذا المنتظر الذى تجسد فى القديس نشرين (١٢٢٢ – ١٢٨٢) .

Juno — جونو – إلهة كبرى عند الرومان ، زوجة جوبتر (هيرا عند اليونان) ، راعية النساء وحامية الأنوثة والزواج ، الزواج فى شهرها « يونيو » يكون سعيداً ، يبدو أن القوة الجنسية عند المرأة Uno مشتقة من اسمها .

Jupiter — جوبتر (المشترى) كبير الآلهة فى الديانة الرومانية ، هو نفسه « زيوس » عند اليونان – إله السماء والمطر والصواعق . إلخ .

- K -

Ka — كا ـ مقطع باليابانية يعبر عن التعجب أو الحيرة من المخيف ، أو مالا يمكن الإحاطة به جاءت منه كلمة كامى Kami.

Kabir — كابر (١٤٤٠ – ١٥١٨) شاعر صوفى هندى فى العصر الوسيط ، وضع عدة تراتيم وأناشيد دينية استلهمها السيخ فى مذهبهم الصوفى .

Kacch — سروال يرتديه جنود « الخلسا » من السيخ كشعار يميزهم (الكافات الخمسة) .

Kagura	كاجورا – رقصة صوفية تقوم بها النساء المشرفات على هياكل ديانة الشنتو اليابانية ، ترمز إلى اتحاد المؤمنين مع إله المعبد.
Kalamukha	كلاموكا – فرقة شيفية ازدهرت فى جنوب الهند بعض الوقت
Kali	كالى – الآلهة القبيحة المتعطشة للدماء (وجه لزوجة الإله شيفا) والوجه الآخر للعروس الجميلة « بارفتى » .
Kalkin	كالكين – (إنسان برأس حصان) التجسد العاشر للإله فشنو.
Kalpa	يوم برهما فى الهندوسية وهو يساوى أربعة ملايين وثلاثمائة وعشرون ألف من السنوات البشرية .
Kalpa - Sutra	نصوص دينية تنظر إليها « فرقة الأردية البيضاء » فى الجينية بتقديس كبير ، وهى تروى حكايات ثلاثة منهم ، ويقوم الرهبان بتلاوة « سوترا الكلبا » بين عامة الناس ، وهم يعتقدون أن فى الاستماع إليها فائدة كبرى .
Kami	كامى – مصطلح عسير التعريب (إله – روح – عفريت) القوة الروحية التى تسيطر على الأشياء (حيوانات – نباتات – طير – ظواهر طبيعة) والبشر – عددها لا حصر له ، فى ديانة الشنتو اليابانية .
KamiAni - Zuki	شهر أكتوبر الذى يجتمع فيه الآلهة (الكامى) فى الهيكل، المصطلح يعنى حرفياً « الشهر مع كامى » فى ديانة شنتو اليابانية .
Kami non - a - zuki	الشهر بدون كامى (بقية أشهر السنة) .

Kamgakari	الاستحواذ على كامى ـ أو تلبس كامى للإنسان .
Kami - gakari	حالة صوفية فى ديانة الشنتو تتجلى فى رقصة الوجد التى تقوم بها كاهنات المعبد (انظر كاجورا) .
Kannon	كانون ـ بوذا المنتظر صاحب الرحمة فى بوذية اليابان .
Kapalika	كاباليكا ـ فرقة شيفية من النساك المرموقين اسمها يعنى «حملة الجماجم» ، فريق من نساك الهندوسية يحملون وعاء التسول على هيئة جمجمة .
Kara	سوار من الصلب يضعه عضو جماعة « الخلسا » من السيخ على كتفه الأيمن (من الكافات الخمسة) .
Karma	الكرما ـ كلمة سنسكريتية معناها الحرفى « الفعل » – مصطلح أساسى فى الديانة الهندية – هذه الحياة حلقة فى سلسلة حيوات يحياها المرء ، يحددها فعله فى الحياة السابقة يتضمن ، المصطلح « الجزاء » و « التناسخ » .
Karma - Pa	المدرسة الثالثة فى بوذية التبت .
Kartti keya	كارتيكيا – إله الحرب فى الهندوسية .
Keraunos	كيرانوس – الصاعقة لقب اتخذه بعض حكام اليونان .
Keshab Chander-sen	كيشاب شاندرسن (١٨٣٨ – ١٨٨٤) قائد لحركة دينية فى البنغال فى القرن التاسع عشر .
Khalsa	الخلسا : من الكلمة الفارسية Khales أى الطاهر أو النقى ـ جماعة منتقاة من القديسين المقاتلين السيخ يلتزمون بخمسة مبادىء : (الامتناع عن السكر – عن التدخين – والمخدرات – الإلتزام بالصلاة – والجهاد من أجل الاستقامة).

Khandha	العناصر الخمسة فى البوذية التى يتألف منها وجود الفرد المادى والنفسى وهى : (الجسد ، المشاعر ، الإحساس ، الذهن، الوعى) .
Khentamenthes	ختتمانتيس – أحد الآلهة التى تساعد الموتى عند المصريين القدماء .
Khepri	خبرى هو نفسه الإله أتوم (أو آتون) ـ أسماء لإله الشمس الذى عرف أيضاً باسم رع .
Ki	كى – إلهة الأرض عند السومريين – والكلمة تعنى «الأسفل» – زوجة الإله آن .
Kingo	الإله كينجو – اختارته تعامة زوجاً لها ، وهى الأفعى التى قتلها مردوخ ، ومن دم زوجها خلق الإنسان بعد أن مزجه بالطين فى أساطير البابليين .
Khnum	الإله خانوم – الإله الصانع فى الديانة المصرية القديمة – خلق البشر عندما جلس إلى دولابه الفخارى – والد الملك خوفو.
Koan	كوان – سؤال ملغز يعبر عن مأزق عقلى يطرحه المعلم الروحى على الراهب المبتدىء مثل : « عندما تصفق اليدان تحدثان صوتاً » – هل تستطيع الإصغاء إلى صوت اليد الواحدة ؟!
Kojiki	كوجيكى – أى « سجلات الآثار القديمة » ، كتاب هام مصدر موجز للعادات والطقوس والممارسات السحرية فى اليابان.
Konkokyo	كونكوكيو – فرقة دينية جديدة فى اليابان أسسها فلاح فى

القـرن ١٩ ، زعم أن الإله « كـونكو Konko » عينه وسيطاً بين الله والناس ، أسس فرقة « المعدن النقى » .

Kore — الإلهة كورى ـ وهى نفسـها برسفونى ، زوجة هاديس إله العالم السفلى عند اليونان .

Krishna — كرشنا ـ واحد من أكثر آلهة الهند توقيراً وشعبية ، عبده الهنود على أنه التجسيد الثامن للإله فشنو – جذب عدداً من الفرق التى نظمت له الأشعار ، والأغانى ، والقصص الكلاسيكية ، كلمة كرشنا تعنى حرفياً « الأسود » « أو الداكن » مما يدل على أنه كـان إلهـاً للهنود الأصليين المائلين إلى السواد .

Ksatriya — طبقة الكشاترية ـ « الجنود » أو « المقتلون » الطبقة الثانية فى مجمع الفيدا الهندى .

Kuan - yin — كوان ين ـ الصورة الصينية لبوذا المنتظر .

Kuk & Kauket — كوك وكوكيت – إلهة الظلام فى الديانة المصرية القديمة .

Kurma — السلحفاة التى ركبتها الآلهة ، واستولوا على قمة جبل مندارا، التجسيد الثانى للإله فشنو فى الهندوسية .

Kurozumikyo — حركة دينية تعد نموذجاً للحركات الدينية الجديدة فى اليابان، أسستها كاهنة فى القرن التاسع عشر .

Kushti — الكوشتى – رمز دينى عند الزرادشتين لأسفار اليسنا .

- L -

Lakshmi	لاكشمى ـ إلهة الثروة والحظ السعيد ، زوجة فشنو ، اتخذت صوراً متعددة لتكون معه فى تجسداته الكثيرة .
Lakula	لاكولا ـ راهب هندوسى فى القرن الأول الميلادى اعتبر نفسه تجسيداً للإله شيفا ، أسس أقدم فرقة لشيفا فى التاريخ ، هى « أباشوباتا » .
Lama	لاما ـ معناها « المعلم أو المرشد الروحى » القائد الروحى لبوذية التبت .
Lao Tzu	لاوتسو ـ أعظم فلاسفة الصين قبل كونفوشيوس ، وإن كان قد عاصره ، اسمه يعنى حرفياً « المعلم العجوز » – أسس «التاوية » : أى السبيل ، أو المنهج ، أو الطريق .
Lares	اللار ـ أحد الآلهة المحليين فى روما القديمة – أصبح راعياً للأسرة وحارساً للحقول .
Laya - yoga	ليا يوجا ـ ضرب من التمرينات على اليوجا داخل الهندوسية تعرف باسم « يوجا الانحلال » تُعبر عن جناح اليسار الذى يمارس طقوساً سرية بعيدة عن الأخلاق .
Le ctisterniuns	الاحتفال بأعياد الآلهة فى روما القديمة .
Left - Hand Tantric	الجناح اليسارى فى التانترية ـ فرقة بوذية تؤكد أهمية السحر وممارسته .
Liber	ليبر – إله العنب فى أساطير الرومان ، وهو نفسه ديونيسوس أباخوس عند اليونان .
Libera	ليبرا – إلهة رومانية إبنة كيرس وأخت ليبر .

Lieh - Tzu	ليه تسو أحد ثلاثة فلاسفة عملوا على تطوير الفكر التاوى، ازدهر فى القرن الرابع ق. م .
Linga	اللنجا ـ كلمة سنسكريتية معناها « العلامة » ـ وهى رمز للقضيب فى الهندوسية وهو رمز الإله شيفا ـ موضوع العبادة الرئيسيى فى المعابد الشيفية .
Lingayat	فريق اللنجا ـ فرقة هندية واسعة الانتشار فى جنوب الهند استمدت اسمها من أن الرجال والنساء فيها يضعون « اللنجا » على صدورهم بخيط حول الرقبة – باسافا Ba-sava فى القرن الثانى عشر وهى نفسها فرقة الفيزاشيفا .
Lotus School	مدرسة اللوتس ـ نصوص مقدسة للمدرسة البوذية السابقة .
==== Sutra	سوترا اللوتس ـ نصوص مقدسة للمدرسة البوذية السابقة.
Lucina	لوسينا ـ إحدى إلهات الولادة الآمنة عند الرومان .
Ludlul	لدلول ـ إله الحكمة عند البابليين .
Luperci	اخوان الذئب ـ كهنة فى روما القديمة مهمتهم الإشراف على احتفالات السنة الجديدة .

- M -

Ma (Me) — ما ، (أومه) القوى الإلهية فى السومرية – تشمل وظائف الكهنة والملوك – تسمى أحياناً ألواح القدر .

Maat — ماعت ربة العدالة والحقيقة عند المصريين القدماء .

Mabon (Maponus) — مابون (مابونس) ـ حورية البحر عند الرومان .

Madhva — مادهيفا – فيلسوف هندوسى (١١٩٩ – ١٢٧٨) صاحب فلسفة ثنائية تضع اختلافاً أساسياً بين الله والروح الإنسانى.

Madhyamika — مدرسة مادهياميكا ـ من أهم مدارس المهايان ـ العربة الكبرى البوذية تقف موقفاً وسطاً بين الواقعية والمثالية فى الفلسفة البوذية .

Magi (Magus) — المجوس ـ أتباع زرادشت ـ مصطلح يونانى اشتق منه كلمة السحر Magic .

Mahabharata — ماهبهاراتا ـ ملحمة هندية عظيمة تشبه إلياذة هوميروس عند اليونان ، تروى قصة صراع فرعين من الأسرة المالكة حول مقتل زوجة .

Mahakala — « الواحد العظيم الأسود » إحدى صور الإله الهندوسى شيفا.

Mahavira — مهافيرا (أومهاويرا) (٥٩٩ – ٥٢٧ ق. م) ـ آخر شخصية من ٢٤ أسسوا الجينية ، والكلمة تعنى « البطل العظيم » .

Maharratas — النذور الخمس الكبرى فى الجينية (عدم الإيذاء – أو السرقة أو الكذب – العفة – عدم الاقتناء) .

Mahayana	مدرسة المهايانا (العربة الكبرى) إحدى مدرستين كبيرتين في البوذية ، انتقلت من الهند إلى الصين ، وكوريا، واليابان والتبت ... إلخ
Maitreya	ماتريا – تعنى « بوذا المستقبل » – كان هناك أكثر من بوذا في الماضى ، وسيكون هناك أكثر من بوذا في المستقبل ـ نحن في الحاضر في انتظار «بوذا المنتظر» وهي نفسها كلمة ميروكو Miroku اليابانية .
Mama	ماما – الإلهة الأم في الديانة البابلية ، وقد ساعدت في خلق البشر من الطين والدم .
Manda d'Haye	ماندا هايى – أو « معرفة الحياة » اسم المخلص عند المانديين، ومنه استمدت هذه الفرقة اسمها .
Mandala	ماندالا – تعنى حرفياً حلقة أو دائرة ، وهي رمز تخطيطي يرمز إلى الكون يستخدم كوسيلة للتأمل عند بوذية اليابان .
Mandate of Heavn	أمر السماء ـ حق الإمبراطور في الحكم ، تعطيه السماء في الكونفوشية .
Mandeanism	فرقة زرادشتية صغيرة لاتزال تعيش في جنوب العراق بجوار إيران، ويطلق عليهم أيضاً اسم « النازريون » Nazo-reans .
Mani	مانى ـ ابن فاتك مؤسس الديانة المانوية ـ كلمة مانى فارسية تعنى الفريد أو النادر .
Mancheanism	المانوية ـ ديانة فارسية ـ أسسها مانى ، مزيج من الزرادشتية واليهودية والمسيحية ، ثنائية : تؤمن بوجود إلهين للخير والشر .

Manjushri	لقب لبوذا المنتظر الذى تتجسد فيه الحكمة العليا .
Manu	مانو – الإنسان الأول فى أساطير الهند (يربطون بينه وبين كلمة Man الإنجليزية) يظهر فى الفيدا على أنه أول من قام بالتضحية الأولى ، تنسب إليه مجموعة من القوانين والشرائع التى تنظم الحياة الاجتماعية فى الهند .
Mantra	مانترا – الأقوال المقدسة فى الهندوسية والبوذية ، ذات الفاعلية الخفية .
Mara	الشيطان فى البوذية ، ظهر متنكرا لبوذا وهو تحت شجرة «البو» فى انتظار الاستنارة ، وحاول منعه بطرق شتى لكنه فشل .
Marduk	مردوخ ـ الإله القوى فى أساطير البابليين فى عهد حمورابى، ابن الإله إنكى .
Marmar	مرمار ـ إله الزراعة والحرث عند الرومان الذى عرف فيما بعد باسم الإله « مارس » إله الحرب .
Mars	مارس إله الحرب عند الرومان .
Maruts	الماروت : فى أساطير الفيدا الهندية أبناء الإله المرعب رودرا إله المرض والشفاء ، وحلفاء أندرا إله العاصفة ؛ ولهذا يمتطون السحاب ، ويوجهون العواصف .
Mastya	السمكة ـ التجسيد الأول للإله فشنو عندما أنقذ مانو (الإنسان الأول) .
Maya	مايا ـ وهم ـ خداع ـ صورة العالم فى الهندوسية .
Mazdaism	المزدية – هى نفسها الديانة الزرادشتية ويطلق عليها أحياناً اسم المزدكية نسبة إلى أهورا مزدا إله الخير فى هذه الديانة.

Manes	مينا ـ الملك الذى وحد الوجه القبلى والوجه البحرى فكان أول ملك لمصر الموحدة ، واتخذ منف عاصمة له (فى محافظة الجيزة الآن) .
Mercury	عطارد – إله التجارة عند الرومان ، هو نفسه الإله هرمس عند اليونان .
Mi - chiao	مدرسة التعاليم السرية البوذية ، وهى نفسها مدرسة «الكلمة الصادقة » ، وكانت تعاليمها غامضة .
Mi Kagura	الطقوس الموسيقية لديانة الشنتو فى اليابان – الرقصة المقدسة فى معبد الشنتو (٣٥ رقصة تعبر عن الأساطير القديمة) .
Miko	كاهنة معبد الشنتو تقوم بتأدية الرقصات السابقة .
Mikoshi	ميكوشى ـ حرفياً « المحمول » ـ المحفة المقدسة لكامى .
Mi - Lo - Fu	مى – لو – فو – بوذا الرسول الذى يعيد تعاليم بوذا مرة أخرى إلى الأرض عندما تنسى شريعته .
Mimamsa	ميمامسا (حرفياً دراسة الطقوس) ـ مدرسة فى الهندوسية لتفسير الفيدا .
Min	مين – إله الإخصاب فى مصر القديمة الذى يسرق النساء وهو سيد العذراى .
Minerva	منيرفا – إلهة الحكمة عند الرومان ، وهى نفسها أثينا عند اليونان .
Mithra	مترا – إله آرى الأصل كان يعبد فى إيران بوصفه إله العقود والاتفاقات ، وهو محارب قوى جبار قتل الثور المقدس وخلق من دمه جميع الكائنات الحية ، وهو الذى

يساعد أهورا مزدا في حربه ضد أهرمان عند الزرادشتيين .

Mohism (Moism) — الموهية – الموية – مدرسة قديمة في الفلسفة الصينية ، أسسها في القرن الخامس ق. م (مو – تسو Mo - Tzu) ترى ضرورة الخضوع لمشيئة السماء . كانت ضد الكونفوشية في رفضها للحب الخاص (حب الوالدين مثلاً) وتبنيها للحب الكلي أو الشامل .

Moria — ربات القدر والحظوظ في الأساطير اليونانية ، والقاطنات في العالم السفلي « هاديس Hades » ، يجرى قضاؤهن على زيوس نفسه .

Mokichi, Okada — أوكادا موكيشي (١٨٨٢ – ١٩٥٥) مؤسس ديانة العالم المنتظر ، من الحركات الدينية الجديدة في اليابان .

Moksha — موكشا ـ كلمة سنسكريتية تعني حرفياً « الانعتاق » ـ الفرار من التكرار الممل لتجدد الموت الميلاد في الهندوسية .

Monism Monotheism — الواحدية أو الوحدانية (عكس الشرك أو التعدد والثنائية) القول بإله واحد لا شريك له ، المحور الأساسي للدين الإسلامي.

Monjo — مونجو ـ لقب لبوذا المنتظر .

Mos Maiorum — المعيار الأخلاقي لروما القديمة ، وهو يعني « طريق الأسلاف » تعبير عن عبادة الأسلاف .

Musrs — ربات الفنون عند اليونان عذارى أو على الأقل لم يتزوجن ، وهن « كليو Clio » ربة التاريخ ، « إراتو Erato ربة الشعر » « أورانيا Urania ربة الفلك » ..إلخ .

Mut — الإلهة موت ـ سيدة السماء فى مصر القديمة ، وزوجة الإله آمون ـ كانت تعبد فى طيبة (الأقصر) وهى أم الإله خنسو إله القمر .

- N -

Nabu — إله الحكمة ، وراعى العلم ، وحامى الأدباء فى الديانة البابلية، ابن مردوخ .

Naganuma — ناجونوما ـ كاهنة يابانية اشتهرت بقدرتها الروحية على إشفاء الناس ، فاعتبروها « بوذا الحى » ماتت عام ١٩٥٧ .

Nagarjuna — ناجار جونا ـ راهب وفيلسوف من بوذية الهند (١٥٠- ٢٥٠ م) مؤسس مدرسة « الطريق الوسط » .

Nam — نام ـ اسم من أسماء الإله فى الهندوسية .

Nana — إله القمر وهو نفسه ننار عند السومريين .

Namdev — نامديف ـ قديس وشاعر هندى (١٢٧٠ - ١٣٥٠) من قادة مدرسة الحج .

Nanak — ناناك (١٤٦٩ - ١٥٣٩) ـ معلم روحى هندى ، مؤسس ديانة السيخ ، كان فى بداية حياته من الهندوس وتأثر بقوة بالشاعر الهندوسى الصوفى كابير Kabir ، الذى دعا إلى الأخوة بين الهندوس والمسلمين ، ونبذ عبادة الأصنام .

Nanak Panthis	ناناك بانيتز ـ أى المتحدون مع ناناك ، وهم أتباع المعلم الروحى ناناك الذين تسموا بعد ذلك باسم « السيخ » .
Nannar	ننار ـ إله القمر عند السومريين ـ هو نفسه الإله سن .
Nao, Deguchi	دجوشى ناو ـ فلاحة يابانية تلبّسها « الكامى » فكتبت نصوصاً مقدسة ـ جذبت قدرتها على شفاء المرضى كثيراً من الأتباع ـ أسست جماعة « أموتو » .
Naorria	وليمة دينية رمزية فى اليابان ترمز إلى تناول الطعام مع «الكامى » .
Narva sect	فرقة نارا ـ جماعة بوذية اتخذت من مدينة « نارا » اليابانية مركزاً لها .
Narsimha	الإنسان الأسد ـ الصورة الرابعة التى تجسد فيها الإله فشنو وقتل الشيطان .
Narrayana	نارايانا ـ الشخصية التى تجسد فيها الإله فشنو لكى يخلق العالم.
Nataraja	إله الرقص ـ إحدى صور الإله شيفا فى الهندوسية - تمثال من المعدن أو الحجر للإله شيفا ، وهو يرقص فى معظم المعابد الهندوسية فى جنوب الهند .
Nayanars	مجموعة من التراتيل الترانيم مخصصة للإله الهندوسى شيڤا .
Neith	الإلهة نايت ـ إلهة الحرب عند المصريين القدماء .
Nembutsu	نداء فى مدرسة الأرض الطاهرة لاسم بوذا المنتظر وهو . " Namu, Aida,Butsu "
Nemesis	إلهتان للانتقام فى أساطير اليونان .

Nempa	نمبا ـ مركز رئيسى للتأمل لرؤية العقل الإلهى فى طوكيو .
Neo - Confucian-ism	الكونفوشية الجديدة ـ فى القرن الثانى الميلادى ، قامت بعدة محاولات لتفسير أفكار كونفوشيوس بطريقة جديدة ـ فى القرن السابع ، ظهرت كصورة جديدة للكونفوشية .
Neokoros	المدينة ـ راعية المعبد فى الإمبراطورية الرومانية .
Nephthys	نفتيس ـ إلهة مصرية قديمة أخت إيزيس ، وأوزريس ، وست، من الإله جب (الأرض) ـ والإلهة نوت (السماء).
Neptune	نبتون ـ إله المياه العذبة فى أساطير الرومان – زوجته «سلكيا» ربة الينابيع ، اتحد مع الإله بوزيدون فيما بعد .
Nemi	نيمى ـ هو الجينا (أى المنتصر) الثانى والعشرون فى سلسلة مؤسسى الجيينية .
Nareids	الناريدات ـ مجموعة من حوريات البحر تزعم الأسطورة الإغريقية أنهن من بنات إله البحر نيروس Nereus .
Nergal	الإله نرجال ـ إله بابلى زوج الإلهة أريشكيجال .
Nestorianism	النسطورية ـ نسبة إلى نسطور بطريرك القسطنطينية توفى ٤٥٧ ميلادية ذهب إلى أن الطبعتين البشرية ، والإلهية فى المسيح ظلتا منفصلتين .
Nibbana	هدف دينى فى الهندوسية مثل النرفانا .
Nichiren	القديس نشرين (١٢٢٢ – ١٢٨٢) ـ أسس فرقة بوذية تحمل اسمه فى مدينة كاماكورا اليابانية .
Nidana	ندانا ـ كلمة سنسكريتية حرفياً « المقدمة أو المدخل » ـ تمهيد فى النصوص البوذية يبين الغرض منها .

Nigantha	فيلسوف هندى يتحد فى التراث الجينى مع ماهافيرا . مؤسسو الجينية المستقلون – معلمو الجينية القدماء .
Nihongi	كتاب نيهونجى معناها الحرفى « الأحداث التاريخية لليابان أو سجل مكتوب فى اليابان » .
Nike	نيكى ـ إلهة النصر فى أساطير اليونان ، وابنة العملاق بلاس
Nikko	نيكو ـ راهب بوذى يابانى من تلاميذ نشرين فى القرن الثالث عشر .
Nimrod	نمرود ـ فى الكتاب المقدس ابن كوش ابن حام بن نوح ، وكان جباراً – تك ١٠ : ٨– ١٠ .
Ningal	ننجال ـ زوجة الإله آنو عند السومريين ، وأم إله الشمس .
Ningursu	ننجرسو – وتعنى سيد جرسو ، وهو إله سومرى ، زوجته الإلهة بابا .
Ninhursag	ننخرساج ـ إلهة الأرض عند البابليين ، وهى نفسها ننماح .
Ningi	الإله ننجى ـ حفيد إلهة الشمس « أماتراسو » ، وجد أول إمبراطور لليابان الموحدة .
Ninki	الإلهة ننكى ـ سيدة الأرض زوج الإله إنكى سيد الأرض عند البابليين .
Ninti	نينليل ـ إلهة آشورية زوجة إنليل ورفيقته .
Ninmah	ننماح (السيدة المبجلة) – إلهة الأرض عند البابليين وقد تسمى « ننتو » و « مامى » و « ماما » ، وهى نفسها ننخرساج .
Ninti	ننتى – تعنى حرفياً « سيدة الضلع » ، وهى إلهة سومرية تذكرنا بخلق حواء من ضلع آدم فى الكتاب المقدس تك ٢ : ٢١ .

Nintu ننتو ـ إلهة الأرض عند البابليين ، قد تسمى «ماما» و «مامى» ... إلخ .

Ninurta نينورتا ـ إله الحرب والصيد عند السومريين ، ابن الإله إنليل .

Nio الملكان ـ فى أساطير البوذية اليابانية هناك حارسان يقفان عند مدخل المعبد البوذى لحمايته ، الأول اسمه كونجو Kongo (العاصفة) ؛لأنه يمسك فى يده عاصفة يقتل بها الشر وهو يقف على يمين المدخل ، والحارس الثانى اسمه «مسهاكو» وهو يقف على يسار المدخل .

Niqu نيكو ـ لحوم القرابين التى تقدم إلى الآلهة فى أساطير البابليين.

Niranker نرانكر ـ أول صفة لله عند السيخ تعنى « مالا شكل له»

Nirankari حركة إصلاح دينى داخل السيخ قام بها دايال داس Dayal Das (توفى ١٨٥٥) .

Nirguna نيرجونا ـ كلمة سنسكريتية تعنى حرفياً « اللاتمايز » ، مفهوم هام فى الفلسفة الهندوسية يطرح سؤالاً عن براهما الموجود الأعلى : هل له صفات تميزه أم لا ؟

Nirvana نيرڤانا ـ كلمة سنسكريتية تعنى حرفياً « الانطفاء أو الإخماد الهدف الأسمى فى الفكر الدينى الهندى من تأمل التلاميذ ـ يميز البوذية أكثر من غيرها ، وهو عندها يعنى الوصول إلى حالة سامية من التحرر عن طريق إخماد رغبات الفرد ووعيه .

Norito نوريتو ـ طقوس الصلوات أو الكلمات التى يتوجه بها المؤمنون

إلى الله فى صلواتهم فى عبادة الشنتو القديمة فى اليابان .

Numina — الأرواح ـ القوى الروحية فى روما القديمة .

Nun — نون ـ المحيط الذى خرجت منه جميع الكائنات فى الأساطير المصرية القديمة .

Nusko — نوسكو ـ إله النار عند السومريين ، وهو نفسه الإله جيرسو .

Nut — نوت ـ إلهة السماء فى الديانة المصرية القديمة وزوجة الإله جب إله الأرض أنجبا إيزيس وأوزريس وست ونفتيس .

Nyaya — نيايا ـ مدرسة من المدارس أو « المذاهب » الست فى الهندوسية ، اهتمت بالمنطق ونظرية المعرفة .

Nymphs — آلهات الطبيعة فى أساطير اليونان ، عذارى يعشن فى الجبال والغابات والمروج والوديان والمياه .

- O -

Ofudeesaki	أفيدى ساكى – النصوص المقدسة الأساسية فى ديانة الحكمة السماوية اليابانية ، إحدى طوائف ديانة الشنتو اليابانية.
Ogdoad	أوجدود ـ جماعة الثمانية ، وهم الآلهة الأول الذين تعاونوا فى خلق العالم فى الديانة المصرية القديمة .
Ohrmazd	أهورا مزدا ـ إله الخير فى الزرادشتية .
Okage Mairi	تعنى حرفياً « الذهاب لتأدية الشكر » ، وهو معنى الحج فى ديانة الشنتو اليابانية .
O - mi - to	أوميتو ـ فى الصينية « أميتبها » بوذا صاحب الحياة اللامتناهية .
Omoto	أموتو ـ جماعة دينية من الحركات الدينية الجديدة فى اليابان أسستها فلاحة تدعى دجوشى ناو عام ١٨٩٢ .
Onisaburo, Deguchi	دجوشى أونيسابور ـ تولى جماعة أموتو بعد وفاة مؤسستها ، وهو زوج ابنتها نبذ الحرب والتسلح ، توفى ١٩٤٨ .
Opening the Mouth	طقوس فتح الفم فى مصر القديمة ـ كان الكاهن يقوم بفتح فم الجثة حتى يستطيع الميت أن يأكل ويشرب ويتكلم من جديد ، كما فعل أبناء حوريس الأربع الذين فتحوا فم جدهم أوزوريس بعد وفاته بأصابعهم النحاسية ليتمكن من أن يأكل ويتحدث ثانية .
Oracles	العرافة – وسيط بين الإله والناس – تجيب على لسان الإله عن أسئلة السائلين حول الزواج أو التجارة أو المستقبل ،

قد يكون كاهناً أو كاهنة ـ لكل إله عرافة خاصة من أشهرهن عرافة الإله أبوللو فى دلفى ـ وعرافة زيوس فى دودونا فى أساطير اليونان .

Orpheus أورفيوس ـ موسيقى ومنشد عظيم من ترافيا ، ابن ربة الشعر كاليو وأبوللو ، كانت الحانه تسحر الوحوش والطير ـ تزوج الحورية بورديكا ، فلما ماتت حزن عليها ، وهبط إلى عالم الموتى (هاديس) ليبحث عنها ، مؤسس النحلة الأورفية .

Orthia أورثيا ـ الإلهة الأم ديمتر فى إسبرطة .

Osashizu نصوص « الإرشاد » ـ من النصوص المقدسة عند ديانة الحكمة السماوية ، إحدى طوائف ديانة الشنتو اليابانية .

Osiris أوزوريس ـ واحد من أعظم الآلهة فى مصر القديمة زوج الإلهة إيزيس ، دبّر له أخوه ست مؤامرة وقتله ، أصبح إلهاً للسماء .

Oya الأب ـ لقب للإله (أو الكامى) فى ديانة الشنتو اليابانية .

Oyasato « مدينة الآباء » ـ فى اليابان موضع الخلق واكتمال الأشياء .

- P -

Padmasam
بادماسا مهافا ـ راهب بوذى هندى ازدهر فى القرن الثامن، أدخل البوذية إلى التبت وشيّد أول دير بوذى هناك .

Pagoda
الباغودا – معبد أو هيكل هندى يختلف عن الـ « ستوبا Stupa » الهندوسية القديمة متعدد الأدوار ، ظهر فى الصين واليابان أيضاً .

Pad Hsien
الخالدون الثمانية ـ مجموعة متنوعة من الشخصيات المقدسة فى الديانة التاوية فى الصين .

pales
بالس ـ إله الرعى عند الرومان ، وهو يوجد فى هيئة رجولية وأنثوية معاً .

Pallas
بالاس ـ لقب من ألقاب الإلهة أثينا العذراء – وكان الجبار أبلاس قد حاول مغازلتها فقتلته وحملت اسمه ، وظلت عذراء .

Pan
الإله بان ـ إله الرعاة والقطعان والغابات فى الأساطير اليونانية كانوا يصورنه نصف إنسان ونصف جدى .

Panchamakara
البانشماكارا ـ طقوس الميمات الخمسة فى الهندوسية .

Pandora
بندورا ـ المرأة الأولى (حواء) ، خلقها هيفاستوس الإله الأعرج الشائه ، جلبت معها الكوارث للرجل الذى خلقه برومثيوس (المتبصر) فى أساطير اليونان .

Pantheism
مذهب شمول الألوهية (أو وحدة الوجود) ـ مذهب فلسفى يوحد بين الوجود الإلهى ووجود العالم .

Parshva
أول مخلص فى الديانة الجينية التى تؤمن بوجود أربعة وعشرين مخلصاً .

البارثنون ـ هيكل الإلهة أثينا ـ المعبد الرئيسى على تل الأكروبول فى أثينا .	Parthenon
فارماكوس (أى العقار أو الدواء) ـ ضحية بشرية كان اليونان القدماء يلقون بها من الجبل تكفيراً عن ذنوب الجماعة فى حالة الكوارث !	Pharmakos
بارتولا ـ إلهة المخاض فى الديانة الرومانية القديمة .	Partula
بارفاتى ـ الإلهة الكبرى ، عروس الإله شيفا الجميلة فى الهندوسية .	Parvati
باشو ـ الحيوان : صفة تطلق على الأشخاص تبعاً لكفاءاتهم الروحية .	Pashu
باشوبا ـ فى الفيدا الهندية ـ حامى القطيع .	Pashupa
باشوباتا ـ أقدم فرقة لشيفا فى التاريخ ، أسسها لاكولا الذى عاش تقريباً فى القرن الأول أو الثانى الميلادى ـ كان يعتبر نفسه تجسيداً لشيفا .	Pashupata
باسيفى ـ زوجة الملك مينوس ، تولدت فى نفسها رغبة شاذة نحو الثور الذى وعد زوجها بذبحه قرباناً للآلهة ، ثم عاد واحتفظ به لينتج له سلالة من الثيران على شاكلته .	Pasiphae
باتيموكا ـ فرقة الدير البوذى - ٢٢٧ قاعدة تحكم سلوك رهبان البوذية فى الدير .	Patimokha
السلم الإلهى ـ تأمين رضا الآلهة عن طريق تقديم القرابين وتأدية الطقوس وإقامة الاحتفالات المناسبة فى روما القديمة .	Pax Deorum

Pax Romano	السلم الرومانى ـ إقامة السلام بين القوميات المختلفة داخل الإمبراطورية الرومانية الشاسعة .
Pe - har	إله شعبى فى التبت يقدسه البوذيون ولاسيما فريق « القبعة الصفراء » ، يعتبرونه « المدافع عن الإيمان » .
Phoebus, Apollo	فويس أبوللو ـ أى أبوللو المُطهر ـ لقب للإله أبوللو عند اليونان، واللقب يعنى أيضاً المنير أو المضىء .
Penates	ربات المدفأة أو آلهة المنزل عند الرومان .
P. L. Kyodam	جماعة الحرية الكاملة : ترى أن « الحياة فن » (انظر المصطلح التالى) .
Perfect Liberty Association	جماعة الحرية الكاملة أو التامة ـ مثال جيد للحركات الدينية الجديدة فى اليابان ـ باليابانية كيودان Kyodan أسسها ميكى توكوهار (١٨٧١ - ١٩٣٨) .
Persephone= (Persipanai)	الإلهة برسفونى (برسبناى) ابنة زيوس . وهى زوجة « هاديس » إله الجحيم ، وملك العالم السفلى ـ كانت تجمع الزهور فى الوادى عندما اختطفها هاديس وهبط بها إلى العالم الآخر .
Perseus	برسيوس (أفرساوس) بطل فى أساطير اليونان ذبح المدوسا Medusa وحش البحر المخيف وأنقذ أندروميد Andromedce .
Pinda	البندا ـ كرات الأرز تُقدم فى عبادة الأسلاف الهندية القديمة.
Polytheism	الشرك ـ تعدد الآلهة(عكس الوحدانية) سمة للديانات القديمة كلها باستثناء فترة إخناتون فى مصر القديمة.

Potifex Maximus	الحبّر الأعظم ـ كبير الكهنة فى روما القديمة ، كانت له مكانة سياسية عالية .
Pontus	بونطس ـ إله البحر فى الأساطير اليونانية ، ليس له ملامح محددة .
Poseidon	بوزيدون ـ إله البحر وشقيق زيوس ـ مزواج ، وله عدة عشيقات من عرائس البحر ، وحوريات الينابيع .
Prajapati	برجباتى ـ الإله الخالق عند الهندوس الذى خلعه الإله أتدرا عن عرشه .
Priapus	بريابوس ـ إله الخصب والحدائق ، ولد نتيجة اتصال ديونسيوس بأفروديت فى أساطير اليونان ـ كان الفنانون يزينون الزهريات بصورته .
Prometheus	برومثيوس ـ تعنى حرفياً « المتبصر أو المتروى » ، خالق الرجل، خدع زيوس وهو يوزع لحم القرابين ، فأعطاه الشحم بدلاً من اللحم ـ غضب زيوس وأخفى النار عن الإنسان ـ سرقها برومثيوس ، فعاقبه كبير الآلهة بتكبيله بالأغلال .
Proteus	بروتيوس ـ إله صغير من آلهة البحر فى الأساطير اليونانية ـ يذهب هوميروس إلى أنه كان فى الأصل جنياً مصرياً يخدم بوزيدون إله البحر - كانت له القدرة على التشكل فى مختلف الهيئات .
Ptah	الإله بتاح ـ وهو الإله الخالق لمدينة منف (أو منفيس) أقدم عواصم العالم ، أسسها الملك مينا واتخذها عاصمة للملكة المتحدة القديمة .

Puranas	المأثورات الشعبية فى الهندوسية تشمل الحكايات والخوارق والأساطير .... إلخ .
Pure Land	مدرسة الأرض الطاهرة فى البوذية .
Purusha	بروشا ـ أرواح الأفراد من جنس الذكر فى الهندوسية (عكس براكريتى المادة أو أرواح الأنثى) .
Pyramid Texts	متون الأهرام ـ نصوص دينية منقوشة على جدران المدفن والممرات بباطن الأهرام ، وقصد بها أن تكفل للملك حياة هانئة فى الدار الآخرة – عُرفت عام ١٨٨٠ ونشرها ماسبيرو عام ١٨٨٢ .
Pythia	بثيا العرافة ـ كاهنة أبوللو تجلس على مقعد ذى ثلاثة أرجل، وتروح فى شبه غيبوبة ، وتجيب عن الأسئلة .

- Q -

Queen of Heaven	ملكة السماء إلهة الحب والخصب – عشتار .
Quietism	السكينة – مطلب دينى واسع الانتشار فى الديانات الهندية .
Quirinus	كويرينوس – إله كبير فى الديانة الرومانية يقترب فى مكانته من مارس وجوبتر .

- R -

Radha	راذا – حبيبة كرشنا عُبدت معه فى الهندوسية .
Rahula	راهولا – ابن بوذا الأكبر – ازدهر فى القرن السادس ق.م .
Rama	راما صاحب الفأس – التجسيد السادس للإله فشنو الذى دافع عن البراهمة ضد النهب الملكى فى الهندوسية .
Rama Ayodha	راما أيوذا ـ بطل الرمايانا الذى قتل الشيطان الذى يقطن سرى لانكا – التجسيد السابع للإله فشنو فى الهندوسية .
Ramayana	رمايانا – (تعني حرفياً قصة راما) ملحمة سنسكريتية تروى مغامرات راما – وقد تجسد فيه الإله فشنو فى سبيل الوصول إلى عرشه المسلوب .
Ram Das	رام داس (١٥٣٤ – ١٥٨١) ـ المعلم الروحى الرابع للسيخ.
Ramman (Rim-mon)	رامان (ريمون) ـ إله العاصفة فى الديانة السومرية ، هو نفسه الإله حدد ـ يسمى « بالمرعد » .
Rashnu	راشنو ـ إله العدالة والحق فى الديانة الزرداشتية .
Ravana	شيطان له عشرة رؤوس ، قتله راما بمساعدة زوجته سيتا فى ملحمة الرمايانا السابقة .
Re	رع ـ إله الشمس ، أعظم الآلهة فى مجمع الآلهة المصرى يعبر السماء يومياً فى قاربه الشمسى ، وفى المساء يسافر فى قارب آخر عبر العالم السفلى ـ أصبح الإله الرسمى عند الفراعنة ، فكان فرعون ابن « رع » أو تجسيداً له .

Re - Atum	رع ـ آتون صيغة تعبر عن اتحاد الإلهين المصريين معاً .
Reiyukai	ريوكاى ـ حركة أصدقاء الروح تأسست فى اليابان عام ١٩٢٥ ، استمدت إلهامها من مدرسة نشرين .
Religion of Metal Lustre	ديانة طهارة الطبع أو نقاء المعدن ـ أسسها مزارع غير متعلم فى اليابان اسمه كاواد (١٨١٤ – ١٨٨٣) .
Remus & Romulus	رومولوس وريموس ـ شخصيتان أسطوريتان أسسا روما وأصبحا شخصية مقدسة لروما .
Rhea	ريا ـ إلهة قديمة فى أساطير اليونان ابنة أورانوس وجى (السماء والأرض) تزوجت شقيقها كرونوس الذى خلع والده « أورانوس » وحل محله ، ثم خشى أن يخلعه واحد من أبنائه فبلعهم (بلع هستيا ، ديمتر ، هيرا ، هادس ، وبوزيدون) فأخفت عنه ريا مولد زيوس .
Rig - Veda	ريج ڤيدا ـ كلمة سنسكريتية معناها « الفيدا النارية أو المنسوبة إلى النار » ـ وهى قسمان : أدعية وصلوات ، ثم تعاليم تتعلق بالعبادات والواجبات الدينية .
Rinzai - School	مدرسة رينزاى البوذية فى اليابان –واحدة من الفرقتيين الرئيستين فى بوذية زن اليابانية – تأسست فى الصين فى القرن التاسع ، ثم انتقلت إلى اليابان فى القرن الحادى عشر .
Rishabhanatha	الإله الثور المخلص الأول فى الديانة الجينية .
Rissho Ankoku - ron	رسالة كتبها القديس نشرين عنوانها « الأمن القومى يعتمد على إقرار القانون البوذى » .

Ris sho Kosei Ki	جماعة دينية يابانية تعنى حرفياً « جماعة إقرار الاستقامة والعلاقات الأخوية » ، تفرعت عن حركة القديس نشرين .
Rita	ريتا ـ النظام الطبيعى والأخلاقى للكون ، يحرسه الإله فارونا فى الديانة الهندوسية .
Rudra	رودرا ـ إله هندى يجلب المرض والشفاء معاً .
Rumina	رومينا ـ إلهة الرضاعة فى الأساطير الرومانية .
Ryobu - Shinto	ريو شنتو ـ تعنى حرفياً « وجهان للشنتو » الاسم الذى استخدم فى وصف تعايش ديانة الشنتو مع البوذية .

- S -

Sabazius	سبازيوس هو نفسه الإله ديونسيوس .
Sacred Fire	النار المقدسة عند الزرادشتيين .
Sacrifices	الأضاحى ـ القوانين تختلف باختلاف الديانات والأساطير .
Sadre	سدرة ـ قميص يرتديه الزرادشتيون منذ سن البلوغ .
Sahaj - dhari	طائفة السيخ التى لم يلتزم أفرادها بمبادىء « الخلسا » .
Sahajiya	فرقة من أتباع فشنو الهندوسية ظهرت فى القرن السادس عشر.
Saicho	سايكو ـ كاهن يابانى (٧٦٧ - ٨٢٢) أسس فرقة «التنداى » درس الفكرة فى الصين ، ثم أدخلها إلى اليابان .
Saisei itichi	« مبدأ وحدة الطقوس الدينية مع السياسة » فى ديانة الشنتو اليابانية .

Sakyamuni — ساكيامونى ـ تعنى حرفياً « حكيم ساكياس » ، وهو بوذا الأكبر .

Salii — الساليون أو القفازون (الوثابون) ـ كهنة فى روما القديمة يستقبلون العام الجديد بألوان من الرقص المقدس ، ومازال الناس يتبعون هذا التقليد حتى الآن !

Samavartana — سمافرتانا ـ كلمة سنسكريتية تعنى الاحتفال بعودة الشاب إلى بيته من عند المعلم الروحى ليصبح رب البيت وتسمى أيضاً Smana .

Sama - Veda — ساماڤيدا – تعنى الفيدا الشمسية ، أى : المنسوبة إلى الشمس وهى قسمان : أحدهما مزامير دينية ، والآخر مجموعة من العبادات والواجبات الدينية .

Samayika — الاتزان ، رباطة الجأش ـ أحد المثل العليا فى الديانة الجينية .

Samhitus — المجموعة الرئيسية من الترانيم فى الڤيدا عند الهندوسية .

Samsara — سمسارا حلقة مفرغة رهيبة تمر بها النفس البشرية عندما تموت ، ثم تولد من جديد على نحو متكرر ، عقيدة فى الهندوسية .

Samskaras — طقوس المراحل الحاسمة فى حياة الفرد الهندوسى ، من الحمل حتى الوفاة ـ تختلف باختلاف الطبقة والأسرة – يقوم بها الأب داخل الأسرة .

Sanal — سنال ـ روح المتوفى عند القبائل البدائية فى آسيا .

Sangha — السنغا ـ جماعة الرهبان البوذيين فى الدير – نظام لسلوك الرهبان فى الدير ـ نبذ الحياة الدنيوية والإصغاء لكلمات بوذا وتعاليمه – تشمل الرجال والنساء معاً .

Sankara سنكارا (٧٠٠ - ٧٥٠) فيلسوف ولاهوتي هندى - مصدر لكثير من التيارات الحديثة فى الفكر الهندى .

Sapindas المشاركة فى تناول البندا (كرات الأرز) مع الأسلاف ، يترتب عليه أن تكون خمسة أجيال من ناحية الأب وسبعة من ناحية الأم محرماً عليهم الزواج .

Sapindi karma سابندا كرما ـ طقوس تجعل الميت يتناول أقراص الأرز مع الأسلاف .

Sarapis سرابيس ـ إله مصرى ، ثم يونانى ـ إله الشمس يعبد فى منفيس ثم اتحد مع عبادة الثور « أبيس » - كان فى الأصل إله العالم السفلى .

Sarasvati إلهة هندوسية للثقافة والفنون ، ثم اتحدت مع الإلهة فاك Vac إلهة الحديث .

Samath موضع فى شمال الهند ترى الروايات أن بوذا بدأ يعلم فيه أتباعه .

Sarpanit صربنتيو ـ تعنى بالآكادية « الفضة اللامعة » - زوجة مردوخ وإلهة بابل الرئيسية المختصة بشؤون الحمل والولادة - تسمى فى البابلية « ذربنيتو » أى بانية الذرية ، أو خالقة النسل.

Savastivada مدرسة بوذية من أوائل المدارس فى الفلسفة البوذية ، تعنى حرفياً « مذهب كل ما هو موجود » ، مدرسة مثالية ترى أن كل ما هو موجود من الأشياء المادية وهم .

Sat سات ـ كلمة سنسكريتية تعنى « الموجود » ـ فى الفكر الهندوسى « العالم المرئى » الذى يتبع العالم الآخر

	غير المرئى Asat (أو نصف الكرة الأرضية والسماء فى مقابل نصفها الآخر (العالم السفلى) .
Sati	ساتى ـ كلمة سنسكريتية تعنى « المرأة الفاضلة » فى أساطير الهندوسية – إحدى زوجات الإله شيفا – ابنة الحكيم «دكشا » ، تزوجت شيفا ضد رغبة والدها ، ماتت وولدت من جديد على أنها بارفاترى Parvatri .
Sati = (Sutte)	ساتى (سوتى) ـ عادة دفن الأرملة مع زوجها المتوفى فى الهند .
Sattva	أقدم المذاهب الستة فى الفلسفة البرهمية ـ يسمى أحياناً « سانخيا » .
Saturn	ساترن (زحل) إله بذر البذور فى أساطير الرومان .
Satyrs & Sileni	الساطير والسلينات ـ إلهة الغابات فى أساطير اليونان ، الساطير لها ذيل ، وأذنا فرس ، ووجه إنسان . والسلينات نصف إنسان ، ونصف ماعز .
Saviour	المخلص ـ شخصية هامة فى مختلف ديانات العالم ـ وهو بوذا فى البوذية ثم « بوذا المنتظر » كما أنه موجود فى الزرادشتية والمسيحية ... إلخ .
Scipio	قائد متصوف نقل « الأم الكبرى » (سبيل) من فريجيا إلى روما على هيئة « الحجر الأسود » .
Sebek	الإله سبيك ـ الإله التمساح فى ديانة مصر القديمة انتشرت عبادته حوا بحيرة الفيوم .
Sed	سد ـ عيد فى مصر القديمة ـ الاحتفال الطقسى بتوحيد الوجهين فى مصر على يد الملك مينا .

Sekhmet — سخميت ـ إلهة الحرب الشرسة فى مصر القديمة – دمرت أعداء رع ؛ فسميت « عين رع » رفيقة الإله بتاح .

Seicho - no - Ie — « بيت النماء » جماعة دينية يابانية تأسست عام ١٩٢٨ ترى أن جميع الأديان تصدر عن إله واحد كلى .

Seshat — سشات ـ إلهة مصرية مختصة بأرشيف الحوليات الملكية.

Seth — ست ـ الإله الشرير الذى قتل أوزوريس فى الأساطير المصرية القديمة .

Shiva — شيفا ـ كلمة سنسكريتية « الواحد الميمون أو السعيد » ـ أحد الآلهة الرئيسية فى الهندوسية ، يحمل صفات متناقضة فهو «المدمر » ، و « المنشىء » ، والناسك ورمز الشهوة ... إلخ .

Shaivism — الشيفية – عبادة الإله شيفا ، تُشكل إحدى الصور الرئيسية الثلاثة فى الهندوسية الحديثة (إلى جانب الفشنوية والشاكتية) .

Shaktas — المتعبدون للربة الكبرى شاكتى .

Shakti — شاكتى – الإلهة الرئيسية الثالثة فى الديانة الهندوسية (إلى جانب فشنو وشيفا) والكلمة تعنى « القوة » ، أو «النشاط» – يقال أنها زوجة شيفا .

Shakubutu — شاكوبوتو ـ تعنى باليابانية « إكسر ولطّف » ضرب من الهداية الجبرية ، وهى وسيلة استخدمها البوذيون فى اليابان ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية .

Shaman — الشامان ـ شخص يشتغل بالتطبيب والكهانة والسحر عند

الشعوب البدائية ، والكلمة نفسها تعنى « ذلك الذى يعرف » !

Shamanism الشامانية ـ ظاهرة دينية تعتمد على الشامان الذى يقال إن لديه قوة خارقة لشفاء المرضى ، والاتصال بالعالم العلوى تنتشر فى آسيا .

Shamash شماش ـ إله الشمس عند البابليين ، وهو الذى أوحى إلى حمورابى بشريعته .

Shambhu لقب للإله شيفا (الرءوف المحسن) عندما يضرع إليه أتباعه .

Shangu شانجو ـ اسم الكاهن المحترف فى بابل .

Shankara شانكارا ـ لقب للإله شيفا (المحسن – المبشر بالخير) عندما يضرع إليه أتباعه .

Shao - young شاويونج (١٠١١ – ١٠٧٧) فيلسوف صينى أثر تأثيراً قوياً فى تطور الكونفوشية الجديدة .

Shedu شدو ـ الأرواح الحارسة عند البابليين .

Shih - shia - fu شيه شيافو ـ صورة بوذا الأكبر فى الصين .

Shin Buddhism بوذية شن ـ « مدرسة الأرض الطاهرة الحقة » إحدى المدارس البوذية فى اليابان « كلمة Shin تعنى الحقة أو الصداقة » .

Shingon فرقة شنجون ـ تعنى « الكلمة الطاهرة ، أو الصادقة » ، أسسها الراهب كوكاى فى القرن ٩م .

Shinran شنران (١١٧٣ – ١٢٦٢) فيلسوف بوذى ومصلح دينى أسس مدرسة جودوشنشو Shinshu (أى الأرض الطاهرة الحقة) .

Shinsen	القربان فى ديانة شنتو اليابانية قد يكون من الحبوب أو المال أو الشراب ... إلخ ويقدم إلى « كامى » (الإله أو القوة الروحية) .
Shinshoku	كاهن ديانة الشنتو فى اليابان .
Shinten	مجموعة النصوص المقدسة لديانة الشنتو ، الديانة الأصلية لليابان .
Shinto	الشنتو – الديانة الأصلية لليابان ويمكن ملاحظتها فى الحياة الاجتماعية للشعب اليابانى ، محور الديانة الإيمان بوجود قوى روحية هى « الكامى » .
Shintai	الرمز المقدس للكامى أو الإله فى ديانة الشنتو اليابانية .
Shradha	شراذا – عقيدة قيام الأحياء بتقديم الطعام إلى الأسلاف الذين يقطنون عالم الآباء – كرات الأرز والماء الرابطة بين الأحياء والأموات .
Shramanas	المعلمون الروحيون القدماء أو النساك المتجولون في الهند– حركة تميزت عن البراهمة بعقيدتهم فى الخلاص عن طريق الزهد والإلحاد .
Shu	شو – إله مصرى قديم – والكلمة تعنى « الفضاء » يصورونه على هيئة رجل يقف فوق الأرض ويسند السماء بيديه – هو الذى زج بنفسه بين إلهة السماء نوت، وزوجها إله الأرض جب ، وبذلك فصل السماء عن الأرض .
Shudra	طبقة الشودرا ـ طبقة الخدم والعبيد فى مجتمع الفيدا الهندى.
Shugendo	طريق النساك فى الديانة اليابانية القديمة .

Shun — شون ـ إمبراطور أسطورى فى الصين فى العصر الذهبى القديم، أشار إليه كونفوشيوس على أنه نموذج الاستقامة والفضيلة المتألقة .

Shunyata — شنياتا ـ المطلق عند البوذيين ، وهو يخلو من كل صفة .

Shdhas — السيدها ـ طبقة من نساك الإله شيفا ينتشرون فى شمال الهند يتميزون بقوة روحية وسحرية خارقة .

Sikhism — السيخ ـ جماعة دينية فى الهند وباكستان ، أسسها المعلم الروحى (ناناك ١٤٦٩) نادت بالوحدانية والتقارب بين جميع الأديان ، عارضت نظام الطبقات المغلقة بالهند والنظام الكهنوتى .

Sin — سن ـ إله القمر عند السومريين ، وهو زوج الإله ننجال وابن إنليل ونينليل .

Sirens — السرينات ـ مجموعة من كائنات أسطورية نصفها الأعلى جسد امرأة ، والأسفل جسد طائر ، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك ؛ ولهذا اضطر أديسيوس إلى إغلاق آذان رجاله بالشمع عندما مر بجزيرتهم عند عودته من حرب طروادة .

Soko Gakkai — سوكو جاكاى ـ جماعة خلق القيم ـ إحدى الفرق الدينية البوذية فى اليابان التى ارتبطت بفرقة نشرين .

Sokaris — سوكاريس ـ إله الموتى فى مصر القديمة ، وهو نفس أنوبيس .

Sol — إله الشمس ـ عبادة قديمة فى روما .

Soma — السوما ـ شراب مقدس عند الهنود يصاحب تقديم الأضاحى والقرابين ، وهو « الهوما » عند الإيرانيين .

Soter الخلص فى أساطير اليونان ـ لقب كان يطلق على بعض الآلهة أو الملوك الذين يؤلههم الناس .

Soto فرقة سوتو ـ مدرسة بوذية يابانية كبيرة تعتمد على الجلوس فى هدوء وسكينة للوصول إلى مرحلة الاستنارة .

Sthanakava شعبة من فريق الأردية البيضاء فى الجينية يتميزون بوضع قطعة من القماش على الفم لكى يتجنبوا إيذاء الحشرات والهوام رغماً عنهم .

Sthanakavasis سكان القاعات ـ حركة إصلاح دينى داخل الجينية قامت عام ١٦٥٣ ، ترفض الأيقونات وطقوس المعبد ؛ لأنها لا تتفق مع تعاليم « مهافيرا » مؤسس الجماعة .

Stupa ضريح – هيكل فى الهند ثم تطور إلى « الباغودا » فى الهندوسية والبوذية ولا سيما فى جنوب شرقى آسيا .

Sulis سوليز ـ إلهة الينابيع الحارة عند الرومان .

Sutra سوترا ـ كلمة سنسكريتية تعنى « الخيط » ثم أصبحت تعنى الخيوط المرشدة – مجموعة من النصوص الهادية فى الهندوسيةوالبوذية .

Svetambara الرداء الأبيض ـ فريق الأردية البيضاء فى الجينية . إحدى فرقتين رئيسيتين فى الجينية ، يرتدى رهبانها أردية بيضاء فى المعبد ، وهم عكس « فريق العراة » الذين لا يرتدون شيئاً ويرفضون وجود النساء فى سلك الرهبان .

- T -

Taboo
تابو – مصطلح عام يطلق على ماهو محرم دينياً – ظهر فى أواخر القرن الثامن عشر أثناء المناقشات حول أصل الدين– قد يحمل صفات متعارضة مثل ، المقدس، والخطر ، والطاهر والدنس ... إلخ .

Taishakyo
تيشاكيو ـ فرقة فى ديانة الشنتو فى اليابان تتألف من ٣ مليون عضو ـ فى زعمهم ـ تتمركز فى منطقة إزمو Izu-mo.

Taisha Shrine
هيكل تيشا ـ أو مزارتيشا – أقدم مزار فى منطقة أزومو أنشئت مبانيه فى القرن التاسع على مساحة أربعين فداناً .

Tamil
اللغة التاميلية ـ لغة ولاية مدارس فى الهند .

Tammuz
تموز ـ إله بابلى قديم ـ هو نفسه دموزى الشاب الراعى الوسيم الذى أحبته عشتار لكنه قتل ـ وهو نفسه أدونيس عند اليونان ـ وأند يموت الرعى عند الرومان .

Tantalus
تنتالوس ـ ابن زيوس فى أساطير اليونان ، عاقبته الآلهة إما لأنه أفشى للناس الأسرار التى تعلمها من السماء ، أو لأنه على الأرجح ، سرق طعام الألهة وشرابهم ، وكانت عقوبته فى «هاديس» (العالم الآخر) أن يقف فى الماء حتى رقبته وأن تتدلى أغصان الفاكهة حتى شفتيه ، فإن حاول أن يأكل أو يشرب ارتدت بعيداً عنه ، ومن هنا كان الافتراض الثانى أرجح.

Tantra

تنترا ـ كلمة سنسكريتية معناها « خيوط الطيف » ـ وهي مجموعة من النصوص المقدسة التي تشبه « سوترا » مع فارق هام أن الأولى وثائق لا يطلع عليها سوى المختصين أما « السوترا » فهي عامة وشائعة ، وفي متناول الجميع .

Tantric Buddhism

البوذية التنترية ـ تطور هام في بوذية الهند والبلاد المجاورة ولاسيما التبت – تستخدم لغة موغلة في الرمزية .

Hinduism

الهندوسية التنترية ـ نظام من الطقوس السرية ، يستخدم لتحقيق التجارب الروحية ، وإشباع الرغبات في آن معاً، نصوصها تعتمد على الحوار بين الإله شيفا، والربة شاكتي.

Tao

التاو ـ كلمة صينية معناها « الطريق » أو النهج » أو السبيل ويقصد بها أسلوب الحياة أو الطريق الصحيح ،طريق السماء .

Taoism

التاوية أو الطاوية – ديانة ومذهب فلسفي في وقت واحد أسسها في القرن السادس قبل الميلاد « لاو – تسو » يخاطب العواطف وينزع إلى التأمل الصوفي ، حاول أنصاره فيما بعد العناية بالكيمياء بحثاً عن إكسير الحياة .

Tao - Te - Ching

تاو – تي – كنج ـ معناها الحرفي « تعاليم التاو » ، كتاب صغير يطلق عليه أحياناً اسم « الكتاب ذو الخمسة آلاف كلمة » لصغر حجمه ، كلاسيكيات طريق القوة، من أعظم الكلاسيكيات الصينية ، ويقال أنها من تأليف « لاو ـ تسو » الذى كان تأثيره في الفكر الصيني هائلاً.

Tao - yuan - ming تاو – يوان – منج (٣٧٥ – ٤٢٧م) أحد الشعراء الصينيين الذين تأثروا بالتاوية .

Tariki تاريكى ـ مساعدة الإنسان من الخارج تأتى لتعينه على بلوغ مرتبة بوذا ، وهى غير الجيركى (أو مساعدة الإنسان لنفسه) .

Tartarus طار طاروس ـ العالم السفلى أو الجحيم فى الأساطير اليونانية .

Tathagata تثاجيتيا – عيد الإله أبوللو ، حيث تلقى خطايا الجماعة على فرد واحد يختارونه ،يلبسونه ثياباً كهنوتية ثم يلقون به من فوق صخرة ، لعله يكفِّر بذلك عن سيئاتهم . ويسمون هذه الضحية فارماكوس Pharmakos .

Taurobolium التوربوليوم ـ التعميد بدم الثور الذى يجلب حياة أبدية فى ديانة روما القديمة ـ وكان الفُرس يعبدون الثور الذى مات ثم بعث حياً ، ووهب الجنس البشرى دمه ليسبغ عليه نعمة الخلود ، وسموه « هوما » .

Te تى ـ « فضيلة » فى الكونفوشية : النية الحسنة والسلوك السليم تجاه الآخرين ، وهى فى التاوية قوة « التاو » الغامضة التى لا يمكن تعريفها .

Tefenet تفنت ـ تف نوت ـ زوجة الإله شو فى الديانة المصرية القديمة– عبدها المصريون على شكل أسد ـ خلقت بطريقة البصق – ومازال العامة فى مصر يستخدمون كلمة « تف » بمعنى بصق .

Tellus Mater تلوس ماتر ـ إلهة الأرض ، أو الإلهة الأم فى ديانة مصر القديمة .

Temenos	قاعة الأسرار الدينية فى معابد اليونان القديمة ـ المحراب .
Tendai	تنداى – فرقة بوذية يابانية أدخلها الكاهن سيكو (٧٦٧ – ٨٢٢) إلى اليابان ، واستمدت اسمها من فرقة « تيات تاى» الصينية البوذية ، انقسمت إلى فرقة « سامون » و « جيمون».
Temoism (Temo-ism)	التموية ـ أو التموية من temo التى تعنى « الملك السماوى » لقب لحاكم الدولة فى اليابان ، ثم أصبحت لقباً للإمبراطور ، نظرية ترى أن الحاكم يستمد سلطته من السماء.
Tenrikyo	تنريكيو ـ عبادة الحكمة الإلهية – فرقة دينية فى اليابان أسستها كاهنة يابانية فى القرن التاسع عشر .
Terminus	ترمينوس ـ إله الجو والطقس عند البابليين ، وهو نفسه الإله حدد .
Tashub	تشوب ـ إله الجو والطقس عند البابليين ، وهو نفسه الإله حدد.
Theism	التأليه ـ القول بوجود إله مستقل تعتمد الأشياء فى وجودها عليه .
Themis	تيمس ـ إلهة النظام والعدالة والمشورة الطيبة ، ابنة أورانوس (السماء) وجيا (الأرض) .
Theocracy	الثيوقراطية – الحكم الدينى ، حكم الكهنة أو رجال الدين .
Theodicy	التيوديسا ـ من Theos إله و Dike عدالة فى اليونانى، التوفيق بين وجود إله خير لا يفعل الشر ، ووجود الشر فى العالم .

Theogony	أنساب الآلهة ـ تسلسل الآلهة كما رواه الشاعر اليونانى هزيود.
Theology	اللاهوت ـ العلم الذى يبحث فى الله : صفاته ، وعلاقته بالعالم ، علم الكلام علم الربوبية .
Theosphys	الثيوصوفية ـ فلسفة دينية صوفية ترى أن معرفة الله تتم عن طريق الكشف الصوفى أو التأمل الفلسفى ، تشدد على التجارب الصوفية السرية .
Theravada Budd-hism	بوذية ترافادا – « أو طريق الشيوخ » فرع كبير من البوذية ينتشر فى سرى لانكا ، وبورما ، وتايلند .. إلخ يردون أنفسهم إلى شيوخ أو كبار أو قدامى الرهبان فى البوذية.
Thoth	تحوت – إله مصرى فى الديانة المصرية القديمة يقال إنه مخترع الكتابة ، والنظام الاجتماعى ، وخالق اللغات، وممثل إله الشمس « رع » يرمز إليه بالطائر « ابى منجل » .
Timat	تعامة – أو تيمات (تنين البحر) الذى حاربه مردوخ فى أسطورة الخلق البابلية ، وشقه نصفين ، صنع منهما السماء والأرض .
Tien Tai	فرقة تيان تاى البوذية الصينية ـ استمدت اسمها من اسم جبل « تيان تاى » الذى كان مركزاً لتعاليمها فى جنوب شرقى الصين .
Tinia	تنيا ـ إله للصواعق والعواصف عند الأتروسكان ، اتحد بعد ذلك مع زيوس عند اليونان وجوبتر عند الرومان .

Tirthamkara — تيرثمكارا ـ صانعو المخاوض أو مرشدو الأرواح لعبور نهر التناسخ ـ وهم معلمو الجينية .

Titans — التيتان ـ وهم الجبابرة أو المردة فى الأساطير اليونانية ، وعددهم اثنا عشرة : ستة بنين ، وست بنات ، كانوا آلهة قدامى يتصفون بالوحشية ، أصغرهم كرونوس وأخته « ريا » والدا زيوس كبير الآلهة .

Totem — الطوطم – مشتقة من كلمة هندية الأصل تعنى علامة الدم بين الأخ وأخته ، ثم أطلقت فى الغالب على الحيوان الذى تنحدر منه العشيرة ، ويعتبر لحمه محرماً على أفرادها كما يحرم الزواج الداخلى .

Totemism — الطوطمية – نظام دينى عند الشعوب البدائية ولاسيما أهل استراليا وأفريقيا ، يجعل العشيرة منحدرة من نبات أو حيوان وهو الأغلب ، فيكون لحمه محرماً على أفرادها كما يحرم الزواج الداخلى .

Transmigration — تناسخ الأرواح ـ انتقال الروح بعد الوفاة إلى جسد آخر ، ثم ثالث ... إلخ فى الديانة الهندوسية .

Trishala — ترشالا ـ والدة مهافيرا مؤسس الجينية ، ثم أصبحت أما للأربعة وعشرين قديساً أو مخلصاً فى الجينية .

Triton — تريتون ـ نصف إله من آلهة البحر عند الإغريق ، له جسم رجل وذيل سمكة ، ابن إله البحر بوزيدون ، وزوجته أمفتريت Amphitrite ، يعيش مع والديه فى قصر من ذهب فى أعماق البحر .

Tsuki — إله القمر فى أساطير اليابان .

Tulsidas	شاعر هندوسى (١٥٤٣ - ١٦٢٣) كتب « البحيرة المقدسة وأعمال راما » أعظم إنجاز للأدب الهندوسى فى العصر الوسيط .
Tutankamun	توت عنخ آمون ـ حكم من ١٣٦١ إلى ١٣٥٢ ق. م ، فى عهده استعاد الدين التقليدى فى مصر القديمة مكانته ثانية بعد ثورة التوحيد التى قام بها فى تل العمارنة الملك إخناتون .
Tvashtri	تفاشترى ـ الإله الصانع البارع الذى يُعد الصواعق فى الديانة الهندوسية .
Tyche	تيكى (أوتيخى) ـ إلهة الحظ والصدفة فى أساطير اليونان .
Tyche Agathos	تيكى أجاثوس - الصدفة الطيبة ، زوجة الإله أجاثوس .
Tzu - Szu	فيلسوف صينى (٤٨٣ - ٤٠٢ ق. م) حفيد كونفوشيوس، مؤلف كتاب « عقيدة الوسط » .

- U -

Ubasku أوباسكو ـ الناسك البوذى فى اليابان .

Ujigami يوجى جامى ـ هيكل العشيرة أو الهيكل المحلى فى ديانة الشنتو اليابانية .

Ujiko أطفال العشيرة : مصطلح يطلق على أعضاء العشيرة فى ديانة الشنتو ، من حيث علاقتهم بالكامى الذى يقوم مقام الأب .

Uni يونى ـ إلهة قديمة للاتروسكان زوجة الإله تنيا ـ اتحدت بعد ذلك مع الإلهة يونو أو جونو Juno عند الرومان وهيرا عند اليونان .

Ushas أوشاس ـ إلهة الفجر فى الهندوسية ، وهى إيوس Eos عند اليونان .

Utnapishtim أوتنابشتيم ـ الملقب بالبعيد ، وهو الذى صنع السفينة وهرب بها من الطوفان فى أساطير بابل .

Utu أتو ـ إله الشمس عند السومريين .

- V -

Vach
فاش ـ كلمة سنسكريتية تعنى « الكلمة » ـ بواسطتها تم خلع الإله أندرا عن عرشه فى الهندوسية .

Vagitanus
فاجيتانوس ـ إلهة وظيفتها استخراج الصرخات الأولى للطفل عند ميلاده فى أساطير الرومان .

Vairagin
ناسك هندى يعيد إحدى صور الإله فشنو فى الهندوسية.

Vairo Cana
فايروكانا ـ كلمة سنسكريتية تعنى « المستنير » ـ لقب يطلق على بوذا الأكبر .

Vaisheshika
فيشيشكا : أحد المذاهب الست فى الهندوسية ، يذهب إلى أنه ليس فى العالم « إلا ذرات وفراغ » .

Vaishnaism
الفشنية : عبادة الإله فشنو ، إحدى الصور الرئيسية الثلاثة للهندوسية (إلى جانب الشيفية والشاكتية) .

Vaisya
طبقة الفيزا : الطبقة الثالثة فى ترتيب الطبقات المغلقة فى الهند وهى تُعنى بمسائل الحياة الضرورية : الزراعة ، التجارة الحرف .

Vajryana
عربة الماس : تسمى أيضا البوذية التنترية ، وهى فرقة تمثل تطوراً هاماً فى بوذية الهند والبلاد المجاورة .

Vallabha
فالا باها (١٤٧٩ ـ ١٥٣١) : فيلسوف هندوسى مؤسس فرقة تُعرف باسم « طريق النعمة الإلهية » .

Vamana
فمانا : القزم الذى تجسد فيه الإله فشنو (التجسيد الخامس) ليهزم الشيطان بالى فى الهندوسية .

Varaha	فراها : الخنزير البرى الذى تجسد فيه الإله فشنو (التجسيد الثالث)وقتل هيرانيكاشا وأنقذ الأرض .
Varna	الطبقة المغلقة فى الهند ـ والكلمة تعنى أصلاً اللون ـ الطبقات أربعة : الكهنة (أو البراهمة) خرجت من رأس الإله ، والمقاتلون (أو الكشاترية) خرجت من ذراعيه ، وطبقة التجار (أو الفيزا) خرجت من فخذيه ، أما طبقة الخدم (الشودرا) فقد خرجت من قدميه .
Varuna	فارونا : إله السماء المهّيمن فى الهندوسية ، وحافظ القانون الطبيعى والأخلاقى .
Vasubandhu	فازدباندو : (ازدهر فى القرن الرابع) فيلسوف بوذى هندى وعالم فى المنطق .
Vasudeva	من أقدم الحركات الدينية فى الهندوسية ـ جماعة دينية تعبد كرشنا .
Vayu	فايو : إله الريح فى الهندوسية .
Veda	الڤيدا : الكتب المقدسة فى الهندوسية ، كتبت بالسنسكريتية، وتضم أربعة أسفار (١) الريج ڤيدا (أنشودة لتمجيد الآلهة) (٢) السماڤيدا ترانيم لتقديم القرابين (٣) اليابور ڤيدا إضافات مرتبة حسب القرابين (٤) أثراڤيدا سفر الفقراء .
Vedanta	الڤيدانتا : أجزاء من الأوبنشاد ، تشمل ستة مذاهب تهدف إلى إزالة الألم بواسطة اليوجا ـ والمصطلح يعنى فى السنسكريتية « خاتمة الڤيدا » .

Vegetarianism
النباتيون : مذهب يعيش أصحابه من نساك الهنود على الخضروات والفواكه والحبوب ويحرمون اللحوم والأسماك والطيور ، بينهم اختلافات كبيرة .

Venus
فينوس : إلهة الحب والجمال والجنس عند الرومان ، هى نفسها أفروديت عند اليونان ، وهى عشتار ، أو إشتار فى أساطير البابليين والسومريين .

Verethra
فيرتيرا : إله هندوسى ، اسمه يعنى الغلاف أو الغطاء ، يقود مجموعة الآلهة المسماة بالديفاز .

Vertumnus
فيرتومنوس : إله قديم فى الديانة الرومانية ، ارتبط اسمه بتغيير السنة وتفتح الازهار ، ثم ارتبط فى النهاية بالإلهة بومونا Pomonaإلهة أشجار الفاكهة .

Vesta
فستا : إلهة المدفأة أو الموقد فى الديانة الرومانية القديمة ، وهى نفسها الإلهة هستيا عند اليونان ـ توجد عبادتها فى كل منزل .

Vestal Virgins
عذارى فستا : ستة من العذارى يعملن كاهنات للإلهة فستا يرتدين ثياباً بيضاء ، ويقسمن أن يبقين عذارى فى خدمة الإلهة ثلاثين سنة .

Victoria
فيكتوريا : إلهة الانتصار فى الديانة الرومانية ، وهى نفسها الإلهة نيكى عند اليونان ـ كان يعبدها الجيش بصفة خاصة .

Vijnana
فيجنانا ـ كلمة سنسكريتية : تعنى « المعرفة » ، مصطلح هام فى بوذية الهند .

Vijnana Vada	نظرية فلسفية فى الهندوسية تذهب إلى أن الواقع الحقيقى الذى يدركه الإنسان لا وجود له ، بل هو أقرب إلى الصور التى يدركها الراهب فى تأملاته .
Vinaya	ڤينايا : نظام سلوك الراهبات فى الدير فى البوذية .
Vinaya Pitaka	مجموعة الشرائع التى تنظم سلوك الراهبات فى الدير فى البوذية .
Vindidad	الونديداد : تعنى حرفياً « القانون المضاد للشياطين فى الزرادشتية » وهى تشبه سفر اللاويين فى العهد القديم، من حيث إنها تضع التعاليم التى يخضع لها رجال الكهنوت .
Vira	ڤيرا ـ كلمة سنسكريتية تعنى البطل ـ تصنيف الأشخاص تبعاً لكفاءتهم الروحية فى الهندوسية .
Vira Shaiva	الفيراشيفا : وهى نفسها فريق اللنجا (انظر المصطلح) .
Vishnu	الإله ڤشنو : أحد إلهين رئيسيين فى الديانة الهندوسية وتصوره الڤيدا على أنه قزم صغير عبر الكون بثلاث خطوات عملاقة (يشكل مع الإله شيڤا وزوجته الإلهة شاكتى الآلهة الرئيسية فى الهندوسية) .
Vishtaspa	ڤشتاسبا : الحاكم المحلى الذى كان تلميذاً لزرادشت .
Vishvakarman	ڤيشفاكارمن : مهندس الآلهة فى أساطير الهندوسية صانع المدن وإله الحرفيين ، وصانع الأسلحة والعربات الحربية.
Visundhi-magga	« الطريق إلى النقاء أو الطهارة » كتاب ألفه أحد حكماء البوذية فى القرن الخامس .

Vulcan — ڤولكان : إله النيران والبراكين واللهب ـ له صفات الإله هفاستوس عند اليونان ـ عبادته قديمة عند الرومان .

- Y -

Yajura-Veda — ياجوراڤيدا : الڤيدا الهوائية أى المنسوبة إلى الهواء ، وهى مجموعة من الترانيم المقدسة فى الهنوسية .

Yak — ياك ـ ثور : يستخدم الهندوس ذيله فى طقوس العبادة داخل المعبد .

Yaksha — ياكشا : مجموعة من أرواح الطبيعة عادة ما تكون ذات علاقة حسنة بالإنسان ـ تختبئ فى جذر الأشجار .

Yama — ياما : إله الموت عند بعض القبائل الآسيوية ، وتقول الڤيدا : إنه أول إنسان مات ، ففتح طريق الفناء أمام البشر ، وهو حارس منطقة الجنوب (منطقة الموت) .

Yama no Kami — آلهة الجبال فى الديانة الشعبية اليابانية .

Yamabushi — يامابوشى : تعنى حرفيا « الواحد الذى ينام فى الجبال » وهو إله كان يعمل مرشداً للحجاج الذين يقومون بزيارة الجبال المقدسة التى تسكنها آلهة الشنتو فى اليابان .

Yashts — اليشتا : سفر المديح عند الزرادشتين ـ إحدى وعشرون ترنيمة تتلى فى مديح الملائكة المشرفين على أيام الشهور .

Yasma — اليسنا : سفر العبادة أو التسابيح عند الزرادشتين .

Yazatas — اليـازات : الملائكة الذين خلقـهـم أهورا مـزدا فى الديانة الزرادشتية ليساعدوه فى حربه ضد أهرمان وأعوانه من الشياطين.

Yellow hat — فرقة بوذية فى التبت هى « نموذج الفضيلة » أطلق عليـها ابتداء من القرن السابع عشر اسم « أصحاب القبعة الصفراء » تشترط على الراهب أن يكون أعزب ـ وتحرِّم الخمر واللحوم . تسمية القبعة الصفراء أطلقها عليهم الغربيون لأنهم يضعون غطاء أصفر ، تمييزاً لهم عن الصينيين الذين يضعون غطاء أحمر .

Yoga — يوجا (كلمة سنسكريتية معناها « النير أو الاتحاد ») ، مدرسة هامة فى الفلسفة الهندوسية أثرت بقوة فى الفكر الهندى ، نصوصها الأساسية هى « سوترا اليوجا » جانبها العملى أهم من النظرى ، ضبط التنفس ، الجلوس فى وضع معين ، الامتناع عن الجنس ... إلخ .

Yogacara — ممارسة اتحاد اليوجا : مدرسة مثالية فى بوذية المهايانا هاجمت المدارس البوذية الأخرى .

Yokigurashi — يوكى حوراشى : أى الحياة الروحية المرحة التى تنتج من النظرية القائلة بأن الحياة وديعة من الله .

Yoni — يونا : رمز لعضو الجنس عند الأنثى (رمز للإلهة شاكتى زوجة الإله شيفا فى الهندوسية) وهذا الرمز مع « اللنجا » يعبران عن تلازم الجنسين إلى الأبد .

- Z -

Zaike Bukkyo زيكى بوكيو : بوذية رجل الشارع ، ثورة ضد المغالاة فى الكهنوتية ، تفرغت داخل مدرسة نشرين فى اليابان .

Zen Buddhism بوذية زن : أى بوذية التأمل ، مدرسة هامة فى اليابان تذهب إلى أنها تمثل جوهر البوذية ، وهو الوصول إلى مرحلة الاستنارة التى بلغها بوذا الأكبر . كلمة يابانية تعنى التأمل وهى نفسها كلمة الصينية .

Zeus زيوس : كبير الآلهة فى أساطير اليونان (جوبتر عند الرومان) إله السماء والجو ، لايخضع إلا لربات القدر ـ كان أبوه كرونوس يبتلع أبناءه ، لكن زوجته « ريا » أنقذت زيوس الذى قاد الآلهة والناس ـ كانت غرامياته كثيرة .

Ziggurat زيجورة أو زقورة أو زكورة : تعنى المكان المرتفع ـ معبد هرمى على شكل مصاطب فى بابل .

Zoroaster زرادشت : نبى الإيرانيين القدامى ، قال : إنه تلقى وحياً من أهورامزدا إله الخير ليبشر بالحق .

Zoroastianism الزرادشتية : الديانة التى أسسها زرادشت فى إيران فى القرن السادس ق . م . ذات ملامح ثنائية ـ يرى البعض أنها ديانة توحيد ، وأن « أهرمان » ليس إلهاً ، وإنما هو الشيطان إبليس.

Zuran زرفان : إله الزمان اللامتناهى عند الزرفانية ، وهو أيضا إله القدر الذى يحدد مصير البشر .

الزرڤانية : صورة معدلة من الزرادشتية ، ظهرت فى فارس خلال الفترة الساسانية (من القرن الثالث إلى السابع الميلادى) عندهم أن الزمان وحده هو اللامتناهى الأزلى غير المخلوق وهو مصدر كل شئ . Zurvanism

* * *

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
* * إهداء	٥
* * مقدمة الطبعة الثانية	٧
* * مقدمة الطبعة الأولى	١١
* الفصل الأول : الديانات القبلية فى آسيا	١٥
١ ـ آلهة بدو الغابات الهندية	١٧
٢ ـ إله الرعد والمطر	١٩
٣ ـ ديانة القبائل الزراعية	٢٠
٤ ـ حرّاس العشيرة	٢١
٥ ـ الكهنة والمتنبؤن	٢٢
٦ ـ جحافل آلهة الإيفوجاو	٢٣
٧ ـ خمس مناطق من الكون	٢٤
٨ ـ شعائر القربان	٢٦
٩ ـ نظرة قبائل الرعاة فى وسط آسيا إلى العالم	٢٧
١٠ ـ الشامان	٢٨
١١ ـ الروح المتحررة من الجسد	٢٩
١٢ ـ النموذج والتنوع	٣٠
* الفصل الثانى : بلاد ما بين النهرين	٣١
١ ـ الحاكم الأسمي	٣٥
٢ ـ النجوم والكواكب	٣٨
٣ ـ ركوب العاصفة	٤٠
٤ ـ حكايات وقصص	٤٢
٥ ـ العصر الذهبى	٤٤
٦ ـ الهرب من الطوفان	٤٥
٧ ـ الموت هو قدر الإنسان	٤٦

٨ ـ الديانة الشخصية ٤٩
٩ ـ العبادة ٥١
١٠ ـ الكاهن والملك ٥٢
١١ ـ الأعياد ٥٣
١٢ ـ الخطيئة والعذاب ٥٥
١٣ ـ التنبؤ بالغيب ٥٦
* **الفصل الثالث** : مصر القديمة ٥٩
١ ـ الكتابة ٦٢
٢ ـ التاريخ ٦٣
٣ ـ الآلهة المحلية ٦٥
٤ ـ أساطير الخلق ٦٦
٥ ـ عقيدة منفيس ٦٨
٦ ـ آلهة النيل والشمس ٦٩
٧ ـ مساعدو الموتى ٧١
٨ ـ عبادة الحيوان ٧٢
٩ ـ الثالوثات ٧٣
١٠ ـ الطقوس الدينية اليومية ٧٤
١١ ـ الطقوس الجنائزية ٧٥
١٢ ـ طبقة الكهنة المغلقة ٧٨
١٣ ـ مفاهيم أخلاقية ٧٨
١٤ـ الحياة بعد الموت ٨٠
* **الفصل الرابع** : اليونان القديمة ٨١
١ ـ الديانة المينوية ٨٤
٢ ـ زيوس ٨٦
٣ ـ مجمع الآلهة في الأولمب ٨٧
٤ ـ قوة الطبيعة ٩٠

٥ ـ التطهر والقداسة ٩٢
٦ ـ الأسرار ٩٤
٧ ـ النظر الفلسفى ٩٦
٨ ـ العرافات ٩٩
٩ ـ الخرافات ١٠١
١٠ ـ الديانة الهلنستية ١٠٣
١١ ـ تيكى ١٠٤
١٢ ـ الفلسفة الهلنستية ١٠٧
* **الفصل الخامس** : روما القديمة ١٠٩
١ ـ الديانة الرومانية القديمة (الأرواح أو القوى الروحية)........ ١١٣
٢ ـ ظهور الآلهة ١١٥
٣ ـ السلم الإلهى ١١٩
٤ ـ الدين السياسى ١٢٠
٥ ـ الإمبراطور أغسطس ١٢٢
٦ ـ عبادة الإمبراطور ١٢٣
٧ ـ مقاطعات الإمبراطورية ١٢٦
٨ ـ السحر والخرافة ١٢٧
٩ ـ الحياة بعد الموت ١٢٩
١٠ ـ الشمس ١٣١
١١ ـ الديانة الشخصية ١٣٢
* **الفصل السادس** : إيران القديمة ١٣٥
١ ـ الزرادشتية ١٣٧
٢ ـ المصادر ١٣٩
٣ ـ تصوّر الإله ١٤٠
٤ ـ فهم العالم ١٤١
٥ ـ الرجال والنساء فى العالم ١٤٢

٦ ـ التعبير الشكلى للإيمان الزرادشتى ١٤٣
٧ ـ غاية التاريخ ١٤٤
٨ ـ الحركات الدينية الأخرى فى إيران ١٤٥
أ ـ الزرقانية ١٤٥
ب ـ الديانة المترية ١٤٦
جـ ـ الماندیون ١٤٨
د ـ المانوية ١٥٠
٩ ـ تاريخ موجز للديانة الإيرانية ١٥١
١٠ ـ أثر الديانة الزرادشتية ١٥٤
* **الفصل السابع** : الهندوسية ١٥٧
١ ـ ديانة الغزاة الآريين المحلية ١٦٠
٢ ـ ريج ـ ڤيدا ١٦١
٣ ـ إشعال النار المقدسة ١٦٣
٤ ـ رابطة مع الأسلاف ١٦٤
٥ ـ الترسيم ١٦٥
٦ ـ قوانين الزواج ١٦٧
٧ ـ قانون الأسرة الهندوسية ١٦٨
٨ ـ ديانة الڤيدا والتضحية ١٦٩
٩ ـ ڤارونا ومترا ١٧١
١٠ ـ الأضاحى الملكية ١٧٢
١١ ـ الآلهة تشارك فى الوليمة ١٧٣
١٢ ـ المرتعدون ١٧٤
١٣ ـ خلع أندرا ١٧٥
١٤ ـ ديانات الغنوص والانعتاق ١٧٦
١٥ ـ الآلهة لابد أن تموت ١٧٧
١٦ ـ الناسك المتجول ١٧٨

١٧ ـ خطط زمانية كثيرة ١٨٠

١٨ ـ أصول الهندوسية ١٨١

١٩ ـ هندوسية الريف ١٨٣

٢٠ ـ آلهة وادى السند : الذكور ، والإناث........................ ١٨٤

٢١ ـ الفلسفة والميثولوجيا ، والأخلاق ١٨٥

٢٢ ـ الشعر الهندوسى .. والأسطورة ١٨٧

٢٣ ـ الفرق الهندوسية ١٨٨

٢٤ ـ شيفا ١٨٩

٢٥ ـ طرق الخلاص ١٩١

٢٦ ـ شاكتى والتنترية ١٩٣

٢٧ ـ مراحل الغبطة القصوى ١٩٤

٢٨ ـ فيشنو ١٩٦

٢٩ ـ كرشنا ١٩٧

٣٠ ـ ورطة أرجونا ١٩٩

٣١ ـ الحركة الفشتاوية ٢٠٠

٣٢ ـ آلهة أخرى ٢٠١

٣٣ ـ هندوسية العصر الوسيط ٢٠٢

٣٤ ـ الاتجاه نحو الوحدانية ٢٠٣

٣٥ ـ مراهقة كرشنا ٢٠٥

٣٦ ـ الاتحاد بالله ٢٠٦

٣٧ ـ القومية الهندوسية ٢٠٨

٣٨ ـ الهندوسية فى العصور الحديثة ٢٠٨

٣٩ ـ رام موهون روى ٢٠٩

٤٠ ـ أريا سماج ٢١١

٤١ ـ لابد من تعاون الهند والغرب ٢١٢

٤٢ ـ الفوضى .. والاغتيالات ٢١٤

٤٣ ـ مهاتما غاندى ٢١٥
٤٤ ـ طيف الهندوسية ٢١٧
* الفصل الثامن : الچينية ٢١٩
١ ـ حياه مهافيرا ٢٢٢
٢ ـ طريق اللاعنف ٢٢٤
٣ ـ انشقاق عظيم ٢٢٥
٤ ـ الفرق تتشعب ٢٢٥
٥ ـ طبيعة الواقع ٢٢٦
٦ ـ نظرية الترجيح ٢٢٧
٧ ـ قانون الكرما ٢٢٨
٨ ـ طريق الخلاص ٢٣٠
٩ ـ توقيف الانفعالات الطاغية ٢٣٠
١٠ ـ معابد بغير آلهة ٢٣١
١١ ـ ابتهالات ٢٣١
١٢ ـ السلوك السليم ٢٣١
١٣ ـ هى حياة ؛ فهى مقدسة ٢٣٢
١٤ ـ التنازل الكامل أو التخلى الشامل ٢٣٣
١٥ ـ ما حققته الچينية ٢٣٤
* الفصل التاسع : مذهب السيخ ٢٣٧
١ ـ حياة المعلم ناناك ٢٤٠
٢ ـ مقدمات فكر المعلم ناناك ٢٤٠
٣ ـ تعاليم المعلم ناناك ٢٤١
٤ ـ طريق الخلاص ٢٤٢
٥ ـ نظام العبادات ٢٤٣
٦ ـ النمو فى اتجاه الله ٢٤٤
٧ ـ أول خلفاء المعلم ناناك ٢٤٤

٨ ـ التورط السياسى والعسكرى ٢٤٦
٩ ـ الخلسا ٢٤٦
١٠ ـ كتب السيخ المقدسة ٢٤٨
١١ ـ عبادة السيخ ٢٥٠
١٢ ـ السيخ اليوم ٢٥١
* **الفصل العاشر** : البوذية ٢٥٣
١ ـ حياة جوتاما ٢٥٦
٢ ـ القادة الدينيوى فى الهند فى القرن السادس ق . م ٢٥٧
٣ ـ الصحوة ٢٥٧
٤ ـ بداية الجماعة البوذية ٢٥٩
٥ ـ تطور النظام ٢٦٠
٦ ـ استقرار البوذية فى الهند ٢٦١
٧ ـ وفاة بوذا ٢٦٢
٨ ـ مذهب بوذا ٢٦٢
٩ ـ الحقائق الأربعة المقدسة ٢٦٣
١٠ ـ الطريق البوذى ٢٦٤
أ ـ الأخلاق ٢٦٤
ب ـ التأمل ٢٦٥
جـ ـ الحكمة ٢٦٦
١١ ـ التدفق المستمر ٢٦٧
١٢ ـ جماعة بوذا ٢٦٩
١٣ ـ انتهاكات ينبغى تجنبها ٢٧٠
١٤ ـ الواجبات الاجتماعية لعامة الشعب ٢٧١
١٥ ـ انتشار البوذية فى الهند ٢٧١
١٦ ـ جوهر العقيدة أو أبهى داهما ٢٧٢
١٧ ـ التطورات البوذية فى عهد أشوكا ٢٧٣

١٨ ـ النشاط التبشيرى ٢٧٤
١٩ ـ نمو بوذية المهايانا فى الهند ٢٧٥
٢٠ ـ مفهوم البوذيستفا ٢٧٦
٢١ ـ تطور فلسفة المهايانا ٢٧٧
٢٢ ـ رد فعل ٢٧٨
٢٣ ـ انتشار البوذية فى الصين واليابان ٢٧٩
٢٤ ـ تدهور البوذية فى الهند ٢٨٠
٢٥ ـ ازدهار بضعة مراكز ٢٨١
٢٦ ـ البوذية فى الهند منذ عام ١٢٠٠ .... ٢٨٢
٢٧ ـ البوذية فى سرى لانكا ٢٨٤
أ ـ خصومة حادة ٢٨٥
ب ـ وصول البرتغاليين إلى سرى لانكا ٢٨٧
٢٨ ـ البوذية فى بورما ٢٨٧
أ ـ أديرة كثيرة ٢٨٨
ب ـ الإنجليز يحكمون بورما ٢٨٩
٢٩ ـ تايلاند ٢٩٠
أ ـ عاصمة جديدة ٢٩٢
ب ـ الأثر الباقى للبوذية ٢٩٣
٣٠ ـ كامبوديا . ولاوس . وفيتنام ٢٩٤
٣١ ـ أندونيسيا ٢٩٥
٣٢ ـ التبت ٢٩٦
٣٣ ـ خاتمة ٣٠٠
* **الفصل الحادى عشر : الصين** ٣٠٣
١ ـ ثلاث ديانات رئيسية ٣٠٦
٢ ـ عالم العرافة أو التنبؤ بالغيب ٣٠٧
٣ ـ الديانات القديمة ٣٠٨

٤ ـ دور الملك ٣٠٩
٥ ـ العبادة الملكية ٣١٠
٦ ـ الديانة الأرستقراطية ٣١٤
٧ ـ شامانية الجنوب ٣١٥
٨ ـ عصر الفلاسفة ٣١٧
٩ ـ كونفوشيوس ٣٢٠
١٠ ـ نظام أخلاقى واجتماعى ٣٢٠
١١ ـ المختارات ٣٢١
١٢ ـ الفضيلة ٣٢٢
١٣ ـ ولاء الأبناء ٣٢٣
١٤ ـ منشيوس ٣٢٤
١٥ ـ أفكار عن تاريخ ٣٢٥
١٦ ـ الإنسانية والعدالة ٣٢٦
١٧ ـ الموجودات البشرية ومصيرها ٣٢٧
١٨ ـ هسون ـ تسو ٣٢٨
١٩ ـ العقل البشرى ـ مركز الكون ٣٢٩
٢٠ ـ النفعيون واللذيون ٣٣٠
٢١ ـ التاوية الفلسفية ٣٣٣
٢٢ ـ محور الكتابات المقدسة عن التاويين ٣٣٤
٢٣ ـ مدارس أخرى ٣٣٦
٢٤ ـ مدرسة القانون (الشرائع) ٣٣٨
٢٥ ـ الدين فى العصر السابق للإمبراطورية ٣٣٨
٢٦ ـ الدين فى عهد أسرة شن وأسرة هان ٣٣٩
٢٧ ـ انتصار الكونفوشية ٣٤٠
٢٨ ـ الحاجة إلى آلهة مشخصة ٣٤٢
٢٩ ـ السماء الصفراء ٣٤٣

٣٠ ـ الطقوس والخدمات الدينية ٣٤٤
٣١ ـ تجنب الموت ٣٤٥
٣٢ ـ الجماعة التاوية ٣٤٦
٣٣ ـ مقدم البوذية ٣٤٧
٣٤ ـ عقيدة متناقضة ٣٤٨
٣٥ ـ عصر الإيمان ٣٤٩
٣٦ ـ الكونفوشية فى عصر الإيمان ٣٤٩
٣٧ ـ البوذية فى عصر الإيمان ٣٥٠
٣٨ ـ ترجمات شتى ٣٥١
٣٩ ـ الرهبان وجمهور المؤمنين ٣٥٣
٤٠ ـ مدرسة تشن ٣٥٣
٤١ ـ مدرسة الأرض الطاهرة ٣٥٤
٤٢ ـ مدرسة « تيان تاى » و « شن ين » ٣٥٦
٤٣ ـ التاوية فى عصر الإيمان ٣٥٨
٤٤ ـ الكونفوشية الجديدة ٣٥٩
٤٥ ـ الديانات الصغرى ٣٦١
٤٦ ـ الصين تحت السيطرة الشيوعية ٣٦٢
٤٧ ـ التسامح (بقلم المحرر) ٣٦٣
* **الفصل الثانى عشر** : اليابان ٣٦٥
١ ـ تفاعل الأفكار البوذية والشنتوية ٣٦٩
٢ ـ وضع الشنتو ٣٧٠
٣ ـ معنى الـ كامى ٣٧١
٤ ـ تصورات الإلهى ٣٧٢
٥ ـ طقوس الشنتو ٣٧٣
٦ ـ هياكل خاصة ٣٧٤
٧ ـ السلوك المستقيم ٣٧٦

٨ ـ العبادة فى المنزل	٣٧٧
٩ ـ رموز الشنتو	٣٧٨
١٠ ـ أعياد الهيكل	٣٧٨
١١ ـ بدايات البوذية فى اليابان	٣٧٨
١٢ ـ البوذية الشعبية	٣٨٠
١٣ ـ رجال مقدسون	٣٨١
١٤ ـ تأسيس فرق التنداى والشنجون	٣٨٢
١٥ ـ السر فى قلب الكون	٣٨٤
١٦ ـ بوذية الأرض الطاهرة	٣٨٥
١٧ ـ بوذية زن	٣٨٧
١٨ ـ بوذية نشرين	٣٨٩
١٩ ـ العبادة فى المعبد	٣٩١
٢٠ ـ ديانات جديدة : خلفيتها	٣٩٣
٢١ ـ طوائف الشنتو	٣٩٥
٢٢ ـ ديانة الحكمة السماوية	٣٩٦
٢٣ ـ ديانة المعدن النقى	٣٩٨
٢٤ ـ جماعة أموتو للحركات الدينية	٣٩٩
٢٥ ـ القوة فى لؤلؤة	٤٠٠
٢٦ ـ بيت النماء	٤٠١
٢٧ ـ حركات نشرين	٤٠٢
٢٨ ـ نمو رائع	٤٠٤
٢٩ ـ الحقيقة المطلقة	٤٠٥
٣٠ ـ حركات جديدة أخرى	٤٠٥
٣١ ـ الإنسان يعكس الإله	٤٠٦
٣٢ ـ إحصاءات دينية	٤٠٧
* معجم بالمصطلحات	٤٠٩
* الفهرس	٤٩٩

هذا الكتاب

يعالج هذا الكتاب المعتقدات الدينية لدى شعوب العالم : من أقدم العصور إلى العصر الحاضر . والفكرة الرئيسية التى يؤكدها أنه لا توجد جماعة بشرية - مهما تكن بدائية - ليس لديها أفكار عن موجودات تعلو على الطبيعة ، يعتمد الإنسان فى وجوده عليها .

فإذا كانت الديانة البدائية تمثل المعتقدات البسيطة - كمّا هى الحال فى ديانة القبيلة وعند قبائل الصيد وجامعى الطعام - فإن الكتاب يتناول الحضارات المبكرة فى الشرق الأدنى القديم ، حيث أصبح الدين أكثر تنظيماً ، ثم فى الحضارات : المصرية ، واليونانية ، والرومانية ، حيث تظهر الطقوس المعقدة : طبقة الكهنة ، ونظام الدفن ، كما تظهر الأفكار الأخلاقية المختلفة .

كذلك يعرض الكتاب لديانات الهند : الهندوسية ، والسيخ ، والبوذية محللاً أفكارها الأساسية ، عارضاً لتطورها وانتشارها فى آسيا (على نحو ما حدث للبوذية فى الصين واليابان) ومسايراً هذا التطور حتى العصر الحاضر .

وهو يذكّرنا بالموسوعات الدينية فى تراثنا : « الملل والنحل » للشهرستانى ، و « الفِصَل » لابن حزم ، و « تحقيق ما للهند من مقولة ... » للبيرونى ، وغيرها من أمهات الكتب التى عالجت معتقدات الشعوب الدينية .

الناشر

مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١
MADBOULI BOOKSHOP *6 Talat Harb SQ. Tel: 756421*